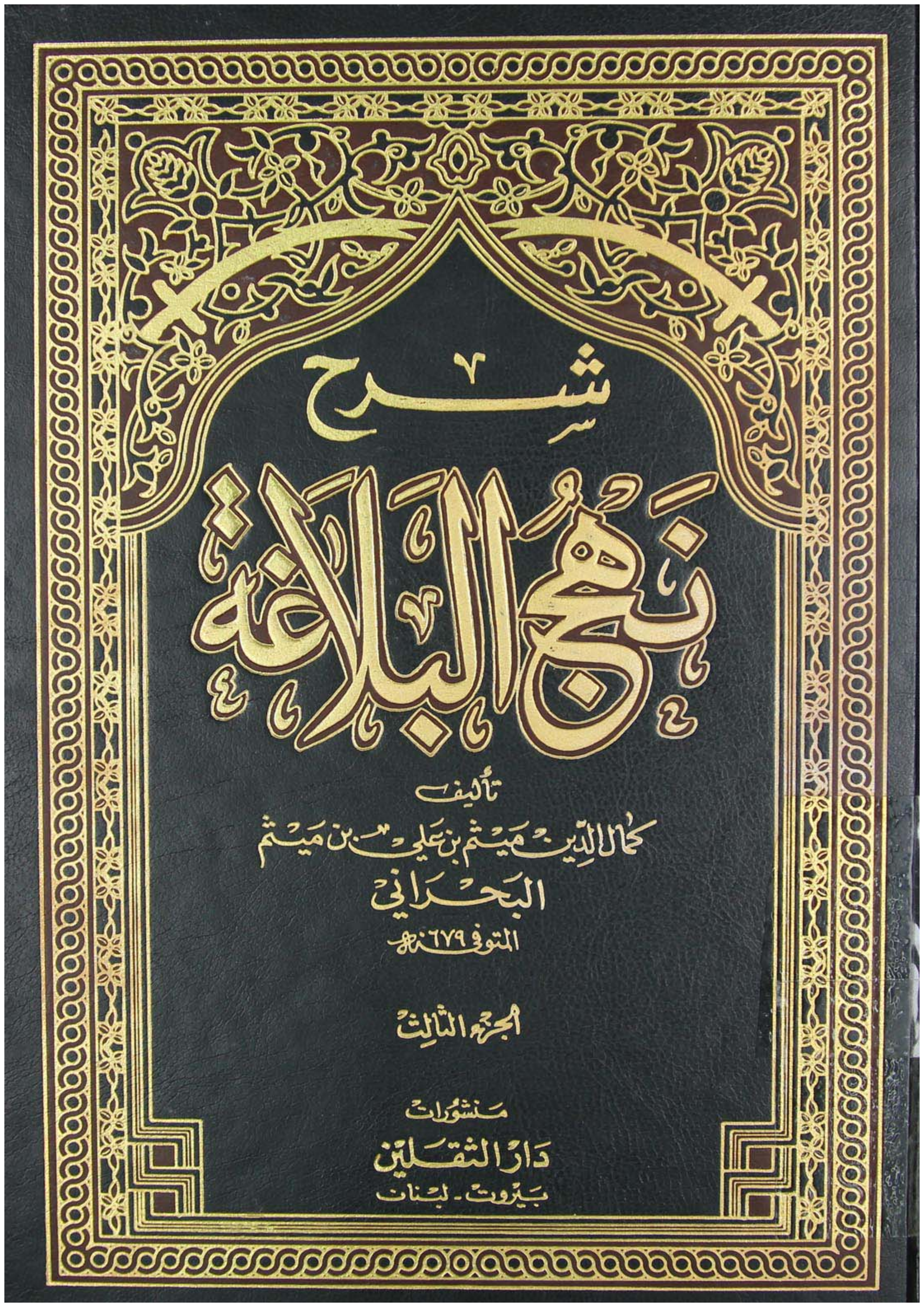
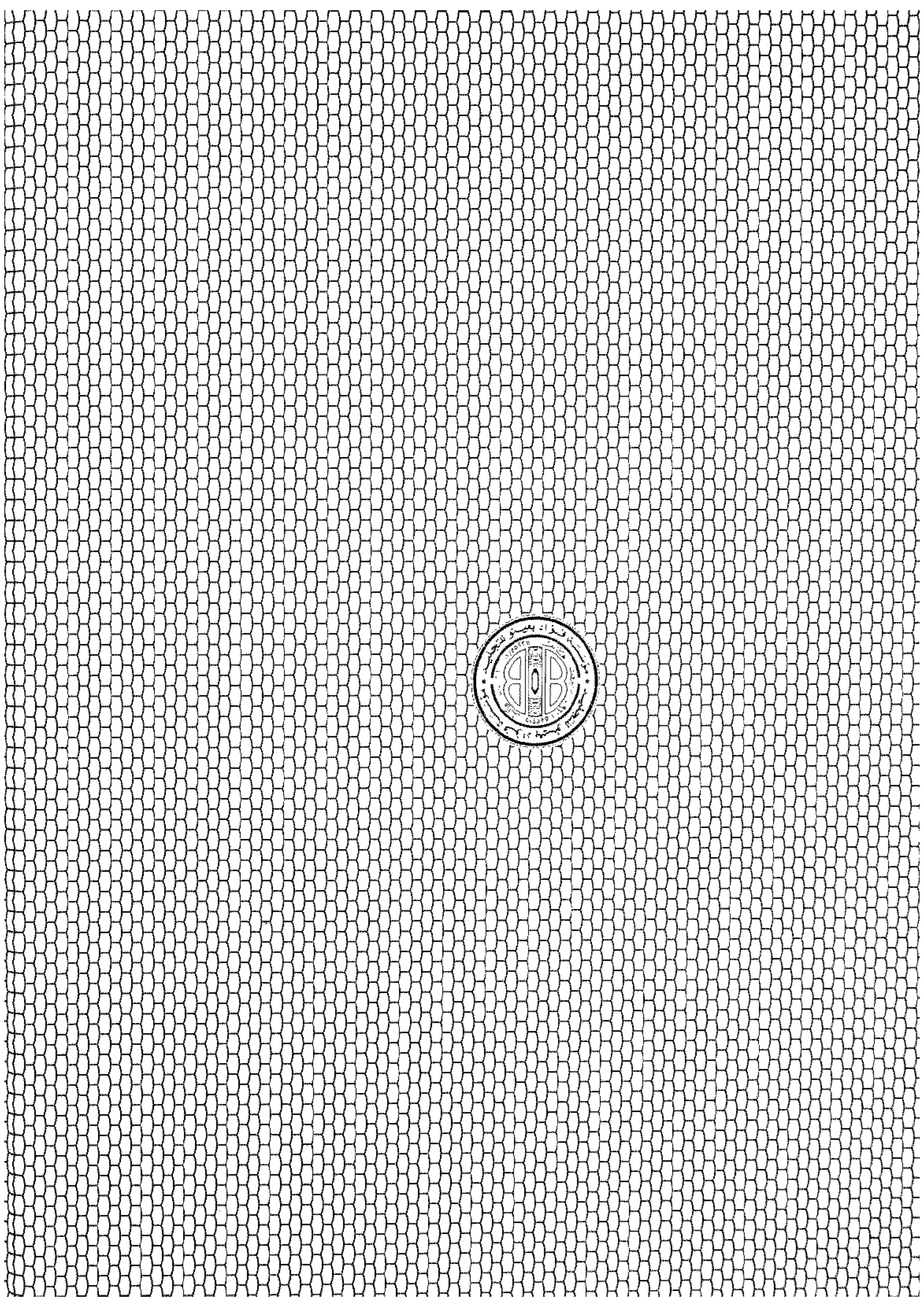
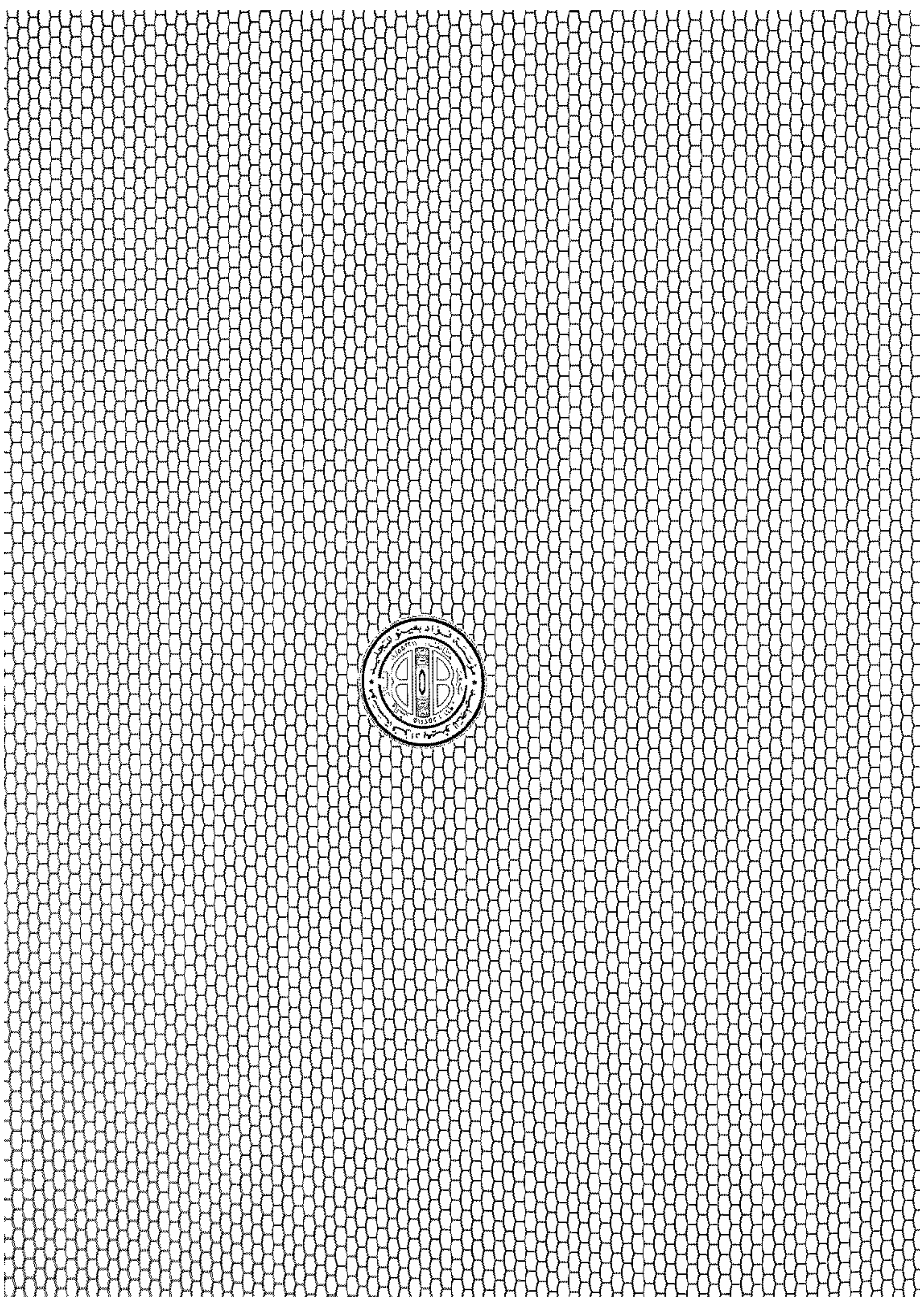

شرح
نهج البلاغة
تأليف
كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم
البحراني
المتوفى ٦٧٩ هـ
الجزء الثالث
منشورات
دار الثقلين
بيروت - لبنان







شرح

نهج البلاغة

تأليف

كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم

البحراني

المتوفى ٦٧٩ هـ

الجزء الثالث



دار الثقلين
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م



دار الثقلين للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان - ص . ب ٢٥/١٧٩ تلفاكس ٢٧١٦٣٠
DAR AL THAKALAIN Printing ,Publishing andDistribution BEIRUT-LEBANON P.O. BOX:179/25 -Telefax :271630

بســـم الله الرحمن الرحيم

٩٦ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا كَانَ ، وَنَسْتَعِينُهُ مِنْ أَمْرِنَا عَلَى مَا يَكُونُ ، وَنَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الأَدْيَانِ ، كَمَا نَسْأَلُهُ الْمُعَافَاةَ فِي الأَبْدَانِ .

عِبَادَ الله : أُوصِيكُمْ بِالرَّفْضِ لِهذِهِ الدُّنْيَا التَّارِكَةِ لَكُمْ ، وَإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا وَالْمُبْلِيَةِ لأَجْسَامِكُمْ ، وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ تَجْدِيدَهَا ؛ فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهَا كَسَفْرٍ سَلَكُوا سَبِيلاً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ ، وَأَمُّوا عَلَماً ، فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوهُ ، وَكَمْ عَسَى الْمُجْرِي إلى الْغَايَةِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْهَا . حَتَّى يَبْلُغَهَا ، وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَقَاءُ مَنْ لَهُ يَوْمٌ لاَ يَعْدُوهُ ؟ وَطَالِبٌ حَثِيثٌ يَحْدُوهُ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يُفَارِقَهَا ؟ فَلاَ تَنَافَسُوا فِي عِزِّ الدُّنْيَا وَفَخْرِهَا ، وَلاَ تَعْجَبُوا بِزِينَتِهَا وَنَعِيمِهَا ، وَلاَ تَجْزَعُوا مِنْ ضَرَّائِهَا وَبُؤْسِهَا ، فَإِنَّ عِزَّهَا وَفَخْرَهَا إلى انْقِطَاعٍ ، وَإِنَّ زِينَتَها وَنَعِيمَهَا إلى زَوَالٍ وَضرَّاءَها وَبُؤْسَهَا إلى نَفَادٍ ، وَكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إلى انْتِهَاءٍ ، وَكُلُّ حَيٍّ فِيهَا إلى فَنَاءٍ ، أَوَ لَيْسَ لَكُمْ فِي آثَارِ الأَوَّلِينَ مُزْدَجَرٌ ، وَفِي آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ تَبْصِرَةٌ وَمُعْتَبَرٌ ، إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ؟ أَوَ لَمْ تَرَوْا إلى الْمَاضِينَ مِنْكُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ؟ وَإلى الْخَلَفِ الْبَاقِينَ لاَ يَبْقَوْنَ ؟ أَوَ لَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُصْبِحُونَ وَيُمْسُونَ عَلَى أَحْوَالٍ شَتَّى : فَمَيِّتٌ يُبْكَى ، وَآخَرُ يُعَزَّى ، وَصَرِيعٌ مُبْتَلىً ، وَعَائِدٌ يَعُودُ ، وَآخَرُ بِنَفْسِهِ يَجُود ، وَطَالِبٌ لِلدُّنْيَا وَالْمَوتُ يَطْلُبُهُ ، وَغَافِلٌ وَلَيْس بِمَغْفُولٍ عَنْهُ ؟؟!! وَعَلَى أَثَرِ الْمَاضِي مَا يَمْضِي الْبَاقِي.

أَلاَ فَاذْكُرُوا هَادِمَ اللَّذَّاتِ ، وَمُنَغِّصَ الشَّهَوَاتِ ، وَقَاطِعَ الأُمْنِيَّاتِ ، عِنْدَ

الْمُسَاوَرَةِ لِلأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ ، وَٱسْتَعِينُوا اللهَ عَلَى أَدَاءِ وَاجِبِ حَقِّهِ ، وَمَا لاَ يُحْصىٰ مِنْ أَعْدَادِ نِعَمِهِ وَإِحْسَانِهِ .

أقول : الرفض : الترك . والسفر : المسافرون . وأمّوا : قصدوا . ويعدوه : يتعدّاه . ويحدوه : يسوقه . والمساورة : المواثبة .

فقوله : نحمده . إلى قوله : في الأبدان .

خصّص الحمد بما كان لأن الشكر على النعمة مترتب على وقوعها . والإستعانة على ما يكون لأن طلب العون على أمر هو بصدد أن يفعل . ثم سأل العافية في الأديان كما سألها في الأبدان لأنَّ لها سقماً هو في الحقيقة أشدّ ، وقيل لأعرابي : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي . فقيل : ما تشتهي ؟ قال : الجنة . فقيل : أفلا ندعو لك طبيباً ؟ فقال : الطبيب أمرضني ، وسمعت عصرة (عنترة خ) العابدة البصرية رجلاً يقول : ما أشد العمى على من كان بصيراً فقالت : يا عبدالله غفلت عن مرض الذنوب واهتممت بمرض الأجساد ، وعمى القلب عن الله أشدّ . والمعافاة فيها بإمداد العناية الإلهية ببقائها سليمة وبتداركها للمذنبين بجذبهم إلى التوبة . ثمَّ أردف ذلك بالرأي الصالح والوصية الناصحة برفض الدنيا ، ونفّر عنها بذكر معائب :

أحدها : تركها لهم على كل حال وإن لم يحبّوا تركها ، ومن أكبر المصالح ترك محبوب لا بدّ من مفارقته تركاً باستدراج النفس واستغفالها كي لا يقدحها مفارقته دفعةً مع تمكن محبّته عن جوهرها فيبقى كمن نقل من معشوقه إلى موضع ظلماني شديد الظلمة .

الثاني : كونها مبلية لأجسامهم وإن أحبّوا تجديدها وإبلاؤها بالأمراض والهرم ، ومن شأن المؤذي أن يجتنب لا أن يحب إصلاحه . ثم أردف ذلك بتمثيلهم في الكون بها فمثّلهم بالسفر ومثلها بسبيل هم سالكوه ، ومن سلك سبيلاً فكأنهم قطعوه فالمشبّه هم باعتبار سرعة سيرهم وقرب الآخرة منهم وقطع منازل الأعمار ، والمشبّه به قاطع ذلك السبيل : أي من سلك سبيلاً أشبه في سرعة سيره من قطعه ثم لما كان لا بدّ لكل طريق سلك من غاية تقصد فمن سلك سبيلاً فكأنّهم بلغوا تلك الغاية : أي أشبهوا في قرب

وصولها من بلغها وهو تخويف بالموت وما بعده، وتحقير لمدة البقاء في الدنيا والمقام فيها ، وأكّد ذلك بقوله : وما عسى المجري إلى الغاية أن يجري إليها حتى يبلغها : أي إجراؤه إليها بسير سريع ، وفي بعض النسخ : وكم عسى ، والتقدير وكم يرجو الذي يجري إلى غاية من إجرائه إليها حتى يبلغها ، وهو استفهام في معنى التحقير لما يرجوه من مدة الجري ، وهي مدة الحياة الدنيا ، ومفعول المجرى محذوف والتقدير المجري مركوبه .

ولما لم يكن الغرض إلّا ذكر الإجراء لا جرم حذف المفعول . وقد يجيىء لازماً ، وكذلك قوله : وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه . إلى قوله : أي وما يرجى ويؤمل أن يكون من ذلك البقاء، وكان هنا تامّة وهو في الموضعين استفهام على سبيل التحقير لما يرجى من البقاء في الدنيا والإنكار على المؤمل الراجي له ، وعنى بالطالب الحثيث الموت، وأسند إليه الطلب مجازاً واستعار له لفظ الحدو ، وقد علمت وجه هذه الإستعارة ، وكنّى بذلك الّحد وعما يتوهم من سوق أسباب الموت للبدن إليه .

وقوله : ولا تنافسوا . إلى قوله : إلى فناء .

نهى عن اعتبار شيء من أحوالها : خيرها وشرّها . فمن خيرها عزّها وفخرها وزينتها ونعيمها ، ونهى عن المنافسة فيه والإعجاب به ، وأمّا شرها فضراؤها وشدائدها ، ونهى عن الجزع منها وعلّل وجوب الإنتهاء عمّا نهى عنه بانقطاعه وزواله . وما كان من شأنه الزوال والانقطاع فمن الواجب أن لا يتنافس فيه ولا يعجب به وإن عدّ نافعاً ، وأن لا يجزع من وجوده وإن عدّ ضاراً .

وقوله : أوليس لكم في آثار الأوّلين . إلى قوله : لا يبقون .

تذكرة لهم بآثار السابقين لهم والماضين من آبائهم على سبيل استفهامهم عن حصول العبرة لهم بهم استفهام إنكار عليهم أن لا يستفيدوا من ذلك عبرة على تقدير أنّهم عقلاء كما يزعمون ذلك ثم تنبيه لهم على وجه الاعتبار والاتعاظ وهو عدم رجوع الماضي منهم وعدم بقاء الباقي فإنّ ذلك محل العبرة ثم تنبيه لهم على ما يرون من أحوال أهل الدنيا المختلفة ليستدلوا على عدم بقائها باختلاف أحوالها وعلى أنها لا تصلح قراراً فأهلها

بين ميّت يبكى ، وآخر يعزّى ، وآخر صريع مبتلى بالأمراض والأسقام ، وآخر يعوده مشغول الخاطر به ، وآخر في المعاوقة والإحتضار ، والسالم من تلك الأمور طالب للدنيا والموت من ورائه طالب له غافل عما يراد به وليس الله بغافل عنه ثم لا بدّ له أن يمضي على أثر من مضى وإن طال بقاؤه، وما في ما يمضي مصدريّة ، وإنما قدّم الميت في أقسام أهل الدنيا لأن ذكره أشد موعظة ، واستعار لفظ الجود للمحتضر ، ووجه المشابهة أنه يسمح بنفسه ويسلّمها كما يسلم الجواد ما يعطيه من مال ثم أمرهم بذكر الموت ووصفه بلوازمه المنفرة عنه. وهي كونه: هادماً للذات الدنيويّة ، ومنغّصاً لشهواتها وقاطعاً للأمنيّات فيها ، وعيّن لهم وقت ذكره وهو عند وثباتهم إلى الأعمال القبيحة ليكون ذكره زاجراً لهم عنها ثم بالرغبة إلى الله في طلب معونته بجواذب عنايته وجميل لطفه على أداء واجب حقوقه التي كلّفنا القيام بها بالمواظبة عليها وأداء واجب ما لا يحصى من نعمة. بدوام شكرها والاعتراف بها ملاحظين لجلال كبريائه باعتبار كل جزئي منها . وبالله التوفيق .

٩٧ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

الْحَمْدُ لله النَّاشِرِ فِي الْخَلْقِ فَضْلَهُ ، والْبَاسِطِ فِيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ . نَحْمَدُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى رِعَايَةِ حُقُوقِهِ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰـهَ غَيْرُهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ : أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صَادِعاً ، وَبِذِكْرِهِ نَاطِقاً ، فَأَدَّى أَمِيناً ، وَمَضَى رَشِيداً . وَخَلَّفَ فِينَا رَايَةَ الْحَقِّ : مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ ، وَمَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ ، دَلِيلُهَا مَكِيثُ الْكَلَامِ ، بَطِيءُ الْقِيَامِ ، سَرِيعٌ إِذَا قَامَ . فَإِذَا أَنْتُمْ أَلَنْتُمْ لَهُ رِقَابَكُمْ ، وَأَشَرْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصَابِعِكُمْ ، جَاءَهُ الْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ ، فَلَبِثْتُمْ بَعْدَهُ مَا شَاءَ الله ، حَتَّى يُطْلِعَ الله لَكُمْ مَنْ يَجْمَعُكُمْ ، وَيَضُمُّ نَشْرَكُمْ فَلَا تَطْمَعُوا فِي غَيْرِ مُقْبِلٍ ، وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ مُدْبِرٍ ؛ فَإِنَّ الْمُدْبِرَ عَسَى أَنْ تَزِلَّ إِحْدَى قَائِمَتَيْهِ ، وَتَثْبُتَ الْأُخْرَى ، وَتَرْجِعَا حَتَّى تَثْبُتَا جَمِيعاً .

أَلَا إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّد ، صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ ، كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ .

إذَا خَـوىَ نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ ، فَكَـأَنَّكُمْ قَـدْ تَكَـامَلَتْ مِنَ الله فِيكُمُ الصَّنَـائِعُ ، وَأَرَاكُمْ مَا كُنْتُم تَأْمُلُونَ .

أقول : مرق : خرج من الدين . وزهق : هلك . والمكيث ؛ البطيء المتأني . وخوى النجم : سقط للمغيب . والصنيعة : النعمة .

وهـذا الفصل يشتمـل على إعـلامهم بمـا يكـون بعـده من أمـر الأئمـة وتعليمهم ما ينبغي أن يفعل النـاس معهم ويمنّيهم بظهـور إمام من آل محمـد عقيب آخـر ، ووعدهم بتكـامل صنـائع الله فيهم بمـا يأمّلونـه من ظهور إمـام منتظر .

فقوله : الحمد لله . إلى قوله : حقوقه .

شكر له تعالى باعتبار أمرين :

أحدهما : نشره لفضله في خلقه .

الثاني : بسطه فيهم بالجود يده ، ويده نعمته مجازاً لتقدسـه تعـالى عن الجـارحة ، وهـو من باب إطـلاق اسم السبب على المسبّب ، وظـاهـر كـون الجود مبدءاً للنعمة ، والنشر والبسط وإن كانا حقيقةً في الأجسام إلّا أنهما من الإستعارات الشائعة التي قاربت الحقيقة ثم أكد ذلك الحمد بتعميمـه باعتبـار كل صادر عنه من رخاء وشدة . إذ الشدائد اللاحقـة من نعمه أيضـاً فإنهـا اذا قـوبلت بصبـر جميـل استلزمت ثـوابـاً جـزيـلاً كمـا قـال تعـالى : ﴿ وبشّـر **الصابرين** ﴾ الآية . وظاهر أن أسباب النعم نعم ولما حمده على مـا لحق من نعمائه طلب منـه المعونـة على رعايـة واجب حقوقـه ، واستعار لفظ الصـادع للرسول ووجههـا أنه شقّ بأمر الله بيضـة الشرك وقلوب المشركين فأخرج مـا كان فيها من الكفر والجهل، ونطق بذكره تعالى فـأودعها إيّاه فأدّى مـا أمر بـه أمينـاً عليه وقبضـه الله إليه مـرشداً لـه إلى حضـرة قـدسـه ومنازل الأبـرار من ملائكته ، وصادعاً وناطقاً وأميناً ورشيداً أحوال ، وأشار براية الحق التي خلّفها رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى كتاب الله وسنّتـه ، وأشار بتقـدّمهـا والتخلّف عنهـا إلى طـرفي الإفراط والتفـريط من فضيلة الاستقامـة عليها : أي أن من كـان تحتها لاحقاً بها فهو على حاقّ الوسط من الفضائـل ، ومن تقدمهـا كان على طـرف

الإفراط، وقد تعدى في طلب الدين وأغلى فيه على جهل فمرق منه. كما فعلت الخوارج ، ومن تخلّف عنها كان على طرف التفريط والتقصير فهلك في طريق الضلال والحيرة ، ولفظ الراية مستعار .

ووجه المشابهة كون الكتاب والسنّة مقصدين لتابعهما يهتدي بهما في سبيل الله كما أن الراية كذلك ، وأشار بدليلها إلى نفسه استعارة ، ووجهها أنّ الإمام مظهر ومبيّن لأحكام الكتاب والسنّة وما خفي منهما للسالكين إلى الله كما يرفع الراية حاملها لتابعيه ليقتدوا به ثم أشار إلى صفات ذلك الدليل ، وكنى بقوله : مكيث الكلام عن ترويه وتثبّته في أقواله وما يشير به ويحكم .

وبقوله : بطيء القيام عن تأنيه في حركته في وجوه المصالح إلى حين استثباته الرأي الأصلح ووجه المصلحة ، وبقوله : سريع إذا قام . عن مبادرته إلى وجوه المصلحة وانتهاضه (انتهازه خ) الفرص ثم أخذ يذكرهم بموته ، وكنى بقوله: ألنتم له رقابكم . من خضوعهم لطاعته وانقيادهم لأمره، وبقوله : وأشرتم إليه بالأصابع عن اشتهاره فيهم وتعيّنه وتعظيمهم له ، وأشار إلى أنّه إذا تمّ الإسلام به توفي ، ونبّه بقوله : فلبثتم بعده ما شاء الله . إلى أنهم يخلون عن إمام يجمعهم مدّة ، والإشارة إلى مدة بني أُمية ، وبقوله : حتى يطلع الله لكم . إلى قوله : نشركم . على أنّه لا بدّ لهم بعد تلك المدة من شخص يجمعهم ، وطلوعه ظهوره وتعيّنه للرئاسة بعد اختفاء . فقيل : هو الإمام المنتظر . وقيل : هو قائم بني العباس بعد انقضاء دولة بني أُمية .

وقوله : فلا تطمعوا في غير مقبل .

أي من لم يقبل على طلب هذا الأمر ممن هو أهله ومتعيّن له وآثر تركه إلى الخلوة بالله فلا تطمعوا فيه فإن له بالله شغلاً عن كل شيء . وقيل : المراد بغير المقبل من انحرف عن الدين بارتكاب منكر فإنه لا يجوز الطمع في أن يكون أميراً لكم ، وروي فلا تطعنوا في عين مقبل : أي من أقبل عليكم من أهل البيت طالباً لهذا الأمر وهو أهل له فكونوا معه ، وكنّى بالطعن في عينه عن دفعه عما يريد .

وقوله : ولا تيأسوا من مدبر . إلى قوله : تثبتا جميعاً .

أراد أنَّ من أدبر عن طلب الخلافة ممن هو أهل لها فلا ينبغي أن

يحصل الإياس من عوده وإقباله على الطلب فلعله إنّما أدبر عن ذلك لاختلال بعض الشرائط التي يتعيّن عليه معها القيام ، وكنّى عن اختلال بعض أحواله من قلّة ناصر ونحوه بزوال إحدى قائمتيه وبثبات الأخرى من وجود بعض الشرائط كثبات أهليته للطلب أو بعض أنصاره معه ، وبقوله : فترجعا حتى تثبتا . عن تكامل شرائط قيامه ولا ينافي النهي عن اليأس هيهنا النهي عن الطمع في غير المقبل لجواز أن ينهى عن الطمع فيه حال إعراضه وإدباره عن الطلب لاختلال بعض شرائطه والنهي عن الإياس منه لجواز حصول شرائط القيام فيه وتكاملها .

وقوله : ألا إنّ مثل آل محمد . إلى قوله : طلع نجم .

تعيين للأئمة من آل محمد . قالت الإمامية : هم الإثنى عشر من أهل البيت . وشبّههم بالنجوم ووجه التشبيه أمران :

أحدهما : أنهم يستضاء بأنوار هداهم في سبيل الله كما يستضيء المسافر بالنجوم في سفره ويهتدي بها .

الثاني : ما أشار إليه بقوله : كلما خوى نجم طلع نجم وهو كناية عن كونهم كلما خلا منهم سيد قام سيّد ، والإمامية يستدلون بهذا الكلام منه عليه‌السلام على أنه لا يخلو زمان من وجود قائم من أهل البيت يهتدى به في سبيل الله .

وقوله : فكأنّكم . إلى آخر .

إشارة إلى منّة الله عليهم بظهور الإمام المنتظر وإصلاح أحوالهم بوجوده . ووجدت له عليه‌السلام في أثناء بعض خطبه في اقتصاص ما يكون بعده فصلاً يجري مجرى الشرح لهذا الوعد ، وهو أن قال : يا قوم اعلموا علماً يقيناً أن الذي يستقبل قائمنا من أمر جاهليتكم ليس بدون ما استقبل الرسول من أمر جاهليتكم وذلك أن الأمّة كلها يومئذ جاهلية إلّا من رحم الله فلا تعجلون فيعجل الخرق بكم ، واعلموا أن الرفق يمنٌ وفي الأناة بقاء وراحة والإمام أعلم بما ينكر ، ولعمري لينزعنّ عنكم قضاة السوء وليقبضنّ عنكم المراضين ، وليعزلنّ عنكم أمراء الجور ، وليطهرنّ الأرض من كل غاش ،

وليعملنّ فيكم بالعدل ، وليقومنّ فيكم بالقسطاس المستقيم ، وليتمنّأن أحيائكم لأمواتكم رجعة الكرة عما قليل فيعيشوا إذن فإنّ ذلك كائن . لله أنتم بأحلامكم كفّوا ألسنتكم وكونوا من وراء معايشكم فإنّ الحرمان سيصل إليكم وإن صبرتم واحتسبتم وائتلفتم إنه طالب وتركم ومدرك لثاركم وآخذ بحقكم ، وأقسم بالله قسماً حقاً أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

٩٨ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

تشتمل على ذكر الملاحم .

الأَوَّلُ قَبْلَ كُلِّ أَوَّلٍ ، وَالآخِرُ بَعْدَ كُلِّ آخِرٍ ، بِأَوَّلِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لا أَوَّلَ لَهُ ، وَبِآخِرِيَّتِهِ أَنْ لا آخِرَ لَهُ ، وأَشْهَدُ أن لا إله إلاَّ الله شَهَادَةً يُوَافِقُ فيهَا السرُّ الإعلانَ ، وَالقَلْبُ اللِّسَانَ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ، وَلاَ يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ عِصْيَانِي ، وَلاَ تَتَرامَوْا بِالْأَبْصَارِ عِنْدَ مَا تَسْمَعُونَهُ مِنِّي ، فَوالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، إنَّ الَّذي أُنَبِّئُكُمْ بِهِ عَنِ النَّبيِّ ، صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ ، مَا كَذَبَ الْمُبَلِّغُ ، وَلاَ جَهِلَ السَّامِعُ . وَلَكِنِّي أَنْظُرُ إلى ضِلِّيلٍ ، قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ ، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ ، في ضَوَاحِي كُوفَانَ . فَإذَا فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ ، وَاشْتَدَّتْ شَكِيمَتُهُ ، وَثَقُلَتْ فِي الأَرْضِ وَطْأَتُهُ عَضَّتِ الْفِتْنَةُ أَبْنَاءَهَا بِأَنْيَابِهَا ، وَمَاجَتِ الْحَرْبُ بِأَمْوَاجِهَا وَبَدَا مِنَ الأَيَّامِ كُلُوحُهَا ، وَمِنَ اللَّيَالِي كُدُوحُهَا ، فَإذَا أَيْنَعَ زَرْعُهُ ، وَقَامَ عَلَى يَنْعِهِ ، وَهَدَرَتْ شَقَاشِقُهُ ، وَبَرَقَتْ بَوَارِقُهُ ، عُقِدَتْ رَايَاتُ الْفِتَنِ الْمُعْضِلَةِ وَأَقْبَلْنَ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، وَالْبَحْرِ الْمُلْتَطِمِ ، هَذا ، وَكَمْ يَخْرِقُ الْكُوفَةَ مِنْ قَاصِفٍ ، وَيَمُرُّ عَلَيْهَا مِنْ عَاصِفٍ ، وَعَنْ قَلِيلٍ تَلْتَفُّ الْقُرُونُ بِالْقُرُونِ ، وَيُحْصَدُ الْقَائِمُ ، وَيُحْطَمُ الْمَحْصُودُ .

يشتمل على ذكر الملاحم .

أقول : [لا يجرمنّكم : أي لا يحملنّكم خ]. يجرمنّكم : يحق عليكم . واستهواه : أماله . والضليل : الكثير الضلال . ونعق : صاح .

وفحص الطائر الأرض برجله : بحثها . والضواحي : النواحي البارزة . وكوفان : اسم للكوفة . فَغَر فوه : انفتح . وفلان شديد الشكيمة : إذا كان قويّ النفس أبيّاً والكلوح : تكشر في عبوس. والكدح: فوق الخدش . وأينع الزرع : نضج . والحطم : الدق .

ومضمون هذا الفصل بعد توحيد الله تحذير السامعين عن عصيانه وعن التغامز بتكذيبه فيما بينهم فيما كان يخبرهم به من الأُمور المستقبلة . فقوله : الأول والآخر قد مضى تفسيرهما .

وقوله : بأوليّته وجب أن لا أول له .

لما أراد بأوليّته كونه مبدءً لكل شيء ، وبآخريّته كونه غاية ينتهي إليها كل شيء في جميع أحواله كان بذلك الاعتبار يجب أن لا يكون له أول هو مبدؤه ولا آخر يقف عنده وينتهي ، ووصف شهادته بأنّها التي يوافق السر الإعلان والقلب اللسان كناية عن خلوصها عن شائبة النفاق والجحود بالله ثم أبّه بالناس وحذّرهم من شقاقه وعصيانه وتكذيبه فيما يقول وهو تقريع لمن ضعفت عين بصيرته عن إدراك فضله وإمكان الإخبار بما سيكون من مثله ثم أسند ما يريد أن يخبر به من ذلك وما أخبر به إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليكون ذلك شهادة لصدقه ، وأكد ذلك بتنزيهه صلى الله عليه وآله وسلم وتنزيه السامع يعني نفسه من الكذب فيما بلّغ عن ربه وفيما سمع هو عنه ، وقد بيّنا كيفية أخذه لهذه العلوم عنه في المقدمات .

وقوله : لكأني أنظر إلى ضليل قد نعق بالشام .

من جملة إخباراته بما سيكون ، والضليل : قيل : إنّه أشار به إلى السفياني الدجّال . وقيل : إنه إشارة إلى معاوية فإن مبدءملكه بالشام ودعوته بها وانتهت غاراته إلى نواحي الكوفة وإلى الأنبار في حياته عليه السلام . كما عرفت ذلك من قبل ، وكنّى بفحصه براياته عن بلوغه إلى الكوفة ونواحيها كناية بالمستعار ملاحظة لشبهه بالقطاة المتخذة مفحصاً ، وكذلك فغرت فاغرته كناية عن اقتحامه للناس كناية بالمستعار أيضاً ملاحظة لشبهه بالأسد في اقتحام فريسته ، واشتداد شكيمته كناية عن قوة رأسه وشدة بأسه . وأصله أن

الفرس الجموح قوي الرأس محتاج إلى قوة الشكيمة وشدتها ، وكذلك ثقل وطأته كناية عن شدة بأسه في الأرض على الناس ، والأشبه أنّه إشارة إلى عبد الملك ، وقد عرفت أحواله ، وثقل وطأته في الأرض فيما سبق ، واستعار لفظ العضّ للفتنة ووجه المشابهة ما يستلزمانه من الشدة والألم ، ورشح تلك الاستعارة بذكر الأنياب ، وأبناء الفتنة أهلها ، وكذلك استعار لفظ الموج للحرب ، وكنّى به عن الاختلاط الواقع فيها من القتل والأهوال . وللأيام لفظ الكلوح ، وكنّى به عن شدة ما يلقى فيها من الشرّ كما يلقى من المعبس المكثر ، وكذلك لفظ الكدوح استعارة لما يلقى فيها من المصائب الشبيهة بها ، ولفظ الزرع استعارة لأعماله ولفظ الإيناع كناية عن بلوغه غاية أفعاله ولفظ الشقاشق والبروق استعارة لحركاته الهائلة وأقواله المخوفة تشبيهاً بالسحاب ذي الشقاشق والبروق .

وقوله : عقدت رايات الفتن المعضلة .

أي : أن هذه الفتنة إذا قامت أثارت فتناً كثيرة بعدها يكون فيها الهرج والمرج ، وشبّه تلك الفتن في إقبالها بالليل المظلم ، ووجه المشابهة كونها لا يهتدى فيها لحق كما لا يهتدى في ظلمة الليل لما يراد ، وبالبرح الملتطم في عظمها وخلطها للخلق بعضهم ببعض وانقلاب قوم على قوم بالمحق لهم والهلاك كما يلتطم بعض أمواج البحر ببعض ، ثمّ أشار إلى ما يلحق الكوفة بسبب تلك الفتنة بعدها من الوقائع والفتن ، وقد وقع فيها وفق أخباره وقائع جمّة وفتن كثيرة كفتنة الحجّاج والمختار ابن أبي عبيدة وغيرهما ، واستعار لفظي القاصف والعاصف من الريح لما يمرّ بها من ذلك ويجري على أهلها من الشدائد .

وقوله : وعن قليل تلتفّ القرون بالقرون . إلى آخره .

أي عن قليل يلحق قرن من الناس بقرون ، وكنّى بالتفاف بعضهم ببعض عن اجتماعهم في بطن الأرض ، واستعار لهم لفظ الحصد والحطم لمشابهتهم الزرع يحصد قائمه ويحطم محصوده فكنى بحصدهم عن موتهم أو قتلهم ، وبحطم محصودهم عن فنائهم وتفرّق أوصالهم في التراب .

وأعلم أنه ليس في اللفظ دلالة واضحة على أن المراد بالضليل المذكور معاوية بل يحتمل أن يريد به شخصاً آخر يظهر فيما بعد بالشام كما قيل : إنّه السفيانّي الدجّال وإن كان الاحتمال الأول أغلب على الظنّ . وبالله التوفيق .

٩٩ - ومن خطبة له (عليه السلام)

تجري هذا المجرى .

وَذٰلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ الله فِيهِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِنِقَاشِ الْحِسَابِ ، وَجَزَاءِ الأَعْمَالِ ، خُضُوعاً ، قِيَاماً ، قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ ، وَرَجَفَتْ بِهِمُ الأَرْضُ ؛ فَأَحْسَنُهُمْ حَالاً مَنْ وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعاً ، وَلِنَفْسِهِ مُتَّسَعاً .

أقول : أشار باليوم إلى يوم القيامة . ونقاش الحساب : المناقشة والتدقيق فيه .

وقد عرفت كيفية ذلك اليوم فيما سبق ونحوه قوله تعالى : ﴿ **يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم** ﴾[١] الآية . وخضوعاً كقوله تعالى : ﴿ **خشعاً أبصارهم** ﴾[٢] وقياماً كقوله تعالى : ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ وهما كناية عن كمال براءتهم من حولهم وقوّتهم إذن وتيقّنهم أن لا سلطان إلّا سلطانه . وألجمهم العرق : بلغ منهم مكان اللجام ، وهو كناية عن بلوغهم الغاية من الجهد . إذا كانت غاية التاعب أن يكثر عرقه .

وقوله : ورجفت بهم الأرض .

كقوله تعالى : ﴿ **يوم ترجف الأرض والجبال** ﴾[٣] و﴿ **إذا رجت الأرض رجاً وبست الجبال بساً** ﴾[٤] قال بعضهم : المراد بالأرض الراجفة والمرتجة أرض القلوب عن نزول خشية الله عليها وشدّة أهوال يوم القيامة ،

---

(١) ٩٩ - ٦ .
(٢) ٤٥ - ٧ .
(٣) ٧٣ - ٤پ .
(٤) ٥٦ - ٤ .

وقال آخرون : إنَّ ذلك صرف الكلام عن ظاهره من غير ضرورة فلا يجوز . إذ كل ما أخبر الصادق عنه من جزئيات أحوال القيامة أمور ممكنة ، والقدرة الإلهية وافية بها .

وقوله : فأحسنهم حالاً من وجد لقدميه موضعاً ولنفسه متّسعاً .

قيل المراد من وجد لقدمي عقله موضعاً من معرفة الله تعالى وعبادته ، ومن وجد لنفسه متسعاً في حظائر قدس الله وسعة رحمته . وظاهر أن أولئك أحسن الخلق حالاً يوم القيامة ، وحمله على ظاهره موافقةً لظاهر الشريعة ممكن.

منها : فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، وَلاَ تَقُومُ لَهَا قَائِمَةٌ ، وَلاَ تُرَدُّ لَهَا رَايَةٌ ، تَأْتِيكُمْ مَزْمُومَةً مَرْحُولَةً : يَحْفِزُهَا قَائِدُهَا ، وَيُجْهِدُهَا رَاكِبُهَا ، أَهْلُهَا قَوْمٌ شَدِيدٌ كَلَبُهُمْ ، قَلِيلٌ سَلَبُهُمْ ، يُجَاهِدُهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَوْمٌ أَذِلَّةٌ عِنْدَ الْمُتَكَبِّرِينَ ، في الأَرْضِ مَجْهُولُونَ، وَفِي السَّمَاءِ مَعْرُوفُونَ ، فَوَيْلٌ لَكِ يَا بَصْرَةُ عِنْدَ ذٰلِكَ ، مِنْ جَيْشٍ مِنْ نِقَمِ اللهِ لاَ رَهَجَ لَهُ ، وَلاَ حَسَّ ، وَسَيُبْتَلَى أَهْلُكِ بِالْمَوْتِ الأَحْمَرِ ، وَالْجُوعِ الأَغْبَرِ .

أقول : يحفزها : يدفعها من خلف . والكلب : الشر . والأذلة : جمع ذليل . والرهج : الغبار . والحس : الصوت الخفّي .

وقد نبّه في هذا الفصل على ما سيقع بعده من الفتن ، ويخصّ منها فتنة صاحب الزنج بالبصرة وشبّه تلك الفتن بقطع الليل المظلم ، ووجه الشبه ظاهر . ولا تقوم لها قائمة : أي لا يمكن مقابلتها بما يقاومها ويدفعها ، وإنما أنّث لكون القائمة في مقابلة الفتنة . وقيل : لا تثبت لها قائمة فرس ، واستعار لفظ الزمام والرحل والحفز والقائد والراكب وجهده لها ملاحظة لشبهها بالناقة ، وكنى بالزمام والرحل عن تمام إعداد الفتنة وتعبيتها كما أن كمال الناقة للركوب أن تكون مزمومة مرحولة ، وبقائدها عن أعوانها ، وبراكبها عن منشئها المتبوع فيها ، وبحفزها وجهدها عن سرعتهم فيها ، وأهلها إشارة إلى الزنج وظاهر شدة كلبهم وقلّة سلبهم . إذ يكونوا أصحاب حرب وعدة وخيل كما يعرف ذلك من قصتهم المشهورة كما سنذكر طرفاً منها

فيما يستقبل من كلامه في فصل آخر ، وقد وصف مقاتليهم في الله بكونهم أذلّة عند المتكبرين ، وكونهم مجهولين في الأرض : أي ليسوا من أبناء الدنيا المشهورين بنعيمها ، وكونهم معروفين في السماء هو إشارة إلى كونهم من أهل العلم والإيمان يعرفهم ربهم بطاعتهم ، وتعرفهم ملائكته بعبادة ربهم ثم أردف ذلك بأخبار البصرة مخاطباً لها والخطاب لأهلها بما سيقع بها من فتنة الزنج ، وظاهر أنه لم يكن لهم غبار ولا أصوات . إذ لم يكونوا أهل خيل ولا قعقعة لجم فإذن لا رهج لهم ولا حسّ ، وظاهر كونهم من نقم الله للعصاة وإن عمت الفتنة . إذ قلما تخص العقوبة النازلة بقوم بعضهم كما قال تعالى : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾[1].

وقوله : وسيبتلى أهلك بالموت الأحمر والجوع الأغبر .

قيل : فالموت الأحمر إشارة إلى قتلهم بالسيف من قبل الزنج أو من قبل غيرهم ، ووصفه بالحمرة كناية عن شدته وذلك لأن أشدّ الموت ما كان بسفك الدم . وأقول : قد فسّره عليه السلام بهلاكهم من قبل الغرق كما نحكيه عنه وهو أيضاً في غاية الشدة لاستلزامه زهوق الروح ، وكذلك وصف الأغبر لأن أشد الجوع ما أغبر معه الوجه وغبر السحنة الصافية لقلة مادة الغذاء أو ردائته فلذلك سمي أغبر، وقيل : لأنّه يلصق بالغبراء وهي الأرض ، وقد أشار إلى هذه الفتنة في فصل من خطبة خطب بها عند فراغه من حرب البصرة وفتحها وهي خطبة طويلة حكينا منها فصولاً تتعلّق بالملاحم . من ذلك فصل يتضمن حال غرق البصرة . فعند فراغه عليه السلام من ذلك الفصل قام إليه الأحنف ابن قيس فقال له : يا أمير المؤمنين ومتى يكون ذلك . قال : يا أبا بحر إنّك لن تدرك ذلك الزمان وإنّ بينك وبينه لقروناً ولكن ليبلغ الشاهد منكم الغائب عنكم لكي يبلغوا إخوانهم إذا هم رأوا البصرة قد تحوّلت أخصاصها دوراً وآجامها قصوراً فالهرب الهرب فإنه لا بصيرة لكم يومئذ ثم التفت عن يمينه فقال : كم بينكم وبين الإبلّة . فقال له المنذر بن الجارود : فداك أبي وأمي أربعة فراسخ .

---

(١) ٨ - ٣٥ .

قال له صدقت فوالذي بعث محمداً وأكرمه بالنبوة وخصه بالرسالة وعجل بروحه إلى الجنة لقد سمعت منه كما تسمعون مني أن قال : يا علي هل علمت أن بين التي تسمى البصرة والتي تسمى الإبلة أربعة فراسخ وقد يكون في التي تسمّى الإبلّة موضع أصحاب القشور يقتل في ذلك الموضع من أمتي سبعون ألفاً شهيدهم يومئذٍ بمنزلة شهداء بدر فقال له المنذر : يا أمير المؤمنين ومن يقتلهم فداك أبي وأمي ؟ قال : يقتلهم إخوان الجن وهم جيل كأنهم الشياطين سود ألوانهم منتنة أرواحهم شديد كلبهم قليل سلبهم طوبى لمن قتلهم وطوبى لمن قتلوه ينفر لجهادهم في ذلك الزمان قوم هم أذلة عند المتكبرين من أهل ذلك الزمان مجهولون في الأرض معروفون في السماء تبكي السماء عليهم وسكانها والأرض وسكانها ثم هملت عيناه بالبكاء ثم قال : ويحك يا بصرة ويلك يا بصرة من جيش لا رهج له ولا حس قال له المنذر يا أمير المؤمنين :

وما الذي يصيبهم من قبل الغرق مما ذكرت ، وما الويح ، وما الويل ؟ فقال : هما بابان فالويح باب الرحمة ، والويل باب العذاب يا ابن الجارود نعم ثارات عظيمة منها عصبة يقتل بعضها بعضاً ، ومنها فتنة تكون بها خراب منازل وخراب ديار وانتهاك أموال وقتل رجال وسبي نساء يذبحن ذبحاً يا ويل أمرهن حديث عجب منها أن يستحل بها الدجّال الأكبر الأعور الممسوح العين اليمنى والأُخرى كأنها ممزوجة بالدم لكأنها في الحمرة علقة تأتي الحدقة كهيئة حبة العنب الطافية على الماء فيتبعه من أهلها عدّة ، من قتل بالإبلة من الشهداء أناجيلهم في صدورهم يقتل من يقتل ويهرب من يهرب ثم رجف ثم قذف ثم خسف ثم مسخ ثم الجوع الأغبر ثم الموت الأحمر وهو الغرق . يا منذر إن للبصرة ثلاثة أسماء سوى البصرة في الزبر الأول لا يعلمها إلّا العلماء منها الخريبة ، ومنها تدمر ، ومنها المؤتفكة يا منذر والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو أشاء لأخبرتكم بخراب العرصات عرصة عرصة ومتى تخرب ومتى تعمر بعد خرابها إلى يوم القيامة ، وإن عندي من ذلك علماً جماً وإن تسألوني تجدوني به عالماً لا أخطىء منه علماً ولا وافياً ، ولقد استودعت علم القرون الأولى وما كائن إلى يوم القيامة .

قال : فقام إليه رجل فقال يا أمير المؤمنين : أخبرني من أهل الجماعة ومن أهل الفرقة ومن أهل السنّة ومن أهل البدعة ؟ فقال : ويحك إذا سألتني فافهم عنّي ولا عليك أن لا تسأل أحداً بعدي : أما أهل الجماعة فأنا ومن اتّبعني وإن قلّوا وذلك الحق عن أمر الله وأمر رسوله .

وأما أهل الفرقة فالمخالفون لي ولمن اتبعني وإن كثروا ، وأما أهل السنّة فالمتمسكون بما سنّه الله ورسوله لا العاملون برأيهم وأهوائهم وإن كثروا ، وقد مضى الفوج الأول وبقيت أفواج وعلى الله قصمها واستئصالها عن جديد الأرض وبالله التوفيق .

١٠٠ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أُنْظُرُوا إلى الدُّنْيَا نَظَرَ الزَّاهِدِينَ فِيهَا ، الصَّادِفِينَ عَنْهَا ، فَإِنَّهَا وَالله عَمَّا قَليلٍ تُزِيلُ الثَّاوِيَ السَّاكِنَ ، وَتَفْجَعُ الْمُترَفَ الآمِنَ ، لاَ يَرْجِعُ مَا تَوَلَّى مِنْهَا فَأَدْبَرَ ، وَلاَ يُدْرَى مَا هُوَ آتٍ مِنْهَا فَيُنْتَظَرَ ، سُرُورُهَا مَشُوبٌ بِالْحُزنِ ، وَجَلَدُ الرِّجَالِ فِيهَا إلى الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ ، فَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ كَثْرَةُ مَا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا ، لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا .

رَحِمَ الله آمْرَءاً تَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ ، وآعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ ، فَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ ، وَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ ، وَكُلُّ مَعْدُود مُنْقَضٍ ، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ دَانٍ .

أقول : صدف : أعرض . وثوى بالمكان : أقام به . والفجيعة : المصيبة . والجلد : القوة .

وحاصل الفصل تزهيد الدنيا والتحذير منها فأمرهم أن ينظروا إليها نظر الزاهدين فيها المعرضين عنها أمرٌ لهم بتركها واحتقارها إلّا بمقدار الضرورة إلى ما تقوم به الضرورة ثم أردفه بذكر معائبها المنفرة :

فالأول : إزالتها للمقيم بها المطمئن إليها عمّا ركن إليه منها .

الثاني : فجيعتها للمترف المتنعم بها الذي خدعته بأمانيها حتى أمن فيها بسلب ما ركن إليه وأمن عليه .

الثالث : كونها لا يرجع ما تولى منها فأدبر من شباب وصحة ومال وعمر ونحوه .

الرابع : كونها لا يدرى ما هو آت من مصائبها فينتظر ويحترز منه .

الخامس : شوب سرورها بالحزن . إذ كان مسرورها لا يعدم في كل أوان فوت مطلوب أو فقد محبوب .

السادس : انتهاء قوة أهلها وجلدهم إلى الضعف كما قال تعالى : ﴿ **ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة** ﴾[1] وزهد بعض الصالحين في الدنيا فقال : عيش مشوب بسقم منساق إلى هرم مختوم بعدم مستعقب بندم هل يجوز التنافس فيه . ثم نهى عن الاغترار بكثرة ما يعجبهم منها وعلّل حسن ذلك الانتهاء بقلة ما يصحبهم منها فإنّ المنافسة إنّما ينبغي أن يكون باقياً للإنسان حيث كان كان ، وأشار بقليل ما يصحبهم منها إلى الكفن ونحوه . ثم دعا لمن تفكر فأفاده فكره عبرة : أي انتقال ذهن إلى ما هو الحق من وجوب ترك الدنيا والعمل للآخرة فإفاده ذلك الانتقال إدراكاً للحق ومشاهدة ببصر البصيرة له ثم أردفه بتشبيه وجود متاع الدنيا الحاضر بعدمه تنبيهاً على سرعة لحوق عدمه بوجوده. فكأن وجوده شبيه بأن لم يكن لسرعة زواله وكذلك تشبيه عدم الآخرة الآن وما يلحق فيها من الثواب والعقاب بوجودها الدائم : أي كأنها لسرعة وجودها ولحوقها لم تزل موجودة ، ونبّه بقوله : وكل معدود منقض . على انقضاء مدد الأعمار لكونها معدودة الأيام والساعات والأنفاس .

وقوله : وكل متوقع آت وكل آت قريب دان .

في صورة الضرب الأول من الشكل الأول. ونتيجته فكل متوقع قريب دان . والإشارة به إلى الموت وما بعده .

منها : الْعَالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَنْ لاَ يَعْرِفَ قَدْرَهُ ، وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِ الرِّجَالِ لَعَبْداً وَكَلَهُ الله إلى نَفْسِهِ ! جَائِراً عَنْ قَصْدِ

---

(1) ٣٠ - ٥٣ .

السَّبِيلِ ، سَائِراً بِغَيْرِ دَلِيلٍ ، إنْ دُعِيَ إلى حَرْثِ الدُّنْيَا عَمِلَ ، وَإنْ دُعِيَ إلى حَرْثِ الآخِرَةِ كَسِلَ! كَأَنَّ مَا عَمِلَ لَهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ ، وَكَأَنَّ مَا وَنَى فِيهِ سَاقِطٌ عَنْهُ .

أقول : حصر العالم فيمن عرف قدره ، وأراد بقدره مقداره من ملك الله ومحله من الوجود ، ولما كان عرفانه بذلك مستلزماً لمعرفته بنسبته إلى مخلوقات الله في العالمين وأنه أي شيءٍ هو منها ، ولأي شيء وجد لا جرم كان هو العالم اللازم لحدّه السالك لما أُمر به غير المتعدي طوره المرسوم له في كتاب ربه وسنن أنبيائه .

وقوله : وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره .

لما كان العلم مستلزماً لمعرفة القدر كان عدم معرفة القدر مستلزماً لعدم العلم وهو الجهل لأن نقيض اللازم يستلزم نقيض الملزوم ، وقوله : وكفى بذلك الجهل . إشارة إلى قوته واستلزامه للعذاب .

وقوله : وإنّ من أبغض الرجال إلى الله . إلى قوله : قصد السبيل .

قد سبق بيانه .

وقوله : سائراً بغير دليل .

كنى بالدليل عن أئمة الهدى والمرشدين إلى الله ، ويدخل في ذلك الكتاب والسنّة . فإنّ من سار في معاملته لله أو لعباده بغير دليل منهما كان من الهالكين .

وقوله : إن دعى . إلى آخره .

استعار لفظ الحرث لأعمال الدنيا وأعمال الآخرة ، ووجه المشابهة كونها مستلزمة للمكاسب الأُخروية والدنيوية كما أن الحرث كذلك ، ثم شبّه ما عمل له من حرث الدنيا بالواجب عليه في مبادرته إليه ومواظبته عليه ، وشبّه ما قصر عنه من حرث الآخرة بالساقط عنه فرضه في تكاسله وقعوده عنه مع أن الأمر منه ينبغي أن يكون بالعكس . وبالله التوفيق .

منها : وَذلِكَ زَمَنٌ لَا يَنْجُو فِيهِ إلاَّ كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ : إنْ شَهِدَ لَمْ يُعْرَفْ ،

وإنَّ غَـابَ لَمْ يُفْتَقَـدْ ، أُولَئِكَ مَصَابِيحُ الْهُدَى ، وَأَعْلَامُ السُّرَى لَيْسُوا بِالْمَسَايِيحِ ، وَلَا الْمَذَايِيعِ الْبُذُرِ ، أُولَئِكَ يَفْتَحُ اللهُ لَهُمْ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ ، وَيَكْشِفُ عَنْهُمْ ضَرَّاءَ نِقْمَتِهِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُكْفَأُ فِيهِ الإِسْلَامُ كَمَا يُكْفَأُ الإِنَاءُ بِمَا فِيهِ ! أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَعَاذَكُمْ مِنْ أَنْ يَجُورَ عَلَيْكُمْ ، وَلَمْ يُعِذْكُمْ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيَكُمْ ، وَقَدْ قَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ .

قال الشريف : قوله عليه السلام : « كل مؤمن نومة » فإنما أراد به الخامل الذكر القليل الشر ، والمساييح : جمع مسياح ، وهو الذي يسيح بين الناس بالفساد والنمائم ، والمذاييع : جمع مذياع ، وهو الذي إذا سمع لغيره بفاحشة أذاعها ونوه بها ، والبذر : جمع بذور وهو الذي يكثر سفهه ويلغو منطقه .

أقول : النومة : كثير النوم ، وروي نومة بسكون الواو . وهو ضعيف . وكفأت الإناء : قلّبته لوجهه ، وكنى بالنومة عن خامل الذكر بين الناس المشتغل بربه عنهم كما فسّره عليه السلام بقوله : إن شهد لم يعرف وإن غاب لم يفتقد ، وأشار بأولئك إلى كل مؤمن كذلك ، واستعار لهم لفظ المصابيح والأعلام لكونهم أسباب الهداية في سبيل الله ، وقد سبق ذلك .

وقوله : ليسوا بالمساييح . إلى قوله : ضراء نقمته . ظاهر . وقد فسّر السيد (رضوان الله عليه) مشكله .

وقوله : أيها الناس . إلى قوله : الإناء بما فيه .

إخبار بما سيكون من فساد أهل الزمان وما يكون فيه من الفتن وترك الدين كما سبق إشاراته ، وشبّه قلبهم للزمان بقلب الإناء بما فيه ، ووجه الشبه خروج الإسلام عن كونه منتفعاً به بعد تركهم للعمل به كما يخرج ما في الإناء الذي كبّ عن الانتفاع . وأحسن بهذا التشبيه . فإنّ الزمان للإسلام كإناء للماء ، وأشار إلى أن ذلك ليس بظلم بقوله : إنّ الله قد أعاذكم من أن

يجور عليكم في قوله تعالى : ﴿**وما ربك بظلام للعبيد**﴾[١]. إن ذلك ابتلاء منه يبتلي به عباده كما قال تعالى : ﴿**إن في ذلك لآيات وإنْ كنا لمبتلين**﴾[٢] فمن صبر نفعه صبره ومن كفر فعليه كفره ، وقد عرفت معنى ابتلاء الله لخلقه وفائدته فلا وجه لإعادته . وبالله التوفيق .

١٠١ - ومن خطبة له (عليه السلام)

وقد تقدم مختارها بخلاف هذه الرواية :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً ، وَلَا يَدَّعِي نُبُوَّةً وَلَا وَحْياً ، فَقَاتَلَ بِمَنْ أَطَاعَهُ مَنْ عَصَاهُ ، يَسُوقُهُمْ إِلَى مَنْجَاتِهِمْ ، وَيُبَادِرُ بِهِمُ السَّاعَةَ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ يَحْسِرُ الْحَسِيرُ وَيَقِفُ الْكَسِيرُ ، فَيُقِيمُ عَلَيْهِ حَتَّى يُلْحِقَهُ غَايَتَهُ ، إِلَّا هَالِكاً لَا خَيْرَ فِيهِ ، حَتَّى أَرَاهُمْ مَنْجَاتَهُمْ ، وَبَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ ، فَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ ، وَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ ، وَأَيْمُ اللهِ لَقَدْ كُنْتُ فِي سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا ، وَاسْتَوْثَقَتْ قِيَادَهَا : مَا ضَعُفْتُ وَلَا جَبُنْتُ ، وَلَا خُنْتُ ، وَلَا وَهَنْتُ ، وَأَيْمُ اللهِ لَأَبْقَرَنَّ الْبَاطِلَ ، حَتَّى أُخْرِجَ الْحَقَّ مِنْ خَاصِرَتِهِ .

أقول : لنشرح ما انفردت هذه الرواية من الزيادة على الفصل المتقدم : فالحسير : الذي أعيا في طريقه . والرحا : قطعة من الأرض تستدير وترتفع على ما حولها . واستوسقت : اجتمعت وانتظمت . وخمت : جنبت .

فقوله : فقاتل بمن أطاعه من عصاه . معناه ظاهر .

وقوله : ويبادر بهم الساعة أن تنزل بهم .

أي يسارع إلى هديهم وتسليكهم لسبيل الله كيلا تنزل بهم الساعة على عمى منهم عن صراط الله فيقعوا في مهاوي الهلاك .

---

(١) ٤١ - ٤٦ .

(٢) ٢٣ - ٣١ .

وقوله : يحسر الحسير ويقف الكسير . إلى قوله : لا خير فيه .

إشارة إلى وصفه ﷺ بالشفقة على الخلق في حال أسفارهم معه في الغزوات ونحوها : أي أنه كان يسير في آخرهم ويفتقد المنقطع منهم عن عياء وانكسار مركوب فلا يزال يلطف به حتى يبلّغه أصحابه إلّا ما لا يمكن إيصاله ولا يرجى . قال بعض السالكين : كنى بالحسير والكسير عمن عجز ووقف قدم عقله في الطريق إلى الله لضعف في عين بصيرته واعوجاج في آلة إدراكه ، وبقيامه عليه حتى يلحقه إلى غايته عن أخذه له بوجوه الحيل والجواذب إلى الدين حتى يوصله إلى ما يمكن من العقيدة المرضية والأعمال الزكية التي هي الغاية من طريق الشريعة المطلوب سلوكها .

وقوله : إلّا هالكاً لا خير فيه .

أراد به من كان مأيوساً من رشده لعلمه بأن تقويمه غير ممكن كأبي لهب وأبي جهل ونحوهما .

وقوله : فاستدارت رحاهم .

استعار لهم لفظ الرحا لاجتماعهم وارتفاعهم على غيرهم كما ترتفع القطعة من الأرض عن تألّف التراب ونحوه .

وقوله : واستوسقت في قيادها .

إشارة إلى طاعة من أطاع من العرب وانقاد للإسلام ، واستعار لفظ الاتّساق والقيادة ملاحظة لتشبيههم بالإبل المجتمعة لسائقها والمنتظمة في قياده لها ، واستعار لفظ الخاصرة للباطل ، ورشّح تلك الاستعارة بذكر البقر ملاحظة لشبهه بالحيوان المبتلع ما هو أعزّ قيمة منه ، وكنى به عن تميّز الحق منه . وبالله التوفيق .

١٠٢ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

حَتَّى بَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، شَهِيداً ، وَبَشِيراً ، وَنَذِيراً ، خَيْرُ الْبَرِيَّةِ طِفْلاً ، وَأَنْجَبُهَا كَهْلاً ، أَطْهَرُ الْمُطَهَّرِينَ شِيمَةً ، وَأَمْطَرُ الْمُسْتَمْطَرِينَ دِيمَةً ، فَمَا احْلَوْلَتْ لَكُمُ الدُّنْيَا فِي لَذَّتِهَا ، وَلَا تَمَكَّنْتُمْ مِنْ

رَضَاعِ أَخْلاَفِهَا إلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا صَادَفْتُمُوهَا جَائِلاً خِطَامُهَا ، قَلِقاً وَضِينُهَا ، قَدْ صَارَ حَرَامُهَا عِنْدَ أَقْوَامٍ بِمَنْزِلَةِ السِّدْرِ الْمَخْضُودِ ، وَحَلاَلُهَا بَعِيداً غَيْرَ مَوْجُودٍ ، وَصَادَفْتُمُوهَا ، وَالله ، ظِلاًّ مَمْدُوداً إلى أَجَلٍ مَعْدُودٍ ، فَالأَرْضُ لَكُمْ شَاغِرَةٌ وَأَيْدِيكُمْ فِيهَا مَبْسُوطَةٌ . وَأَيْدِي الْقَادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ ، وَسُيُوفُكُمْ عَلَيْهِمْ مُسَلَّطَةٌ وَسُيُوفُهُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ ، أَلاَ إنَّ لِكُلِّ دَمٍ ثَائِراً ، وَلِكُلِّ حَقٍّ طَالِباً ، وَإنَّ الثَّائِرَ فِي دِمَائِنَا كَالْحَاكِمِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ ، وَهُوَ الله الَّذِي لاَ يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ وَلاَ يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ . فَأُقْسِمُ بِالله يَا بَنِي أُمَيَّةَ عَمَّا قَلِيلٍ لَتَعْرِفُنَّهَا فِي أَيْدِي غَيْرِكُمْ وَفِي دَارِ عَدُوِّكُمْ . أَلاَ وَإنَّ أَبْصَرَ الأَبْصَارِ مَا نَفَذَ فِي الْخَيْرِ طَرْفُهُ ، أَلاَ إنَّ أَسْمَعَ الأَسْمَاعِ مَا وَعَى التَّذْكِيرَ وَقَبِلَهُ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، اسْتَصْبِحُوا مِنْ شُعْلَةِ مِصْبَاحٍ وَاعِظٍ مُتَّعِظٍ ، وَامْتَاحُوا مِنْ صَفْوِ عَيْنٍ قَدْ رُوِّقَتْ مِنَ الْكَدَرِ .

عِبَادَ الله ، لاَ تَرْكَنُوا إلى جَهَالَتِكُمْ ، وَلاَ تَنْقَادُوا إلى أَهْوَائِكُمْ ؛ فَإنَّ النَّازِلَ بِهَذَا الْمَنْزِلِ ، نَازِلٌ بِشَفَا جُرُفٍ هَارٍ ، يَنْقُلُ الرَّدَى عَلَى ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إلى مَوْضِعٍ ، لِرَأْيٍ يُحْدِثُهُ بَعْدَ رَأْيٍ ، يُرِيدُ أَنْ يُلْصِقَ مَا لاَ يَلْتَصِقُ ، وَيُقَرِّبَ مَا لاَ يَتَقَارَبُ ، فَالله الله ، أَنْ تَشْكُوا إلى مَنْ لاَ يُشْكِي شَجْوَكُمْ وَلاَ يَنْقُضُ بِرَأْيِهِ مَا قَدْ أُبْرِمَ لَكُمْ . إنَّهُ لَيْسَ عَلَى الإمَامِ إلاَّ مَا حُمِّلَ مِنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، إلاَّ الْبَلاَغُ فِي الْمَوْعِظَةِ ، وَالاجْتِهَادُ فِي النَّصِيحَةِ ، وَالإحْيَاءُ لِلسُّنَّةِ ، وَإقَامَةُ الْحُدُودِ عَلَى مُسْتَحِقِّيهَا ، وَإصْدَارُ السُّهْمَانِ عَلَى أَهْلِهَا : فَبَادِرُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ تَصْوِيحِ نَبْتِهِ ، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ تُشْغَلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مُسْتَثَارِ الْعِلْمِ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ وَأنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَنَاهَوْا عَنْهُ ؛ فَإنَّمَا أُمِرْتُمْ بِالنَّهْيِ بَعْدَ التَّنَاهِي .

أقول : الشيمة : الخلق . واحلولى : حلا . والخلف : حلمة ضرع الناقة . والوضين : حزام الهودج . والمخضود : الذي لا شوك فيه . والماتح : الجاذب للدلو من البئر . وشغر الكلب : رفع إحدى رجليه ليبول . والترويق : التصفية . والجرف : المكان يأكله السيل . وهار : أصله هائر

وهو المنهدم نقلت من الثلاثي إلى الرباعي كشائك وشاكي . والشجو : الهمّ والحزن . وصوّح النبت : يبس .

وقوله : حتى بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم . إلى قوله : من بعده .

افتخار به صلى الله عليه وآله وسلم ومدح له بالقوة في الدين وتوبيخ لجمع الدنيا ومحبيها بعده ، وهو غاية لفصل سابق كأنه ذكر فيه ما كانوا عليه من سوء الحال والقشف والفقر ، ومن عليهم بذكر هذه الغاية الحسنة لتلك الأحوال ، ووصفه بأوصاف :

أحدها : كونه شهيداً ، أي على الخلق بأعمالهم يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ﴾[1]. وقد عرفت كيفية هذه الشهادة .

الثاني : وبشيراً للخلق بما أعدّهم من الثواب العظيم .

الثالث : ونذيراً لهم بما أعدّ للعصاة من العذاب الأليم . وينتظم هذه الأوصاف قوله تعالى : ﴿ **إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً** ﴾[2]. والثلاثة أحوال .

الرابع : خير البريّة طفلاً ، ولما علمت أن الأفضلية إنما هي بالأعمال الصالحة والتسديد لسلوك سبيل الله وكان هو صلى الله عليه وآله وسلم منذ صباه وطفوليته أفضل الخلق في لزوم ذلك لا جرم كان خير الناس طفلاً .

الخامس : وأنجبها كهلاً ، ولما كانت النجابة مستلزمة لكرم الخصال والتقاط الفضائل وتتبعها وكان هو صلى الله عليه وآله وسلم في كهولته وزهوته منبع كل فضيلة لا جرم كان أنجبهم كهلاً . وطفلاً وكهلاً منصوبان على الحال أيضاً .

السادس : كونه أطهر المطهرين شيمة ، ولما كان صلى الله عليه وآله وسلم متمّم مكارم الأخلاق الظاهرة وكل خلق عدل فمنه مكتسب لا جرم كان أطهر الشيمة وأكرم الخلق .

---

(١) ٤ - ٤٥ .

(٢) ٣٣ - ٤٤ .

السابع : أجود المستمطرين ديمة . استعار له وصف السحاب المرجو منه نزول الديمة وهي المطر الذي لا رعد فيه ولا برق ، ورشح بلفظ الديمة وكنّى بذلك عن غاية جوده وكرمه ، وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم إذا أمسى آوى إلى البيت فلا يجد فيه شيئاً من فضة أو ذهب إلّا تصدق به ولم يبت في بيته منه شيء . وشيمة وديمة تميزان .

وقوله : فما احلولت لكم الدنيا في لذاتها . إلى قوله : من بعده .

الخطاب لبني أُميّة ونحوهم وتبكيت لهم بتطعمهم لذة الدنيا وابتهاجهم بها وتمكّنهم منها بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتذكير لهم بمخالفتهم لسنّته في ذلك . واستعار لفظ الأخلاف ، وكنى به عن وجوه مكاسب الدنيا ولذاتها ، ورشّح تلك الاستعارة بذكر الرضاع ، وكنى به عن تناولها ملاحظة لتشبيهها بالناقة .

وقوله : وصادفتموها . إلى قوله : غير موجود .

استعار لها لفظ الخطام والوضين ورشحهما بالقلق والجولان ، وكنى بذلك عن مصادفتهم للدنيا بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غير منظومة الحال ولا مضبوطة على ما ينبغي لضعف ولاتها عن إصلاح حالها كما أن الناقة قلقة الحزام ، وجائلة الخطام غير منظومة الآلة ولا مضبوطة الحالة فهي بمعرض أن تمشي وتنصرف على غير استقامة فهلك راكبها ، ثم ذكر رذيلة القوم فشبّه حرامها بالسدر المخضود معهم ، ووجه الشبه أن نواهي الله ووعيداته على فعل المحرمات تجري مجرى الشوك للسدر في كونها مانعة منه كما يمنع شوك السدر جانيه من تناول ثمرته ، ولما كان بعض الأُمّة قد طرح اعتبار النواهي والوعيد جانباً عن نفسه وفعل ما حرم عليه جرى ذلك عنده مجرى تناوله للسدر الخالي عن الشوك في استسهاله تناوله وإقدامه عليه . وكون حلالها بعيداً غير موجود : أي بين أولئك المشار إليهم . وجائلاً وقلقاً حالان .

قوله : وصادفتموها والله . إلى قوله : معدوداً .

استعار لفظ الظلّ لها ورشح بالممدود ، وكنى بذلك عن زوالها بعد حين تهديداً لهم به ، ثم استعار لفظ الشاغرة للأرض ، وكنى به عن خلوّها لهم .

يقال : بقي الأمر الفلاني شاغراً برجله إذا لم يكن له طالب ولا حام يحميه ، وكنى ببسط أيديهم فيها عن قدرتهم على التصرف ، وأراد بالقادة الخلفاء ، وبسلاطة سيوفهم على القادة جرأتهم وحكمهم عليهم ، وبقبض سيوف القادة عدم تمكنهم منهم .

وقوله : ألا إن لكل دم ثائراً . إلى قوله : من هرب .

تهديد بالله لبني أُمية وتخويف بأخذه وعقابه . وهاتان الكليتان ظاهرتا الصدق فإنه تعالى هو الثائر لكل دم معصوم والطالب به إن عدم طالبه أو ضعف ، ولما كان دم مثلهم عليهم السلام وسائر الصحابة ممن عصم الله دمه ومنع منه وحرمه يجري مجرى الحق الثابت المتعارف لله في كونه يطلب به ولا يهمله وهو الحاكم المطلق لا جرم استعار لفظ الثائر ، وإنما قال : كالحاكم لأن إطلاق لفظ الحق لله تعالى به ليس بحقيقة . إذ الحق من شأنه أن ينتفع بأخذه ويتضرّر بتركه والباري منزه عن ذلك لكن لما جرى ذلك الدم مجرى الحق له تعالى ، به أشبه الحاكم منّا في استيفاء الحق . ووصفه تعالى بأنه لا يعجزه مطلوب ولا يفوته هارب في معرض التهديد لهم بأخذه وقوته . ثم أردف ذلك بالقسم البارّ مخاطباً لبني أُميّة لتعرفنّها : أي الدنيا وإمرتها في يد غيرهم من أعدائهم . وذلك ظاهر الصدق بانتقالها إلى بني العباس، ثم شرع بعده في التنبيه على الفكر في تحصيل السعادة الباقية والخير الدائم وعلى قبول الوعظ والتذكر. فأشار إلى أنه أبصر الأبصار ما نفذ في الخير طرفه ، وأسمع الأسماع ما وعى التذكير فقبله ، وأراد بطرف البصر العقل وسمعه استعارة ، أو حسّ البصر والسمع على معنى أن أفضل إبصار البصر وسماع السمع ما عاد على المبصر والسامع بالفائدة المطلوبة منهما وهي تحصيل الكمالات النفسانية من العلوم والأخلاق ، ولما قدم ذلك أمام مقصوده أيّه بالناس بعده إلى قبول قوله والاستصباح بنوره ، واستعار لنفسه لفظ المصباح ، ورشح بذكر الشعلة والاستصباح ، واستعار لفظ العين ورشح بذكر الصفو والترويق والمتح ، ووجه الاستعارة الأُولى كونه مقتدى به كالمصباح ، ووجه الثانية كون المستفاد منه مادة الحياة الأبدية كما أن ماء العين مادة الحياة الدنيوية وكنى بترويقها من الكدر عن رسوخه فيما علم بحيث لا يتطرق إليه

فيه شبهة تكدر يقينه ، وهو أمر لهم بالاهتداء به ، وأخذ العلوم والأخلاق عنه . ثم لما أمر بأخذهما عنه أردفه بالنهي عن الجهل والركون إليه ثم عن الانقياد للأهواء الباطلة المخرجة عن كرائم الأخلاق إلى رذائلها وعن حق المصالح إلى باطلها .

وقوله : فإن النازل بهذا المنزل .

أراد المنزل المشير المدّعي للنصيحة لهم عن جهل منه بوجوه المصالح وذلك أنه عليه السلام كان يرى الرأي الصالح ، ويشير عليهم به فإذا خلا بعضهم إلى بعض فما كان من ذلك فيه مشقة عليهم من جهاد أو مواظبة على عمل شاق أشار منافقوهم المبغضون المدّعون لأهليتهم لمقامه بعكس ما رأى فيه وأشار به ردّوهم عنه إلى ما يوافق أهواءهم ويلائم طباعهم إفساداً في الدين ، وأشار عليه السلام إلى ما نزّل نفسه منزلة المشير الناصح مع أن كل ما يشير به عن هوى متبع وجهل فهو على شفا جرف هار ، واستعار لفظ الجرف للآراء الفاسدة الصادرة . فإنها لم تبن على نظام العقل ولم ترخص فيه الشريعة . فكانت منهارة لا يبنى عليها إلاّ ما كان بصدد أن ينهار ، وكأن المشير بها واقف على شفا جرف هار منها ينهار به في نار جهنم أو في الهلاك الحاضر .

يقال لمن فعل فعلاً على غير أصل أو يتوقع له منه عقوبة مثلاً : إنّه على شفا جرف هار ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ **أمّن أسس بنيانه على شفا جرف هار** ﴾[1] الآية .

وقوله : ينقل الردى على ظهره من موضع .

لما كان الردى هو الهلاك وكان الرأي الفاسد يستلزم الهلاك للمشار عليه وللمشير كان المشير على الخلق به ، عن هوى كالناقل للهلاك من شخص إلى غيره والمقسم له على من يشير عليهم به . وهو في معرض التنفير عنه .

وقوله : لرأي يحدثه بعد رأي يريد أن يلصق ما لا يلتصق .

---

(١)٩ - ١١٠ .

ذكر غاية تنقله من موضع إلى آخر فإنّ نقله للردى يستلزم أن ينقله ، وروي : ولرأى بالواو . وعلى هذا يكون كلاماً مستأنفاً ، والتقدير أن بسبب رأي يحدثه يريد إلصاق ما لا يلتصق . واستعار لفظ اللصق للصلح : أي يريد أن يصلح بينكم وبين أعدائكم، وذلك أمر لا ينصلح ، ووجه المشابهة كون الخصمين في طرفين يجمعهما الصالح ويوجب لهما الاتحاد كما يجمع اللصاق بين الملتصقين ، ويحتمل أن يريد أن يلصق بكم من الآراء الفاسدة ما لا ينبغي أن يلتصق بكم .

وكذلك قوله : ويقرّب ما لا يتقارب ويقرّب عليكم ما بينكم وبينهم من البعد والافتراق، وذلك أمر لا يتقارب . ويفهم من هذا أن من كان ينهاهم عن الركون إلى استشارته. كان يخذلهم عن الحرب بذكر الصلح بينهم وبين معاوية والدخول فيه . ثم حذّرهم الله وعقابه في أن يشكوا إلى من لا يشتكى حزنهم ، وذلك أن المشتكى إليه والمستشار إذا لم يساهم الشاكي همه لم يكن أهلاً للرأي في مثل ذلك الأمر المشكو ، وإن كان معروفاً بجودة الرأي ، وسر ذلك أن الاهتمام بالأمر يبعث رائد الفكر على الاستقصاء في تفتيش وجوه الآراء الصالحة فيه فيكون بصدد أن يستخرج منها أصلحها وأنفعها، وإن كان دون غيره في جودة الرأي بخلاف الخلي العديم الباعث على طلب الأصلح . وأردفهم بنهيهم عن أن ينقض برأيه الفاسد ما قد أبرمه هو عليه السلام لهم من الرأي الصائب في التجرد للحرب .

ثم أردفه ببيان ما يجب على الإمام مما هو تكليفه بالنسبة إلى الرعيّة ، وفائدة ذلك الإعذار إليهم فيما هم عساهم ينسبونه إليه من تقصير فيركنون إلى غيره في الرأي ونحوه ، وذكر أموراً خمسة :

الإبلاغ في موعظة العباد . ثم الاجتهاد في النصيحة لهم . ثم الإحياء لسنّة الله ورسوله فيهم . ثم إقامة الحدود التي يستحقونها بجناياتهم . ثم إصدار السهمان على أهلها . والسهمان : جمع سهم وهو النصيب المستحق به للمسلم من بيت المال . ثم لما سبق نهيه عن الركون إلى الجهل أمر هنا بالمبادرة إلى العلم من قبل تصويح نبته ، واستعار لفظ النبت ، ورشّح بذكر

التصويح ، وكنى به عن عدمه بموته عليه السلام

وقوله : من قبل أن تشغلوا بأنفسكم .

أي بتخليصها من شرور الفتن الذي ستنزل بهم من بني أمية ومعاناتها ، ومستشار العلم ما استشير منه واستخرج ، وأهله هو عليه السلام ومن في معناه . ثم أمرهم بالانتهاء عن المنكر ، ثم ينهى غيرهم فإن النهي عن الشيء بعد الانتهاء عنه هو النهي المثمر المطابق لمقتضى الحكمة . إذ كان انفعال الطباع عن مشاهدة الأفعال والاقتداء بها أقوى وأسرع منها عن سماع الأقوال خصوصاً إذا خالفها فعل القائل . وذلك أمر ظاهر شهدت به العقول السليمة والتجارب وتوافقت عليه الآراء والشرائع ، وإليه أشار الشاعر :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

١٠٣ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي شَرَعَ الإسْلاَمَ فَسَهَّلَ شَرَائِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ ، وَأَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَى مَنْ غَالَبَهُ فَجَعَلَهُ أَمْناً لِمَنْ عَلِقَهُ ، وَسَلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ ، وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ ، وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ ، وَنُوراً لِمَنِ اسْتَضَاءَ بِهِ ، وَفَهْماً لِمَنْ عَقَلَ ، وَلُبّاً لِمَنْ تَدَبَّرَ ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ ، وَتَبْصِرَةً لِمَنْ عَزَمَ ، وَعِبْرَةً لِمَنِ اتَّعَظَ ، وَنَجَاةً لِمَنْ صَدَّقَ ، وَثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ ، وَرَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ ، وَجُنَّةً لِمَنْ صَبَرَ ، فَهُوَ أَبْلَجُ الْمَنَاهِجِ ، وَأَوْضَحُ الْوَلاَئِجِ ، مُشْرَفُ الْمَنَارِ مُشْرِقُ الْجَوادِّ ، مُضِيءُ الْمَصَابِيحِ ، كَرِيمُ الْمِضْمَارِ ، رَفِيعُ الْغَايَةِ ، جَامِعُ الْحَلْبَةِ ، مُتَنَافِسُ السُّبْقَةِ ، شَرِيفُ الْفُرْسَانِ : التَّصْدِيقُ مِنْهَاجُهُ ، وَالصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ ، وَالْمَوْتُ غَايَتُهُ ، وَالدُّنْيَا مِضْمَارُهُ وَالْقِيَامَةُ حَلْبَتُهُ ، وَالْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ .

أقول : الأبلج : الواضح المشرق . والوليجة : بطانة الرجل وخاصته . والمضمار : محل تضمير الخيل للسباق . والحلبة : خيل تجمع من مواضع متفرقة للسباق ، وقد تطلق على مجمعها . والسبقة : ما يستبق عليه من الخطر .

وقد حمد الله سبحانه باعتبار ما أنعم به من وضع شريعة الإسلام للعقول لتسلك بها إليه ، وأشار بشرائعه إلى موارد العقول من أركانه ، وتسهيله لها إيضاح قواعده وخطاباته بحيث يفهمها الفصيح والألكن ويشارك الغبي في ورود مناهلها الفطن الذكي ، وإعزاز أركانه حمايتها ورفعها على من قصد هدمه وإطفاء نوره مغالبة من المشركين والجاهلين . ثم مدح الإسلام بأوصاف أسندها إلى مفيضه وشارعه سبحانه وتعالى :

أحدها : جعله أمناً لمن علقه . وظاهر كونه أمناً لمن تعلق به في الدنيا من القتل وفي الآخرة من العذاب .

الثاني : وسلماً لمن دخله : أي مسالماً له ، وفي الأول ملاحظة لتشبيهه بالحرم باعتبار دخوله ، وفي الثاني ملاحظة لشبهه بالمغالب من الشجعان باعتبار مسالمته . ومعنى مسالمة الإسلام له كونه محقون الدم مقرراً على ما كان يملكه فكأن الإسلام سالمه أو صالحه لكونه لا يقتص ما يؤذيه بعد دخوله فيه .

الثالث : كونه برهاناً لمن تكلم به : أي فيه ما هو برهان .

الرابع : كونه شاهداً لمن خاصم به : والشاهد أعمّ من البرهان لتناوله الجدل والخطابة .

الخامس : كونه نوراً يستضاء به . فاستعار له لفظ النور ، ورشحه بذكر الاستضاءة ، ووجه المشابهة كونه مقتدى به في طريق الله إلى جنته .

السادس : كونه مفهماً لمن عقل . ولما كان الفهم عبارة عن جودة تهيؤ الذهن لقبول ما يرد عليه كان الدخول في الإسلام ورياضة النفس بقواعده وأركانه سبباً عظيماً لتهيؤ الذهن لقبول الأنوار الإلهية وفهم الأسرار لا جرم أطلق عليه لفظ الفهم مجازاً إطلاقاً لاسم المسبب على السبب .

السابع : كونه لبّاً لمن تدبر . ولما كان اللبّ هو العقل أطلق عليه لفظ العقل وإن كان مسبباً له كالمجاز الأول ، وأراد العقل بالملكة وما فوقه من مراتب العقل فإن الإسلام وقواعده أقوى الأسباب لحصول العقل بمراتبه .

الثامن : كونه آية لمن توسم . وأراد من تفرّس طرق الخير ومقاصده فإن الإسلام آية وعلامة لذلك المتفرّس ، إذا اهتدى بها فقد وقع في طريق الهدى .

التاسع : كونه تبصرة لمن عزم . وأراد من عزم على أمر قصده فإن في الإسلام تبصرة لكيفية فعله على الوجه الذي ينبغي .

العاشر : كونه عبرة لمن اتعظ . وذلك ظاهر فإن الإسلام نعم المعبر بنفس المتعظ إلى حضرة قدس الله بما فيه من أحوال القرون الماضية وتصرّف الزمان بهم .

الحادي عشر : كونه نجاةً لمن صدق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاء به . فإنَّ دخوله في الإسلام سبب نجاته من سيوف الله في الدنيا وعذابه في الآخرة ، وأطلق عليه اسم النجاة إطلاقاً لاسم المسبّب على السبب .

الثاني عشر : كونه ثقة لمن توكل : أي هو سبب ثقة المتوكلين على الله لاشتماله على الوعد الكريم وبه يكون استعدادهم للتوكل .

الثالث عشر : كونه راحةً لمن فوّض : أي من ترك البحث والاستقصاء في الدلائل وتمسك بأحكام الإسلام ودلائل القرآن والسنّة المتداولة بين أهله وفوّض أمره إليه استراح بذلك التفويض . وقيل : بل المراد أن فيه الندب إلى تفويض الأمور إلى الله وعلم ما لم يعلم منها وترك التكليف به وذلك راحته ، وقيل : بل المراد أن المسلم إذ كمل إسلامه وفوّض أمره إلى الله كفاه الله جميع أُموره وأراحه من الاهتمام بها .

الرابع عشر : كونه جنة لمن صبر : أي صبر على العمل بقواعده وأركانه ، وظاهر كونه جنّة من عذاب الله ، ولفظ الجنة مستعار .

الخامس عشر : أبلج المناهج ، ومناهج الإسلام طرقه وأركانه الذي يصدق على من سلكها أنه مسلم ، وهي الإقرار بالله ورسوله والتصديق بما ورد به الشريعة كما يفسره هو به ، وظاهر كونها أنوار واضحة الهدى .

السادس عشر : كونه واضح الولائج : واضح البواطن والأسرار لمن نظر إليه بعين الاعتبار .

السابع عشر : كونه مشرف المنار ، ومنار الإسلام الأعمال الصالحات التي يقتدي بها السالكون كالعبادات الخمس ونحوها ، وظاهر كونه مشرفة عالية على غيرها من العبادات السابقة .

الثامن عشر : كونه مشرق الجواد . وهو قريب من أبلج المناهج .

التاسع عشر : كونه مضيء المصابيح . وكنى بها عن علماء الإسلام وأئمته كناية بالمستعار ، ورشّح بذكر الإضاءة ، وكنى بها عن ظهور العلم عنهم واقتداء الخلق بهم ، ويحتمل أن يريد بالمصابيح أدلة الإسلام كالكتاب والسنّة .

العشرون : كونه كريم المضمار ، ومضمار الإسلام الدنيا كما سنذكره ، ولا شك في كونها كريمة باعتبار اقتباس الأنوار منها والعبور بها إلى الله تعالى ، ولفظ المضمار مستعار لها ، وقد سبق بيانه .

الحادي والعشرون : كونه رفيع الغاية ، ولما كانت غايته الوصول إلى حضرة رب العالمين التي هي جنة المأوى لا جرم كان رفيع الغاية . إذ لا غاية أرفع منها وأعلى مرتبة .

الثاني والعشرون : كونه جامع الحلبة، واستعار لفظ الحلبة للقيامة فإنها حلبة الإسلام كما سنبيّنه ، ووجه الاستعارة كونها محل الاجتماع بها للسباق إلى حضرة الله التي هي الجنة كاجتماع الخيل للسباق إلى الرهن .

الثالث والعشرون : كونه متنافس السبقة ، ولما كانت سبقته الجنة كانت أشرف ما يتنافس فيها .

الرابع والعشرون : كونه شريف الفرسان ، واستعار لفظ الفرسان لعلمائه الذين هم فرسان العلوم ورجالها ملاحظة لشبههم بالفرس الجواد الذي يجاري راكبه .

الخامس والعشرون : التصديق منهاجه ، وهي إلى آخره تفسير لما أُهمل تفسيره من منهاجه ومناره وغايته ومضماره وحلبته وسبقته ، وإنما جعل الموت غاية : أي الغاية القريبة التي هي باب الوصول إلى الله تعالى ، ويحتمل أن يريد بالموت موت الشهوات فإنها غاية قريبة للإسلام أيضاً ،

وكذلك استعار لفظ السبقة للجنة لكونها الثمرة المطلوبة والغاية من الدين كما أن السبقة غاية سعي المتراهنين .

منها في ذكر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

حَتَّى أَوْرَى قَبَساً لِقَابِسٍ ، وَأَنَارَ عَلَماً لِحَابِسٍ ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ ، وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ ، وَبَعِيثُكَ نِعْمَةً ، وَرَسُولُكَ بِالْحَقِّ رَحْمَةً . اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَهُ مَقْسَماً مِنْ عَدْلِكَ ، وَاجْزِهِ مُضَاعَفَاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ . اللَّهُمَّ أَعْلِ عَلَى بِنَاءِ الْبَانِينَ بِنَاءَهُ ، وَأَكْرِمْ لَدَيْكَ نُزُلَهُ ، وَشَرِّفْ عِنْدَكَ مَنْزِلَتَهُ ، وَآتِهِ الْوَسِيلَةَ وَأَعْطِهِ السَّنَاءَ وَالْفَضِيلَةَ ، وَاحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ غَيْرَ خَزَايَا ، وَلاَ نَادِمِينَ ، وَلاَ نَاكِبِينَ ، وَلاَ نَاكِثِينَ ، وَلاَ ضَالِّين ، وَلاَ مُضِلِّينَ ، وَلاَ مَفْتُونِينَ .

قال الشريف : وقد مضى هذا الكلام فيما تقدم ، إلاّ أننا كررناه ههنا لما في الروايتين من الاختلاف .

أقول : القبس : الشعلة ، وأورى : أشعل . والحابس : الواقف بالمكان . والنزل : ما يهيأ للنزيل من ضيافة ونحوها . والسناء : الرفعة . والزمرة : الجماعة من الناس . والناكب : المنحرف من الطريق .

فقوله : حتى أورى . إلى قوله : لحابس .

غاية لكلام مدح فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذكر جهاده واجتهاده في الدين للغاية المذكورة ، واستعار لفظ القبس لأنوار الدين المشتعلة لتقتبس منها نفوس الخلائق أنوار الهدى ، وكذلك استعار لفظ العلم وأسند إليه تنويره ، ويفهم منه أمران :

أحدهما : أنه أظهر أنواراً جعلها أعلاماً يهتدى بها في سبيل الله من حبسته [أجلسته خ] ظلمة الحيرة والشبهة عن سلوكها فهو واقف على ساق التحيّر كقوله تعالى : ﴿ **وإذا أظلم عليهم قاموا** ﴾[1] . وكنى بتلك الأعلام عن آيات الكتاب والسنن .

---

(١) ٢ - ١٩ .

الثاني : أن يكون المراد بالأعلام أئمة الدين ، وتنويره لها تنوير قلوبهم بما ظهر عن نفسه القدسية من الكمالات والعلوم .

وقوله : فهو أمينك المأمون .

أي على وحيك ، وشهيدك يوم الدين : أي على خلقك ، وبعيثك نعمةً : أي مبعوثك إليهم نعمة عليهم بهدايتهم به إلى جنتك ، ورسولك بالحق رحمة لعبادك أن يقعوا في مهاوي الهلاك بسخطك ﴿ **وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين** ﴾ ثم أردفه بالدعاء له صلى الله عليه وآله وسلم فدعا الله أن يقسم له مقسماً من عدله ، ولما كان مقتضى عدل الله أن يبلغ نفساً هي محل الرسالة أقصى ما استعدت له من درجات الكمال ويعدّها بذلك لكمال أعلى ، دعا له أن يقسم له نصيباً وافراً من عدله يعدّه به للدرجات من رتب الوصول الغير المتناهية .

وقوله : واجزه مضاعفات الخير من فضلك .

لما دعا له بما يستحقه زاد على ذلك فدعا له بأن يتفضّل عليه بزيادة من فضله فيضاعف له ما يستحقه من الخيرات .

وقوله : اللهم أعل على بناء البانين بناءَه .

دعاء ليشيّد ما بناه من قواعد الدين على سائر بناء البانين للشرايع من الرسل قبله ، وأراد ما بناه لنفسه من مراتب الكمال ، ولفظ البناء مستعار . ثم دعا أن يكرم لديه ما هيأه له من الثواب الجزيل وأن يشرف مقامه في حضرة قدسه وأن يؤتيه ما يتوسل به إليه وَيقرّبه منه ، وهو أن يكمل استعداده لما هو أتم القوة على الوصول إليه ، وأن يعطيه الرفعة ويشرفه بالفضيلة التامة ، وأن يحشره في زمرته على أحوال : غير خازين : أي بقبائح الذنوب ، ولا نادمين على التفريط في جنب الله والتقصير في العمل بطاعته ، ولا ناكبين منحرفين عن سبيله إلى أحد طرفي التفريط والإفراط ، ولا ناكثين لعهوده ومواثيقه التي واثق بها خلقه أن يعبدوه ويخلصوا له الدين ، ولا ضالين عن سواء السبيل العدل ، ولا مفتونين بشبهات الأباطيل . وبالله التوفيق .

ومنها في خطاب أصحابه :

وَقَدْ بَلَغْتُمْ مِنْ كَرَامَةِ الله لَكُمْ مَنْزِلَةً تُكْرَمُ بِهَا إمَاؤُكُمْ ، وَيُوصَلُ بِهَا

جِيرَانُكُمْ وَيُعَظِّمُكُمْ مَنْ لاَ فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْهِ ، وَلاَ يَدَلُكُمْ عِنْدَهُ ، وَيَهَابُكُمْ مَنْ لاَ يَخَافُ لَكُمْ سَطْوَةً ، وَلاَ لَكُمْ عَلَيهِ إِمْرَةٌ ، وَقَدْ تَرَوْنَ عُهُودَ الله مَنْقُوضَةً فَلاَ تَغْضَبُونَ وَأَنْتُمْ لِنَقْضِ ذِمَمِ آبَائِكُمْ تَأْنَفُونَ ، وَكَانَتْ أُمُورُ الله عَلَيْكُمْ تَرِدُ ، وَعَنْكُمْ تَصْدُرُ ، وَإِلَيْكُمْ تَرْجِعُ ، فَمَكَّنْتُمُ الظَّلَمَةَ مِن مَنْزِلَتِكُمْ ، وَأَلْقَيْتُمْ إِلَيْهِمْ أَزِمَّتَكُمْ وَأَسْلَمْتُمْ أُمُورَ الله فِي أَيْدِيهِمْ ، يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ ، وَيَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ وَأَيْمُ الله لَوْ فَرَّقُوكُمْ تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ لَجَمَعَكُمُ الله لِشَرِّ يَوْمٍ لَهُمْ .

أقول : صدر هذا الفصل بتذكيرهم المنزلة التي أكرمهم الله بها من الإسلام والهداية للإيمان، وما في تلك المنزلة من الفضل حتى عمت حرمتها إماءهم وجيرانهم وإن كانوا غير مسلمين ، وعظمهم من لا فضل لهم عليه ولا يدلهم عنده ، وهابهم من لا يخاف سطوتهم . وظاهر أن سبب ذلك كلّه هو كرامة الله لهم بالإسلام والهداية للإيمان . ثم لما قرر نعمة الله عليهم أردف ذلك بالتوبيخ لهم على التقصير في أداء واجب حقه ، وأشار إلى ارتكابهم لبعض مسببات كفران نعمته وهو عدم إنكارهم لما يرون من نقض عهود الله وسكوتهم عليها وعدم غضبهم منها كالراضين بذلك ، وأراد بذلك بغي البغاة وخروج الخوارج وسائر المنكرات التي وقعت من أهل الشام وغيرهم ، خالفوا فيها أمر الله ونكثوا بيعته التي هي عهد من عهود الله عليهم. فإن السكوت على مثل ذلك مع التمكن من إزالته وإنكاره بالجهاد منكرٌ هم راكبوه ، والواو في قوله : وأنتم للحال : أي وأنتم مع ذلك تأنفون لنقض ذمم آبائكم فكان يجب منكم بطريق الأولى أن تأنفوا لعهود الله أن تنقض وذممه أن تخفر .

ثم ذكرهم تفريطهم وتهاونهم في الأمور التي كان الله سبحانه فرضها عليهم وجعلهم موردها ومصدرها من أمور الإسلام وأحكامه والتسلط به على سائر الناس ، وبكتهم بتمكينهم الظلمة في منزلتهم تلك من الإسلام ، وأراد بالظلمة معاوية وقومه وبتمكينهم لهم تخاذلهم عنهم وإلقائهم أزمة الأمور إليهم بذلك ، ولفظ الأزمة مستعار ، والأمور التي سلّموها إليهم أحوال بلاد الإسلام . كل ذلك بالتقصير عن مجاهدتهم . وعملهم بالشبهات : عملهم على وفق أوهامهم الفاسدة وآرائهم الباطلة التي يتوهمونها

حججاً فيما يفعلون ، وسيرهم في الشهوات : قطع أوقاتهم بالانهماك في مقتضيات الشهوة .

وقوله : وأيم الله . إلى آخره .

تحذير لهم وإنذار بما سيكون من بني أمية من جمع الناس في بلائهم وشرورهم وعموم فتنتهم ، وكنى باليوم عن مدة خلافتهم التي كانت شرّ الأوقات على الإسلام وأهله ، وإنما نسب التفريق إليهم والجمع إلى الله تقريراً لما سينزل به قدره من ابتلاء الخلق بهم . فإنهم لو فرّقوهم في أطراف البلاد لم يغنهم ذلك التفريق عن لحوق قدر الله لهم ولم يمنعهم من نزوله بجميعهم بما يراد لهم من الابتلاء بدولة بني أمية وشرورها ، وأحوال دولتهم مع الخلق خصوصاً الصالحين من عباد الله ظاهرة . وبالله العصمة والتوفيق .

١٠٤ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

وَقَدْ رَأَيْتُ جَوْلَتَكُمْ ، وَآنْحِيَازَكُمْ عَنْ صُفُوفِكُمْ ، تَحُوزُكُمُ الْجُفَاةُ الطَّغَامُ وَأَعْرَابُ أَهْلِ الشَّامِ ، وَأَنْتُمْ لَهَامِيمُ الْعَرَبِ ، وَيَآفِيخُ الشَّرَفِ ، وَالأَنْفُ الْمُقْدِمِ وَالسَّنَامُ الأَعْظَمُ ، وَلَقَدْ شَفَى ، وَحَاوِحَ صَدْرِي ، أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخَرَةٍ تَحُوزُونَهُمْ كَمَا حَازُوكُمْ ، وَتُزِيلُونَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ كَمَا أَزَالُوكُمْ ؛ حَسّاً بِالنِّصَالِ وَشَجْراً بِالرِّمَاحِ ، تَرْكَبُ أُولاَهُمْ أُخْرَاهُمْ كَالإِبِلِ الْهِيمِ الْمَطْرُودَةِ ، تُرْمَى عَنْ حِيَاضِهَا ، وَتُذَادُ عَنْ مَوَارِدِهَا .

أقول : الجولة : الدولة . وانحاز : زلّ . والطغام : أوغاد الناس . واللهاميم : جمع لهموم وهو الجواد من الناس . واليآفيخ : جمع يأفوخ وهو أعلى الدماغ . والوحاوح : جمع وحوحة وهو صوت فيه بحح يصدر عن المتألم . والحس : الاستئصال . والنضال : جمع نضل السيف . والشجر : الطعن . وتذاد . تساق وتطرد .

وفي هذا الفصل تبكيت لأصحابه بانحيازهم عن عدوّهم وتقريع ، ثم تنحية وإغراء كيلا يعادوا إلى الفرّ ، وذلك قوله : وقد رأيت . إلى قوله : أهل الشام : أي وقد رأيت تخاذلكم عنهم حتى حازكم أراذل أهل الشام مع أنكم

أهل الشرف وسادات العرب ، واستعار لفظ اليآفيخ لهم . إذ كانوا بالنسبة إلى العرب في علوّهم وشرفهم كاليآفيخ بالنسبة إلى الأبدان ، وكذلك استعار لفظ الأنف والسنام ، ووجه المشابهة عزّهم وشرفهم كعزة الأنف وتقدمه ، وحسن الوجه به بالنسبة إلى باقي الأعضاء ، وكعزّة السنام وعلوه بالنسبة إلى باقي أعضاء الجمل . ثم أردف ذلك التبكيت والتذكير بالرذيلة بذكر فضيلتهم التي ختموا بها، وهي حوزهم لعدوّهم بالأخرة. كحوزهم لهم أولاً وإزالتهم عن مواقفهم كما أزالوهم وحسهم استئصالاً وطعناً يركب مقدمهم تاليهم ، وأولهم آخرهم ليثبتوا على مثل هذه الأفعال في مثل تلك المواقف ، وعدّ ذلك شفاء لوحاوح صدره ، وكنىّ بالوحاوح عما كان يجده من التألم بسبب انقهار أصحابه وغلب عدوهم لهم وشبّههم في تضعضعهم وركوب بعضهم لبعض مولين بالإبل العطاش التي اجتمعت على الحياض لتشرب ثم طردت ورميت عنها بالسهام وذيدت عما وردته فإن طردها على ذلك الاجتماع يوجب لها أن يركب بعضها بعضاً ويقع بعضها على بعض . وبالله التوفيق .

١٠٥ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

وهي من خطب الملاحم :

الْحَمْدُ للهِ الْمُتَجَلِّي لِخَلْقِهِ بِخَلْقِهِ ، وَالظَّاهِرِ لِقُلُوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ ، خَلَقَ الْخَلْقَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ ، إِذْ كَانَتِ الرَّوِيَّاتُ لاَ تَلِيقُ إِلاَّ بِذَوِي الضَّمَائِرِ . وَلَيْسَ بِذِي ضَمِيرٍ فِي نَفْسِهِ. خَرَقَ عِلْمُهُ بَاطِنَ غَيْبِ السُّتُرَاتِ ، وَأَحَاطَ بِغُمُوضِ عَقَائِدِ السَّرِيرَاتِ .

أقول : حمد الله تعالى باعتبارات خمسة :

أحدها : اعتبار تجليه لخلقه بخلقه ، وقد علمت غير مرة أن تجليه يعود إلى إجلاء معرفته من مصنوعاته لقلوب عباده حتى أشبهت كل ذرّة من مخلوقاته مرآة ظهر فيها لهم . فهم يشاهدونه على قدر قبولهم لمشاهدته وتفاوت تلك المشاهدة بحسب تفاوت أشعة أبصار بصائرهم . فمنهم من يرى الصنيعة أولاً والصانع ثانياً ، ومنهم من يراهما معاً ، ومنهم من يرى الصانع أولاً ، ومنهم من لا يرى مع الصانع غيره .

الثاني : الظاهر لقلوبهم بحجته : أي الواضح وجوده لقلوب منكريه بأوهامهم وألسنتهم بقيام حجته عليهم بذلك وهي إحكام الصنع وإتقانه في أنفسهم وإن احتاجوا إلى تنبيه ما. كقوله تعالى : ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ وكذلك في ملكوت السماوات والأرض كقوله تعالى : ﴿ **أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء** ﴾[1]. الآية وهو قريب مما مرّ .

الثالث : خلقه الخلق بلا روية وفكر في كيفية خلقه ، وأشار إلى برهان سلب الروية عنه بقوله : إذ كانت الرويّات لا تليق إلّا بذوي الضمائر : أي بذي قلب وحواس بدنيّة . وليس بذي ضمير في نفسه . والقياس من الشكل الثاني ، وترتيبه كل روية فلذي ضمير ، ولا شيء من واجب الوجود بذي ضمير . فينتج أنه لا شي من الروية لواجب الوجود سبحانه . والمقدمتان جليتان مما سبق غير مرّة .

الرابع : كون علمه خارقاً لباطن غيب السترات ، وهو إشارة إلى نفوذه في كل مستتر وغائب بحيث لا يحجبه ستر ولا يستره حجاب .

الخامس : كونه محيطاً بغموض عقائد السريرات : أي بما دقّ من عقائد أسرار القلوب كقوله تعالى : ﴿ **يعلم السر وأخفى** ﴾ .

منها في ذكر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم):

آخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ الأَنْبِيَاءِ ، وَمِشْكَاةِ الضِّيَاءِ ، وَذؤابَةِ الْعَلْيَاءِ ، وَسُرَّةِ الْبَطْحَاءِ ، وَمَصَابِيحِ الظُّلْمَةِ ، وَيَنَابِيعِ الْحِكْمَةِ .

أقول : الذؤابة : ما تدلى من الشعر ونحوه . وبطحاء مكة : بسيط واديها . وسرّة الوادي : أشرف موضع فيه .

وفي الفصل استعارات :

الأولى : لفظ الشجرة لصنف الأنبياء عليهم السلام ووجه المشابهة كون ذلك الصنف ذا ثمر وفروع ؛ ففروعه أشخاص الأنبياء ، وثمره العلوم والكمالات

(1) ٧ - ١٨٣ .

النفسانية كما أن الشجرة ذات غصون وثمر .

الثانية : لفظ المشكاة لآل إبراهيم ، ووجه المشابهة أن هؤلاء قد ظهرت منهم الأنبياء وسطع من بيتهم ضياء النبوة ونور الهداية كما يظهر نور المصباح من المشكاة.

الثالثة : لفظ الذؤابة. ويشبه أن يشير به إلى قريش ، ووجه المشابهة تدليهم في أغصان الشرف والعلوّ عن آبائهم كتدلي ذؤابة الشعر عن الرأس .

الرابعة : سرّة البطحاء ، وأشار به إلى اختياره من أفضل بيت في مكة .

الخامسة : استعارة لفظ المصابيح للأنبياء أيضاً . ووجه المشابهة ظاهر . وقد مرّ غير مرّة كونهم مصابيح ظلمات الجهل .

السادسة : استعارة لفظ الينابيع ، ووجه المشابهة فيضان العلم والحكمة عنهم كفيضان الماء عن ينابيعه .

ومنها : طَبيبٌ دَوّارٌ بِطِبِّهِ : قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ ، وَأَحْمَى مَوَاسِمَهُ يَضَعُ مِنْ ذَلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ : مِنْ قُلُوبٍ عُمْيٍ ، وَآذَانٍ صُمٍّ ، وَأَلْسِنَةٍ بُكْمٍ مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ ، وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَضْوَاءِ الْحِكْمَةِ وَلَمْ يَقْدَحُوا بِزِنَادِ الْعُلُومِ الثَّاقِبَةِ ، فَهُمْ فِي ذَلِكَ كَالأَنْعَامِ السَّائِمَةِ ، وَالصُّخُورِ الْقَاسِيَةِ . قَدِ انْجَابَتِ السَّرَائِرُ لأَهْلِ الْبَصَائِرِ ، وَوَضَحَتْ مَحَجَّةُ الْحَقِّ لِخَابِطِهَا وَأَسْفَرَتِ السَّاعَةُ عَنْ وَجْهِهَا ، وَظَهَرَتِ الْعَلاَمَةُ لِمُتَوَسِّمِهَا . مَا لِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحاً بِلاَ أَرْوَاحٍ ؟ وَأَرْوَاحاً بِلاَ أَشْبَاحٍ ، وَنُسَّاكاً بِلاَ صَلاَحٍ ، وَتُجَّاراً بِلاَ أَرْبَاحٍ ، وَأَيْقَاظاً نُوَّماً ، وَشُهُوداً غُيَّباً ، وَنَاظِرَةً عَمْيَاءَ ، وَسَامِعَةً صَمَّاءَ ، وَنَاطِقَةً بَكْمَاءَ ؟ رَأَيْتُ ضَلاَلَةً ، قَدْ قَامَتْ عَلَى قُطْبِهَا ، وَتَفَرَّقَتْ بِشُعَبِهَا ، تَكِيلُكُمْ بِصَاعِهَا وَتَخْبِطُكُمْ بِبَاعِهَا ، قَائِدُهَا خَارِجٌ عَنِ الْمِلَّةِ ، قَائِمٌ عَلَى الضِّلَّةِ ، فَلاَ يَبْقَى يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ إِلاَّ ثُفَالَةٌ كَثُفَالَةِ الْقِدْرِ ، أَوْ نُفَاضَةٌ كَنُفَاضَةِ الْعِكْمِ ، تَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الأَدِيمِ ، وَتَدُوسُكُمْ دَوْسَ الْحَصِيدِ ، وَتَسْتَخْلِصُ الْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمُ اسْتِخْلاَصَ الْحَبَّةِ الْبَطِينَةِ ، مِنْ بَيْنِ هَزِيلِ الْحَبِّ ، أَيْنَ تَذْهَبُ بِكُمُ الْمَذَاهِبُ وَتَتِيهُ بِكُمُ

الْغَيَاهِبُ ، وَتَخْدَعُكُمُ الْكَوَاذِبُ ؟؟ وَمِنْ أَيْنَ تُؤْتَوْنَ وَأَنّي تُؤْفَكُونَ ؟ فَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ، وَلِكُلِّ غَيْبَةٍ إِيَابٌ ، فَاسْتَمِعُوهُ مِنْ رَبَّانِيِّكُمْ وَأَحْضِرُوهُ قُلُوبَكُمْ ، وَاسْتَيْقِظُوا إِنْ هَتَفَ بِكُمْ ، وَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ ، وَلْيَجْمَعْ شَمْلَهُ ، وَلْيُحْضِرْ ذِهْنَهُ ؛ فَلَقَدْ فَلَقَ لَكُمُ الأَمْرَ فَلْقَ الْخَرَزَةِ ، وَقَرَفَهُ قَرْفَ الصَّمْغَةِ ، فَعِنْدَ ذٰلِكَ أَخَذَ الْبَاطِلُ مَآخِذَهُ ، وَرَكِبَ الْجَهْلُ مَرَاكِبَهُ ، وَعَظُمَتِ الطَّاغِيَةُ ، وَقَلَّتِ الدَّاعِيَةُ ، وَصَالَ الدَّهْرُ صِيَالَ السَّبُعِ الْعَقُورِ ، وَهَدَرَ فَنِيقُ الْبَاطِلِ بَعْدَ كُظُومٍ ، وَتَوَاخَى النَّاسُ عَلَى الْفُجُورِ وَتَهَاجَرُوا عَلَى الدِّينِ ، وَتَحَابُّوا عَلَى الْكَذِبِ ، وَتَبَاغَضُوا عَلَى الصِّدْقِ ، فَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَانَ الْوَلَدُ غَيْظاً وَالْمَطَرُ قَيْظاً ، وَتَفِيضُ اللِّئَامُ فَيْضاً ، وَتَغِيضُ الْكِرَامُ غَيْظاً ، وَكَانَ أَهْلُ ذٰلِكَ الزَّمَانِ ذِئَاباً ، وَسَلاَطِينُهُ سِبَاعاً ، وَأَوْسَاطُهُ أُكَّالاً ، وَفُقَرَاؤُهُ أَمْوَاتاً ، وَغَارَ الصِّدْقُ . وَفَاضَ الْكَذِبُ ، وَاسْتُعْمِلَتِ الْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ ، وَتَشَاجَرَتِ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ ، وَصَارَ الْفُسُوقُ نَسَباً ، وَالْعَفَافُ عَجَباً ، وَلُبِسَ الإِسْلاَمُ لُبْسَ الْفَرْوِ مَقْلُوباً .

أقول : المواسم : المسامير التي تكوي . وانجابت : انكشفت والمتوسم : المتفرس . والضلّة : الضلال . والعكم بكسر العين : العدل والبطينة : الممتلية . والغياهب : الظلم . وتؤفكون : تصرفون . والفنيق : الفحل المكرم . وكظوم الجمل : سكوته عن الجرة .

فقوله : طبيب دوّار بطبه .

كناية عن نفسه كناية بالمستعار فإنه طبيب مرضى الجهل ورذائل الأخلاق ، وكنى بدورانه بطبه تعرضه لعلاج الجهّال من دائهم ونصب نفسه لذلك ، واستعار لفظ المراهم لما عنده من العلوم ومكارم الأخلاق ، ولفظ المواسم لما يتمكن منه من إصلاح من لا ينفع فيه الموعظة والتعليم بالجلد وسائر الحدود . فهو كالطبيب الكامل الذي يملك المراهم والأدوية والمكاوي لمن لا ينفع فيه المراهم يضع كل واحد من أدويته ومواسمه حيث الحاجة إليه من قلوب عمي يفتح عماها بإعدادها لقبول أنوار العلم والهداية لسلوك سبيل

الله ، ومن آذان صمّ يعدها لقبول المواعظ ، وتجوّز بلفظ الصمم في عدم انتفاع النفس بالموعظة من جهتها فهي كالصماء إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه . إذ كان الصمم يستلزم ذلك العدم ، ومن ألسنة بكم يطلقها بذكر الله والحكمة ، وأطلق لفظ البكم مجازاً في عدم المطلوب منها بوجودها وهو التكلم بما ينبغي فإنها لفقدها ذلك المطلوب كالبكم .

وقوله : متّبع .

صفة لطبيب ، ومواضع الغفلة ومواطن الحيرة كناية عن قلوب الجهّال [الجهلة خ] ولذلك أشار إليهم بأنهم لم يستضيؤوا بأضواء الحكمة : أي لم يكسبوا شيئاً من العلوم والأخلاق، ولم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة التي تثقب سترات الحجب كما يستخرج بالزناد النار .

وقوله : فهم في ذلك : أي في عدم استضاءتهم بأضواء الحكمة كالأنعام السائمة والصخور القاسية . ووجه المشابهة بينهم وبين الأنعام استواؤهم في الغفلة والانخراط في سلك الشهوة والغضب دون اعتبار شيء من حظ العقل وعدم التقيّد به كما لا قيد للأنعام السائمة . وبينهم وبين الصخور قساوة قلوبهم وعدم لينها وخشيتها من ذكر الله وآياته كما قال تعالى : ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة** ﴾[1] .

وقوله : قد انجابت السرائر لأهل البصائر .

إشارة إلى انكشاف ما يكون بعده لنفسه القدسية ولمن تفرّس من أُولي التجارب والفطن السليمة مما يكون من ملوك بني أُمية وعموم ظلمهم ، ويحتمل أن يريد بالسرائر أسرار الشريعة وانكشافها لأهلها .

وقوله : ووضحت محجّة الحق لخابطها .

إشارة إلى وضوح الشريعة وبيان طريق الله ، وفائدة القضية الأُولى التنبيه على النظر في العواقب ، وفائدة الثانية الجذب إلى اتباع الدين وسلوك سبيل الله إذ لا عذر للخابطين في جهالاتهم بعد وضوح دين الله .

---

(١) ٢ - ٦٩ .

وقوله : وأسفرت الساعة عن وجهها :

أي بدت مقبلة ، ولما كان وجه الشيء أول ما يبدو منه وينظر كنى به عما بدا من أمر الساعة وهو قيام الفتن وإقبالها .

وقوله : وظهرت العلامة لمتوسّمها :

أي علامة قيام الساعة وهي الفتن المتوقعة المتفرّسة (المتغرّسة خ) من بني أمية ومن بعدهم ، وذكره لإسفار الساعة وعلاماتها تهديد وترغيب في العمل لها .

وقوله : ما لي أراكم أشباحاً بلا أرواح .

شبّههم في عدم انتفاعهم بالعقول وعدم تحريك المواعظ والتذكير لهم بالجمادات الخالية من الأرواح ، كما قال تعالى : ﴿ **كأنهم خشب مسنّدة** ﴾[1] .

وقوله : وأرواحاً بلا أشباح .

قيل فيه وجوه : **الأول** : أن ذلك مع ما قبله إشارة إلى نقصانهم : أي أن منهم من هو شبح بلا أرواح كما سبق ، ومن كان له روح وفهم فلا قوة له بأمر الحرب ولا نهضة معه فهو كروح خلت عن بدن ، فهم في طريق تفريط وإفراط .

الثاني : قيل : كنى بذلك عن عدم نهضة بعضهم إلى الحرب دون بعض إذا دعوا إليه كما لا يقوم البدن بدون الروح ولا الروح بدون البدن .

الثالث : قال بعضهم : أراد أنّهم إن خافوا ذهلت عقولهم وطارت ألبابهم فكانوا كالأجسام بلا أرواح وإن أمنوا تركوا الاهتمام بأمورهم وضيّعوا الفرص ومصالح الإسلام حتى كأنهم في ذلك أرواح لا تعلق لها بما تحتاج الأجسام إليه .

وقوله : ونسّاكاً بلا صلاح .

---

(١) ٦٣ - ٤ .

إشارة إلى أن من تزهّد منهم زهده ظاهري ليس عن صلاح سريرته . وقيل : أراد من تزهد منهم عن جهل فإنه وإن عمل إلّا أن أعماله لما لم تكن عن علم كانت ضائعة واقعة على غير الوجه المرضي والمأمور به . كما روي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : الزاهد الجاهل مسخرة الشيطان .

وقوله : وتجّاراً بلا أرباح .

إشارة إلى من يتّجر منهم بالأعمال الفاسدة وهو يعتقد كونها قربة إلى الله مستلزمة لثوابه وليس كذلك ، ولفظ التجّار والربح مستعاران ، ووجه الاستعارتين ظاهر.

وقوله : وأيقاظاً نوماً .

كنّى بنومهم عن نوم نفوسهم في مراقد الطبيعة ومماهد الغفلة فهم بهذا الاعتبار أيقاظ العيون نوم العقول .

وقوله : وشهوداً غيباً :

أي شهوداً بأبدانهم غيّباً بعقولهم عن التفطن لمقاصد الله والتلقي لأنواره من الموعظة والأوامر الإلهية .

وقوله : وناظرة عمياء .

أراد وعيوناً ناظرة عمياء : أي عن تصفّح آثار الله للعبرة بها والانتفاع في أمر الآخرة فهي تشبه العمى في عدم الفائدة بها .

وقوله : وسامعةً صمّاء :

أي : وآذاناً سامعة للأصوات صماء عن نداء الله والنافع من كلامه فهي تشبه الصم في عدم الفائدة المقصودة .

وقوله : وناطقة بكماء :

أي : وألسنة ناطقة بكماء عن النطق بما ينبغي فأشبهت البكم ، ولفظ العمياء والصماء والبكماء مستعار للمشابهات المذكورة ، وقد راعى في ذلك التضاد في الألفاظ وأراد ذوي عيون وآذان وألسنة بالصفات المذكورة : أي خالية عن الفائدة .

وقوله : راية ضلالة [رأيت ضلالة خ] .

لما نبّهم وأيقظهم بالتوبيخ والتقريع والتنقيص ألقى إليهم ما ينبغي أن يحترزوا منه ويأخذوا أهبتهم له من ظهور الفتن المتوقعة لبني أمية ، وكنّى عن ظهورها بقوله : راية ضلالة ، والتقدير هذه راية ضلالة ، وكنّى بقيامها على قطبها عن اجتماع أهلها على قائد الفتنة ورئيسهم فيها ، وكنّى بالقطب عنه كناية بالمستعار . وتفرّقها وتشعبها انتشارها في الآفاق وتولّد فتن أخرى عنها. ثمّ استعار لفظ الكيل لأخذهم وإهلاكهم زمرة زمرة ملاحظة لشبهها بالكيّال في أخذه لما يكيل جملة جملة ، ورشّح بلفظ الصاع ، وكذلك استعار لفظ الخبط لإيقاع السيف والأحكام الجائرة فيهم على غير قانون ديني ولا نظام حق لشبهها بالبكرة النفور من الإبل التي تخبط ما تلقاه بيديها ، ورشح الاستعارة بذكر الباع . ولم يقل بيدها لأن ذكر الباع أبلغ في البعير عن قوة الخبط .

وقوله : قائدها خارج عن الملة :

أي خارج عن الدين والشريعة فاسق عن أمر الله قائم على الضلة : أي مقيم على الضلالة .

وقوله : فلا يبقى يومئذٍ منكم إلاّ ثفالة كثفالة القدر .

استعار لفظ الثفالة وكنى به عمّن لا خير فيه من الأرذال ومن لا ذكر له ولا شهرة ، وشبّه أولئك بثفالة القدر في كونهم غير معتبرين ولا ملتفت إليهم ، وكذلك نفاضة العرك وهو ما يبقى في أسفل العدل من أثر الزاد أو الحنطة ونحوها . ثم استعار لفظ العرك لتقليب الفتن لهم ورميهم وتذليلهم بها كما يذلل ويلين الأديم ، وكذلك استعار لفظ الدوس لإهانتهم لهم وشدّة امتهانهم إيّاهم بالبلاء ، وشبّه ذلك بدوس الحصيد من الحنطة ونحوها وهو ظاهر ، ثم أشار إلى استقصاء أهل تلك الضلالة على المؤمنين، واستخلاصهم لهم لإيقاع المكروه بهم ، وشبّه ذلك الاستخلاص باستخلاص الطير الحبّة السمينة الممتلئة من الفارغة الهزيلة وذلك أن الطير ترتاز بمنقاره سمين الحب من هزيله فيخلى عن الهزيل منه . ثم أخذ يسألهم على سبيل

التهكّم والتقريع لهم ببقائهم على غوايتهم فسألهم عن غاية أخذ مذاهب الضلال ، وعما تتيه بهم ظلم الجهالات ، وعمّا تخدعهم أوهامهم الكواذب جاذباً لهم إليه ، منكراً عليهم مطلوباً آخر غير الله تعالى ، رادعاً لهم من طريق غير شريعته . ثم سألهم عن الجهة التي يؤتون منها : أي من أين أتتكم هذه الأمراض . وهو عليه السلام يعلم أن الداخل إنما دخل عليهم من جهلهم لكن هذا وجه من البلاغة، وذكرنا أنه يسمى تجاهل العارف وهو كقوله تعالى : ﴿ **فأين تذهبون** ﴾ وكذلك قوله : ﴿ **فأنّى تؤفكون** ﴾: أي متى يكون انصرافكم عما أنتم عليه من الغفلة .

وقوله : ولكل أجل كتاب ولكل غيبة إياب .

تهديد بالإشارة إلى قرب الموت وأنهم بمعرض أن يأخذهم على غفلتهم فيكونوا من الأخسرين أعمالاً . ثم أمرهم باسماع الموعظة منه . والرباني : العالم علم الربوبية المتبحر فيه . ثم بإحضار قلوبهم وهو التفاتهم بأذهانهم إلى ما يقول : ثم بالاستيقاظ من نوم الغفلة عند هتفه بهم وندائه لهم .

وقوله : وليصدق رائد أهله . مثل نزله هنا على مراده ، وأصله : لا يكذب رائد أهله . فاستعار لفظ الرائد للفكر ، ووجه المثل أن الرائد لما كان هو الذي يبعثه القوم لطلب الكلاء والماء أشبه الفكر في كونه مبعوثاً من قبل النفس في طلب مرعاها وماء حياتها من العلوم وسائر الكمالات فكنى به عنه ، وأهله على هذا البيان هو النفس فكأنه عليه السلام قال : فلتصدق أفكاركم ومتخيّلاتكم نفوسكم ، وصدقها إيّاها تصرفها على حسب إشارة العقل فيما تقوله وتشير به دون التفات إلى مشاركة الهوى فإن الرائد إذا أرسلته النفس عن مشاركة ميل شهواني كذبها ودلّيها بغرور ، ويحتمل أن يريد بالرائد أشخاص من حضر عنده فإنّ كلاً منهم له أهل وقبيلة يرجع إليهم فأمرهم أن يصدقهم أمر لهم بتبليغ ما سمع على الوجه الذي ينبغي والنصيحة به والدعوة إليه كما يرجع طالب الكلاء والماء الواجد لهما إلى قومه فيبشّرهم به ويحملهم إليه .

وقوله : وليجمع شمله :

أي ما تفرّق وتشعب من خواطره في أُمور الدنيا ومهماتها ، وليحضر ذهنه : أي وليوجهه إلى ما أقول .

وقوله : ولقد فلق لكم الأمر فلق الخرزة :

أي أوضح لكم أمر ما جهلتموه من الدين وأحكام الشريعة ، وقيل : أمر ما سيكون من الفتن . وشق لكم ظلمة الجهل عنه كي يتضح باطن الخرزة بشقها ، وقرفه قرف الصمغة : أي ألقى إليكم علمه بكليته والنصيحة فيه حتى لم يدّخر عنكم شيئاً كما يقرف الصمغة قارفها ، يقال : تركته على مثل مقرف الصمغة ، إذا لم تترك له شيئاً لأن الصمغة تقتلع من شجرها حتى لا تبقى عليها علقة .

وقوله : فعند ذلك .

متصل بقوله : من بين هزيل الحب : أي فعندما تفعل بكم تلك الفتن وراية الضلال ما تفعل قد أخذ الباطل مآخذه : أي استحكم وثبت وأخذ مقارّه ، وكذلك يركب الجهل مراكبه : أي كان ذلك وقت حملته ملاحظة لتشبيهه بالمستعد للغارة قد ركب خيله ، وكنى بمراكبه عن الجهال .

وقوله : وعظمت الطاغية :

أي الفتنة الطاغية التي تجاوزت في عظمها الحد والمقدار ، وقلت الراعية : أي رعاة الدين وأهله الذين يحمون حوزته : أي الفرقة الراعية ، وروي الداعية : أي الفرقة الداعية إلى الله .

وقوله : وصال الدهر صيال السبع العقور .

استعار وصف الصيال للدهر ملاحظة لشبهه بالسبع ، ووجه الاستعارة كون الدهر مبدءاً قوياً لتلك الشرور الواقعة فأشبه السبع الضاري العقور في شدة صياله . ثم استعار لفظ الفنيق للباطل ورشح الاستعارة بذكر الهدير والكظوم ، ووجه المشابهة ظهور الباطل وإكرام أهله وتمكّنهم من الأمر والنهي كالفحل المكرّم ذي الشقشقة ، وعنى بالهدير ظهورهم وتمكّنهم وبالكظوم خفاء الباطل وخمول أهله في زمان ظهور الحق وقوته .

وقوله : وتواخى الناس على الفجور :

أي كان اتصالهم ومحبة بعضهم لبعض على الفجور واتباع الأهواء . وتهاجروا على الدين : أي من أحسوا منه قوّة في دينه هجروه ورفضوه . فهجرهم . والتحاب على الكذب داخل تحت التواخي على الفجور ، والتباغض على الصدق داخل تحت التهاجر على الدين ، والغرض بتعداد ذلك تنفير السامعين عن تلك الرذائل وتخويفهم بوقوعها .

وقوله : فإذا كان ذلك كان الولد غيظاً :

أي إذا أُحدث ذلك اشتغل كل امرء بنفسه لينجو بها . فيكون الولد الذي هو أعز محبوب غيظاً لوالده : أي من أسباب محنته وغيظه ، وأطلق لفظ الغيظ عليه إطلاقاً لاسم السبب على المسبب .

وقوله : والمطر قيظاً .

جعل وقوع المطر قيظاً من علامات تلك الشرور وهو أيضاً مما يعدّ شراً لأنه لا يثير نباتاً ولا يقوم عليه زرع ويفسد الثمار القائمة ، وكأنه كنى به عن انقلاب أحوال الخير شروراً .

وقوله : وكان أهل ذلك الزمان . إلى قوله : أمواتاً .

أهل كل زمان ينقسمون إلى ملوك أكابر ، وأوساط ، وأداني . فإذا كان زمان العدل كان أهله في نظام سلكه فيفيض عدل الملوك على من يليهم ثم بواسطتهم على من يليهم حتى ينتهي إلى أداني الناس ، وإذا كان زمان الجور فاض الجور كذلك فكانت السلاطين سباعاً ضارية مفترسة لكل ذي سمن ، وكان أهل ذلك الزمان وأكابره ذئاباً ضارية على أوساط الناس، وكانت الأوساط أكالاً لهم ، وكانت الفقراء أمواتاً لانقطاع مادة حياتهم ممن هو أعلى منهم رتبةً ، وتجوّز بلفظ الأموات عن غاية الشدة والبلاء لكون الموت غاية ذلك إطلاقاً لاسم السبب الغائي على مسبّبه ، ثم استعار لفظ الغيض لقلة الصدق والفيض لظهور الكذب وكثرته ملاحظة لشبهها بالماء ، واستعمال المودة باللسان إشارة إلى النفاق وهو التودّد بالقول مع التباعد بالقلوب وعقدها على البغض والحسد ، واستعار لفظ التشاجر بالقلوب ملاحظة لشبهها بالرماح

فكما أن الرمح يشجر به. فكذلك قلوب بعضهم تعقد على هلاك بعض والطعن فيه بأنواع المهلكات، وكذلك لفظ النسب للفسوق، ووجه المشابهة كون الفسق بينهم يومئذ هو سبب التواصل والتزاور والتحاب كما أن النسب كذلك، وصار العفاف عجباً لقلّة وجوده وندرته بينهم، ولبس الإسلام لبس الفرو مقلوباً من أحسن التشبيه وأبلغه والمشبّه به هيهنا هو لبس الفرو ووجه الشبه كونه مقلوباً؛ وبيانه أنه لما كان الغرض من الإسلام أن يكون باطناً ينتفع به القلب ويظهر فيه منفعته فقلّب المنافقون غرضه واستعملوه بظاهر ألسنهم دون قلوبهم أشبه قلبهم له لبس الفرو. إذ كان أصله أن يكون حمله ظاهراً لمنفعة الحيوان الذي هو لباسه فاستعمله الناس مقلوباً. وبالله التوفيق.

١٠٦ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

كُلُّ شَيْءٍ خَاضِعٌ لَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ: غِنَى كُلِّ فَقِيرٍ، وَعِزُّ كُلِّ ذَلِيلٍ، وَقُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ، وَمَفْزَعُ كُلِّ مَلْهُوفٍ، وَمَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ نُطْقَهُ، وَمَنْ سَكَتَ عَلِمَ سِرَّهُ، وَمَنْ عَاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَمَنْ مَاتَ فَإِلَيْهِ مُنْقَلَبُهُ، لَمْ تَرَكَ الْعُيُونُ فَتُخْبِرَ عَنْكَ، بَلْ كُنْتَ قَبْلَ ٱلْوَاصِفِينَ مِنْ خَلْقِكَ، لَمْ تَخْلُقِ ٱلْخَلْقَ لِوَحْشَةٍ، وَلَا ٱسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ، وَلَا يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبْتَ، وَلَا يُفْلِتُكَ مَنْ أَخَذْتَ، وَلَا يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ، وَلَا يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ، وَلَا يَرُدُّ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَكَ، وَلَا يَسْتَغْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى عَنْ أَمْرِكَ، كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلَانِيَةٌ، وَكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ، أَنْتَ الْأَبَدُ لَا أَمَدَ لَكَ، وَأَنْتَ الْمُنْتَهَى لَا مَحِيصَ عَنْكَ، وَأَنْتَ ٱلْمَوْعِدُ لَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، بِيَدِكَ نَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّةٍ، وَإِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ، سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَمَا أَصْغَرَ عِظَمَهُ فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ، وَمَا أَهْوَلَ مَا نَرَى مِنْ مَلَكُوتِكَ، وَمَا أَحْقَرَ ذلِكَ، فِيمَا غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ، وَمَا أَسْبَغَ نِعَمَكَ فِي الدُّنْيَا، وَمَا أَصْغَرَهَا فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ.

أقول: هذا الفصل من أشرف الفصول المشتملة على توحيد الله وتنزيهه وإجلاله وتعظيمه.

واللهف : الحزن ، والملهوف : المظلوم يستغيث . والأبد : الدائم . والأمد : الغاية . وحاص عن الشيء : عدل وهرب . والمحيص : المهرب .

وفيه اعتبارات ثبوتية وسلبية : أما الثبوتية فعشرة :

الأول : خشوع كل شيء له ، والخشوع مراد هنا بحسب الاشتراك اللفظي . إذ الخشوع من الناس يعود إلى تطأ منهم وخضوعهم لله ومن الملائكة دؤوبهم في عبادتهم ملاحظة لعظمته ، ومن سائر الممكنات انفعالها عن قدرته وخضوعها في رقّ الإمكان والحاجة إليه ، والمشترك وإن كان لا يستعمل في جميع مفهوماته حقيقة فقد بيّنا أنه يجوز استعماله مجازاً فيها بحسب القرينة وهي هنا إضافته إلى كل شيء أو لأنه في قوة المتعدد كقوله تعالى : ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبي** ﴾[1] . فكأنه قال : الملك خاشع له والبشر خاشع له ، وهذا الاعتبار يستلزم وصفه تعالى باعتبارين :

أحدهما : كونه عظيماً .

والثاني : كونه غنياً : أما العظيم فينقسم إلى ما يكبر حاله في النفس ولكن يتصور أن يحيط بكماله العقول ويقف على كنه حقيقته ، وإلى ما يمكن أن يحيط به بعض العقول وإن فات أكثرها ، وهذان القسمان إنما يطلق عليهما لفظ العظمة بالإضافة ، وقياس كل إلى ما دونه فيما هو عظيم فيه ، وإلى ما لا يتصور أن يحيط به العقل أصلاً وذلك هو العظيم المطلق الذي جاوز حدود العقول أن يقف على صفات كماله ونعوت جلاله ، وليس هو إلاّ الله تعالى، وأما الغنى فسنذكره .

الثاني : قيام كل شيء به . واعلم أن جميع الممكنات إما جواهر أو أعراض وليس شيء منها يقوم بذاته في الوجود : أما الأعراض فظاهر لظهور حاجتها إلى المحل الجوهري ، وأما الجواهر فلأن قوامها في الوجود إنما يكون بقيام عللها، وتنتهي إلى الفاعل الأول جلّت عظمته فهو إذن الفاعل المطلق الذي به قوام كل موجود في الوجود ، وإذ ثبت أنه تعالى غنى عن كل

(١) ٣٣ - ٥٦ .

شيء في كل شيء وثبت أن به قوام كل شيء ثبت أنه القيوم المطلق . إذ مفهوم القيّوم هو القائم بذاته المقيم لغيره فكان هذا الاعتبار مستلزماً لهذا الوصف .

الثالث : كونه تعالى غنى كل فقير ، ويجب أن يحمل الفقر على ما هو أعمّ من الفقر المتعارف وهو مطلق الحاجة ليعم التمجيد كما أن الغنى هو سلب مطلق الحاجة ، وإذ ثبت أن كل ممكن فهو مفتقر في طرفيه منته في سلسلة الحاجة إليه ، وأنه تعالى المقيم له في الوجود ثبت أنه تعالى رافع حاجة كل موجود بل كل ممكن وهو المراد بكونه غنى له ، وأطلق عليه تعالى لفظ الغنى وإن كان الغنى به مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب .

الرابع : كونه عز كل ذليل ، وقد سبق أن معنى العزيز هو الخطير الذي يقلّ وجود مثله وتشتدّ الحاجة ويصعب الوصول إليه فيما اجتمعت فيه هذه المفهومات الثلاثة سمي عزيزاً ، وسبق أيضاً أن هذه المفهومات مقولة بالزيادة والنقصان على ما تصدق عليه ، وأنه ليس الكمال في واحد منها إلاّ لله سبحانه ، ويقابله الذليل وثبت أنه تعالى عزّ كل موجود لأن كل موجود سواه إنما يتحقق فيه هذه المفهومات الثلاثة منه سبحانه الناظم لسلسلة الوجود والواضع لكل من الموجودات في رتبته من النظام الكلّي فمنه عزّ كل موجود ، وكل موجود ذليل في رقّ الإمكان والحاجة إليه في إفاضة المفهومات الثلاثة عليه فهو إذن عزّ كل ذليل وإطلاق لفظ العزّ عليه كإطلاق لفظ الغنى .

الخامس : وقوة كل ضعيف : القوة تطلق على كمال القدرة وعلى شدة الممانعة والدفع ويقابلها الضعف وهما مقولان بالزيادة والنقصان على من يطلقان عليه ، وإذ ثبت أنه تعالى مستند جميع الموجودات والمفيض على كل قابل ما يستعد له ويستحقه فهو المعطي لكل ضعيف عادم القوة من نفسه كماله وقوته فمنه قوّة كل ضعيف بالمعنيين المذكورين لها ، وروي أن الحسن قال : واعجبا لنبي الله لوط عليه السلام إذ قال لقومه : لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد أتراه أراد ركناً أشد من الله تعالى . وإطلاق لفظ القوة عليه كإطلاق لفظ الغنى أيضاً .

السادس : كونه مفزع كل ملهوف : أي إليه ملجأ كل مضطر في ضرورته حال حزن أو خوف أو ظلم كما قال تعالى : ﴿ **ثم إذا مسّكم الضرّ فإليه تجأرون** ﴾[1]. ﴿ **وإذا مسكم الضر في البحر ضلّ من تدعون إلاّ إيّاه** ﴾[2] فكل مفزع وملجأ غيره فلمضطر لا لكل مضطر ومجاز لا حقيقة وإضافي لا حقيقي ، وهذا الاعتبار يستلزم كمال القدرة لله لشهادة فطرة ذي الضرورة بنسبة جميع أحوال وجوده إلى جوده ويستلزم كمال العلم لشهادة فطرته باطلاعه على ضرورته ، وكذلك كونه سميعاً وبصيراً وخالقاً ومجيباً للدعوات وقيّوماً ونحوها من الاعتبارات .

السابع : كونه من تكلم سمع نطقه .

الثامن : من سكت علم سرّه ، وهما إشارتان إلى وصفي السميع والعليم ، ولما كان السميع يعود إلى العالم بالمسموعات استلزم الوصفان إحاطته بما أظهر العبد وأبداه وما أسرّه وأخفاه في حالتي نطقه وسكوته ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

التاسع : ومن عاش فعليه رزقه .

العاشر : ومن مات فإليه منقلبه ، وهما إشارتان إلى كونه تعالى مبدء للعباد في وجودهم وما يقوم به عاجلاً ومنتهى وغاية لهم آجلاً فإليه رجوع الأحياء منهم والأموات ، وبه قيام وجودهم حالتي الحياة والممات .

الحادي عشر : من الاعتبارات السلبية : لم تراك العيون فتخبر عنك . وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب كقوله تعالى : ﴿ **إيّاك نعبد** ﴾ وهذا الالتفات وعكسه يستلزم شدّة عناية المتكلّم بالمعنى المنتقل إليه ، وحسنه معلوم في علم البيان ، واعلم أن هذا الكلام لا بدّ فيه من تجوّز أو إضمار ، وذلك إن جعلنا الرائي هو العيون كما عليه اللفظ ويصدق حقيقة لزم إسناد قوله فتخبر إليها مجازاً لكون الإخبار ليس لها ، وإن راعينا عدم المجاز لزم أن يكون التقدير : لم ترك العيون فتخبر عنك أربابها ، أو لم ترك أرباب

---

(١) ١٦ - ٣٣ .
(٢) ١٧ - ٦٩ .

العيون فتخبر عنك . فيلزم الإضمار ويلزم التعارض بينه وبين المجاز. لكن قد علمت في مقدمات أصول الفقه : أنهما سيّان في المرتبة ، وغرض الكلام تنزيهه تعالى عن وصف المشبّهة ونحوهم وإخبارهم عنه بالصفات التي من شأنها أن يخبر عنها الراؤون عن مشاهدة حسية مع اعترافهم . بأن إخبارهم ذلك من غير رؤية .

ولما كان الإخبار عن المحسوسات وما من شأنه أن يحسّ إنما يصدق إذا استند إلى الحس لا جرم استلزم سلبه لرؤية العيون له. سلب الإخبار عنه من جهتها، وكذب الإخبار عنه بما لا يعلم إلاّ من جهتها ، ويخبر وإن كان في صورة الإثبات إلاّ أنه منفي لنفي لازمه وهي رؤية العيون له . إذ كان الإخبار من جهتها يستلزم رؤيتها ، ونصبه بإضمار أن عقيب الفاء في جواب النفي ، والكلام في تقدير شرطية متصلة صورتها لو صحّ إخبار العيون عنك لكانت قد رأتك. لكنها لم ترك فلم تصحّ أن تخبر عنك .

فأما قوله : بل كنت قبل الواصفين من خلقك . فتعليل لسلب الرؤية المستلزم لسلب الإخبار عنها بقياس ضمير تقدير كبراه : وكل من كان قبل واصفيه لم يروه فلم يخبروا عنه ، وهذه الكبرى من المظنونات المشهورات في بادىء النظر ، وهي كما علمت من مواد قياس الخطيب، وإن كانت إذا تعقبت لم يوجد كلية . إذ ليس كلما وجد قبلنا بطل إخبارنا عنه ، ويمكن حمل هذا القول على وجه التحقيق وهو أن نقول : المراد بقبليته تعالى للواصفين قبليّة وجوده بالعليّة الذاتية وهو بهذا الاعتبار مستلزمة لتنزيهه تعالى عن الجسمية ولواحقها المستلزم لامتناع الرؤية المستلزم لكذب الإخبار عنه من وجه المشابهة الحسية .

الثاني عشر : كونه لم تخلق الخلق لوحشة ، وهو إشارة إلى تنزيهه عن الطبع المستوحش والمستأنس ، وقد سبق بيان ذلك في الخطبة الأولى .

الثالث عشر : ولا استعملتهم لمنفعة : أي لم يكن خلقه لهم لمنفعة تعود إليه ، وقد سبق بيان أن جلب المنفعة ودفع المضرة من لواحق المزاج ـ المنزّه قدس الله تعالى عنه ـ .

الرابع عشر : ولا يسبقك من طلبت : أي لا يفوتك هرباً .

الخامس عشر : ولا يفلتك من أخذت : أي لا يفلت منك بعد أخذه فحذف حرف الجر ، وعدّى الفعل بنفسه كما قال تعالى : ﴿ **واختار موسى قومه** ﴾ وهذان الاعتباران يستلزمان كمال ملكه، وتمام قدرته وإحاطة علمه . إذ أي ملك فرض فقد ينجو من يده الهارب ويفلت من أسره المأخوذ بالحيلة ونحوها .

السادس عشر : ولا ينقص سلطانك من عصاك .

السابع عشر : ولا يزيد في ملكك من أطاعك ، وهما تنزيه له تعالى من أحوال ملوك الدنيا. إذ كان كمال سلطان أحدهم بزيادة جنوده وكثرة مطيعيه وقلّة المخالف والعاصي له ، ونقصان ملكه بعكس ذلك وهو سبب لتسلط أعدائه عليه وطمعهم فيه . فأما سلطانه تعالى فلما كان لذاته وكمال قدرته مستولياً وهو مالك الملك يؤتي الملك من يشاء. وينزع الملك ممن يشاء ويذلّ من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير . لم يتصور خروج العاصي بعصيانه عن سلطانه حتى يؤثر في نقصانه ، ولم يكن لطاعة الطائع تأثير في زيادة ملكه.

الثامن عشر : ولا يرد أمرك من سخط قضاءك . يريد بالأمر هنا القدر النازل على وفق القضاء الإلهي ، وهو تفصيل القضاء كما بيّناه ، وهذا الاعتبار أيضاً يستلزم تمام قدرة الله وكمال سلطانه . إذ كان ما علم وجوده فلا بدّ من وجوده سواء كان محبوباً للعبد أو مكروهاً له كما قال تعالى : ﴿ **ويأبى الله إلّا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** ﴾[١]. ﴿ **إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع** ﴾[٢] ﴿ **وإن يمسسك الله بضرّ فلا كاشف له إلّا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير** ﴾[٣]. وإنما خصّص المتسخط للقضاء بالعجز عن ردّ الأمر . إذ كان من شأنه أن لو قدر لرد القدر .

---

(١) ٩ - ٣٢ .

(٢) ٥٢ - ٧.

(٣) ٦ - ١٧ .

التاسع عشر : ولا يستغني عنك من تولى عن أمرك . أراد بالأمر هيهنا ظاهره ، وهو أمر عباده بطاعته وعبادته ، وظاهر أن من تولى عن أمر الله فهو إليه أشد فقراً وأنقص ذاتاً ممّن تولى أمره ، وهذا الاعتبار يستلزم كمال سلطانه وغناه المطلق .

العشرون : كل سر عندك علانية.

الحادي والعشرون : وكل غيب عندك شهادة . هذان الاعتباران يستلزمان كمال علمه وإحاطته بجميع المعلومات ، ولما كانت نسبة علمه تعالى إلى المعلومات على سواء لا جرم استوى بالنسبة إليه السر والعلانية ، وأيضاً فإن السر والغيب إنما يطلقان بالقياس إلى مخفي عنه وغائب عنه وهي القلوب المحجوبة بحجب الطبيعة وأستار الهيئات البدنية، والأرواح المستولي عليها نقصان الإمكان الحاكم عليها بجهل أحوال ما هو أكمل منها ، وكل ذلك مما تنزّه قدس الصانع عنه .

الثاني والعشرون : أنت الأبد فلا أمد لك : أي أنت الدائم فلا غاية لك يقف عندها وجودك ، وذلك لاستلزام وجوب وجوده امتناع عدمه وانتهائه بالغاية ، وقال بعض الشارحين : أراد أنت ذو الأبد كما قيل : أنت خيال . أي ذو خيال من الخيلاء وهو الكبر . وأقول في تقرير ذلك : إنه لما كان الأزل والأبد لازمين لوجود الله تعالى أطلق الأبد على وجوده مجازاً للمبالغة في الدوام وكان أحدهما هو بعينه الآخر كقولهم : أنت الطلاق . للمبالغة في البينونة .

الثالث والعشرون : وأنت المنتهى فلا محيص عنك .

الرابع والعشرون : وأنت الموعد فلا منجا منك إلاّ إليك : أما أنّه تعالى المنتهى والموعد فلقوله تعالى : ﴿ **وإنّ إلى ربك المنتهى** ﴾(١). وقوله : ﴿ **إلى الله مرجعكم جميعاً** ﴾. والمنتهى في كلامه عليه السلام الغاية ، وقد سبق بيان أنه تعالى غاية الكل ومرجعه وأما أنه لا معدل عنه ولا ملجأ منه إلاّ

---

(١) ٥٣ - ٣٣ .

إليه فإشارة إلى ضرورة لقائه كقوله تعالى : ﴿ **وظنوا أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه** ﴾.

الخامس والعشرون : بيدك ناصية كل دابة : أي في ملكك وتحت تصريف قدرتك كقوله تعالى : ﴿ **ما من دابة إلاّ هو آخذ بناصيتها** ﴾(١) وإنما خصّت الناصية لحكم الوهم بأنّه تعالى في جهة فوق فيكون أخذه بالناصية ، ولأنّها أشرف ما في الدابة فلسطانه تعالى على الأشرف يستلزم القهر والغلبة وتمام القدرة.

السادس والعشرون : وإليك مصير كل نسمة ، وقد سبق أنه تعالى منتهى الكل ، وإليه مصيره .

وقوله : سبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك . إلى آخره .

تنزيه وتقديس لله تعالى عن أحكام الأوهام على صفاته بشبهية مدركاتها وتعجب في معرض التمجيد من عظم ما يشاهد من مخلوقاته كأطباق الأفلاك والعناصر، وما يتركب عنها ، ثم من حقارة هذه العظمة بالقياس إلى ما تعبّره العقول من مقدوراته، وما يمكن في كمال قدرته من الممكنات الغير المتناهية ، وظاهر أن نسبة الموجود إلى الممكن في العظم والكثرة يستلزم حقارته وصغره ، ثم من هول ما وصلت إليه العقول من عظمة ملكوته ، ثم من حقارته بالقياس إلى ما غاب عنها وحجبت عن إدراكه بأستار القدرة وحجب العزة من الملأ الأعلى وسكان حظائر القدس وحال العالم العلوي ، ثم من سبوغ نعمة الله تعالى على عباده في الدنيا وحقارة تلك النعم بالقياس إلى النعمة التي أعدها لهم في الآخرة ، وظاهر أن نعم الدنيا إذا اعتبرت إلى نعم الآخرة في الدوام والكثرة والشرف كانت بالقياس إليها في غاية الحقارة. وبالله التوفيق .

منها : **مِنْ مَلاَئِكَةٍ أَسْكَنْتَهُمْ سَمٰوَاتِكَ ، وَرَفَعْتَهُمْ عَنْ أَرْضِكَ ، هُمْ أَعْلَمُ خَلْقِكَ بِكَ ، وَأَخْوَفُهُمْ لَكَ . وَأَقْرَبُهُمْ مِنْكَ ، لَمْ يَسْكُنُوا الأَصْلاَبَ ،**

---

(١) ١١ ـ ٥٩ .

وَلَمْ يُضَمَّنُوا الأَرْحَامَ ، وَلَمْ يُخْلَقُوا مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، وَلَمْ يَشْعَبْهُمْ رَيْبُ الْمَنُونِ ، وَإِنَّهُمْ ـ عَلَى مَكَانِهِمْ مِنْكَ ، وَمَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَكَ ، وَاسْتِجْمَاعِ أَهْوَائِهِمْ فِيكَ ، وَكَثْرَةِ طَاعَتِهِمْ لَكَ ، وَقِلَّةِ غَفْلَتِهِمْ عَنْ أَمْرِكَ ـ لَوْ عَايَنُوا كُنْهَ مَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْكَ لَحَقَرُوا أَعْمَالَهُمْ ، وَلَزَرَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَلَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ ، وَلَمْ يُطِيعُوكَ حَقَّ طَاعَتِكَ .

أقول : المهين : الحقير . والتشعب : الاقتسام والتفريق . والمنون : الدهر . وريبه : ما يكره من حوادثه . والمكانة : المنزلة . وكنه الشيء : نهاية حقيقته . وزريت عليه : عبت فعله .

واعلم أن من في صدر هذا الفصل لبيان الجنس . وذلك أنه عليه السلام لما شرع في بيان عظمة الله تعالى وجلاله جعل مادة ذلك التعظيم تعديد مخلوقاته وذكر الأشرف فالأشرف منها فذكر الملائكة السماوية ، وأشار إلى أفضليتهم بأوصاف :

الأول : كونهم أعلم خلق الله به ، وهو ظاهر . إذ ثبت أن كل مجرد كان علمه أبعد عن منازعة النفس الأمارة بالسوء التي هي مبدء الغفلة والسهو والنسيان كان أكمل في معارفه وعلومه ممن عداه ، ولأن الملائكة السماوية وسائط لغيرهم في وصول العلم وسائر الكمالات إلى الخلق فكانوا كالأستادين لمن عداهم ، وظاهر أن الأستاد أعلى درجة من التلميذ ، وقد عرفت في الخطبة الأولى أن المعارف مقولة بحسب التشكيك .

الثاني : كونهم أخوف له ؛ وذلك لكونهم أعلم بعظمة الله وجلاله وكل من كان أعلم بذلك كان أخوف وأشد خشية :

أما الأولى : فلما مرّ .

وأما الثانية : فلقوله تعالى : ﴿ **إنّما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[1] فحصر الخشية في العلماء . وبحسب تفاوت العلم بالشدة والضعف يكون تفاوت الخشية بهما.

---

(١) ٣٥ ـ ٢٥.

الثالث : كونهم أقرب منه ؛ والمراد لا القرب المكاني لتنزهه تعالى عن المكان بل قرب المنزلة والرتبة منه . وظاهر أن من كان أعلم به وأخوف منه كان أقرب منزلة عنده لقوله تعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقيكم** ﴾[1].

الرابع : من سلب النقصانات البشرية عنهم : كونهم لم يسكنوا الأصلاب ، ولم يضمنوا الأرحام ، ولم يخلقوا من ماء مهين ، ولم يختلف عليهم حوادث الدهر . وظاهر كون هذه الأمور الأربعة نقصانات تلزم الحيوان العنصري لاستلزامها التغيّر، ومخالطة المحال المستقذرة ومعاناة الأسقام والأمراض وسائر الهيئات البدنية المانعة عن التوجه إلى الله فكان سلبها عمّن لا يجوز عليه من كمالاته .

وقوله : وإنهم على مكانتهم [مكانهم خ] منك . إلى آخره .

لما بيّن عظمة الملائكة بالنسبة إلى من عداهم شرع في المقصود وهو بيان عظمة الله تعالى بالنسبة إليهم ، وحقارتهم على عظمتهم بالقياس إلى عظمته وكبريائه : أي أنهم مع كونهم على هذه الأحوال التي توجب لهم العظمة والإجلال من قرب منزلتهم منك ، وكمال محبتهم لك وغرقهم في أنوار كبريائك عن الالتفات إلى غيرك لو عرفوا كنه معرفتك لصغرت في أعينهم أعمالهم ، وعلموا أن لا نسبة لعبادتهم إلى عظمتك وجلال وجهك .

ولما كان كمال العبادة ومطابقتها للأمر المطاع بحسب العلم بعظمته ، وكان ذات الحق سبحانه أعظم من أن يطلع عليه بالكنه ملك مقرّب أو نبي مرسل لا جرم كانت عبادة الملائكة بحسب معارفهم القاصرة عن كنه حقيقته . فكل من كانت معرفته أتمّ كانت عبادة من دونه مستحقرة في جانب عبادته حتى لو زادت معارفهم به وأمكن اطلاعهم على كنه حقيقته لزادت عبادتهم وكانت أكمل . فاستحقروا ما كانوا فيه وعابوا أنفسهم بقصور الطاعة والعبادة عما يستحقه كماله المطلق ، وعبّر بقلّة الغفلة عن عدمها في حقهم مجازاً إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه . إذ كان كل معدوم قليل ولا ينعكس ، وجعل قلّة الغفلة في مقابلة كثرة الطاعة ، ويحتمل أن يريد بقلة

---

(١) ٤٩ - ١٣.

الغفلة قوة معرفة بعضهم بالنسبة إلى بعض مجازاً أيضاً إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه . إذ كانت قلّة الغفلة مستلزمة لقوة المعرفة وزيادتها ، وقد سبق ذكر أنواع الملائكة السماوية وغيرهم ، وذكر نكت من أحوالهم في الخطبة الأولى .

الفصل الثاني : قوله :

سُبْحَانَكَ خَالِقاً وَمَعْبُوداً : بِحُسْنِ بَلاَئِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ ، خَلَقْتَ دَاراً ، وَجَعَلْتَ فِيهَا مَأْدُبَةً : مَشْرَباً ، وَمَطْعَماً ، وَأَزْوَاجاً ، وَخَدَماً ، وَقُصُوراً ، وَأَنْهَاراً ، وَزُرُوعاً ، وَثِمَاراً ، ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِياً يَدْعُو إِلَيْهَا ، فَلاَ الدَّاعِيَ أَجَابُوا ، وَلاَ فِيمَا رَغَّبْتَ إِلَيْهِ رَغِبُوا ، وَلاَ إلى مَا شَوَّقْتَ إِلَيْهِ اشْتَاقُوا أَقْبَلُوا عَلَى جِيفَةٍ آفْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا ، وَآصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا ، وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى بَصَرَهُ ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ ، قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ ، وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ ، وَوَلِهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا ، وَلِمَنْ فِي يَدِهِ شَيْءٌ مِنْهَا : حَيْثُمَا زَالَتْ زَالَ إِلَيهَا ، وَحَيْثُمَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا ، وَلاَ يَزْدَجِرُ مِنَ اللهِ بِزَاجِرٍ ، وَلاَ يَتَّعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ ؛ وَهُوَ يَرَى الْمَأْخُوذِينَ عَلَى الْغِرَّةِ - حَيْثُ لاَ إِقَالَةَ وَلاَ رَجْعَةَ - كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ ما كَانُوا يَجْهَلُونَ ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ ، وَقَدِمُوا مِنَ الآخِرَةِ عَلَى مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ، فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِم ، آجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ وَحَسْرَةُ الْفَوْتِ ، فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ ، وَتَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ ، ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجاً ، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ ، وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ - عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ ، وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ - يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَى عُمْرَهُ ، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ ، وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالاً جَمَعَهَا : أَغْمَضَ فِي مَطَالِبِهَا ، وَأَخَذَهَا مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا وَمُشْتَبِهَاتِهَا ، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَا ، وَأَشْرَفَ عَلَى فِرَاقِهَا : تَبْقَى لِمَنْ وَرَاءَهُ يَنْعَمُونَ فِيهَا ، وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا ، فَيَكُونُ الْمَهْنَأُ لِغَيْرِهِ ، وَالْعِبْءُ عَلَى ظَهْرِهِ . وَالْمَرْءُ قَدْ غَلِقَتْ رُهُونُهُ بِهَا ، فَهُوَ يَعَضُّ يَدَهُ ، نَدَامَةً عَلَى مَا أَصْحَرَ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ . وَيَزْهَدُ فِيمَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمُرِهِ ، وَيَتَمَنَّى أَنَّ

الَّذِي كَانَ يَغْبِطُهُ بِهَا وَيَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ ! فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ حَتَّى خَالَطَ لِسَانُهُ سَمْعَهُ . فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لَا يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ ، وَلَا يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ : يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ يَرَىٰ حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ ، وَلَا يَسْمَعُ رَجْعَ كَلَامِهِمْ . ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ الْتِيَاطاً ، فَقُبِضَ بَصَرُهُ كَمَا قُبِضَ سَمْعُهُ ، وَخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ : قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جَانِبِهِ ، وَتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ ، لَا يُسْعِدُ بَاكِياً ، وَلَا يُجِيبُ دَاعِياً . ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلَى مَخَطٍّ فِي الْأَرْضِ ، وَأَسْلَمُوهُ فِيهِ إِلَى عَمَلِهِ ، وَانْقَطَعُوا عَنْ زَوْرَتِهِ .

أقول : المأدبة بضمّ الدال وفتحها : الطعام يصنع ويدعى إليه . والوله : التحيّر لشدة الوجد والمحبة . وأغمض : أي ازداد من مطالبها وتساهل في وجوه اكتسابها ولم يحفظ دينه . والتبعة : ما يلحق من إثم وعقاب . والمهنأ : المصدر من هنوء بالضم وهنيء بالكسر . والعبء : الحمل . وأصحر : انكشف . ورجع الكلام : جوابه وترديده . والإلتياط : الإلتصاق . والمخطّ : موضع الخط كناية عن القبر يخطّ أولاً ثم يحفر ، ويروى بالحاء . ومحط القوم : منزلهم .

وفي هذا الفصل نكت :

الأُولى : أن خالقاً ومعبوداً حالان انتصبا عما في سبحانك من معنى الفعل : أي أُسبّحك خالقاً ومعبوداً ، وأشار بذلك إلى وجوب تنزيهه في هذين الاعتبارين أعني اعتبار كونه خالقاً للخلق، ومعبوداً لهم عن الشركاء والأنداد. فإنه لما تفرّد بالإبداع والخلق ، واستحق بذلك التفرّد تفرّده بعبادة الكل له وجب تنزيهه عن مساوٍ له في الاعتبارين .

الثانية : قوله : بحسن بلائك عند خلقك خلقت داراً . الجار والمجرور متعلّق بخلقت ، ولفظ الدار مستعار للإسلام ، ولفظ المأدبة للجنة ، والداعي هو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . وقد جمعها الخبر في بعض أمثاله صلى الله عليه وآله وسلم إن الله جعل الإسلام داراً والجنة مأدبةً، والداعي إليها محمداً . ووجه الاستعارة الأولى أن الإسلام يجمع أهله ويحميهم كالدار . ووجه الثانية : أن الجنة مجتمع الشهوات ومنتجع اللذات كالمأدبة ، ويحتمل أن يريد بالدار

الآخرة باعتبار كونها مجمعاً ومستقراً والمأدبة فيها الجنة ، والمنصوبات الثمانية مميزات لتلك المأدبة ، وظاهر أن وجود الإسلام والجنة والدعوة إليها بلاء حسن من الله لخلقه ، وقد عرفت معنى ابتلائه تعالى وقال بعض الشارحين : إن قوله : بحسن بلائك متعلق بسبحانك أو بمعبود وهو بعيد .

الثالثة : قوله : فلا الداعي أجابوا . إلى قوله : بواعظ. شرح لحال العصاة الذين لم يجيبوا داعي الله ، وبيان لعيوبهم وغرقهم في حب الباطل من الدنيا وفائدته : أما للمنتهين اللازمين لأوامر الله المجيبين لدعوته فتنفيرهم عن الركون إلى هؤلاء ، والوقوع فيما وقعوا فيه .

وأما لهؤلاء فتنبيههم من مراقد غفلاتهم بتذكيرهم عيوبهم لعلهم يرجعون ، واستعار لفظ الجيفة للدنيا ، ووجه المشابهة أن لذات الدنيا وقيناتها في نظر العقلاء ، واعتبار الصالحين منفور عنها ومهروب منها ومستقذرة كالجيفة وإلى ذلك أشار الواصف لها :

وما هي إلاّ جيفة مستحيلة ... عليها كلاب همهنّ اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلماً لأهلها ... وإن تجتذبها نازعتك كلابها

ويمكن أخذ معنى البيت الثاني في وجه الإستعارة المذكورة ، وكذلك استعار لفظ الإفتضاح للاشتهار باقتنائها ، وجمعها والخروج بها عن شعائر الصالحين ، ووجه الاستعارة أنه لما كان الإقبال على جمع الدنيا والاشتغال بها عن الله من أعظم الكبائر والمساوىء في نظر الشارع والسالكين لطريق الله ، وكان الافتضاح عبارة عن انكشاف المساوىء المتعارف قبحها لا جرم أشبه الاشتهار بجمعها وانكشاف الحرص عليها الافتضاح ، ويمكن أن يصدق الافتضاح هيهنا حقيقة ، وكنى بأكلها عن جمعها ، وتجوّز بلفظ الاصطلاح في التوافق على محبتها إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه. فإن الاصطلاح عبارة عن التراضي بعد التغاضب ويلزمه الاتفاق على الأحوال ، وقوله : من عشق شيئاً أعمى بصره وأمرض قلبه . كبرى قياس دلّ على صغراه قوله : واصطلحوا على حبها . لأن الاصطلاح على محبة الشيء يستلزم شدة محبته وهو معنى العشق ونتيجته أن المذكورين في معرض الذم قد أعشت الدنيا

أبصارهم وأمرضت قلوبهم ، واستعار لفظ البصر لنور البصيرة ملاحظة لشبه المعقول بالمحسوس ، ولفظ العشاء لظلمة الجهل ملاحظة للشبه بالظلمة العارضة للعين بالليل ، وإسناد الإعشاء إلى الدنيا يحتمل أن يكون حقيقة لما يستلزمه حبها من الجهل والغفلة عن أحوال الآخرة ، ويحتمل أن يريد بالبصر حقيقته ، ويكون لفظ العشاء مستعاراً لعدم استفادتهم بأبصارهم عبرة تصرفهم عن حب الدنيا إلى ملاحظة أحوال الآخرة ، ويؤيده قوله : فهو ينظر بعين غير صحيحة ، وكنى بعدم صحتها عما يلزم العين غير الصحيحة من عدم الانتفاع بها في تحصيل الفائدة ، وكذلك استعار لفظ المرض للداء الأكبر ، وهو الجهل استعارة لفظ المحسوس للمعقول .

وقوله : فهو يسمع بأذن غير سميعة ، وكنى بذلك عن عدم إفادتها عبرة من المواعظ والزواجر الإلهية كما سبق ، وكذلك استعار لفظ التخريق لتفرّق عقله في مهمّات الدنيا ومطالبها .

ووجه الاستعارة أن العقل إذا استعمل فيما خلق لأجله من اتخاذ الزاد ليوم المعاد واقتباس العلم والحكمة من تصفّح جزئيات الدنيا والاستدلال منها على وجود الصانع وما ينبغي له ونحو ذلك مما هو كماله المستعد في الآخرة. فإنه يكون منتظماً منتفعاً به . وأما إن استعمل فيما لا ينبغي من جميع متفرقات الدنيا وتوزيع الهمة في تحصيل جزئياتها وضبطها حتى يكون أبداً في الحزن والأسف على فوات ما فات ، وفي الخوف من زوال ما يحصل ، وفي الهمة والحرص على جمع ما لم يحصل بعد فإنه يكون كالثوب المخرّق الذي لا ينتفع به صاحبه . ونحوه قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : من جعل الدنيا أكبر همه فرّق الله عليه همه ، وجعل فقره بين عينيه . (الحديث).

ونسبة ذلك التخريق إلى الشهوات ظاهرة . إذ كان زمام عقله بيد شهوته فهي تفرّقه وتمزّقه على حسب تصرفاتها وميولها إلى أنواع المشتهيات ، وكذلك استعار لفظ الإماتة لقلبه ، ووجه المشابهة خروجه عن الانتفاع به الانتفاع الحقيقي الباقي كالميت ، والضمير في قوله : عليها يعود إلى الدنيا : أي وولهت الدنيا على نفسها ، وكنى بالتولّه عن شدة المحبة لها وأطلقه مجازاً تسمية للشيء بما هو من غاياته ، وكذلك استعار لفظ العبد له

لكونه محبّها ، والمتجرد لتحصيلها متصرفاً بحسب تصريفها ودائراً في حركاته حيث دارت فإن كانت في يده أقبل عليها بالعمارة والحفظ ، وإن زالت عنه أنصب إلى تحصيلها وخدمة من كانت في يده لغرضها فهو في ذلك كالعبد لها بل أخسّ حالاً كما قال عليه السلام في موضع آخر : عبد الشهوة أذلّ من عبد الرقّ. إذاً الباعث لعبد الرق على الخدمة والانقياد قد يكون قسرياً ، والباعث لعبد الشهوة طبيعي ، وشتان ما بينهما .

الرابعة : قوله : وهو يرى المأخوذين على الغرة فالواو في قوله : وهو للحال ، وهو شروع في وصف نزول الموت بالغافلين عن الاستعداد له ولما ورائه من أحوال الآخرة، وكيفية قبض الموت لأرواحهم من مبدأ نزوله بهم . إلى آخره ، وكيفية أحوالهم مع أهليهم وإخوانهم معه، وهو وصف لا مزيد على وضوحه وبلاغته وفائدته تذكير العصاة بأهوال الموت وتنبيههم من غفلتهم في الباطل بذلك على وجوب العمل له ، وتثبيت للسالكين إلى الله على ما هم عليه ، ومراده بقوله : ما كانوا يجهلون. لا الموت فإنه معلوم لكل أحد ؛ بل تفصيل سكراته وأهواله . وما كانوا يأمنون. إشارة إلى الموت وما بعده فإن الغافل حال انهماكه في لذات الدنيا لا يعرض له خوف الموت. بل يكون في تلك الحال آمناً منه ، وقوله : فغير موصوف ما نزل بهم : أي ليس ذلك مما يمكن استقصاؤه بوصف بل غايته التمثيل كما ورد في التوراة : أن مثل الموت كمثل شجرة شوك أُدرجت في بدن ابن آدم، فتعلّقت كل شوكة بعرق وعصب ثم جذبها رجل شديد الجذب فقطع ما قطع وأُبقي ما أُبقي ، واستعار لفظ الولوج لما يتصور من فراق الحياة لعضوٍ عضوٍ. فأشبه ذلك دخول جسم في جسم آخر ، وكذلك استعار لفظ العبء للآثام التي تحملها النفس ، ورشح بذكر الظهر استعارة لفظ المحسوس للمعقول .

الخامسة : قوله : والمرء قد غلقت رهونه بها . ضربه مثلاً لحصول المرء في تبعات ما جمع وارتباطه بها عن الوصول إلى كماله وانبعاثه إلى سعادته بعد الموت ، وقد كان يمكنه فكاكها بالتوبة والأعمال الصالحة فأشبه ما جمع من الهيئات الرديئة في نفسه عن اكتساب الأموال فارتهنت بها بما على الرهن من المال ، وقال بعض الشارحين : أراد أنه لما أشفى على

الفراق صارت الأموال التي جمعها مستحقة لغيره ولم يبق له فيها تصرف فأشبهت الرهن الذي غلق على صاحبه فخرج عن كونه مستحقاً لصاحبه وصار مستحقاً للمرتهن . وهذا وإن كان محتملاً إلّا أنه يضيّع فائدة قوله : بها . لأن الضمير يعود إلى الأموال المجموعة وهو إشارة إلى المال الذي تعلّق الرهن به فلا تكون هي نفس الرهن ، وقوله : وهو يعض يده . كناية عما يلزم ذلك من الأسف والحزن والندم على تفريطه في جنب الله حيث انكشف له حال الموت انقطاع سببه من الله ، وفوت ما كان يتوهم بقاءه عليه مما اشتغل به عن ربّه ، وحيث يتحسّر على ذلك التفريط كما قال تعالى : ﴿ **أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرّطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين** ﴾(١). ويتمنى هداية الله فيقول :

« لو أن الله هداني لكنت من المتقين» ، أو الرجعة إلى الدنيا لامتثال ما فرّطت فيه من الأوامر الإلهية فيقول حين يرى العذاب : لو أن لي كرّة فأكون من المحسنين ، وكما قال تعالى : ﴿ **ويوم يعضّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا** ﴾(٢). وقد نبّه عليه السلام في هذا الكلام على أن آلة النطق تبطل من الإنسان حال الموت قبل آلتي السمع والبصر بقوله : فحيل بين أحدهم وبين منطقه ، وإنّه لبين أهله ينظر ببصره ويسمع بأذنه على صحة من عقله . ثم نبّه على بطلان آلة السمع بعدها قبل آلة البصر، وأنّ آلة البصر تبطل مع المفارقة بقوله : حتى خالط سمعه . إلى قوله : يرى حركات ألسنتهم ولا يسمع رجع كلامهم . وذلك لعلمه عليه السلام بأسرار الطبيعة ، وليس كلامه مطلقاً بل في بعض الناس وأغلب ما يكون ذلك فيمن تعرض الموت الطبيعي لآلاته ، وإلّا فقد تعرض الآفة لقوة البصر وآلته قبل آلة السمع وآلة النطق ، والذي يلوح من أسباب ذلك أنّه لما كان السبب العام القريب للموت هو انطفاء الحرارة الغريزية عن فناء الرطوبة الأصليّة التي منها خلقنا ، وكان فناء تلك الرطوبة عن عمل الحرارة

(١) ٣٩ - ٥٦.
(٢) ٢٥ - ٢٩.

الغريزية فيها التجفيف والتحليل، وقد تعينها على ذلك الأسباب الخارجية من الأهوية واستعمال الأدوية المجفّفة وسائر المخففات كان كل عضو أيبس من طبيعته وأبرد أسرع إلى البطلان وأسبق إلى الفساد .

إذا عرفت ذلك فنقول : أما أن آلة النطق أسرع فساداً من آلة السمع فلأن آلة النطق مبنية على الأعصاب المحركة ومركبة منها ، وآلة السمع من الأعصاب المفيدة للحس ، واتفق الأطباء على أنّ الأعصاب المحرِّكة أيبس وأبرد لكونها منبعثة من مؤخر الدماغ دون الأعصاب المفيدة للحس. فإن جلّها منبعث من مقدم الدماغ، فكانت لذلك أقرب إلى البطلان .

ولأن النطق أكثر شرائط من السماع لتوقفه مع الآلة وسلامتها على الصوت وسلامة مخارجه ومجاري النفس ، والأكثر شرطاً أسرع إلى الفساد ، وأما بطلان آلة السمع قبل البصر فلأن منبت الأعصاب التي هي محلّ القوة السامعة أقرب إلى مؤخّر الدماغ من منابت محلّ القوة الباصرة فكانت أيبس وأبرد وأقبل لانطفاء الحرارة الغريزية، ولأن العصب المفروش على الصماخ الذي رتّبت فيه قوة السمع احتاج أن يكون مكشوفاً غير مسدود عنه سبيل الهواء بخلاف العصب الذي هو آلة البصر فكانت لذلك أصلب ، والأصلب أيبس وأسرع فساداً . هذا مع أنه قد يكون ذلك لتحلّل الروح الحامل للسمع قبل الروح الحامل للبصر أو لغير ذلك . والله أعلم ، وأما سبب النفرة الطبيعية من الميت والتوحش من قربه فحكم الوهم على المتخيّلة بمحاكاة حاله في نفس المتوهِّم ، وعزل العقل في ذلك الوضع حتى أن المجاور لميت في موضع منفرد يتخيّل أن الميت يجذبه إليه ويصيّره بحالة مثل حالته المنفورة عنها طبعاً .

السادسة : قوله : وأسلموه فيه إلى عمله . إشارة إلى أن كل ثواب وعقاب أُخروي يفاض على النفس فبحسب استعدادها بأعمالها السابقة الحسنة والسيئة فعمل الإنسان هو النافع أو الضارّ له حين لا ناصر له ، ولما كان ميله عليه السلام في هذا الكلام إلى الانذار والتخويف لا جرم ذكر إسلامهم له إلى عمله لأنّ الإسلام إنما يكون إلى العدو فلما حاول أن ينفّر عن قبح الأعمال نبّه على أن عمل الإنسان القبيح يكون كعدوه القوي عليه يسلم إليه .

الفصل الثالث : قوله :

حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ، وَالأَمْرُ مَقَادِيرَهُ ، وَأُلْحِقَ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ ، وَجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا يُرِيدُهُ : مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ ؛ أَمَادَ السَّمَاءَ وَفَطَرَهَا ، وَأَرَجَّ الأَرْضَ وَأَرْجَفَهَا ، وَقَلَعَ جِبَالَهَا وَنَسَفَهَا ، وَدَكَّ بَعْضُهَا بَعْضاً مِنْ هَيْبَةِ جَلاَلَتِهِ ، وَمَخُوفِ سَطْوَتِهِ ، وَأَخْرَجَ مَنْ فِيهَا فَجَدَّدَهُمْ عَلَى أَخْلاَقِهِمْ ، وَجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِمَا يُرِيدُ مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ عَنْ خَفَايَا الأَعْمَالِ ، وَخَبَايَا الأَفْعَالِ ؛ وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ : أَنْعَمَ عَلَى هٰؤُلاَءِ ، وَانْتَقَمَ مِنْ هٰؤُلاَءِ : فَأَمَّا أَهْلُ طَاعَتِهِ فَأَثَابَهُمْ بِجِوَارِهِ وَخَلَّدَهُمْ فِي دَارِهِ ، حَيْثُ لاَ يَظْعَنُ النُّزَّالُ ، وَلاَ يَتَغَيَّرُ لَهُمُ الحَالُ ، وَلاَ تَنُوبُهُمُ الأَفْزَاعُ ، وَلاَ تَنَالُهُمُ الأَسْقَامُ ، وَلاَ تَعْرِضُ لَهُمُ الأَخْطَارُ ، وَلاَ تُشْخِصُهُمُ الأَسْفَارُ : وَأَمَّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ ، فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دَارٍ ، وَغَلَّ الأَيْدِيَ إلى الأَعْنَاقِ وَقَرَنَ النَّوَاصِيَ بِالأَقْدَام ، وَأَلْبَسَهُمْ سَرَابِيلَ الْقَطِرَانِ ، وَمُقَطَّعَاتِ النِّيرَانِ فِي عَذَابٍ قَدِ اشْتَدَّ حَرُّهُ ، وَبَابٍ قَدْ أُطْبِقَ عَلَى أَهْلِهِ فِي نَارٍ لَهَا كَلَبٌ وَلَجَبٌ وَلَهَبٌ سَاطِعٌ ، وَقَصِيفٌ هَائِلٌ ، لاَ يَظْعَنُ مُقِيمُهَا ، وَلاَ يُفَادى أَسِيرُهَا ، وَلاَ تُفْصَمُ كُبُولُهَا ، لاَ مُدَّةَ لِلدَّارِ فَتَفْنَى ، وَلاَ أَجَلَ لِلْقَوْمِ فَيُقْضَى .

أقول : الرجّ ، والرجف : الاضطراب الشديد ، ويروى رجها بغير همزة ، وهو الأشهر . ونسفها : قلعها من أُصولها وبثها . ودكّ بعضها بعضاً : تصادمت . وتنوبهم : تعودهم . والخطر : الإشراف على الهلاك . وَشَخَصَ : خرج من منزله إلى آخر ، وأشخصه : غيّره . والكلب : الشدة . والجلب واللجب : الصوت . والقصيف : الصوت الشديد. والكبول : الأغلال واحدها كبل . وفصمها : كسرها .

وأشار بقوله : حتى إذا بلغ الكتاب أجله . إلى غاية الناس في موتهم ، وهو بلوغ الوقت المعلوم الذي يجمع له الناس وهو يوم القيامة ، وأراد بالأمر القضاء ومقاديره وتفاصيله من الآثار التي توجد على وفقه كما سبق بيانه ، ولحوق الخلق بأوّله إشارة إلى توافيهم في الموت، وتساويهم فيه كما نطقت الشريعة به ، وتجديد الخلق بعثهم وإعادتهم .

وأما إمادة السماء وشقّها وإرجاج الأرض ونسف الجبال فظاهر الشريعة الناطق بخراب هذا العالم ناطق به ، وأما من زعم بقاءه فربما عدلوا إلى التأويل ، والذي يحتمل أن يقال في ذلك وجوه :

أحدها : أن القيامة لما كانت عندهم عبارة عن موت الإنسان ومفارقته لهذا البدن ولما يدرك بواسطته من الأجسام والجسمانيّات ووصوله إلى مبدئه الأول كان عدمه عن هذه الأشياء مستلزم لغيبوبتها عنه وعدمها، وخرابها بالنسبة فيصدق عليه أنه إذا انقطع نظره عن جميع الموجودات سوى مبدئه الأول ـ جلّت عظمته ـ أنها قد عدمت وتفرّقت ، وكذلك إذا انقطع نظره عن عالم الحس والخيال ومتعلّقاتهما من الأجسام والجسمانيّات ، واتصل بالملأ الأعلى فبالحري أن يتبدل الأرض والسماوات بالنسبة إليه فيصير عالم الأجسام والجسمانيّات أرضاً له وعالم المفارقات سماءه .

الثاني : أن هذه الموجودات المشار إليها لما كانت مقهورة بلجام الإمكان في قبض القدرة الإلهية كان ما نسب إليها من الانشقاق والانفطار والإرجاج والنسف وغيرها أموراً ممكنة في نفسها وإن امتنعت بالنظر إلى الأسباب الخارجية فعبّر عما يمكن بالواقع مجازاً . وحسنه في العربية معلوم ، وفائدته التهويل بما بعد الموت والتخويف للعصاة بتلك الأهوال .

الثالث : قالوا : يحتمل أن يريد بالأرض القوابل للجود الإلهي استعارة فعلى هذا إمادة السماء عبارة عن حركاتها واتصالات كواكبها التي هي أسباب معدّة لقوابل هذا العالم ، وانفطارها إفاضة الجود بسبب تلك المعدات على القوابل ، وإرجاج الأرض إعداد المواد لإعادة أمثال هذه الأبدان أو لنوع آخر بعد فناء النوع الإنساني ، وقلع الجبال ونسفها ودقها إشارة إلى زوال موانع الاستعدادت لنوع آخر إن كان ، أو لإعادة بناء هذا النوع استعارة . ووجهها أن الأرض بنسف الجبال يستوي سطحها ويعتدل فكذلك قوابل الجود يستعدّ ويعتدل لأن يفاض عليها صورة نوع أخرى لإبناء هذا النوع .

الرابع : قالوا : يحتمل أن يريد بالسماء سماء الجود الإلهي ، وبالأرض عالم الإنسان . فعلى هذا يكون إمادة السماء عبارة عن ترتيب كل استحقاق لقابله في القضاء الإلهي ، والفطر عبارةعن الفيض ، وإرجاج

الأرض وإرجافها عبارة عن الهرج والمرج الواقع بين أبناء نوع الإنسان ، وقلع جبالها ونسفها ودكّ بعضها بالبعض عبارة عن إهلاك الجبابرة والمعاندين للناموس الإلهي وقتل بعضهم ببعض . كل ذلك بأسباب قهريّة مستندة إلى هيبة جلال الله وعظمته ، وإخراج من فيها وتجديدهم إشارة إلى ظهور ناموس آخر مجدّد لهذا الناموس والمتّبع له إذن قوم آخرون هم كنوع جديد ، وتمييزهم فريقين منعم عليهم ومنتقم منهم ظاهر. فإن المستعدين لاتّباع الناموس الشرعي والقائلين به هم المنعم عليهم المثابون ، والتاركين له المعرضين عنه هم المنتقم منهم المعاقبون .

فأما صفة الفريقين وما أعدّ لكل منهم بعد الموت فعلى ما نطق به الكتاب العزيز ووصفته هذه الألفاظ الكريمة ، وعلى تقدير التأويلات السابقة لمن عدل عن الظواهر فثواب أهل الطاعة جوار بارئهم وملاحظة الكمال المطلق لهم ، وخلودهم في داره : بقاؤهم في تلك النعمة غير جائز عليهم الفناء. كما تطابق عليه الشرع والبرهان،وكونهم غير ظاعنين ولا متغيّري الأحوال ولا فزعين ولا ينالهم سقم ولا خطر ، ولا يشخصهم سفر. فلأن كل ذلك من لواحق الأبدان والكون في الحياة الدنيا فحيث زالت زالت عوارضها ولواحقها .

وأما جزاء أهل المعصية فإنزالهم شرّ دار ؛ وهي جهنم التي هي أبعد بعيد عن جوار الله ، وغلّ أيديهم إلى أعناقهم إشارة إلى قصور قواهم العقلية عن تناول ثمار المعرفة ، واقتران النواصي بالأقدام إشارة إلى انتكاس رؤوسهم عن مطالعة أنوار الحضرة الإلهية ، وإلباسهم سرابيل القطران : استعار لفظ السرابيل للهيئات البدنية المتمكنة من جواهر نفوسهم ، ووجه المشابهة اشتمالها عليها وتمكّنها منها كالسربال للبدن ، ونسبتها إلى القطران إشارة إلى شدّة استعدادهم للعذاب ، وذلك أنّ اشتعال النار فيما يمسح بالقطران أشدّ ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ **سرابيلهم من قطران** ﴾[1].

وكذلك مقطعات النيران : إشارة إلى تلك الهيئات التي تمكنت من جواهر نفوسهم ، ونسبتها إلى النار لكونها ملبوس أهلها فهي منها كما قال

(١) ١٤ - ٥١.

تعالى : ﴿ قطّعت لهم ثياب من نار ﴾[1].

ولما كان سبب الخروج من النار هو الخروج إلى الله من المعاصي بالتوبة ، والرجوع إلى تدبر الآيات والعبر النوافع . وكان البدن وحواسه أبواب الخروج إلى الله فبعد الموت تغلق تلك الأبواب فلا جرم يبقى الكفار وراء طبق تلك الأبواب في شدائد حرارة ذلك العذاب ، ولهب النار ولجبها وأصواتها الهائلة : استعارة لأوصاف النار المحسوسة المستلزمة للهيبة والخوف حساً للنار المعقولة التي هي في الحقيقة أشد ـ نعوذ بالله منها ـ وإنما عدل إلى المحسوس للغفلة عن صفات تلك النار وعدم تصوّر أكثر الخلق لها إلّا من هذه الأوصاف المحسوسة ، وكونها لا يظعن مقيمها كناية عن التخليد، وذلك في حقّ الكفّار ، ولفظ الأسير والفدية استعارة، وكذلك لفظ الكبول استعارة لقيود الهيئات البدنية المتمكّنة من جواهر نفوس الكفّار فكما لا ينفصم القيد الوثيق من الحديد ولا ينفك المكبّل به كذلك النفوس المقيدة بالهيئات الرديئة البدنية عن المشي في بيداء جلال الله ، وعظمته والتنزه في جنان حظائر قدسه ومقامات أصفيائه .

ولما كان الأجل مفارقة البدن لم يكن لهم بعد موتهم أجل ، إذ لا أبدان بعد الأبدان ولا خلاص من العذاب للزوم الملكات الرديئة لأعناق نفوسهم ، وتمكنها منها . فهذا ما عساهم يتأوّلونه أو يعبّرون به عن الأسرار التي يدّعونها تحت هذه العبارات الواضحة التي وردت الشريعة بها . لكنّك قد علمت أن العدول إلى هذه التأويلات وأمثالها مبنيّ على امتناع المعاد البدني ، وذلك مما صرّحت به الشريعة تصريحاً لا يجوز العدول عنه ، ونصوصاً لا يحتمل التأويل ، وإذا حملنا الكلام على ما وردت به الشريعة فهذا الكلام منه عليه السلام أفصح ما يوصف به حال القيامة والمعاد . والتعرض لشرحه يجري مجرى إيضاح الواضحات . وبالله التوفيق .

ومنها في ذكر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) :

قَدْ حَقَّرَ الدُّنْيَا وَصَغَّرَهَا ، وَأَهْوَنَهَا وَهَوَّنَهَا ، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ زَوَاهَا عَنْهُ

(١) ٢٢ ـ ٢٠ .

آخْتِيَاراً ، وَبَسَطَهَا لِغَيْرِهِ آحْتِقَاراً ، فَأَعْرَضَ عَنْهَا بِقَلْبِهِ ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا عَنْ نَفْسِهِ ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً ، أَوْ يَرْجُوَ فِيهَا مَقَاماً ، بَلَّغَ عَنْ رَبِّهِ مُعْذِراً ، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ مُنْذِراً ، وَدَعَا إِلَى الْجَنَّةِ مُبَشِّراً.

نَحْنُ شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ ، وَمَحَطُّ الرِّسَالَةِ ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلَائِكَةِ ، وَمَعَادِنُ الْعِلْمِ ، وَيَنَابِيعُ الْحِكَمِ ، نَاصِرُنَا وَمُحِبُّنَا يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ ، وَعَدُوُّنَا وَمُبْغِضُنَا يَنْتَظِرُ السَّطْوَةَ .

أقول : الرياش : اللباس .

والفصل اقتصاص لحال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأوصافه الحميدة ليبني عليها ممادح نفسه بعد . فتحقيره للدنيا وتصغيرها وتهوينها إشارة إلى ما كان يجذب الخلق به عنها من ذكر مذامها وتعديد معايبها ، وإهوانه بها إشارة إلى زهده فيها ، وعلمه بإزواء الله إيّاها عنه اختياراً إشارة إلى أن زهده فيها كان عن علم منه باختيار الله له ذلك وتسبّب أسبابه وهو وجه مصلحته ليستعد نفسه بذلك لكمال النبوة والقيام بأعباء الخلافة الأرضية، وبسطها لغيره احتقاراً لها ، وقد عرفت معنى الاختيار من الله لخلقه غير مرّة .

فكان إعراضه عنها بقلبه إماتة ذكرها عن نفسه، ومحبّته لأن تغيب زينتها عن عينه لئلا يتّخذ منها رياشاً ولا يرجو فيها مقاماً جذباً للعناية الإلهية له عن الالتفات إلى الالتقاط إلى الكمالات المعلومة له ، وعن أن ينحط لمحبتها عن مقامه الذي قضت العناية الإلهية بنظام العالم بسببه ، ثم أعقب ذلك بذكر ثلاثة أحوال هي ثمرة النبوة التي هي ثمرة الزهد المشار إليه ؛ وهي تبليغ رسالة ربه إعذاراً إلى خلقه أن يقولوا يوم القيامة : إنّا كنّا عن هذا غافلين ، والنصح لهم إنذاراً بالعذاب الأليم في عاقبة الإعراض عن الله ، ودعاؤه إلى الجنّة مبشراً لمن سلك سبيل الله ونهجه المستقيم بما أعدّ له فيها من النعيم المقيم . ثم عقّب اقتصاص تلك الممادح بالإشارة إلى فضيلة نفسه ، وذلك منه في معرض المفاخرة بينه وبين مشاجريه كمعاوية. فأشار إلى فضيلته من جهة اتّصاله بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم إذ كان من البيت الذي هو شجرة النبوة ومحط الرسالة ومعدن العلم وينبوع الحكمة بأفضل مكان بعد

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما سبق بيانه في بيان فضائله ، ولفظ الشجرة والمعادن والينابيع مستعار كما سبق ، وإذا كان من تلك الشجرة كما علمت ولكل غصن من الشجرة قسط من الثمرة بحسب قوّته وقربه من الأصل. وعناية الطبيعة به علمت مقدار فضيلته ونسبتها إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

وقوله بعد ذلك : ناصرنا ومحبّنا . إلى آخره .

ترغيب في نصرته ومحبته وجذب إليها بالوعد برحمة الله وإفاضة بركاته وتنفير عن عداوته وبغضه بلحوق سطوة الله ، ولعل ذلك هو غايته هنا من ذكر فضيلته . وبالله التوفيق والعصمة .

١٠٧ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

إنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إلى الله ، سُبْحَانَهُ ، الإيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ الإِسْلاَمِ ، وَكَلِمَةُ الإِخْلاَصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ. فَإِنَّهَا الْمِلَّةُ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ ، وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ. فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ ، وَحَجُّ الْبَيْتِ وَاعْتِمَارُهُ. فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَيَرْحَضَانِ الذَّنْبَ ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ ، وَمَنْسَأَةٌ فِي الأَجَلِ وَصَدَقَةُ السِّرِّ فَإِنَّهَا تُكَفِّرُ الْخَطِيئَةَ ، وَصَدَقَةُ الْعَلاَنِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيْتَةَ السُّوءِ ، وَصَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ الْهَوَانِ .

أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ الله فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ ، وَارْغَبُوا فِيمَا وَعَدَ الْمُتَّقِينَ فَإِنَّهُ أَصْدَقُ الْوَعْدِ ، وَاقْتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْهَدْيِ ، وَاسْتَنُّوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّهُ أَهْدَى السُّنَنِ ، وَتَعَلَّمُوا الْقُرآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، وَاسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ ، وَأَحْسِنُوا تِلاَوَتَهُ، فَإِنَّهُ أَنْفَعُ الْقَصَصِ ،فَإِنَّ الْعَالِمَ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالْجَاهِلِ الْحَائِرِ الَّذِي لاَ يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ ، بَلِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ ، وَالْحَسْرَةُ لَهُ أَلْزَمُ ، وَهُوَ عِنْدَ الله أَلْوَمُ .

أقول : ذروة الشيء : أعلاه . والملّة : الدين : والجنة : الوقاية . ويرحضان بفتح الحاء : يغسلان . والرحض . الغسل . والمثراة : المكثرة ،

وهي محل كثرة المال والثروة . والمنسأة : محلّ النسأ ، وهو التأخير . والإفاضة في الذكر : الاندفاع فيه . والهدى : ضد الإضلال ، وهو مصدر .

وقد أشار عليه‌السلام في هذا الفصل إلى أن أفضل الوسائل الموصلة إلى الله سبحانه هو الإيمان الكامل. فالإيمان بالله هو التصديق بوجوده ، وهو إشارة إلى أصل الإيمان . ثم له لواحق وكمالات :

أحدها : التصديق برسوله . وإنما قدمه على سائر العبادات لأنه أصل لها لا تصح بدونه .

الثاني : الجهاد في سبيله ، وقد عرفت فضائل الجهاد فيما سلف ، وأشار إلى وجه فضيلته بكونه ذروة الإسلام ، واستعار لفظ الذروة له ملاحظة لشبهه في العلو والمرتبة في الإسلام بالسنام للبعير. وإنما قدّمه على الصلاة لكون سالكه على يقين من لقاء الله وقوة من التصديق بما جاء به الرسول حيث يلقي نفسه إلى التهلكة الحاضرة التي ربما يغلب على ظنه أو يتيقنها ، ولأنه الأصل الأعظم في جمع العالم على الدين.

الثالث : كلمة الإخلاص ؛ وهي كلمة التوحيد المستلزمة لنفي الشركاء والأنداد وهي معنى الإخلاص ، ولذلك أُضيفت إليه ، ووجه فضيلتها كونها فطرة الله التي فطر الناس عليها. فإنّ العقول السليمة البريّة عن شوائب العلائق البدنيّة وعوارض التربية شاهدة ومقرة. بما أُخذ عليها من العهد القديم من توحيد صانعها وبراءته عن الكثرة ، وأطلق عليها اسم الفطرة وإنْ كانت الفطرة عليها مجازاً إطلاقاً لاسم الملزوم على لازمه .

الرابع : إقامة الصلاة ، وإنما جعلها الملّة وإن كانت بعض أركان الدين لأنها الركن القوي من أركانه. فأطلق عليها ذلك اللفظ إطلاقاً لاسم الكل على الجزء مجازاً .

واعلم أن للصلاة فضائل وأسرار يجب التنبيه عليها : أما فضيلتها فقد ورد فيها أخبار كثيرة بعد تأكيد القرآن الكريم للأمر بها كقوله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : الصلاة عمود الدين من تركها فقد هدم الدين ، وقوله : مفتاح الجنة الصلاة ، وقوله في فضل إتمامها : إنّ الرجلين من أُمتي يقومان في الصلاة وركوعهما

وسجودهما واحد، وإنما بين صلاتيهما ما بين السماء والأرض .

وقوله : أما يخاف الذي يحوّل وجهه في الصلاة أن يحوّل الله وجهه وجه حمار ، وقوله : من صلّى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا غفر الله له ذنوبه .

وأمّا أسرارها فيقسم إلى عامة وإلى خاصة ، وأمّا العامة فقد بيّنّا فيما سلف في ذكر الحج في الخطبة الأولى السر العام لجميع العبادات ، وهي كونها متمّمة للغرض الثاني من أغراض العارف من الرياضة ومعينة على تطويع النفس الأمارة بالسوء للنفس المطمئنة وتمرينها على موافقتها ، وإذا لاح لك هذا السر فقد علمت أن جميع الآيات والأخبار الواردة في فضلها يرجع معناها إليه كنهيها عن الفحشاء، والمنكر في قوله تعالى : ﴿ **إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾ إذ كان سببهما القوّة الروعية [التروعية خ] إذا خرجت عن حكم العقل. فإذا كانت الصلاة هي التي توجب دخولها تحت حكم العقل والعقل ناه عن الفحشاء والمنكر ، فقد كانت الصلاة هي السبب في الانتهاء فكانت ناهية ، فظهر أيضاً معنى كونها عماد الدين .

إذ قال : بني الإسلام على خمس . فكل منها عماد بحسب شرائطه فمن أخلّ بها فقد هدم بنيانه الذي يصعد به إلى الله ، وكذلك كونها مفتاحاً للجنة . إذ بها ينفتح باب من أبواب الوصول إلى الله ، ولذلك ظهر التفاوت الذي يشير إليه صلى الله عليه وآله وسلم في صلاة الرجلين من أُمّته فإنه إذا كانت فائدة الصلاة هو الالتفات إلى الله تعالى بقمع الشيطان . وكان أحد الرجلين في صلاته خاشعاً لخشية الله مستحضراً لعظمته ، والآخر غافل عن هذه الجهة قد صرف الشيطان وجه قلبه إلى غير القبلة فأين أحدهما من الآخر ، وكذلك ما أشار إليه من التخويف لمن يحوّل وجهه في الصلاة. فإنه نهي منه عن الغفلة عن الالتفات إلى الله وملاحظة عظمته في حال الصلاة. فإنّ الملتفت يميناً وشمالاً ملتفت عن الله وغافل عن مطالعة أنوار كبريائه ، ومن كان كذلك فيوشك أن تدوم تلك الغفلة عليه فيتحول وجه قلبه كوجه قلب الحمار في قلة عقليّته للأُمور العلوية وعدم إكرامه بشيء من العلوم والقرب إلى الله .

وكذلك غفران ذنب المصلي بسبب تركه حديث نفسه بشيء من الدنيا فإنّه في تلك الحال يلتفت إلى الله تعالى غافلاً عن غيره ، والالتفات إليه هو روح العبادة وخلاصتها ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم إنّما فرضت الصلاة وأمر بالحج والطواف وأشعرت المناسك لإقامة ذكر الله فإذا لم يكن في قلبك المذكور الذي هو المقصود والمبتغى عظمته، ولا هيبته فما فيه ذكرك. وعن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه شغلاً بالله عن كلّ شيء. وكان علي عليه السلام إذا حضر وقت الصلاة يتململ ويتزلزل ويتلون فيقال له : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فيقول : جاء وقت أمانة عرضها الله على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وكان علي بن الحسين عليهما السلام إذا حضر للوضوء اصفرّ لونه فيقول أهله : ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء ؟ فيقول : ما تدرون بين يدي من أقوم . وكل ذلك إشارة إلى استحضار عظمة الله والالتفات إليه حال العبادة والانقطاع عن غيره .

وأما ما يخصها من الأسرار فقد علمت أن الصلاة ليس إلاّ ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود : أما الذكر فظاهر أنه محاورة ومناجاة لله تعالى وغايتها استلزام الالتفات إليه ، وتذكرٌ ما ينجذب القوى الشيطانية تحت قيادة العقل ويستمر تعوّدها بذلك وهو المقصود من القراءة والأذكار والحمد والثناء والتضرع والدعاء ، وليس المقصود منه الحرف والصوت امتحاناً للسان بالعمل وإن حصلت الغفلة. فإن تحريك اللسان بالهذيان خفيف على الإنسان لا كلفة فيه من حيث إنه عمل ، وسنبيّن حال الذكر وفضيلته وفائدته في موضع أليق به إنشاء الله تعالى .

وأما الركوع والسجود والقيام والقعود فالغرض بها التعظيم لله تعالى المستلزم للالتفات إليه وذكره أيضاً . إذ لو جاز أن يكون معظماً لله بفعله وهو غافل عنه لجاز أن يعظم صنماً موضوعاً بين يديه وهو غافل عنه ، ويؤيد ذلك ما روي عن معاذ بن جبل من عرف من على يمينه وشماله متعمداً في الصلاة فلا صلاة له ، وقال عليه السلام : إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها ، وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها ، ولما عرفت أن الأصل

من أركانها هو الالتفات إلى الله تعالى فاعلم أن الالتفات إليه مستلزم للتذكر والتفهّم لأن الالتفات إليه . إنما يراد لمطالعة كبريائه وعظمته ، والمطالعة ليس إلاّ الفكر الذي هو عين البصيرة وحدقة العقل الإنساني .

ثم إن التذكر والتفهم مستلزم للتعظيم فإن مطالعة عظمة الله أعظم من أن لا يعظّمها العارف بها ، والتعظيم مستلزم للخوف والرجاء فإنّا نجد عند تصور عظمة ملك من ملوك الدنيا وجداناً ضرورياً أنّا ننقهر عن مكالمته ومحاورته ونلزم معه السكون والخضوع . وربما يتبع ذلك رعدة البدن وتلعثم اللسان ، ومنشأ كل ذلك الخوف الحادث عن تصور عظمته فكيف يتصور جبار الجبابرة وملك الدنيا والآخرة ، وكذلك الرجاء فإنّا عند تصور عظمة الله نتصور أن الكل منه وذلك باعث على رجائه ، خصوصاً وقد تأكد ذلك بالآيات الواردة في باب الخوف والرجاء ، وكذلك يستلزم الحياء لأن المتصور لعظمة الآمر لا يزال مستشعراً تقصيراً ومتوهّماً ذنباً وذلك الاستشعار والتوهم يوجب الحياء من الله سبحانه .

الخامس : إيتاء الزكاة ، وهي ركن قوي من أركان الدين ، وأشار إلى وجه فضلها بكونها فريضة واجبة . قال قطب الدين الراوندي : أراد بالفريضة السهم المنقطع من المال للفقراء المستحقين المسمى زكاة . قال : وهو عرف شرعي لأن الفريضة بمعنى الواجب. فإن كل العبادات الواجبة كذلك ، ولأن الفرض والواجب بمعنى فيكون قوله : فريضة واجبة . تكراراً ، وأقول : ما ذكره وجه حسن، وهو إشارة إلى بعض أسرارها كما نبينه ، ولهذه العبادة مع السر العام الشامل لجميع العبادات وهو الالتفات إلى الله تعالى ومحبته أسرار :

الأول : أن المراد بكلمة الشهادة التوحيد المطلق وإفراد المعبود بالتوجه إليه وذلك لا يتم إلاّ بنفي كل محبوب عداه فإن المحبة لا تحتمل الشركة ، والتوحيد باللسان قليل الفائدة في الباطن ، وإنما تمتحن درجة الحب بمفارقة المحبوبات ، والأموال محبوبة عند الخلق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا وأُنسهم بها ونفرتهم عن الموت فامتحنوا بتصديق دعواهم في المحبوب واستنزلوا عن المال الذي هو معشوقهم كما قال تعالى : ﴿ **إن الله**

اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾[1]. ولما فهم الناس هذا المعنى انقسموا أقساماً : فطائفة أخلصوا في حب معشوقهم ووفوا بعهده فبذلوا أموالهم ولم يدخروا منها شيئاً حتى قيل لبعضهم : كم تجب من الزكاة في مائتي درهم ؟ قال : أما على العوام فبحكم الشرع خمسة دراهم ، وأما علينا فيجب بذل الجميع ، ومنهم من قعد عن هذه المرتبة وأمسكوا أموالهم وراقبوا مواقيت الحاجة ومواسم الخيرات وجعلوا قصدهم في الادخار الإنفاق على قصد الحاجة دون التنعم ، وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر ، وهؤلاء لا يقتصرون على واجب الزكاة كالنخعي والشعبي ومجاهد ، وقيل للشعبي : هل في المال حق سوى الزكاة ؟ فقال : نعم أما سمعت قوله تعالى : ﴿ **وآتى المال على حبه ذوي القربى** ﴾ الآية واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾. ولم يجعلوا ذلك مخصوصاً بآية الزكاة بل هو داخل في حق المسلم على المسلم، ومعناه أنه يجب على المؤسر مهما وجد محتاجاً ان يزيل حاجته بما يفضل عن مال الزكاة، ومنهم من اقتصر على اداء الواجب من الزكاة من غير زيادة ولا نقصان وهي ادون الرتب وقد اقتصر مع العوام على ذلك لجهلهم بسرّ البذل وبخلهم المال، وضعف حبهم للآخرة، ويلزم لهذا السر تطهير ذوي الاموال عن رذيلة البخل. فإنها من المهلكات، قال (ع): ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه، ووجه كونه مهلكاً أنه إنما يصدر عن محبة المال وقد علمت أن الدنيا والآخرة ضرتان بقدر ما يقرب من إحديهما يبعد من الاخرى فكانت محبة المال صارفة عن التوجه الى الله ومبعدة منه، وذلك يستلزم الهلاك الأُخروي كما بيّناه. وإنما تزول هذه الرذيلة بتعوّد البذل. إذ حبّ الشيء لا ينقطع إلّا بقهر النفس على مفارقته بالتدريج حتى يصير ذلك عادة فالزكاة بهذا المعنى طهور: أي تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك، وانما طهارته بقدر بذله، وفرحه واستبشاره بصرفه في جنب الله طاعة ومحبة له وملاحظة لحذف كل محبوب عداه عن سمت القبلة.

---

(١) سورة التوبة: آية ١١١ .

السر الثاني : شكر النعمة فإن لله على العبد نعمة في نفسه وشكرها العبادات البدنية ، ونعمة في ماله وشكرها العبادات المالية ، وليس أحد أخسّ وأبعد عن رحمة الله ممن ينظر إلى فقير قد ضيّق عليه الرزق ثم اضطر إليه فلم تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على ما أغناه عن السؤال وأحوج غيره إليه بعشر ماله أو بربع عشره .

السر الثالث : يتعلق بإصلاح المدن وتدبير أحوال أهلها وهو أن جعل الله هذا الفرض في أموال الأغنياء شركة للفقراء ، لأن يسد به خلتهم ، وإليه أشار عليه السلام بكونه فريضة واجبة ، وفي هذا السر سران :

أحدهما : أن يكون ذلك عوناً لهؤلاء على عبادة الله كي لا يشتغلوا بالطلب عنها.

الثاني : أن تنكسر هممهم عن حسد أهل الأموال والسعي بالفساد في الأرض فلا ينتظم أمر المدنية ، وتكون قلوبهم ساكنة إلى ذلك القدر معلّقة به مستمدة من الله تعالى بالدعاء في حفظه متألفة مع أهل الأموال منجذبة إليهم فيتمّ بذلك أمر المشاركة والمعاونة والأُنس والمحبة، الموجبات للألفة الموجبة لنظام العالم وقوام أمر الدين وبقاء نوع الإنسان لما لأجله وجد .

السادس : صوم شهر رمضان . وتخصيصه بكونه جنة من العقاب مع أن سائر العبادات كذلك لما أنه أشدها وقاية ، وبيان ذلك أنه مستلزم لقهر أعداء الله التي هي الشياطين المطيفة بالإنسان. فإن وسيلة الشيطان هي الشهوات وإنما يقوي الشهوة ويثيرها الأكل والشرب، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم لعائشة : داومي قرع باب الجنة فقالت : بماذا ؟ قال : بالجوع .

فكان الصوم على الخصوص أشد قمعاً للشيطان وأسد لمسالكه وتضييق مجاريه ، ولما كان العقاب إنما يلحق الإنسان ويتفاوت في حقه بالشدة والضعف بحسب تفاوت قربه من الشيطان وبعده منه.

وكانت هذه العبادة أبعد بعيد عن الشيطان كان بسببها أبعد بعيد عن

العقاب فلذلك خصت بكونها وقاية منه . واعلم أن هذه العبادات وإن كانت عدمية إلّا أنها ليست عدماً صرفاً بل عدم ملكة يحرك من الطبيعة تحريكاً شديداً ينبه صاحبه أنه على جملة من الأمر ليس هذراً فيتذكر سبب ما ينويه من ذلك وأنه التقرب إلى الله سبحانه كما هو غاية للسر العام للعبادات .

السابع : حج البيت واعتماره ، وقد سبقت منا الإشارة إلى أسراره في الخطبة الأولى . والذي ذكره هيهنا كونهما ينفيان الفقر ويغسلان الذنب فجمع فيه بين منفعة الدنيا ومنفعة الآخرة : أما منفعة الدنيا فكونهما ينفيان الفقر وذلك بسبب التجارة الحاصلة في موسم الحج وقيام الأسواق بمكة حينئذ .

وأما منفعة الآخرة لكونهما يغسلان الذنب عن لوح النفس كما علمته في أسرار العبادات وهي هذه المنافع المشار إليها في القرآن الكريم بقوله : ﴿ **ليشهدوا منافع لهم** ﴾ قال أكثر المفسرين : هي منافع الدنيا من التجارة وهو المنقول عن سعيد بن جبير وابن عباس في رواية أبي رزين عنه ، ومنهم من جعلها عامة في منافع الدنيا والآخرة كالتجارة والثواب ، وهو المنقول عن مجاهد وابن عباس في رواية عطاء عنه .

الثامن : صلة الرحم ، وذكر من فوائدها أمرين :

أحدهما : كونها مثراة في المال ، وذلك من وجهين :

أحدهما : أن العناية الإلهية قسمت لكل حي قسطاً من الرزق يناله مدة الحياة الدنيا وتقوم به صورة بدنه فإذا أعدت شخصاً من الناس للقيام بأمر جماعة وكلفته بإمدادهم ومعونتهم وجب في العناية إفاضته أرزاقهم على يده وما يقوم بإمدادهم بحسب استعداده لذلك سواء كانوا ذوي أرحام أو مرحومين في نظره حتى لو نوى قطع أحد منهم فربما نقص ماله بحسب رزق ذلك المقطوع ، وذلك معنى كونه مثراة للمال .

الثاني : أن صلة الرحم من الأخلاق الحميدة التي يستمال بها طباع الخلق فواصل رحمه مرحوم في نظر الكل فيكون ذلك سبباً لإمداده ومعونته

من ذوي الإمداد والمعونات كالملوك ونحوهم فكانت صلة الرحم مظنة لزيادة المال .

والثاني : كونه منسأة للأجل وهو من وجهين :

أحدهما : أن صلة الرحم توجب تعاطف ذوي الأرحام وتوازرهم ومعاضدتهم لواصلهم فيكون عن أذى الأعداء أبعد وفي ذلك مظنة تأخيره وطول عمره .

الثاني : أن مواصلة ذوي الأرحام توجب تعلق هممهم ببقاء واصلهم وإمداده بالدعاء ويكون دعاؤهم له وتعلق هممهم ببقائه من شرائط بقائه وإنساء أجله فكانت مواصلتهم منسأة في أجله .

التاسع : صدقة السر . وذكر من فوائدها كونها تكفر الخطيئة ، وإنما خصّها بذلك مع أن سائر العبادات كذلك لكونها أبعد عن الرياء ومخالطة ما لا يراد به إلاّ وجه الله تعالى فكان الإخلاص فيها لله أتمّ فكانت أولى بالتقريب من الله وبمحو الخطيئة .

العاشر : صدقة العلانية ، وذكر من فوائدها أنها تدفع ميتة السوء ؛ وبيان ذلك أن صدقة العلانية تستلزم الشهرة بفعل الخيرات، وتوجب الذكر الجميل للمتصدق . ولما كانت ميتات السوء كالحرق والغرق والصلب والقتل ونحو ذلك من الأحوال الشنيعة التي تكثر نفرة الناس عن الموت عليها . وكان قليلاً ما يقع شيء منها بقصد من الناس لمن أحبّوه واشتهر بالرحمة واستجلاب قلوب الفقراء بالصدقة والإيثار . فلا جرم كانت تلك الصدقة مظنة الدفع لميتات السوء .

الحادي عشر : صنائع المعروف، وذكر من فوائدها أنها تقي مصارع الهوان ، وتقريره قريب مما قبله . إذ كان اصطناع المعروف مستلزماً لتألف قلوب الخلق وجامعاً لهم على محبة المصطنع فقلما يقع من ذلك نسيبهم في مصرع هوان . ثم لما فرغ من تعداد كمالات الإيمان أمر بما يؤكده في القلوب ويثبته وهي أمور :

أحدها : الاندفاع في ذكر الله . وهو من مؤكدات الإيمان به ، ورغّب

فيه بكونه أحسن الذكر، وذلك لما يستلزمه من الحصول على الكمالات المسعدة في الآخرة والوصول إلى الله كما سنبيّن فائدته وفضيلته في موضع التوبة.

الثاني : الرغبة فيما وعد المتقين من ثواب الآخرة وأنواعه. وهو أيضاً من مؤكدات طاعته والعمل له، ولما كان الخلف في خبره تعالى محالاً كان وعده أصدق الوعود.

الثالث : الاقتداء بهدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابع : اتباع سنّته. ولما كان أفضل الأنبياء كانت سنّته أشرف السنن والاقتداء به واتباع سنّته أهدى الطرق إلى الله.

الخامس : تعلّم القرآن. وظاهر كونه من مؤكدات الإيمان بالله ورسوله، واستعار له لفظ الربيع، ووجه المشابهة كون القرآن جامعاً لأنواع العلوم الشريفة والأسرار العجيبة اللطيفة التي هي متنزه القلوب. كما أن زمن الربيع محل الأزهار الرائقة التي هي مستمتع النظر ومطرح السرور.

السادس : الاستشفاء بنوره، وظاهر كونه شافياً للقلوب من ظلمة الجهل.

السابع : حسن تلاوته. وذلك لأن حسن تلاوته مظنة تفهم معانيه وتدبرها، وبحسن تلاوته تظهر فائدته وتحصل منفعة قصصه، وإنما يكون أنفع القصص إذا تلي حق تلاوته كما سبق بيانه. ثم أكد الأوامر المذكورة بالأعمال التي عددها مما ينبغي أن يعمل على وفق العلم بالتنبيه على نقصان العالم الذي لا يعمل بعلمه فسوى أولاً بينه وبين الجاهل العادل عن سواء سبيل الله. ووجه التسوية اشتراكهما في ثمرة الجهل وهو الجور عن قصد السبيل وفي عدم الانتفاع بفائدة العلم وثمرته. وهي الأعمال الصالحة. ثم جعل حال العالم أخس لثلاثة أوجه :

أحدها : أن الحجة عليه أعظم لأن للجاهلين أن يقولوا : إنا كنّا عن هذا غافلين. وليس للعالم ذلك، وروي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : العلم علمان : علم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم، وعلم في القلب

فذلك العلم النافع . أي الذي يستلزم الطاعة بالعمل.

الثاني : أن الحسرة لـه ألزم . وذلـك أن النفوس الجـاهلة غير عـالمة بمقدار ما يفـوتها من الكمـال بالتحصيـل فإذا فـارقت أبدانهـا فهي وإن كانت محجوبة عن ثمار الجنة وما أعدّ الله فيها لأوليائه العلماء إلاّ أنهـا لما لم تجـد لـذتها ولم تـطعم حلاوة المعـارف الإلهية لم تكن لهـا كثير حسـرة عليهـا ولا أسف على التقصير في تحصيلها. بخـلاف العـارف بهـا العـالم بنسبهـا إلى اللذات الـدنيويـة. فإنـه بعد المفـارقـة إذا علم وانكشف لـه أنَّ الصـارف لـه والمانع عن الوصول إلى حضرة جلال الله هو تقصيره في العمـل بما علم مـع علمه بمقدار ما فاته من الكمالات والدرجات. كان أسفه وحسـرته على ذلـك أشد الحسرات . وجرى ذلك مجرى من علم قيمة جوهرة ثمينة يساوي جملة من المال ثم اشتغل عن تحصيلها ببعض لعبه حتى فاتته، فإنه تعظـم حسرتـه عليها وندمه على التفريط فيها بخلاف الجاهل بقيمتها .

الثالث : أنه يكون عند الله ألوم ؛ وأشديّة اللائمـة بعد المفـارقة مجـاز في انقطاع لسان حاله عن العذر في معصيته عن علم. وإنمـا يكون ألـوم لأن إقـدام العالم على المعصية التي علم قبحـها إنمـا يكون عن نفس في غـاية الانقياد للنفس الأمارة بالسوء، والطاعة لإبليس وجنوده طاعة تفضل على طاعة الجـاهل وانقيـاده لقيام الصـارف في حق العالم وهـو علمه بقبحهـا، وترجّـح الـداعي إليها عليـه وعدم الصـارف في حق الجاهـل . ولا شـك أن أشـدّيـة اللائمة تابعة لأشدّية الانقياد لإبليس خصوصـاً مع العلم بمـا يستلزم متـابعتـه من الهلاك . وظاهر إذن كونه ألوم عند الله . وبالله التوفيق والعصمة .

١٠٨ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِـرَةٌ ، حُفَّتْ بِالشَّهَـوَاتِ ، وَتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ ، وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ ، وَتَحَلَّتْ بِالآمَالِ ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ ؛ لاَ تَدُومُ حَبْرَتُهَا ، وَلاَ تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا ، غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ ، نَافِدَةٌ بَائِـدَةٌ ، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ ، لاَ تَعْدُو إِذَا تَنَاهَتْ إِلى أُمْنِيَّةِ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا ، وَالرِّضَاءِ بِهَا ، أَنْ

تَكُونَ كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى : ﴿كَماءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾ لَمْ يَكُنِ آمْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرَةٍ إلَّا أَعْقَبَتْهَا عَبْرَةٌ ، وَلَمْ يَلْقَ فِي سَرَّائِهَا بَطْناً ، إلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْراً ، وَلَمْ تَطِلَّهُ فِيهَا دِيمَةُ رَخَاءٍ ، إلَّا هَتَنَتْ عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلاَءٍ ، وَحَرِيٌّ ، إذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً ، أَنْ تُمْسِيَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً وَإنْ جَانِبٌ مِنْهَا آعْذَوْذَبَ ، وَآحْلَوْلَى أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى ، لاَ يَنَالُ آمْرُؤٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغَباً ، إلَّا أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَباً ، وَلاَ يُمْسِي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ إلَّا أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ ، غَرَّارَةٌ غرُورٌ مَا فِيهَا فَانِيَةٌ ، فَانٍ مَنْ عَلَيْهَا لاَ خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَادِهَا إلَّا التَّقْوَى ، مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا آسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُهُ ، وَمَنِ آسْتَكْثَرَ مِنْهَا آسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ ، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ ، كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا فَجَعَتْهُ ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ قَدْ صَرَعَتْهُ ، وَذِي أُبَّهَةٍ قَدْ جَعَلَتْهُ حَقِيراً ، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْ رَدَّتْهُ ذَلِيلاً ؟ سُلْطَانُهَا دُوَلٌ ، وَعَيْشُهَا رَنِقٌ ، وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ ، وَحُلْوُهَا صَبِرٌ ، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ ، وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ ، حَيُّهَا بِعُرْضِ مَوْتٍ ، وَصَحِيحُهَا بِعُرْضِ سُقْمٍ ، مُلْكُهَا مَسْلُوبٌ ، وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ ، وَمَوْفُورُهَا مَنْكُوبٌ وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ ، أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَاراً ، وَأَبْقَى آثَاراً ، وَأَبْعَدَ آمَالاً ، وَأَعَدَّ عَدِيداً ، وَأَكْثَفَ جُنُوداً : تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَيَّ تَعَبُّدٍ وَآثَرُوهَا أَيَّ إيثَارٍ ؛ ثُمَّ ظَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبَلِّغٍ ، وَلاَ ظَهْرٍ قَاطِعٍ ؟؟!! فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَخَتْ لَهُمْ نَفْساً بِفِدْيَةٍ ، أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ أَوْ أَحْسَنَتْ لَهُمْ صُحْبَةً ؟ بَلْ أَرْهَقَتْهُمْ بِالْفَوَادِحِ ، وَأَوْهَنَتْهُمْ بِالْقَوَارِعِ ، وَضَعْضَعَتْهُمْ بِالنَّوَائِبِ ، وَعَفَّرَتْهُمْ لِلْمَنَاخِرِ ، وَوَطِئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ ، وَأَعَانَتْ عَلَيْهِمْ رَيْبَ الْمَنُونِ ، فَقَدْ رَأَيْتُمْ تَنَكُّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا ، وَآثَرَهَا ، وَأَخْلَدَ لَهَا حَتَّى ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الأَبَدِ ، وَهَلْ زَوَّدَتْهُمْ إلَّا السَّغَبَ ، أَوْ أَحَلَّتْهُمْ إلَّا الضَّنْكَ أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إلَّا الظُّلْمَةَ ، أَوْ أَعْقَبَتْهُمْ إلَّا النَّدَامَةَ ؟ فَهذِهِ تُؤْثِرُونَ ، أَمْ إلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ ، أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ ؟؟ فَبِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْهَا وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا ، فَاعْلَمُوا ـ وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ ـ بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا ، وَظَاعِنُونَ عَنْهَا وَاتَّعِظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ

قَالُوا : (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) حُمِلُوا إلى قُبُورِهِمْ فَلاَ يُدْعَوْنَ رُكْبَاناً ، وَأُنْزِلُوا الأَجْدَاثَ فَلاَ يُدْعَوْنَ ضِيفَاناً ، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانٌ وَمِنَ التُّرَابِ أَكْفَانٌ ، وَمِنَ الرُّفَاةِ جِيرَانٌ . فَهُمْ جِيرَةٌ لاَ يُجِيبُونَ دَاعِياً وَلاَ يَمْنَعُونَ ضَيْماً ، وَلاَ يُبَالُونَ مَنْدَبَةً : إنْ جِيدُوا لَمْ يَفْرَحُوا وَإنْ قُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا : جَمِيعٌ وَهُمْ آحَادٌ وَجِيرَةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ مُتَدَانُونَ لاَ يَتَزَاوَرُونَ وَقَرِيبُونَ لا يَتَقَارَبُونَ ، حُلَمَاءُ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ ، وَجُهَلاَءُ قَدْ مَاتَتْ أَحْقَادُهُم ، لاَ يُخْشَى فَجْعُهُمْ وَلاَ يُرْجَى دَفْعُهُمْ ؛ اسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ الأَرْضِ بَطْناً ، وَبِالسَّعَةِ ضِيقاً وَبِالأَهْلِ غُرْبَةً ، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً ، فَجاؤوهَا كَمَا فَارَقُوهَا حُفَاةً عُرَاةً ، قَدْ ظَعَنُوا عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ إلى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ ، وَالدَّارِ الْبَاقِيَةِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وَعْداً عَلَيْنَا ، إنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾ .

أقول : الحبرة : السرور . والفجعة : الرزية . وغوّالة : أي تأخذ على غرّة. وأوبى : أمرض . والغضارة : طيب العيش . وقوادم الطير : مقاديم ريش جناحه . وأوبقه : أهلكه. وَالأُبَّهة : العظمة ورنق : كدر . ورمام : بالية منقطعة . والمحروب مسلوب المال . وأرهقتهم : غشيتهم . وفدحه الأمر : اغتاله وأثقله . والقارعة : الداهية الشديدة . وضعضعتهم : أذلّتهم . والمناسم : أخفاف الإبل . والسغب : الجوع . والأجنان : جمع جنن جمع جنّة وهي الستر .

واعلم أن مدار هذا الفصل على التحذير من الدنيا والتنفير عنها بذكر معايبها ، وفيه نكت :

فالأولى : استعار لفظ الحلاوة والخضرة المتعلقين بحسي الذوق والبصر لما يروق النفس منها ويلذّ ، ووجه المشابهة المشاركة في الالتذاذ به ، وإنّما خص متعلق هذين الحسّين لأكثرية تأديتهما إلى النفس والالتذاذ بواسطتهما دون سائر الحواس .

الثانية : وصف الدنيا بكونها محفوفة بالشهوات . وفي الخبر : حفّت الجنة بالمكاره ، وحفّت النار بالشهوات . قال أصحاب المعاني : وفي ذلك تنبيه على أن النار هي الدنيا ، ومحبّتها بعد المفارقة هو سبب عذابها .

قلت : إن ذلك غير مفهوم من كلامه عليه السلام .

وأما معنى الخبر فجاز أن يراد فيه النار المعقولة فيكون قريباً مما قالوا ، وجاز أن يراد بالنار المحسوسة ، ويكون المعنى على التقديرين أن النار إنما تدخل بالانهماك في مشتهيات الدنيا ولذاتها والخروج في استعمالها عما ينبغي إلى ما لا ينبغي فكأنها لذلك محفوفة ومحاطة بالشهوات لا يدخل إليها إلّا منها . وأراد بالعاجلة اللذات الحاضرة التي مالت القلوب إلى الحياة الدنيا بسببها فأشبهت المرأة المتحببة بمالها وجمالها . فاستعير لها لفظ التحبب ، وكذلك قوله : راقت بالقليل : أي أعجبت بزينتها القليلة بالنسبة إلى متاع الآخرة كمية وكيفية ، وكذلك تجلّيها بالآمال الكاذبة المنقطعة وبزينتها مما هو في نفس الأمر غرور وباطل فإنه لولا الغرور والغفلة عن عاقبتها لما زانت في عيون طالبيها .

الثالثة : استعار لها أوصاف المحتالة الخدوع ؛ وهي كونها غرارة وغوّالة : أي كثيرة الاستغفال لأهلها والخداع لهم ، ووصف السبع العقور لكونها أكّالة لهم ، وكنى بالأوّلين عن كونها كالمخادع في كونها سبباً لغفلتهم عما خلقوا لأجله بالاشتغال بها والانهماك في لذاتها ، وبالأكالة عن كونها كالسبع في إفنائهم بالموت وطحنهم تحت التراب .

الرابعة : معنى قوله : لا تعدوا . إلى قوله : مقتدراً . أن غاية صفائها للراغبين فيها والراضين بها وموافقتها لهم لا يتجاوز المثل . وهو : أن تزهر في عيونهم وتروقهم محاسنها، ثم عن قليل تزول عنهم فكأنها لم تكن . كما هو معنى المثل المضروب لها في القرآن الكريم : ﴿ **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء** ﴾[1] الآية .

الخامسة : كنّى بالعبرة عن الحزن المعاقب للسرور ، وتخصيصه البطن بالسراء والظهر بالضراء ، ويحتمل أمرين :

أحدهما : أن يريد بطن المجن وظهره ، وذلك من العادة في حال الحرب أن يلقى الإنسان ظهر المجن ، وفي حال السلم أن يلقى المجن

(١) ١٨ - ٤٣ .

فيكون بطنه ظاهراً . فجرى المثل به في حق المتنكرين والمخاصمين بعد سلم . فقيل : قلب له ظهر المجن . كما قال علي عليه السلام لابن عباس في بعض كتبه إليه : قلّبت لابن عمك ظهر المجن . فكذلك استعمل هيهنا لقاءها للمرء ببطنها في إقبالها عليه ولقاءه منها ظهراً في إدبارها ومحاربتها له .

الثاني : يحتمل أن يريد بطنها وظهرها . وذلك أن العادة فيمن يلقى صاحبه بالبشر والسرور أن يلقاها بوجهه وبطنه وفيمن يلقاه بالتنكير والإدبار أن يلقى بظهره مولياً عنه فاستعير ذلك للدنيا وعبّر به عن إقبالها وإدبارها .

السادسة : وإنما خصّ منها بالجناح . لأن الجناح محل التغيّر بسرعة فنبّه به على سرعة تغيّراتها ، وإنّما خصّ الخوف بالقوادم من الجناح لأن القوادم هي رأس الجناح وهي الأصل في سرعة حركته وتغيّره وهو في مساق ذمّها والتخويف منها فحسن ذلك التخصيص ، ومراده أنه وإن حصل فيها أمن فهو في محلّ التغيّر السريع والخوف إليه أسرع لتخصيصه بالقوادم .

السابعة : لا خير في شيء من أزوادها إلّا التقوى. استثنىٰ ما هو المقصود من خلق الدنيا وأشار إلى وجود هذا النوع فيها وهو التقوى الموصل إلى الله سبحانه ، وإنما كان من أزواد الدنيا لأنه لا يمكن تحصيله إلّا فيها ، وقد سبقت الإشارة إليه في قوله : فتزوّدوا من الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غداً . وظاهر أنه لا خير فيما عداه من أزوادها لفنائه ومضرته في الآخرة .

الثامنة : من أقلّ منها استكثر مما يؤمنه : أي من الزهد فيها ، وقد عرفت كيفية الأمان من عذاب الله ، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه وهو ملكات السوء الحاصلة عن حب قيناتها وملذاتها الفانية الموجبة للهلاك بعد مفارقتها وزوالها .

التاسعة : استعار لفظ العذب والحلو للذاتها ، ولفظي الأُجاج ـ وهو المالح ـ والصبر لما يشوب لذاتها من الكدر بالأمراض والتغيّرات ، ووجه الاستعارات الاشتراك في الالتذاذ والإيلام .

العاشرة : استعار لفظ الغذاء ، وكنّى به عن لذاتها أيضاً ، ولفظ السمام له . ووجه الاستعارة ما يستعقب الانهماك في لذاتها من الهلاك في الآخرة كما يستعقبه شرب السم ، والسمام : جمع سمّ. ثم أعقب التحذير

منها بالتنبيه على مصارع السابقين فيها ممن كان أطول أعماراً وأشدّ بأساً من تغيّراتها وتنكراتها لهم مع شدة محبتهم، وتعبّدهم لها . والسؤال على سبيل الإنكار عن دوام سرورها لهم وحسن صحبتها إيّاهم ، وصرح بعده بالإنكار بقوله : بل أرهقتهم بالفوادح ، واستعار لها لفظ الإرهاق والتضعضع والتغير والوطىء وإعانة ريب المنون عليهم ، وأسند إليها أفعال الأحياء ملاحظة تشبهها بالمرأة المتزيّنة لخداع الرجال عن أنفسهم وأموالهم ونحو ذلك .

الحادي عشر : لما فرغ من ذمها والتنفير عنها بتعديد مذامّها استفهم السامعين على سبيل التقريع لهم عن إيثارهم لها بهذا المذام واطمئنانهم إليها وحرصهم عليها . ثم عاد إلى ذمّها مجملاً بقوله : بئست الدار لمن لم يتهمها : أي لمن اعتقد بصحبتها وأنها مقصودة بالذات فركن إليها. فإنها بذلك الاعتبار مذمومة في حقه إذ كانت سبب هلاكه في الآخرة.

فأما المتهم لها بالخديعة والغرور فإنه يكون فيها على وجل منها عاملاً لما بعدها فكانت محمودة له إذ كانت سبب سعادته في الآخرة . ثم شرع في الأمر بالعمل على وفق العلم بمفارقتها ، وذلك أن ترك العمل للآخرة إنما يكون للاشتغال بالدنيا فالعالم بضرورة مفارقتها له وما أعد لتاركي العمل من العذاب الأليم إذا نبه على تلك الحال كان ذلك صارفاً له عنها ومستلزماً للعمل لغيرها ، وأكد التنبيه على مفارقتها بالتذكر بأحوال المفارقين لها بعد مفارقتها المضادة للأحوال المعتادة للأحياء التي ألفوها واستراحوا إليها . إذ كان من عادتهم إذا حملوا أن يسموا ركباناً ، وإذا نزلوا أن يسموا ضيفاناً ، وإذا تجاوروا أن يجيبوا داعيهم ويمنعوا عنه الضيم ، وأن يفرحوا إن جادهم الغيث ، ويقنطوا إن قحطوا منه ، وأن يتزاوروا في التداني ويحلموا عند وجود الأضغان ، ويجهلوا عند قيام الأحقاد ويخشوا ويرجوا . فسلبت عنهم تلك الصفات وعرفوا بأضداد تلك السمات .

الثانية عشر : فجاؤوها كما فارقوها : أي أشبه مجيئهم إليها ووجودهم فيها وخروجهم منها يوم مفارقتهم لها ، ووجه الشبه كونهم حفاة عراة ، وهو كناية عن النفر منها ، ودلّ على ذلك استشهاده بالآية الكريمة . وموضع قوله : قد ظعنوا عنها . النصب على الحال. كما انتصب حفاة عراة، والعامل

فارقوها . ولا يقدر مثله بعد أن جاؤوها وإن قدر مثل الحالين السابقين . قال الإمام الوبري (رحمة الله عليه) : فراقهم من الدنيا إن خلقوا منها ومجيئهم إليها إن دفنوا فيها قال الله تعالى : ﴿ **هو الذي خلقكم من تراب** ﴾ .

ثم قلت : وكان الحامل لهذا الإمام على هذا التأويل أنه لو كان مراده مجيئهم إليها هو دخولهم فيها حين الولادة مع أنه في ظاهر الأمر هو المشبّه ومفارقتهم هي المشبه به لانعكس الفرض . إذ المقصود تشبيه المفارقة بالمجيء وذلك يستلزم كون المشبّه هو المفارقة والمشبّه به هو المجيء لكن ينبغي أن يعلم أن المشابهة إذا حصلت بين الشيئين في نفس الأمر جاز أن يجعل أحدهما أصلاً والآخر فرعاً ، وجاز أن يقصد أصل المساواة بينهما من دون ذلك فحمله هنا على الوجه الثاني أولى من التعسّف الذي ذكره . فأما الآية فإن ـ من ـ فيها لبيان الجنس فلا تدل على المفارقة والانفعال . وبالله التوفيق .

١٠٩ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

ذكر فيها ملك الموت :

هَلْ تُحِسُّ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلاً ؟ أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَداً ؟ بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ؟ أَيَلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا ، أَمِ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا ؟ أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْشَائِهَا ؟ كَيْفَ يَصِفُ إِلَهَهُ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ !!؟.

أقول : هذا الفصل من خطبة طويلة ذكره في معرض التوحيد والتنزيه لله تعالى عن اطلاع العقول البشرية على كنه وصفه فقدم التنبيه بالاستفهام على سبيل الإنكار عن الإحساس به في دخول منازل المتوفين وذلك قوله : هل تحسّ به . إلى قوله : أحداً . ونبّه باستنكار الإحساس به على أنه ليس بجسم . إذ كان كل جسم من شأنه أن يحس بإحدى الحواس الخمس . ثم عن كيفية توفيه للجنين في بطن أمه وهو استفهام من قبيل تجاهل العارف بالنسبة إليه ، وذلك قوله : بل كيف يتوفى الجنين إلى قوله : في أحشائها .

وجعل الحق من هذه الأقسام في الوسط وهو إجابتها بإذن ربها ليبقى الجاهل في محل الحيرة متردداً ، ثم لما بيّن أن ملك الموت لا يتمكن الإنسان من وصفه نبّه على عظمة الله سبحانه بالنسبة إليه ، وأنه إذا عجز الإنسان عن وصف مخلوق مثله فبالأولى أن يعجز عن صفة خالقه ومبدعه الذي هو أبعد الأشياء عنه مناسبة ، وتقدير البيان بذلك التنبيه أن العبد عاجز عن صفة مخلوق مثله، لما بيّناه من العجز عن صفة ملك الموت وحاله ، وكل من عجز من صفة مخلوق مثله فهو من صفة خالق ذلك المخلوق ومبدعه أشدّعجزاً . ولنشر إشارة خفيفة إلى حقيقة الموت وإلى ما عساه يلوح من وصف ملك الموت إن شاء الله تعالى .

فنقول : أما حقيقة الموت : فاعلم أن الذي نطقت به الأخبار وشهد به الاعتبار أن الموت ليس إلاّ عبارة عن تغيّر حال ، وهو مفارقة الروح لهذا البدن الجاري مجرى الآلة لذي الصنعة ، وأن الروح باقية بعده. كما شهدت به البراهين العقلية في مظانها ، والآثار النبوية المتواترة . ومعنى مفارقتها له هو انقطاع تصرّفها فيه لخروجه عن حد الانتفاع به فما كان من الأمور المدركة لها تحتاج في إدراكه إلى آلة فهي متعطلة عنه بعد مفارقة البدن إلى أن تعاد إليه في القبر أو يوم القيامة .

وما كان مدركاً لها لنفسها من غير آلة فهو باق معها يتنعم به ويفرح أو يحزن من غير حاجة إلى هذه الآلة في بقاء تلك العلوم والإدراكات الكلية لها هناك. وقد ضرب للمفارقة التي سمّيناها بالموت مثلاً : فقيل : كما أن بعض أعضاء المريض متعطّل بحسب فساد المزاج يقع فيه أو بحسب شدة تعرّض للأعصاب فتمنع نفوذ الروح فيها فتكون النفس مستعملة لبعض الأعضاء دون ما استقصى عليها منها فكذلك الموت عبارة عن استقصاء جمع الأعضاء كلها وتعطلها ، وحاصل هذه المفارقة يعود إلى سلب الإنسان عن هذه الأعضاء والآلات والقينات الدنيوية من الأهل والمال والولد ونحوها ، ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء عن الإنسان أو يسلب هو عنها . إذ كان المولم هو الفراق ، وقد يحصل ذلك بنهب مال الرجل وسبي ذريّته ، وقد يحصل بسلبه ونهبه عن ماله وأهله . فالموت في الحقيقة هو سلب الإنسان عن أمواله

بإزعاجه إلى عالم آخر . فإن كان له في هذا العالم شيء يأنس به ويستريح إليه فبقدر عظم خطره عنده يعظم تحسّره عليه في الآخرة وتصعب شقاوته في مفارقته ، ويكون سبب عظم خطره عنده ضعف تصوره لما أعدّ للأبرار المتقين في الآخرة، مما يستحقر في القليل منه أكثر نفائس الدنيا .

فأما إن كانت عين بصيرته مفتوحة حتى لم يفرح إلاّ بذكر الله ولم يأنس إلاّ به عظم نعيمه وتمت سعادته . إذ خلى بينه وبين محبوبه فقطع علائقه وعوائقه الشاغلة له عنه، ووصل إليه وانكشف له هناك ما كان يدركه من السعادة بحسب الوصف انكشاف مشاهدة كما يشاهد المستيقظ من نومه صورة ما رآه في النوم . والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا .

إذا عرفت ذلك فاعلم أن ملك الموت عبارة عن الروح المتولى لإفاضة صورة العدم على أعضاء هذا البدن ولحال مفارقة النفس له ، ولعله هو المتولي لإفاضة صورة الوجود عليها لكنه بالاعتبار الأول يسمى ملك الموت . ثم لما كانت النفوس البشرية إنما تدرك المجردات ما دامت في هذا العالم وتستثبتها بأن تستصحب القوة المتخيّلة معها فيتحاكى ما كان محبوباً منها للنفس ومستبشراً بلقائه بصورة بهيّة كتصورها لجبرائيل في صورة دحية الكلبي وغيره من الصور البهيّة الحسنة ، وما كان مستكرهاً مخوفاً منفوراً من لقائه بصورة هائلة لا جرم اختلفت رؤية الناس لملك الموت. فمنهم من يراه على صورة بهية وهم المستبشرون بلقاء الله الذين قلّت رغبتهم في الدنيا ورضوا بالموت ليصلوا إلى لقاء محبوبهم وفرحوا به لكونه وسيلة إليه كما روي عن إبراهيم عليه السلام أنه لقي ملكاً فقال له: من أنت؟ فقال : أنا ملك الموت . فقال له : أتستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن؟ قال : نعم أعرض عني فأعرض عنه فإذاً هو شاب فذكر من حسنه وثيابه (شبابه خ) وطيب ريحه فقال : يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن من البشرى إلاّ حسن صورتك لكان حسبه .

ومنهم من يراه على صورة قبيحة هائلة المنظر وهم الفجّار الذين أعرضوا عن لقاء الله ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها. كما روي عن إبراهيم عليه السلام أيضاً أنه قال لملك الموت : فهل تستطيع أن تريني الصورة

التي تقبض فيها روح الفاجر؟ فقال: لا تطيق ذلك. فقال: بلى قال: فأعرض عني فأعرض عنه. ثم التفت إليه فإذا هو رجل أسود قائم الشعر منتن الريح أسود الثياب يخرج من فيه ومناخره النار والدخان فغشي على إبراهيم عليه السلام. ثم أفاق، وقد عاد ملك الموت إلى حالته الأولى فقال: يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند موته إلاّ هذه الصورة لكفته. وبالله التوفيق.

١١٠ - ومن خطبة له (عليه السلام)

وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ، وَلَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ، قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا، وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا، هَانَتْ عَلَى رَبِّهَا: فَخَلَطَ حَلاَلَهَا بِحَرَامِهَا، وَخَيْرَهَا بِشَرِّهَا، وحَيَاتَهَا بِمَوْتِهَا، وَحُلْوَهَا بِمُرِّهَا: لم يُصْفِهَا الله تَعَالَى لأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَّ بِهَا عَلَى أَعْدَائِهِ، خَيْرُهَا زَهِيدٌ، وَشَرُّهَا عَتِيدٌ، وَجَمْعُهَا يَنْفَدُ، وَمُلْكُهَا يُسْلَبُ وَعَامِرُهَا يَخْرَبُ، فَمَا خَيْرُ دَارٍ تُنْقَضُ نَقْضَ الْبِنَاءِ؛ وَعُمُرٍ يَفْنَى فِيهَا فَنَاءَ الزَّادِ وَمُدَّةٍ تَنْقَطِعُ انْقِطَاعَ السَّيْرِ؟! اجْعَلُوا مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِكُمْ وَاسْأَلُوهُ مِنْ أَدَاءِ حَقِّهِ مَا سَأَلَكُمْ، وَأَسْمِعُوا دَعْوَةَ الْمَوْتِ آذَانَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُدْعَى بِكُمْ. إنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَبْكِي قُلُوبُهُمْ وَإِنْ ضَحِكُوا، وَيَشْتَدُّ حُزْنُهُمْ وَإِنْ فَرِحُوا، وَيَكْثُرُ مَقْتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِنِ اغْتَبِطُوا بِمَا رُزِقُوا، قَدْ غَابَ عَنْ قُلُوبِكُمْ ذِكْرُ الآجَالِ، وَحَضَرَتْكُمْ كَوَاذِبُ الآمَالِ، فَصَارَتِ الدُّنْيَا أَمْلَكَ بِكُمْ مِنَ الآخِرَةِ، وَالْعَاجِلَةُ أَذْهَبَ بِكُمْ مِنَ الآجِلَةِ وَإِنَّمَا أَنْتُمْ إِخْوَانٌ عَلَى دِينِ الله: مَا فَرَّقَ بَيْنَكُمْ إلاَّ خُبْثُ السَّرَائِرِ، وَسُوءُ الضَّمَائِرِ: فَلاَ تَوَازَرُونَ، وَلاَ تَنَاصَحُونَ، وَلاَ تَبَاذَلُونَ، وَلاَ تَوَادُّونَ!! مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تَمْلِكُونَهُ، وَلاَ يَحْزُنُكُمُ الْكَثِيرُ مِنَ الآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ، وَيُقْلِقُكُمُ الْيَسِيرُ مِنَ الدُّنْيَا يَفُوتُكُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِكُمْ وَقِلَّةِ صَبْرِكُمْ عَمَّا زُوِيَ مِنْهَا عَنْكُمْ؟؟!! كَأَنَّهَا دَارُ مُقَامِكُمْ، وَكَأَنَّ مَتَاعَهَا بَاقٍ عَلَيْكُمْ!! وَمَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ أَنْ يَسْتَقْبِلَ أَخَاهُ بِمَا يَخَافُ مِنْ عَيْبِهِ إلاَّ مَخَافَةُ أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ بِمِثْلِهِ، قَدْ تَصَافَيْتُمْ عَلَى رَفْضِ الآجِلِ، وَحُبِّ الْعَاجِلِ، وَصَارَ دِينُ أَحَدِكُمْ لُعْقَةً

عَلَى لِسَانِهِ صَنِيعُ مَنْ قَدْ فَرَغَ عَنْ عَمَلِهِ وَأَحْرَزَ رِضَا سَيِّدِهِ !

أقول : يقال : هذا منزل قلعة بضم القاف : أي لا يصلح للاستيطان . والنجعة بضم النون : طلب الكلاء . والعتيد : المهيأ المعدّ . واللعقة بالضم : اسم لما تأخذه الملعقة . وفي هذا الفصل نكت :

فالأولى : التحذير من الدنيا والاستدراج إلى تركها بذكر معايبها ، وذلك من أول الفصل إلى قوله : انقطاع السير . فأشار أولاً إلى أنها لا تصلح للاستيطان وطلب الكلاء ، وكنّى به عما ينبغي أن يطلب من الخيرات الباقية التي هي محل الأمن والسرور الدائم .

وثانياً : إلى أن زينتها سبب لاستغفالها الخلق والاغترار بها سبب لاستحسانها .

فإن قلت : فقد جعل الزينة سبباً للغرور ، والغرور سبباً للزينة وذلك دور .

قلت : إنّما جعل الزينة سبباً للاستغرار ، والغرور سبباً لاستحسانها وعدم التنبه لمعائبها . فلا دور .

وثالثاً : أنها هانت على ربها : أي لم تكن العناية الإلهية إليها بالذات فلم تكن خيراً محضاً بل كان كل ما فيها ممّا يعدّ خيراً مشوباً بشر يقابله ، وذلك بحسب الممكن فيها وزهادة خيرها بالنسبة إلى خير الآخرة .

الثانية : التأديب بأوامر :

أحدها : أن يجعلوا فرائض الله عليهم من جملة ما يطلبونه منه ، والغرض أن تصير محبوبة لهم كمحبتهم لما يسألونه من مال وغيره فيواظبوا على العمل بها .

الثاني : أن يسألوه أداء حقه عنهم ، وذلك بالإعانة والتوفيق والإعداد لذلك كما سألهم أداء حقه ، والغرض أيضاً أن يصير الأداء مهماً لهم محبوباً إليهم ، ونحوه في الدعاء المأثور : اللهم إنّك سألتني من نفسي ما لا أملكه إلّا بك فأعطني منها ما يرضيك عني .

الثالث : أن يسمعوا داعي الموت آذانهم : أي يقصدون سماع كل لفظ يخوف الموت وأهواله ، وذلك بالجلوس مجالس الذكر ومحاضرة الزاهدين في الدنيا ، وفائدة ذكر الموت تنغيص اللذات الدنيوية كما قال عليه السلام : أكثروا ذكر هادم اللذات .

الثالثة : شرح حال الزاهدين في الدنيا ليهتدي من عساه أن ينجذب إلى الله إلى كيفية طريقتهم فيقتدي بهم . فذكر لهم أوصافاً :

الأول : أنهم تبكي قلوبهم وإن ضحكوا ، وذلك إشارة إلى دوام حزنهم لملاحظتهم الخوف من الله فإن ضحكوا مع ذلك فمعاملة مع الخلق .

الثاني : أنهم يشتد حزنهم وإن فرحوا . وهو قريب مما قبله .

الثالث : أنه قد يكثر لبعضهم متاع الحياة الدنيا ولكنهم يتمردون على أنفسهم فيتركون الالتفات إليها بالزينة وطاعتها فيما تدعوهم إليه من متاع الحياة الدنيا الحاضرة وإن غبطهم غيرهم بما قسم لهم من رزق .

الرابعة : تعنيف السامعين على ما هم عليه من الأحوال المضرة في الآخرة ، وذلك بالغفلة عن ذكر الأجل واستحضارهم للآمال الكاذبة وغيرها من الأحوال المذكورة . إلى آخر الفصل ، ومحل ـ تدركونه وتحرمونه ويفوتكم ـ النصب على الحال ، ـ وقلة صبركم ـ عطف على وجوهكم : أي حتى يتبيّن ذلك القلق في وجوهكم وفي قلة صبركم عما غيّب عنكم منها .

وقوله : وما يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه . إلى آخره .

أي ما يمنع أحدكم من لقاء أخيه لعيبه ولائمته عليه إلّا الخوف منه أن يلقاه بمثله لمشاركته إياه فيه كما صرح به في قوله : تصافيتم على رفض الآجل . إلى آخره ، واستعار لفظ اللعقة لما ينطق به من شعار الإسلام والدين كالشهادتين ونحوهما من دون ثبات ذلك في القلب ورسوخه والعمل على وفقه ، و ـ صنيع ـ نصب على المصدر : أي صنعتم صنيعاً مثل صنيع من أحرز رضا سيده بقضاء ما أمره به ، ووجه التشبيه الاشتراك في الترك والإعراض عن العمل . وبالله التوفيق .

١١١ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

الْحَمْدُ للهِ الْوَاصِلِ الْحَمْدَ بِالنِّعَمِ ، وَالنِّعَمَ بِالشُّكْرِ . نَحْمَدُهُ عَلَى آلائِهِ ، كَمَا نَحْمَدُهُ عَلَى بَلاَئِهِ ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلَى هٰذِهِ النُّفُوسِ الْبِطَاءِ عَمَّا أُمِرَتْ بِهِ ، السِّرَاعِ إِلَى مَا نُهِيَتْ عَنْهُ ، وَنَسْتَغْفِرُهُ مِمَّا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ وَأَحْصَاهُ كِتَابُهُ : عِلْمٌ غَيْرُ قَاصِرٍ وَكِتَابٌ غَيْرُ مُغَادِرٍ . وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانَ مَنْ عَايَنَ الْغُيُوبَ ، وَوَقَفَ عَلَى الْمَوْعُودِ : إِيمَاناً نَفَى إِخْلاَصُهُ الشِّرْكَ ، وَيَقِينُهُ الشَّكَّ . وَنَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ . شَهَادَتَيْنِ تُصْعِدَانِ الْقَوْلَ ، وَتَرْفَعَانِ الْعَمَلَ : لاَ يَخِفُّ مِيزَانٌ تُوضَعَانِ فِيهِ ، وَلاَ يَثْقُلُ مِيزَانٌ تُرْفَعَانِ عَنْهُ .

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ الَّتِي هِيَ الزَّادُ ، وَبِهَا الْمَعَادُ ، زَادٌ مُبَلِّغٌ ، وَمَعَادٌ مُنْجِحٌ ، دَعَا إِلَيْهَا أَسْمَعُ دَاعٍ ، وَوَعَاهَا خَيْرُ وَاعٍ ، فَأَسْمَعَ دَاعِيهَا ، وَفَازَ وَاعِيهَا عِبَادَ اللهِ ، إِنَّ تَقْوَى اللهِ حَمَتْ أَوْلِيَاءَ اللهِ مَحَارِمَهُ ، وَأَلْزَمَتْ قُلُوبَهُمْ مَخَافَته حَتَّى أَسْهَرَتْ لَيَالِيَهُمْ ، وَأَظْمَأَتْ هَوَاجِرَهُمْ ، فَأَخَذُوا الرَّاحَةَ بِالنَّصَبِ وَالرِّيَّ بِالظَّمَإِ ، وَاسْتَقْرَبُوا الأَجَلَ ، فَبَادَرُوا الْعَمَلَ ، وَكَذَّبُوا الأَمَلَ ، فَلاَحَظُوا الأَجَلَ . ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ وَعَنَاءٍ ، وَغِيَرٍ وَعِبَرٍ : فَمِنَ الْفَنَاءِ أَنَّ الدَّهْرَ مُوتِرٌ قَوْسَهُ ، لاَ تُخْطِىءُ سِهَامُهُ ، وَلاَ تُؤْسَى جِرَاحُهُ ، يَرْمِي الْحَيَّ بِالْمَوْتِ وَالصَّحِيحَ بِالسُّقْمِ ، وَالنَّاجِي بِالْعَطَبِ : آكِلٌ لاَ يَشْبَعُ ، وَشَارِبٌ لاَ يَنْقَعُ وَمِنَ الْعَنَاءِ أَنَّ الْمَرْءَ يَجْمَعُ مَا لاَ يَأْكُلُ ، وَيَبْنِي مَا لاَ يَسْكُنُ ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى اللهِ لاَ مَالاً حَمَلَ ، وَلاَ بِنَاءً نَقَلَ ، وَمِنْ غِيَرِهَا أَنَّكَ تَرَى الْمَرْحُومَ مَغْبُوطاً ، وَالْمَغْبُوطَ مَرْحُوماً ، لَيْسَ ذٰلِكَ إِلاَّ نَعِيماً زَلَّ ، وَبُؤْساً نَزَلَ ، وَمِنْ عِبَرِهَا أَنَّ الْمَرْءَ يُشْرِفُ عَلَى أَمَلِهِ ، فَيَقْطَعُهُ حُضُورُ أَجَلِهِ ، فَلاَ أَمَلٌ يُدْرَكُ ، وَلاَ مُؤَمَّلٌ يُتْرَكُ ! فَسُبْحَانَ اللهِ !! مَا أَغَرَّ سُرُورَهَا ، وَأَظْمَأَ رِيَّهَا ، وَأَضْحَى فَيْئَهَا ، لاَ جَاءٍ يُرَدُّ ، وَلاَ مَاضٍ يَرْتَدُّ! فَسُبْحَانَ اللهِ !! مَا أَقْرَبَ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ لِلَحَاقِهِ بِهِ ، وَأَبْعَدَ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ لاِنْقِطَاعِهِ عَنْهُ .

إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِشَرٍّ مِنَ الشَّرِّ إِلَّا عِقَابُهُ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ بِخَيْرٍ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا ثَوَابُهُ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ ، فَلْيَكْفِكُمْ مِنَ الْعِيَانِ السَّمَاعُ ، وَمِنَ الْغَيْبِ الْخَبَرُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا نَقَصَ مِنَ الدُّنْيَا وَزَادَ فِي الآخِرَةِ خَيْرٌ مِمَّا نَقَصَ فِي الآخِرَةِ وَزَادَ فِي الدُّنْيَا ؛ فَكَمْ مِنْ مَنْقُوصٍ رَابِحٌ وَمَزِيدٍ خَاسِرٌ . إِنَّ الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ ، وَمَا أُحِلَّ لَكُمْ أَكْثَرُ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، فَذَرُوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ . وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ ، قَدْ تُكُفِّلَ لَكُمْ بِالرِّزْقِ ، وَأُمِرْتُمْ بِالْعَمَلِ ، فَلَا يَكُونَنَّ الْمَضْمُونُ لَكُمْ طَلَبُهُ أَوْلَى بِكُمْ مِنَ الْمَفْرُوضِ عَلَيْكُمْ عَمَلُهُ ، مَعَ أَنَّهُ ، وَاللهِ ، لَقَدِ اعْتَرَضَ الشَّكُّ وَدَخَلَ الْيَقِينُ ، حَتَّى كَأَنَّ الَّذِي ضُمِنَ لَكُمْ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ ، وَكَأَنَّ الَّذِي قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ قَدْ وُضِعَ عَنْكُمْ ! فَبَادِرُوا الْعَمَلَ ، وَخَافُوا بَغْتَةَ الأَجَلِ : فَإِنَّهُ لَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الْعُمُرِ مَا يُرْجَى مِنْ رَجْعَةِ الرِّزْقِ ، مَا فَاتَ مِنَ الرِّزْقِ رُجِيَ غَداً زِيَادَتُهُ ، وَمَا فَاتَ أَمْسِ مِنَ الْعُمُرِ لَمْ يُرْجَ الْيَوْمَ رَجْعَتُهُ . الرَّجَاءُ مَعَ الْجَائِي ، وَالْيَأْسُ مَعَ الْمَاضِي ﴿ **فَاتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** ﴾ .

أقول : لا توسي : أي لا تداوي . ولا ينقع : لا يسكن عطشه . وأضحى : برز لحر الشمس .

وفي الخطبة لطائف :

الأولى : أنه صدر الخطبة بحمد الله تعالى باعتبارين :

أحدهما : وصله حمد حامديه بإفاضة نعمه عليهم . كما قال تعالى : ﴿ **ولئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾ وسرّه أن العبيد يستعد بشكر النعمة .

الثاني : وصله النعم التي يفيضها على عباده بإفاضة الاعتراف بهاعلى أسرار قلوبهم ، وقد علمت : أن الاعتراف بالنعم هي حقيقة الشكر فظهر إذن معنى وصله النعم بالشكر ، وأن الشكر والتوفيق له نعم أخرى كما سبقت الإشارة إليه في الخطبة الأولى ، ويحتمل أن يريد الشكر منه تعالى لعباده الشاكرين كما قال تعالى : ﴿ **والله شاكر عليم** ﴾ وظاهر أن وصله نعمه بشكره

في نهاية التفضّل والإنعام. فإن الإحسان المتعارف يستتبع الشكر من المحسن إليه فأما من المحسن فذلك تفضل آخر ورتبة أعلى .

الثانية : أنّه نبّه بتسويته بين حمده على النعماء وحمده على البلاء تنبيهاً منه على وجوب ذلك لأن النعمة قد تكون بلاءاً من الله كما قال تعالى : ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** ﴾ والبلاء منه أيضاً نعمة يستحق به الثواب الآجل ، وسبب النعمة نعمة ، وبهذا الاعتبار يجب الشكر على البلاء أيضاً كما يجب على النعماء . إذ الكل نعمة .

الثالثة : نبّه على وجوب استعانته تعالى على النفوس ، وذكر ما لأجله الاستعانة عليها وهو كونها بطاءاً عمّا أُمرت به من سائر التكاليف . وذلك لحاجة النفوس إلى مقاومة الطبيعة سراعاً إلى ما نهيت عنه من المعاصي ، وذلك لموافقتها مقتضى الطبيعة .

الرابعة : نبّه على وجوب طلب المغفرة من الله لكل ذنب صغير أو كبير مما أحاط به علمه وأحصاه كتابه المبين ولوحه المحفوظ ـ جبرائيل الأمين ـ علماً أحاط بكل شيء وكتاباً غير مغادر لشيء .

الخامسة : إنّما خصّ إيمان من عاين الغيوب ووقف على الموعود : أي وقف على ما وعد به المتقون بعين الكشف لكونه أقوى درجات الإيمان . فإن من الإيمان ما يكون بحسب التقليد ، ومنه ما يكون بحسب البرهان وهو علم اليقين ، وأقوى منه الإيمان بحسب الكشف والمشاهدة، وهو عين اليقين ، وذلك هو الإيمان الخالص فيه وبحسب الإخلاص فيه يكون نفي الشرك ، وبحسب يقينه يعني اعتقاد أن الأمر كذا مع اعتقاد أنه لا يمكن أن يكون إلّا كذا يكون نفي الشك ، وقد علمت أنه عليه السلام من أهل هذه المرتبة .

السادسة : كون الشهادتين تصعدان القول وترفعان العمل ، وذلك أن إخلاص الشهادتين أصل لقبول الأقوال والأعمال الصالحة لا يصعد إلى الله قول وعمل لا تكونان أصلاً له ، وأشار إلى ذلك بقوله : لا يخف ميزان توضعان فيه ولا يثقل ميزان ترفعان عنه . وقد أشرنا إلى معنى الوزن فيما سبق وسنزيده بياناً إن شاء الله تعالى .

السابعة : أراد بكون تقوى الله هي الزاد أنها الزاد المبلّغ وأن بها المعاد : أي المعاد المنجح ، ولذلك أوردهما تفسيراً .

الثامنة : أراد بأسمع داعٍ أشد الداعين إسماعاً وتبليغاً، وهو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأراد بخير واعٍ المسارعين إلى داعي الله الذين هم أفضل القوابل الإنسانية .

التاسعة : وصف ما يستلزم تقوى الله من الآثار في أولياء الله ، ووصف الليالي بالسهر ، والهواجر بالظماء لكونهما ظرفين . فالليالي لقيام الصلاة والنهار للصوم فكان مجازاً من باب إطلاق صفة المظروف على الظرف ، وهو كقولهم : نهاره صائم وليله قائم ، وأخذهم الراحة : أي في الآخرة بالنصب : أي بتعب الأبدان من القيام ، والري من عين تسمى سلسبيلا بالاستعداد بظمأ الصيام ، والفاء في فبادروا ولاحظوا للتعليل فإن استقراب الأجل مستلزم للعمل له ولما بعده ، وكذلك تكذيب الأمل وانقطاعه ملازم لملاحظة الأجل .

العاشرة : ذكر مذام الدنيا إجمالاً ، وهو كونها دار فناء وعناء وغير وعبر . ثم أعقب ذلك الإجمال بتفصيل كل جملة وذلك إلى قوله : ولا مؤمل يترك . واستعار لفظ الإيتار لإيتار الدهر ، ورشح بذكر القوس ، ووجه الاستعارة أن الدهر كما يرمي بمصائبه المستندة إلى القضاء الإلهي، الذي لا يتغيّر كما يرمي الرامي الذي لا يخطىء ، وكذلك استعار لفظ الجراح لنوائب الدهر لاشتراكهما في الإيلام ، ورشح بذكر عدم المداواة ، وكذلك استعار له لفظ الآكل والشارب عديمي الشبع والري ، ووجه المشابهة كونه يأتي على الخلق فيفنيهم كما يأتي الآكل والشارب المذكوران على الطعام والشراب فيفنيانهما ، وأراد بالمرحوم الذي يرى مغبوطاً أهل المسكنة والفقر الذي يتبدل فقرهم بالغنى فيغبطون ، وبالمغبوط الذي يرى مرحوماً أهل الغنى المتبدّلين به فقراً بحسب تصاريف الدهر فيصيروا في محل الرحمة ، وقوله : ليس ذلك إلاّ نعيماً زلّ : أي عن المغبوطين وبؤساً نزل بهم .

الحادية عشر : نسب الغرور إلى سرورها والظمأ إلى ريها، والضحى

إلى فيئها ، وأتى بلفظ التعجب ، وكنّى بريها عن استتمام لذاتها ، وبفيئها عن الركون إلى قنياتها والاعتماد عليها ، ووجه هذه النسب أن سرورها وفيئها هي الصوارف عن العمل للآخرة، والملفتات عن الإقبال على الله فكان سرورها أقوى سبب للغرور بها ، وريها وفيئها أقوى الأسباب لظمأ منهمك فيها من شراء الأبرار وأوجب لأبراره إلى حرّ الجحيم فلهذه النسبة جازت إضافة الغرور والظمأ والضحى إلى سرورها، وريها وفيئها وقوله : لا جاء يردّ : أي من آفات الدهر كالموت والقتل ونحوهما ، ولا ماضٍ يرتد : أي من الأموات والفائت من القنيات .

الثانية عشر : قوله : إنه ليس شيء بشر من الشر إلّا عقابه . إلى قوله : سماعه . يحتمل أن يريد الشر والخير المطلقين ، ويكون ذلك للمبالغة . إذ يقال للأمر الشريف والشديد : هذا أشد من الشديد وأجود من الجيّد ، ويحتمل أن يريد شرّ الدنيا وخيرها فإن أعظم شر في الدنيا مستحقر في عقاب الله ، وأعظم خير فيها مستحقر بالنسبة إلى ثواب الله .

ثم أكد ذلك بأعظمية أحوال الآخرة بالنسبة إلى أحوال الدنيا ، ومصداق كلامه عليه السلام أن أعظم شر يتصور الإنسان بالسماع ويستهوله ويستنكره. ممن يفعله صورة القتل والجراح فإذا وقع في مثل تلك الأحوال وشاهدها واضطر إلى المخاصمة والمحاربة سهل عليه ما كان يستصعبه منها، وهان في عينه ذلك الوقع والخوف ، وكذلك لا يزال الإنسان يتخوّف المثول بين يدي الملوك ويتصور عظمتهم وبطشهم إلى أن يصل إلى مجالسهم. فإنه يجد من نفسه زوال ذلك الخوف .

فكانت مشاهدة ما كان يتصوره شراً عظيماً أهون عنده من وصفه والسماع له ، وكذلك حال الخير فإنّ الإنسان لا يزال يحرص على تحصيل الدرهم والدينار وغيرهما من سائر مطالب الدنيا ، ويكون قلبه مشغولاً بتحصيله فرحاً بانتظار وصوله فإذا وصل إليه هان عليه . وهو أمر وجداني ، وأما أحوال الآخرة فالذي يسمعه من شرورها وخيراتها إنما يلاحظها بالنسبة إلى خيرات الدنيا وشرورها ، وربما كانت في اعتبار أكثر الخلق أهون من خيرات الدنيا وشرورها لقرب الخلق من المحسوس وقرب الدنيا منهم وذوقهم لها

دون الآخرة مع قيام البرهان العقلي على ضعف الأحوال الحاضرة من خير وشر بالقياس إلى أحوال الآخرة فلذلك كان عيان أحوالها أعظم من سماعها . وإذا كانت الحال كذلك فينبغي أن يكتفى من العيان بالسماع ، ومن الغيب بالخبر حيث لا يمكن الاطلاع على الغيب ومشاهدة العيان لتلك الأحوال في هذا العالم . ثم نبّه على أفضلية الآخرة بأن ما زاد فيها مما يقرب إلى الله تعالى فإن استلزم نقصان الدنيا من بذل مال أو جاه خير من العكس .

وبيان هذه الخيرية كون خيرات الدنيا في معرض الزوال مشوبة بالأوجاع والأوجال (الأوحال خ) وكون تلك باقية على كل حال مع كونها في نهاية الكمال ، وضرب المثل بأكثرية المنقوص من الدنيا الرابح في الآخرة، وهم أولياء الله وأحباؤه الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، وبأكثرية المزيد الخاسر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم .

ثم أكد الحث على سلوك طريق الآخرة ببيان اتساعها بالنسبة إلى طريق الدنيا . فقال : إن الذي أمرتم به أوسع من الذي نهيتم عنه ، وذلك ظاهر فإن كبائر ما نهينا عنه خمس : القتل . وفي الحلم والعفو والصبر التي هي من أشرف الأخلاق المحمودة سعة عنه . ثم الظلم . وفي العدل والاقتصار على تناول الأمور المباحة التي هي أكثر وأوسع سعة عنه . ثم الكذب الذي هو رأس النفاق وعليه يبتني خراب العالم .

وفي المعاريض والصدق الذي هو بضده في عمارة العالم مندوحة عنه . ثم الزنا . ولا شك أن في سائر وجوه النكاحات مع كثرتها وسلامتها عن المفاسد اللازمة عن الزنا سعة عنه . ثم شرب الخمر التي هي أمّ الخبائث ومنشأ كثير من الفساد . وفي تركها إلى ما يقارب أفعالها التي تدعي كونها محمودة من سائر الأشربة وغيرها معدل عنها وسعة . وكذلك قوله : وما أُحلّ لكم أكثر مما حرم عليكم فإن الواجب والمندوب والمباح والمكروه يصدق على جميعها اسم الحلال ، وهي أكثر من الحرام الذي هو قسم واحد من الأحكام ثم لما نبه على وجه المصلحة في ترك المنهي والمحرم أردف ذلك بالأمر ، بتركهما لأن العقل إذا لاحظ طريقاً مخوفاً واحداً بين طرق كثيرة آمنة اقتضى العدول عن المخوفة لضرورته .

الثالثة عشر : نبه بالنهي عن ترجيح طلب الرزق على الاشتغال بفرائض الله ، وعلى أن الاشتغال بها أولى بكون الرزق مضموناً . فالسعي في تحصيله يجري مجرى تحصيل الحاصل . ثم أردف ذلك بما يجري مجرى التوبيخ للسامعين على ترجيحهم طلب الرزق على الاشتغال بالفرائض فأقسم أن ذلك منهم عن اعتراض الشك لهم فيما تيقّنوه من تكفّل الله سبحانه بأرزاقهم ووعده وضمانه لهم بقوله : ﴿ **وفي السماء رزقكم وما توعدون** ﴾ أي في سماء جوده ، وقد علمت أن الجد في طلب الرزق يستند إلى ضعف التوكل على الله وهو مستند إلى ضعف اليقين فيه وسوء الظن به ، وذلك يستلزم استناد العبد إلى نفسه ، وتوكّله عليها . وجعلهم في طلب الرزق كمن تيقّن المضمون له مفروضاً طلبه عليه ، والمفروض عليه طلبه موضوعاً عنه . مبالغة في قلة احتفالهم بفرائض الله عليهم واشتغالهم عنها بطلب الدنيا .

الرابعة عشر : نبه على وجوب المحافظة على العمر بالعمل فيه للآخرة، وعلى أولوية مراعاته بالنسبة إلى مراعاة طلب الرزق بكون العمر لا يرجى من رجعته ما يرجى من رجعة الرزق. فإن العمر في تقض ونقصان ، وما فات منه غير عائد بخلاف الرزق فإنه يرجى زيادته وجبران ما نقص منه في الماضي ، ولما كان العمر الذي من شأنه أن لا يعود ما فات منه طرفاً للعمل ويفوت بفواته وجب تدارك العمل بتداركه ، وقوله : الرجاء مع الجائي . يريد الرزق ، واليأس مع الماضي . يريد العمر . وهو مؤكد لما قبله .

الخامسة عشر : أنه ختم بالآية اقتباساً من نور القرآن ، ووجه هذا الاقتباس أنه لما كان الكلام في معرض جذب السامعين إلى العمل الذي هو سبب تطويع النفس الأمارة بالسوء للنفس المطمئنّة الذي هو جزء من الرياضة ، وكانت التقوى عبارة عن الزهد في الدنيا الذي حقيقته حذف الموانع الداخلية والخارجية عن القلب الذي هو الجزء الثاني من الرياضة ، وكان الإسلام هو الدين الحق المركب من ذينك الجزئين لا جرم حسن إيراد الآية المشتملة على الأمر بالتقوى والموت على الإسلام بعد الأمر بالعمل ليكون ذلك أمراً بإكمال الدين وإتمامه . وبالله التوفيق .

١١٢ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

في الاستسقاء

اللَّهُمَّ قَدِ انْصَاحَتْ جِبَالُنَا، وَاغْبَرَّتْ أَرْضُنَا، وَهَامَتْ دَوَابُّنَا، وَتَحَيَّرَتْ فِي مَرَابِضِهَا، وَعَجَّتْ عَجِيجَ الثَّكَالَى عَلَى أَوْلَادِهَا، وَمَلَّتِ التَّرَدُّدَ فِي مَرَاتِعِهَا، وَالْحَنِينَ إلى مَوارِدِهَا. اللَّهُمَّ فَارْحَمْ أَنِينَ الآنَّةِ، وَحَنِينَ الْحَانَّةِ. اللَّهُمَّ فَارْحَمْ حَيْرَتَهَا فِي مَذَاهِبِهَا وَأَنِينَهَا فِي مَوَالِجِهَا، اللَّهُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكَ حِينَ اعْتَكَرَتْ عَلَيْنَا حَدابِيرُ السِّنِينَ، وَأَخْلَفَتْنَا مَخَايِلُ الْجودِ؛ فَكُنْتَ الرَّجَاءَ لِلْمُبْتَئِسِ وَالْبَلَاغَ لِلْمُلْتَمِسِ: نَدْعُوكَ حِينَ قَنَطَ الأَنَامُ، وَمُنِعَ الْغَمَامُ، وَهَلَكَ السَّوَامُ أَنْ لا تُؤَاخِذَنَا بِأَعْمَالِنَا، وَلَا تَأْخُذَنَا بِذُنُوبِنَا، وَانْشُرْ عَلَيْنَا رَحْمَتَكَ بِالسَّحَابِ الْمُنْبَعِقِ، وَالرَّبِيعِ الْمُغْدِقِ، وَالنَّبَاتِ الْمُونِقِ، سَحاً وَابِلاً، تُحْيِي بِهِ مَا قَدْ مَاتَ وَتَرُدُّ بِهِ مَا قَدْ فَاتَ. اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ، مُحْيِيَةً، مُرْوِيَةً، تَامَّةً، عَامَّةً، طَيِّبَةً، مُبَارَكَةً، هَنِيئَةً، مَرِيعَةً، زَاكِياً نَبْتُهَا، ثَامِراً فَرْعُهَا، نَاضِراً وَرَقُهَا، تُنْعِشُ بِهَا الضَّعِيفَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُحْيِي بِهَا الْمَيْتَ مِنْ بِلَادِكَ. اللَّهُمَّ سُقْيَا مِنْكَ تُعْشِبُ بِهَا نِجَادُنَا، وَتَجْرِي بِهَا وِهَادُنَا، وَتُخْصِبُ بِهَا جَنَابُنَا، وَتُقْبِلُ بِهَا ثِمَارُنَا، وَتَعِيشُ بِهَا مَوَاشِينَا، وَتَنْدَى بِهَا أَقَاصِينَا، وَتَسْتَعِينُ بِهَا ضَوَاحِينَا، مِنْ بَرَكَاتِكَ الْوَاسِعَةِ، وَعَطَايَاكَ الْجَزِيلَةِ عَلَى بَرِيَّتِكَ الْمُرْمِلَةِ وَوَحْشِكَ الْمُهْمَلَةِ، وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا سَمَاءً مُخْضِلَةً، مِدْرَاراً هَاطِلَةً، يُدَافِعُ الْوَدْقُ مِنْهَا الْوَدْقَ، وَيَحْفِزُ الْقَطْرُ مِنْهَا الْقَطْرَ، غَيْرَ خُلَّبٍ بَرْقُهَا، وَلَا جَهَامٍ عَارِضُهَا وَلَا قَزَعٍ رَبَابُهَا، وَلَا شَفَّانٍ ذِهَابُهَا، حَتَّى يُخْصِبَ لإِمْرَاعِهَا الْمُجْدِبُونَ، وَيَحْيَا بِبَرَكَتِهَا الْمُسْنِتُونَ، فَإِنَّكَ تُنْزِلُ الْغَيْثَ بَعْدَ مَا قَنَطُوا، وَتَنْشُرُ رَحْمَتَكَ وَأَنْتَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ.

قال الشريف: قوله عليه السلام «انصاحت جبالنا» أي: تشققت من المحول.

يقال: انصاح الثوب، إذا انشق. ويقال أيضاً: انصاح النبت وصاح

وصوّح إذا جَفّ وَيبس . وقوله : « وهامت دوابنا » أي : عطشت ، والهيام : العطش وقوله « حدابير السنين » جمع حدبار : وهي الناقة التي أنضاها السير فشبه بها السنة التي فشا فيها الجدب ، قال ذو الرمة :

حَدَابِيرُ مَا تَنْفَكُّ إلاَّ مُنَاخَةً ... عَلَى الْخَسْفِ أوْ نَرْمِي بِهَا بَلداً قَفْراً

وقوله : « ولا قزع ربابها » : القزع : القطع الصغار المتفرقة من السحاب ، وقوله : ولا شفان ذهابها » فإن تقديره : ولا ذات شفان ذهابها ، والشفان : الريح الباردة ، والذهاب : الأمطار اللينة ، فحذف « ذات» لعلم السامع به .

وأقول : اعتكرت : اختلطت وازدحمت . والمخائل : جمع مخيلة للسحابة التي ترجى المطر . والمبتئس : الحزين . والمنبعق والمنبعج : السحاب المنصب بشدة . والربيع هنا : المطر . والسقيا بالضم : الاسم من السقي . والمريع : المخصب . والنجاد : جمع نجد وهو المرتفع من الأرض . والضواحي : النواحي البارزة : أي أهل نواحينا . والمرملة : قليلة المطر . والمخضلة : الرطبة . والودق : القطر . والجهام : المظلم الذي لا ماء فيه . والخلّب : التي يكذب الظن فيها . والمسنتون : الذين أصابتهم شدّة السنة .

واعلم أنه نبّه بقوله : ندعوك أن لا تؤاخذنا بأعمالنا ولا تأخذنا بذنوبنا . على أن للذنوب والأعمال الخارجة عن أوامر الله تأثير في رفع الرحمة . وسرّ ذلك أن الجود الإلهي لا بخل فيه ولا منع من قبله. وإنما يكون ذلك بحسب عدم الاستعداد وقلته وكثرته ، وظاهر أن المقبلين على الدنيا المرتكبين لمحارم الله معرضون عنه غير متلقين لآثار رحمته بل مستعدون لضد ذلك أعني سخطه وعذابه بحسب استعدادهم بالانهماك في محارمه والجور عن سبيله ، وحرى بمن كان كذلك أن لا تناله بركة ، ولا يفاض عليه أثر رحمة ، ونصب سحا ووابلاً على الحال والعامل أنشر ، وأراد بالسماء المخضلة هنا السحاب ، والعرب تقول : كل ما علاك فهو سماؤك ، ومعنى إنزاله إرسال مائه وإدراره ، ويحتمل أن يريد بالسماء المطر نفسه ،

ونحـوه أنزل علينـا الغيث ، وقد اقتبس من القـرآن الكريم ختـام هذا الفصـل أيضاً ، ووجه مناسبته للآية ظاهر . وبالله التوفيق .

١١٣ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أَرْسَلَهُ دَاعِيـاً إلى الْحَقِّ ، وَشَاهِـداً عَلَى الْخَلْقِ ، فَبَلَّغَ رِسَـالَاتِ رَبِّـهِ ، غَيْـرَ وَانٍ وَلَا مُقَصِّرٍ ، وَجَـاهَدَ فِي اللهِ أَعْـدَاءَهُ غَيْرَ وَاهِنٍ وَلَا مُعَـذِّرٍ ، إِمَـامُ مَنِ آتَّقَى وَبَصَرُ مَنِ آهْتَدَى .

أقول : الواهن : الضعيف . والمعذر بالتشديد : المقصّر .

واعلم أن الأوصاف التي ذكرها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرة، وقد سبقت الإشارة إليها غير مرّة فأما كونه إمام من اتقى فلاستناد أهل التقوى إليه في كيفية سلوك سبيل الله التي هي التقوى ، وقد استعار لفظ البصر له . ووجه المشابهة كونـه سبباً لاهتداء الخلق إلى سبيل الرشاد كما يهتدي صاحب البصيـرة في طريقـه المحسوس . وبالله التوفيق .

منهـا : لَـوْ تَعْلَمُـونَ مَـا أَعْلَمُ مِمَّـا طُـوِيَ عَنْكُمْ غَيْبُـهُ إذاً لَخَـرَجْتُمْ إلى الصُّعُـدَاتِ ، تَبْكُـونَ عَلَى أَعْمَـالِكُمْ ، وَتَلْتَـدِمُـونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَـرَكْتُمْ أَمْـوَالَكُمْ لَا حَارِسَ لَهَـا ، وَلَا خَالِفَ عَلَيْهَـا ، وَلَهِمَّتْ كُلَّ آمْـرِىءٍ نَفْسُـهُ ، لَا يَلْتَفِتُ إلى غَيْرِهَا ، وَلٰكِنَّكُمْ نَسِيتُمْ مَـا ذُكِّرْتُمْ ، وَأَمِنْتُمْ مَـا حُذِّرْتُمْ ، فَتَـاهَ عَنْكُمْ رَأْيُكُمْ ، وَتَشَتَّتَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ، وَلَـوَدِدْتُ أَنَّ اللهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأَلْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ : قَوْمٌ ، وَاللهِ ، مَيَامِينُ الرَّأْيِ ، مَرَاجِيحُ الْحِلْمِ مَقَاوِيلُ بِـالْحَقِّ ، مَتَـارِيكُ لِلْبَغْيِ ، مَضَـوْا قُـدُماً عَلَى الطَّـرِيقَـةِ ، وَأَوْجَفُـوا عَلَى الْمَحَجَّـةِ ، فَظَفِـرُوا بِالْعُقْبَى الـدَّائِمَة ، وَالْكَـرَامَـةِ الْبَـارِدَةِ ، أَمَـا وَاللهِ لَيُسَلَّطَنَّ عَلَيْكُمْ غُلَامُ ثَقِيفٍ الذَّيَّالُ الْمَيَّالُ : يَأْكُلُ خَضِرَتَكُمْ ، وَيُذِيبُ شَحْمَتَكُمْ إِيـهٍ أَبَا وَذَحَةَ ! .

قال الشريف : أقول : الوذحة : الخنفساء ، وهذا القول يـومىء به إلى الحجاج ، وله مع الوذحة حديث ليس هذا موضوع ذكره .

أقول : الصعدات : جمع الصعد ، وهو جمع صعيد وهو وجه الأرض . واللدم والإلتدام : ضرب الوجه ونحوه . ورأي ميمون : مبارك . وقدماً بضم القاف والدال : أي تقدموا ولم ينثنوا . والوجيف : ضرب من السير فيه قوة . والوذحة : كما قيل ـ كنية للخنفساء . ولم ينقل ذلك في المشهور من كتب اللغة . وإنما المشهور أنها القطعة من بعر الشاة تنعقد على أصواف أذنابها وتتعلق بها .

وهذا الفصل من خطبة له بالكوفة يستنهض فيها أصحابه إلى حرب الشام ، ويتبرم من تقاعدهم عن صوته . فنبههم أولاً على جهلهم بما سيقع من الفتن في الإسلام مما غاب عنهم علمه ـ وعلمه هو من الله ورسوله ـ بحيث لو تصوّروا ما علمه منها لاحتال كل منهم في الخلاص لنفسه ، ولهاموا على وجه الأرض باكين من تقصيرهم في أعمالهم على وفق أوامره التي بها يكون نظام العالم إلى الأبد ، والأمن من تلك الفتن لو فعلوها . ولكنهم نسوا ما ذكروا به من آيات الله وأمنوا التحذير فضلّت عنهم آراؤهم الصالحة التي يكون بها نظام أمورهم فاستعقب ذلك تشتت أمورهم وغلبة العدو على بلادهم .

وقيل : أراد بما طوي عنهم غيبه وعلمه هو ما يلقى المقصرون من أهوال الآخرة . والأول : أنسب لسياق الكلام . ثم عقب ذلك بالتبرم منهم وطلب فراقهم واللحاق بإخوانه من أولياء الله مباركي الآراء ، ثقال الحلوم لا يستخفنهم جهل الجهّال ، ملازمي الصدق ونصيحة الدين من شأنهم ترك البغي على أنفسهم وغيرهم ، مضوا على الطريقة الحميدة ، سالكين لمحجة الله غير ملتفتين عنها فوصلوا إلى الثواب الدائم والنعيم المقيم . وقرينة الظفر تخصص العقبى بالثواب . والعرب تصف النعمة والكرامة بالبرد . ثم بيّن لهم بعض ما سيلحقهم من الفتن العظيمة مما طوي عنهم غيبه وهي فتنة الحجاج بن يوسف بن الحكم ابن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب ابن ملك بن كعب بن الأخلاف ـ قوم من ثقيف ـ . وكان ضعيف العين ، دقيق الصوت ، ذيالاً : أي طويل الذيل يصحبه تبختراً ، ميالاً ؛ أي يكثر التمايل كبراً ، وأخبر أنه يأكل خضرتهم ، وكنّى بها عما

هم عليه من الأُبهة وسلامة النفوس ، والأموال وحسن الأحوال وبأكله لها عن إزالة تلك وتغييرها إلى أضدادها ، ولفظ الأكل مستعار لذلك ، ووجه الاستعارة ظاهر ، وكذلك استعار الشحمة لثرائهم وقوتهم ووصف الإذابة لإفناء ذلك بالقتل والإهانة ، ومصداق ذلك المشهور من فعله بأهل العراق كما سبق بيانه في ذكر الكوفة . ثم قال : إيه أبا وذحة . وكلمة إيه اسم من أسماء فعل الأمر. يستدعي بها الحديث المعهود من الغير ـ إن سكنت ـ وإن نوّنت كانت لاستدعاء قول أو فعل ما .

وقيل : التسكين للوقف والتنوين للدرج . فأما تلقيبه عليه السلام له بأبي وذحة فروي في سبب ذلك أنه كان يوماً يصلي على سجادة له فدبت إليه خنفساء . فقال : نحوها عني فإنها وذحة من وذح الشيطان . وروي أنه قال : قاتل الله قوماً يزعمون أن هذه من خلق الله . فقيل له : مما هي؟ فقال : من وذح إبليس ، وكأنه شبهها بالوذحة المتعلقة بذنب الشاة في حجمها أو شكلها فاستعار لها لفظها ونسبته لها إلى إبليس لاستقذاره إيّاه واستكراهه لصورتها أو لأنها تشوشه في الصلاة ، وروى أبو علي بن مسكويه : أنه نحّاها بقصبته وقال : لعنك الله وذحة من وذح الشيطان ، ونقل بعض الشارحين ودجة بالدال والجيم ، وكنّى بذلك عن كونه سفاكاً للدماء قطاعاً للأوداج ، وفيه بعد .

١١٤ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

فَلاَ أَمْوَالَ بَذَلْتُمُوهَا لِلَّذِي رَزَقَهَا ، وَلاَ أَنْفُسَ خَاطَرْتُمْ بِهَا لِلَّذِي خَلَقَهَا ، تَكْرُمُونَ بِاللهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَلاَ تُكْرِمُونَ اللهَ فِي عِبَادِهِ ، فَاعْتَبِرُوا بِنُزُولِكُمْ مَنَازِلَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَانْقِطَاعِكُمْ عَنْ أَوْصَلِ إِخْوَانِكُمْ .

أقول : مدار هذا الفصل على التوبيخ بالبخل بالأموال والأنفس ، وفي قوله : للذي رزقها وخلقها . استدارج حسن. فإن البخيل إنما يستقبح بذله لملاحظة أمرين :

أحدهما : خوف الفقر .

والثاني : أنه كثيراً ما يتوهم الأشحاء أن لا مستحق للمال إلاّ هم فيكون ذلك وأمثاله عذراً لهم مع أنفسهم في عدم البذل ، وكذلك الشحيح

بنفسه إنما يشحّ بها خوف الموت وأن لا يكون له من هذه الحياة عوض يساويها فإذا علم أن بذل المال لرازقه إيّاه بعد أن يكون حسن الظن به زال عذره في البخل لعلمه بتعويضه خيراً منه وبأنه أحقّ منه . إذ كان المملوك وما يملك لمولاه ، وكذلك يزول عذرالشحيح بنفسه لعلمه أن الطالب لبذلها هو الأحق بها وأنه القادر على أن يوصله إلى ما هو خير له من هذه الحياة الفانية ، وفي انقطاع ما يتوهمونه عذراً في البخل بالمال والنفس يكون سهولة بذلهما في سبيل الله .

وقوله : تكرمون بالله على عباده .

أي تفخرون وتشرفون على الخلق بأنكم أهل طاعة الله وعباده . ثم لا تكرمونه فيما يدعوكم إليه ولا تجيبون داعيه في إكرام عباده والالتفات إلى فقرائهم باليسير مما رزقكم . ثم أمرهم باعتبار نزولهم منازل الدارجين ، وانقطاعهم عن أوصل إخوانهم تنبيهاً لهم على أنهم أمثالهم في اللحاق بمن سلف والانقطاع عمّن يبقى ، وروي عن أصل إخوانكم : أي أقربهم أصلاً إليكم ، وفائدة هذا الاعتبار تذكر الموت والعمل لما بعده .

١١٥ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

أَنْتُمُ الأَنْصَارُ عَلَى الْحَقِّ ، وَالإِخْوَانُ فِي الدِّينِ ، وَالْجُنَنُ يَوْمَ الْبَأْسِ وَالْبِطَانَةُ دُونَ النَّاسِ ، بِكُمْ أَضْرِبُ الْمُدْبِرَ ، وَأَرْجُو طَاعَةَ الْمُقْبِلِ ، فَأَعِينُونِي بِمُنَاصَحَةٍ خَلِيَّةٍ مِنَ الْغِشِّ ؛ سَلِيمَةٍ مِنَ الرَّيْبِ ؛ فَوَاللهِ إِنِّي لأَوْلَى النَّاسِ بِالنَّاسِ .

أقول : الجنن : جمع جنة وهي ما استترت به من سلاح . وبطانة الرجل : خاصّته .

وقد اشتمل هذا الفصل على استمالة طباع أصحابه إلى مناصحته في الحرب . فمدحهم بكونهم من أهل الدين . ثم بالشجاعة . ثم بإعلامهم أنهم من أهل خاصته الذين يعتمد عليهم في ضرب المدبر وطاعة المقبل ، وطلب منهم الإعانة بمناصحة صادقة سليمة من الشك في صحة إمامته وأنه

أولى بالأمر من غيره فلذلك أقسم أنه كذلك . وقد سبق بيانه .

١١٦ - ومن كلام له (عليه السلام)

وقد جمع الناس وحضهم على الجهاد فسكتوا ملياً .

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : أَمُخْرَسُونَ أَنْتُمْ ؟ فقال قوم منهم : يا أمير المؤمنين ، إن سرت سرنا معك ؛ فقال عليه السلام :

مَا بَالُكُمْ لاسُدِّدْتُمْ لِرُشْدٍ ، وَلاَ هُدِيتُمْ لِقَصْدٍ ؟ أَفِي مِثْلِ هٰذَا يَنْبَغِي أَنْ أَخْرُجَ ؟! إنَّمَا يَخْرُجُ فِي مِثْلِ هذا رَجُلٌ مِمَّنْ أَرْضَاهُ مِنْ شُجْعَانِكُمْ وَذَوِي بَأْسِكُمْ ، وَلاَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَدَعَ الْمِصْرَ ، وَالْجُنْدَ ، وَبَيْتَ الْمَالِ ، وَجِبَايَةَ الأَرْضِ وَالْقَضَاءَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ . وَالنَّظَرَ فِي حُقُوقِ الْمُطَالِبِينَ ، ثُمَّ أَخْرُجَ فِي كَتِيبَةٍ أَتْبَعُ أُخْرَى أَتَقَلْقَلُ تَقَلْقُلَ الْقِدْحِ فِي الْجَفِيرِ الْفَارِغِ . وَإِنَّمَا أَنَا قُطْبُ الرَّحَى : تَدُورُ عَلَيَّ وَأَنَا بِمَكَانِي ، فَإِذَا فَارَقْتُهَا آسْتَحَارَ مَدَارُهَا ، وَآضْطَرَبَ ثُفَالُهَا هٰذَا - لَعَمْرُ اللهِ - الرَّأْيُ السُّوءُ !! وَاللهِ لَوْلاَ رَجَائِي الشَّهَادَةَ عِنْدَ لِقَائِي الْعَدُوَّ لَوْ قَدْ حُمَّ لِي لِقَاؤُهُ ؛ لَقَرَّبْتُ رِكَابِي ، ثُمَّ شَخَصْتُ عَنْكُمْ ، فَلاَ أَطْلُبُكُمْ مَا آخْتَلَفَ جَنُوبٌ وَشَمَالٌ . إنَّهُ لاَ غَنَاءَ فِي كَثْرَةِ عَدَدِكُمْ ، مَعَ قِلَّةِ آجْتِمَاعِ قُلُوبِكُمْ . لَقَدْ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الَّتِي لاَ يَهْلِكُ عَلَيْهَا إلاَّ هَالِكٌ مَنِ آسْتَقَامَ فَإِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَنْ زَلَّ فَإِلَى النَّارِ .

أقول : الكتيبة : الجيش . والقدح : السهم قبل أن يراش . والجفير : كالكنانة أو أوسع منها. وثفال الرحى : الجلد الذي يوضع عليه ليسقط عليه الدقيق . وحمّ الأمر : قدر .

ومدار هذا الفصل على الدعاء عليهم مصدّراً بالاستفهام عن حالهم القبيحة التي هم عليها من مخالفته على سبيل الإنكار عليهم . ثم عمّا أشاروا به من خروجه بنفسه إلى الحرب منكراً لذلك أيضاً . ثم على الإشارة إلى من ينبغي أن يخرج عوضاً له . ثم بيّن وجه المفسدة في خروجه بنفسه وهو تركه للمصالح التي عددها مما يقوم به أمر الدولة ونظام العالم . وقبح ذلك ظاهر .

وشبّه خروجه معهم بالقدح في الجفير . ووجه الشبه أنه كان قد نفذ الجيش قبل ذلك وأراد أن يجهز من بقي من الناس في كتيبة أخرى فشبّه نفسه في خروجه في تلك الكتيبة وحده مع تقدم أكابر جماعته وشجعانها بالقدح في الجفير الفارغ في كونه يتقلقل .

وفي العرف أن يقال للشريف إذا مشى في حاجة ينوب فيها من هو دونه ، وترك المهام التي لا تقوم إلاّ به : ترك المهم الفلاني ومشى يتقلقل على كذا . ثم استعار لنفسه لفظ القطب ملاحظة لدوران الإسلام ومصالحه عليه كما تدور الرحى على قطبها وذلك هو وجه الاستعارة ، واستلزم ذلك تشبيهه الإسلام وأهله بالرحى ، وأنه إذا أهملها بخروجه إلى الحرب اضطربت كاضطراب الرحى وخروج مدارها واستحارته عن الحركة المستديرة إلى المستقيمة ، ولما بيّن وجه المفسدة في رأيهم حكم بردائته ، وأكد ذلك بالقسم البار . ثم أقسم أنه لولا رجائه لقاء الله بالشهادة في لقاء العدو. لو قدر له ذلك لفارقهم غير متأسف عليهم ولا طالب للعود إليهم أبداً تبرّماً من سوء صنيعهم وكثرة مخالفتهم لأوامره . وبالله التوفيق .

١١٧ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالاَتِ ، وَإتْمَامَ الْعِدَاتِ ، وَتَمَامَ الْكَلِمَاتِ ، وَعِنْدَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ أَبْوَابُ الْحِكَمِ ، وَضِيَاءُ الأَمْرِ ، أَلاَ وَإِنَّ شَرَائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةٌ ، وَسُبُلَهُ قَاصِدَةٌ ، مَنْ أَخَذَ بِهَا لَحِقَ وَغَنِمَ ، وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ .

اعْمَلُوا لِيَوم تُذْخَرُ لَهُ الذَّخَائِرُ ، وَتُبْلَى فِيه السَّرَائِرُ ، وَمَنْ لاَ يَنْفَعُهُ حَاضِرُ لُبِّهِ فَعَازِبُهُ عَنْهُ أَعْجَزُ ، وَغَائِبُهُ أَعْوَزُ ، وَاتَّقُوا نَاراً حَرُّهَا شَدِيدٌ ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ ، وَحِلْيَتُهَا حَدِيدٌ ، وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ .

أَلاَ وَإِنَّ اللِّسَانَ الصَّالِحَ ، يَجْعَلُهُ اللهُ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ ، خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُورِثُهُ مَنْ لاَ يَحْمَدُهُ .

أقول : صدّر الفصل بذكر فضيلته وهي علمه بكيفية تبليغ الرسالات

وأدائها ، وعلمه بإتمام الله تعالى ما وعد به المتقين في دار القرار . فتمام وعده أن لا خلف فيه ، وتمام إخباره أن لا كذب فيها ، وتمام أوامره ونواهيه اشتمالها على المصالح الخاصة والغالبة . وهكذا ينبغي أن يكون أوصياء الأنبياء وخلفاؤهم في أرض الله وعباده . ثم أردف ذلك بالإشارة إلى فضل أهل البيت عاماً ، وأراد بضياء الأمر أنوار العلوم التي يبتنى عليها الأمور والأعمال الدينية والدنيوية ، وما ينبغي أن يهتدي الناس به في حركاتهم من قوانين الشريعة وما يستقيم به نظام الأمر من قوانين السياسات وتدبير المدن والمنازل ونحوها .

إذ كان كل أمر شرع فيه على غير ضياء من الله ورسوله أو أحد أهل بيته وخلفائه الراشدين فهو محل التيه والزيغ عن سبيل الله ، واستعار لفظ الشرائع وهي موارد الشاربة لأهل البيت . ووجه الاستعارة كونهم موارد لطلاب العلم كما أن الشرائع موارد طلبة الماء ، وكونها واحدة إشارة إلى أن أقوالهم لا تختلف في الدين بل لما علموا أسراره لم تختلف كلمتهم فيه فكلّهم كالشريعة الواحدة ، وكذلك استعار لهم لفظ السبل ، ووجه المشابهة كونهم موصلين إلى المطالب على بصيرة وقصد كما يوصل الطريق الواضح .

وقوله : من أخذ بها لحق .

أي من أخذ عنهم واقتدى بهم لحق بالسابقين من سالكي سبيل الله وندم على تفريطه بتخلّفه . وقيل : أراد بشرائع الدين وسيلة قوانينه الكلية فإن أي قانون عمل به منها فإنّه مستلزم لثواب الله فهي واحدة في ذلك وموصل إلى الجنة من غير جور ولا عدول ، وذلك معنى كونها قاصدة ، والأول أظهر لكونه في معرض ذكر فضيلتهم . ولما كان غرض الخطيب من إظهار فضيلته قبول قوله شرع في الأمر بالعمل ليوم القيامة . والذخائر : الأعمال الصالحة . ومعنى قوله : ومن لا ينفعه حاضر لبّه . إلى قوله : أعوز : أن اعتبروا حال حضور عقولكم فإنها إن لم تنفعكم الآن كانت أعوز وأعجز عن نفعكم إذا عزبت عند حضور الموت ومقاساة أهواله وما بعده من أحوال الآخرة . ثم أكد التخويف بمناقشة الحساب بالتخويف بالنار ، وأراد بحليتها من الحديد ما

أعدّ فيها للعصاة من الأغلال والأصفاد والمقامع والسلاسل التي تشبه الحلية .

وقوله : ألا وإن اللسان. إلى آخره .

تنبيه لهم على طلب الذكر الجميل من الناس في العقبى وتهوين للمال ، وقد سبقت الإشارة إلى هذا في قوله : أما بعد فإنّ الأمر ينزل من السماء إلى الأرض .

١١٨ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

وقد قام إليه رجل من أصحابه : فقال : نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها ، فلم ندر أي الأمرين أرشد ؟ فصفق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى ثم قال :

هٰذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْعُقْدَةَ ! أَمَا وَالله لَوْ أَنِّي حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ الله فِيهِ خَيْراً : فَإِنِ اسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ ، وَإِنِ اعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ تداركْتُكُمْ ، لَكَانَتِ الْوُثْقَى ، وَلٰكِنْ بِمَنْ ؟ وإِلَى مَنْ ؟ أُرِيدُ أن أُداوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي ، كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا مَعَهَا .

اللّٰهُمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطِبَّاءُ هٰذَا الدَّاءِ الدَّوِيِّ ، وَكَلَّتِ النَّزَعَةُ بِأَشْطَانِ الرَّكِيِّ أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إلى الإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ ؟ وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ ، وَهُيِّجُوا إِلَى الْقِتَالِ فَوَلِهُوا وَلَهَ اللِّقَاحِ إلى أَوْلَادِهَا ، وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَغْمَادَهَا وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الأَرْضِ زَحْفاً زَحْفاً وَصَفّاً صَفّاً ؟ بَعْضٌ هَلَكَ وَبَعْضٌ نَجَا ! لَا يُبَشَّرُونَ بِالأَحْيَاءِ ، وَلَا يُعَزَّوْنَ بِالْمَوْتَىٰ ، مُرْهُ الْعُيُونِ مِنَ الْبُكَاءِ ، خُمْصُ الْبُطُونِ ، مِنَ الصِّيَامِ ، ذُبَّلُ الشِّفَاهِ مِنَ الدُّعَاءِ ، صُفْرُ الأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ ، عَلَى وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ الْخَاشِعِينَ ، أُولٰئِكَ إِخْوَانِي الذَّاهِبُونَ ، فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَظْمَأَ إِلَيْهِمْ ، وَنَعَضَّ الأَيْدِي عَلَى فِرَاقِهِمْ . إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ ، وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً ، وَيُعْطِيَكُمْ بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةَ ، فَاصْدِفُوا عَنْ نَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ ، وَاقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْكُمْ ، وَاعْقِلُوهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ .

أقول : الضلع بفتح الضاد وسكون اللام : الميل والهوى . والداء الدوي : الشديد ـ وصف بما هو من لفظه ـ والدوي : اسم فاعل من دوى إذا مرض . والنزعة : المستقون . والركي : جمع ركيّة وهي البئر . ومره : جمع مارهة وهي العين التي فسدت : أي عيونهم مارهة . وسنّى له كذا : حسّنه وسهّله . وعقلت عليه كذا: أي حبسته عليه .

وكان هذا الكلام منه عليه‌السلام بصفين حين أمرهم بالحكومة بعد أن نهاهم عنها ، والسبب أن معاوية لما أحس بالعجز وظفر علي عليه‌السلام به ليلة الهرير راجع عمرو بن العاص . فقال : إني خبأت لك رأياً لمثل هذا الوقت وهو أن تأمر أصحابك برفع المصاحف على الأرماح ويدعوا أصحاب علي إلى المحاكمة . إلى كتاب الله فإنهم إن فعلوا افترقوا وإن لم يفعلوا افترقوا ، وكان الأشتر صبيحة تلك الليلة قد أشرف على الظفر فلما أصبحوا رفعوا المصاحف الكبيرة بالجامع الأعظم على عشرة أرماح وهم يستغيثون : معاشر المسلمين الله في إخوانكم في الدين حاكمونا إلى كتاب الله ، الله الله في النساء والبنات . فقال أصحاب علي عليه‌السلام : إخواننا وأهل دعوتنا استقالونا واستراحونا إلى كتاب الله ، فالرأي النفيس كشف الكربة عنهم فغضب عليه‌السلام من هذا الرأي .

فقال : إنها كلمة حق يراد بها باطل . كما سبق القول فيه . فافترق أصحابه فريقين : منهم من رأى رأيه عليه‌السلام في الإصرار على الحرب ، ومنهم من رأى ترك الحرب والرجوع إلى الحكومة وكانوا كثيرين فاجتمعوا إليه عليه‌السلام . فقالوا : إن لم تفعل قتلناك كما قتلنا عثمان فرجع إلى قولهم وأمر بردّ الأشتر عن الحرب . ثم كتبوا كتاب الصلح وطافوا به في أصحابه عليه‌السلام واتفقوا على الحكومة فخرج بعض أصحابه من هذا الأمر وقالوا : كنت نهيتنا عن الحكومة ، ثم أمرتنا بها فما ندري أي الأمرين أرشد .

وهذا يدل على أنك شاكّ في إمامة نفسك . فصفق بإحدى يديه على الأخرى فعل النادم غضباً من قولهم ، وقال : هذا جزاء من ترك العقدة : أي عقدة الأمر الذي عقده وأحكمه وهو الرأي في الحرب والإصرار عليها ، والذي كان أمرهم به هو البقاء على الحرب ، وهو المكروه الذي يجعل الله

فيه خيراً من الظفر وسلامة العاقبة . وقومتكم : أي بالقتل والضرب ونحوه ، وكذلك معنى قوله : تداركتكم .

وقوله : لكانت الوثقى .

أي الفعلة المحكمة .

وقوله : ولكن بمن ؟

أي بمن كنت أستعين عليكم ، وإلى من ؟ أي إلى من أرجع في ذلك .

وقوله : أُريد أن أُداوي بكم .

أي أُريد أن أُداوي ما بي من بعضكم ببعض ، وأنتم دائي . فأكون في ذلك كناقش الشوكة بالشوكة، وهو يعلم أن ضلعها معها ، وهذا مثل تضربه العرب لمن يستعان به في إصلاح من يراد إصلاحه وميله إلى المستعان عليه يقال : لا تنقش الشوكة بالشوكة. فإنّ ضلعها معها . يقول : إن استعانتي ببعضكم في إصلاح بعض كنقش الشوكة بالشوكة ، ووجه المشابهة أن طباع بعضكم يشبه طباع بعض ويميل إليها كما تشبه الشوكة الشوكة وتميل إليها، فربما انكسرت معها في العضو واحتاجت إلى منقاش آخر .

ثم رجع إلى الشكاية إلى الله ، وأراد بالداء الدوي ما هم عليه من الاعتياد المخالفة لأمره وتثاقلهم عن صوته ، وبالأطباء نفسه . فإن داء الجهل وما يستلزمه أعظم من سائر الأدواء المحسوسة ، وفضل أطباء النفوس على أطباء الأبدان بقدر شرف النفوس على الأبدان ، وهي استعارة تكاد أن تكون حقيقة ، وكذلك استعارة لفظ النزعة له مثلٌ ضربه لنفسه معهم. فكأنهم عن المصلحة في قعر بئر عميق قد كلّ هو من جذبهم إليها . ثم أخذ في السؤال عن إخوانه من أكابر الصحابة الذين بذلوا جهدهم في نصرة الدين وأعرضوا عن الدنيا استفهاماً على سبيل التوبيخ لفقدهم ، وهذا كما يقول أحدنا إذا وقع في شدة أين أخي عنّي ؟ ثم وصفهم بالأوصاف الحميدة ترغيباً للسامعين في مثل حالهم وإزراءً عليهم حيث لم يكونوا بهذه الأوصاف ، وذلك بطريق المفهوم .

وقوله : أولادها .

نصب بإسقاط الجار . إذ الفعل وهو قوله : ولهوا . غير متعدي إلى مفعولين بنفسه ، وفي الخبر : لا توله والدة بولدها . وتولههم لها بركوبهم إيّاها عند خروجهم للجهاد .

وقوله : وأخذوا بأطراف الأرض .

أي أخذوها بأطرافها ، وزحفاً زحفاً وصفاً صفاً : مصدران مؤكّدان بمثليهما قاما مقام الحال .

وقوله : لا يبشرون بالأحياء ولا يعزّون عن القتلى [الموتى خ] .

أي كانوا في تلك الحال غير ملتفتين إلى حيّهم ولا مراعين ولا محافظين على حياته حتى يبشرون ببقائه، أو يجزعون لموته فيعزّون عليه بل مجرّدون للجهاد في سبيل الله ، ولعلهم يفرحون بقتل من يقتلونه في سبيله وإن كان ولداً لوالده أو بالعكس ، وإنما كان السهر موجباً لصفرة اللون لأنه يهيّج الحرارة ويفسد السحنة وينحف البدن ويكثر فيه المرة ، والصفرة من توابع ذلك لاسيما في الأبدان النحيفة كما عليه أهل المدينة ومكة والحجاز . وغبرة الخاشعين قشف الزاهدين الخائفين من الله لعدم تحليهم بالدنيا ، واستعار لفظ الظمأ للشوق إليهم ملاحظة لشبههم بالماء في شدة الحاجة إليه فنزل الشوق إليهم .

والحاجة إلى لقائهم منزلة العطش إلى الماء فأعطاه لفظه ، وأراد بعقدة الدين ما أُحكم منه من القوانين والقواعد ، وبحلّ الشيطان لها تزيينه ترك قانون قانون . وسنّة الاجتماع عقدة عقدها الشارع لما سبق فيها من المصالح وأكدها . فكانت الفرقة حلّاً لتلك العقدة ، ونزغات الشيطان حركاته بالإفساد ، ونفثاته إلقاؤه الوسوسة في القلوب مرة بعد أُخرى ، وعنى بمن أهدى إليهم النصيحة نفسه . وبالله التوفيق .

١١٩ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

قاله للخوارج ، وقد خرج إلى معسكرهم وهم مقيمون على إنكار

الحكومة فقال عليه‌السلام : أَكُلُّكُمْ شَهِدَ مَعَنَا صِفِّينَ ؟ فقالوا : منا من شهد ومنا من لم يشهد ، قَالَ : فَامْتَازُوا فِرْقَتَيْنِ ، فَلْيَكُنْ مَنْ شَهِدَ صِفِّينَ فِرْقَةً ، وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْهَا فِرْقَةً ، حَتَّى أُكَلِّمَ كُلاًّ بِكَلاَمِهِ ؛ وَنَادَى النَّاسَ فَقَالَ : أَمْسِكُوا عَنِ الْكَلاَمِ ، وَأَنْصِتُوا لِقَوْلِي ، وَأَقْبِلُوا بِأَفْئِدَتِكُمْ إِلَيَّ ، فَمَنْ نَشَدْنَاهُ شَهَادَةً فَلْيَقُلْ بِعِلْمِهِ فِيهَا ثم كلمهم عليه‌السلام بكلام طويل منه :

أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ ـ حِيلَةً وَغِيلَةً ، وَمَكْراً ، وَخَدِيعَةً ـ إِخْوَانُنَا ، وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا : اسْتَقَالُونَا ، وَاسْتَرَاحُوا إِلَى كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ ، فَالرَّأْيُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ ، وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ ؟ فَقُلْتُ لَكُمْ : هٰذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيمَانٌ وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ ، فَأَقِيمُوا عَلَى شَأْنِكُمْ ، وَالْزَمُوا طَرِيقَتَكُمْ ، وَعَضُّوا عَلَى الْجِهَادِ بِنَوَاجِذِكُمْ ، وَلاَ تَلْتَفِتُوا إِلَى نَاعِقٍ نَعَقَ إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ ، وَإِنْ تُرِكَ ذَلَّ ، وَقَدْ كَانَتْ هٰذِهِ الْفَعْلَةُ ، وَقَدْ رَأَيْتُكُمْ أَعْطَيْتُمُوهَا وَاللهِ لَئِنْ أَبَيْتُهَا مَا وَجَبَتْ عَلَيَّ فَرِيضَتُهَا ، وَلاَ حَمَّلَنِي اللهُ ذَنْبَهَا ، وَوَاللهِ إِنْ جِئْتُهَا إِنِّي لَلْمُحِقُّ الَّذِي يُتَّبَعُ ، وَإِنَّ الْكِتَابَ لَمَعِي : مَا فَارَقْتُهُ مُذْ صَحِبْتُهُ : فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَإِنَّ الْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى الآبَاءِ وَالأَبْنَاءِ وَالإِخْوَانِ وَالْقَرَابَاتِ فَلاَ نَزْدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وَشِدَّةٍ إِلاَّ إِيمَاناً ، وَمُضِيّاً عَلَى الْحَقِّ ، وَتَسْلِيماً لِلأَمْرِ ، وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ الْجِرَاحِ ، وَلٰكِنَّا إِنَّمَا أَصْبَحْنَا نُقَاتِلُ إِخْوَانَنَا فِي الإِسْلاَمِ عَلَى مَا دَخَلَ فِيهِ مِنَ الزَّيْغِ وَالإِعْوِجَاجِ وَالشُّبْهَةِ وَالتَّأْوِيلِ ، فَإِذَا طَمِعْنَا فِي خَصْلَةٍ يَلُمُّ اللهُ بِهَا شَعَثَنَا ، وَنَتَدَانَى بِهَا إِلَى الْبَقِيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا ؛ رَغِبْنَا فِيهَا ، وَأَمْسَكْنَا عَمَّا سِوَاهَا .

أقول : التنفيس : التفريج ، وأكثر هذا الفصل ظاهر مما سبق .

وقوله : هذا أمر ظاهره إيمان .

أي رفع أولئك للمصاحف وطلبهم للحكومة فإن ظاهره منهم الاجتهاد في الدين بالرجوع إلى كتاب الله ، وباطنه منهم عدوان : أي حيلة للظلم والغلبة ، وأوله رحمة منكم لهم برجوعكم إلى قولهم، وآخره ندامة لكم عند تمام الحيلة عليكم فأقيموا على شأنكم : أي ما كنتم عليها من الاجتهاد في

الحرب . والناعق إشارة إلى طالبي الحكومة أو المشير عليهم بذلك الرأي وهو عمرو بن العاص ، وأخرجه في أوصاف إبليس .

وقوله بعد ذلك : ولقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إلى قوله : مضض الجراح استدراج لهم بشرح حاله وحال الصحابة . حيث كانوا في الجهاد مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على الحالة التي شرحها لعلهم يتأسّون بالماضين فيها .

وقوله : ولكنّا إنما أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام . إلى آخره .

تنبيه على اعتراض عساهم يقولونه وجواب عنه وهو أن يقولوا : إنما فعل إخواننا السابقون ما فعلوا ليقينهم بما هم عليه من الدين الحق وتيقّنهم ضلال الكفّار والمحاربين لهم فأما نحن فإنما نقاتل بعضنا بعضاً فكيف يجوز لنا قتل قوم مسلمين استسلموا إلينا ودعونا إلى المحاكمة إلى كتاب الله . فأجاب بما معناه إنّا إنما نقاتل في مبدأ الأمر ومنتهاه دعوةً إلى الإسلام، ورغبة في رسوخ قواعده ففي المبدأ قاتلنا لتحصل ماهيته في الوجود . وفي الثاني : قاتلنا لحفظ ماهيته وبقائها ، وحيث دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل ما دخل فإذا طمعنا في خلّة محمودة يجمع الله بها تفرّقنا ونتقارب بها إلى ما بقي فيما بيننا من الإسلام والدين رغبنا فيها وقاتلنا طمعاً في تحصيلها ، وكأنه عنى بالخصلة رجوع محاربيه إلى طاعته واتفاقهم عليه ، وهذا الكلام في قوة صغرى قياس ضمير احتج عليهم به ، وتقديرها إنّكم حين قلت لكم إن رفعهم للمصاحف خدعة منهم أجبتموني بهذا الجواب ، وتقدير الكبرى وكل من أجاب بهذا الجواب فليس له أن ينكر الحكومة ، إذ كان قد رضي بها . فينتج أنه ليس لهم أن يأبوا الحكومة . وبالله التوفيق .

١٢٠ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

قاله لأصحابه في ساعة الحرب :

وَأَيُّ آمْرِىءٍ مِنْكُمْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ رَبَاطَةَ جَأْشٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ ، وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلاً ، فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخِيهِ ، بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ الَّتِي فُضِّلَ بِهَا

عَلَيْهِ ، كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ . فَلَوْ شَاءَ الله لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ . إنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ : لا يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ وَلاَ يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ . إنَّ أَكْرَمَ الْموتِ الْقَتْلُ ، وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ لأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ .

أقول : نجدته : شجاعته . والتذبيب : الدفع والمنع .

وقد أمرهم في هذا الفصل بمساعدة بعض لبعض في الحرب ومنع بعضهم عن بعض منعاً صادقاً كما يمنع عن نفسه ، وبذلك يكون انعقاد الاجتماع وتعاون الهمم حتى يكون الجميع كنفس واحدة، وبذلك يكون الظفر والغلبة واستمال ذوي النجدة بذكر فضيلة تخصّهم دون من يذبّون عنه استثارة لنجدتهم وتعطيفاً لهم .

وقوله : إن الموت طالب حثيث . إلى قوله : إن أكرم الموت القتل :

تسهيل للقتل والموت بذكر أنه لا بد ، وتسهيل للحرب عليهم . أما أن أكرم الموت القتل فأراد القتل في سبيل الله ، وذلك لاستلزامه الذكر الجميل في الدنيا والثواب الدائم في الآخرى . ثم أكد ذلك بالقسم لألف ضربة بالسيف أهون من ميتة على الفراش . وصدق ذلك في حق من نظر إلى الدنيا بعين الاستحقار في جنب نعيم الأبد في الآخرة والذكر الجميل في الدنيا وحصلت له ملكة الشجاعة ظاهر . وبالله التوفيق .

١٢١ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكِشُّونَ كَشِيشَ الضِّبَابِ ، لاَ تَأْخُذُونَ حَقّاً ، وَلاَ تَمْنَعُونَ ضَيْماً ! قَدْ خُلِّيتُمْ وَالطرِيقَ . فَالنَّجَاةُ لِلْمُقْتَحِم ، وَالْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّم .

أقول : كشيش الضباب : حك جلودها بعضها بالبعض عند الازدحام . والتلوّم : الانتظار والتوقف .

وأشار بهذا الكلام إلى أنه ستلحقهم غلبة من العدو وتعضّهم الحروب بحيث يعضون [يضعفون خ] ويأخذون في الهرب والتخفي فلا ينتفع بهم في

أخذ حق أو دفع ضيم ، ووصف الكشيش مستعار لهم باعتبار هيئاتهم في الحيد عن العدو والهرب منه ، وهو وجه الشبه بكشيش الضباب .

وقوله : قد خلّيتم والطريق .

أي وطريق الآخرة . فالنجاة للمقتحم : أي مقتحمها والمبادر إلى سلوكها ، والهلكة للمتوقف عن ذلك . والطريق منصوب على المفعول معه .

١٢٢ - ومن كلام له (عليه السلام)

في حث أصحابه على القتال :

فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ ، وَأَخِّرُوا الْحَاسِرَ ، وَعَضُّوا عَلَى الأَضْرَاسِ : فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسُّيوفِ عَنِ الْهَامِ . والتَوُوا فِي أَطْرَافِ الرِّمَاحِ ، فَإِنَّهُ أَمْوَرُ للأَسِنَّةِ ، وَغُضُّوا الأَبْصَارَ فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأْشِ ، وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ وَأَمِيتُوا الأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ ، وَرَايَتَكُمْ فَلاَ تُمِيلُوهَا ، وَلاَ تُخَلُّوهَا وَلاَ تَجْعَلُوهَا إلاَّ بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ ، وَالْمَانِعِينَ الذِّمَارَ مِنْكُمْ ، فَإِنَّ الصَّابِرِينَ عَلَى نُزُولِ الْحَقَائِقِ ، هُمُ الَّذِينَ يَحُفُّونَ بِرَايَاتِهِمْ ، وَيَكْتَنِفُونَهَا : حِفَافَيْهَا ، وَوَرَاءَهَا ، وَأَمَامَهَا لاَ يَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا فَيُسْلِمُوهَا ، وَلاَ يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهَا فَيُفْرِدُوهَا .

أَجْزَأَ امْرُؤٌ قِرْنَهُ ، وَآسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَكِلْ قِرْنَهُ إلى أَخِيهِ فَيَجْتَمِعَ عَلَيْهِ قِرْنُهُ وَقِرْنُ أَخِيهِ . وَأَيْمُ اللهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ لاَ تَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الآخِرَةِ ، وَأَنْتُمْ لَهَا مِيمُ الْعَرَبِ ، وَالسَّنَامُ الأَعْظَمُ . إنَّ فِي الْفِرَارِ مَوْجِدَةَ اللهِ ، وَالذُّلَّ اللاَّزِمَ ، وَالْعَارَ الْبَاقِيَ ، وَإنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمْرِهِ ، وَلاَ مَحْجُوزٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ . الرَّائِحُ إلى اللهِ ، كَالظَّمْآنِ يَرِدُ الْمَاءَ ، الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي ، الْيَوْمَ تُبْلَى الأَخْيَارُ ، وَاللهِ لأَنَا أَشْوَقُ إلى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إلى دِيَارِهِمْ . اللَّهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا الْحَقَّ فَافْضُضْ جَمَاعَتَهُمْ ، وَشَتِّتْ كَلِمَتَهُمْ وَأَبْسِلْهُمْ بِخَطَايَاهُمْ ؛ إنَّهُمْ لَنْ يَزُولُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنٍ دِرَاكٍ يَخْرُجُ مِنْهُ النَّسِيمُ ، وَضَرْبٍ يَفْلِقُ الْهَامَ ، وَيُطِيحُ الْعِظَامَ ، وَيُنْدِرُ السَّوَاعِدَ ، وَالأَقْدَامَ ، وَحَتَّى يُرْمَوْا بِالْمَنَاسِرِ تَتْبَعُهَا الْمَنَاسِرُ ، وَيُرْجَمُوا بِالْكَتَائِبِ تَقْفُوهَا

الْحَلاَئِبُ . وَحَتَّى يُجَرَّ بِبِلاَدِهِمْ الْخَمِيسُ يَتْلُوهُ الْخَمِيسُ ، وَحَتَّى تَدْعَقَ الْخُيولُ فِي نَوَاحِرِ أَرْضِهِمْ ، وَبِأَعْنَانِ مَسَارِبِهِمْ وَمَسَارِحِهِمْ .

قال الشريف : أقول : الدعق : الدق ، أي : تدق الخيول بحوافرها أرضهم ، ونواحر أرضهم : متقابلاتها ، يقال : منازل بني فلان تتناحر ، أي : تتقابل. أقول: هذا الكلام . قاله بصفين .

أمور : أشد حركة ونفوذاً . والجأش : روعة القلب واضطرابه عند الخوف . والذمار : ما وراء الرجل مما يجب عليه حمايته ، وحفافا الشيء : جانباه . ولهاميم العرب : أجوادهم . والموجدة : الغضب . وأبسلهم : أسلمهم للهلكة . والعوالي : جمع عالية : الرمح ؛ وهو ما دخل منه إلى ثلثه . والنسيم : النفس . والمنسر : القطعة من الجيش ، وكذلك الخميس : الجيش . والنواحر : جمع نحيرة وهي آخر ليلة من الشهر مع يومها كأنها تنحر الشهر المستقبل فيكون مراده بنواحر أرضهم أقاصيها . وأعنان مساربهم : أقطارها وما اعترض منها . ومساربهم : مراعيهم واحدتها مسربة وهكذا مسارحهم : واحدتها مسرحة .

وقد أمرهم بأوامر في مصلحة الحرب وكيفيتها ونهاهم مناهي :

فأولها : الأمر بتقديم الدارع وتأخير الحاسر . والمصلحة فيه ظاهرة .

الثاني : العض على الأضراس . وحكمته ما سبق في قوله : معاشر المسلمين استشعروا الخشية ، وفي قوله لابنه محمد بن الحنفية ، تزول الجبال ولا تزل ، وقد كرّره هنا أيضاً .

الثالث : الالتواء في أطراف الرماح . وعلّته ما ذكر ، وهو أنه إذا التوى الإنسان مع الرمح حال إرساله كان الرمي به أشد ، وذلك لحركة صدر الإنسان بعد التوائه مع حركة يده حين الإرسال فكانت حركته أشد وأقوى نفوذاً .

الرابع : غضّ الأبصار . وفائدته ما ذكر من كونه أربط لاضطراب القلب وأسكن ، وضدّ ذلك مدّ البصر إلى القوم فإنّه مظنّة الخوف والفشل

وعلامة لهما عند العدو .

الخامس : إماتة الأصوات . وفائدته أيضاً طرد الفشل ، إذ كانت كثرة اللغط (اللفظ خ) والصياح علامة لخوف الصائح ، وذلك مستلزم لطمع العدو فيه وجرأته عليه .

السادس : قوله : ورايتكم فلا تميلوها . فإن إمالتها مما يظن به العدو تشويشاً واضطراب حال فيطمع ويقدم ، ولأنها إذا أُميلت تغيب عن عيون الجيش فربما لا يهتدي كثير منهم للوجه المطلوب .

السابع : ولا تخلّوها . وسيفسر هو التخلية .

الثامن : لا تجعلوها . إلى قوله : منكم . وذلك أنها أصل نظام العسكر وعليها يدور وبها يقوي قلوبهم ما دامت قائمة فيجب في ترتيب الحرب أن يكون حاملها أشجع القوم . وقوله : فإن الصابرين . إلى قوله : فيفردوها . تخصيص لمن يحفظ الراية ويحفّها بوصف الصبر على نزول الحقائق : أي الشدائد الحقة المتيقنة التي لا شك في نزولها ، كي يسارعوا إلى حفظها والإحاطة بها رغبةً في تلك المحمدة ، وبيّن بقوله : لا يتأخرون عنها . إلى قوله : فيفردوها . معنى التخلية التي نهاهم عنها ، وقوله : فيسلموها ويفردوها . نصب الفعلان بإضمار أن عقيب الفاء في جواب النفي .

التاسع : قوله : أجزء امرؤ قرنه .

العاشر : آسى أخاه بنفسه فعلان ماضيان في معنى الأمر ، والتقدير وليجزي امرؤ قرنه وهو خصمه وكفوه في الحرب : أي ليقاومه وليواسي أخاه بنفسه في الذبّ عنه ولا يفرّ من قرنه اعتماداً على أخيه في دفعه فيجتمع على أخيه قرنه وقرن أخيه . ثم ذكّرهم عدم الفائدة في الفرار . إذ كانت غاية الفرار السلامة من الموت وهو لا بد منه كقوله تعالى : ﴿ **قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلاّ قليلاً** ﴾(1). واستعار لفظ سيف الآخرة للموت . ووجه المشابهة كونهما

(1) ٣٣ - ١٦ .

مبطلين للحياة . وإنما كان سيف الآخرة لأنها غايته . ثم مدحهم بأوصاف يستقبح معها الفرار ، وهي كونهم أجواد العرب والسنام الأعظم ، واستعار لهم لفظ السنام لمشاركتهم إيّاه في العلو والرفعة . ثم أكد تقبيح الفرار بذكر معايبه ، وإنه لا فائدة فيه أيضاً.

أما معائبه فكونه يستلزم غضب الله فإن الفار من الجهاد في سبيله عاص لأمره والعاصي له مستحق لغضبه وعقابه . ثم كونه مستلزماً للذل اللازم والعار الباقي في الأعقاب وهو ظاهر ، وأما أنه لا فائدة فيه فلأن الفار لا يزاد في عمره لفراره . إذ علمنا أنه بفراره لم يبلغ إلّا أجله المكتوب له فكان بقاؤه في مدة الفرار من عمره لا زيادة فيه وإن له يوماً في القضاء الإلهي لا يحجز بينه وبينه فرار . وفيه تخويف بالموت .

وقوله : رائح إلى الله كالظمآن يرد الماء . استفهام عمّن يسلك سبيل الله ويروح إليه كما يروح الظمآن استفهاماً على سبيل العرض لذلك الرواح ، ووجه الشبه القوة في السير والسعي الحثيث ، وأشار بقوله : الجنة تحت أطراف العوالي . إلى أن مطلوبه الرواح إلى الله بالجهاد وجذب إليه بذكر الجنة ، وخصّها بجهة تحت لأن دخول الجنة غاية من الحركات بالرماح في سبيل الله وتلك الحركات إنّما هي تحت العوالي ، وقد أطلق لفظ الجنة على تلك الأفعال التي هي غاية منها مجازاً تسمية باسم غايته . ثم أعقب ذلك بدعاء الله على محاربيه إن ردّوا دعوته الحق بالتفريق والإهلاك . ثم حكم بأنهم لن يزولوا عن مواقفهم دون ما ذكر حكماً على سبيل التهديد والوعيد لهم . والطعن الدراك : المتدارك . وكنّى بخروج النسيم منه عن كونه يخرق الجوف والأمعاء بحيث يتنفس المطعون من الطعنة ، وروي النسم ، وروي القشم بالقاف والشين المعجمة وهو اللحم والشحم وهو بعيد . وبالله التوفيق .

١٢٣ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

في التحكيم :

إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ ، وَهٰذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ خَطٌّ

مَسْتُورٌ بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ ، لاَ يَنْطِقُ بِلِسَانٍ ، وَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ ، وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ . وَلَمَّا دَعَانَا الْقَوْمُ إلى أَنْ نُحَكِّمَ بَيْنَنَا الْقُرْآنَ لَمْ نَكُنِ الْفَرِيقَ الْمُتَوَلِّيَ عَنْ كِتَابِ الله تَعَالَى ، وَقَدْ قَالَ الله سُبْحَانَهُ : ﴿ **فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله وَالرَّسُولِ** ﴾ فَرَدُّهُ إلى الله : أَنْ نَحْكُمَ بِكِتَابِهِ ، وَرَدُّهُ إلى الرَّسُولِ أَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ ، فَإِذَا حُكِمَ بِالصِّدْقِ فِي كِتَابِ الله فَنَحْنُ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ ، وَإِنْ حُكِمَ بِسُنَّةِ رَسُولِ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَنَحْنُ أَوْلاَهُمْ بِهِ .

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ : لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ أَجَلاً فِي التَّحْكِيمِ ، فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذٰلِكَ لِيَتَبَيَّنَ الْجَاهِلُ ، وَيَتَثَبَّتَ الْعَالِمُ ، وَلَعَلَّ الله أَنْ يُصْلِحَ فِي هٰذِهِ الْهُدْنَةِ أَمْرَ هٰذِهِ الأُمَّةِ ، وَلاَ تُؤْخَذَ بِأَكْظَامِهَا ، فَتَعْجَلَ عَنْ تَبَيُّنِ الْحَقِّ ، وَتَنْقَادَ لأَوَّلِ الْغَيِّ إِنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ عِنْدَ الله مَنْ كَانَ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ أَحَبَّ إِلَيْهِ وَإِنْ نَقَصَهُ وَكَرَثَهُ مِنَ الْبَاطِلِ وَإِنْ جَرَّ إِلَيْهِ فَائِدَةً وَزَادَهُ ، أَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ ؟ مِنْ أَيْنَ أُتِيتُمْ ؟ إِسْتَعِدُّوا لِلْمَسِيرِ إلى قَوْمٍ حَيَارَى عَنِ الْحَقِّ لاَ يُبْصِرُونَهُ ، وَمُوزَعِينَ بِالْجَوْرِ لاَ يَعْدِلُونَ بِهِ ! جُفَاةٌ عَنِ الْكِتَابِ ، نُكُبٌ عَنِ الطَّرِيقِ ، مَا أَنْتُمْ بِوَثِيقَةٍ يُعْلَقُ بِهَا ، وَلاَ زَوَافِرَ عِزٍّ يُعْتَصَمُ إِلَيْهَا ، لَبِئْسَ حُشَّاشُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ أُفٍّ لَكُمْ ، لَقَدْ لَقِيتُ مِنْكُمْ بَرْحاً !! يَوْماً أُنَادِيكُمْ ؛ وَيَوْماً أُنَاجِيكُمْ ! فَلاَ أَحْرَارُ صِدْقٍ عِنْدَ النِّدَاءِ ، وَلاَ إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ النَّجَاءِ .

أقول : هذا الفصل من كلام له بعد سماعه لأمر الحكمين وخدعة عمرو بن العاص لأبي موسى .

كرثه الأمر . اشتد عليه . وأوزع له بكذا فهو موزع : إذا أغرى به . ونكب بتشديد الكاف : جمع ناكب وهو العادل عن الطريق كباذل وبذل . وزوافر الرجل : أنصاره وعشيرته . والحشاش : جمع حاش وهو موقد النار ، وكذلك الحشاش بكسر الحاء وتخفيف الشين كنائم ونوّام ونيام ، وقيل : هو ما يحشّ به النار : أي يوقد . والبرح بسكون الراء : الشدة والأذى . يقال : لقيت منه برحاً بارحاً ، وروي ترحاً وهو الحزن .

وهذا الفصل من أوله . إلى قوله : أولاهم به . جواب له عن شبهة

التحكيم للخوارج عن أمره بالحرب بعد أن رضي بالتحكيم . وتقدير الشبهة أنك رضيت بتحكيم رجلين في هذا الأمر وعاهدت على ذلك ، وكل من رضي بأمر وعاهد عليه فليس له أن ينقض عهده. فقدح في صغرى هذه الشبهة بقوله : إنّا لم نحكم الرجال : أي لكونها رجالاً ، وإنما حكمنا القرآن لكن لما كان القرآن لا بد له من ترجمان يبيّن مقاصده ، ودعانا القوم إلى حكم القرآن ولم نكن نحن الفريق الكاره لكتاب الله ، المتولى عنه بعد أمره تعالى بالرجوع إليه وإلى رسوله في الكتاب والسنّة فيما اشتبه أمره بقوله : ﴿ **فإن تنازعتم** ﴾ الآية .

فإذا حكم بالصدق عن علم بكتابه فنحن أحق الناس به : أي أولاهم باتباعه وأولاهم بأن ينصّ على كون الأمر لنا كما في قوله تعالى : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين**. إلى قوله : **حتى تفيء إلى أمر الله** ﴾[1]، وظاهرٌ كون أُولئك بعد عقد الإمامة بغاة عليه فوجب بنص الكتاب قتالهم ، وكذلك الآيات الدالّة على وجوب الوفاء بالعهود والعقود وكان هو أولى بالحق الذي يجب قتالهم عليه فكان الحاكم لهم مخطئاً مخالفاً لكتاب الله غير عامل به فوجبت مخالفة حكمه ، وإن حكم بسنّة رسول الله فنحن أولى الناس برسول الله للقرابة وللعمل بسنته لموافقتها الكتاب ونصه على وجوب متابعة الإمام العادل فكان الحاكم لغيره مخالفاً للسنّة أيضاً .

فصارت خلاصة هذا الجواب أنّا لم نرض بتحكيم الرجلين ولكن بتقدير حكمهما بكتاب الله الذي هما ترجمان عنه وهو الحاكم الذي دعانا الخصم إليه وحيث خالفاه لم يجب علينا قبول قولهما .

وقوله : وأما قولكم . إلى قوله : لأول الغي .

فتقدير سؤال آخر لهم مع جوابه ، وذلك أنهم حين اتفقوا على التحكيم كتبوا كتاب الصلح وضربوا لحكم الحكمين أجلاً مدّة سنة ، وصورة الكتاب : هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى علي بن أبي طالب على أهل العراق، ومن كان معه من شيعته من

---

(١) ٤٩ ـ ٩ .

المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية بن أبي سفيان على أهل الشام ومن كان من شيعته من المؤمنين والمسلمين . إنما ننزل عند حكم الله تعالى وكتابه ولا يجمع بيننا إلاّ إيّاه ، وإنّ كتاب الله سبحانه بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيا القرآن، ونميت ما أمات القرآن . فإن وجد الحكمان ذلك في كتاب الله اتبعاه ، وإن لم يجداه أخذا بالسنّة العادلة غير المفرقة ، والحكمان عبد الله وعمرو بن العاص ، وقد أخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين أنهما آمنان على أنفسهما وأموالهما والأُمّة لهما أنصار ، وعلى الذي يقضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين عهد الله أن يعمل بما يقضيان عليه . مما وافق الكتاب والسنّة ، وإن الأمن والموادعة ووضع السلاح متفق عليه بين الطائفتين إلى أن يقع الحكم ، وعلى كل واحد من الحكمين عهد الله ليحكمن بين الأُمّة بالحق لا بما يهوى ، وأجل الموادعة سنة كاملة فإن أحب الحكمان أن يعجلا الحكم عجّلاه ، وإن توفي أحدهما فلأمير شيعته أن يختار مكانه رجلًا لا يألوا الحق والعدل وإن توفّي أحد الأميرين كان نصب غيره إلى أصحابه ممن يرتضون أمره ويحمدون طريقته .

اللهم إنّا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة وأراد فيها إلحاداً وظلماً . وشهد فيه من أصحاب علي عليه السلام عشرة ، ومن أصحاب معاوية عشرة . فذلك معنى الأجل في التحكيم . وتقدير هذا السؤال إنّك حين رضيت بالتحكيم لم ضربت بينك وبينهم أجلًا ، وما الحكمة في ذلك . فأجاب إنّما فعلت ذلك ليتبين الجاهل : أي في وجه الحق ، ويتثبّت العالم : أي في أمره بحيث يخلص من الشبهة ، ورجاء إصلاح هذه الأُمّة بهذا الصلح .

وقوله : ولا تؤخذ بأكظامها فتعجل . إلى آخره .

فعبّر بأخذ الكظم عن الأخذ بغتة وعلى غرّة ، وهؤلاء القوم لما أُخذوا لأول شبهة عرضت من رفع المصاحف وهو أوّل الغي ولم يتثبتوا في أمرهم أشبهوا من أُخذ بمجرى نفسه فلم يتمكن من الاستراحة إلى التنفيس فاستعير وصف الكظم لهم .

وقوله : إن أفضل الناس . إلى قوله : وزاده .

حذب إلى الحق وإن أدى إلى الغاية المذكورة وتنفير عن الباطل وإن استلزم الغاية المذكورة بذكر الأفضلية عند الله .

وقوله : من الباطل . متعلّق بأحب إليه .

وقوله : وإن نقصه وكرثه .

اعتراض بينهما . والحكم في هذه القضية ظاهر الصدق . إذ كان ملازم الحق أتقى الخلق ، والأتقى أفضل عند الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقيكم** ﴾[1] .

وقوله : فأين يتاه بكم ؟

يريد إلى أي غاية يكون هذا التيه الذي أخذتم فيه، وفيه تنبيه على أن ذلك التيه فعل الغير بهم . ومن أين أتيتم ؟ : أي من أي وجه دخلت عليكم الشبهة . ويشبه هذا السؤال تجاهل العارف . إذ كان يعلم وجه الداخل عليهم . ثم أعقب ذلك التعنيف لهم بالأمر بالمسير إلى أهل الشام . ووصفهم بالحيرة عن الحق والعمى عنه والإغراء بالجور عن طريق الله بحيث لا مثل للجور عندهم ، وبجفاوة الطباع عن فهم كتاب الله ونبوء الأفهام عنه وبعدولهم عن طريقه كل ذلك إغراء بهم .

وقوله : ما أنتم بوثيقة : أي بعروة وثيقة . إلى آخره وهو عتاب لهم وتضجّر منهم على قلّة طاعته .

وقوله : يوماً أناديكم .

أي أدعوكم إلى النصرة وأستغيث بكم ، ويوماً أُناجيكم : أي أُعاتبكم وأُجادلكم على تقصيركم .

وقوله فلا أحرار صدق عند النداء .

لأن الحر من شأنه إجابة الداعي والوفاء بالوعد ولستم كذلك ، ولا إخوان ثقة عند النجاء لأن أخا الثقة إذا زلّ وعوتب من أخيه انعتب ، وإذا

---

(١) ٤٩ - ١٣ .

أحوج واعتذر إليه رجع إلى صفاء الأُخوة لمكان وثاقتها ولستم من ذلك في شيء . وبالله التوفيق .

١٢٤ - ومن كلام له (عليه السلام)

لما عوتب على التسوية في العطاء :

أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ ؟ وَاللهِ مَا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ ، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً ، لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ ؛ فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ ! أَلَا وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَيَضَعُهُ فِي الآخِرَةِ ، وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ ، وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللهِ ، وَلَمْ يَضَعِ امْرُءٌ مَالَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ وَلَا عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ إِلَّا حَرَمَهُ اللهُ شُكْرَهُمْ ، وَكَانَ لِغَيْرِهِ وُدُّهُمْ ، فَإِنْ زَلَّتْ بِهِ النَّعْلُ يَوْماً فَاحْتَاجَ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فَشَرُّ خَدِينٍ ، وَأَلأَمُ خَلِيلٍ .

أقول : لا أطور به : أي لا أقر به . والسمير : الدهر . يقال : لا أفعله ما سمر سمير : أي الدهر كله ، وكذلك لا أفعله ما سمر ابنا سمير : أي الدهر كله ، وابناه : الليل والنهار . والخدين : الصديق .

والتسوية في العطاء من سنّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكان أبو بكر كذلك على تلك السنّة فلما فضل من بعدهما أهل السابقة والشرف في العطاء على غيرهم اعتاد المفضلون بذلك إلى زمانه عليه السلام . ولما كان سالكاً مسالك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومقتفياً أثر سنّته لم يمكنه إلّا التسوية فطلب المفضّلون عادتهم من التفضيل عند ولايته لهذا الأمر فقال الكلام .

فقوله : أتأمروني أن أطلب النصر بالجور .

جواب لمن أشار عليه بالتفضيل ، وكأن المشير قال له : إن فضلت هؤلاء كانوا معك بقلوبهم ونصروك . فأجابهم بذلك . والجور : العدول عن سبيل الله بالتفضيل حيث كان خارجاً عن سنّة الرسول . ثم أقسم أنه لا يقرب التفضيل أبداً ، وأنّ المال لو كان له لكان من العدل أن يسوي بينهم فيه فكيف والمال لله ولهم .

ووجه ذلك أن التسوية هي العدل الذي تجتمع به النفوس على النصرة وتتألف الهمم على مقاومة العدو دون التفضيل المستلزم لانكسار قلوب المفضولين مع كثرتهم . فلو كان المال له مع كونه بطباع البشرية الميّالة إلى شخص دون شخص لم يسوّ بينهم فكيف والمال لله الذي تساوى نسبة الخلق إليه ومالهم الذي فرضه الله لهم على سواء ، وهو كالاعتذار الحاسم لمادة الطمع في التفضيل .

ثم نبّه على قبح وضع المال في غير أهله وعلى غير وجهه . وغير أهله : هم غير المفروض لهم : وغير وجهه : غير حقه الذي يفرضه الشارع ، وأشار إلى وجوه المفاسد ففي غير أهله تبذير ، وفي غير وجهه إسراف ، وعرفت أنهما طرفا الإفراط والتفريط من فضيلة السخاء . وقوله : يرفع صاحبه في الدنيا .

أي يحصل له بالتبذير ذكر الكرم بين العوام والغاغة ، ومن لا يعرف حقيقة الكرم ، ويضعه في الآخرة . إذ كان به على رذيلة ، وكذلك يكرمه عند الناس ويهينه عند الله ، وأما حكمه عليه السلام بأن الواضع لماله في غير حقه وعند غير أهله محروم شكرهم ولغيره ودّهم ، وعلى تقدير وقوع الزلة منه التي يحتاج فيها إلى مساعدتهم يتقاعدون عنه فذلك أمر يحصل بالاستقراء ، وربما بلغ التجربة ، وأمّا سرّ ذلك فيحتمل أن يكون لأنهم لما كانوا غير أهل لوضع المعروف لم يكونوا أهلاً للاعتراف به إمّا لجهلهم وغفلتهم أو لاعتقادهم أن المسدي إليهم غير أهل لشكرهم ، وأنهم على مرتبته وأحقّ بالمال منه . وأكثر ما يكون عدم الشكر من هؤلاء لنظر كلٍ منهم إلى أن غيره من المسدى إليه غير أهل ، وأنه هو أحق فيرى نفسه دائماً مبخوس الحظ من باذل المعروف فلا يزال متسخّطاً عاتباً عليه ذاماً للزمان ، وحينئذٍ لا يتحقق اعترافه بنعمة الباذل فإذا أصابه من غيره أدنى معروف أو لم يصبه بل سمع مدح أحد وشكر الناس له ساعد على مدحه وأظهر فضله ، وقال : إنّه ممن يضع المعروف في أهله فيكون ذلك كالمستنهض لهمّة الباذل أو كالمزري عليه والمغاير له ، وكنّى بزلّ النعل عن خطائه وعثاره في المصائب . وبالله التوفيق .

١٢٥ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

أيضاً للخوارج.

فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلاَّ أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِضَلاَلِي، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطَئِي وَتُكَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِي؟! سُيُوفُكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ الْبُرْءِ وَالسُّقْمِ وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، رَجَمَ الزَّانِيَ ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ، وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ وَقَطَعَ السَّارِقَ وَجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ، وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الإِسْلاَمِ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ، ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ، وَمَنْ رَمَى بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ، وَضَرَبَ بِهِ تِيهَهُ.

وَسَيَهْلِكُ فِيَّ صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلى غَيْرِ الْحَقِّ، وَمُبْغِضٌ مُفَرِّطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلى غَيْرِ الْحَقِّ، وَخَيْرُ النَّاسِ فِيَّ حَالاً النَّمَطُ الأَوْسَطُ فَالْزَمُوهُ، وَالْزَمُوا السَّوَادَ الأَعْظَمَ، فَإِنَّ يَدَ اللهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ. وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ! أَلاَ مَنْ دَعَا إِلى هٰذَا الشِّعَارِ فَاقْتُلُوهُ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هٰذِهِ.

وَإِنَّمَا حُكِّمَ الْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ، وَيُمِيتَا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ، وَإِحْيَاؤُهُ الإِجْتِمَاعُ عَلَيْهِ، وَإِمَاتَتُهُ الإِفْتِرَاقُ عَنْهُ: فَإِنْ جَرَّنَا الْقُرْآنُ إِلَيْهِمُ اتَّبَعْنَاهُمْ وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا اتَّبَعُونَا، فَلَمْ آتِ ـ لاَ أَبَا لَكُمْ ـ بُجْراً، وَلاَ خَتَلْتُكُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ، وَلاَ لَبَّسْتُهُ عَلَيْكُمْ، إِنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ لاَ يَتَعَدَّيَا الْقُرْآنَ فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَيَا عَلَيْهِ، وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكُومَةِ بِالْعَدْلِ، وَالصَّمْدِ لِلْحَقِّ؛ سُوءَ رَأْيِهِمَا وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا.

أقول : البجر : الشر والأمر العظيم . والختل : الخديعة . والصمد : القصد . وهذا الفصل مشاجرة مع الخوارج وهو منع لشبههم التي بها كفّروا أصحابه عليه السلام وصورتها إنكم ضللتم بالتحكيم ، وكل ضال كافر ينتج أنهم كفّار .

فقوله : فإن أبيتم . إلى قوله : وضللت .

يجري مجرى تسليم جدل لما منعه أولاً في الفصول السابقة من صغرى شبههم وبين أن التحكيم لم يكن منه خطأ ولا ضلالاً . فكأنه يقول : وهب أني أخطأت كما زعمتم .

وقوله : فلم تضللون عامة أمّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بضلالي .

منع لصغرى هذه الشبهة .

وقوله : وتكفرونهم بذنوبي . إلى قوله : بمن لم يذنب .

منع للكبرى . فكأنه يقول : وهب أنكم ضلّلتموهم بضلالي فلم تكفرونهم ، وتقتلون بسبب تكفيرهم المذنب وغير المذنب .

وقوله : وقد علمتم . إلى قوله : بين أهله .

استشهاد عليهم بفعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيمن أخطأ ، وأنه لم يكفّرهم بذنوبهم بل أجرى عليهم أحكام الإسلام ، ولم يسلبهم اسمه ، وهذا الاستشهاد يجري مجرى ذكره مستند المنع . والزاني الذي رجمه هو المحصن ، ولم يمنعه استحقاقه الرجم صدق الإسلام عليه ولحوق أحكامه له من الصلاة عليه وتوريث ماله لأهله ، وكذلك الباقون من أهل الكبائر من الأمّة لم يمنعهم ذلك من إجراء أحكام الإسلام عليهم، وصدق اسمه المنافي لصدق الكفر عليهم ، وضمير الإثنين في نكحا يرجع إلى السارق والزاني : أي لم يمنعهم استحقاق القطع والجلد من حصتهما من الفيء ولا من نكاح المسلمات ، وضمائر الجمع في قوله : فأخذهم الله بذنوبهم . إلى قوله : بين أهله راجعة إلى كل من جرى ذكره من المذنبين ، والكلام المذكور حكاية لحالهم ، والضمير في أهله يرجع إلى الإسلام . ثم

لما فرغ من بيان غلطهم ذمهم ونسبهم إلى الانفعال عن الشيطان . إذ كانت وساوسه مبادىء الأغلاط والشبه . ثم عقّب ذلك بالإخبار عن هلاك من سلك طريق الإفراط في حبه أو بغضه لخروجهما عن الحق والعدل إلى الباطل والجور ، وإفراط الحب أن جعل إلّهاً كالمنسوب إلى النصيرية ونحوهم من الغلاة ، وإفراط البغض أن نسب إلى الكفر كالمنقول عن الخوارج ، وجعل خير الناس فيه حالاً النمط الأوسط في المحبة ، وهم أهل العدل فيه . والنمط الأوسط الجماعة من الناس أمرهم واحد .

وفي الحديث خير هذه الأُمّة النمط الأوسط يلحق بهم التالي ويرجع إليهم الغالي . فالتالي هو المقصر الواقف في طرف التفريط ، والغالي هو العابر إلى طرف الإفراط . وأمر بلزوم ذلك النمط ولزوم طريقة السواد الأعظم : أي أكثر المسلمين المتفقين على رأي واحد ، ورغب في لزوم طريقتهم بأنّ يد الله على الجماعة فتجوز بلفظ اليد في قدرة الله وحراسته للجماعة إذ كانوا أمنع وأبعد عن الانفعال للعدو، وآمن من الغلط والخطأ لكثرة آرائهم واتفاقها فلا تكاد تتفق على أمر لا مصلحة فيه مع كثرتها واختلافها.

وحذّر من الفرقة والشذوذ عن الجماعة بأن الشاذ من الناس: أي المتفرد المستبد برأيه للشيطان : أي محل تطرق الشيطان لانفراده ، وشبّه ذلك بالشاذّ من الغنم ، ووجه الشبه كون انفراده محلاً لتطرق الهلاك إليه باستغواء الشيطان له كما أن الشاة المنفردة في مظنة الهلاك لانفرادها ووحدتها للذئب .

ثم أمر بقتل من دعا إلى هذا الشعار وهو مفارقة الجماعة والاستبداد بالرأي .

وقوله : ولو كان تحت عمامتي هذه .

مبالغة في الكلام كنّى بها عن أقصى القرب من عنايته : أي ولو كان ذلك الداعي إلى هذا الحد من عنايتي به ، وقيل : أراد ولو كان ذلك الداعي أنا .

وقوله : وإنما حكم الحكمان .

اعتذار عن شبهة التحكيم ، وأسند إليهما لفظي الإحياء والإماتة مجازاً باعتبار كونهما في الاجتماع عليه والعمل به مظهرين لمنفعته وفائدته كما يفعله موجد الحياة ، وكونهما في تركه والإعراض عنه سبباً لبطلان منفعته وعدم منفعته كما يفعله مميت الشيء ومبطل حياته .

فلم آت ـ لا أبا لكم ـ بجراً : إلى آخر .

لما بيّن وجه عذره في التحكيم أنكر أن يكون فعله ذلك مشتملاً على قصد شر أو خديعة لهم أو تلبيساً عليهم في التحكيم من غير اتفاق منهم ومراجعة لهم بل إنما كان ذلك عن اجتماع آراء قومهم على اختيار حكمين أخذت عليهما الشرائط المعدودة في كتاب الصلح ، وفي نسبته اختيار الحكمين إلى ملائهم ، ونسبة أخذ العهد عليها في اتباع الكتاب إلى نفسه أو إلى جماعة هو أحدهم تنبيه على أن أخذ العهد عليهما كان منه أو بشركته دون تعيينهما للحكومة لما نقل إنه كان غير راض بنصب أبي موسى نائباً عنه .

وإنما أكره على ذلك وكان ميله واختياره في ذلك لابن عباس . وتلخيص الكلام : إنّا إنما رضينا بالحكمين بشرط أن يعملا بكتاب الله ، والمشروط بشرط عدمٌ عند عدم ذلك الشرط . فحيث خالفا الشرط عمداً بعد أن سبق استثناؤنا عليهما سوء رأيهما وجبت مخالفتهم . وانتصب سوء رأيهما لأنه مفعول به عن سبق . وبالله التوفيق والعصمة .

١٢٦ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

فيما يخبر به عن الملاحم بالبصرة :

يَا أَحْنَفُ ، كَأَنِّي بِهِ وَقَدْ سَارَ بِالجَيْشِ الَّذِي لاَ يَكُونُ لَهُ غُبَارٌ وَلاَ لَجَبٌ ، وَلاَ قَعْقَعَةُ لُجُمٍ ، وَلاَ حَمْحَمَةُ خَيْلٍ يُثِيرُونَ الأَرْضَ بِأَقْدَامِهِمْ كَأَنَّهَا أَقْدَامُ النَّعَامِ .

يُومىء بذلك إلى صاحب الزنج . ثم قال عليه السلام :

وَيْلٌ لِسِكَكِكُمُ الْعَامِرَةِ، وَالدُّورِ الْمُزَخْرَفَةِ الَّتِي لَهَا أَجْنِحَةٌ كَأَجْنِحَةِ النُّسُورِ وَخَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيمِ الْفِيَلَةِ . مَنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لاَ يُنْدَبُ قَتِيلُهُمْ ، وَلاَ يُفْتَقَدُ غَائِبُهُمْ ؟ أَنَا كَابُّ الدُّنْيَا لِوَجْهِهَا ، وَقَادِرُهَا بِقَدْرِهَا ، وَنَاظِرُهَا بِعَيْنِهَا .

أقول : الملحمة : الوقعة العظيمة .

وهذا الفصل من خطبة له عليه السلام بالبصرة بعد وقعة الجمل ذكرنا منها فصولاً فيما سبق ، والخطاب مع الأحنف بن قيس لأنه كان رئيساً ذا عقل وسابقة في قومه ، وكان اسمه صخر بن قيس بن معاوية بن حصن بن عباد ابن مرة بن عبيد بن تميم ، وقيل : اسمه الضحّاك ، وكنيته أبو بحر . وبسببه كان إسلام بني تميم حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم يجيبوا . فقال لهم الأحنف : إنه يدعوكم إلى مكارم الأخلاق وينهاكم عن ملاعبها فأسلموا . وأسلم الأحنف وشهد مع علي عليه السلام صفّين ولم يشهد الجمل مع أحد الفريقين ، والضمير في قوله : كأني به . لصاحب الزنج واسمه علي ابن محمد علوي النسب ، والجيش المشار إليه هم الزنج ، وواقعتهم بالبصرة مشهورة وأخبارهم وبيان أحوالهم ، وتفصيل واقعتهم يشتمل عليها كتاب منفرد في نحو من عشرين كراسة فليطلب علمها من هناك .

وأما وصف ذلك الجيش بالأوصاف المذكورة فلأن الزنج لم يكونوا أهل خيل ولا جند من قبل حتى يكون بالأوصاف المشار إليها ، وإثارتهم التراب بأقدامهم كناية عن كونهم حفاة في الأغلب سائرين بالأقدام فهي [من اعتياد الحفاة ـ خ ـ] باعتبار الحفاء ومباشرة الأرض بالخشب ونحوه فكانت مظنة إثارة التراب عوضاً من حوافر الخيل ، ووجه شبهها بأقدام النعام أن أقدامهم في الأغلب قصار عراض منتشرة الصدور ومفرقات الأصابع فهي من عرضها لا يتبيّن لها طول فأشبهت أقدام النعام في بعض تلك الأوصاف ، ثم أخبر بالويل لمحال البصرة ودورها المزوقة من أولئك ، واستعار لدورها لفظ الأجنحة ، وأراد بها القطانيّات التي تعمل من الأخشاب والبواري بارزة عن السقوف كالوقاية للمشارف والحيطان عن آثار الأمطار وهي أشبه الأشياء في هيئتها وصورة وضعها بأجنحة كبار الطير كالنسور ، وكذلك استعار لفظ

خراطيم الفيلة للميازيب التي تعمل من الخوص على شكل خرطوم الفيل وتطلى بالقار يكون نحواً من خمسة أذرع أو أزيد تدلى من السطوح حفظاً للحيطان من أذى السيل أيضاً ، وهي أشبه الأشياء في صورتها بخراطيم الفيلة .

وأما وصفه لهم بأنه لا يندب قتيلهم ولا يفتقد غائبهم . قال بعض الشارحين : ذلك وصف لهم بشدة البأس والحرص على الحرب والقتال وأنهم لا يبالون بالموت ولا يأسفون على من فقد منهم .

وأقول : والأشبه أن ذلك لكونهم لا أُصول لهم ولا أهل لأكثرهم من أُمّ أو أخت أو غير ذلك ممن عادته أن ينوح ويندب قتيله ويفتقد غائبه لكون أكثرهم غرباء في البصرة فمن قتل منهم لا يكون له من يندبه ومن غاب لا يكون له من يفتقده .

وقوله : أنا كابّ الدنيا لوجهها .

إشارة إلى زهده فيها ، وتنبيه على فضيلته . يقال : كببت فلاناً لوجهه إذا تركته وما التفت إليه ، وقادرها بقدرها : أي معامل لها بمقدارها ، ولما كان مقدارها حقيراً عنده كان التفاته إليها التفاتاً حقيراً حسب ضرورة البقاء فيها ، وكذلك ناظرها بعينها : أي معتبرها بالعين التي ينبغي أن تعتبر بها الدنيا من كونها غرّارة غدّارة حائلة إلى غير ذلك من أوصافها ، وأنها مزرعة الآخرة وطريق إليها غير مطلوبة لذاتها . وبالله التوفيق .

١٢٧ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

يؤمى به إلى وصف الأتراك .

كَأَنِّي أَرَاهُمْ قَوْماً كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمِجَانُّ الْمُطَرَّقَةُ ؛ يَلْبَسُونَ السَّرَقَ وَالدِّيبَاجَ ، وَيَعْتَقِبُونَ الْخَيْلَ الْعِتَاقَ ، وَيَكُونُ هُنَاكَ اسْتِحْرَارُ قَتْلٍ حَتَّى يَمْشِيَ الْمَجْرُوحُ عَلَى الْمَقْتُولِ ، وَيَكُونَ الْمُفْلِتُ أَقَلَّ مِنَ الْمَأْسُورِ .

فقال له بعض أصحابه : لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب ! فضحك عليه السلام ، وقال للرجل وكان كلبياً :

يَا أَخَا كَلْبٍ ، لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ ! وَإِنَّمَا عِلْمُ الْغَيْبِ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَمَا عَدَّدَ اللهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ الآيَةَ فَيَعْلَمُ سُبْحَانَهُ مَا فِي الأَرْحَامِ : مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ، وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ ، وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ ، وَمَنْ يَكُونُ فِي النَّارِ حَطَباً أَوْ فِي الْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقاً ، فَهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذِي لاَ يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلاَّ اللهُ ، وَمَا سِوَى ذلِكَ فَعِلْمٌ عَلَّمَهُ اللهُ نَبِيَّهُ فَعَلَّمَنِيهِ ، وَدَعَا لِي بِأَنْ يَعِيَهُ صَدْرِي ، وَتَضْطَمَّ عَلَيْهِ جَوَانِحِي .

أقول : المجان بالفتح : جمع مجن بكسر الميم وهو الترس . والمطرقة بفتح الراء والتخفيف : التي تطبق وتخصف كطبقات النعل . يقال : أطرقت بالجلد إذا ألبست . والسرق بفتح السين والراء : شقق الحرير واحدتها سرقة . قال أبو عبيدة : هي البيض منها ، وهو فارسي معرّب أصله سره : أي جيد كالاستبرق الغليظ من الديباج . ويعتقبون الخيل : يحتبسونها ويرتبطونها . واستحر القتل وحرّ : أي اشتد .

واعلم أنه عليه السلام من عاداته إذا أراد الإخبار عن أمر سيكون فإنه يصدره بقوله : كأني كما سبق من إخباره عليه السلام عن الكوفة كأني بك يا كوفة ، وكقوله : كأني به وقد نعق بالشام . ووجه ذلك أن مشاهدته بعين بصيرته لما أُفيض على نفسه القدسية من أنوار الغيب على سبيل الإلهام بواسطة الاستاذ المرشد صلى الله عليه وآله وسلم تشبه المشاهدة بعين البصر في الجلاء والظهور الخالي عن الشك فلذلك حسن حرف التشبيه صدراً ، وضمائر الجمع في الفصل تعود إلى الأتراك ، وشبّه وجوههم بالتروس المطبقة ، ووجه الشبه في تشبيهها بالتروس الاستدارة والعظم والانبساط ، وفي كونها مطرقة الخشونة والغلظة وهو تشبيه للمحسوس بالمحسوس ، وأما وصفه لهم بمراعاة لبس السرق والديباج ، واعتقاب الخيل فاعتبار أحوال الترك تشهد بصدقه .

وأما إخباره عن استحرار القتل إلى الغاية المذكورة حين ظهورهم فمما يشهد بصدقه التواريخ بالوقائع المشهورة بينهم وبين العرب وغيرهم من المسلمين في أيام عبدالله بن الزبير ، وفي أيام قتيبة بن مسلم ، ويكفي في صدق ذلك إلى الغاية المذكورة ما شهدناه من وقائع التتار مع المسلمين

وقتلهم إياهم بالعراقين وخراسان وغيرها من البلاد .

فأما جوابه عليه السلام للكلبي : إن ذلك ليس بعلم غيب ، وإنما هو تعلم من ذي علم ، وتعديده للمعلومات بعلم الغيب الذي لا يعلمها إلّا الله سبحانه فحق وصدق ، وقد نبّهنا على الفرق بين علم الغيب والإخبار عن المغيبات في المقدمات لكن ينبغي أن يعلم أن التعلّم الحاصل له من قبل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليس على سبيل أن كل ما أُلقي إليه صور جزئية، ووقائع جزئية بل معناه هو إعداد نفسه القدسية على طول الصحبة من حيث كان طفلاً إلى أن توفي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لهذه العلوم بالرياضة التامة ، وتعليم كيفية السلوك وأسباب تطويع النفس الأمارة بالسوء للنفس المطمئنة حتى استعدت نفسه الشريفة للانتقاش بالأُمور الغيبية ، وانتقشت فيها الصور الكليّة فأمكنه الإخبار عنها وبها ، ولذلك قال : ودعا لي بأن يعيه صدري وتضطم عليه جوانحي : أي يضبطه قلبي ويشتمل عليه ، وكنى بالجوانح عن القلب لاشتمالها عليه ولو كانت تلك العلوم صوراً جزئية لم يحتج إلى مثل هذا الدعاء فإنّ فهم الصور الجزئية وضبطها والإخبار عنها ممكن لكل الصحابة من العوام وغيرهم ، وإنما الصعب المحتاج إلى الدعاء بأن يعيه الصدر ويستعد الأذهان لقبوله هو القوانين الكلية ، وكيفية انشعابها وتفصيلها وأسباب تلك الأمور المعدة لإدراكها حتى إذا استعدت النفس بها أمكن أن ينتقش بالصور الجزئية من مفيضها كما سبقت الإشارة إليه .

١٢٨ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

في ذكر المكائيل والموازين .

عِبَادَ الله ، إِنَّكُمْ وَمَا تَأْمُلُونَ فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا أَثْوِيَاءُ مُؤَجَّلُونَ ، وَمَدِينُونَ مُقْتَضَوْنَ ، أَجَلٌ مَنْقُوصٌ ، وَعَمَلٌ مَحْفُوظٌ ، فَرُبَّ دَائِبٍ مُضَيَّعٌ ، وَرُبَّ كَادِحٍ خَاسِرٌ . وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي زَمَنٍ لَا يَزْدَادُ الْخَيْرُ فِيهِ إِلَّا إِدْبَاراً ، وَالشَّرُّ فِيهِ إِلَّا إِقْبَالاً ، وَالشَّيْطَانُ فِي هَلَاكِ النَّاسِ إِلَّا طَمَعاً . فَهٰذَا أَوَانٌ قَوِيَتْ عُدَّتُهُ وَعَمَّتْ مَكِيدَتُهُ ، وَأَمْكَنَتْ فَرِيسَتُهُ . اضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ : هَلْ تُبْصِرُ إِلَّا فَقِيراً يُكَابِدُ فَقْراً ، أَوْ غَنِيّاً بَدَّلَ نِعْمَةَ الله كُفْراً ، أَوْ بَخِيلاً اتَّخَذَ

الْبُخْلَ بِحَقِّ اللهِ وَفْراً ، أَوْ مُتَمَرِّداً كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَنْ سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقْراً ؟ أَيْنَ خِيَارُكُمْ وَصُلَحَاؤُكُمْ ؟ وَأَحْرَارُكُمْ وَسُمَحَاؤُكُمْ ؟ وَأَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ فِي مَكَاسِبِهِمْ؟ والْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ ؟ أَلَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا جَمِيعاً عَنْ هٰذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ وَالْعَاجِلَةِ الْمُنَغِّصَةِ ؟ وَهَلْ خُلِقْتُمْ إِلَّا فِي حُثَالَةٍ ، لَا تَلْتَقِي بِذَمِّهِمُ الشَّفَتَانِ اسْتِصْغَاراً لِقَدْرِهِمْ ، وَذَهَاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ ، فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ : ظَهَرَ الْفَسَادُ فَلَا مُنْكِرٌ مُتَغَيِّرٌ ، وَلَا زَاجِرٌ مُزْدَجِرٌ ! أَفَبِهٰذَا تُرِيدُونَ أَنْ تُجَاوِرُوا اللهَ فِي دَارِ قُدْسِهِ ؟ وَتَكُونُوا أَعَزَّ أَوْلِيَائِهِ عِنْدَهُ ؟! هَيْهَاتَ ! لَا يُخْدَعُ اللهُ عَنْ جَنَّتِهِ وَلَا تُنَالُ مَرْضَاتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ , لَعَنَ اللهُ الآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ التَّارِكِينَ لَهُ ، وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْعَامِلِينَ بِهِ .

أقول : أثوياء : جمع ثوى على فعيل وهو الضيف . والدائب : المجد في العمل . والكدح : العمل . والوقر : الصمم . والحثالة : الثفل ، وكأنه الرديء من كل شيء .

وقد نفر عليه السلام عن الدنيا بذكر عدّة من معايبها :

أحدها : كونهم فيها ضيفاناً ، واستعار لهم لفظ الضيف وكذلك لما يأملون منها ووجه الاستعارة مشابهتهم للضيف في تأجيل الإقامة وانقطاع وقته وقرب رحيله ، ومؤجلون ترشيح للاستعارة.

الثانية : كونهم مدينون فيها ، واستعار لفظ المدين باعتبار وجوب الفرائض المطلوبة منهم وعهد الله المأخوذ عليهم أن يرجعوا إليه طاهرين عن نجس الملحدين ، ورشّح بذكر المقتضين لما أن شأن المدين أن يقتضي فيه الدين . ثم لما ذكر كونهم مؤجلين ومدينين كرّر ذكر الأجل بوصف النقصان ، ولا شك في نقصان ما لا يبقى ، وذكر العمل الذي خالصه وصالحه هو الدين المقتضى منهم بوصف كونهم محفوظاً عليهم ليجذب بنقصان الأجل إلى العمل ، وبحفظ العمل إلى إصلاحه والإخلاص فيه . وأجل وعمل : خبران حذف مبتدائهما ، أي أجلكم أجل منقوص ، وعملكم عمل محفوظ . ونبّه بقوله : فرب دائب مضيع ، ورب كادح خاسر : أن

العمل وإن قصد فيه الصلاح أيضاً إلاّ أنه قد يقع على وجه الغلط فيحصل بذلك انحراف عن الدين وضلال عن الحق فيضيّع العمل ويخسر الكدح كدأب الخوارج ونحوهم فربما دخل الكادح في قوله تعالى : ﴿ **هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً** ﴾[1] وذلك ككدح أهل الكتاب ونحوهم .

وقوله : وقد أصبحتم : إلى قوله : إقبالاً .

شكاية للزمان وذمّ له ، وهو كقوله : إنّا قد أصبحنا في زمن كنود ، ودهر عنود . وذلك لأخذ الزمان في البعد عن وقت ظهور الشريعة وطراوتها وجرأة الناس على هتك الدين وارتكاب مناهي الله ، وكذلك طمع الشيطان في هلاكهم : أي في هلاك دينهم الذي يكون غايته هلاكهم في الآخرة ، وأشار إلى أن ذلك الوقت هو أوان قوة عدته وعموم مكيدته وإمكان عمله فما ظنك بزماننا هذا وما بعده ، واستعار لفظ الفريسة لمطاوعي الشيطان والمنفعلين عنه ، ووجه الاستعارة بلوغه منهم مراده وتصريفه لهم لغاية هلاكهم كالأسد مع فريسته .

وقوله : اضرب بطرفك . إلى قوله : وقراً .

شرح لما أجمله أولاً من ازدياد إقبال الشر وإدبار الخير ، وكفر الغنى تركه وإعراضه عن شكر نعم الله سبحانه عليه .

وقوله : بحق الله متعلق بالبخل .

أي : أن البخيل يقصد ببخله بحق الله على مستحقه توفير المال والزيادة فيه .

وقوله : أين خياركم : إلى قوله : مذاهبهم .

سؤال من باب تجاهل العارف تنبيهاً لهم على ما صاروا إليه من الفناء وفراق الدنيا ، وعلى أنه لم يبق فيهم من أُولي الأعمال الصالحة أحد لعلهم يرجعون إلى لزوم الأعمال الصالحة ، وأراد بالأحرار الكرماء ، والمتورّعون

---

(١) ١٨ - ١٠٤ .

في مكاسبهم الملازمون للأعمال الجميلة فيها من التقوى والمسالمة وإخراج حقوق الله تعالى ، والمتنزّهون في مذاهبهم الممتنعون عن ولوج أبواب المحارم والشبهات . في مسالكهم وحركاتهم .

وقوله : أليس . إلى قوله : المنغصة .

سؤال على سبيل التقرير لما نبّههم عليه من فراق الدنيا ودناءتها بالنسبة إلى عظيم ثواب الآخرة وتنغيصها بالآلام ونحوها حتى قال بعض الحكماء : إنّ كل لذة في الدنيا فإنما هي خلاص من ألم .

وقوله : وهل خلقتم . إلى قوله : عن ذكرهم .

سؤال على سبيل التقرير لما ذكر أيضاً ، واستعار لفظ الحثالة لرعاع الناس وهمجهم .

وقوله : لا تلتقي بذمهم الشفتان .

أي إنهم أحقر من أن يشتغل الإنسان بذمّهم . وانتصب استصغاراً وذهاباً على المفعول له ، وحسن اقتباس القرآن هيهنا لما أن هذه الحال التي الناس عليها من فقد خيارهم وبقاء شرارهم مصيبة لحقتهم ، ومن آداب الله للصابرين على نزول المصائب أن يسلموا أنفسهم وأحوالهم إليه فيقولوا عندها : إنّا لله وإنّا إليه راجعون كما قال سبحانه : ﴿ **وبشّر الصابرين** ﴾ الآية . ثم حكم على سبيل التوجه والأسف بظهور الفساد وبنفي المنكر المغيّر للفساد المزدجر عنه تنبيهاً لهم على أنهم وإن كان فيهم من ينكر ويزجر إلاّ أنه لا يغيّر ما ينكره ولا يزدجر عن مثله ، وذلك من قبائح الأعمال والرياء فيها .

وقوله : أفبهذا .

أي بأعمالكم هذه المدخولة وبتقصيركم . ومجاورة الله : الوصول إليه والمقام معه في جنته التي هي مقام الطهارة عن نجاسات الهيئات البدنية ومقام تنزيه ذات الله تعالى وطهارتها عن اتخاذ الشركاء والأنداد ، وهو استفهام على سبيل الإنكار ولذلك عقبه بقوله : هيهات . إلى آخره .

ولما كان ذلك يجري مجرى الزهد الظاهر مع النفاق في الباطن أعني

أعمالهم المدخولة من إنكار المنكر وارتكابهم نبّههم على أن فعلهم كخداع الله عن جنّته ، وصرّح بأن الله لا يخدع لعلمه بالسرائر وأنّه لا تنال مرضاته إلاّ بطاعته : أي الطاعة الحقيقية الخالصة دون الظاهرة . ثم ختم بلعن الآمرين بالمعروف مع تركهم للعمل به ، والناهين عن المنكر المرتكبين له لأنهم منافقون مغرون بذلك لمن يقتدي بهم والنفاق مستلزم اللعن والبعد عن رحمة الله . وبالله التوفيق .

١٢٩ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

لأبي ذر رحمه الله لما أُخرج إلى الربذة :

يَا أَبَا ذَرٍّ ، إِنَّكَ غَضِبْتَ لله فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ . إِنَّ الْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَى دُنْيَاهُمْ ، وَخِفْتَهُمْ عَلَى دِينِكَ ، فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ ، وَاهْرُبْ بِمَا خِفْتَهُمْ عَلَيْهِ ، فَمَا أَحْوَجَهُمْ إلى مَا مَنَعْتَهُمْ ، وَمَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ ! وَسَتَعْلَمُ مَنِ الرَّابِحُ غَدا ، وَالأَكْثَرُ حُسَّداً ؟؟! وَلَوْ أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا عَلَى عَبْدٍ رَتْقاً ثُمَّ اتَّقَى الله لَجَعَلَ الله لَهُ مِنْهُمَا مَخْرَجاً ، لاَ يُؤْنِسَنَّكَ إلاَّ الْحَقُّ وَلاَ يُوحِشَنَّكَ إلاَّ الْبَاطِلُ ، فَلَوْ قَبِلْتَ دُنْيَاهُمْ لأَحَبُّوكَ ، وَلَوْ قَرَضْتَ مِنْهَا لأَمِنُوكَ .

أقول : أبو ذرّ : اسمه جندب بن جنادة ، وهو من بني غفار قبيلة من كنانة ، وأسلم بمكة ولم يشهد بدراً ولا الخندق لأنه حين أسلم رجع إلى بلاد قومه فأقام حتى مضت [قامت خ] هذه المشاهد . ثم قدم المدينة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان يتولى علياً وأهل بيته ، وهو الذي قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في حقه : ما أقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر ، وروى ابن المعمّر عنه قال : رأيت أبا ذرّ آخذاً بحلقة باب الكعبة وهو يقول : أنا أبو ذرّ الغفاري فمن لم يعرفني فأنا جندب صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلّف عنها غرق .

وكان قد أخرجه عثمان إلى الربذة ، وهي موضع قريب إلى المدينة . واختلف في سبب إخراجه فروي عن زيد بن وهب أنه قال : قلت لأبي ذر ـ رحمة الله عليه ـ وهو بالربذة : ما أنزلك هذا المنزل ؟ قال : أُخبرك أني كنت

بالشام في أيام معاوية فذكرت قوله تعالى : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله** ﴾[1] الآية فقال معاوية هذه نزلت في أهل الكتاب. قلت : بل فينا وفيهم . فكتب معاوية إلى عثمان يشكو مني في ذلك فكتب إليّ أن أقدم عليّ فقدمت عليه فانثال الناس عليّ كأنهم لم يعرفوني فشكوت ذلك إلى عثمان فخيّرني فقال : إنزل حيث شئت فنزلت الربذة . وهذا قول من نزّه عثمان عن ظلم أبي ذر ونفيه . إذ كان خروجه إلى الربذة باختياره ، وقيل : بل كان يغلّظ القول في إنكار ما يراه منكراً وفي حق عثمان ، ويقول : لم تبق أصحاب محمد على ما عهد . وينفّر بهذا القول وأمثاله عنه . فأخرجه لذلك ، وخطابه عليه السلام لأبي ذرّ أليق بالقول الثاني .

فقوله : إنّك غضبت لله .

شهادة له أن إنكاره لما ينكره إنما يقصد به وجه الله تعالى .

وقوله : إنّ القوم خافوك على دنياهم .

أي على أمر الخلافة بالتنفير عنهم ، وخفتهم على دينك باجتناب موافقتهم وأخذ عطائهم على غير السنّة .

وقوله : فاترك . إلى قوله : منعوك .

أي أترك لهم دنياهم وانج بدينك فما أحوجهم إلى دينك وأغناك عن دنياهم .

وقوله : ستعلم من الرابح غداً والأكثر حسّداً .

أشار به إلى يوم القيامة ، وظاهر كون تارك الدنيا أربح من المقبل عليها . وأكثرية الحسد من لواحق أكثرية الربح .

وقوله : ولو أن السماوات . إلى قوله : مخرجاً .

بشارة له بخلاصه مما هو فيه من ضيق الحال بسبب الإخراج ، وشرط في ذلك تقوى الله إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ **ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً** ﴾[2] قال ابن عبّاس قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن يتّق الله يجعل له

---

(1) ٩ - ٣٤ .

(2) ٦٥ - ٢ .

مخرجاً ، قال : من شبهات الدنيا ، ومن غمرات الموت وشدائد يوم القيامة . وظاهر كون التقوى عند استشعارها سبباً قاطعاً لطمع المتقي من الدنيا وقيناتها ، وهو مستلزم لراجيه من مجاذبة النفس الأمارة بالسوء عن الوقوع في شبهات الدنيا ، وهي في استلزام الخلاص من غمرات الموت وشدائد يوم القيامة أظهر ، وكنّى عليه السلام بالغاية المذكورة وهي رتق السماوات والأرض على العبد عن غاية الشدة مبالغة ليتبيّن فضل التقوى ، ثم أمره بالاستئناس بالحق وحده ، والاستيحاش من الباطل وحده . وأكد الحصر في الموضعين بقوله : وحده . تنفيراً عن أن يستوحش من حق ما فيترك وينفر عنه وإن صعب وشق على النفس ، أو يستأنس بباطلٍ ما فيفعل أو يسكت عليه وإن لذّلها . ونبّه على علّة بغضهم وإخافتهم له وهو عدم مشاركتهم في دنياهم والانفراد بالإنكار وغلظة القول عليهم ، وكنّى بالقرض من الدنيا عن الأخذ . وبالله التوفيق .

١٣٠ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

أَيَّتُهَا النُّفُوسُ الْمُخْتَلِفَةُ ، وَالْقُلُوبُ الْمُتَشَتِّتَةُ ، الشَّاهِدَةُ أَبْدَانُهُمْ ، وَالْغَائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ! أَظْأَرُكُمْ عَلَى الْحَقِّ ، وَأَنْتُمْ تَنْفِرُونَ عَنْهُ نُفُورَ الْمِعْزَى مِنْ وَعْوَعَةِ الأَسَدِ ! هَيْهَاتَ أَنْ أَطْلَعَ بِكُمْ سَرَارَ الْعَدْلِ ، أَوْ أُقِيمَ اعْوِجَاجَ الْحَقِّ .

اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ ، وَلاَ الْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ ، وَلكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ ، وَنُظْهِرَ الإِصْلاَحَ فِي بِلاَدِكَ ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ ، وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ وَسَمِعَ وَأَجَابَ : لَمْ يَسْبِقْنِي إِلاَّ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، بِالصَّلاَةِ .

وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَى الْفُرُوجِ ، وَالدِّمَاءِ ، وَالْمَغَانِمِ وَالأَحْكَامِ ، وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ : فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ ،

وَلاَ الْجَاهِلِ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ ، وَلاَ الْجَافِي فَيَقْطَعَهُمْ بِجَفَائِهِ ، وَلاَ الْخَائِفُ لِلدُّوَلِ ، فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُونَ قَوْمٍ ، وَلاَ الْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ ، وَيَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقَاطِعِ ، وَلاَ الْمُعَطِّلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الأُمَّةَ .

أقول : أظأركم : أعطفكم . ووعوعة الأسد : صوته . وسرار العدل : ما خفي منه ، والنهمة : الحرص على الدنيا .

وقد أيّه بالنفوس بصفة الاختلاف : أي اختلاف الأهواء والقلوب المتشتتة : أي المتفرقة عن مصالحها وما خلقت لأجله . وأراد بغيبة عقولهم ذهولها عن رشدها ، وإصابة وجه الحق بانصرافها عن دعائه إلى ما ينبغي ، وشبّه نفارهم بنفور المعزى من صوت الأسد ، ووجه التشبيه شدة نفارهم عن الحق ، ثم استبعد إظهاره للعدل وإقامة الدين بمثلهم على ما هم عليه من قلّة طاعته . ثم عقّب ذلك باستشهاد الله سبحانه على أن قصده بمنافسته في أمر الخلافة لم يكن في سلطان ولا لفضل حطام دنيوي ، ولكن للغاية التي ذكرها من ردّ معالم الدين وهي الآثار التي يهتدى بها وكذا سائر ما عدّده من المصالح . ثم تلا ذلك الاستشهاد باستشهاده على أنه أول من أناب . أي رجع إلى الله تعالى عما لعله كان يعدّ في حقه ذنباً ، وسمع : أي أطاع الله وأجاب : أي داعي الله . ثم استثنى سبق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى الدين بالصلاة وذلك أمر معلوم من حاله ، وإنما يقول خصمه : إنّه حين تبع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان طفلاً لا اعتداد بإسلامه .

وسنذكر ذلك في موضعه من الخطبة المسماة بالقاصعة ، وغرضه من هذا الاستشهاد مع ما بعده من الإشارة إلى الرذائل التي ينبغي أن يكون الإمام منزّهاً عنها تقرير فضيلته ، ونبّه على أن فيه من الفضائل ما يقابل تلك الرذائل بتعديدها ونفيها عن الإمام الوالي لأمور المسلمين ، والإشارة إلى وجوه المقاصد اللازمة عنها ، وتذكيرهم بما علموه من ذلك بقوله : وقد علمتم . إلى آخره .

أما البخيل فلشدّة حرصه على ما في أيدي الناس من الرعية وقد عرفت ما يستلزمه من نفارهم عنه وعدم انتظام الأحوال به ، وأما الجاهل فلأنه لجهله بقوانين الدين وتدبير أمور العالم ضالّ وضلاله يستلزم ضلال من اقتدى

بـه ، وذلك ضـد مقصود الشـارع ، وأما الجـافي فـلأنّ جفـاءه يستلزم النفـرة والانقطاع عنه، وذلك ضد الألفة والاجتماع المطلوب للشارع ، وأما الخائف من الدول فيخصّص بعنايته من يخافه دون غيره، وذلـك ظلم لا ينتظم معـه نظام العالم ، وأما المرتشي في الحكم فلظلمه وذهابه بالحقوق والوقـوف فيها على الحيف دون المقاطع الحقة . فترى أحد هؤلاء إذا أراد فصل قضية دافع بها طويـلاً وصعّب الحق وعرّض بغمـوضه وأشـار بالصلح بين الخصمين مـع ظهور الحق لأحدهما وكانت غايته من ذلـك تخويف صـاحب الحق من فواتـه ليجنح إلى الإصلاح [الصلح . خ] والرضى ببعض حقه مع أنه قـد يأخـذ منه رشوة أيضاً ، وربما كانت في المقدار كرشـوة المبطل منهمـا . ولهم في ذلك حيل يعرفها من عاناهم . والله المستعان على ما يصفون ، وأما المعطل للسنّة فلتضييعه قوانين الشريعة وإهمالها المستلزم لفسـاد النظام في الـدنيا والهـلاك الدائم في الأخرى . وبالله التوفيق .

١٣١ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

نَحْمَـدُهُ عَلَى مَا أَخَـذَ وَأَعْـطَى ، وَعَلَى مَـا أَبْلَى وَٱبْتَلَى ، الْبَـاطِنُ لِكُـلِّ خَفِيَّةٍ ، وَالْحَاضِرُ لِكُلِّ سَرِيرَةٍ ، الْعَالِمُ بِمَا تُكِنُّ الصُّدُورُ ، وَمَا تَخُونُ الْعُيُونُ ، وَنَشْهَـدُ أَنْ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُهُ وَبَعِيثُهُ ، شَهَـادَةً يُوَافِقُ فِيهَـا السِّـرُّ الإِعْلَانَ وَالْقَلْبُ اللِّسَانَ .

أقول : الضمير في قوله : نحمـده . يعود إلى اسم الله في كـلام سابق لم يذكر ، وقد علم شكر الله تعـالى على أخذه وإعـطائه وعلى إبـلائه بـالخير وابتلائه بالشر ، ونبـه بذلـك على وجوب شكـر الله تعالى في طـوارىء السراء والضراء وحالتي الشدة والرخاء ، فأما وصفه له بالباطن والحاضر والعالم فقـد سبق شـرحه غيـر مرة ومصـداق الوصفين الأولين قـوله تعـالى : ﴿ **يعلم السر وأخفى** ﴾[(١)]، ومصـداق الأخيرين قـوله تعـالى : ﴿ **يعلم خـائنـة الأعين ومـا تخفي الصـدور** ﴾[(٢)]. وكذلـك سبقت الإشارة إلى سـر الشهـادتين . ونجيبـه

(١) ٢٠ ـ ٦.
(٢) ٤٠ ـ ٢٠ .

وبعيثه : منتجبه ومبعوثه . فعيل بمعنى مفعول .

وقوله : شهادة يوافق فيها . إلى آخره .

أي شهادة خالصة من النفاق والرياء . وبالله التوفيق .

منه : فَإِنَّهُ وَالله الْجِدُّ لاَ اللَّعِبُ ، وَالْحَقُّ لاَ الْكَذِبُ ، وَمَا هُوَ إِلاَّ الْمَوْتُ قَدْ أَسْمَعَ دَاعِيهِ ، وَأَعْجَلَ حَادِيهِ ، فَلاَ يَغُرَّنَّكَ سَوَادُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ فَقَدْ رَأَيْتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِمَّنْ جَمَعَ الْمَالَ ، وَحَذِرَ الإقْلاَلَ ، وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ ؛ طُولَ أَمَلٍ ، وَاسْتِبْعَادَ أَجَلٍ ، كَيْفَ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ فَأَزْعَجَهُ عَنْ وَطَنِهِ ، وَأَخَذَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ وَمَحْمُولاً عَلَى أَعْوَادِ الْمَنَايَا ، يَتَعَاطَى بِهِ الرِّجَالُ الرِّجَالَ حَمْلاً عَلَى الْمَنَاكِبِ ، وَإِمْسَاكاً بِالأَنَامِلِ ، أَمَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يُؤَمِّلُونَ بَعِيداً ، وَيَبْنُونَ مَشِيداً ، وَيَجْمَعُونَ كَثِيراً ، كَيْفَ أَصْبَحَتْ بُيُوتُهُمْ قُبُوراً ، وَمَا جَمَعُوا بُوراً ، وَصَارَتْ أَمْوَالُهُمْ لِلْوَارِثِينَ ، وَأَزْوَاجُهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ ، لاَ فِي حَسَنَةٍ يَزِيدُونَ ، وَلاَ مِنْ سَيِّئَةٍ يَسْتَعْتِبُونَ ؟! فَمَنْ أَشْعَرَ التَّقْوَى قَلْبَهُ بَرَّزَ مَهَلُهُ ، وَفَازَ عَمَلُهُ ، فَاهْتَبِلُوا هَبَلَهَا ، وَاعْمَلُوا لِلْجَنَّةِ عَمَلَهَا ، فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُخْلَقْ لَكُمْ دَارَ مُقَامٍ ، بَلْ خُلِقَتْ لَكُمْ مَجَازاً لِتَزَوَّدُوا مِنْهَا الأَعْمَالَ إِلى دَارِ الْقَرَارِ ، فَكُونُوا مِنْهَا عَلَى أَوْفَازٍ ، وَقَرِّبُوا الظُّهُورَ لِلزِّيَالِ .

أقول : المشيد : المعلى . والاهتبال في الأمر : السعي في إحكامه ، وهبلها مصدر مضاف إلى ضمير التقوى مؤكد للفعل : أي احكموها إحكاماً . والأوفاز : جمع وفزة وهي العجلة ، والضمير في قوله : فإنه . إما أن يرجع إلى مذكور سابق أو إلى معنى كلامه وهو التحذير والإنذار ، وكذلك الذي في قوله : وما هو إلاّ الموت . يحتمل أن يعود إلى ملفوظ به سابق ، ويحتمل أن يعود إلى المعنى بالتحذير منه والإنذار به : أي وما الذي أحذّركم هجومه عليكم إلاّ الموت ، وأسمع وأعجل محلّهما النصب على الحال من معنى الإشارة .

وقوله: فلا يغرّنك إلى قوله : وأمن العواقب .

أي فلا يغرّنك من نفسك الأمّارة بالسوء ، وسوستها واستغفالها لك عن

ملاحظة الموت برؤية سواد الناس : أي كثرتهم . إذ كثيراً ما يرى الإنسان الميت محمولاً فيتداركه من ذلك رقة وروعة . ثم يعاوده الوسواس الخنّاس ويأمره باعتبار كثرة المشيّعين له من الناس وأن يجعل نفسه من الأحياء الكثيرين بملاحظة شبابه وصحته ويأمره باعتبار أسباب موت ذلك الميت من القتل وسائر الأمراض وباعتبار زوال تلك الأسباب في حق نفسه ، وبالجملة فيبعد في اعتباره الموت بكل حيلة . فنهى السامعين عن الانخداع للنفس بهذه الخديعة ، وأسند الغرور إلى سواد الناس لأنه مادته .

ثم نبههم بقوله : وقد رأيت . إلى قوله : يستعتبون ـ على كذب تلك الخديعة مشاهدة، والواو في قوله : وقد، واو الحال ، ومن في قوله : من جمع . بدل البعض من الكل من قوله : من كان قبلك . والمعنى أنّه كما نزل بأولئك الموت وأزعجهم عن أوطانهم فكذلك أنتم .

وقوله : طول أمل . نصب على المفعول له .

أي فعلوا ذلك لأجل طول الأمل ، ويحتمل أن يكون مصدراً سدّ مسدّ الحال ، ويحتمل أن يكون ظرفاً والعامل أمن ، وقيل : هو بدل من قوله : من كان قبلك : أي رأيت طول أمل من كان قبلك ، ويروى بطول أمل . وأعواد المنايا : النعوش ، ويتعاطى به الرجال الرجال : أي يسلّمه الحاملون له بعضهم إلى بعض ، والخطاب بالكاف لنوع المخاطب أو لشخص على طريقة قولهم : إيّاك أعني واسمعي يا جارة .

وقوله : أما رأيتم ؟.

استفهام على سبيل التقرير ، وإنما كانوا لا يستطيعون زيادة في حسنة ولا استعتاباً من سيئة لأن محل الأعمال هي الدنيا دون ما بعدها .

وقوله : فمن أشعر التقوى قلبه .

أي من اتقى تقوى حقيقة برزت تؤدته : أي ظهرت عليه آثار الرحمة الإلهية في السكينة والوقار والحلم والأناة عن التسرع إلى مطالب الدنيا ، وعلمت راحته في الآخرة ، وفاز عمله فيها بالجزاء الأوفى . ثم أمرهم بإحكام التقوى : أي أن تتقوا الله تقوى حقيقية فإنّها التي يستحق بها الثواب

الـدائم ، وأن يعملوا للجنة عملهـا التي تستحق بـه . ثم نبّههم على وجـوب العمل للجنة بالتصريح بما لأجله خلقت الدنيا ، وأنهـا لم تخلق دار إقامـة بل طـريقاً يعبـر بها إلى الآخـرة كمـا يعبـر المسـافـرون ، ويتـزوّد منهـا الأعمـال الصالحة الموصلة إلى الجنة ، وأمـرهم أن يكونـوا فيها على سـرعة في قـطع عقباتها وعجل في الارتحال عنها لأن التأني فيهـا يستلزم الالتفات إلى لـذاتها والغفلة عن المقصد الحق ، واستعار لفظ الظهور وهي الركوب لمطايا الآخـرة وهي الأعمال الصالحة ، وتقريبها للزيال هو العنايـة الإلهية بـالأعمال المقـرّبة إلى الآخرة المستلزمة للبعد عن الدنيا والإعراض عنها ومفارقتها.

١٣٢ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

وَٱنْقَادَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَالآخِـرَةُ بِأَزِمَّتِهَـا ، وَقَذَفَتْ إِلَيْـهِ السَّمٰوَاتُ وَالأَرَضُـونَ مَقَالِيدَهَا ، وَسَجَدَتْ لَهُ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ الأَشْجَـارُ النَّاضِـرَةُ ، وَقَدَحَتْ لَـهُ مِنْ قُضْبَانِهَا النِّيرَانَ الْمُضِيئَةَ ، وَآتَتْ أُكُلَهَا بِكَلِمَاتِهِ الثِّمَارُ الْيَانِعَةُ .

أقـول : المقاليـد : المفـاتيـح جمـع مقلد بكسـر الميم . واليـانـع من الثمار : المدرك .

وهذا الفصل يشتمل على تمجيد الله سبحـانه وإظهـار عظمـة سلطانه . فانقياد الدنيا والآخرة له بأزمتها : دخولها ذلّ الإمكان والحاجة إليه .

وقوله : وقذفت إليه السماوات والأرضون مقاليدها .

كقـوله تعـالى : ﴿ **له مقـاليد السمـاوات والأرض** ﴾[1] قال ابن عبّاس ومقاتل : المراد بمفاتيح السماوات والأرض الـرزق والرحمـة ، وقال الليث : القـلاد : الخزانـة . ومقاليـد السمـاوات والأرض خـزائنهـما ، وأقـول : لفظ القـذف مجاز في تسليمهـا وانقيادهـا بزمـام الحاجـة والإمكان إلى قـدرته مـع جميع ما هي سبب في وجـوده في هذا العـالم مما هـو رزق ورحمة للخلق ، وكذلك لفظ المفاتيح على رأي ابن عباس استعارة لـلأسباب المعـدة للأرزاق والـرحمة ، وتلك الأسبـاب كحركـات السماوات واتصـالات بعض الكـواكب

(١) ٣٩ ـ ٦٣ .

ببعض وكاستعدادات الأرض للنبات وغيره ، ووجه الاستعارة أن هذه الأسباب بإعدادها المواد الأرضية تفتح بها خزائن الجود الإلهي كما تفتح الأبواب المحسوسة بمفاتيحها ، وكلها مسلّمة إلى حكمه وجريانها بمشيئته ، وعلى قول الليث فلفظ الخزائن استعارة في موادها واستعداداتها ، ووجه الاستعارة أن تلك المواد والاستعدادات تكون فيها بالقوة والفعل جميع المحدثات من الأرزاق وغيرها كما يكون في الخزائن ما يحتاج إليه . وسجود الأشجار الناضرة له بالغدو والآصال : خضوعها وذلّها تحت قدرته وحاجتها إلى جوده ، ونسب قدح النيران إليها لما أنها السبب المادي، وإن كان القدح حقيقة في فعال السبب الفاعلي القريب ، وجعل ذلك له تعالى لأنه الفاعل الأول .

وقوله : وآتت . إلى آخره .

فأراد بكلماته أوامره وأحكام قدرته المعبّر عنها بقوله : كنْ ، وإطلاق الكلمات عليها استعارة وجهها نفوذ تلك الأحكام في المحكومات كنفوذ الأوامر القولية في المأمورات ، وأراد بإتيان الثمار دخولها طوعاً في الوجود المعبّر عنه بقوله تعالى : ﴿ فيكون ﴾ . وبالله التوفيق والعصمة .

منها : وَكِتَابُ الله بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ نَاطِقٌ لَا يَعْيَى لِسَانُهُ ، وَبَيْتٌ لَا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ ، وَعِزٌّ لَا تُهْزَمُ أَعْوَانُهُ .

أقول : هذا الفصل كأنه في معرض التوبيخ على ترك أوامر الله ومخالفة أحكامه ، ويشبه أن يكون الواو للحال كأنه يقول : تفعلون كذا وكتاب الله بين أظهركم ناطق ، وكونه بين أظهرهم كناية عن وجوده بينهم مع أن من شأنه أن يستند إليه ، واستعار لفظ الناطق للكتاب باعتبار أن المكتوب يعبّر عن المقصود كما أن الناطق كذلك ، ولفظ اللسان وأنه لا يعيا ترشيح للاستعارة كنى بها عن بيان الكتاب على مرور الأوقات ، ويحتمل أن يريد باللسان نفسه عليه السلام مجازاً . إذ كان هو لسان الكتاب الذي لا يفتر ولا يقصر عن بيان مقاصده ، وكذلك استعار لفظ البيت باعتبار كونه حافظاً لحافظيه والعاملين به كما يحفظ البيت أهله ، وأركانه : قواعده الكلية التي يبنى عليها نظام العالم من الأوامر والنواهي والمواعظ والحكم ، وتلك القواعد لا تكاد تنهدم في وقت من الأوقات . إذ الحكم الكلية صالحة لجميع الأوقات ، وكونه عزاً

مجاز إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه . إذ كان حفظه والعمل به مستلزماً للعز الدائم الذي لا يعرض له ذلّ ، وأعوانه هم الله وملائكته ورسله وأولياؤه . وأولئك أعوان لا خوف عليهم ولا انهزام لجمعيتهم من أمر . وبالله التوفيق .

منها : أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ، وَتَنَازُعٍ مِنَ الأَلْسُنِ ، فَقَفَّى بِهِ الرُّسُلَ ، وَخَتَمَ بِهِ الْوَحْيَ ، فَجَاهَدَ فِي اللهِ الْمُدْبِرِينَ عَنْهُ ، وَالْعَادِلِينَ بِهِ .

أقول : قفّى به : اتبع به من قبله . وغرض الفصل الثناء على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

فقوله : أرسله . إلى قوله : الألسن .

بيان لبعض أمارات النبوة فإن منها الزمان المتطاول الذي تندرس فيه الشريعة السابقة والقوانين التي بها نظام العالم ويحتاج الخلق إلى قوانين مجدّدة لنظام أحوالهم . وحينئذ تجب بعثة رسول . وكانت الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام ستّمائة وعشرين سنة ، ومنها تنازع الألسن واختلاف الخلق في الآراء والمذاهب وقلّة الاتفاق على قانون شرعي جامع لهم .

فقوله : فقفّى به الرسل .

كقوله تعالى : ﴿ **وقفّينا من بعده الرسل** ﴾[1].

وقوله : وختم به الوحي .

كقوله : ﴿ **وخاتم النبيين** ﴾ وهذا الختام مستفاد من الشريعة وليس للعقل في الحكم بانقطاع الرسل فيما بعد مجال بل ذلك من الأمور الممكنة عنده . والمدبرون عن الله : المعرضون عن اتباع أوامره ونواهيه . والعادلون به : الجاعلون له عديلاً وهو النِّدّ والمثل كالمشركين ـ تعالى عما يقولون علواً

---

(١) ٢ ـ ٨١.

كبيراً ـ ونسبة المجاهدة إلى الله تعالى استعارة ، ووجهها أنه تعالى رمى بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم المشركين كما يرمي المجاهد بنفسه وأعوانه مجاهديه . وبالله التوفيق .

منها : وَإِنَّمَا الدُّنْيَا مُنْتَهَى بَصَرِ الأَعْمَى ، لاَ يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئاً ، وَالْبَصِيرُ يُنْفِذُهَا بَصَرَهُ وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا ، فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ ، وَالأَعْمَى إِلَيْهَا شَاخِصٌ ، وَالْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ ، وَالأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ .

أقول : الشاخص : الذاهل والمسافر ، والشاخص أيضاً الذي يرفع بصره إلى الشيء ويمدّه إليه .

وهذا الفصل مع قلّة ألفاظه يشتمل على لطائف :

فالأولى : أن الدنيا منتهى بصر الأعمى شيئاً . واستعار لفظ الأعمى للجاهل كقوله تعالى : ﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾(1). ووجه الاستعارة أن الجاهل لا يدرك بعين بصيرته الحق كما لا يدرك الأعمى من المبصرات ، وأشار بقوله : لا يبصر من ورائها شيئاً إلى جهله بأحوال الموت وما بعده من سعادة الآخرة وشقاوتها .

فإن قلت : إنّه أثبت للأعمى العمى ، وأثبت أنه يبصر الدنيا وذلك نوع مناقضة .

قلت : إنه لما أراد بالأعمى أعمى البصيرة وهو الجاهل استعارة لم يكن في إثبات البصر الحسي له ونظر الدنيا به مناقضة ، ويحتمل أن يريد ببصره أيضاً بصر بصيرته استعارة ، وظاهر أن منتهى بصر بصيرة الجاهل التصرف في أحوال الدنيا وكيفية تحصيلها والتمتّع بها دون أن يفيده عبرة لما وراءها من أحوال الآخرة .

---

(1) ٢٢ ـ ٤٦ .

الثانية : قوله : والبصير ينفذها بصره . استعار لفظ البصير للعالم ، ونفوذ بصره كناية عن إدراكه ما وراء الدنيا من أحوال الآخرة وعلمه أنها دار القرار .

الثالثة : قوله : فالبصير منها شاخص : أي راحل مسافر قد جعلها طريقاً له إلى الآخرة ، والأعمى إليها شاخص : أي متطلع إليها بعين بصيرته ووهمه وإن كان أعمى عن مصالحه الحقيقية وعن آفاتها وطرقها المخوفة ، وفي هذه الكلمة مع التي قبلها من أقسام البديع التجنيس التام والمطابقة بين الأعمى والبصير .

الرابعة : قوله : والبصير منها متزوّد : أي بالتقوى والأعمال الصالحة في سفره إلى الله تعالى ، والأعمى لها متزوّد : أي متّخذ للذاتها وقيناتها زاداً له في قطعها مدة عمره قد جعل ذلك هو الزاد الحقيقي والكمال الذي ينبغي له وهي في البديع كالتي قبلها . وبالله التوفيق .

منها : وَٱعْلَمُوا أَنْ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إلَّا وَيَكَادُ صَاحِبُهُ أَنْ يَشْبَعَ مِنْهُ وَيَمَلَّهُ ، إلَّا الْحَيَاةَ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ لَهُ فِي الْمَوْتِ رَاحَةً ، وَإِنَّمَا ذٰلِكَ بِمَنْزِلَةِ الْحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةٌ لِلْقَلْبِ الْمَيِّتِ ، وَبَصَرٌ لِلْعَيْنِ الْعَمْيَاءِ ، وَسَمْعٌ لِلْأُذُنِ الصَّمَّاءِ ، وَرِيٌّ لِلظَّمْآنِ ، وَفِيهَا الْغِنَى كُلُّهُ وَالسَّلَامَةُ : كِتَابُ الله تُبْصِرُونَ بِهِ ، وَتَنْطِقُونَ بِهِ ، وَتَسْمَعُونَ بِهِ ، وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَا يَخْتَلِفُ فِي الله ، وَلَا يُخَالِفُ بِصَاحِبِهِ عَنِ الله .

قَدِ ٱصْطَلَحْتُمْ عَلَى الْغِلِّ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَنَبَتَ الْمَرْعَى عَلَى دِمَنِكُمْ ، وَتَصَافَيْتُمْ عَلَى حُبِّ الآمَالِ ، وَتَعَادَيْتُمْ فِي كَسْبِ الْأَمْوَالِ ، لَقَدِ ٱسْتَهَامَ بِكُمُ الْخَبِيثُ وَتَاهَ بِكُمُ الْغَرُورُ ، وَالله الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ .

أقول : الدمن : ما تلبد من آثار الناس وما اسودّ وهو جمع دمنة : والغلّ : الغش والحقد .

وقد استثنى الحياة مما يشبع منه ويملّ ثم علل عدم ملال الحياة بفقدان الراحة في الموت . قال بعض الشارحين : إن فقدان الراحة في الموت مخصوص بأهل الشقاوة في الآخرة فأمّا أولياء الله وعباده الصالحون فلهم في الموت الراحة الكبرى كما أشار إليه سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم : ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله . وقال بعضهم : بل يحمل على العموم مراعاة لظاهر الكلام وذلك من وجهين :

أحدهما : أن بالموت يفوت متجر الآخرة وينقطع الاستعداد لكمال أشرف مما حصل عليه الميت وإن كان ولياً فلا جرم لا يجد الراحة التي تلحقه بما يفوته من ذلك الكمال .

الثاني : أن النفوس البشرية لما لم يكن معارفها ضرورية، ولم يتمكن ما دامت في هذه الأبدان من الاطلاع على ما بعد الموت من سعادة أو شقاوة فبالحري أن لا تجد لها راحة تتصورها في الموت . قال : وذلك لا ينافي الخبر : ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله .

أما على الوجه الأول : فلأن الراحة الحاصلة من الكمال الفائت بالموت لا تحصل له، وإن حصل على راحةٍ ما بحسب طاعته السابقة .

وأما على الثاني : فلأن المؤمن لا يجد له ما دام في الدنيا راحة في الموت وذلك لا ينافي أن تحصل له الراحة عند لقاء الله كما نقل أن الحسن عليه السلام لما آن سفره إلى الآخرة بكى فقال له أخوه الحسين عليه السلام : مالي أراك تكاد تجزع مع يقينك بأنك تقدم حيث تقدم على جدك وأبيك . فقال : نعم يا أخي لا شك في ذلك إلّا أنني سالك مسلكاً لا أسلكه من قبل . وأقول : إن كان مراده عليه السلام بقوله : لا يجد في الموت راحة : أي في نفس الموت مع قطع النظر عن غيره من أحوال الآخرة. فالحق قول من عمّم فقدان الراحة في حق الجميع . إذ الموت من حيث هو موت لا راحة فيه لأحد من الناس كافة ، وإن كان مراده فقدان الراحة في الموت وما بعده فالحق التخصيص بأهل الشقاوة الدائمة . فإن شدة محبة الحياة ونقصانها

متفاوتة بحسب تصوّرزيادة الراحة في الآخرة ونقصانها ، وذلك ظاهر عند اعتبار أهل الدنيا المقبلين عليها بالكلية ، وأهل الآخرة المقبلين عليها بالكلية ، ومن بينهم من طبقات السالكين .

وقوله : وإنّما ذلك .

أي الأمر الذي هو أحق بأن لا يملّ ولا يشبع منه بمنزلة الحكمة : أي ما كان بمنزلة الحكمة ، والحكمة في لسان الشريعة هي العلم النافع في الآخرة ، وقد يطلق على ما هو أعمّ من ذلك . ثم ذكر لها أوصافاً :

الأول : أنها حياة للقلب الميت ، وقد مرّ أن القلب في عرف العارفين هي النفس الإنسانية ، واستعار للحكمة لفظ الحياة ، ووجه المشابهة كون الحياة بها وجود القلب وبقاؤه كما أن الحكمة بها بقاء الإنسان وسعادته في الدارين ، وكذلك استعار لفظ الميت للقلب الجاهل باعتبار أنّه غير مطلع على وجوه مصالحه ومفاسده في الدارين غير مهتد لانتفاع أو دفع تضرر كالميت .

الثاني : استعار لفظ البصر للحكمة ، ووصف العمياء لعين الجاهل . ثم يجوز أن يكون لفظ العين أيضاً استعارة في بصيرة الجاهل ، ويجوز أن يكون المراد حقيقته ، ووجه الاستعارة الأولى : أن بالحكمة يبصر الإنسان مقاصده ويهتدي وجوه مصالحه الدنيوية والأخروية ، كما يهتدي البصير بعينه وجوه مسالكه ومقاصده ، ووجه الثانية : أن بصيرة الجاهل لا تهتدي لتلك الوجوه كما لا تهتدي العين العمياء إلى شيء ، ووجه الثالثة : أن بصر الجاهل تابع لبصيرته فإقدامه وإحجامه وتصرفاته المنسوبة إلى حسّ البصر وغيره تابعة لما يتصوّره، ولما كانت تلك التصرفات غير نافعة في الأكثر بل قد تكون ضارة لا جرم أشبهت عينه الباصرة التي وقع بها سوء ذلك التصرف العين العمياء فاستعير لها لفظها ، وكذلك استعار لفظ السمع ولفظ الصماء للأذن ، ووجه الاستعارات ما سبق فإن المراد بالسمع إدراك البصيرة . والأذن يحتمل أن يراد بها البصيرة استعارة ، أو الأذن المحسوسة ، وكذلك استعار

لفظ الري للحكمة ، ولفظ الظمآن للجاهل ، ووجه الأُولى : أن الحكمة تملأ النفس وتجدها شفاء لها من داء الجهل كما يملأ الماء جوف الظمآن وينقع غلّته ويشفي من ألم الظماء ، ووجه الثانية : أن الجاهل يلحقه ألم الجهل ويكون سبباً لموته في الآخرة كما يلحق الظمآن ألم الظماء .

الثالث : أن فيها الغنى كلّه والسلامة ، وأراد بالغنى غنى النفس عن كل شيء وكمالها بها فإن غاية الحكمة الوصول إلى الحق سبحانه والغرق في بحار معرفته وفي ذلك غنى العارفين عن كل شيء ، وأراد بالسلامة سلامة النفوس من عذاب الجهل . إذ ثبت في أُصول الحكمة أنه السبب الأكبر في الهلاك الأُخروي .

قوله : كتاب الله .

خبر مبتدأ : إما خبر ثان لذلك ، وما كان بمنزلة الحكمة خبر أول ، أو لمبتدأ محذوف تقديره وهو كتاب الله ، ويحتمل أن يكون عطف بيان لما كان بمنزلة الحكمة . وذكر له أوصافاً :

الأول : قوله : تبصرون به . إشارة إلى اشتمال الكتاب على الحكمة ، ووجه شبهه بها أن به إبصار الجاهلين لمقاصدهم الدنيوية والأُخروية لما فيه من الحكمة .

الثاني : وكذلك ينطقون به .

الثالث : ويسمعون به .

الرابع : قوله : ينطق بعضه ببعض . أي يفسر بعضه ببعض كالمبين المفسّر للمجمل ، والمقيّد المبيّن للمطلق ، والمخصص المبين للعام .

الخامس : ويشهد بعضه على بعض : أي يستشهد ببعضه على أن المراد ببعض آخر وهو قريب مما قبله .

السادس : قوله : ولا يختلف في الله . أي لما كان مدار الكتاب على

بيان القواعد الكلية التي بها يكون صلاح حال نوع الإنسان في معاشه ومعاده وكانت غاية ذلك الجذب إلى الله سبحانه والوصول إلى جواره لم يكن فيه لفظ يختلف في الدلالة على هذه المقاصد بل كله متطابق الألفاظ على مقصود واحد وهو الوصول إلى الحق ـ سبحانه ـ بصفة الطهارة عن نجاسات هذه الدار وإن تعددت الأسباب الموصلة إلى ذلك المقصود .

السابع : قوله : ولا يخالف بصاحبه عن الله . أي لا يجوز بالمهتدين بأنواره في سلوك سبيل الله عن الغاية الحقيقية وهو الله ـ سبحانه ـ .

وقوله : قد اصطلحتم . إلى آخره .

توبيخ للسامعين على ارتكاب رذائل الأخلاق ، واستعار لفظ الاصطلاح لسكوتهم عن إنكار بعضهم على بعض ما يصدر عنه من المنكر كالغش والحقد والحسد ، واشتراكهم في تلك الرذائل .

وقوله : ونبت المرعى على دمنكم .

يضرب مثلاً للمتصالحين في الظاهر مع غلّ القلوب فيما بينهم ، ووجه مطابقة المثل أنّ ذلك الصلح سريع الزوال لا أصل له كما يسرع جفاف النبات في الدمن .

وقوله : تصافيتم على حبّ الآمال .

إشارة إلى وجه الصلح الذي ذكره ولذلك أُسقط حرف العطف هنا .

وقوله : وتعاديتم في كسب الأموال .

إشارة إلى وجه الغلّ الذي أشار إليه :

أما الأول : فلأن الجامع للناس في الظاهر هو ما يؤمل كل من صاحبه من الانتفاع به أو دفع شره فيما هو بصدده من المأمولات الدنيوية وإن انطوى له على غلّ كما هو المتعارف في زماننا .

وأمّا الثاني : فلأن الأحقاد والعداوات أغلب ما تكون على مجاذبة أموال الدنيا وقيناتها .

وقوله : لقد استهام بكم الخبيث .

أي اشتد عشقه لكم ولازمكم ، وأراد بالخبيث إبليس ، وذلك تنبيه على ما يظهر منهم من آثار وسوسته وملازمتهم لما ينهون عنه ، وكذلك قوله : وتاه بكم الغرور : أي استغفلكم فتهتم في استغفاله لكم عن سواء سبيل الله ، والغرور هو الشيطان كما قال تعالى : ﴿ **ولا يغرّنّكم بالله الغرور** ﴾[1].
ثم ختم باستعانة الله تعالى له ولهم على النفوس الأمّارة بالسوء : أما في حقه عليه السلام ففي دوامها مقهورة لعقله ، وأما في حقّهم قهرها وقمعها . وبالله التوفيق .

١٣٣ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

وقد شاوره عمر بن الخطاب في الخروج إلى غزو الروم بنفسه :

وَقَدْ تَوَكَّلَ الله لأَهْلِ هٰذَا الدِّينِ بِإعْزَازِ الْحَوْزَةِ ، وَسَتْرِ الْعَوْرَةِ ، وَالَّذِي نَصَرَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لاَ يَنْتَصِرُونَ ، وَمَنَعَهُمْ وَهُمْ قَلِيلٌ لاَ يَمْتَنِعُونَ ؛ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ إنَّكَ مَتَى تَسِرْ إلى هٰذَا الْعَدُوِّ بِنَفْسِكَ فَتَلْقَهُمْ فَتُنْكَبْ لاَ تَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ كَانِفَةٌ دُونَ أَقْصَى بِلاَدِهِمْ ، لَيْسَ بَعْدَكَ مَرْجِعٌ يَرْجِعُونَ إلَيْهِ ، فَابْعَثْ إلَيْهِمْ رَجُلاً مِحْرَباً ، وَاحْفِزْ مَعَهُ أَهْلَ الْبَلاَءِ وَالنَّصِيحَةِ ، فَإنْ أَظْهَرَ الله فَذَاكَ مَا تُحِبُّ ، وَإنْ تَكُنِ الأُخْرَى كُنْتَ رِدْءاً لِلنَّاسِ ، وَمَثَابَةً لِلْمُسْلِمِينَ .

أقول : ذلك حين خرج قيصر الروم في جماهير أهلها إلى المسلمين ، وانزوى خالد بن الوليد فلازم بيته وصعب الأمر على أبي عبيدة بن الجراح . وشرحبيل بن حسنة وغيرهما من أمراء سرايا الإسلام .

وحوزة كل شيء : بيضته وجمعيته . وكنفه : حفظه وآواه . والمحرب بكسر الميم : الرجل صاحب حروب . وحفز كذا : أي دفعه. وحفزه ضمّه إلى غيره . وأظهر الله على فلان : نصر عليه . والردء : العون . والمثابة : المرجع .

وقوله : وقد توكل الله . إلى قوله : لا يموت .

---

(١) ٣١ ـ ٣٤ .

صدر لهذه النصيحة والرأي ، نبّه فيه على وجوه التوكل على الله والاستناد إليه في هذا الأمر ، وخلاصتها أنه ضمن إقامة هذا الدين وإعزاز حوزة أهله ، وكنّى بالعورة عن هتك الستر في النساء ، ويحتمل أن يكون استعارة لما يظهر عليهم من الذلّ والقهر لو أصيبوا فضمن سبحانه ستر ذلك بإفاضة النصر عليهم ، وهذا الحكم من قوله تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً** ﴾(1) .

وقوله : والذي نصرهم . إلى آخر الصدر .

احتجاج في هذه الخطابة يشبه أن يكون تمثيلاً ، وتلخيصه أن الذي نصرهم حال قلّتهم حي لا يموت فهو ينصرهم حال كثرتهم . فأصل التمثيل هو حال قلتهم وفرعه حال كثرتهم ، وحكمه النصر وعلة ذلك الحكم هو حياته الباقية التي لا يعاقبها موت .

وقوله : إنّك متى تسر . إلى آخره .

نفس الرأي وخلاصة المشورة بعدم خروجه بنفسه ، ووجه هذا الرأي تجويز النكبة وانقهاره عند ملاقاة العدو مع أنه يومئذ ظهر المسلمين الذين يلجؤون إليه . فلو انكسر لم تبق لهم كانفة قوام يحوطهم ، ولا جمع يستندون إليه . ثم بإخراج من يقوم مقامه من أهل النجدة ممن عرف بكثرة الوقائع والحروب فيكون على بصيرة في أمر الحرب ، وأن يضم إليه أهل البلاء : أي المختبرون في النصيحة والمجربون في الوقائع . ثم استنتج من هذا الرأي أنه إن نصر الله المسلمين فذاك الذي تحبّ ، وإن تكن الأخرى : أي الانكسار وعدم الانتصار كان للمسلمين ظهر يستندون إليه ومأمن يأوون إليه .

---

(1) ٢٤ ـ ٥٤ .

١٣٤ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

قد وقعت مشاجرة بينه وبين عثمان فقال المغيرة بن أخنس لعثمان : أنا أكفيكه . فقال أمير المؤمنين عليه السلام :

يَا ٱبْنَ اللَّعِينِ الأَبْتَرِ ، وَالشَّجَرَةِ الَّتِي لاَ أَصْلَ لَهَا ، وَلاَ فَرْعَ ، أَنْتَ تَكْفِينِي ! وَاللهِ مَا أَعَزَّ اللهُ مَنْ أَنْتَ نَاصِرُهُ ، وَلاَ قَامَ مَنْ أَنْتَ مُنْهِضُهُ ؛ أُخْرُجْ عَنَّا أَبْعَدَ اللهُ نَوَاكَ ، ثُمَّ ابْلُغْ جَهْدَكَ فَلاَ أَبْقَى اللهُ عَلَيْكَ إِنْ أَبْقَيْتَ .

أقول : هذه المشاجرة كانت في زمن ثوران الفتنة على عثمان في خلافته ، وكان الناس يستسفرونه عليه السلام إليه .

والأبتر : كل أمر انقطع من الخير أثره . والنوى: المقصد الذي ينويه المسافر من قرب أو بعد. والنوى : لغة في النأي : وهو البعد .

وقد ذمّ المغيرة بسقوط الأصل ، ولعنه ، واستعار لبيته لفظ الشجرة ، وكنّى بنفي أصلها وفرعها عن سقوط بيته ودناءته وحقارته في الناس . ثم استفهمه عما ادعى من الكفاية له استفهاماً على سبيل الإنكار والاستحقار له ، وأقسم أن الله لا يعزّ من هو ناصره ، وإنما يعزّ الله من نصره أولياء الله وأهل عنايته ، ومن لم يعزّ الله لم يقم من نهضته كقوله تعالى : **﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ﴾**(١). ثم دعا عليه بإبعاد الله مقصده .

وقوله : أبلغ جهدك .

أي في الأذى فلا أبقى الله عليك إن أبقيت ؛ أي لا رعاك ولا رحمك إن راعيتني . يقال : أبقيت على فلان إذا راعيته ورحمته .

١٣٥ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

لم تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَةً؛وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِداً: إِنِّي أُرِيدُكُمْ للهِ، وَأَنْتُمْ تُرِيدُونِي لأَنْفُسِكُمْ ! أَيُّهَا النَّاسُ ، أَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَأَيْمُ اللهِ

(١) ٣ ـ ١٥٤ .

لأنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ ، وَلأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ ، حَتَّى أُورِدَهُ مَنْهَلَ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهاً .

أقول : الفلتة : الأمر يقع بغير تدبر ولا روية . والخزامة : الحلقة من الشعر يجعل في أنف البعير .

ومفهوم قوله : لم تكن بيعتكم إيّاي فلتة . أنها لما كانت عن تدبر واجتماع رأي منكم لم يكن لأحدكم بعدها أن يخالف أو يندم عليها ، وفيه تعريض ببيعة أبي بكر حيث قال عمر فيها : كانت بيعة أبي بكر فلتةً وقى الله شرها .

وقوله : وليس أمري وأمركم واحداً .

إشارة إلى الاختلاف بين حركاته ومقاصدهم . ثم بيّن الفرق بقوله : إني أريدكم لله : أي إنما أريد طاعتكم لإقامة دين الله ، وإقامة حدوده ، وأنتم تريدونني لأنفسكم : أي لحظوظ أنفسكم من العطاء والتقريب وسائر منافع الدنيا . ثم لما وبّخهم بذلك أيّه بهم ، وطلب منهم الإعانة على أنفسهم : أي بالطاعة له وامتثال أوامره . فأقسم لينصفنّ المظلوم وليقودنّ الظالم بخزامته ، واستعار وصف القود في تذليل الظالم وإذعانه للحق ، ورشح بذكر الخزامة ، وكذلك استعار لفظ المنهل للحق . ووجه الاستعارة كونه مورداً يشفي به ألم المظلوم كما يشفي به ألم العطشان . وبالله التوفيق .

١٣٦ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

في معنى طلحة والزبير :

وَالله مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً ، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصَفاً ، وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ : فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنْهُ ؛ وَإِنْ كَانُوا وُلُّوهُ دُونِي فَمَا الطِّلْبَةُ إلَّا قِبَلَهُمْ . وَإِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لَلْحُكْمُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَإِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي ، مَا لَبَسْتُ وَلَا لُبِّسَ عَلَيَّ ، وَإِنَّهَا لَلْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ فِيهَا الْحَمَا وَالْحُمَةُ ، وَالشُّبْهَةُ الْمُغْدِفَةُ ، وَإِنَّ الأَمْرَ لَوَاضِحٌ وَقَدْ زَاحَ الْبَاطِلُ عَنْ نِصَابِهِ ، وَانْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ شَغْبِهِ ، وَايْمُ الله لأُفْرِطَنَّ لَهُمْ

حَوْضاً أَنَا مَاتِحُهُ : لَا يُصْدِرُونَ عَنْهُ بِرِيٍّ ، وَلَا يَعُبُّونَ بَعْدَهُ فِي حِسْيٍ .

أقول : النصف : النصفة . والطلبة بكسر اللام : المطلوب . والحمأ : الطين الأسود المنتن كما قال تعالى : ﴿ من حمأ مسنون ﴾(١) ويروى الحما بألف مقصورة . والحمة بضم الحاء وتخفيف الميم وفتحها : اسم العقرب . والمغدفة بالدال والفاء : المظلمة . يقال : أغدف الليل إذا اشتد ظلامه ، وروي : المغدفة بفتح الدال : الخفية . وأصله أن المرأة تغدف وجهها بالقناع . وزاح الباطل : انحرف . ونصابه : أصله ومقره . ولأفرطنّ : لأملأن . والشغب بالتسكين : المشاغبة وتهييج الشر . والماتح بنقطتين من فوق : المستقي ، وبنقطتين من تحت : الذي يملأ الدلو في البئر . والعب : الشرب . والحسي بكسر الحاء وسكون السين : الماء الذي يشربه الرمل فينتهي إلى أرض صلبة تحفظه ثم يحفر عنه فيستخرج .

واعلم أن قوله : والله . إلى قوله : ولا لُبس علي . قد تقدّم تفسيره في قوله : ألا وإن الشيطان قد ذمّر حزبه . وفي فصل قبله برواية أخرى فلا حاجة إلى إعادته . وأما قوله : وإنّها للفئة الباغية فيها الحمأ والحمة . فقال بعض الشارحين : في تعريف الفئة بالألف واللام تنبيه على أنه كان عنده علم من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه ستبغي عليه فئة من غير تعيين لها . فلما خرجت هذه الفئة علمها بأماراتها ، وقد سبق أيضاً تفسير الحمأ والحمة على بعض الروايات ، وأما على هذه الرواية فاستعارة للغل والفساد الذي كان في صدور هذه الفئة ، ووجه الاستعارة استلزامه لتكدير الإسلام وإثارة الفتنة بين المسلمين كما تكدّر الحمأ وتخبثه ، واستلزامه للأذى والقتل كما يستلزم ذلك سمّ العقرب ، وأشار بالشبهة المغدفة إلى شبهتهم في الطلب بدم عثمان ، واستعار لها وصف الظلمة لعدم اهتداء أكثر الخلق فيها حتى قتلوا بسببها كما لا يهتدى في الليل المظلم .

وقوله : وإن الأمر لواضح . إلى قوله : شغبه .

نفي لتلك الشبهة عن نفسه وولايته ، وأن الحق واضح في حاله لا

---

(١) ١٥ - ٢٦ .

أصل للباطل فيه ولا لسان يشغب به ، ولفظة اللسان استعارة ، والشغب ترشيح لها . وباقي الفصل قد تقدم تفسيره أيضاً في الفصل المذكور .

منه : فَأَقْبَلْتُمْ إليَّ إقْبَالَ الْعُوذِ الْمَطَافِيلِ عَلَى أوْلَادِهَا ، تَقُولُونَ : الْبَيْعَةَ الْبَيْعَةَ !! قَبَضْتُ يَدِي فَبَسطْتُمُوهَا، وَنَازَعْتُكُمْ يَدِي فَجَذَبْتُمُوهَا ، اللَّهُمَّ إنَّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي ، وَنَكَثَا بَيْعَتِي ، وَأَلَّبَا النَّاسَ عَلَيَّ ، فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا ، وَلَا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا ، وَأَرِهِمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَّلَا وَعَمِلَا ، وَلَقَدِ اسْتَثَبْتُهُمَا قَبْلَ الْقِتَالِ ، وَآسْتَأْنَيْتُ بِهِمَا أَمَامَ الْوِقَاعِ ، فَغَمَطَا النِّعْمَةَ ، وَرَدَّا الْعَافِيَةَ .

أقول : العوذ : جمع عوذة وهي الناقة المسنّة . والمطافيل : جمع مطفل بضم الميم وهي قريبة العهد بالنتاج . والتأليب : التحريض . وأبرمت الأمر : أحكمته . واستثبتهما بالثاء المعجمة بثلاث نقط : طلبت رجوعهما ، ويروى بالتاء من التوبة . واستأنيت : انتظرت .

وهذا الفصل احتجاج على طلحة والزبير ومن تابعهما على نكث بيعته .

فقوله : فأقبلتم . إلى قوله : فجاذبتموها .

يجري مجرى صغرى قياس ضمير من الشكل الأول ، وتلخيصها أنكم اجتهدتم عليّ في طلب البيعة حتى بايعتكم وأخذت عهودكم . وتقدير الكبرى وكلّ من اجتهد اجتهادكم إلى تلك الغاية فيجب عليه الوفاء بعهده . والصغرى مسلّمة منهم . وبرهان الكبرى الكتاب ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾(١) و﴿ **أوفوا بعهد الله إذا عاهدتم** ﴾(٢) الآية ، وقد شبّه إقبالهم عليه طالبين للبيعة بإقبال مسنّات النوق على أطفالها ، ووجه التشبيه شدّة الإقبال والحرص على مبايعته ، وخصّ المسنّات لأنها أقوى حنّة على أولادها ، ونصب البيعة على الإغراء ، وفائدة التكرير في الإغراء تأكيد الأمر الدال على شدة الاهتمام بالمأمور به . وقال بعض الشارحين : فائدة التكرار دلالة المنصوب الأول على تخصيص الأمر الأول بالحال ، ودلالة الثاني على

---

(١) ٥ ـ ١ .
(٢) ١٦ ـ ٩٣ .

تخصيص الأمر الثاني بالمستقبل : أي خذ البيعة في الحال وخذها للاستقبال . قال : وكذلك قوله : الله الله : أي اتّقوا الله في الحال واتقوه في الاستقبال .

وأقول : إنّ ذلك غير مستفاد من اللفظ بإحدى الدلالات .

وقوله : اللهم . إلى قوله : عليّ .

شكاية إلى الله منهم في أُمور ثلاثة : قطع رحمه وظلمهما له بمطالبتهما له بغير حق لهما عنده . ثم نكث بيعته . ثم جمع الناس على قتاله .

وقوله : فاحلل .

دعاء عليهما بأُمور ثلاثة : أن يحلّ ما عقدا من العزوم الفاسدة التي فيها هلاك المسلمين ، وأن لا يحكم ما أبرماه من الإغراء في حربه ، وأن يريهما المساءة في آمالهما وأعمالهما : أي عكس أغراضهما فيهما . واستجابة دعائه ظاهرة بقتلهما .

وقوله : ولقد استثبتهما . إلى قوله : الوقاع .

إظهار لعذره مع الناس في حقهما قبل وقاع الحرب بتأنيه فيه في حقهما ، واستعطافه لهما في الرجوع إلى الحق ، واستتابته لهما من ذنبهما في نكث البيعة .

وقوله : فغمطا . إلى آخره .

بيان لجوابهم عن إعذاره إليهم وهو مقابلتهم نعمة الله : أي قسمهما من الفيء بالاحتقار لها والنظر عليها . إذا كان أحد الأسباب الباعثة لهما على منافرته هو التسوية بينهم وبين غيرهم في العطاء ، وكذلك مقابلتهم للسلامة والعافية من بلاء الحرب والشقاق وهلاك الدين والنفس في عاقبة فعلهما بردّهما لهما والإصرار على الحرب والمنابذة من غير نظر في عاقبة أمرها . وبالله التوفيق .

١٣٧ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

في ذكر الملاحم

يَعْطِفُ الْهَوَى عَلَى الْهُدَى إذَا عَطَفُوا الْهُدَى عَلَى الْهَوَى ، وَيَعْطِفُ

الرَّأْيَ عَلَى الْقُرْآنِ إِذَا عَطَفُوا الْقُرْآنَ عَلَى الرأْيِ .

أقول : الإشارة في هذا الفصل إلى وصف الإمام المنتظر في آخر الزمان الموعود به في الخبر والأثر .

فقوله : يعطف الهوى على الهدى .

أي يردّ النفوس الحائرة عن سبيل الله المتبعة لظلمات أهوائها عن طرقها الفاسدة ومذاهبها المختلفة إلى سلوك سبيله واتباع أنوار هداه ، وذلك إذا ارتدّت تلك النفوس عن اتباع أنوار هدى الله في سبيله الواضح إلى اتباع أهوائها في آخر الزمان ، وحين ضعفت الشريعة وزعمت أن الحق والهدى هو ذلك .

وكذلك قوله : ويعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي : أي يردّ على كل رأي رآه غيره إلى القرآن فيحملهم على ما وافقه منها دون ما خالفه ، وذلك إذا تأوّل الناس القرآن وحملوه على آرائهم وردّوه إلى أهوائهم كما عليه أهل المذاهب المتفرقة من فرق الإسلام كل على ما خيل إليه ، وكل يزعم أن الحق الذي يشهد به القرآن هو ما رآه وأنه لا حق وراءه سواه . وبالله التوفيق .

منها : حَتَّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاقٍ بَادِياً نَوَاجِذُهَا ، مَمْلُوءَةً أَخْلَافُهَا ، حُلْواً رَضَاعُهَا ، عَلْقَماً عَاقِبَتُهَا . أَلا وَفِي غَدٍ ـ وَسَيَأْتِي غَدٌ بِمَا لَا تَعْرِفُونَ ـ يَأْخُذُ الْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِىءِ أَعْمَالِهَا ، وَتُخْرِجُ لَهُ الأَرْضُ مِنْ أَفَالِيذِ كَبِدِهَا ، وَتُلْقِي إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدَهَا ، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السِّيرَةِ ، وَيُحْيِي مَيِّتَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ .

أقول : أخلاف الناقة . حلمات ضرعها . وأفاليذ : جمع الجمع لفلذة ، وهي القطعة من الكبد وجمعها فلذ .

فقوله : حتى تقوم الحرب بكم على ساق . إلى قوله : عاقبتها .

كأنه غاية لتخاذلهم عن طاعته في أمر الحرب ولقاء العدو . كأنه يقول : إنّكم لا تزالون متخاذلين متقاعدين حتى يشتد العدو ويقوم بكم

الحرب على ساق . وقيامها على الساق كناية عن بلوغها الغاية في الشدة ، وبدو نواجذها كناية عما يستلزمه من الشدة والأذى ، وهو من أوصاف الأسد عند غضبه . لأنه حاول أن يستعير لها لفظ الأسد فأتى بوصفه .

وقال بعض الشارحين : بدو النواجذ في الضحك : أي تبلغ بكم الحرب الغاية كما أن غاية الضحك أن تبدو النواجذ . فهي أقصى الأضراس . فكنّى بذلك عن إقبالها .

قلت : هذا وإن كان محتملاً إلّا أن الحرب مظنة إقبال الغضب لا إقبال الضحك . فكان الأول أنسب .

وكذلك قوله : مملوءة أخلافها . استعارة لوصف الناقة لحال استعداد الحرب واستكمالها عدتها ورجالها كاستكمال ضرع الناقة اللبن .

وقوله : حلواً رضاعها .

استعارة لوصف المرضع لها ، وكنّى بحلاوة رضاعها عن إقبال أهل النجدة في أول الحرب عليها . فكلّ منهم يحب أن يناجز قرنه ويستحلي مغالبته كما يستحلي الراضع لبن أُمّه ، وكذلك استعار لفظ العلقم لعاقبتها ، ووجه الاستعارة المشابهة بين المرارتين الحسية والعقلية ، والمنصوبات الأربعة : بادياً ، ومملوءة ، وحلواً ، وعلقماً . أحوال . والمرفوعات بعد كل منها فاعله ، وإنما ارتفع عاقبتها عن علقماً مع أنه اسم صريح لقيامه مقام اسم الفاعل كأنه قال : مريرة عاقبتها .

وقوله : ألا وفي غدٍ . إخبار عن بعض الأُمور التي ستكون .

وقوله : وسيأتي غد بما لا تعرفون .

المراد به تعظيم شأن الموعود بمجيئه . وبيان لفضيلته عليه السلام بعلم ما جهلوه . وهو جملة اعتراضيّة كقوله تعالى : ﴿ **فلا أُقسم بمواقع النجوم وإنّه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم** ﴾[1] فقوله : وإنه لقسم . اعتراض .

وقوله : يأخذ الوالي من غيرها عمالها .

---

(1) ٥٦ ـ ٧٥.

يشبه أن يكون قد سبقه ذكر طائفة من الناس ذات ملك وإمرة فأخبر عليه السلام أن الوالي من غير تلك الطائفة ـ يؤمي به إلى الإمام المنتظر ـ يأخذ عمّالها على مساوي أعمالها : أي يؤاخذهم بذنوبهم .

وقوله : وتخرج الأرض أفاليذ كبدها .

إستعار لفظ الكبد لما في الأرض من الكنوز والخزائن ، ووجهها مشابهة الكنوز للكبد في العزة والخفاء ، ورشح بذكر الأفاليذ . وقد ورد ذلك في الخبر المرفوع ، ومن لفظه : وقادت له الأرض أفلاذ كبدها . وفسّر بعضهم قوله تعالى ﴿ **وأخرجت الأرض أثقالها** ﴾ بذلك . فأما كيفية ذلك الإخراج : فقال بعض المحققين : هو إشارة إلى أن جميع ملوك الأرض تسلّم إليه مقاليد ممالكها طوعاً وكرهاً وتحمل إليه الكنوز والذخائر ، وأسند الإخراج إلى الأرض مجازاً لأن المخرج أهلها . واستبعد أن يكون الأرض بنفسها هي المخرجة لكنوزها . ولأهل الظاهر أن يقولوا إنّ المخرج يكون هو الله تعالى ، ويكون ذلك من معجزات الإمام ولا مانع .

وقوله : وتلقي إليه سلماً مقاليدها.

أسند أيضاً لفظ الإلقاء إلى الأرض مجازاً لأن الملقي للمقاليد مسالماً هو أهل الأرض ، وكنّى بذلك عن طاعتهم وانقيادهم أجمعين لأوامره وتحت حكمه ، وسلماً مصدر سدّ مسدّ الحال . ثم أخبر أنه سيريهم عدل سيرته ، وأنه يحيى ميّت الكتاب والسنّة . ولفظ الميت استعارة لما ترك منهما فانقطع أثره والانتفاع به كما ينقطع أثر الميت .

فإن قلت : قوله : ويريكم . يدلّ على أن المخاطبين يدركون المخبر عنه ويرون عدله مع أنكم قلتم أنه يكون في آخر الزمان فكيف وجه ذلك .

قلت : خطاب الحاضرين من الأُمّة كالعام لكل الأمّة ، وذلك كسائر خطابات القرآن الكريم مع الموجودين في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فإنه يتناول الموجودين إلى يوم القيامة. ثم يخرج المخاطبون بدليل العادة . إذ من عادتهم أن لا تمتد أعمارهم إلى وقت ظهوره فبقي الموجودون في زمانه . وبالله التوفيق .

منها : كَأَنِّي بِهِ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ ، فَعَطَفَ إِلَيْهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ وَفَرَشَ الأَرْضَ بِالرُّؤُوسِ ، قَدْ فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ وَثَقُلَتْ فِي الأَرْضِ وَطْأَتُهُ ، بَعِيدَ الْجَوْلَةِ ، عَظِيمَ الصَّوْلَةِ . وَاللهِ لَيُشَرِّدَنَّكُمْ فِي أَطْرَافِ الأَرْضِ ، حَتَّى لاَ يَبْقَى مِنْكُمْ إِلاّ قَلِيلٌ ، كَالْكُحْلِ فِي الْعَيْنِ ؛ فَلاَ تَزَالُونَ كَذٰلِكَ حَتَّى تَؤُوبَ إِلى الْعَرَبِ عَوَازِبُ أَحْلاَمِهَا ، فَالْزَمُوا السُّنَنَ الْقَائِمَةَ ، وَالآثَارَ الْبَيِّنَةَ ، والْعَهْدَ الْقَرِيبَ الَّذِي عَلَيْهِ بَاقِي النُّبُوَّةِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ لِتَتَّبِعُوا عَقِبَهُ .

أقول : نعق الغراب ونعق الراعي بغنمه بالعين والغين : صاح . وفحص المطر التراب : قلبه ، والفحص : البحث . وكوفان : اسم للكوفة . وضواحيها : نواحيها البارزة . والضروس : الناقة السيئة الخلق تعض حالبها . وفغرت فاغرته : انفتح فوه. وأكد الفعل بذكر الفاعل من لفظه . ويسني : يسهل . والعقب بكسر القاف : مؤخّر القدم .

وقد أخبر في هذا الفصل أنه سيظهر رجل بهذه الصفات . قال بعض الشارحين : هو عبد الملك بن مروان ، وذلك لأنه ظهر بالشام حين جعله أبوه الخليفة من بعده وسار لقتال مصعب بن الزبير إلى الكوفة بعد أن قتل مصعب المختار ابن أبي عبيدة الثقفي فالتقوا بأرض مسكن ـ بكسر الكاف ـ من نواحي الكوفة . ثم قتل مصعباً ودخل الكوفة فبايعه أهلها وبعث الحجّاج بن يوسف إلى عبدالله بن الزبير بمكة فقتله وهدم الكعبة ، وذلك سنة ثلاث وسبعين من الهجرة ، وقتل خلقاً عظيماً من العرب في وقائع عبد الرحمٰن بن الأشعث ، ورمى الناس بالحجاج بن يوسف ، وفي الفصل لطائف :

الأولى : أطلق لفظ النعيق لظهور أوامره ودعوته بالشام مجازاً ، وكذلك استعار لفظ الفحص لقلبه أهل الكوفة بعضهم على بعض ونقصه لحالاتهم التي كانوا عليها . ثم شبّه عطفه وحمله عليها بعطف الناقة الضروس ، ووجه التشبيه شدة الغضب والحنق والأذى الحاصل منها .

الثانية : فرشه الأرض بالرؤوس كناية عن كثرة قتله فيها ، وذلك مما يشهد به التواريخ . وفغر : فيه استعارة ببعض أوصاف السبع الضاري كنّى به

عن شدة إقدامه على القتل وإقباله على الناس بشدة الغضب والأذى ، وكذلك ثقل وطأته في الأرض كناية عن شدة بأسه وتمكنه في الأرض .

الثالثة : بعد جولته كناية عن اتساع ملكه وجولان خيله ورجله في البلاد البعيدة ، وبعيد وعظيم حالان ، ومن روى بالرفع فهما خبرا مبتدأ محذوف .

الرابعة : لما فرغ من صفاته العامة بيّن لهم ما سيفعله معهم من التشريد والطرد في أطراف البلاد ، وأكد ذلك بالقسم البار ، وذلك إشارة إلى ما فعله عبد الملك ومن ولي الأمر من ولده في باقي الصحابة والتابعين ، وأحوالهم معهم في الانتقاص والاحتقار والطرد والقتل ظاهرة ، وشبّه البقية منهم بالغبار الذي يكون في العين من الكحل ، ووجه التشبيه الاشتراك في القلة .

الخامسة : أخبر أنهم لا يزالوان كذلك : أي بالحال الموصوفة مع عبد الملك ومن بعده من أولاده حتى تعود إلى العرب عوازب أحلامها : أي ما كان ذهب من عقولها العمليّة في نظام أحوالهم ، والعرب هم بنو العباس ، ومن معهم من العرب أيام ظهور الدولة كقحطبة بن شبيب الطائي وابنيه حميد والحسن ، وكبني زريق أبي طاهر بن الحسين وإسحاق بن إبراهيم المصعبي ومن في عدادهم من خزاعة وغيرهم من العرب من شيعة بني العباس . وقيل : إنّ أبا مسلم أصله عربي . وكل هؤلاء كانوا مستضعفين مقهورين مقمورين في دولة بني أُمية لم ينهض منهم ناهض إلى أن أفاء الله تعالى عليهم ما كان عزب عنهم من حمياتهم فغاروا للدين وللمسلمين من جور بني مروان وأقاموا الأمر وأزالوا تلك الدولة .

فإن قلت : إن قوله : تؤوب . يدل على أن انقطاع تلك الدولة بظهور العرب وعود عوازب أحلامها ، وعبد الملك مات وقامت بنوه بعده بالدولة ، ولم يزل الملك عنه بظهور العرب فأين فائدة الغاية ؟

قلت : إن تلك الغاية ليست غاية لدولة عبد الملك بل غاية من كونهم لا يزالون مشردين في البلاد ، وذلك الانقهار وإن كان أصله من عبد الملك إلّا أنه استمر في زمن أولاده إلى حين انقضاء دولتهم فكانت غايته ما ذكر ، وقال بعض الشارحين في الجواب : إنّ ملك أودلاه ملكه وما زال الملك عن

بني مروان حتى آبت إلى العرب عوازب أحلامها . وهذا جواب من لم يتدبر كلامه عليه السلام ، ولم يتتبّع ألفاظ الفصل حتى يعلم أن هذه الغاية لأي شيء منه فيلحقها به . ثم أمرهم بلزوم سنن الله ورسوله القائمة فيهم من بعده وآثاره البيّنة فيهم وعهده القريب بينهم وبينه . ووجه عليهم ذلك الأمر في الحال وعند نزول تلك الشدائد بهم : أي إذا نزل بكم منه ما وصف فلتكن وظيفتكم لزوم ما ذكرت . ثم نبّههم على ما في سهولة المعاصي وفي تسهيل نفوسهم الأمارة بالسوء عليهم طرق المحارم من المحذور ، وهو أن تنقاد لها النفوس العاقلة فتضلّها عن سبيل الله ويقودها الضلال إلى الهلاك الأُخروي . وبالله التوفيق .

١٣٨ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

في وقت الشورى :

لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إلى دَعْوَةِ حَقٍّ ، وَصِلَةِ رَحِمٍ ، وَعَائِدَةِ كَرَمٍ ، فَاسْمَعُوا قَوْلِي ، وَعُوا مَنْطِقِي ، عَسَى أَنْ تَرَوْا هٰذَا الأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هٰذَا الْيَوْمِ تُنْتَضَى فِيهِ السُّيُوفُ ، وَتُخَانُ فِيهِ الْعُهُودُ ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لأَهْلِ الضَّلاَلَةِ ، وَشِيعَةً لأَهْلِ الْجَهَالَةِ .

أقول : هذا من جملة كلام قاله عليه السلام لأهل الشورى ، وقد ذكرنا طرفاً من أخبارها .

فقوله : لن يسرع أحد . إلى قوله : وعائدة كرم .

تقرير لفضيلته ليسمع قوله ، ولذلك قال بعده : فاسمعوا قولي وعوا منطقي ، وذكر فضائل ثلاثاً : الدعوة إلى الحق الذي لن يسارعه أحدٌ إليها إلاّ سرعه . وهي ثمرة العدالة ، وصلة الرحم ، وعائدة الكرم . وهما فضيلتان تحت ملكة العفة . والذي أمرهم بسماعه هو التنبيه على عاقبة أمر الخلافة ، وما يقع فيها من الهرج والمرج بعدهم بناء على ما حضر من الخبط والاختلاط فيها فكأنه يقول : إذا كان حال هذا الأمر هذه الحال من الخبط ومجاذبة من لا يستحقه [لمن يستحقّه خ] والتغلب فيه على أهله فعسى أن ترونه بعد هذا اليوم بحال يختصم الناس فيه بالسيوف وتخان فيه العهود ،

وهو إشارة إلى ما علمه من حال البغاة والخوارج عليه والناكثين لعهد بيعته .

فقوله : حتى يكون بعضهم أئمة لأهل الضلالة وشيعة لأهل الجهالة . غاية للتغالب على هذا الأمر ، وأشار بالأئمة إلى طلحة والزبير ، وبأهل الضلالة إلى أتباعهم ، وبأهل الجهالة إلى معاوية ورؤساء الخوارج وسائر امراء بني امية ، وبشيعة أهل الجهالة إلى أتباعهم . وبالله التوفيق .

١٣٩ - ومن كلام له (عليه السلام)

في النهي عن غيبة الناس :

وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لأَهْلِ الْعِصْمَةِ ، وَالْمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ فِي السَّلاَمَةِ ، أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِيَةِ ، وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ ، وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ فَكَيْفَ بِالْغَائِبِ الَّذِي غَابَ أَخَاهُ ، وَعَيَّرَهُ بِبَلْوَاهُ ؟ أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللهِ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي عَابَهُ بِهِ !! وَكَيْفَ يَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ ! فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذٰلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى اللهَ فِيمَا سِوَاهُ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ . وَأَيْمُ اللهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي الْكَبِيرِ وَعَصَاهُ فِي الصَّغِيرِ لَجَرَاءَتُهُ عَلَى عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرُ .

يَا عَبْدَ اللهِ ، لاَ تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ ، وَلاَ تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ ، فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ ؛ وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلاً لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ .

أقول : أهل العصمة هم الذين أعانهم الله سبحانه على قهر نفوسهم الأمارة بالسوء حتى صارت أسيرة في أيدي نفوسهم العاقلة فحصلوا من ذلك على ملكة ترك الذنوب والانزجار عن ولوج أبواب المحارم ، وأولئك هم الذين اصطنع الله إليهم السلامة من الانحراف عن سبيله والوقوع في مهاوي الهلاك . فنبّههم أولاً على ما ينبغي لهم وهو أن يرحموا أهل الذنوب . وحصول تلك الرحمة منهم باعتبارهم حال العصاة ووقوعهم في مهاوي الهلاك . ومن عادة عباد الله الرحمة لمن يرونه في مهلكة بإنقاذه وإعانته على

الخروج منها ، وأن يكون الشكر هو الغالب عليهم والحاجز لهم ، وذلك باعتبارهم عند مشاهدة أهل المعاصي لما أنعم الله به عليهم من إعانته لهم على قهر شياطينهم التي هي مواد الذنوب .

وقوله : فكيف بالغائب .

شروع في تنبيه من هو دون أهل العصمة ممّن يرتكب كبيرة أو صغيرة على ما ينبغي له من ترك الغيبة فكأنه قال : فهذا هو ما ينبغي لأهل العصمة فكيف يليق بغيرهم ممّن يعيب أخاه ويعيّره ببلواه بل ينبغي لمثله أن يترك الغيبة ويشكر الله بالطريق الأولى . وذلك باعتبار ستر الله عليه من ذنوبه ما هو أعظم مما عيّر أخاه به . وتلك نعمة الله يجب شكره عليها ، وأشار بموضع ستر الله عليه إلى النعمة المصطنعة عنده وهي تأهيله وإعداده له ، والاستفهام على سبيل الإنكار أخذ بالتعجب من ذم الغائب لأخيه على ذنب . وهو في صورة احتجاج عليه في ارتكابه لهذا الذنب وذلك قوله : وكيف يذمّه . إلى قوله : يا عبدالله . فكأنه يقول : لا يجوز لأحد أن يعيب أخاه لأنه إما أن يكون بذنب قد ركب العائب مثله أو أكبر منه أو أصغر . فإن كان بذنب قد ركب مثله أو أكبر كان له في عيبه لنفسه شغل عن عيب غيره ، وإن كان ارتكب أصغر منه فهو ممنوع على تقدير جرأته على الغيبة وصدوره عنه لأنها من الكبائر ، وإنما قال : هي أكبر ما عند الله . إما مبالغة أو لأن المفاسد التي يشتمل عليها ارتكاب سائر المنهيّات جزئية ومفسدة الغيبة كلية لأنه لما كان من المقاصد المهمّة للشارع اجتماع النفوس على همّ واحد وطريقة واحدة وهي سلوك سبيل الله بسائر وجوه الأوامر والنواهي ، ولن يتم ذلك إلّا بتعاون هممهم وتصافي بواطنهم واجتماعهم على الأُلفة والمحبة حتى يكونوا بمنزلة عبد واحد في طاعة مولاه ، ولن يتمّ ذلك إلّا بنفي الضغائن والأحقاد والحسد ونحوه ، وكانت الغيبة من كل منهم لأخيه مثيرة لضغنه ومستدعية منه مثلها في حقه لا جرم كانت ضد المقصود الكلي للشارع فكانت مفسدة كليّة ، ولذلك أكثر الله تعالى ورسوله من النهي عنها كقوله تعالى : ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضاً** ﴾[1]. حتى استعار لما يقترضه الغائب من عرض أخيه

(1) ٤٩ - ١٢ .

لفظ اللحم وزاده تقبيحاً وتكريهاً بصفة الميت فقال : ﴿ **أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً** ﴾ .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : إيّاكم والغيبة فإنّ الغيبة أشدّ من الزنا إنّ الرجل يزني فيتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه ، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم مررت ليلة أسري بي فرأيت قوماً يخمشون وجوههم بأظافيرهم فسألت جبرائيل عنهم . فقال : هؤلاء الذين يغتابون الناس ، وفي حديث البراء بن عازب : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى أسمع العواتق في بيوتهنّ . فقال : ألا لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فمن تتبع عورة أخيه تتبّع الله عورته ومن تتبّع الله عورته يفضحه في جوف بيته ، ثم نهى عن الاستعجال والتسرع إلى العيب ، ونبّه على وجوب ذلك الاحتمال [الانتهاء ـ خ ـ] باحتمال أن يكون الذنب الذي يعيب أخاه به مغفوراً له وإن كان كبيراً ، وذلك لاحتمال أن يكون حالة لم تتمكن من جوهر نفسه ، ونهى عن أن يأمن على نفسه صغير معصية يرتكبها لاحتمال أن يعذّب عليها لصيرورتها ملكة متمكنة من جوهر نفسه . ثم عاد إلى الأمر بالكف عن العيب باعتبار ما يعلم الإنسان من عيب نفسه ، وأن يكون الشكر لله دأبه على السلامة من التورط في مورد الهلكة الذي سلكه صاحب الذنب وابتلاه الله به .

واعلم أن تعريف الغيبة يعود إلى ذكر الإنسان بما يكره نسبته إليه مما يعدّ نقصاناً في العرف ذكراً على سبيل قصد الانتقاص والذم سواء كان ذلك النقصان عدم كمال بدني كالعور والعمى ، أو نفساني كالجهل والشره والظلم ، أو عدم كمال من خارج كسقوط الأصل ودناءة الآباء . واحترزنا بالقيد الأخير في تعريفها وهو قصد الانتقاص عن ذكر العيب للطبيب مثلاً أو لاستدعاء الرحمة من السلطان في حق الزمن، والأعمى بذكر نقصانهما . ثم الغيبة قد تكون باللسان وهي الحقيقية ، وقد تكون بالإشارة وغيرها من سائر ما يعلم به انتقاص أخيك والتنبيه على عيبه ، وتسمى غيبة مجازاً لقيامها مقام الغيبة . ولها أسباب غائية :

أحدها : شفاء الغيظ . فإنّ الإنسان كثيراً ما يشفي غيظه بذكر مساوىء من غاظه .

الثاني : المباهاة والتفاضل كما يقول من يتعاطى الإنشاء والشعر : كلام فلان ركيك وشعره بارد .

الثالث : اللعب والهزل وترجية الوقت فيذكر غيره بما يضحك الحاضرين .

الرابع : أن يستشعر من غيره أنه سيذمّه عند السلطان مثلاً فيقصد سبقه بذكر مساوئه ليسقط شهادته عنده عليه ، وقد تكون لها غايات أُخر .

وقد وردت الرخصة في غيبة الفاسق المتجاهر بفسقه كالخمّار والمخنّث والعشّار الذي ربما يفتخر بعيبه ولا يستحيي منه . قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له . لكن تركها إلى السكوت أولى . وبالله التوفيق .

١٤٠ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

أَيُّهَا النَّاسُ ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ ، وَسَدَادَ طَرِيقٍ ؛ فَلاَ يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ ، أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرَّامِي وَتُخْطِىءُ السِّهَامُ ، وَيَحِيلُ الْكَلاَمُ وَبَاطِلُ ذٰلِكَ يَبُورُ ، وَاللهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ . أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْبَاطِلِ وَالْحَقِّ إِلاَّ أَرْبَعُ أَصَابِعَ .

قال الشريف : فسئل عليه السلام عن معنى قوله هذا ، فجمع أصابعه ووضعها بين أذنه وعينه ، ثم قال : الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ سَمِعْتُ ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ رَأَيْتُ .

أقول : أحاك الكلام يحيك : إذا عمل وأثّر وكذلك حاك ، وروي : يحيل : أي يبطل ولا يصيب .

وهذا الفصل نهي عن التسرّع إلى التصديق بما يقال في حق مستور الظاهر المشهور بالصلاح والتديّن من العيب والقدح في دينه ، وهو نهي عن سماع الغيبة بعد نهيه عنها نفسها ، وإليها الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على**

ما فعلتم نادمين﴾[1]. ثم نبّه على جواز الخطأ على المتسرعين إلى الغيبة بالمثل . فقال : أما إنّه قد يرمي الرامي وتخطىء السهام . ووجه مطابقة هذا المثل أن الذي يرمى بعيب قد يكون بريئاً منه فيكون الكلام في حقه غير مطابق ولا صائب. كما لا يصيب السهم الذي يرمى به فيخطىء الغرض . وعلى الرواية بالكاف ، ويحيك الكلام : أي أن السهم قد يخطىء فلا يؤثر ، والكلام يؤثر على كل حال ، وإن لم يكن حقاً فإنه يسوّد العرض ويلوّثه في نظر من لا يعرفه .

وقوله : وباطل ذلك يبور والله سميع وشهيد .

يجري مجرى التهديد وتحقير ثمرة ذلك القول الكاذب الذي لا يبقي من مال أو جاهٍ أو نحوهما بالنسبة إلى عظم عقوبة الله وغضبه الباقي فإن سمعه وشهادته مستلزمان لغضبه المستلزم لعقوبته .

وقوله : أما إنّه ليس بين الحق والباطل إلّا مقدار أربع أصابع .

فتفسيره الفعل المذكور ، وتفسير ذلك الفعل هو قوله : الباطل أن تقول : سمعت ، والحق أن تقول : رأيت . ثم هيهنا لطيفتان :

فالأولى : أن قوله : الباطل أن تقول سمعت . لا يستلزم الكلية حتى يكون كل ما سمعه باطلاً فإنّ الباطل والمسموع مهملان .

الثانية : أن الحق ليس هو قوله : رأيت . بل المرئي له ، والباطل هو قوله . سمعت بل القول المسموع له ، وإنّما قوله : رأيت وسمعت . إخبار عن وصول المرئي والمسموع إلى بصره وسمعه فأقام هذين الخبرين مقام المخبر عنهما مجازاً . وبالله التوفيق .

١٤١ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

وَلَيْسَ لِوَاضِعِ الْمَعْرُوفِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ ، مِنَ الْحَظِّ إلاّ مَحْمَدَةُ اللِّئَامِ ، وَثَنَاءُ الأَشْرَارِ ، وَمَقَالَةُ الْجُهَّالِ ـ مَادَامَ مُنْعِماً عَلَيْهِمْ ـ « مَا أَجْوَدَ يَدَهُ » وَهُوَ عَنْ ذَاتِ الله بَخِيلٌ !! فَمَنْ آتَاهُ الله مَالاً فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ ،

---

(١) ٤٩ - ٦ .

وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ ، وَلْيَفُكَّ بِهِ الأَسِيرَ وَالْعَانِي وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ آبْتِغَاءَ الثَّوَابِ ؛ فَإِنَّ فَوْزاً بِهٰذِهِ الْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ الدُّنْيَا ، وَدَرْكُ فَضَائِلِ الآخِرَةِ ، إنْ شَاءَ الله .

أقول : لما كان لواضـع المعروف سـواء كان في أهله أو غير أهله ثناء من الناس ومدح له بالكرم والبذل. كان مما يتميّز به وضعه في غير أهله عن وضعه في أهله أن الأول إنما يحصل به لواضعه الحمد من لئام الناس : أي ساقطي الأصول والسفهاء والأشرار والجهال لعدم معرفتهم بوضع الأشياء في مواضعها التي هي مقتضى العقل الذي به نظام أمور الدنيا، وقوام نوع الإنسان في الوجود مع أنه في الحقيقة وعند أولي الألباب العارفين بمواقع المعروف بخيل في جنب الله تعالى .

وأما الثاني : فتحصل له المحمدة من الكل في الدنيا محمدةً مطابقة للحق مع الثواب الجزيل في الأخرى فلا جرم أشار إلى الأول بقوله : فليس لواضع المعروف . إلى قوله : وهو عن ذات الله بخيل .

وقوله : ما أجود يده .

متعلّق بمقالة : أي ذلك هو الأمر الذي يقولونه ما دام منعماً عليهم ، وإنما قيّد بهذا القيد لأن الجاهل قد يعتقد أن ما يسدى إليه حق له فربما دام حمده بدوام ذلك الإنعام لكن ينقطع بانقطاعه ، وأمّا الجاهل الشرير فكثيراً ما يعتقد أنه إنما يسدى إليه لشره وخوف أذاه فربما يشكر المنعم ما دام منعماً حتى إذا انقطع إنعامه جعل شرّه عوض شكره استجلاباً لذلك الإنعام المنقطع واستعادة له .

وأما الثاني: فنبّه أولاً على مواضع المعروف وأمر بوضعه فيها ، وذكر منها خمسة :

الأول : صلة الرحم .

الثاني : حسن الضيافة .

الثالث : فكّ الأسير والعاني . وإنما اختلف اللفظ.

والرابع : إعطاء الفقير والغارم وهو من عليه دين .

الخامس : الحقوق الواجبة على أهلها كالزكاة ، والمستحبة كالصدقات .

وأشار بالنوائب إلى ما يلحق الإنسان من المصادرات والغرامات التي يفك بها الإنسان من أيدي الظالمين وألسنتهم ، والإنفاق في ذلك من الحقوق الواجبة على الإنسان . والفضائل الخمس داخلة تحت فضيلة الكرم ، والإشارة إلى ذلك بقوله : فمن آتاه الله . إلى قوله : ابتغاء الثواب . ونبّه بهذه الغاية أعني المفعول له على أن الإنفاق في هذه الوجوه. إنما يكون وضعاً للمعروف في موضعه إذا قصد به وجه الله تعالى. فأمّا إذا قصد به الرياء والسمعة فهو وإن عدّ في ظاهر الشريعة مجزياً إلّا أنه غير مجز ولا مقبول في باطنها . ثم أشار بقوله : فإنّ فوزاً بهذه الخصال . إلى آخره إلى ما يتميّز به وضع المعروف في أهله وهو شرف مكارم الدنيا من الذكر الجميل بين الناس ، والجاه العريض ، ودرك فضائل الآخرة وهي درجات الثواب الجزيل الموعود لأولي الفضائل النفسانية . وإنما نكّر الفوز لأن تنكيره يفيد نوع الفوز فقط الذي يحصل بأي شخص كان من أشخاصه ، وهذا وإن كان حاصلاً مع الألف واللام لتعريف تلك الطبيعة إلّا أن ذلك التعريف مشترك بين تعريف الطبيعة والمعهود الشخصي فكان موهماً لفوز شخصي ولذلك كان الإتيان به منكراً أفصح وأبلغ . وبالله التوفيق .

١٤٢ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

في الإستسقاء :

أَلاَ وَإِنَّ الأَرْضَ الَّتِي تَحْمِلُكُمْ ، وَالسَّمَاءَ الَّتِي تُظِلُّكُمْ ، مُطِيعَتَانِ لِرَبِّكُمْ ، وَمَا أَصْبَحَتَا تَجُودَانِ لَكُمْ بِبَرَكَتِهِمَا تَوَجُّعاً لَكُمْ ، وَلاَ زُلْفَةً إِلَيْكُمْ ، وَلاَ لِخَيْرٍ تَرْجُوَانِهِ مِنْكُمْ ، وَلٰكِنْ أُمِرَتَا بِمَنَافِعِكُمْ فَأَطَاعَتَا ، وَأُقِيمَتَا عَلَى حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَأَقَامَتَا .

إِنَّ اللهَ يَبْتَلِي عِبَادَهُ ـ عِنْدَ الأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ ـ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ ، وَحَبْسِ الْبَرَكَاتِ وَإِغْلاَقِ خَزَائِنِ الْخَيْرَاتِ ، لِيَتُوبَ تَائِبٌ ، وَيُقْلِعَ مُقْلِعٌ ، وَيَتَذَكَّرَ

مُتَذَكِّرٌ ، وَيَزْدَجِرَ مُزْدَجِرٌ ! وَقَدْ جَعَلَ اللهُ الاسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةِ الْخَلْقِ ، فَقَالَ : ﴿ **اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ؛ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ** ﴾ فَرَحِمَ اللهُ امْرَأً اسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ، وَاسْتَقَالَ خَطِيئَتَهُ، وَبَادَرَ مَنِيَّتَهُ .

اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ الأَسْتَارِ وَالأَكْنَانِ، وَبَعْدَ عَجِيجِ الْبَهَائِمِ وَالْوِلْدَانِ، رَاغِبِينَ فِي رَحْمَتِكَ، وَرَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ. وَخَائِفِينَ مِنْ عَذَابِكَ وَنِقْمَتِكَ .

اللَّهُمَّ فَاسْقِنَا غَيْثَكَ، وَلاَ تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِينَ، وَلاَ تُهْلِكْنَا بِالسِّنِينَ ، وَلاَ تُؤَاخِذْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .

اللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ، نَشْكُوا إِلَيْكَ مَا لاَ يَخْفَى عَلَيْكَ، حِينَ أَلْجَأَتْنَا الْمَضَائِقُ الْوَعْرَةُ، وَأَجَاءَتْنَا الْمَقَاحِطُ الْمُجْدِبَةُ، وَأَعْيَتْنَا الْمَطَالِبُ الْمُتَعَسِّرَةُ، وَتلاَحَمَتْ عَلَيْنَا الْفِتَنُ الْمُسْتَصْعَبَةُ .

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ لاَ تَرُدَّنَا خَائِبِينَ، وَلاَ تَقْلِبْنَا وَاجِمِينَ، وَلاَ تُخَاطِبْنَا بِذُنُوبِنَا، وَلاَ تُقَايِسْنَا بِأَعْمَالِنَا .

اللَّهُمَّ انْشُرْ عَلَيْنَا غَيْثَكَ وَبَرَكَتَكَ، وَرِزْقَكَ وَرَحْمَتَكَ، وَاسْقِنَا سُقْيَا نَافِعَةً مُرْوِيَةً مُعْشِبَةً: تُنْبِتُ بِهَا مَا قَدْ فَاتَ، وَتُحْيِي بِهَا مَا قَدْ مَاتَ، نَافِعَةَ الْحَيَا كَثِيرَةَ الْمُجْتَنَى، تُرْوِي بِهَا الْقِيعَانَ، وَتُسِيلُ الْبُطْنَانَ، وَتَسْتَوْرِقُ الأَشْجَارَ، وَتُرْخِصُ الأَسْعَارَ؛ إِنَّكَ عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ .

أقول : أقلع عن خطيئته : إذا رجع عنها وتاب . والمثاور : المواثب . والزلفة : القربى والمنزلة . والواجم : الذي اشتد حزنه حتى سكت من الكلام . والنافعة : المروية . والقيعان : جمع قاع : وهو المستوى من الأرض . والبطنان : جمع البطن : وهو ما انخفض من الأرض .

واعلم أنا بيّنا فيما سبق أن الجود الإلهي لا بخل فيه ولا منع من جهته ، وإنما يكون منع الكمالات في هذه الحياة بعدم الاستعدادات لها فكل

مستعد لأمر ملاق له وفائض عليه . إذا عرفت ذلك فاعلم أنه عليه السلام صدّر هذا الفصل بتنبيه العباد على وجوب الاستعداد لرحمة الله التي ارتفعت عنهم بحبس المطر ، وذلك في قوله : ألا وإن الأرض . إلى قوله : وبادر منيّته . فنبّههم أولاً في ذلك الصدر على أن الأرض التي هي كالأُمّ للنبات والزرع ، والسماء التي هي كالأب مطيعتان لربهم ، وأشار بالسماء إلى السحاب أو إلى السماوات لكونها بحركاتها أسباباً معدة لكل ما في هذا العالم من الحوادث ، وأشار بطاعتهما إلى دخولهما تحت حكم القدرة الإلهية ، وأشار بقوله : وما أصبحنا . إلى قوله : ترجو أنه منكم . إلى لطيفة : وهي أن الحوادث الحادثة في هذا العالم من العاليات ليست مقصودة بالذات لها فيكون ذلك منها لأجل توجع للناس أو لأجل قرابة ومنزلة بينهم وبينها ، ولا لخير ترجوانه منهم كما هو المتعارف من منافع الناس بعضهم لبعض لأن السماوات والأرض غنيّة عنها لكن لما كانت السماوات متحركة دائماً طلباً لكمالاتها اللائقة بها من واهبها ـ جلّ وعلاً ـ ومسخّرة بأمره عرض عن هذه الحركات والاتصالات إعداد الأرض لقبول النبات والزرع ووجود الحيوانات التي هي أرزاق لها وبها قوام وجودها. فكانت مصالح هذه الحيوانات إذن منوطة بتلك الحركات وجارية على وفقها بإذن المدبر العزيز الحكيم سبحانه .

وإلى ذلك أشار بقوله : ولكن . إلى قوله : فأقامتا ، وغرضه مما سبق إلى هيهنا أن يقرّر في النفوس عظمة الله سبحانه، وأن الأرزاق وأسبابها منسوبة إليه ومنه حتى تتوجه النفوس إليه بالإقلاع عن الذنوب التي هي حجب لها عن إفاضة الرحمة عليها منه .

ثمّ بيّن بعده أن الله سبحانه إنما يفعل ما يفعل من نقص الثمرات وحبس البركات وإغلاق خزائن الخيرات عن الخلق عند أعمالهم السيئة ابتلاءً لهم كقوله تعالى : ﴿ **ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين** ﴾[1]. وقد علمت معنى ابتلائه لهم . ثم

---

(1) ٢ - ١٥١ .

بيّن أن غاية العناية الإلهية من ذلك الابتلاء رفع حجب النفوس التي هي الذنوب والمعاصي واستعدادها بذلك لقبول رحمة الله بالتوبة والإقلاع منها والازدجار عنها والتذكر للمبدء الأول ـ جلّت عظمته ـ وما أعد لأوليائه الأبرار في دار القرار ولأعدائه الأشرار في دار البوار .

ثم بيّن لهم أن الله سبحانه جعل الاستغفار سبباً لدرور الرزق والرحمة ، ولما كان الاستغفار هو طلب غفر الذنوب وسترها على العبد أن يفتضح بها وذلك إنّما يكون بمحوها من لوح نفسه لا جرم كان المستغفر المخلص ماحياً لخطيئته باستغفاره عن لوح نفسه، وبذلك يكمل استعداده لإفاضة رحمة الله عليه في الدنيا بإنزال البركات وفي الآخرة برفع الدرجات ، وإلى ذلك الإشارة بالشاهد العدل قوله تعالى : ﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً يرسل السماء عليكم مدرارا** ﴾[1]. الآيات .

وقوله تعالى : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** ﴾[2] الآية ، وقوله : ﴿ **ولو أنّهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم** ﴾[3]. وقوله : ﴿ **وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءاً غدقا** ﴾[4]. ثم دعا لمن استقبل توبته وشرع في الاستعداد بها ، ولمن استقال خطيئته : أي طلب الإقالة من الإلزام بعاقبتها وثمرتها وهو العقاب عليها والمؤاخذة بها ، ولمن واثب منيّته وعاجلها قبل إدراكها له بالتوبة . كل ذلك تنبيه على الاستعداد وطلب له منهم . إذا كان لا يتم المطلوب بدونه ، ولفظ الإقالة استعارة ، ووجهها أن المخطىء كالمعاهد والملتزم لعقاب أُخروي بلذّة عاجلة لما علم استلزام تلك اللذّة المنهي عنها للعقاب فهو يطلب الإقالة من هذه المعاهدة [المعاصي ـ خ ـ] كما يطلب المشتري الإقالة من البيع .

وقوله : اللهم . إلى آخره .

---

(١) ٧١ ـ ٩.
(٢) ٧ ـ ٩٤ .
(٣) ٥ ـ ٧١.
(٤) ٧٢ ـ ١٦.

لما قدم الأمر بالاستعداد لرحمة الله رجع إليه في استنزالها عليهم فقدم في الدعاء ما عادته أن يقدم بين يدي الملوك من الكلام المرقق للطباع والموجب للعفو والرحمة . فذكر الخروج من تحت الأستار والأكنان التي ليس من شأنها أن يفارق إلّا لضرورة شديدة ، وكذلك عجيج البهائم والولدان وأصواتها المرتفعة بالبكاء وذكر الغاية من ذلك وهي الرغبة في رحمته والرجاء لفضل نعمته والخوف من عذابه ونقمته . وهذه جهات المساعي البشرية .

ثم سأل بعد ذلك المطالب : وهي السقيا وعدم الهلاك بالجدب ، وأن لا يؤاخذهم بأفعال السفهاء من المعاصي المبعّدة عن رحمته كقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ **أتهلكنا بما فعل السفهاء منّا** ﴾[1] ثم عاد إلى تكرير شكوى الجدب بذكر أسبابها الحاملة عليها ليكون أقوم للعذر . والمقاحط : أماكن القحط أو سني القحط ، وظاهر كون الجوع والعري وسائر المسببات عن القحط فتنة : أي صارفة للقلوب عما يراد بها . ثم عاد إلى طلب إجابة دعائه .

وقوله : ولا تخاطبنا بذنوبنا : أي لا تجعل جوابنا الاحتجاج علينا بذنوبنا ، ولا تقايسنا بأعمالنا : أي لا تجعل فعلك بنا مقائساً لأعمالنا السيئة ومشابهاً لها وسيئة مثلها . ثم عاد إلى طلب أنواع ما يطلب منه سبحانه بأتم ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي . إلى آخره . وهو ظاهر . وبالله التوفيق .

١٤٣ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

بَعَثَ اللهُ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ ، لِئَلاَّ تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الإعْذَارِ إِلَيْهِمْ ، فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ . أَلاَ إِنَّ اللهَ قَدْ كَشَفَ الْخَلْقَ كَشْفَةً ، لاَ أَنَّهُ جَهِلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ ؛ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ؛ فَيَكُونَ الثَّوَابُ جَزَاءً ، وَالْعِقَابُ بَوَاءً ، أَيْنَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَنَا ؟ كَذِباً وَبَغْياً عَلَيْنَا أَنْ رَفَعَنَا اللهُ وَوَضَعَهُمْ ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ ، وَأَدْخَلَنَا وَأَخْرَجَهُمْ ، بِنَا يُسْتَعْطَى الْهُدَى ، وَيُسْتَجْلَى الْعَمَى ، إِنَّ الأَئِمَّةَ مِنْ

---

(١) ٧ ـ ١٥٤ .

قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هٰذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ : لَا تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ ، وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ مِنْ غَيْرِهِم .

أقول : هذا الفصل منافرة بينه وبين جمع من الصحابة الذي كانوا ينازعونه الفضل . والبواء : الكفو .

فقوله : بعث رسله . إلى قوله : سبيل الحق .

كقوله تعالى : ﴿ **رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾(١) ولسان الصدق هو لسان الشريعة الناطقة عن مصباح النبوة المشتعل عن نور الحق سبحانه ، وسبيل الحق هو الطريق الموصلة إليه تعالى التي تطابقت على الهداية إليها ألسنة الرسل والأولياء . وصدّر الفصل بذلك لاشتماله على فضيلة الأنبياء ليبني عليه فضيلة نبيه .

وقوله : ألا إن الله . إلى قوله : بواء .

كلام يجري مجرى التهديد لمن نافره باطلاع الله على أسرارهم ، وأن ما كلّفهم به إنما هو ابتلاء منه لهم أيهم أحسن عملاً ، وقد عرفت معنى ابتلاء الله لخلقه مراراً ، وأراد بالكشفة الاختبار والابتلاء أيضاً . ثم عقب ذلك بالاستفهام عن الذين زعموا أنهم أفضل منه ، وذلك أن قوماً من الصحابة كان منهم من يدعي الأفضلية في فنّ من العلم . فمنهم من كان يدعي أنه أفرض ، ومنهم من كان يدعي أنه أقرء ، ومنهم من كان يدعي أنه أعلم بالحلال والحرام . ورووا أفرضكم زيد بن ثابت وأقرأكم أُبيّ ، ورووا مع ذلك أقضاكم علي . وذلك الاستفهام على سبيل الإنكار عليهم ولذلك أردفه بالتكذيب لهم فيما ادّعوه من الأفضلية . ثم إن كان ما رووه حقاً مع أن القضاء يحتاج إلى جميع ما ادّعوه فضيلة لهم ثبت أنه عليه السلام أفضلهم لاستجماعه ما تفرق فيهم من الفضائل فيهم ، وإن لم يكن حقاً مع أن أنوار فضائله مستطيرة في آفاق الصدور فقد ظهر فضله عليهم ، وذلك وجه التكذيب لهم . ثم أشار إلى العلة الحاملة لهم على الكذب فيما ادعوه .

وهو قوله : أن رفعنا الله : أي رفع درجاتنا في الدنيا والآخرة على

---

(١) ٢ - ١٧٩ .

الكافة ووضعهم دوننا ، وأن وما بعدها نصب على المفعول له ، وأعطانا : أي الملك والنبوة وحرمهم ذلك ، وكذلك أدخلنا بعنايته الخاصة بنا فيما أعطانا وأخرجهم من ذلك .

قوله : بنا يستعطى الهدى ، ويستجلى العمى .

فاستعار لفظ العمى للجهل ، ورشح بذكر الاستجلاء ، ولما كانوا عليهم السلام المعدّين لأذهان الخلق لقبول أنوار الله والمرشدين لنفوسهم إلى سبيل الله لا جرم كان بهم يستعطى الهدى من الله . إذ بواسطة استعدادهم يفاض على النفوس هداها ، وبواسطة إعطائهم القوانين الشرعية الكلّية والجزئية يستجلى الجهل من واهب ذلك الجلاء . وهو كناية عن الاستعداد أيضاً .

وقوله: إن الأئمة من قريش. إلى آخره .

لفظ النص المشهور عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الأئمة من قريش وتخصيصه ذلك بهذا البطن من هاشم : أما على مذهب الشيعة فهو نصّ يجب اتباعه كما يجب اتباع نص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لاعتقادهم عصمته ، وأما على مذهب الباقين من المسلمين فواجب الاتباع أيضاً لقوله عليه الصلاة والسلام : إنّه لمع الحق وإن الحق معه يدور حيث دار . ومراده بذلك البطن : أما على مذهب الإثنى عشرية فنفسه مع الأحد عشر من ولده بنص كل منهم على من بعدهم من كونهم معصومين ، وأما على مذهب الباقين من الإمامية فكل منهم يحمل هذا الكلام على من اعتقد إمامته . لا يصلح على سواهم : أي لا يكون لها صلاح على يد غيرهم ، ولا يصلح الولاة غيرهم .

منها : آثَرُوا عَاجِلاً ، وَأَخَّرُوا آجِلاً ؛ وَتَرَكُوا صَافِياً ، وَشَرِبُوا آجِناً كَأَنِّي أَنْظُرُ إلى فَاسِقِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ الْمُنْكَرَ فَأَلِفَهُ وَبَسِىءَ بِهِ وَوَافَقَهُ ، حَتَّى شَابَتْ عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ ، وَصُبِغَتْ بِهِ خَلَائِقُهُ ! ثُمَّ أَقْبَلَ مُزْبِداً كَالتَّيَّارِ لَا يُبَالِي مَا غَرَّقَ ، أَوْ كَوَقْعِ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ لَا يَحْفِلُ مَا حَرَّقَ !! أَيْنَ الْعُقُولُ الْمُسْتَصْبِحَةُ بِمَصَابِيحِ الْهُدَى ؟ وَالأَبْصَارُ اللَّامِحَةُ إلى مَنَارِ التَّقْوَى ؟ أَيْنَ الْقُلُوبُ الَّتِي وُهِبَتْ للهِ وَعُوقِدَتْ عَلَى طَاعَةِ اللهِ ؟ ازْدَحَمُوا عَلَى الْحُطَامِ ، وَتَشَاحُّوا عَلَى

الْحَرَامِ ، وَرُفِعَ لَهُمْ عَلَمُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَصَرَفُوا عَنِ الْجَنَّةِ وُجُوهَهُمْ وَأَقْبَلُوا إلى النَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ ؛ وَدَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَنَفَرُوا وَوَلَّوْا ، وَدَعَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبَلُوا .

أقول : بسيء به : آلفه واستأنس به .

واعلم أن ضمير الجمع في آثروا وأخّروا وما بعدهما ضمائر مهملة يصدق إطلاقها على الجماعة وإن كان المعنيّ بها بعضهم ، وهذا الكلام يصدق على من تخلّف من الناس إلى زمانه ممن هو غير مرضيّ الطريقة وإن كان معدوداً من الصحابة بالظاهر كالمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص ومروان بن الحكم ومعاوية ونحوهم من أمراء بني أُميّة ممّن آثر عاجل الدنيا وثاور إليه وأخّر آجل ثواب الأُخرى فنبذه وراء ظهره، وترك ما وعد به من تلك اللذات الصافية عن كدورات الدنيا والعلائق البدنية إلى اللذات الوهمية الآجنة بشوب الأعراض والأمراض والتغيّر والزوال ، واستعار لفظ الآجن للذات الدنيا ملاحظة لتشبيهها بالماء الذي لا يسوغ شربه لتغيّر طعمه ، ورشح بذكر الشوب .

وقوله : كأنّي أنظر إلى فاسقهم .

يحتمل أن يريد فاسقاً معيناً كعبد الملك بن مروان ويكون الضمير عائداً إلى بني أُميّة ومن تابعهم ، ويحتمل أن يريد مطلق الفاسق : أي من يفسق من هؤلاء فيما بعده ويكون بالصفات التي ذكرها من صحبة المنكر وألفة له وموافقته لطبعه إلى غاية عمره ، وكنّى عن تلك الغاية بشيب المفارق . وصبغت به خلائقه : أي صار المنكر ملكة له وخلقاً ، واستعار لفظ الإزدياد تشبيهاً له بالبحر الطامي ، ووجه التشبيه كونه عند غضبه لا يحفل بما يفعله في الناس من المنكرات كما لا حفلة للبحر بمن غرق فيه .

وكذلك شبّه حركته في المنكرات والظلامات بوقع النار في الحطب ، ووجه الشبه كونه لا يبالي بتلك الحركات . كما لا تبالي النار بما أحرقت . ثم أخذ يسأل عن العقول المستكملة بأنوار الله ، واستعار لفظ مصابيح الهدى : إما لأئمة الدين أو لقوانينه الكلية . والاستصباح بها : الاقتداء بها . والأبصار

اللامحة إلى منار التقوى : أي الناظرة إلى أعلام التقوى ، واستعارة لفظ المنار كاستعارة لفظ المصابيح . ثم عن القلوب التي وهبها لله أهلها : أي جعلوا هممهم مطالعة أنوار كبريائه والتوجه إلى كعبة وجوب وجوده . وعوقدت على طاعة الله : أي أخذ خلفاء الله عليهم العهد بطاعته والمواظبة عليها .

ثم عاد إلى ذم السابقين وتوبيخهم بازدحامهم على حطام الدنيا ، واستعار لفظ الحطام لمقتنيات الدنيا ، ووجه الاستعارة سرعة فنائها وفسادها كما يسرع فساد النبت اليابس وتكسيره ، وبتشاحهم على الحرام : أي كل واحد يشاح صاحبه على الحرام ويبخل به عليه ، وأشار بعلم الجنة إلى قانون الشريعة القائد إلى الجنة وبعلم النار إلى الوساوس المزينة لقينات الدنيا . والعلم الأول بيد الدعاة إلى الله وهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومن بعده من أولياء الله من أهل بيته والتابعين لهم بإحسان .

والعلم الثاني بيد إبليس وجنوده من شياطين الجن والإنس الداعين إلى النار . ثم ذمّهم بصرفهم وجوههم عن الجنة وإقبالهم بأعمالهم على النار حين رفع العلمين من قبل الدعاة : وإنما قال : وأقبلوا بأعمالهم . ولم يقل بوجوههم . كما قال : فصرفوا وجوههم . لأن إقبالهم بوجوه نفوسهم على لذات الدنيا واقتنائها يستلزم صرفها عن الأعمال الموصلة إلى الجنة وذلك يستلزم إعراضها عن الجنة . ثم لما كانت الغاية التي يطلبها الإنسان من الدنيا هو الحصول على لذاتها، وكانت النار لازمة للأعمال الموصلة إلى تلك الغاية لزوماً عرضياً لم تكن النار غاية ذاتية قد أقبلوا بوجوههم عليها. بل كان إقبالهم عليها بأعمالهم . إذ كانت هي المستلزمة لها . ثم أخبر في معرض الذم لهم عن مقابلتهم لدعاء ربهم لهم بالنفار عنه ، ولدعاء الشيطان لهم باستجابتهم لدعوته وإقبالهم إليه .

وفي قوله : ودعاهم . إلى آخره تنبيه أن الرافع لعلم الجنة هو الله بأيدي خلفائه ، والرافع لعلم النار هو الشيطان بأيدي أوليائه . وبالله التوفيق .

١٤٤ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا ، مَعَ كُلِّ جُرْعَةٍ شَرَقٌ ؛ وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ لَا تَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى ، وَلَا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ ، وَلَا تُجَدَّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِي أَكْلِهِ إِلَّا بِنَفَادِ مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ ، وَلَا يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ إِلَّا مَاتَ لَهُ أَثَرٌ . وَلَا يَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِيدٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَخْلَقَ لَهُ جَدِيدٌ ، وَلَا تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ إِلَّا وَتَسْقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ . وَقَدْ مَضَتْ أُصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا ، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْلِهِ ؟!!

أقول : الغرض : الهدف .

وغرض هذا الفصل ذم الدنيا وتقبيحها بذكر معائبها لتخفّ الرغبات فيها وتنصرف إلى ما ورائها من الأمور الباقية . فاستعار لهم لفظ الغرض ، ووجه الاستعارة كونهم مقصودين بسهام المنية من سائر الأمراض والأغراض كما يقصد الغرض بالسهام ، وأسند الانتضال إلى المنايا مجازاً لأن القاصد لهم بالأمراض هو فاعلها بهم . فكان المجاز هيهنا في الإفراد والتركيب . ثم كنّى بالجرعة والأكلة عن لذات الدنيا ، وبالشرق والغصص عما في كل منها من شوب الكدورات اللازمة لها طبعاً من الأمراض والمخاوف وسائر المنغصات لها .

وقوله : لا تنالون نعمة إلّا بفراق أُخرى .

فيه لطف : وهو إشارة إلى أن كل نوع من نعمة فإنّما يتجدد شخص منها ويلتذّ به بعد مفارقة مثله كلذة اللقمة مثلاً فإنها تستدعي فوت اللذة بأُختها السابقة ، وكذلك لذة ملبوس شخصي أو مركوب شخصي ، وسائر ما يعدّ نعماً دنيوية ملتذاً بها فإنها إنما تحصل بعد مفارقة ما سبق من أمثالها بل وأعمّ من ذلك فإن الإنسان لا يتهيّأ له الجمع بين الملاذ الجسمانية في وقت واحد بل ولا اثنين منها فإنه حال ما يكون آكلاً لا يكون مجامعاً أو حال ما هو في لذة الأكل لايكون يلتذ بمشروب ، وحال ما يكون جالساً على فراشه الوثير لا يكون راكباً للنزهة . ونحو ذلك . وبالجملة لا يكون مشغولاً بنوع من

الملاذ الجسمانية إلّا وهو تارك لغيره ، وما استلزم مفارقة نعمة أُخرى لا يعد في الحقيقة نعمة ملتذاً بها .

وكذلك قوله : ولا يعمّر معمّر منكم . إلى قوله : أجله . لأن السرور بالبقاء إلى يوم معين لا يصل إليه إلّا بعد انقضاء ما قبله من الأيام المحسوسة من عمره . فإذا هدم من عمره يوماً فتكون لذته في الحقيقة ببقائه مستلزماً لقربه من الموت، وما استلزم القرب من الموت فلا لذة فيه عند الاعتبار ، وكذلك قوله : ولا تجدد له زيادة في أكله إلّا بنفاد ما قبلها من رزقه : أي من رزقه المعلوم أنه رزقه وهو ما وصل إلى جوفه مثلاً. فإن ما لم يصل جاز أن يكون رزقاً لغيره . وقد علمت أن الإنسان لا يأكل لقمة حتى يفني ما قبلها فهو إذن لا يتجدّد له زيادة في أكله إلّا بنفاد رزقه السابق ، وما استلزم نفاد الرزق لم يكن لذيذاً في الحقيقة ، وروي : أُكلة . ويحتمل أن يريد أنه إذا تجددت له جهة رزق فتوجه فيها طالباً له كان ذلك التوجه مستلزماً لانصرافه عما قبلها من الجهات وانقطاع رزقه من جهتها ، واللفظ مهمل يصدق ولو في بعض الناس فلا تجب الكلية .

وكذلك قوله : ولا يحيا له أثر إلّا مات له أثر . وأراد بالأثر الذكر أو الفعل فإنّ ما كان يعرف به الإنسان في وقتٍ ما من فعل محمود أو مذموم أو ذكر حسن أو قبيح ويحيا له بين الناس يموت منه ما كان معروفاً به قبله من الآثار وينسى ، وكذلك لا يتجدد له جديد من زيادات بدنه ونقصانه وأوقاته إلّا بعد أن يخلق له جديد بتحلل بدنه ومعاقبة شيخوخته بشبابه ومستقبل أوقاتها لسالفها ، وكذلك لا تقوم له نابتة إلّا بعد أن تسقط منه محصودة ، واستعار لفظ النابتة لمن ينشأ من أولاده وأقربائه ، ولفظ المحصودة لمن يموت من آبائه وأهله . ولذلك قال : وقد مضت أُصول يعني الأباء ونحن فروعها . ثم استفهم على سبيل التعجب عن بقاء الفرع بعد ذهاب أصله . وقد صرح أبو العتاهية بهذا المعنى حيث قال :

كل حياة إلى ممات ... وكل ذي جدة يحول
كيف بقاء الفروع يوماً ... وذوّب قبلها الأصول

منها : وَمَا أُحْدِثَتْ بِدْعَةٌ إلاَّ تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ ؛ فَاتَّقُوا الْبِدَعَ ، وَالْزَمُوا

الْمَهْيَع ، إنَّ عَوَازِمَ الأُمُورِ أَفْضَلُهَا ، وَإنَّ مُحْدَثَاتِهَا شِرَارُهَا .

أقول : المهيع . الطريق الواسع . والعوازم : جمع عوزم وهي العجوز المسنّة . والمراد بالبدعة كل ما أُحدث مما لم يكن على عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد اشتمل هذا الفصل على وجه ترك البدعة ، وبرهان استلزام إحداث البدعة لترك السنّة أن عدم إحداث البدع سنته لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : كل بدعة حرام . فكان إحداثها مستلزماً لترك تلك السنّة . ثم على أمرهم بتقوى البدع : أي خشية عواقبها . ثم بلزوم الطريق الواضح ، وهي سبيل الله وشريعته ، وأراد بعوازم الأمور ؟ إما قديمها وهو ما كان عليه عهد النبوة . وإمّا جوازمها وهي المقطوع بها دون المحدثات منها التي هي محل الشبهة والشك . ويرجّح الأول المقابلة بمحدثاتها . وجهة وصفها بكونها شراراً كونها محل الشبهة وخارجة عن قانون الشريعة فكانت مستلزمة للهرج والمرج وأنواع الشرور . وبالله التوفيق .

١٤٥ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

لعمر بن الخطاب ، وقد استشاره في غزو الفرس بنفسه .

إنَّ هٰذَا الأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلَا خِذْلَانُهُ بِكَثْرَةٍ وَلَا قِلَّةٍ ، وَهُوَ دِينُ اللهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ ، وَجُنْدُهُ الَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ وَطَلَعَ حَيْثُمَا طَلَعَ ، وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ اللهِ ، وَاللهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ ، وَمَكَانُ الْقَيِّمِ بِالأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ : يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ ، فَإذَا انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرَزُ وَذَهَبَ ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبداً . وَالْعَرَبُ الْيَوْمَ وَإنْ كَانُوا قَلِيلاً فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالإسْلَامِ ، عَزِيزُونَ بِالاجْتِمَاعِ ، فَكُنْ قُطْباً ، وَاسْتَدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ وَأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ ؛ فَإنَّكَ إنْ شَخَصْتَ مِنْ هٰذِهِ الأَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا ، حَتَّى يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ .

إنَّ الأَعَاجِمَ إنْ يَنْظُرُوا إلَيْكَ غَداً يَقُولُوا : هٰذَا أَصْلُ الْعَرَبِ فَإذَا

قَطَعْتُمُوهُ اَسْتَرَحْتُمْ ، فَيَكُونُ ذٰلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ ، وَطَمَعِهِمْ فِيكَ . فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ الْقَوْمِ إِلى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّ الله سُبْحَانَهُ هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَى بِالْكَثْرَةِ ؛ وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ .

أقول : اختلف الناقلون لهذا الكلام في الوقت الذي قاله لعمر فيه . فقيل : إنه قاله في غزاة القادسية . وهو المنقول عن المدائني في كتاب الفتوح . وقيل : في غزاة نهاوند . وهو نقل محمد بن جرير الطبري . فأما وقعة القادسية فكانت سنة أربع عشرة للهجرة استشار عمر المسلمين في خروجه فيها بنفسه . فأشار عليه علي عليه السلام بالرأي المسطور فأخذ عمر به ورجع عن عزم المسير بنفسه ، وأمّر سعد ابن أبي وقاص على المسلمين . ويروى في تلك الواقعة أن رستم أمير العسكر من قبل يزدجرد أقام بريداً من الرجال الواحد منهم إلى جانب الآخر من القادسية إلى المدائن كلما تكلّم رستم بكلمة أدّاها بعضهم إلى بعض حتى يصل إلى سمع يزدجرد ، وقصص الواقعة مشهورة في التواريخ .

وأما وقعة نهاوند فإنّه لما أراد عمر أن يغزو العجم ، وجيوش كسرى قد اجتمعت بنهاوند استشار أصحابه فأشار عثمان عليه بأن يخرج بنفسه بعد أن يكتب إلى جميع المسلمين من أهل الشام واليمن والحرمين والكوفة والبصرة ويأمرهم بالخروج ، وأشار علي عليه السلام بالرأي المذكور : وقال : أما بعد وإن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه . الفصل .

فقال عمر : أجل هذا الرأي ، وقد كنت أحب أن أُتابع عليه فأشيروا علي برجل أُولّيه ذلك الثغر . فقالوا : أنت أفضل رأياً . فقال : أشيروا عليّ به واجعلوه عراقياً . فقالوا له : أنت أعلم بأهل العراق وقد وفدوا عليك فرأيتهم وكلّمتهم . فقال : أما والله لأُولين أمرهم رجلاً يكون غداً لأول الأسنّة . قيل : ومن هو؟ فقال : النعمان بن مقرن . قالوا : هو لها . وكان نعمان يومئذٍ بالبصرة فكتب إليه عمر فولاّه أمر الجيش .

ولنرجع إلى المتن . فقوله : بحذافيره : أي بأسره .

وقوله : إن هذا الأمر . إلى قوله : بالاجتماع .

صدر الكلام أورده ليبتني عليه الرأي فقرر فيه أولاً أن هذا الأمر : أي أمر الإسلام ليس نصره بكثرة ولا خذلانه بقلّة ، ونبّه على صدق هذه الدعوى بأنه دين الله الذي أظهره وجنوده ، وهي جنده الذي أعدّه وأمدّه بالملائكة والناس حتى بلغ هذا المبلغ ، وطلع في آفاق البلاد حيث طلع . ثم وعدنا بموعود وهو النصر والغلبة والاستخلاف في الأرض كما قال : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم** ﴾[1] الآية ، وكلّ وعد من الله فهو منجز لعدم الخلف في خبره .

وقوله : وناصر جنده .

يجري مجرى النتيجة . إذ من جملة وعده نصر جنده ، وجنده هم المؤمنون . فالمؤمنون منصورون على كل حال سواء كانوا قليلين أو كثيرين . ثم شبّه مكان القيّم بالأمر بمكان الخيط من العقد ، ووجه التشبيه هو قوله : يجمعه ويضمّه . إلى قوله : أبداً .

وقوله : لم يجتمع بحذافيره أبداً .

وذلك أنّهم عند فساد نظامهم بقتل الإمام مثلاً يقع بهم طمع العدو وظفره فيكون ذلك سبب استئصالهم . ثم رفع عنه الشبهة في عدم الحاجة إلى اجتماع كل العرب في هذه الواقعة ، وذلك لكثرتهم بالإسلام واستقبال الدولة وعزّتهم باجتماع الرأي واتفاق القلوب الذي هو خير من كثرة الأشخاص ، وأراد بالكثرة القوة والغلبة مجازاً إطلاقاً لاسم مظنّة الشيء على الشيء .

وقوله : فكن قطباً .

شروع في الرأي الخاص بعمر . فأشار عليه أن يجعل نفسه مرجعاً للعرب تؤل إليه ، وتدور عليه ، واستعار له لفظ القطب ولهم لفظ الرحا ، ورشّح بالاستدارة ، وكنّى بذلك عن جعل العرب دربة دونه وحيطة له

---

(١) ٢٤ ـ ٥٤ .

ولـذلك قـال : وأصلهم دونك نـار الحرب . لأنهم إن سلمـوا وغنموا فـذلـك الـذي ينبغي ، وإن انقهروا كـان هو مـرجعـاً لهم وسنـداً يقـوى ظهـورهم بـه بخلاف شخوصه معهم. فإنّهم إن ظفروا فذلك وإن انقهروا لم يكن لهم ظهر يلجأون إليه كما سبق بيانه .

وقوله : فإنك إن شخصت . إلى قوله : فيك .

بيان للمفسدة في خروجه بنفسه من وجهين :

أحـدهما : أن الإسـلام كان في ذلـك الوقت غضـاً ، وقلوب كثيـر من العرب ممّن أسلم غير مستقرة بعد فإذا انضاف إلى من لم يسلم منهم وعلمـوا خروجه وتركه للبلاد كثر طمعهم وهاجت فتنتهم على الحرمين، وبلاد الإسلام فيكون ما تركه وراءه أهم عنده بما يستقبله ويـطلبه ويلتقي عليـه الفريقـان من الأعداء .

الثاني : أن الأعاجم إذا خرج إليهم بنفسه طمعـوا فيه وقـالوا المقـالة . فكان خروجه محرّضاً لهم على القتال وهم أشدّ عليه كلباً وأقوى فيه طمعاً .

وقوله : فأما ما ذكرت من مسير القوم . إلى آخره .

فهـو أنه قـال له : إن هؤلاء الفـرس قد قصـدوا المسيـر إلى المسلمين وقصدهم إيّاهم دليل قوتهم ، وأنا أكره أن يغـزونا قبـل أن نغزوهم . فـأجابـه بـأنّك إن كـرهت ذلك فـإنّ الله تعالى أشـد كراهيـة ، وأقدر منـك على التغيّر والإزالة. وهذا الجـواب يدور على حـرف وهو أن مسيـرهم إلى المسلمين . وإن كـان مفسدة إلّا أن لقـاءه لهم بنفسـه فيه مفسـدة أكبر ، وإذا كـان كذلـك فينبغي أن يدفع العـظمى ، ويكل دفـع المفسدة الأخـرى إلى الله تعالى فـإنه كاره لها ومع كراهيته لها فهو أقدر على إزالتها .

وقوله : وأما ما ذكرت من عددهم . إلى آخره .

فهو أن عمر ذكر كثرة القوم وعددهم فأجابه عليه السلام بتذكير قتال المسلمين في صدر الإسلام فإنه كان من غير كثرة ، وإنّما كان بنصر الله ومعـونته فينبغي أن يكون الحال الآن كذلك . وهو يجري مجـرى التمثيل كمـا أشرنـا إليه في المشـورة الأولى ، وبـوعـد الله تعـالى المسلمين بـالاستخـلاف في الأرض،

وتمكين دينهم الذي ارتضى لهم وتبديلهم بخوفهم أمناً كما هو مقتضى الآية .

١٤٦ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

فَبَعَثَ مُحَمَّداً ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، بِالْحَقِّ لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ إلى عِبَادَتِهِ ، وَمِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ إلى طَاعَتِهِ ، بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ وَأَحْكَمَهُ ، لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ ، وَلِيُقِرُّوا بِهِ إِذْ جَحَدُوهُ ، وَلْيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ . فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ : بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ ، وَخَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ ، وَكَيْفَ مَحَقَ مَنْ مَحَقَ بِالْمَثُلاَتِ ، وَآحْتَصَدَ مَنِ احْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ .

وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَخْفَى مِنَ الْحَقِّ ، وَلاَ أَظْهَرُ مِنَ الْبَاطِلِ ، وَلاَ أَكْثَرُ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ !! وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذٰلِكَ الزَّمَانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلاَوَتِهِ ، وَلاَ أَنْفَقُ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَلاَ فِي الْبِلاَدِ شَيْءٌ أَنْكَرُ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَلاَ أَعْرَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ ، فَقَدْ نَبَذَ الْكِتَابَ حَمَلَتُهُ ، وَتَنَاسَاهُ حَفَظَتُهُ ، فَالْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ طَرِيدَانِ مَنْفِيَّانِ ، وَصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لاَ يُؤْوِيهِمَا مُؤْوٍ !! فَالْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِي ذٰلِكَ الزَّمَانِ فِي النَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ وَمَعَهُمْ ؛ لأَنَّ الضَّلاَلَةَ لاَ تُوَافِقُ الْهُدَى ، وَإِنِ آجْتَمَعَا فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الْفُرْقَةِ وَآفْتَرَقُوا عَنِ الْجَمَاعَةِ ، كَأَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الْكِتَابِ وَلَيْسَ الْكِتَابُ إِمَامَهُمْ ! فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ آسْمُهُ ، وَلاَ يَعْرِفُونَ إِلاَّ خَطَّهُ وَزَبْرَهُ ؛ !! وَمِنْ قَبْلُ مَا مَثَّلُوا بِالصَّالِحِينَ كُلَّ مُثْلَةٍ ، وَسَمَّوْا صِدْقَهُمْ عَلَى اللهِ فِرْيَةً ، وَجَعَلُوا فِي الْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ السَّيِّئَةِ .

وَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ ، وَتَغَيُّبِ آجَالِهِمْ ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ الْمَوْعُودُ ، الَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ الْمَعْذِرَةُ ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ التَّوْبَةُ ، وَتَحُلُّ مَعَهُ الْقَارِعَةُ وَالنِّقْمَةُ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّهُ مَنِ آسْتَنْصَحَ اللهَ وُفِّقَ ، وَمَنِ آتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلاً هُدِيَ

لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ؛ فَإِنَّ جَارَ اللهِ آمِنٌ ، وَعَدُوَّ اللهِ خَائِفٌ ، وَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ اللهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ ؛ فَإِنَّ رِفْعَةَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ مَا عَظَمَتُهُ أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ ، وَسَلَامَةَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ . فَلَا تَنْفِرُوا مِنَ الْحَقِّ نِفَارَ الصَّحِيحِ مِنَ الأَجْرَبِ ، وَالْبَارِيءِ مِنْ ذِي السَّقَمِ ، وَآعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَقَضَهُ ، وَلَنْ تمسَّكُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ ، فَالْتَمِسُوا ذٰلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ ؛ فَإِنَّهُم عَيْشُ الْعِلْمِ ، وَمَوْتُ الْجَهْلِ : هُمُ الَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ : لَا يُخَالِفُونَ الدِّينَ ، وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ .

أقول : الأوثان : الأصنام . وزبره : كتبه . ومثّلوا : بفتح الميم والثاء : أي نكّلوا . والاسم المثلة بضم الميم وسكون الثاء . والقارعة : الشديدة من شدائد الدهر .

ومدار هذا الفصل على بيان بعثة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبيان غاية البعثة ، والسبب المعد للوصول إلى تلك الغاية ، ثم بيان غاية تلك الغاية . والإشارة إلى البعثة بقوله : فبعث . إلى قوله : بالحق ، وأشار إلى غايتها بقوله : ليخرج إلى قوله: طاعته . وقد علمت أن طاعته بسلوك الصراط المستقيم في الدنيا وهو اتباع الدين القيّم ، والعدول عن طاعة الشيطان التي هي بالخروج إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط . فأشار إلى سبب تلك الغاية بقوله : بقرآن قد بيّنه وأحكمه . وقد علمت اشتمال القرآن الكريم على الجواذب الإلهية إلى طاعة الله ، وسلوك صراطه المستقيم ، وأشار إلى غاية تلك الغاية أعني طاعة الله بقوله : ليعلم العباد . إلى قوله : أنكروه . وهي مسألتان من أُمّهات العلم الإلٓهي :

فالأولى : معرفتهم له بعد جهلهم به .

والثانية : الإقرار به بعد جحدهم له وإثباتهم له بعد إنكارهم إيّاه . والمعنى واحد وإن اختلفت العبارتان وهو التصديق بوده إلّا أن يحمل الإقرار

على الإقرار باللسان والجحد به ، ويحمل الإثبات والإنكار على إثباته بالقلب بعد الإنكار به وحينئذ يتغاير المعنيان ، وأشار بتجلّيه ـ سبحانه ـ في كتابه إلى ظهوره لهم في تذكيرهم فيه بما أراهم من عجائب مصنوعاته ، وبما خوّفهم به من وعيده ، وبتذكيرهم أنه كيف محق من محق من القرون الماضية بالعقوبات واحتصد من احتصد منهم بالنقمات . كل ذلك الظهور والجلاء من غير رؤية له . إذ تعالى عن إدراك الحواس . وقال بعض الفضلاء : يحتمل أن يريد بتجلّيه في كتابه ظهوره في عجائب مصنوعاته ومكنوناته ، ويكون لفظ الكتاب استعارة في العلم ، ووجه المشابهة كونه محلاً قابلاً لآثار الصنع المختلفة وعجائب الصور المنقوشة فيه كما أن الكتاب محلّ لنقش الحروف كل ذلك من غير رؤية بحاسة البصر له لتعاليه وتقدسه عن ذلك .

وقوله : سيأتي إلى قوله : المنكر .

إخبار عن زمان يأتي بعده بالصفات المذكورة ، وقد رأيناه ورأته قرون قبلنا فإن إخفاء الحق وظهور الباطل عليه أمر ظاهر ، وكون الحق لا شيء أخفى منه ، والباطل لا شيء أظهر على سبيل المبالغة ، وكذلك لا أكثر من الكذب على الله وعلى رسوله . روي عن شعبة وكان إمام المحدثين أنه قال : تسعة أعشار الحديث كذب . وعن الدارقطني . ما الحديث الصحيح إلّا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود .

وقوله : وليس عند أهل . إلى آخره .

قد مرّ تفسيره في الفصل الذي يذمّ من يتصدى للحكم بين الأُمّة وليس له بأهل ، ونبذ حملة الكتاب له : إعراض قرّائه عن تدبّر ما فيه والعمل به ، وتناسي حفظته أيضاً : تعاميهم عن أمره ونواهيه وتغافلهم عن اتّباعها .

وقوله : فالكتاب . إلى قوله : وإن اجتمعا .

فأهل الكتاب الملازمون للعمل به . وحيث كان أهل ذلك الزمان المشار إليه غير ملتفتين إلى الكتاب كانوا أيضاً غير ملتفتين إلى أهله ومن يعمل به بل مؤذون لهم فيما يخالفونهم فيه مما يقتضيه أحكام الكتاب ويوجبه اتباعه فكان إعراضهم عنهم إبعاداً لهم ونفياً وطرداً ، والطريق الذي اصطحب فيه الكتاب وأهله هو طريق الله الواحد . وصدق إذن أنه لا يؤويهما مؤوٍ من أهل ذلك الزمان .

اللهم إلّا إذا وافقتا غرضه لكن ذلك ليس للكتاب وللعامل به بل لموافقتهما الغرض . وكونهما في الناس : أي بوجودهما ، وكونهما ليسا فيهم لعدم اتباعهما وإلغاء فائدتهما فأشبها ما ليس بموجود ، ولأن فائدة الموجود أن ينتفع به . وكذلك معهم بالمصاحبة الاتفاقية في الوجود ، وليسا معهم لأن ضلالتهم لا تجامع هدى الكتاب وأهله فكانا مضادين لهم وإن اجتمعا في الوجود .

وقوله : فاجتمع القوم على الفرقة.

أي اتفقوا على مفارقة الاجتماع وما عليه الجماعة أما في وقته ﷺ فكالخوارج والبغاة ، وأما فيما يستقبل من الزمان بعده فكالآخذين بالآراء والمذاهب المتفرقة المحدثة في الدين . والاجتماع على الفرقة يلازم الافتراق عن الجماعة .

وقوله : كأنهم أئمة الكتاب .

تشبيه لهم بالأئمة له في الجرأة على مخالفة ظواهره والاختلاف فيه وتفريعه على حسب أغراضهم . إذ شأن الإمام مع المأموم ذلك مع أنه إمامهم الذي يجب أن يتّبعوه ويقتفوا أثره ، وإذ خالفوه ونبذوه وراء ظهورهم فلم يبق معهم من تمسّكهم به إلّا اسمه وعلم خطه وزبره دون اتباع مقاصده .

وقوله : ومن قبل ما مثلوا بالصالحين .

إشارة إلى زمن بني أُمية الكائن قبل زمن من يخبر عنهم . وتمثيل بني أُمية بالصالحين من الصحابة والتابعين ، وحملهم لهم على المكروه ، ونسبتهم لهم إلى الكذب على الله ، وجعلهم لهم في الحسنة عقوبة السيئة ظاهر منهم . ووصفه لمن سيأتي في ذلك الزمان بالأوصاف المذكورة لا ينافي وصف من قبلهم من بني أمية بمثل تلك الأوصاف . وما ـ مع الفعل في حكم المصدر ومحلها الرفع بالابتداء وخبرها ـ من قبل ـ.

وقوله ؛ وإنما هلك . إلى آخره .

تنبيه على وجوب تقصير الآمال في الدنيا لاستلزام طلبها الهلاك

الأُخروي ، وأشار إلى القرون الماضية من قبل ، وأراد الهلاك الأُخروي ، وجعل سبب هلاكهم طول آمالهم في الدنيا الموجب للاستغراق في لذاتها المبعدة عن الله تعالى مع تغيّب آجالهم عنهم : أي غفلتهم عنها ، وقلة فكرهم فيها وعدم علمهم بتعيينها فإن استشعار الأجل موجب للإقلاع عن الانهماك في اللذات الحاضرة ، ومنغّص لها .

وقوله : حتى نزل بهم الموعود . إلى آخره .

ذكر غاية طول آمالهم . والموعود هو الموت ، وتردّ عنه المعذرة : أي لا تقبل فيه معذرة معتذر ، وترفع عنه التوبة : أي ينسد بابها حين نزوله كقوله تعالى : ﴿ **وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنّي تبت الآن ولا الذين** ﴾(١) الآية ، وتحلّ معه القارعة : أي تنزل بمن نزل به الشدائد والأهوال وتتبعها العقوبات الأُخروية . ثم عاد إلى الرأي الصالح للسامعين فأيّه بهم ونبّههم على وجوب استنصاحه : أي اتخاذه ناصحاً في قبول أوامره ونواهيه واتخاذ قوله دليلاً إلى المطالب المهمة . فإنّ استنصاحه يستلزم التوفيق ، واتخاذه دليلاً يستلزم الهدى للتي هي أقوم : أي للطريق التي هي أقوم الطرق . ثم نبّه على حسن جوار الله بالأمن الذي هو غاية الجوار ، وعلى قبح عداوته بذكر الخوف الذي هو غاية عداوة الملوك خصوصاً جبّار الجبابرة ، وملك الدنيا والآخرة ، وأراد بجواره القرب منه بالطاعة ، وبعداوته البعد عنه بالمعصية ومخالفة أوامره . ولا شك في كون الأول أمناً من أهوال الآخرة ، وفي كون الثاني في محل الخوف والخطر .

وقوله : وإنّه لا ينبغي لمن عرف . إلى آخره .

إرشاد لهم إلى التواضع لله ولمن أُرشد إلى طريقه ، ونهي عن التكبّر عليهم ، والنفار عن قبول الحق منهم . وخاطب من يعرف عظمة الله لاحتقاره نفسه عند ملاحظته لنفسه ونسبته لها إلى جلال الله فهو أسرع انفعالاً وأحقر في نفسه أن يتكبّر على الله ، ونبّه على حسن التواضع له بذكر عظمته ورفعه للعالمين بعظمته . فإنّه لما كان هو العظيم المطلق وكلّ عظمة ورفعة لعظيم

(١) ٤ - ٢٢ .

فمستفادة من جوده والقرب منه ، وكانت العادة جارية من الملوك في حق من يتواضع لهم ويوفيهم حقهم من الإجلال والإكرام وحسن الانقياد أن يرفعوه ويعظّموه فبالحري أن يكون رفعة المتواضع للملك المطلق والعظيم المطلق لازمة عن التواضع له ، وكذلك العادة جارية منهم بسلامة من استسلم لهم عن معرفته باقتدارهم فبالحري أن يكون سلامة المستسلم لله عن العلم بغلبة قدرته واستيلاء سلطانه لازمة من استسلامه له . وإذ أدّبهم بالتواضع لله ولأوليائه ندبهم إلى قبول الحق منهم وعدم النفار منه الشبيه بنفار الصحيح من الأجرب ، والبارىء من السقيم ، ووجه الشبه هو شدة النفار .

ثم عاد إلى تنفيرهم عن أئمة الضلال ، وذلك بتنبيههم على أنهم ليسوا عارفين بالرشد والمعرفة الصحيحة ، ولا آخذين بميثاق الكتاب ، ولا متمسكين به الأخذ والتمسك التام ما لم يعرفوا أُولئك الضالين . وإنما شرط معرفتهم للرشد بمعرفتهم لتاركه لأن المعرفة التامة للرشد بل لكل شيء تستدعي معرفة ما عليها من الشكوك والشبهات التي هي سبب التشكيك فيها ، وترك العمل على وفقها . ولما كان الرشد وهو الحق الذي هو عليه وتابعوه ، وكان التارك لذلك هم مخالفوه وخصومه في الأمر من أئمة الضلال لا جرم كان من تمام معرفة الحق الذي في يده والرشد الذي يدعو إليه معرفة خصومه وأنهم على شبهة إذا عرفها طالب الحق تمّت معرفته بطريق الرشد فسلكها ونفر عمّن نكب ، وكذلك شرطه لأخذهم بميثاق الكتاب والعمل بما فيه بمعرفتهم لمن نقضه من خصومه : أي إن أخذهم بما يعمل به عليه السلام منه لا يتم منهم إلا أن يعرفوا شبهة ناقضه وهو العامل بخلاف حكمه عليه السلام على وفق الكتاب لشبهة حتى إذا اطّلعوا على كيفية فسادها وضلاله بها أخذوا بميثاق الكتاب على بصيرة ، وعلموا أنه ناقض له فنفروا عنه ، وكذلك شرطه لتمسّكهم بالكتاب ولزومهم بميثاقه بمعرفة نابذه وأنه ضالّ لتحصل النفرة عنه فيتمّ التمسك به ويتأكد لزوم ميثاقه . وغاية كل ذلك التنفير عن أئمة الضلال بمعرفتهم ومعرفة ما هم عليه من الشبه والتبرىء منهم .

ثم بعد أن نبّه على تلك المعرفة أمر بالتماسها من عند أهلها ، والإشارة بهم إلى نفسه وأهل بيته عليهم السلام ، واستعار لهم وصفي عيش العلم : أي حياته ، وموت الجهل . ووجه الاستعارة الأولى : أن بهم يكون وجود

العلم والانتفاع به كما يكون بحياة الشيء الانتفاع به ، ووجه الثانية : أن بهم يكون عدم الجهل وعدم التضرّر به . كما يكون بموت الشرير عدمه وعدم مضرته .

وقوله : هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم .

أي يدلكم منطقهم بالحكمة ، وسيرتهم على وفقها على كمال نفوسهم بالعلوم ، وصمتهم عن منطقهم فإنّ لصمت المنطيق اللسن ذي الحكمة الغزيرة وقتاً وهيئة وحالة تكون قرائن دالّة على حسن منطقه وعلمه بما يقول ، وكذلك ظاهرهم عن باطنهم .

وقوله : لا يخالفون الدين .

إشارة إلى لزومهم لأوامر الله وطريق شريعته . ولا يختلفون فيه . إشارة إلى اتفاق آرائهم على أحكامه عن كمال علومهم به . فإنّه لما كان طريقاً واحداً واتفقوا على معرفته وجب أن لا يختلفوا فيه ولا يضلّ أحدهم عن حكم من أحكامه حتى يخالف صاحبه فيه .

وقوله : فهو بينهم شاهد صادق .

أي شاهد يستدلّون به على الأحكام والوقائع النازلة بهم وبغيرهم . لا يكذب من حيث هو شاهد ، وصامت ناطق لكونه حروفاً وأصواتاً . وإنما ينطق بألسنتهم فهو بمنزلة الناطق . واللفظان استعارة، وجهها الإفادة مع النطق به وعدمها مع السكوت عنه كإفادة الناطق وعدم إفادة الصامت .

١٤٧ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

في ذكر أهل البصرة :

كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الأَمْرَ لَهُ ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ دُونَ صَاحِبِهِ : لَا يَمُتَّانِ إِلى الله بِحَبْلٍ ، وَلَا يَمُدَّانِ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ !! كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلُ ضَبٍّ لِصَاحِبِهِ ، وَعَمَّا قَلِيلٍ يُكْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ . وَالله لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَزِعَنَّ هٰذَا نَفْسَ هٰذَا وَلَيَأْتِيَنَّ هٰذَا عَلَى هٰذَا ؛ قَدْ قَامَتِ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ فَأَيْنَ الْمُحْتَسِبُونَ ، فَقَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ ، وَقُدِّمَ لَهُمُ الْخَبَرُ ، وَلِكُلِّ ضَلَّةٍ عِلَّةٌ ،

وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَـةٌ ، وَاللهِ لاَ أَكُونُ كَمُسْتَمِـعِ اللَّدْمِ ، يَسْمَعُ النَّـاعِيَ وَيَحْضُرُ الْبَاكِيَ .

أقول : متّ إليه بكذا : أي تقرّب إليه به . والضبّ : الحقد والغلّ . والمحتسبون : طالبون الأجر والثواب . واللدم : ضرب الصدر باليد فعل الحزين ، والضمير في منهما راجع إلى طلحة والزبير ، والأمر : أمر الخلافة ، وذلك حين خرجا إلى البصرة مع عائشة ، ويعطفه إليه : يجذبه إلى نفسه ويزعم أنه أحق به من صاحبه .

وقوله : لا يمتّان . إلى قوله : بسبب .

أي لا حجة يعتذران إلى الله تعالى بها في قتالهما له عليه السلام وهلاك المسلمين فيما بينهم .

وقوله : كل واحد منهما حامل ضبّ لصاحبه .

أي في صدره غلّ عليه وعما قليل يظهر وينكشف ، واستعار لفظ القناع لظاهره الساتر لباطنه ، وذلك مثل يضرب لمن ينافق صاحبه ويظهر له الصداقة مع حسده ، وعقوقه له في الباطن . والعرب تضرب بالضب المثل في العقوق . فيقال : أعقّ من ضبّ . وذلك أنه ربما يأكل حسوله . ثم أقسم لئن أصابوا بغيتهم لينزعنّ هذا وليأتينّ عليه : أي يسعى كل منهم في قتل صاحبه ، وهذا مما لا شك فيه فإن العادة جارية بعدم قيام الأمر برئيسين معاً ، وسرّه أن الطباع البشرية متشاحة على الكمال ويتفاوت ذلك التشاح بحسب تفاوت ذلك الكمال في تصور قوته وضعفه ولا شيء في نفوس طالبي الدنيا أعظم من الملك خصوصاً في نفس من يعتقد أنه يقدر على تحصيل الآخرة فيه أيضاً. فإن تحصيل الدنيا والآخرة هي أكمل الكمالات المطلوبة للإنسان . ولا شيء يقاوم هذا المطلوب في النفوس . فهي تسعى في تحصيله بكل ممكن من قتل الولد والوالد والأخ . ولذلك قيل : الملك عقيم . وقد نقل عن هذين الرجلين الاختلاف قبل إصابتهما وقبل وقوع الحرب فاختلفا في الأحق بالتقديم في الصلاة فأقامت عائشة محمد بن طلحة وعبدالله بن الزبير يصلّي هذا يوماً وهذا يوماً إلى أن ينقضي الحرب . ثم إن

عبدالله بن الزبير ادّعى أن عثمان نصّ عليه بالخلافة يوم الدار واحتجّ على ذلك باستخلافه له في الصلاة ، واحتجّ تارة بنص صريح ادّعاه . وطلب طلحة أن يسلّم الناس عليه بالإمرة وأدلى إليها بالسميّة ، وأدلى الزبير بأختها أسماء . فأمرت الناس أن يسلّموا عليها بالإمرة ، واختلفا في تولي القتال فطلبه كلّ واحد منهما أولاً ثم نكل عنه . وأحوالهم في ذلك ظاهرة .

فقوله : قد قامت الفئة الباغية .

إشارة إليهم وهم الناكثون الذين نقل فيما سبق فيهم الخبر : أُمرت أن أُقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين .

وقوله : فأين المحتسبون وقد سنّت لهم السنن .

أي أين طالبوا الثواب من الله بعد وضوح الطريق ، وروي : فأين المحسنون .

وقوله : وقدم لهم الخبر .

أي أخبرهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن خروج فئة باغية وناكثة ومارقة . فبالحري أن يحذر هؤلاء أن يكونوا ممن أخبر عنهم .

وقوله : ولكلّ ضلّة علّة .

أي لكل خروج عن سبيل الله علّة . وأشار إلى خروج هذه الفرقة عن الدين . وتلك العلّة هي البغي والحسد ، وكذلك لكل ناكث شبهة تغطي عين بصيرته عن النظر إلى وجه الحق كطلبهم بدم عثمان .

وقوله : والله لا أكون . إلى آخره .

أقسم أنّه لا يكون كذلك : أي إنّه بعد سماعه لغلبة هؤلاء وجلبهم عليه وتهديدهم إيّاه لا ينام عنهم ويصبر لهم حتى يوافوه فيكون في الغرور كمن يسمع الضرب والبكاء الذي هو مظنة الخطر ثم لا يصدق حتى يجيء لمشاهدة الحال ويحضر الباكي وقد كان الأولى به أن يكتفي بذلك السماع لظهور دلالته ويأخذ في الاستعداد للعدو والحرب منه .

١٤٨ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

قبل موته :

أَيُّهَا النَّاسُ ، كُلُّ آمْرِىءٍ لاَقٍ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِي فِرَارِهِ ، وَالأَجَلُ مَسَاقُ النَّفْسِ وَالْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ . كَمْ أَطْرَدْتُ الأَيَّامَ أَبْحَثُهَا عَنْ مَكْنُونِ هٰذَا الأَمْرِ فَأَبَى الله إِلاَّ إِخْفَاءَهُ . هَيْهَاتَ ! عِلْمٌ مَخْزُونٌ ، أَمَّا وَصِيَّتِي فَالله لاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ؛ وَمُحَمَّدٌ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَلاَ تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ ، أَقِيمُوا هٰذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ ، وَأَوْقِدُوا هٰذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ ، وَخَلاَكُمْ ذَمٌّ مَا لَمْ تَشْرُدُوا . حَمَلَ كُلُّ آمْرِىءٍ مِنْكُمْ مَجْهُودَهُ ، وَخَفَّفَ عَنِ الْجَهَلَةِ رَبٌّ رَحِيمٌ ، وَدِينٌ قَوِيمٌ ، وَإِمَامٌ عَلِيمٌ . أَنَا بِالأَمْسِ صَاحِبُكُمْ ، وَأَنَا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ ، غَفَرَ الله لِي وَلَكُمْ .

إِنْ ثَبَتَتِ الْوَطْأَةُ فِي هٰذِهِ الْمَزَلَّةِ فَذَاكَ ، وَإِنْ تَدْحَضِ الْقَدَمُ ، فَإِنَّا كُنَّا فِى أَفْيَاءِ أَغْصَانٍ وَمَهَبِّ رِيَاحٍ وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ اضْمَحَلَّ فِي الْجَوِّ مُتَلَفَّقُهَا وَعَفَا فِي الأَرْضِ مَخَطُّهَا ، وَإِنَّمَا كُنْتُ جَاراً جَاوَرَكُمْ بَدَنِي أَيَّاماً وَسَتُعْقَبُونَ مِنِّي جُثَّةً خَلاَءً ، سَاكِنَةً بَعْدَ حَرَاكٍ ، وَصَامِتَةً بَعْدَ نُطُوقٍ . لِيَعِظْكُمْ هُدُوِّي وَخُفُوتُ أَطْرَافِي ، وَسُكُونُ أَطْرَافِي ؛ فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمَنْطِقِ الْبَلِيغِ وَالْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ . وَدَاعِيكُمْ وَدَاعَ آمْرِىءٍ مُرْصِدٍ لِلتَّلاَقِي ، غَداً تَرَوْنَ أَيَّامِي ، وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي ، وَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوِّ مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي .

أقول : أطردت الأيام : صيّرتها طريدة لي . وشرد الجمل : ذهب لوجهه . ودحضت القدم : زلقت . واضمحلّ : فنى . والمخط : الأثر .

وهذا الفصل محل الوعظ والاعتبار . فأيه بالناس ونبههم على لحوق ضرورة الموت المنفور منه طبعاً . وأحسن بقوله : في فراره . فإنّه لما كان الإنسان دائماً فاراً من الموت ومتوقياً له ، وكان لا بد منه . لا جرم كان ضروري اللقاء له في فراره . والأجل قد يراد به غاية الحياة الدنيا كما قال تعالى : ﴿ **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون** ﴾(١). وقد يراد به المدة المضروبة

(١) ٧ ـ ٣٢ .

للإنسان وهي مدة عمره ، وإيّاه عنى هيهنا بقوله : والأجل مساق النفس فإن مدة بقائها في هذا البدن هو مساقها إلى غايتها لا محل قرارها .

وقوله : والهرب منه موافاته .

في غاية اللطف ، وذلك أن الفار من الموت مثلاً بالحركات والعلاجات ونحوها يستلزم حركاته في ذلك فناء الأوقات وتصرّمها وقطع تلك الأوقات مستلزم لملاقاته وموافاته فأطلق لفظ الموافاة على الهرب مجازاً إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه .

وقوله : كم أطردت الأيام .

أي صيرتها طريدة لي أتبّع بعضها بعضاً بالبحث وتعرف مكنون هذا الأمر : أي الذي وقع له من القتل ، وذلك المكنون هو وقته المعيّن بالتفصيل ومكانه فإنّ ذلك مما استأثر الله تعالى بعلمه كقوله تعالى : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة** ﴾ وقوله : ﴿ **وما تدري نفس بأي أرض تموت** ﴾(1) . وإن كان قد أخبره الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بكيفية قتله مجملاً كما روي عنه أنه قال : ستضرب على هذه ـ وأشار إلى هامته ـ فيخضب منها هذه ـ وأشار إلى لحيته ـ . وعنه أنه قال : أتعلم من أشقى الأولين ؟ قال : نعم عاقر الناقة . فقال له : أتعلم من أشقى الآخرين ؟ قال : لا . قال : من يضربك هيهنا فيخضب هذه .

وأما بحثه هو فعن تفصيل الوقت والمكان ونحوهما من القرائن المشخصة ، وذلك البحث إمّا بالسؤال من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مدة حياته وكتمانه إيّاه أو بالفحص والتفرّس من قرائن أحواله في سائر أوقاته مع الناس . فأبى الله إلّا أن تخفى عنه تلك الحال . هيهات : أي بعد ذلك العلم فهو علم مخزون . ثم شرع في الوصية فبدأ بالأهم فالأهم .

فالأول : هو الإخلاص لله بالإعراض عن كل ما سواه ، وفي ذلك لزوم أوامره ونواهيه وسائر ما نطق به كتابه العزيز .

الثاني : لزوم سنّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعدم إهمالها . وإنّما قدم اسم الله على محمد لما بيّنا أن الواجب في علم البيان تقديم الأهم . ثم أكد القول

---

(1) ٣١ ـ ٣٤ .

في الأمر باتباع التوحيد المطلق والسنّة النبوية ، واستعار لهما لفظ العمودين ورشح بذكر الإقامة ، ولفظ المصباحين ورشح بذكر الإيقاد ، ووجه الاستعارة الأولى أن مدار الإسلام ونظام أمور المسلمين في معاشهم ومعادهم على توحيد الله ولزوم ما جاء به رسوله كما أن مدار الخيمة وقيامها بالعمد .

ووجه الثانية : أن توحيد الله والاقتداء بما جاء به رسوله مستلزمان للهداية في طريقه من ظلمات الجهل قائدان إلى جواره في جنات النعيم وهو المطلوب الحقيقي كما يهدي المصباح في الظلام على الطريق إلى المطلوب .

وقوله : وخلاكم ذمّ .

أي عداكم ، وهي كلمة تجري مجرى المثل : أي عند لزومكم لتوحيد الله وسنّة رسوله لاذم عليكم ، وأوّل من قالها قصير مولى جذيمة حين حثّ عمرو بن عديّ ابن أخت جذيمة على ثاره من الزباء . فقال له عمرو : كيف لي بذلك والزباء أمنع من عقاب الجو . فقال له قصير : اطلب الأمر وخلاك ذمّ .

وقوله : ما لم تشردوا .

استثناء من نفي لحوق الذم لهم : أي أوقدوا هذين المصباحين فما دمتم كذلك فلا ذمّ يلحقكم إلاّ أن تشردوا : أي تتفرقوا عما أنتم عليه . ثم لما كان قد أمرهم بلزوم هذين الأمرين اللذين يدور عليهما التكليف بيّن لهم بقوله : حمل كل امرىء منكم . إلى قوله : الجهلة . أن التكليف بذلك يتفاوت فكل امرىء من العلماء وأهل النباهة ومن هو بصدد العلم يحمل مجهوده وطاقته منه بالتنبيه على الأدلة وتعليمها .

وأما الجهّال كالنساء وأهل البادية والزنج ونحوهم من أهل الغباوة. فتكليفهم دون ذلك وهو بالمحسوس من العبادات دون الأمر بالتفكّر في مقاصدها . ثم ذكر وصف الرحمة للرب لمناسبة ما سبق من ذكر التخفيف عن الجهلة في التكليف . ودين قويم : لاعوج فيه ولا زيغ عن القصد الحقيقي . وإمام عليم : إشارة إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم العالم بكيفيّة سلوك طريق

الله ومراحلها ومنازلها ، والهادي فيها بما يقتضيه حكمته من القول والعمل ، أو إلى نفسه لكونه وارث علمه وسالك مسالكه . وربّ : خبر مبتدأ محذوف وتقديره وذلك المكلّف ربّ رحيم ، ويجوز أن يكون فاعلاً لفعل يفسره قوله : حمل وخفّف : أي يحملكم رب كقوله تعالى : ﴿ **يسبّح له فيها بالغدو والآصال رجال** ﴾[1] ثم ختم الوصية بالدعاء لهم وله وبطلب المغفرة .

ثم تمّم بالتنبيه لهم على وجه الاعتبار به ، وهو تصرّف حالاته بحسب الأزمان فقد كان بالأمس صاحبهم في الحرب ومنازعة الأقران وصاحب الأمر والنهي فيهم ، واليوم عبرة لهم بحال مصرعه وضعفه عن الحراك ، وغداً مفارقهم بالموت. وكل هذه التغييرات محلّ الاعتبار يجب التنبيه لها . وأراد بغد إمّا حقيقة إن كان قد غلب على ظنه موته في تلك الواقعة ، أو ما يستقبل من الزمان وإن بعد ، وهذا أرجح لقوله : إن ثبتت الوطأة في هذه المزلّة : أي إن يكن لي ثبات في الدنيا وبقاء في هذه المزلة : أي محل الزوال عن الحياة فذلك المَرجو ، وكنىّ بثبات الوطأة عما ذكرناه ، وبدحض القدم عن عدم ذلك بالموت .

وقوله في جواب الشرط : فإنّا كنا في أفياء أغصان . إلى قوله : مخطّها .

أي وإن نمت فإنّا كنّا في كذا . وكنّى بالأمور المذكورة عن أحوال الدنيا وملذاتها وبقائه فيها ومتاعه بها ، وقيل : استعار لفظ الأغصان للأركان الأربعة من العناصر ، ولفظ الأفياء لما تستريح فيه النفوس من تركيبها في هذا العالم .

ووجه الاستعارة الأولى : أن الأركان في مادتها كالأغصان للشجرة .

ووجه الثانية : أن الأفياء محل الاستراحة واللذة كما أن الكون في هذا البدن حين صحة التركيب واعتدال المزاج من هذه الأركان كذلك . وكذلك استعار لفظ مهابّ الرياح للأبدان ، ولفظ الرياح للأرواح والنفحات الإلهية عليها في هذه الأبدان .

---

(1) ٢٤ - ٣٦ .

ووجه الأولى : قبول الأبدان لنفحات الجود كقبول مهاب الرياح لها إستعارة لفظ المحسوس للمعقول .

ووجه الثانية : أظهر من أن يذكر . وكذلك لفظ الغمام للأسباب العلوية من الحركات السماوية والاتصالات الكوكبيّة والأرزاق المفاضة على الإنسان في هذا العالم التي هي سبب بقائها ، ووجهها الاشتراك في الإفاضة والسببية ، وكنّى بظلها عما يستراح إليه منها كما يقال : فلان يعيش في ظل فلان : أي في عيشه وعنايته ، وكنّى باضمحلال متلفقها في الجو عن تفرّق الأسباب العلوية للبقاء وفنائها ، وبعفاء مخطّها في الأرض عن فناء آثارها في الأبدان ، والضمير في متلفّقها يعود إلى الغمام ، وفي مخطّها يعود إلى مهاب الرياح .

وقوله : فإنّما كنت جاراً جاوركم بدني أياماً .

فيه تنبيه على أن نفسه القدسية كانت متصلة بالملأ الأعلى ، ولم يكن لها ميل إلى البقاء في الدنيا ومجاورة أهلها فيها فكانت مجاورته لهم ببدنه فقط ، وأيضاً فإن المجاورة من عوارض الجسمية فيحتمل أن يكون ذلك تنبيهاً منه على وجود أمر آخر غير البدن وهو النفس ، وكنّى بالأيام عن مدة حياته الدنيا .

وقوله : وستعقبون .

أي توجدون في عاقبة أمركم مني جثة خالية لا روح بها ولا حراك قد اقفرت من تلك المعاني المعهودة لكم من العقل والنطق والقوة فهي متبدلة بالحراك السكون ، وبالنطق السكوت . ثم عاد إلى أمرهم بالاتعاظ بذلك الهدوء، وخفوت الأطراف وسكون الأطراف بالموت .

وقوله : فإنّه أوعظ للمعتبرين من المنطيق البليغ . صاحب اللسن والفصاحة .

كلام حقّ فإنّ الطباع أكثر انفعالاً واعتباراً عن مشاهدة ما فيه العبرة من الوصف له بالقول المسموع ، ولو بأبلغ عبارة . ثم أخذ عليه السلام في توديعهم .

فقوله : وداعيكم . إنشاء لا خبر .

وقوله : وداع امرىء مرصد للتلاقي .

أي معدّ ومهيّأ للقاء إلى الله .

وقوله : غداً ترون أيامي . إلى آخره .

تذكير لهم بفضيلته وتنبيه عليها ليثبت متّبعوه على اتباعه ، والغافلون عن فضله ومحلّه بينهم إذا فارقهم وولي أمرهم الظالمون بعده فلا بدّ أن ينكشف لهم ما كان مغطى عن أعين بصائرهم من لزومه للقصد في سبيل الله ، ويعرفون منزلته وفضله حين مشاهدة المنكرات ممن يقوم مقامه خلفاً في الناس . وإن وقائعه وحروبه وحرصه على هذا الأمر لم يكن لنيل دنيا بل لإقامة سنن العدل ورضا الله تعالى .

١٤٩ - ومن خطبة له (عليه السلام)

في الملاحم :

وَأَخَذُوا يَمِيناً وَشِمَالاً : طَعْناً فِي مَسَالِكِ الْغَيِّ ، وَتَرْكاً لِمَذَاهِبِ الرُّشْدِ ، فَلَا تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ كَائِنٌ مُرْصَدٌ ، وَلَا تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِيءُ بِهِ الْغَدُ فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ ، وَمَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ غَدٍ يَا قَوْمِ ، هٰذَا إِبَّانُ وُرُودِ كُلِّ مَوْعِدٍ ، وَدُنُوٍّ مِنْ طَلْعَةِ مَا لَا تَعْرِفُونَ ، أَلَا وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مِنَّا يَسْرِي فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ ، وَيَحْذُو فِيهَا عَلَى مِثَالِ الصَّالِحِينَ ؛ لِيَحُلَّ فِيهَا رِبْقاً ، وَيُعْتِقَ رِقّاً ، وَيَصْدَعَ شَعْباً ، وَيَشْعَبَ صَدْعاً ، فِي سُتْرَةٍ عَنِ النَّاسِ ، لَا يُبْصِرُ الْقَائِفُ أَثَرَهُ ، وَلَوْ تَابَعَ نَظَرَهُ ، ثُمَّ لَيُشْحَذَنَّ فِيهَا قَوْمٌ شَحْذَ الْقَيْنِ النَّصْلَ ، تُجْلَى بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ ، وَيُرْمَى بِالتَّفْسِيرِ فِي مَسَامِعِهِمْ ، وَيُغْبَقُونَ كَأْسَ الْحِكْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ .

أقول : إبّان الشيء . بكسر الهمزة وتشديد الباء : وقته . والربق بكسر الراء وتسكين الباء : حبل فيه عدّةعرى يشدّ به البهم . والصدع : الشق . والشعب : إصلاحه . والشحذ : التحديد . والقين : الحداد ، والغبوق : الشرب بالعشي . والصبوح : الشرب بالغداة .

فقوله : وأخذوا يميناً وشمالاً . إلى قوله : الرشد .

إشـارة إلى من ضـلّ من فـرق الإسـلام عن طـريق الهـدى التي عليهـا الكتـاب والسنّة وسلكـوا طرفي الإفـراط والتفريط منهـا . كما قـال عليه‌السلام فيمـا قبل : اليمين والشمال مضلّة والطريق الوسـطى هي الجادة . وقـد سبق تفسير ذلك مستوفى . ومسالك الغي : أطراف الرذائل من الفضائـل التي عددنـاها، كالحكمة والعفة والشجاعة والعدالة وما تحتهـا ، ومذاهب الـرشد : هي تلك الفضائل ، وظعناً وتركاً مصدران قاما مقام الحال .

وقوله : فلا تستعجلوا ما هو كائن مرصد .

ذلـك الاستعجال إشـارة إلى ما كـانـوا يتـوقّعـونـه من الفتن التي أخبـر الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عن وقوعها في المستقبل ، وكانوا في أكثر الوقت يسألونه عليه‌السلام عنها فقال : لا تستعجلوا ما هو كائن : أي لا بد من وقوعه وهو مرصد معدّ . ولا تستبطئوا ما يجيء به الغد : أي من الفتن والوقائع .

وقوله : فكم من مستعجل . إلى قوله : لم يدركه .

ذمّ للاستعجال والاستبـطاء لهذا المـوعود كقـوله : ﴿ **وعسى أن تحبّـوا شيئـاً وهو شـرّ لكم** ﴾[1]. وما أقـرب اليوم من تبـاشير غـد : أي من البشرى بغد . كقوله : غد ما غد ما أقرب اليوم من غد ، وكقوله : وإن غداً للناظرين قريب . ثم أخذ في تقريب ذلك الموعود من الفتن فقال : هذا إبّان ورود كل موعود به أو وقت دنو ظهور ما لا تعرفون من تلك الأمور بالتفصيل .

وقوله : ألا وإن من أدركها منّا .

أي من أدرك تلك الفتن من أهل بيته الأئمة الأطهار يسـري فيها بسـراج منيـر . واستعار لفظ السراج لكمالات نفسه التي استضاءت بها في طريق الله من العلوم والأخلاق الفاضلة ، ولفظ المنيـر ترشيـح . وهو إخبـار عن معرفتـه للحق وتمييزه من الباطل ، وأن تلك الفتن لا توقـع له شبهـة ولا تأثيـر لها في عقيـدته الصـادقة الصـافية بـل يتصرف فيهـا منقـاداً لأنـوار الله على صـراطـه المستقيم لا يلويه عنه ملوٍ بـل يقتفي فيه أثـر آبائـه الصالحين، ويلتـزم مكارم الأخـلاق. فيحل مـا انعقد فيهـا وأشكل على النـاس من الشبه . ويفـكّ ربق

(1) ٢ - ٢١٣ .

الشك من أعناق نفوسهم أو يفتدي فيها الأسرى فيفك ربق أسرهم ويعتقهم ، ويصدع ما انشعب والتأم من ضلال يمكنه صدعه ، ويشعب مما انصدع من أمر الدين ما أمكنه شعبه في سترة عن الناس لا يبصر القائف أثره ولو تابع إليه نظره ، وما زالت أئمة أهل البيت عليهم السلام مغمورين في الناس لا يعرفهم إلاّ من عرّفوه أنفسهم حتى لو تعرّفهم من لا يريدون معرفته لهم لم يعرفهم ، ولست أقول لم يعرف أشخاصهم بل لا يعرف أنهم أهل الحق والأحقّون بالامر.

وقوله : ثم ليشحذنّ فيها قوم .

أي في أثناء ما يأتي من الفتن تشحذ أذهان قوم . وتعدّ لقبول العلوم والحكمة كما يشحذ الحداد النصل ، ولفظ الشحذ مستعار لإعداد الأذهان ، ووجه الاستعارة الاشتراك في الإعداد التام النافع فهو يمضي في مسائل الحكمة والعلوم كمضي النصل فيما يقطع به ، وهو وجه التشبيه المذكور .

ثم أخذ في تفسير ذلك الشحذة والإعداد ، فقال : تجلىٰ بالتنزيل أبصارهم : أي تعدّ بالقرآن الكريم ودراسته وتدبّره أبصار بصائرهم لإدراك الحكمة وأسرار العلوم وذلك لاشتمال التنزيل الإلهي عليها ، ويرمى التفسير في مسامعهم : أي يلقى إليهم تفسيره على وجهه من إمام الوقت . ثم عبّر عن أخذهم الحكمة ومواظبتهم على تلقّفها بعد استعدادهم لها بالغبوق والصبوح ، ولفظ الصبوح والغبوق مستعاران لكونهما حقيقتين في الشرب المخصوص المحسوس . وهؤلاء المشار إليهم بالاستعداد للحكمة وأخذها هم علماء الأُمّة من جاء منهم قبلنا ومن في آخر الزمان من المستجمعين لكمالات النفوس السالكين لسبيل الله المرتضين في نظره ونظر الأئمة من ولده بعده .

منها : وَطَالَ الأَمَدُ بِهِمْ ، لِيَسْتَكْمِلُوا الْخِزْيَ ، وَيَسْتَوْجِبُوا الْغِيَرَ ، حَتَّى إِذَا اخْلَوْلَقَ الأَجَلُ ، وَاسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلى الْفِتَنِ ، وَأَشَالُوا عَنْ لَقَاحِ حَرْبِهِمْ ، لَمْ يَمُنُّوا عَلَى اللهِ بِالصَّبْرِ ، وَلَمْ يَسْتَعْظِمُوا بَذْلَ أَنْفُسِهِمْ فِي الْحَقِّ ؛ حَتَّى إِذَا وَافَقَ وَارِدُ الْقَضَاءِ انْقِطَاعَ مُدَّةِ الْبَلَاءِ حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَسْيَافِهِمْ ، وَدَانُوا لِرَبِّهِمْ بِأَمْرِ وَاعِظِهِمْ .

حَتَّى إِذَا قَبَضَ اللهُ رَسُولَهُ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الْأَعْقَابِ ، وَغَالَتْهُمُ السُّبُلُ ، وَاتَّكَلُوا عَلَى الْوَلَائِجِ ، وَوَصَلُوا غَيْرَ الرَّحِمِ ، وَهَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ ، وَنَقَلُوا الْبِنَاءَ عَنْ رَصِّ أَسَاسِهِ ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ : مَعَادِنُ كُلِّ خَطِيئَةٍ ، وَأَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي غَمْرَةٍ ، قَدْ مَارُوا فِي الْحَيْرَةِ ، وَذَهَلُوا فِي السَّكْرَةِ عَلَى سُنَّةٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ مِنْ مُنْقَطِعٍ إِلَى الدُّنْيَا رَاكِنٍ ، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّينِ مُبَائِنٍ .

أقول : الأمد : الوقت . والاشتيال : الرفع . والوليجة : البطانة ، وهي خاصة الرجل من أهله وعشيرته . ورصّ الأساس : إحكامه . وما روا : تحركوا .

وهذا الفصل يستدعي كلاماً منقطعاً قبله لم يذكره الرضي ـ رضوان الله عليه ـ قد وصف فيه فئة ضالّة قد استولت وملكت وأملى لها الله سبحانه .

وقوله : وطال الأمد بهم ليستكملوا الخزي .

كقوله تعالى : ﴿ **إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمّرناها تدميراً** ﴾[2] .

وقوله : حتى إذا اخلولق الأجل .

أي صار خلقاً ، وهو كناية عن بلوغهم غاية مدتهم المكتوبة بقلم القضاء الإلهي في اللوح المحفوظ .

وقوله : واستراح قوم إلى الفتن .

إشارة إلى من يعتزل الوقائع التي ستقع في آخر الزمان من شيعة الحق وأنصاره . ويستريح إليها : أي يجد في اشتغال القوم بعضهم ببعض راحة له في الانقطاع والعزلة والخمول ، واشتيالهم عن لقاح حربهم : رفعهم لأنفسهم عن تهييجها ، واستعار لفظ اللقاح بفتح اللام لإثارة الحرب ملاحظة

---

(١) ٣ ـ ١٧٢ .
(٢) ١٧ ـ ١٧ .

لشبهها بالناقة .

وقوله : لم يمنّوا .

جواب قوله : حتى إذا اخلولق . والضمير في يمنّوا قال بعض الشارحين : إنه عائد إلى العارفين الذين تقدم ذكرهم في الفصل السابق يقول : حتى إذا ألقى هؤلاء السلم إلى هذه الفئة الضالة، وعجزوا واستراحوا من منابذتهم إلى فتنتهم تقيّة منهم أنهض الله أُولئك الذين خصهم بحكمته، واطّلعهم على أسرار العلوم فنهضوا ولم يمنّوا على الله تعالى بالصبر في طاعته .

وفي رواية بالنصر : أي بنصرهم له . ولم يستعظموا ما بذلوه من نفوسهم في طلب الحق حتى إذا وافق القدر الذي هو وارد القضاء وتفصيله انقطاع مدة هذه الفئة، وارتفاع ما كان شمل الخلق من بلائهم حمل هؤلاء العارفون بصائرهم على أسيافهم ، وفيه معنى لطيف يريد أنهم أظهروا عقائد قلوبهم للناس، وكشفوها وجرّدوها مع تجريد سيوفهم فكأنّهم حملوها على سيوفهم فترى في غاية الجلاء والظهور. كما ترى السيوف المجردة .

ومنهم من قال : أراد بالبصائر جمع بصيرة وهي الدم فكأنه أراد طلبوا ثأرهم والدماء التي سفكتها تلك الفئة فكانت تلك الدماء المطلوب ثأرها محمولة على أسيافهم المجردة للحرب ، وأشار بواعظهم إلى الإمام القائم . وأقول : يحتمل أن يريد بالضمير في يمنّوا وما بعده القوم الذين استراحوا إلى الفتنة واشتالوا عن لقاح الحرب ، وذلك أنهم لم يفعلوا ذلك إلّا لأنه لم يؤذن لهم في القيام حين استراحتهم وإلقائهم السلم لهذه الفئة ، ولم يتمكنوا من مقاومتهم لعدم قيام القائم بالأمر فكانوا حين مسالمتهم صابرين على مضض من ألم المنكر الذي يشاهدونه غير مستعظمين لبذل أنفسهم في نصرة الحق، لو ظهر من يكون لهم ظهر يلجأون إليه حتى إذا ورد القضاء الإلهي بانقطاع مدة بلاء هذه الفئة وظهور من يقوم بنصر الحق. ودعا إليه حمل هؤلاء بصائرهم على أسيافهم وقاموا لربهم بأمر من يقوم فيهم واعظاً ومخوّفاً وداعياً ، وهذا الحمل يرجّحه عودة الضمير إلى الأقرب وهم القوم .

وقوله : حتى إذا قبض الله رسوله . إلى آخره .

هذا الفصل منقطع عما قبله لأن صريحه ذكر غاية الاقتصاص حال حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وحال الناس قبله وبعده ومعه ، وليس في الكلام المتقدم شيء من ذلك . اللهم إلاَّ أن يحمل من طال الأمد بهم في الكلام المتقدم على من كان أهل الضلال قبل الإسلام حتى إذا اخلولق أجلهم واستراح قوم منهم إلى الفتن والوقائع بالنهب والغارة واشتالوا عن لقاح حربهم : أي أعدّوا أنفسهم لها كما تعدّ الناقة نفسها بشول ذنبها للقاحها : أي برفعه ، وتسمى شائلاً ، ويكون الضمير في قوله : لم يمنّوا راجعاً إلى ذكر سبق للصحابة في هذه الخطبة حين قام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيهم وبهم للحرب فلم يمنّوا على الله بصبرهم معه وفي نصرة الحق ، ولم يستعظموا بذل أنفسهم له حتى إذا وافق وارد القضاء انقطاع مدة البلاء بدولة الجاهلية والكفر ، حمل هؤلاء الذين لم يمنوا على الله بنصرهم بصائرهم : أي ما كانوا يخفونه من الإسلام في أوله على سيوفهم : أي كشفوا عقائدهم كما سبق القول فيه أو دماءهم وثاراتهم من الكفّار ، ودانوا لربهم بأمر واعظهم وهو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحينئذ يصلح قوله : حتى إذا قبض الله رسوله . غاية لذلك الكلام على هذا التأويل .

وقوله : رجع قوم على الأعقاب . إلى آخره .

أما على المذاهب الإمامية فإشارة إلى عدول الصحابة بالخلافة عنه وعن أهل بيته عليهم السلام إلى الخلفاء الثلاثة ، وأمّا على مذهب من صحّح إمامة الخلفاء الثلاثة فيحتمل أن يريد بالقوم الراجعين على الأعقاب من خرج عليه في زمن خلافته من الصحابة كمعاوية وطلحة والزبير وغيرهم ، وزعموا أن غيره أحقّ بها منه ومن أولاده . والرجوع على الأعقاب كناية عن الرجوع عما كانوا عليه من الانقياد للشريعة وأوامر الله ورسوله ووصيته بأهل بيته ، وغيلة السبل لهم كناية عن اشتباه طرق الباطل بالحق واستراق طرق الباطل لهم وإهلاكها إيّاهم ، وهي الشبه المستلزمة للآراء الفاسدة كما يقال في العرف : أخذته الطريق إلى مضيق ، وهي مجاز في المفرد والمركب :

أما في المفرد فلأن سلوكهم لسبل الباطل لما كان عن غير علم منهم بكونه باطلاً ناسب الغيلة فأطلق عليه لفظها ، وأما في المركب فلأن إسناد

الغيلة إلى السبل ليس حقيقة . إذ الغيلة من فعل العقلاء ، واتكالهم على الولائج اعتماد كل من رأى منهم رأياً فاسداً على أهله وخواصه في نصرة ذلك الرأي. ووصلوا غير الرحم : أي غير الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وترك المضاف إليه للعلم به . وكذلك هجروا السبب الذي أُمروا بمودته ولزومه يريد أهل البيت أيضاً ، وظاهر كونهم سبباً لمن اهتدى بهم في الوصول إلى الله سبحانه. كما قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : خلّفت فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي حبلان ممدودان من السماء إلى الأرض لم يفترقا حتى يردا عليّ الحوض . فاستعار لهم لفظ الحبل ، والسبب في اللغة الحبل وأمرهم بمودته كما في قوله تعالى : ﴿ **قل لا أسئلكم عليه أجراً إلّا المودة في القربى** ﴾[1].

وقوله : ونقلوا البناء عن رصّ أساسه فبنوه في غير موضعه .

إشارة إلى العدول بأمر الخلافة عنه وعن أهل بيته إلى غيرهم ، وصلة غير الرحم خروج عن فضيلة العدالة إلى رذيلة الظلم ، وعدم مودة أولى القربى رذيلة التفريط من تلك الفضيلة الداخلة تحت العفة ، وكذلك نقل البناء عن موضعه دخول في رذيلة الظلم . ثم وصفهم وصفاً إجمالياً بكونهم معادن كل خطيئة : أي إنهم مستعدون لفعل كل خطيئة ، ومهيؤون لها . فهم مظانّها ، ولفظ المعادن استعارة ، وكذلك أبواب كل ضارب في غمرة ، واستعار لفظ الأبواب لهم باعتبار أن كل من دخل في غمرة جهالة أو شبهة يثير بها فتنة ، واستعان بهم فتحوا له ذلك الباب وساعدوه وحسّنوا له رأيه فكأنهم بذلك أبواب له إلى مراده الباطل يدخل منها.

وقوله : قد ماروا في الحيرة .

أي تردّدوا في أمرهم فهم حائرون لا يعرفون جهة الحق فيقصدونه ، وذهلوا : أي غابت أذهانهم في سكرة الجهل فهم على سنّة من آل فرعون وطريقته ، وإنّما نكر السنّة لأنه يريد بها مشابهتهم في بعض طرائقهم ، وآل فرعون أتباعه .

وقوله : من منقطع إلى الدنيا . إلى آخره .

---

(1) ٤٢ ـ ٢٢ .

تفصيل لهم باعتبار كونهم على سنة من آل فرعون فمنهم المنقطع إلى الدنيا المنهمك في لذاتها المكبّ على تحصيلها ، ومنهم المفارق للدين المباين له وإن لم يكن له دنيا ، والمنفصلة مانعة الخلو بالنسبة إلى المشار إليهم ، ويحتمل أن يريد مانعة الجمع ، ويشير بمفارق الدين إلى من ليس براكن إلى الدنيا ككثير ممّن يدعي الزهد مع كونه جاهلاً بالطريق فتراه ينفر من الدنيا ويحسب أنه على شيء، مع أن جهله بكيفية سلوك سبيل الله يقوده يميناً وشمالاً عنها . وبالله التوفيق .

١٥٠ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى مَدَاحِرِ الشَّيْطَانِ وَمَزَاجِرِهِ ، وَالاعْتِصَامِ مِنْ حَبَائِلِهِ وَمَخَاتِلِهِ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَنَجِيبُهُ وَصَفْوَتُهُ ، لَا يُوَازَى فَضْلُهُ ، وَلَا يُجْبَرُ فَقْدُهُ ، أَضَاءَتْ بِهِ الْبِلَادُ بَعْدَ الضَّلَالَةِ الْمُظْلِمَةِ ، وَالْجَهَالَةِ الْغَالِبَةِ ، وَالْجَفْوَةِ الْجَافِيَةِ ، وَالنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرِيمَ ، وَيَسْتَذِلُّونَ الْحَكِيمَ ، يَحْيَوْنَ عَلَى فَتْرَةٍ ، وَيَمُوتُونَ عَلَى كَفْرَةٍ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ أَغْرَاضُ بَلَايَا قَدِ اقْتَرَبَتْ فَاتَّقُوا سَكَرَاتِ النِّعْمَةِ ، وَاحْذَرُوا بَوَائِقَ النِّقْمَةِ ، وَتَثَبَّتُوا فِي قَتَامِ الْعِشْوَةِ ، وَاعْوِجَاجِ الْفِتْنَةِ ، عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا ، وَظُهُورِ كَمِينِهَا ، وَانْتِصَابِ قُطْبِهَا ، وَمَدَارِ رَحَاهَا : تَبْدُو فِي مَدَارِجَ خَفِيَّةٍ ، وَتَؤُولُ إِلَى فَظَاعَةٍ جَلِيَّةٍ ، شَبَابُهَا كَشَبَابِ الْغُلَامِ ، وَآثَارُهَا كَآثَارِ السِّلَامِ . تَتَوَارَثُهَا الظَّلَمَةُ بِالْعُهُودِ ، أَوَّلُهُمْ قَائِدٌ لِآخِرِهِمْ ، وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوَّلِهِمْ ، يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دَنِيَّةٍ ، وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جِيفَةٍ مُرِيحَةٍ ، وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَبَرَّأُ التَّابِعُ مِنَ الْمَتْبُوعِ ، وَالْقَائِدُ مِنَ الْمَقُودِ فَيَتَزَايَلُونَ بِالْبَغْضَاءِ ، وَيَتَلَاعَنُونَ عِنْدَ اللِّقَاءِ ، ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذلِكَ طَالِعُ الْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ ، الْقَاصِمَةِ الزَّحُوفِ ، فَتَزِيغُ قُلُوبٌ بَعْدَ اسْتِقَامَةٍ ، وَتَضِلُّ رِجَالٌ بَعْدَ سَلَامَةٍ ، وَتَخْتَلِفُ الْأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا ، وَتَلْتَبِسُ الْآرَاءُ عِنْدَ نُجُومِهَا ، مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصَمَتْهُ ، وَمَنْ سَعَى فِيهَا حَطَمَتْهُ ، يَتَكَادَمُونَ فِيهَا تَكَادُمَ الْحُمُرِ فِي الْعَانَةِ ، قَدِ اضْطَرَبَ مَعْقُودُ الْحَبْلِ ، وَعَمِيَ وَجْهُ الْأَمْرِ ، تَغِيضُ فِيهَا الْحِكْمَةُ ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الظَّلَمَةُ ، وَتَدُقُّ أَهْلَ الْبَدْوِ بِمِسْحَلِهَا ، وَتَرُضُّهُمْ

بِكَلْكَلِهَا ؛ يَضِيعُ فِي غُبَارِهَا الْوُحْدَانُ ، وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ ، تَرِدُ بِمُرِّ الْقَضَاءِ ، وَتَحْلُبُ عَبِيطَ الدِّمَاءِ ، وَتَثْلِمُ مَنَارَ الدِّينِ ، وَتَنْقُضُ عَقْدَ الْيَقِينِ ، تَهْرُبُ مِنْهَا الأَكْيَاسُ ، وَتُدَبِّرُهَا الأَرْجَاسُ ، مِرْعَادٌ مِبْرَاقٌ ، كَاشِفَةٌ عَنْ سَاقٍ ، تُقْطَعُ فِيهَا الأَرْحَامُ ، وَيُفَارَقُ عَلَيْهَا الإِسْلَامُ ، بَرِيُّهَا سَقِيمٌ ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ .

أقول : المداحر : جمع مدحر . وهي الأُمور التي بها يدحر : أي يطرد . ومخاتلها : محال غروره التي يخيّل إلى الناس بها ويوهمهم أنها نافعة . والبوائق : جمع بائقة ، وهي الداهية . والقتام بفتح القاف : الغبار . والعشوة بكسر العين : الأمر على غير بيان ووضوح . والفظاعة : تجاوز الأمر الشديد الحد والمقدار . والسلام بالكسر : الحجارة الصمّ واحدها سلمة بكسر السين . والمريحة : المنتنة . ويتزايلون : يتفارقون . ونجومها : طلوعها . وأشرف لها : أي انتصب لدفعها . والتكادم : التعاض بأدنى الفم . والعانة : القطيع من حمر الوحش . والمسحل : المبرد ، والمسحل : حلقة تكون في طرف شكيمة اللجام مدخلة في مثلها . والوحدان : جمع واحد . والعبيط : الخالص الطري .

وصدر هذا الفصل باستعانة الله تعالى على ما يدحر الشيطان ويزجر به . وذلك هو العبادات والأعمال الصالحة المستلزمة لطرده وزجره وتطويعه ، وعلى الاعتصام من حبائله ومخاتله . وهي الشهوات واللذات الدنيوية ، واستعار لها لفظ الحبائل وهي إشراك الصائد لمشابهتها إيّاها في استلزام الحصول فيهما للبعد عن السلامة والحصول في العذاب ، ومن ممادح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كونه نجيباً لله : أي مختاراً ، وروي نجيّه . وصفوة له من خلقه لا يوازى فضله : أي لا يحصل مثله في أحد . إذ كان كماله في قوّتيه النظرية والعملية غير مدرك لأحد من الخلق ، ومن كان كذلك لم يجبر فقده إلّا بقيام مثله من الناس ، وإذ لا مثل له فيهم فلا جبران لفقده .

وقوله : أضاءت به البلاد بعد الضلالة .

أي ضلالة الكفر ، ووصفها بالظلمة لعدم الاهتداء فيها للحق . والوصف مستعار وكذلك وصف الإضاءة به مستعار لاهتداء الخلق به في معاشهم ومعادهم ، وإسناد الإضاءة إلى البلاد مجاز . أو الجهالة الغالبة على

أكثر الخلق ، وأراد الجهل بالطريق إلى الله تعالى وبكيفية نظام المعاش مما بيّنه هو وكشفه بشريعته . والجفوة الجافية يريد غلظة العرب، وما كانوا عليه من قساوة القلوب وسفك الدماء ، ووصفها بما اشتقّ منها مبغالة وتأكيداً لها ، وأراد الجفوة القوية . والناس يستحلّون الحريم الواو للحال والعامل أضاءت ويستذلّون الحكيم ، وظاهر من عادة العرب إلى الآن استذلال من عقل منهم، وحلم عن الغارة والنهب وإثارة الفتن ، واستنهاضه بنسبته إلى الجبن والضعف . ويحيون على فترة : أي على حالة انقطاع الوحي والرسل ، وتلك حال انقطاع الخير وموت النفوس بداء الجهل . ويموتون على كفرة وهي الفعلة من الكفر لأهل كل قرن حيث لا هادي لهم .

ثم أخذ عليه السلام في إنذار السامعين باقتراب حوادث الوقائع المستقبلة التي يرمون بها كما يرمى الغرض بالسهام ، واستعار لفظ الغرض لهم ، ولما كانت الفتن الحادثة كتدمير قوم وإهلاكهم مثلاً بحسب استعدادهم لذلك، وكان أكبر الأسباب المعدّة له هي الغفلة عن ذكر الله بالانهماك في نعم الدنيا ولذاتها استعار للغفلات لفظ السكرات . ثم أمر باتقائها ، وحذّر من دواهي النقمات بسبب كفران النعم .

ثم أمر بالتثبّت أو التبيّن على الروايتين عند اشتباه الأُمور عليهم وظهور الشبهة المثيرة للفتن كشبهة قتل عثمان التي نشأت منها وقائع الجمل وصفّين والخوارج ، واستعار لفظ القتام لذلك الأمر المشتبه ، ووجه المشابهة كون ذلك الأمر مما لا يهتدي فيه خائضوه كما لا يهتدي القائم في القتام عند ظهوره وخوضه ، واعوجاج الفتنة إتيانها على غير وجهها ، ولفظ الجنين يحتمل أن يكون حقيقة : أي عند طلوع ما اجتنّ منها وخفى عليكم ، وكذلك كمينها: أي ما كمن منها واستتر، ويحتمل أن يكون استعارة، وعنى بقطبها من تدور عليه من البغاة المنافرين استعارة. وانتصابه: قيامه لذلك الأمر، وكذلك استعار لفظ مدار الرحى لدورانها على من تدور عليه من أنصار ذلك القطب وعسكره الذين تدور عليهم الفتنة.

ثم أخبر أنها تبدأ في مدارج خفية ، وأراد بالمدارج صدور من ينوي

القيام فيها ويقصد [يعقد على خ] إثارتها ، وكان هذا إشارة إلى فتنة بني أمية ، وقد كان مبدأها شبهة قتل عثمان ، ولم يكن أحد من الصحابة يتوهم خصوصية هذه الفتنة وإنّما كانوا علموا من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حدوث وقائع وفتن غير معينة الأزمان ، ولا من يثيرها ويكون قطباً لها. فخفاء مدارجها كتمان معاوية وطلحة والزبير وغيرهم لأمورهم وما عزموا عليه من إقامة الفتنة والطمع في الملك والدولة حتى آل ذلك الطمع إلى الأمور القطعية الواضحة بعد الخفاء ، واستعار لفظ الشباب لقيامها وظهورها في الناس ، ووجه المشابهة السرعة في الظهور، ولذلك أكدها بتشبيه ذلك الظهور بشباب الغلام : أي في السرعة ، ومع سرعتها لها آثار في هدم الإسلام كآثار الحجارة الصلب في الجلد ، ووجه الشبه إفسادها للبين ولنظام المسلمين كإفساد الحجر ما يقع عليه بالرض والكسر ، وأشار بالظلمة التي يتوارثونها إلى بني أُميّة بعهد الأب لابنه إلى آخرهم ، وذكر قود أولهم لآخرهم إلى النار، والدخول في الظلم والضلالة وإثارة تلك الفتن ، واستعار لفظ القود لتهيئة الأول منهم أسباب الملك لمن بعده واقتداء آخرهم بأوّلهم في ذلك ، وضمير المفعول في يتوارثونها يرجع إلى تلك الفتنة .

ثم أشار إلى صفة حالهم في إثارة تلك الفتن وتوارثها وهي المنافسة في الدنيا الدنيّة في نظر العقلاء ، واستعار لفظ التكالب لمجاذبة بعضهم لبعض عليها كالمجاذبة بين الكلاب على الميتة . واستعار لها لفظ الجيفة ، ورشّح بذكر المريحة للتنفير عنها ، ووجهها كونها مستلزمة لأذى طالبها مهروباً منها العقلاء كالهرب من الجيفة المنتنة والانزواء عنها . ثم أخبر بانقضائها عن قليل ، وكنّى عن ذلك بتبرىء التابع من المتبوع والقائد من المقود : أي يتبرء كل من الفريقين من الآخر كما قال تعالى : ﴿ **إذ تبرء الذين اتبعوا من الذين اتبعوا** ﴾(1). وقوله : ﴿ **قالوا ضلّوا عنّا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً** ﴾(2).

وذلك التبرؤ قيل عند ظهور الدولة العباسية فإن العادة جارية بتبرىء الناس من الولاة المعزولين خصوصاً عند الخوف ممن تولى عزل أولئك أو قتلهم فيتباينون بالبغضاء إذ لم تكن أُلفتهم ومحبتهم إلّا لغرض دنياوي زال ،

(1) ٢ - ١٦١ .
(2) ٤٠ - ٧٤ .

ويتلاعنون عند اللقاء . وقيل ذلك يوم القيامة .

قوله : وعن قليل. إلى قوله : عند اللقاء .

جملة اعتراضية مؤكد بها معنى تعجبه منهم فكأنه قال : إنهم على تكالبهم عليها عن قليل يتبرء بعضهم من بعض ، وذلك أدعى لهم إلى ترك التكالب عليها .

وقوله : ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرجوف ، وكانت هذه الفتنة هي فتنة التتار إذ الدائرة فيها على العرب . وقال بعض الشارحين : بل ذلك إشارة إلى الملحمة الكائنة في آخر الزمان كفتنة الدجال ، وكنى عن أهوالها واضطراب أمر الإسلام فيها بكونها رجوفاً : أي كثيرة الرجف ، وطالعها مقدماتها وأوائلها ، وكنّى بقصمها عن إهلاك الخلق فيها ، واستعار لها لفظ الزحوف ملاحظة لشبهها بالرجل الشجاع كثير الزحف في الحرب إلى أقرانه : أي يمشي إليهم قدماً .

ثم شرع في بيان أفعال تلك الفتنة بالناس من إزاغة قلوب قوم عن سبيل الله تعالى بعد استقامتها عليه ، وضلال رجال : أي هلاكهم في الآخرة بالمعاصي بعد سلامة منها ، واختلاف الأهواء عن إرادة الله بهجومها ، والتباس الآراء الصحيحة بالفاسدة عند ظهورها على الناس فلا يعرفون وجه المصلحة من غيره ، ومن يطلع إلى مقاومتها وسعى في دفعها هلك ، واستعار لفظ التكادم. إما لمغالبة مثيري هذه الفتنة بعضهم لبعض أو مغالبتهم لغيرهم . وشبه ذلك بتكادم الحمر في العانة .

ووجه التشبيه المغالبة مع الإيماء : أي خلعهم ربق التكليف من أعناقهم وكثرة غفلتهم عمّا يراد بهم في الآخرة ، واستعار معقود الحبل لما كان انبرم من دولة الإسلام واستعار لفظ الحبل للدين ، وكنّى باضطرابه عن عدم استقرار قواعد الدين عند ظهور أول هذه الفتنة ، وعمى وجه هذا الأمر : أي عدم الاهتداء إلى وجه المصلحة ، وأشار بالحكمة التي تغيض فيها إلى الحكمة الخلقيّة التي عليها مدار الشريعة وتعليمها ، واستعار لفظ الغيض لعدم ظهورها والانتفاع بها، وينطق فيها الظلمة بالأمر والنهي ، وما يقتضيه آراؤهم الخارجة عن العدل ، واستعار لفظ المسحل لما تؤذي به العرب وأهل

البادية ، ووجه المشابهة اشتراك المبرد أو شكيمة اللجام وما تؤذي به العرب من هذه الفتنة في الإيذاء فكأنّها شجاع ساق عليهم فدقّهم بشكيمة فرسه أو نحو ذلك ، وكذلك استعار لفظ الكلكل لما يدهم البدو منها ملاحظة لشبهها بالناقة التي تبرك على الشيء فتسحقه .

وقوله : يضيع في غبارها الوحدان ويهلك في طريقها الركبان .

كناية عن عظمتها : أي لا يقاومها أحد ولا يخلص منها الوحدان والركبان ، ولفظ الغبار مستعار للقليل اليسير من حركة أهلها : أي أن القليل من الناس إذا أرادوا دفعها هلكوا في غبارها من دون أن يدخلوا في غمارها ، وأما الركبان وكنّى بهم عن الكثير من الناس. فإنّهم يهلكون في طريقها وعند خوضها ، وقيل : أراد بالوحدان فضلاء الوقت . إذ يقال : فلان واحد وقته ، وبالغبار الشبه التي تغطي الحق عن أعينهم ، ويكون الركبان كناية عن الجماعة أهل القوة ، وإذا كان هؤلاء يهلكون في طريقها : أي عند الخوض لغمراتها فكيف بغيرهم ، وكنّى بمرّ القضاء عن القتل والأسر ونحوهما ، وظاهر كون الواردات المؤذية أو النافعة واردة عن القضاء الإلهي معلومة الكون ، وكذلك استعار وصف الحلب لها ملاحظة لشبهها بالناقة ، وكنّى بذلك عن سفك الدماء فيها ، ومنار الدين أعلامه وهم علماؤه ويحتمل أن يريد قوانينه الكلية ، وثلمها عبارة عن قتل العلماء، وهدم قواعد الدين وترك العمل به ، وعقد اليقين هو الاعتقاد الموصل إلى علم اليقين أو إلى عين اليقين، وهو اعتقاد الشريعة وإيصال ذلك إلى جوار الله تعالى والقرب منه ونقضه هو ترك العمل على وفقه من تغيّره وتبدّله ، والأكياس الهاربون منها هم العلماء وأهل العقول السليمة وكل هذه الإشارات معلومة من فتنة من ذكرنا ، وظاهر كونهم أرجاس النفوس يرجس الشيطان أنجاسها بالهيئات البدنية ، والملكات الرديئة أنجاس الأبدان بحكم الشريعة ، وكنى عن شدتها وكونها محل المخاوف بوصفي المرعاد والمبراق المستعارين ملاحظة لشبهها بالسحابة كثيرة البروق والرعود وبوصف كشفها عن ساق عن إقبالها مجردة كالمشمر للحرب أو لأمر مهمّ ، وظاهر كونها تقطع فيها الأرحام ويفارق عليها الإسلام .

وأشار بريّها إلى من يعتقد في هذه الدولة أنه ذو صلاح بريء من المعاصي والآثام مع كونه ليس كذلك . إذ من الظاهر أن السالم في هذه الفتنة من معصية الله قليل بل أقلّ من القليل ، ولعله عند الاستقراء لا يوجد ، وأشار بظاعنها إلى من يعتقد أنه متخلّف عنها، وغير داخل فيها وظاهر كونه غير منحرف عنها ، ويحتمل أن يريد أن من ارتحل عنها خوفاً لا ينجو منها ، وبالله التوفيق .

منها : بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ ، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ ، يُخْتَلُونَ بِعَقْدِ الأَيْمَانِ ، وَبِغُرُورِ الإِيمَانِ ، فَلَا تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ ، وَأَعْلَامَ الْبِدَعِ ، وَالْزَمُوا مَا عُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الْجَمَاعَةِ ، وَبُنِيَتْ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ ، وَاقْدَمُوا عَلَى اللهِ مَظْلُومِينَ وَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ ، وَاتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ ، وَمَهَابِطَ الْعُدْوَانِ ، وَلَا تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ لُعَقَ الْحَرَامِ ، فَإِنَّكُمْ بِعَيْنِ مَنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَعْصِيَةَ ، وَسَهَّلَ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ .

أقول : يقال : طل دم فلان فهو مطلول : إذا هدر ولم يطلب به . ويختلون : يخدعون ، واللعق : جمع لعقة ، وهي اسم لما تتناوله الملعقة مرة .

فقوله : بين قتيل . إلى قوله : مستجير .

يشبه أن يكون صفة حال المتمسكين بالدين في زمان الفتنة الأولى .

وقوله : يختلون . إلى قوله: وبغرور الإيمان .

صفة حال استجلاب هؤلاء المقتولين : أي أنهم يخدعون بإعطاء الأقسام والعهود الكاذبة وذلك كخداع الحسين عليه السلام عن نفسه وأصحابه ، روي يختلون بالبناء للفاعل فيكون وصف حال أهل الفتنة وأتباعهم . ثمّ أخذ في نهي السامعين أن يكونوا أنصاراً للفتن التي يدركونها ، وأعلاماً للبدع : أي رؤساء يشار إليهم فيها ، ويقتدى بهم كما يشار إلى الأعلام البيّنة ويقتدى بها ، وفي الخبر كن في الفتنة كابن لبون لا ظهر فيركب ولا ضرع فيحلب .

وقوله : وأقدموا على الله مظلومين .

ليس المراد منه الأمر بالانظلام فإنّ ذلك طرف التفريط من فضيلة

العدالة ، وهي رذيلة بل المراد إنّكم إذا كانت لكم مكنة من الظلم فلا تظلموا ولو استلزم ترك الظلم انظلامكم، وهو كسر للنفوس عن رذيلة الظلم خصوصاً نفوس العرب فإنها أكثر تطاولاً إلى الظلم وأمنع عن قبول الانظلام والانفعال عنه وإن استلزم الظلم كما أشار إليه العربي .

ومن لم يذد عن حوضه بسهامه يهدم ومن لا يظلم القوم يظلم

ومدارج الشيطان : طرقه ، وهي الرذائل التي يحسّنها ويقود إليها ، وكذلك مهابط العدوان محالّه التي يهبط فيها . وهي من طرق الشيطان أيضاً ، ولعق الحرام كناية عما يكتسبه الإنسان من الدنيا، ومتاعها على غير الوجه الشرعي ، ونبّه باللعق على قلّتها وحقارتها بالنسبة إلى متاع الآخرة ، ونبّه على وجوب الانتهاء عما نهى عنه بقوله : فإنّكم بعين من حرم عليكم . إلى آخره يقال : فلان من فلان بمرأىً ومسمع وبعين منه إذا كان مطلعاً على أمره : أي فإن الذي حرّم عليكم المعصية وأوجب عليكم طاعته مطلع عليكم وعالم بما تفعلون ، وذلك أردع لهم من النهي المجرد ، ولفظ العين مجاز في العلم .

١٥١ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

الْحَمْدُ للهِ الدَّالِ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ ، وَبِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لاَ شَبَهَ لَهُ ، لاَ تَسْتَلِمُهُ الْمَشَاعِرُ ، وَلاَ تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ ؛ لاِفْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ ، وَالْحَادِّ وَالْمَحْدُودِ ، وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ ، الأَحَدِ بِلاَ تَأْوِيلِ عَدَدٍ ، وَالْخَالِقِ لاَ بِمَعْنَى حَرَكَةٍ وَنَصَبٍ ، وَالسَّمِيعِ لاَ بِأَدَاةٍ ، وَالْبَصِيرِ بِلاَ تَفْرِيقِ آلَةٍ ، وَالشَّاهِدِ لاَ بِمُمَاسَّةٍ ، وَالْبَائِنِ لاَ بِتَرَاخِي مَسَافَةٍ وَالظَّاهِرِ لاَ بِرُؤْيَةٍ ، وَالْبَاطِنِ لاَ بِلَطَافَةٍ ، بَانَ مِنَ الأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا ، وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهَا ، وَبَانَتِ الأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ ، مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَهُ ، وَمَنْ قَالَ « كَيْفَ ؟» فَقَدِ اسْتَوْصَفَهُ ، وَمَنْ قَالَ « أَيْنَ ؟» فَقَدْ حَيَّزَهُ ، عَالِمٌ إِذْ لاَ مَعْلُومٌ ، وَرَبٌّ إِذْ لاَ مَرْبُوبٌ ، وَقَادِرٌ إِذْ لاَ مَقْدُورٌ .

أقول : المشاعر : الحواس . إذ هي محل الشعور .

وقد حمد الله تعالى باعتبارات من أوصافه ، وفي الفصل أبحاث من العلم الإلهي :

الأول : الإشارة إلى وجوده تعالى الواجب ، وللناس في إثباته طريقان :

إحديهما : إثبات وجوده بالنظر في نفس الوجود ، وقسمته إلى أقسام حاصرة ، وتقرير هذه الطريقة أن يقال : لا شك في وجود موجود فذلك الموجود إن كان واجب الوجود فهو المطلوب ، وإن كان ممكناً افتقر إلى مؤثر بناء على أنّ العلة المحوجة إلى المؤثر هي الإمكان ، وذلك الموجود إن كان ممكناً افتقر إلى غيره ولزم الدور أو التسلسل وكلاهما باطلان :

أما الأول : فلأنه لو افتقر كل واحد من الأمرين إلى الآخر باعتبار واحد لزم تقدم كل منهما على المتقدم على نفسه فيلزم تقدمه على نفسه بمراتب .

وأما الثاني: فلأنه ولو كانت سلسلة من علل ومعلولات لا نهاية لها في الوجود لكان مجموعها ممكناً لافتقاره إلى الأجزاء التي هي غيره وبمجموعها علّة تامة فهي إما نفسه وهو محال بالبديهة أو أمر داخل فيه وهو باطل. لأن العلة التامة للمركب علّة أولاً لأجزائه وإلاّ لتوقف على علّة أجزائه فلم تكن علّة تامة له. بل هي مع علّة أجزائه هذا خلف ، وإذا كانت علة المركب علّة أولاً لأجزائه لزم كون ذلك الجزء المؤثر في المجموع مؤثراً في نفسه أولاً ، وفي علله السابقة فيلزم تقدمه على نفسه بمراتب غير متناهية، وذلك باطل بالبديهة فبقي أن يكون المؤثر في ذلك المجموع إما أمراً خارجاً عنه أو ما يتركب من الداخل والخارج عنه لكن القسم الثاني أيضاً باطل لأن الداخل لما كان جزءاً من العلة المركبة فله تقدم عليها ، وهي متقدمة على مجموع الممكنات فلها تقدم عليه ، وعلى أجزائه فجزؤها كذلك فله تقدم على نفسه وعلى علله، وهو باطل فبقي الأول لكن الموجود الخارج عن كل الممكنات لا يكون ممكناً. بل واجب الوجود ، وهو المطلوب ، وهذه طريق العلّيين الذين يستدلون به على مخلوقاته ويسمونه برهان اللمّ .

وأما الطريق الثانية: فهي الاستدلال بالنظر في المخلوقات وطبائعها

وإمكانها وتكثّرها وقبولها للتغيّر والتركيب على مبادئها . ثم على المبدء الأول ـ جلت عظمته ـ وهي طريق الطبيعيين وهي التي أشار إليها عليه السلام بقوله : الدال على وجوده بخلقه ، والمتكلمون فرعوا هذه الطريق إلى أربع طرق :

أحدها : أنهم استدلوا بحدوث هذه الذوات على إمكانها وبإمكانها على حاجتها إلى موجد ومؤثر ، وهي طريق الأشعري وأبي الحسين البصري والمتأخّرين من المتكلمين .

الثانية : استدلوا بحدوث هذه الذوات فقط على وجود محدث لها من غير نظر إلى الإمكان فقالوا : الأجسام محدثة وكل محدث فله محدث ، والمقدمة الأولى استدلالية، والثانية عندهم بديهية .

الثالثة : استدلالهم بإمكان الصفات ، وذلك أن بيّنوا أن الأجسام الفلكية والعنصرية متماثلة ، ثم قالوا : رأينا بعضها قد اختصّ بصفات ليست للآخر فذلك التخصيص ليس للجسمية ولا للوازمها ، وإلاّ لوجب في كل جسم كذلك ، ولا لعارض من عوارضها لأنَّ الكلام في تخصيص ذلك العارض كالكلام في الأول، ويلزم التسلسل ، ولا للطبيعة كما يقول بعض الناس لأنها لا تفعل في المادة البسيطة كالنقطة مثلاً فعلاً مختلفاً فبقي أن يكون ذلك التخصيص لمدبر حكيم وهو مرادنا بالصانع .

الرابعة : الاستدلال بحدوث الصفات وهو ظاهر ، وتقرير هذه الطرق وما لها وعليها في الكتب الكلامية ، وينبغي أن يخصص المتكلم قوله عليه السلام : الدال على وجوده بخلقه الطريقة الأولى لهم ، والثالثة فإنه عليه السلام جعل الحدوث دليلاً على الأزلية .

البحث الثاني : في أزليته ، وبيانه ما ذكره عليه السلام بقوله : وبمحدث خلقه على أزليته ، وتقرير هذه الدلالة أنه قد ثبت في موضعه أن جميع المحدثات صادرة عن قدرته تعالى ومنتهية عندها فلو كان هو محدثاً لكان محدثاً لنفسه وهو باطل بالضرورة .

البحث الثالث : أنه لا مثل له ولا شبيه ، وإليه الإشارة بقوله : وباشتباههم على أنه لا شبيه له ، وأراد اشتباههم في الحاجة إلى المؤثر

والمدبر ، وتقرير هـذه الطريق أن نقـول : إن كان تعـالى غنياً عن المؤثـر فلا شبيـه لـه في الحـاجـة إليـه لكن المقـدم حقّ . فـالتـالي مثله ، وقيـل : أراد اشتباههم في الجسمية، والجنس والنوع والأشكال والمقـادير والألـوان ونحو ذلك ، وإذ ليس داخلاً تحت جنس لبراءته عن التـركيب المستلزم للإمكـان ، ولا تحت النوع لافتقاره في التخصيص بـالعوارض إلى غيـره ، ولا بذي مـادة لاستلزامهـا التركيب أيضـا فليس بذي شبيـه في شيء من الأمور المـذكورة ، والأول أعمّ في نفي الشبيه .

البحث الـرابع : أن المشـاعر لا تستلمـه ، وبيانـه أن استلام المشـاعر مستلزم للجسميـة والأعراض القـائمـة بهـا ، وإذ قـد تنزّه قـدسـه تعـالى عن الجسمية ولواحقها فقد تنزّه عن إدراك المشاعر ولمسها .

البحث الخامس : أن السواتـر لا تحجبه ، وبيـانه أن الحجـاب والستر من لواحق ذي الجهة والجسمية ، وإذ تنزّه قـدسه عنهـا فقد تنـزه عن الحجب والستر المحسوسين .

وقوله : لافتراق الصانع والمصنوع . إلى قوله : والمربوب .

التعليـل راجع إلى الجمـل المتقدمـة كلها . إذ كـان لكل من الصـانـع والمصنـوع صفـات تخصّـه ويتميّـز بهـا وهي أليق بـه ، وبهـا يفـارق الآخـر فالمخلوقية والحدوث والاشتباه والملموسية بـالمشاعـر والحجب بالسـواتر من لواحق الأمور الممكنة المصنوعة ، ومما ينبغي لها ويليق بها ، والوجود الأزلي الذي لا شبيه له المنزّه عن المشاعر وحجب السواتر من لواحق الصانـع الأول الـواجب ، وهـو الـذي ينبغي لـه ويليق بـه ، ويضـاد مـا سبق من أوصـاف الممكنـات ، وأراد بالحـاد خالق الحـدود والنهايـات وهو الصـانـع ، واعتبـار الصانع غير اعتبار الرب لدخول المالكية في مفهوم الربوبية دون الصنع .

البحث السادس : في وحدانيّته وقد سبق برهانها ، وأراد بقولـه : ليس بمعنى العدد أن وحدانيته ليس بمعنى كونـه مبدءً لكثـرة تعدّ بـه كما يقـال في أول العدد واحد ، وقـد علمت فيما سبق أن الـواحد يقـال بالاشتـراك اللفظي على معانٍ عديدة عرفتها وعرفت إطلاق الواحـد عليه تعـالى بأي معنى هـو ،

وأنّه لا يجوز أن يكون مبدء للعدد بل هو تعالى واحد بمعنى أنه لا ثاني له في الوجود بمعنى أنه لا كثرة في ذاته بوجه لا ذهناً ولا خارجاً ، وبمعنى أنه لم يفته من كماله شيء بل كل ما ينبغي أن يكون له فهو بالذات والفعل .

البحث السابع : في كونه تعالى في خالقيته منزهاً عن الحركات والمتاعب ، وقد عرفت لميّة ذلك في الخطبة الأولى ، وهو كونهما من لواحق الأجسام المنزّه قدسه عنها .

البحث الثامن : كونه سميعاً لا بأداة : أي لا بسمع ، وقد سبق بيانه في الخطبة الأولى .

البحث التاسع : كونه بصيراً لا بتفريق الآلة ، وتفريقها إما عبارة عن بعث القوة الباصرة وتوزيعها على المبصرات ، وهذا المعنى على قول من جعل الإبصار بآلة الشعاع الخارج من العين المتصل بسطح المرئي أظهر. فإن توزيعه أوضح من توزيع الآلة على قول من يقول : إن الإدراك يحصل بانطباع صورة المرئي في العين ، ومعنى التفريق على القول الثاني هو تقليب الحدقة وتوجيهها مرة إلى هذا المبصر، ومرة إلى ذاك كما يقال : فلان مفرّق الهمة والخاطر إذا وزع فكره على حفظ أشياء متباينة ومراعاتها كالعلم وتحصيل المال ، وظاهر تنزيهه تعالى عن الإبصار بآلة الحس لكونها من توابع الجسمية ولواحقها .

البحث العاشر : كونه تعالى شاهداً : أي حاضراً لا بمماسة شيء ، والمراد تنزيه حضوره عن مماثلة حضور الجسمانيات المستلزم للقرب المستلزم لمماسة الأجسام وتقارب أين من أين فهو تعالى الحاضر بعلمه عند كل شيء والشاهد لكل شيء من غير قرب ولا مماسة ولا أين مطلقاً لتنزهه عن الجسمية ولواحقها .

البحث الحادي عشر : أنه تعالى مبائن للأشياء لا بتراخي مسافة : أي أن مباينته للأشياء لا تستدعي التمييز بالوضع والأين بل بذاته فقط ، وقد سبق تقرير ذلك في الخطبة الأولى أيضاً .

البحث الثاني عشر : أنه الظاهر لا برؤية ، والباطن لا بلطافة ، وذلك أن الظاهر من الأجسام ما كان منها مرئياً بحاسة البصر والباطن منها ما كان

لطيفاً إمّا لصغر حجمه أو لطافة قوامه كالهواء؛، وظهوره تعالى وبطونه منزّه من هاتين الكيفيتين ، وقد شرحنا هذين الوصفين غير مرة .

البحث الثالث عشر : كونه بان من الأشياء بالقهر لها والقدرة عليها . إلى قوله : إليه . ذكر في بينونته تعالى من مخلوقاته ما ينبغي له من الصفات ، وفي بينونتها منه ما ينبغي لها فالذي ينبغي له كونه قاهراً لها غالباً عليها ومستولياً ، وكونه قادراً على إيجادها وإعدامها ، والذي ينبغي لها كونها خاضعة في ذلّ الإمكان والحاجة لعزّته وقهره وراجعة في وجودها وكمالاتها إلى وجوده ، وبذلك حصل التباين بينها وبينه .

البحث الرابع عشر : تنزيهه عن الصفات الزائدة بالقياس الذي ذكره بقوله : من وصفه فقد حدّه ، ومن حدّه فقد عدّه ، وقد مرّ هذا القياس بعينه في الخطبة الأولى بأتم تقرير وأبلغ تحقيق غير أنه قال هناك : ومن أشار إليه فقد حدّه ، وقال هيهنا : ومن وصفه فقد حدّه لكن المراد بوصفه هنا هو إشارة الوهم إليه، واستثباته بكيفيات وصفات فيكون معنى العبارتين واحد .

وقوله : ومن عدّه فقد أبطل أزله .

لما كان عدّه عبارة عن جعله مبدءاً لكثرة معدودة أو عن كونه ذا أجزاء معدودة ، وكان ذلك من لواحق الممكنات والمحدثات الغير المستحقّة للأزلية بالذات لا جرم كان من عدّه بأحد الاعتبارين مبطلاً أزله الذي يستحقه لذاته.

البحث الخامس عشر : تنزيهه أن يسأل عنه بكيف لأنها سؤال عن الكيفية والصفة وهو معنى قوله : قد استوصفه ، وقد بيّنا تنزيهه تعالى عن الكيفيّات والصفات .

البحث السادس عشر : تنزيهه عن السؤال عنه بأين ، وذلك لأنها سؤال عن الحيّز والجهة اللذين هما من لواحق الأجسام ، وقد بيّنا تنزيهه تعالى عن الجسميّة وما ينبغي لها فليس هو سبحانه في مكان وهو في كل مكان بعلمه وإحاطته .

البحث السابع عشر : كونه تعالى عالماً . إذ لا معلوم . إلى قوله : مقدور .

وقد علمت معنى علمه وربوبيّته وقدرته ، وعلمت أن الإشارة بإذ إلى اعتبار تقدّمه بذاته على معلوماته ومعلولاته ، وظاهر عند ذلك الاعتبار أنه لا معلوم في الوجود سوى ذاته لذاته ولا مربوب ولا مقدور موجود هناك . بل هي واجبة التأخر عن ذلك الاعتبار سواء كانت بعد ذلك محدثة كلها كما عليه المتكلّمون أو بعضها كما عليه الأوائل ، وبالله التوفيق والعصمة .

منها : قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ ، وَلَمَعَ لاَمِعٌ ، وَلاَحَ لاَئِحٌ ، وَاْعْتَدَلَ مَائِلٌ ، وَاْسْتَبْدَلَ اللهُ بِقَوْمٍ قَوْماً ، وَبِيَوْمٍ يَوْماً ، وَاْنْتَظَرْنَا الْغِيَرَ اْنْتِظَارَ الْمُجْدِبِ الْمَطَرَ ، وَإِنَّمَا الأَئِمَّةُ قُوَّامُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ ، وَعُرَفَاؤُهُ عَلَى عِبَادِهِ ، لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ ، وَلاَ يَدْخُلُ النَّارَ إِلاَّ مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ .

إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِالإِسْلاَمِ ، وَاْسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ ، وَذٰلِكَ لأَنَّهُ اْسْمُ سَلاَمَةٍ وَجِمَاعُ كَرَامَةٍ ، اْصْطَفَى اللهُ تَعَالَى مَنْهَجَهُ ، وَبَيَّنَ حُجَجَهُ ، مِنْ ظَاهِرِ عِلْمٍ ، وَبَاطِنِ حِكَمٍ ، لاَ تَفْنَى غَرَائِبُهُ ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ ، فِيهِ مَرَابِيعُ النِّعَمِ ، وَمَصَابِيحُ الظُّلَمِ ، لاَ تُفْتَحُ الْخَيْرَاتُ إِلاَّ بِمَفَاتِيحِهِ ، وَلاَ تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلاَّ بِمَصَابِيحِهِ ، قَدْ أَحْمَى حِمَاهُ ، وَأَرْعَى مَرْعَاهُ ، فِيهِ شِفَاءُ الْمُشْتَفِي ، وَكِفَايَةُ الْمُكْتَفِي .

أقول : العرفاء : جمع عريف وهو النقيب ، وهو دون الرئيس .

وأشار بطلوع الطالع إلى ظهور الإمرة والخلافة عليه ، وانتقالها إليه ، وبلموع اللامع إلى ظهورها من حيث هي حق له ، وسطوع أنوار العدل بصيرورتها إليه ، وبلوح اللائح إلى ما يلحق انتقالها إليه من الفتن والحروب الموعودة التي لاحت أماراتها يومئذٍ ، وقال بعض الشارحين : المراد بالثلاثة معنى واحد ؛ وهو انتقال الخلافة إليه .

فقوله : واعتدل مائل .

فالمائل الخلافة فيمن كان قبله في نظره . إذ كان اعتقاده أنه أولى بها وأن العدل أن يكون فيه ، واعتدل ذلك المائل بانتقالها إليه ، واستبدل الله بقوم : أي من سبق عليه قوماً : أي وهو وتابعوه ، وبيوم يوماً كناية عن زمانهم بزمانهم .

وقوله : وانتظرنا الغير انتظار المجدب المطر .

إشارة إلى ما كان يتوقعه من انتقال هذا الأمر إليه ، وأراد بالغير تغيّرات الدهر وتقلبات الأحوال .

فإن قلت : أليس هو المطلق للدنيا فأين هذا القول من طلاقها ثلاثاً ؟

قلت : إنّه يطلّقها من حيث هي دنيا ، ولم يردها لذاتها ، ولم يطلّقها من حيث يعمر بها الآخرة بإنكار المنكرات ، وإظهار العدل وإقامة عمود الدين وحراسته. فإنّ طلبه لها إنما كان لذلك كما سبق في قوله لابن عباس بذي قار وهو يخصف نعله ، وشبّه انتظاره للغير بانتظار المجدب للمطر ، ووجه الشبه شدّة التوقع وانتظاره ، ويمكن أن يلاحظ في وجه الشبه لواحق الأمرين المنتظرين . إذ من لواحق ما انتظره هو عن الغير وانتقال الأمر إليه شمول العدل وظهور الحق في موارده المشبه لوقع المطر في الأرض المجدبة ، واستلزامه للخير والبركة . ثم شرع في تعريف حال الأئمة وما نصبوا له .

وقوله : لا يدخل الجنة إلاّ من عرفهم وعرفوه .

معناه أن أهل كل عصر لا يدخلون الجنة إلاّ بمعرفة إمامهم ومعرفته لهم ، وأراد الأئمة من ولده عليهم السلام ومعرفتهم معرفة حق ولايتهم وصدق إمامتهم ، وبيان الحصر من وجهين :

أحدهما : أن دخول الجنّة لا يمكن لأحد من هذه الأُمّة إلاّ باتباع الشريعة ولزوم العمل بها، ولا يمكن ذلك إلاّ بمعرفتها ومعرفة كيفيّة العمل بها ، ولا يمكن ذلك إلاّ ببيان صاحب الشريعة والقائم بها ، وإرشاده وتعليمه ، وذلك لا يمكن إلاّ بمعرفة المأموم للإمام وحقيّة إمامته وصدق ولائه له ليقتدي به ، ومعرفة الإمام للمأموم ليهديه فإذن دخول الجنة مستلزم لمعرفة الإمام للمأمومين ومعرفتهم له .

الثاني : إنّ معرفة هؤلاء الأئمة على رأيه عليه السلام كما هو المشهور المنقول عنه ، ومعرفة حقيّة إمامتهم وصدق ولايتهم ركن من أركان الدين فلا يدخل الجنة إلاّ من أقامه ، ومن عرفهم كذلك وجب معرفتهم له بذلك .

فإن قلت : فنحن نرى كثيراً من شيعة هؤلاء الأئمة ومحبيهم لا تعرفهم الأئمة ولا يرون أشخاصهم .

قلت : لا يشترط في معرفتهم لمحبّيهم ومعرفة محبّيهم لهم المعرفة الشخصيّة العينيّة بل الشرط المعرفة على وجه كلي ، وهو أن يعلموا أن كل من اعتقد حق إمامتهم واهتدى بما انتشر من هديهم فهو وليّ لهم ، ومقيم لهذا الركن من الدين فيكونون عارفين بمن يتولاّهم على هذا الوجه ، ومن يتولاّهم عارفاً بهم لمعرفته بحقيّة ولايتهم ، واعتقاد ما يقولون وإن لم يشترط المشاهدة والمعرفة الشخصية . وأما أنه لا يدخل النار إلاّ من أنكرهم وأنكروه فهو أيضاً حق وذلك أن دخول الجنة مستلزم لمعرفتهم على الوجه الذي قرّرناه، ومنحصر فيه فكل واحد واحد ممن يدخل الجنة عارف بهم ، وذلك يستلزم أنه لا واحد ممن يدخل الجنة بمنكر لهم لأن معرفتهم وإنكارهم مما لا يجتمعان في ملزوم واحد .

إذا عرفت ذلك فنقول : إن من أنكرهم فأنكروه لا يجوز أن يكون أعمّ ممن يدخل النار : أما أولاً فللخبر المشهور من مات ولم يعرف إمام وقته مات ميتة جاهلية دلّ الخبر على أن إنكارهم مستلزم للميتة الجاهلية المستلزمة لدخول النار .

وأما ثانياً فلأنه لو كان أعم لصدق على بعض من يدخل الجنة فبعض المنكر لهم يدخل الجنة فينعكس بعض من يدخل الجنة منكر لهم ، وقد بيّنا أنه لا واحد ممّن يدخل الجنة بمنكر لهم هذا خلف ، وكذلك لا يجوز أن يكون أخصّ وإلاّ لصدق على بعض من يتولاّهم ويعترف بصدق إمامتهم أنه يدخل النار لكن ذلك باطل لقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : يحشر المرء مع من أحبّ ، ولقوله : لو أحب رجل حجراً لحشر معه دلّ الخبر على أن محبة الإنسان لغيره مستلزمة لحشره معه .

وقد ثبت أنهم عليهم السلام إلى الجنة يحشرون فكذلك من أحبّهم واعترف بحقيّة إمامتهم ، ودخول الجنة مع دخول النار مما لا يجتمعان فثبت أنه لا واحد ممن يحبهم ويعترف بحقهم يدخل النار فقد ظهر إذن صدق هذه الكلية أيضاً ، ووجه الحصر فيها . ثم أخذ في إظهار منّة الله تعالى عليهم بالقرآن

الكريم وتخصيصهم به من سائر الكتب واستخلاصهم له ، وإعدادهم لقبوله من سائر الأمم . ثم نبّه على بعض أسباب إكرامه تعالى لهم به أما من جهة اسمه فلأنه مشتق من السلامة بالدخول في الطاعة ، وأما من معناه فمن وجوه :

أحدها : أنه مجموع كرامة من الله لخلقه لأن مدار جميع آياته على هداية الخلق إلى سبيل الله القائدة إلى جنّته .

الثاني : أن الله تعالى اصطفى منهجه ؛ وهو طريقته الواضحة المؤدية للسالكين بأيسر سعي إلى رضوان الله .

الثالث : أنه تعالى بيّن حججه ، وهي الأدّلة والأمارات ، ومن للتمييز والتقسيم هنا تقسيم الحجج إلى ظاهر علم ، وأشار إلى ظواهر الشريعة وأحكامها الفقهية وأدلّة تلك الأحكام ، وباطن حكم وأشار به إلى ما يشتمل عليه الكتاب العزيز من الحكمة الإلهية وأسرار التوحيد وعلم الأخلاق والسياسات وغيرها .

الرابع : أنه لا تفنى عزائمه [غرائبه خ] وأراد بالعزائم هنا آياته المحكمة وبراهينه العازمة : أي القاطعة ، وعدم فنائها إشارة إمّا إلى ثباتها واستقرارها وطول المدة وتغيّر الأعصار ، وإمّا إلى كثرتها عند البحث والتفتيش عنها .

الخامس : ولا تنقضي عجائبه ؛ وذلك أنه كلما تأمله الإنسان استخرج منه بفكره لطائف معجبة من أنواع العلوم لم يكن عنده من قبل .

السادس : فيه مرابيع النعم ، واستعار لفظ المرابيع ؛ وهي الأمطار تأتي زمن الربيع فتحيي الأرض وتنبت الكلاء لما يحصل عليه الإنسان من النعم ببركة القرآن ، ولزوم أوامره ونواهيه وحكمه وأدابه : أمّا في الدنيا فالنعم التي تحصل ببركته لحامليه من القراء والمفسرين وغيرهم ظاهرة الكثرة ، وأما بالنسبة إلى الآخرة فما يحصل عليه مقتبسو أنواره من الكمالات المسعدة في الآخرة من العلوم والأخلاق الفاضلة أعظم نعمة وأتمّ فضل ، ووجه الاستعارة ظاهر.

السابع : أن فيه مصابيح الظلم ؛ واستعار لفظ المصابيح لقوانينه وقواعده الهادية إلى الله في سبيله كما يهدي المصباح في الطريق المظلمة .

الثامن : أنه لا تفتح الخيرات إلاّ بمفاتيحه ، وأراد الخيرات الحقيقية الباقية ، واستعار لفظ المفاتيح لمناهجه وطرقه الموصلة إلى تلك الخيرات ، ووجه الاستعارة كونها أسباباً موصلة اليها . كما أن المفاتيح أسباب موصلة إلى خيرات الخزائن مثلاً .

التاسع : ولا تنكشف الظلمات إلاّ بمصابيحه ، وأراد ظلمات الجهل ، وبالمصابيح قوانينه كما سبق استعارة .

العاشر : كونه قد أحمى حماه : أي هيأه وعرّضه لأن يحمى كما يقال : أقتلت فلاناً وأضربته إذا هيأته للقتل وعرّضته للضرب ، واستعار لفظ الحمى لحفظه وتدبّره والعمل بقوانينه ، ووجه الاستعارة أن بذلك يكون حفظ الشخص وحراسته : أما في الدنيا فمن أيدي كثير من الظالمين لاحترامهم حملة القرآن ومفسّريه ، ومن يتعلّق به ، وأمّا في الآخرة فلحمايته حفظته ومتدبّريه والعامل به من عذاب الله كما يحمي الحمى من يلوذ به ، ونسبة الإحماء إليه مجاز إذ المعرض له أن يتدبر ويعمل به هو الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وحملته ، وقيل : أراد بحماه محارمه ، وأحماه : أي منع بنواهيه وزواجره أن يستباح محارمه ، وهو أخص مما قلناه أولاً .

الحادي عشر : وكذلك أرعى مرعاه : أي هيّأه لأن يرعى ، واستعار لفظ المرعى للعلوم والحكم والآداب التي يشتمل عليها القرآن ، ووجه المشابهة أن هذه مراعي النفوس الإنسانية ، وغذاؤها الذي به يكون نشؤها العقلي ونماؤها الفعلي . كما أن المراعي المحسوسة من النبات والعشب غذاء للأبدان الحيوانية التي بها يقوم وجودها .

الثاني عشر : فيه شفاء المشتفي : أي طالب الشفاء منه : أما في الأبدان فبالتعوذ به مع صدق النية فيه وسلامة الصدور ، وأما في النفوس فلشفائها به من أمراض الجهل .

الثالث عشر : وكفاية المكتفي ، وأراد بالمكتفي طالب الكفاية : أما من الدنيا فلأن حملة القرآن الطالبين به المطالب الدنيوية هم أقدر أكثر الناس

على الاحتيال به في تحصيل مطالبهم وكفايتهم بها ، وأما في الآخرة فلأن طالب الكفاية منها يكفيه تدبّر القرآن ولزوم مقاصده في تحصيل مطلوبه منها ، وبالله التوفيق .

١٥٢ - ومن خطبة له (عليه السلام)

وَهُوَ فِي مُهْلَةٍ مِنَ اللهِ يَهْوِى مَعَ الْغَافِلِينَ ، وَيَغْدُو مَعَ الْمُذْنِبِينَ ، بِلاَ سَبِيلٍ قَاصِدٍ ، وَلاَ إمَامٍ قَائِدٍ :

أقول : هذا الفصل يشتمل على صفة مطلق الضال ، وأشار بالمهلة إلى مدة عمره المضروبة له من الله تعالى ، وبهويه مع الغافلين إلى سقوطه وانخراطه في سلكهم بسبب جهله وغفلته عما يراد به ، واستعار لفظ الهوى لذلك الانخراط وتلك المتابعة ، ووجه المشابهة أن المنهمك في مجاري الغفلة ومسالك الجهل ينحط بها عن درجة أهل السلامة ، ويهوي في مهابط الهلاك وهي الرذائل المبعدة عن الله تعالى كما أن الهاوي من علوّ كذلك ، ويغدو مع المذنبين موافقته لهم فيما هم فيه ، ومسارعته إلى المعاصي من غير أن يسلك سبيلاً قاصداً للحق ويتّبع إماماً يقوده إليه من استاذ مرشد أو كتاب أو سنة ، وبالله التوفيق .

منها : حَتَّى إذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ ، وَآسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلاَبِيبِ غَفْلَتِهِمْ ، آسْتَقْبَلُوا مُدْبِراً ، وَآسْتَدْبَرُوا مُقْبِلاً ، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طِلْبَتِهِمْ ، وَلاَ بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ ! وَإنِّي أُحَذِّرُكُمْ وَنَفْسِي هٰذِهِ الْمَنْزِلَةَ ، فَلْيَنْتَفِعِ آمْرُؤٌ بِنَفْسِهِ ؛ فَإنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ وَآنْتَفَعَ بِالْعِبَرِ ، ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً وَاضِحاً يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي ، وَالضَّلاَلَ فِي الْمَغَاوِي ، وَلاَ يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ الْغُوَاةَ بِتَعَسُّفٍ فِي حَقٍّ ، أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نُطْقٍ ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ . فَأَفِقْ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ ، وَآسْتَيْقِظْ مِنْ غَفْلَتِكَ ! وَآخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ ، وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، مِمَّا لاَ بُدَّ مِنْهُ ، وَلاَ مَحِيصَ عَنْهُ ، وَخَالِفْ مَنْ خَالَفَ ذٰلِكَ إلَى غَيْرِهِ ، وَدَعْهُ وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ ، وَضَعْ فَخْرَكَ ،

وَاحْطُطْ كِبْرَكَ وَاذْكُرْ قَبْرَكَ ؛ فَإِنَّ عَلَيْهِ مَمَرَّكَ ؛ وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ ، وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ ، وَكَمَا قَدَّمْتَ الْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غَداً ، فَامْهَدْ لِقَدَمِكَ ، وَقَدِّمْ لِيَوْمِكَ . فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ ، وَالْجِدَّ الْجِدَّ أَيُّهَا الْغَافِلُ (وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) .

إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللهِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ ، وَلَهَا يَرْضَى .

أقول : الجلباب : الملحفة . والوطر : الحاجة . والجدد : الطريق الواضح . واستنجح الحاجة : استقضائها .

وصدر هذا الفصل صفة غاية الغافلين عن أحوال الآخرة المشمّرين في طلب الدنيا ، وفاعل كشف ضمير يعود إلى اسم الله تعالى فيما سبق من الكلام ، وقد علمت أنّ النفس ذا جهتين : جهة تدبير أحوالها البدنية بما لها من القوة العملية ، وجهة استكمالها بقوّتهما النظرية التي تتلقى بها من العاليات كمالها ، وعلمت أن بقدر خروجها عن حدّ العدل في استكمال قوتها العمليّة تنقطع عن الجهة الأُخرى ، وتكشفها الهيئات البدنية فتكون في أغطية منها وجلابيب من الغفلة عن الجهة الأُخرى بالانصباب إلى ما يقتنيه مما يعدّ خيراً في الدنيا ، وبحسب انصبابها في هذه الجهة ، وتمكن تلك الهيئات البدنية منها يكون بعدها عن بارئها ونزولها في دركات الجحيم عن درجات النعيم ، وبالعكس كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : الدنيا والآخرة ضرّتان بقدر ما تقرب من إحديهما تبعد عن الأخرى ، وظاهر أن بالموت تنقطع تلك الغفلة ، وتنكشف تلك الحجب فيومئذٍ يتذكّر الإنسان وأنّى له الذكرى ، ويكون ما أثيبه يومئذٍ من تعلّق تلك الهيئات بنفسه ، وحطها له عن درجات الكمال وما شاهده من السلاسل والأغلال هو جزاء معصيتهم المنكشف لهم ، ولفظ الجلابيب استعارة لفظ المحسوس للمعقول ، ووجه المشابهة حجب الغفلة لأعين بصائرهم عن التنوّر بأنوار الله كحجب الوجه بالجلباب ، والمدبر الذي استقبلوه هو العذاب الاخروي ، والأهوال التي كانت غائبة عنهم ، والمقبل الذي استدبروه هو ما كانوا فيه من مأمولاتهم وأحوالهم الدنيوية ، وظاهر أنهم لم ينتفعوا إذن بما أدركوا من طلباتهم الدنيوية ، ولا بما قضوا من أوطارهم

وحاجاتهم الحاضرة فيها . ثم عاد إلى التحذير من هذه المنزلة : أي الحالة التي هؤلاء الموصوفون عليها من الغفلة . فإنّها مقام صعب ومزلّة قدم ، وشرك نفسه في التحذير لأنه أدخل في جذب نفوس السامعين إلى طاعته . ثم أمر كلًّا بالانتفاع بنفسه ، وشرح كيفية الانتفاع بشرح حال البصير لأنه لا ينتفع بنفسه إلاّ البصير ، وذكر أموراً :

فالأول : أن يتفكّر فيما يسمعه من كلام الله ورسوله والمواعظ البالغة فإنه لا ينتفع بها بدون الفكر كما علمته .

الثاني : أن ينظر بعين حسّه ، وبصيرته فيتوخى المقاصد النافعة فيبصرها ويدرك بعقله منها العبر .

الثالث : أن ينتفع بما يدركه من العبر وذلك بالعمل على وفق ما علم وأدرك .

الرابع : أن يسلك الصراط المستقيم الذي وردت به الشريعة وهو الجدد الواضح ، ويتجنّب فيه العدول والانحراف بأنه من انحرف عنه ولو باليسير انصرع في مهواة وضل في مغواة ، وقد نبّهناك فيما سلف على ذلك بالمثل الذي ضربه النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال : ضرب الله مثلاً مستقيماً ، وعلى جنبتي الصراط أبواب مفتّحة ، وعليها ستور مرخاة ، وعلى رأس الصراط داع يقول : جوزوا ولا تعرّجوا . قال : فالصراط هو الدين ، وهو الجدد الواضح هنا ، والداعي هو القرآن ، والأبواب المفتّحة محارم الله ، وهي المهاوي والمغاوي هنا ، والستور المرخاة هي حدود الله ونواهيه . ثم نهى أن يعين الإنسان على نفسه الغواة بأحد أمور : أن يتعسّف في حق : أي لا يحملهم على مرّ الحق وصعبه فإنّ الحق له درجات بعضها أسهل من بعض، فالاستقصاء فيه على غير أهله يوجب لهم النفرة عمّن يقوله ويأمر به ، والعداوة له والقول فيه ، ويحتمل أن يريد بالتعسف في الحق التكلّف في العمل به مع نوع من التقصير فيه. فإنّ الغواة هم تاركو الحق فإذا وجدوا ركيكاً فيه أو متكلفاً للعمل به مقصّراً طمعوا في إلانته للباطل. فكان قد أعانهم على نفسه بذلك ، وكذلك إذا آنسوا منه الكذب والتحريف في القول أو التخوّف من الصدق كأن ادعى لهم من الطمع في انفعاله لباطلهم، وإدخاله فيه فكان معيناً لهم على إغواء نفسه بذلك . ثم عاد إلى أمر السامع

بأوامر :

أحدها : الإفاقة من سكرة الجهل والتيقّظ من الغفلة في الدنيا ، ولفظ السكرة مستعار ، ووجه المشابهة كون الغفلة مستلزمة لترك أعمال العقل كما أن السكر كذلك .

الثاني : بالاختصار من العجلة ، وأراد بالعجلة سرعة الحركة في طلب الدنيا والاهتمام بها ، وباختصارها تخفيف تلك الحركة وتقليلها .

الثالث : بإنعام الفكر فيما دار على لسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والإكثار من ذكر الموت وعرض النفوس على ديّانها ، وإنعام الفكر في ذلك تدقيق النظر في حال الموت وما بعده ، والاعتبار بما لا بدّ منه ولا محيص عنه من ذلك .

الرابع : بمخالفة من خالف ذلك ونظر في غيره مما عنه بدّ من أحوال الدنيا وزينتها ، وأن يدع ذلك المخالف ، وما رضي لنفسه من التعوّض بالأمور الفانية عن الأمور الباقية ، وما يستلزم ذلك من الشقاوة الأخروية .

الخامس : أن يضع الفخر ويحطّ الكبر ، وقد سبق بيان ما في الكبر من الآفات ، والفخر مستلزم للكبر . إذ كل مفتخر متكبّر أو متلازمان .

السادس : أن يذكر قبره لأن في ذكره عبرة تامّة .

وقوله : فإن عليه ممرّك .

تنبيه له على وجوب الذكر له فإنّ السالك لطريق لا بدّ من سلوكها إذا كان فيها منزل موحش مظلم وجب الاستعداد له بحمل الضوء للاستنارة فيه ، والإنسان في سلوكه لطريق الآخرة لا بدّ له من المرور بالقبر وأحكام الشارع أكثرية ، ثمّ نبّهه بالمثلين المشهورين : كما تدين تُدان على وجوب حسن المعاملة مع الله سبحانه . إذ كان حسن جزائه بقدر حسن معاملة العبد ، وقبحه بقبحها ، وكذلك قوله : كما تزرع تحصد ، ولفظ الزرع مستعار لما يفعله الإنسان فيكسب نفسه ملكة خيريّة أو شرّية ، وكذلك لفظ الحصد للحصول على ما تثمره تلك الآثار ، وتستلزمه من ثواب أو عقاب ، ووجه الاستعارتين ظاهر .

وقوله : وكما قدّمت اليوم تقدم عليه غداً .

ظاهر فإن الهيئات النفسانية التي هي ثمرات الأفعال المستلزمة للسعادة أو الشقاوة، وإن كانت مستصحبة للنفس مدة بقائها في الدنيا أيضاً إلّا أنها لا تنكشف لها إلّا بعد المفارقة كما سبق بيانه فتكون حينئذٍ حالة الانكشاف بمنزلة من قدم على أمر لم يكن معه ، وإذا كان كذلك فينبغي للإنسان أن يمهد لقدمه : أي يوطىء موضع قدمه في الآخرة بطيب الأعمال ، ويقدم صالحها ليوم قيامته . ثم عاد إلى تحذيره من حيث هو مستمع للموعظة ، وإلى أمره بالجدّ في العمل لما بعد الموت واليقظة من الغفلة ، ونبّهه باقتباس الآية على أن الواعظ له خبير بأحوال طريق الآخرة وأهوالها ولا يخبر بحقائق الأمور كالعارف بها . ثم عاد إلى التحذير من بعض الكبائر التي نصّ القرآن المجيد أنها مستلزمة للعقاب لا محالة ، والذكر الحكيم هو القرآن ، وقد سبق بيان معنى العزائم منه ، وقيل : هو اللوح المحفوظ .

وَيَسْخَطُ ، أَنَّهُ لاَ يَنْفَعُ عَبْداً ـ وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ ـ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا لاَقِياً رَبَّهُ بِخَصْلَةٍ مِنْ هٰذِهِ الْخِصَالِ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا : أَنْ يُشْرِكَ بِاللهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ ، أَوْ يَشْفِيَ غَيْظَهُ بِهَلاَكِ نَفْس ، أَوْ يَعُرَّ بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ ، أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَةً إلى النَّاسِ بِإظْهَارِ بِدْعَةٍ فِي دِينِهِ ، أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ ، أَوْ يَمْشِيَ فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ ؛ إِعْقِلْ ذٰلِكَ فَإِنَّ الْمِثْلَ دَلِيلٌ عَلَى شِبْهِهِ .

إِنَّ الْبَهَائِمَ هَمُّهَا بُطُونُهَا ، وَإِنَّ السِّبَاعَ هَمُّهَا الْعُدْوَانُ عَلَى غَيْرِهَا ، وَإِنَّ النِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْفَسَادُ فِيهَا ، إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَكِينُونَ ، إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ ، إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ .

اسم إن أنّه لا ينفع ، والضمير في أنه ضمير الشأن ، وفاعل ينفع أن يخرج ، ولاقياً نصب على الحال ، وأراد أن من جملة نصوص الله سبحانه التي هي في محكم كتابه العزيز التي باعتقادها والعمل على وفقها يثيب ويرضى ، وبتركها يعاقب ويسخط أنه لا ينفع عبداً خروجه من الدنيا لاقياً ربه بأحد الخصال المذكورة وإن أجهد نفسه في العمل وأخلص فيه :

أحدها : الشرك بالله تعالى ، وقد سبق منّا بيان درجات الشرك ، وبقدر قوته وضعفه يكون قوة العقاب وضعفه ، والنص الدالّ على مضرته المستلزم

لعدم نفعه قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به** ﴾[1]. وقوله : فيما افترض عليه من عبادته يفهم منه أنه أراد الشرك بالرياء في العبادة لا اتّخاذ إله ثان ، وهذه الآية تلحق النفس تارة من غلبة الجهل عليها واستيلاء الغفلة وترك النظر في المعرفة والتوحيد وتارة من غلبة الشهوة كما تلحق نفس المرائي بعبادته لطلب الدنيا .

الثانية : أن يشفي غيظه بهلاك نفس ، وفي نسخة نفسه ، ونفس أعمّ وذلك الهلاك تارة في الدنيا كما يستلزمه السعي بالنميمة إلى الملوك ونحوه ، وتارةً في الآخرة باكتساب الآثام المستلزم لشفاء الغيظ ، والنص فيه قوله تعالى : ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمّداً فجزائه جهنم خالداً فيها** ﴾[2] الآية ، وهذه الآفة تلحقها بواسطة القوة الغضبيّة .

الثالثة : أن يقرّ بأمر فعله غيره : أي يتم على غيره بأمر فعله ذلك الغير فيستلزمه إهلاكه وأذاه فيدخل فيمن يسعى في الأرض فساداً ، والنص عليه قوله : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا** ﴾[3] الآية .

وروى بعض الشارحين يعرّ بالعين المهملة ، قال : ومعناه أن يقذف غيره بأمر قد فعله هو فيكون غيره منصوباً مفعولاً به ، والعامل يعرّ يقال عرّه يعرّه عرّاً : أي غابه ولحظه (لطخه خ) فعلى هذا يكون داخلاً في جملة الفاسقين والكاذبين والمؤذين للمؤمنين بغير ما اكتسبوا ، وهذه الآفة تلحق النفس بشركة من الشهوة والغضب .

الرابعة : أن يستنجح حاجة إلى الناس بإظهار بدعة في دينه كشاهد الزور لغاية يصل إليها ، والمرتشي في الحكم والقضاء .

الخامسة : أن يلقى الناس بوجهين أو يمشي فيهم بلسانين : أي يلقى كلًّا من الصديقين مثلاً بغير ما يلقى به الآخر ليفرّق بينهم أو بين العدوّين ليضري بينهما ، وبالجملة أن يقول بلسانه ما ليس في قلبه فيدخل في زمرة

---

(١) ٤ ـ ٥١ .
(٢) ٤ ـ ٩٤ .
(٣) ٥ ـ ٣٧ .

المنافقين ، ووعيد المنافقين في القرآن . ﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار** ﴾(١). ومطابقة ذلك من العقل أن من انتقش لوح نفسه بهيئات السوء ولم يمحها بالتوبة الحقة فهو من أصحاب النار .

وقوله : اعقل ذلك .

أي اعقل ما أضربه لك من المثل ، واحمل عليه ما يشبهه فإنّ المثل دليل على شبهه وذلك المثل قوله : إنّ البهائم . إلى قوله : والفساد فيها .

فقوله : إنّ البهائم همّها بطونها .

إشارة إلى أن الإنسان المتّبع لشهوته بمنزلة البهيمة في اتباع قوته الشهوية ، والاهتمام بالطعام والشراب دون المطالب الحقيقية .

وقوله : إنّ السباع همّها العدوان على غيرها .

إشارة إلى أنّ متّبع القوة الغضبيّة بمنزلة السبع في اتباعها ومحبّة الانتقام والغلبة على الغير .

وقوله : وإن النساء همّهنّ زينة الحياة الدنيا والفساد فيها .

إشارة إلى أن النساء متّبعة للقوّتين : الشهوية ولها كان همّهنّ زينة الحياة الدنيا ، والغضبيّة ولها كان همّهنّ الفساد في الدنيا فالتابع لشهوته وغضبه لا حق بالنساء في ذلك . ثم لما حصر منابع الشر في قوّتي الشهوة والغضب ذكر المؤمنين بصفات ثلاث كل منها يستلزم كسرتينك القوّتين ؛ وهي الاستكانة لله والخضوع له . ثم الإشفاق من غضبه . ثم الخوف من عقابه ، وظاهر كون كل واحد من هذه الصفات جاذباً لهم عن طرف الإفراط في القوتين والخروج عن حدّ العدل فيهما ، وغاية هذا المثل التنفير عن طاعة الشهوة والغضب بالتنبيه على أن الخارج فيهما عن حدّ العدل إلى ما لا ينبغي إمّا أن يشبه البهيمة أو السبع أو المرأة ، وكل منهما مما يرغب العاقل عنه ، وهو الذي أمر بعقليّته فانظر إلى ما اشتمل عليه هذا الكلام من الإشارة اللطيفة التي يشهد عليه عليه‌السلام بمشاهدة الحق كما هو ، وإذا اعتبرت ذلك

---

(١) ٤ - ١٤٤.

وأمثاله من الحكم البالغة ونظرت إلى أنه عليه السلام لم يرجع فيه إلى مطالعة كتاب أو استفادة بحث علمت أنه فيض ربّاني بواسطة إعداد سيّد البشر والأستاذ المرشد صلى الله عليه وآله وسلم قال الشارح الفاضل عبد الحميد ابن أبي الحديد ـ رحمه الله ـ إنّما رمز بباطن هذا الكلام إلى الرؤساء يوم الجمل. لأنهم حاولوا أن يشفوا غيظهم بإهلاكه ، وإهلاك غيره من المسلمين وعيّروه عليه السلام بأمرٍ هم فعلوه ، وهو التأليب على عثمان وحصره واستنجحوا حوائجهم إلى أهل البصرة بإظهار البدعة والفتنة ولقوا الناس بوجهين ولسانين لأنهم بايعوه وأظهروا الرضا به . ثم نكثوا من وجه آخر فجعل ذنوبهم هذه بمنزلة الشرك في أنها لا تغفر إلاّ بالتوبة . قال : وهذا معنى قوله : اعقل ذلك فإنّ المثل دليل على شبهه . وبالله التوفيق .

١٥٣ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

وَنَاظِرُ قَلْبِ اللَّبِيبِ : بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ ، وَيَعْرِفُ غَوْرَهُ وَنَجْدَهُ ، دَاعٍ دَعَا وَرَاعٍ رَعَا ، فَاسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي ، وَاتَّبِعُوا الرَّاعِيَ .

قَدْ خَاضُوا بِحَارَ الْفِتَنِ ، وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ ، وَأَرَزَ الْمُؤْمِنُونَ وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . نَحْنُ الشِّعَارُ ، وَالأَصْحَابُ ، وَالْخَزَنَةُ وَالأَبْوَابُ وَلَا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا ، فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقاً .

أقول : الأمد : الغاية . وغوره ونجده : منخفضه ومرتفعه . وأرز بفتح الراء : أي انقبض وانجمع .

وناظر قلب اللبيب : عين بصيرته . وظاهر أنه يبصر بها طريقه وغايته التي هي متوجه إليها ومطلوبه منها ، وغوره ونجده طريقاه للخير والشر وهما النجدان في قوله تعالى : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾[1] وعبارة القرآن المجيد أخصر ، وهذه العبارة أنسب إلى المعنى فإنّ الغور هو المنخفض والمستفل أنسب إلى أن يعبّر به عن رتبة النازلين في دركات الجحيم من النجد ، وأشار بالداعي إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به القرآن الكريم والسنّة ، وبالراعي إلى

(١) ٢٠ ـ ١٠ .

نفسه ، والأمر بالاستجابة للأول والاتباع للثاني ، وظاهر وجوب الاستجابة لله ورسوله لقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾[1]. فيجب اتباع من أوجبا اتباعه .

وقوله : قد خاضوا بحار الفتن .

يحتمل أن يكون التفاتاً إلى صفة قوم معهودين للسامعين كمعاوية وأصحاب الجمل والخوارج ، ويحتمل أن يكون منقطعاً عما قبله متصلاً بكلام لم يحكه الرضي ـ رضوان الله عليه ـ وإليه ذهب بعض الشارحين . قال : وهو ذكر قوم من أهل الضلال قد كان أخذ في ذمّهم وعيبهم ، ولفظ البحار مستعار لما عظم من الفتن والحروب ، وقد عرفت وجه الاستعارة قبل ، ورشح بذكر الخوض ، والبدعة قد يراد بها ترك السنّة ، وقد يراد بها أمر آخر يفعل مع ترك السنّة ، وهو الأظهر في العرف . ثم التفت إلى ذكر فضيلته فاستعار لفظ الشعار لنفسه وأهل بيته ، ووجه المشابهة ملازمتهم للرسول صلى الله عليه وآله وسلم واختصاصهم به كما يلزم الشعار الجسد .

ثم ذكر كونهم أصحاباً له . ثم كونهم خزنة علمه كما نقل عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو خازن علمي ، وفي رواية عيبة علمي ، وقيل : خزنة الجنة على معنى أن من جاء يوم القيامة بولايتهم دخل الجنة ، وإلّا فلا ، ولفظ الخزن على التقديرين مستعار ، ووجه المشابهة تصرّفهم بمنع العلم وإعطائه أو بمنع الجنة بسببهم ، وإعطائها كما أن الخازن للشيء كذلك . ثم كونهم الأبواب : أي أبواب العلم كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : أنا مدينة العلم وعلي بابها وأبواب الجنة على الاستعارة السابقة .

وقوله : لا تؤتى البيوت إلّا من أبوابها ، وذلك لوجوه :

أحدها : العادة الجارية على وفق الحكمة .

الثاني : النص ﴿ **وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله** ﴾ .

الثالث : العرف وهو أنه من أتاها من غير أبوابها سميّ سارقاً ، والتقبيح العرفيّ يستلزم الترك ، ومراده أن من طلب العلم والحكمة وأسرار الشريعة

---

(١) ٨ ـ ٢٤ .

فليرجع إلينا وبالله التوفيق .

منها : فِيهِمْ كَرَائِمُ الْقُرْآنِ ، وَهُمْ كُنُوزُ الرَّحْمٰنِ ، إنْ نَطَقُوا صَدَقُوا وَإنْ صَمَتُوا لَمْ يُسْبَقُوا ، فَلْيَصْدُقْ رَائِدُ أَهْلَهُ ، وَلْيُحْضِرْ عَقْلَهُ ، وَلْيَكُنْ مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ فَإنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ ، وَإلَيْهَا يَنْقَلِبُ ، فَالنَّاظِرُ بِالْقَلْبِ الْعَامِلُ بِالْبَصَرِ يَكُونُ مُبْتَدأ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ : أَعَمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ ؟ فَإنْ كَانَ لَهُ مَضىٰ فِيهِ ، وَإنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ ؛ فَإنَّ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَسَائِرٍ فِي غَيْرِ طَرِيقٍ ، فَلاَ يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ إلاَّ بُعْداً مِنْ حَاجَتِهِ ، وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَسَائِرٍ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ ، فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ أَسَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ .

وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِناً عَلَى مِثَالِهِ ، فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ طَابَ بَاطِنُهُ ، وَمَا خَبُثَ ظَاهِرُهُ خَبُثَ بَاطِنُهُ وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ « إنَّ الله يُحِبُّ الْعَبْدَ ، وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ ، وَيُحِبُّ الْعَمَلَ وَيُبْغِضُ بَدَنَهُ » . وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتاً ، وَكُلُّ نَبَاتٍ لاَ غِنَى بِهِ عَنِ الْمَاءِ ، وَالْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ : فَمَا طَابَ سَقْيُهُ طَابَ غَرْسُهُ وَحَلَتْ ثَمَرَتُهُ ، وَمَا خَبُثَ سَقْيُهُ خَبُثَ غَرْسُهُ وَأَمَرَّتْ ثَمَرَتُهُ .

أقول : الإشارة إلى فضائل أهل البيت عليهم السلام فالأولى : فيهم كرائم الإيمان : أي نفائسه المستلزمة لأشديّة القرب من الله تعالى كالأخلاق الفاضلة والاعتقادات الحقّة المطابقة لما عليه الأمر نفسه .

الثانية : وهم كنوز الرحمٰن : أي خزائن علمه وسائر ما أُمر به من مكارم الأخلاق .

الثالثة : ملازمة منطقهم للصدق .

الرابعة : اختصاصهم بالحكمة التي لا يتمكن غيرهم من النطق بها والسبق إليها حال سكوتهم فهم إن نطقوا فبحكمة وإن صمتوا فحكمة ووضع للصمت في موضعه ، وإنما ذكر هذه الفضائل لنفسه وأهل بيته جذباً إلى سماع قوله ودعوته إلى الله ولذلك عقب بالمثل فليصدق رائد أهله ، وأشار به إلى من يحضرنا طلباً لاختيارنا فليصدق من يعينه أمره. إننا أهل الحق وينابيع

العلومِ والحكمة والأدلاء إلى الله . كما يصدق الرائد لطلب الكلاء والماء أهله مبشرا بهما ، وليحضر عقله لما يقوله ليعرف صحة ما ادّعيناه . ثم شرع فيما ينبغي أن يقوله أمثاله ، وهو التنبيه على أحوال الآخرة ، وأن يكون العاقل من أبنائها ، ووجه استعارة البنوة هيهنا .

قوله : فإنّه منها قدم وإليها ينقلب .

أي كما أن الابن ينقلب عن الأُمّ وإليها ولهه ورجوعه كذلك الإنسان . مبدؤه الحضرة الإلهية فعنها ينقلب وإليها يعود فينبغي أن يكون من أبنائها بالرغبة فيها والوله إليها والعمل لها . ثم نبّه العاقل ذا الفكر السليم الناظر بعين بصيرته على ما ينبغي له أن يبدأ به في حركاته وسكناته وهو أن يتفقد أحوال نفسه فيما يهمّ به، وينبعث في طلبه أو تركه ، ويعلم أذلك الخاطر أو تلك الحركة مقربة له من الله تعالى. فيكون له فينبغي أن يمضي فيها أو مبعّده له عن رضاه ومستلزمة لسخطه فيكون عليه فيقف عنها . ثم شبّه الجاهل في حركاته وسكناته بالسائر على غير طريق وأشار إلى وجه التشبيه بقوله : فلا يزيده بعده عن الطريق إلّا بعداً عن حاجته . إذ كان بعده عن مطلوبه بقدر بعده عن طريق ذلك المطلوب ، وبضدّه العامل بالعلم في سلوكه وقربه من مطلوبه ، ونفر بذلك التشبيه عن الجهل وزاد في التنفير بقوله : فلينظر ناظر أسائر هو أم راجع فإنّه إذا علم أنه سائر وجب أن يعلم كيف يسير ويشعل مصباح العلم ليسلم من الضلال والصرعة في مهاوي الهلاك .

وقوله : واعلم أن لكل ظاهر باطناً . إلى قوله : ويبغض بدنه .

فاعلم أن هذه القضيّة الكليّة صادقة وذلك أنه لما صدر عن الجود الإلهي عالما الغيب والشهادة وإن شئت عالم الخلق والأمر وإن شئت العالم الروحاني والجسماني اقتضت الحكمة الإلهية كون عالم الشهادة طريقاً للنفوس البشرية إلى عالم الغيب ولولاها لتعذّر السفر إلى الحضرة الإلهية وانسدّ طريق الترقي إلى الله. فكان جميع ما ظهر في عالم الشهادة مثالاً مناسباً لأمر باطن من عالم الغيب هو الطريق إليه . والدليل عليه غير أن المفهوم من كلامه عليه السلام هنا تخصيص تلك الكلية بأحد أمرين فإنّه إمّا أن

يشير بالظاهر إلى أشخاص الناس أو إلى أفعالهم الظاهرة ، والباطن إشارة إلى الأخلاق وأعمال القلوب، وما في الأمزجة المختلفة من الخير والشر .

وقيل : إشارة إلى ما يخفى من الثواب والعقاب في الآخرة ، وقد دلّ الاستقراء والقياس على أن حسن الصورة أو حسن الأعمال الظاهرة التي تبدو من الإنسان. حسن الأخلاق طيّب العشرة مستقيم السيرة، وعلى أن قبيحها سيء الأخلاق شرير أما الاستقراء فظاهر ، وأما القياس فلأن حسن الأخلاق وقرب النفس من الاستقامة على طلب الحق مقتضي قرب المزاج من الاعتدال ، وكذلك حسن الصورة فيترتب قياس هكذا : حسن الصورة معتدل المزاج وكل معتدل المزاج حسن الأخلاق فحسن الصورة حسن الأخلاق ، وإن شئت هكذا : معتدل المزاج حسن الصورة ومعتدل المزاج حسن الأخلاق والقضيّتان أكثريتان فإن بعض حسن الصورة قبيح الباطن ، وبعض خبيث الظاهر حسن الباطل ، ولذلك استشهد بما رواه عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . فإن الله يحبّ العبد من حيث صورته الحسنة لكونها مقتضى الحكمة الإلهية وأنسب إلى الوجود من القبيحة التي هي أنسب إلى العدم الذي هو الشرّ المحض، ويبغض عمله من جهة ما هو شر .

وكذلك يحبّ العمل الحسن الباطن الطيب ، ويبغض بدنه القبيح لنسبته إلى العدم الذي هو شر ، وأما النص في دلالة الظاهر على الباطن فما نطق به القرآن الكريم: ﴿ **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلّا نكداً** ﴾[1] أي عسراً مشوماً . قال ابن عبّاس ومجاهد والحسن وقتادة والسدي : هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر بالأرض العذية التربة وبالأرض السبخة المالحة ، وشبّه فيه المؤمن الذي إذا سمع القرآن وعاه وعقله وانتفع به فبان أثره عليه بحسن الأعمال وطيّبها بالبلد الطيب .

إذ كان البلد الطيب يمرع ويخصب ويحسن أثر المطر عليه ، وشبّه الكافر الذي يسمع القرآن فلا يؤثر فيه أثراً محموداً بالبلد الخبيث . إذ كان لا يمرع ولا يخصب ولا يتبيّن أثر المطر فيه ، وأما البغض والمحبة فقد علمت أنهما يعودان في الله سبحانه إلى إرادته وكراهيته فما كان خيراً محضاً أو الخير

---

(١) ٧ - ٥٨.

غالب عليه فهو مراد له بالذات ، وما كان شراً محضاً أو غالباً فهو مراد له بالعرض مكروه له بالذات .

وقوله : وأعلم أن لكل عمل نباتاً .

استعار لفظ النبات لزيادة الأعمال ونموها ، ورشحّ تلك الاستعارة بذكر الماء . وكنىّ به عن المادة القلبيّة للأعمال ، ووجه المشابهة أن الحركات في العبادة. إنما تكون بالميول القلبية والنيّات كما أن حركة النمو للنبات إنّما تكون بالماء ، وظاهر أن اختلاف المياه في الحلاوة والملوحة سبب لاختلاف استعداد النبات لطيب المغارس والثمار فما طاب سقيه : أي نصيبه من الماء طابت ثمرته ، وما خبثت ثمرته فكذلك ما يشبه النباتات وهي الأعمال يكون طيب ثمارها، وهي ثمار الجنّة وأنواع لذاتها بحسب طيب مادتها من الإخلاص لله، وخبثها بحسب خبث مادتها من الرياء وحب الشهرة وتكون ثمرتها أمرّ الثمار . إذ لا أمر مذاقاً من عذاب النار . وبالله التوفيق .

١٥٤ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

يذكر فيها بديع خلقة الخفاش :

الْحَمْدُ لله الَّذِي آنْحَسَرَتِ الأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً إلى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ ، هُوَ الله الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُبِينُ ، أَحَقُّ وَأَبْيَنُ مِمَّا تَرَاهُ الْعُيُونُ ، لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهاً ، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلاً ، خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمْثِيلٍ ، وَلاَ مَشُورَةِ مُشِيرٍ ، وَلاَ مَعُونَةِ مُعِينٍ ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ ، وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ فَأَجَابَ وَلَمْ يَدْفَعْ وَانْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ .

وَمِنْ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ ، وَعَجَائِبِ حِكْمَتِهِ ؛ مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ الْحِكْمَةِ فِي هٰذِهِ الْخَفَافِيشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ الْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَيَبْسُطُهَا الظَّلاَمُ الْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ ، وَكَيْفَ عَشِيَتْ أَعْيُنُهَا ، عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ نُوراً تَهْتَدِي بِهِ فِي مَذَاهِبِهَا ، وَتَصِلَ بِعَلاَنِيَةِ بُرْهَانِ الشَّمْسِ إلى مَعَارِفِهَا ، وَرَدَعَهَا تَلأْلُؤُ ضِيَائِهَا عَنِ الْمُضِيِّ فِي سُبُحَاتِ إشْرَاقِهَا ، وَأَكَنَّهَا فِي

مَكَامِنِهَا عَنِ الذَّهَابِ فِي بَلَجِ ائْتِلاَقِهَا ، فَهِيَ مُسْدِلَةُ الْجُفُونِ بِالنَّهَارِ عَلَى أَحْدَاقِهَا ، وَجَاعِلَةُ اللَّيْلِ سِرَاجاً تَسْتَدِلُّ بِهِ فِي الْتِمَاسِ أَرْزَاقِهَا ، فَلاَ يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافُ ظُلْمَتِهِ ، وَلاَ تَمْتَنِعُ مِنَ الْمُضِيِّ فِيهِ لِغَسَقِ دُجُنَّتِهِ ، فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا ، وَبَدَتْ أَوْضَاحُ نَهَارِهَا ، وَدَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَى الضِّبَابِ فِي وِجَارِهَا أَطْبَقَتِ الأَجْفَانَ عَلَى مَآقِيهَا ، وَتَبَلَّغَتْ بِمَا ٱكْتَسَبَتْ مِنْ فَيْءِ ظُلَمِ لَيَالِيهَا . فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَاراً وَمَعَاشاً ، وَالنَّهَارَ سَكَناً وَقَرَاراً ، وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلى الطَّيَرَانِ ، كَأَنَّهَا شَظَايَا الآذَانِ غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ وَلاَ قَصَبٍ ، إِلاَّ أَنَّكَ تَرَى مَوَاضِعَ الْعُرُوقِ بَيِّنَةً أَعْلاَماً ، لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقَّا فَيَنْشَقَّا ، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلاَ ، تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لاَصِقٌ بِهَا ، لاَجِئٌ إِلَيْهَا : يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ ، وَيَرْتَفِعُ إِذَا ٱرْتَفَعَتْ ، لاَ يُفَارِقُهَا حَتَّى تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ ، وَيَحْمِلَهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ ، وَيَعْرِفَ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ ، فَسُبْحَانَ الْبَارِىءِ لِكُلِّ شَيْءٍ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلاَ مِنْ غَيْرِهِ .

أقول : الخفاش : مفرد جمعه خفافيش ، وهو من الخفش وهو ضعف البصر خلقةً . وانحسرت : كلت . وردعت : كفّت . والمساغ : المسلك . وسبحات إشراقها : جلالته وبهاؤه . والبلج : جمع بلجة وهو أول ضوء الصبح ، وقد يكون مصدراً . والائتلاق : اللمعان . والإسداف : مصدر أسدف الليل ظلم . وغسق الدجنّة : ظلام الليل . ووضح النهار : ضوؤه . ووجار الضبّ : بيته . والشظايا : القطع .

وقد حمد الله تعالى باعتبارات :

الأول : انحسار الأوصاف عن كنه معرفته ، ولما كانت ذاته تعالى بريئةً من أنحاء التراكيب لم يمكن العقول إدراكها بشيء من الأوصاف بالكنه ، وقد سبق ذلك مراراً .

الثاني : ردع عظمته العقول عن بلوغ غاية ملكوته ، وذلك ظاهر لأن الإدراك للأشياء بحقائقها إنّما يتم بإدراك حقائق عللها ، وإذا استلزمت عظمته وارتفاعه عن إدراك العقول ردعها عن معرفة كنهه فظاهر أنها لا تجد مسلكاً إلى غاية ملكوته ، وما عليه نظام الوجود الأعلى والأسفل كما هو .

الثالث : قوله : هو فهو الهوية المطلق ، وهو الذي لا تكون هويته موقوفة على غيره ومستفادة منه فإن كل ما كان مستفاداً من الغير فما لم يعتبر غيره لم يكن هو فلم يكن هو هو المطلق ، وكل ما كان هو هو لذاته فسواء اعتبر غيره أو لم يعتبر فهو هو لكن كل ممكن فوجوده من غيره فكل ما كان وجوده من غير فخصوصية وجوده وتعيّنه من غيره، وهو الهوية فإذن كل ممكن فهويته من غيره فلا يكون هو هو لذاته لكن المبدء الأول هو هو لذاته فلا يكون من غيره فلا يكون ممكناً فهو واجب لذاته فإذن واجب الوجود هو الذي لذاته هو هو بل ذاته أنه هو البراءة عن التركيب المستلزم للإمكان .

الرابع : تعقيبه لذكر الهوية باسم الله ، وذلك لأنه لما كانت تلك الهوية والخصوصية عديمة الاسم لا يمكن شرحها إلّا بلوازمها ، واللوازم منها إضافية ومنها سلبية ، واللوازم الإضافية أشد تعريفاً والأكمل في التعريف هو اللازم الجامع لنوعي الإضافة والسلب ، وذلك هو كون تلك الهوية إلهاً. فإن الإله هو الذي ينسب إليه غيره ولا ينسب هو إلى غيره فانتساب غيره إليه إضافي ، وعدم انتسابه إلى غيره سلبيّ فلا جرم عقب ذكر الهوية. بما يدل على ذلك اللازم لأكمليته في التعريف من غيره ليكون كالكاشف لما دلّ عليه لفظ هو ، وفيه سرّ آخر ، وهو أنه لما عرف تلك الهوية بلازمها ، وهو الإلهية نبّه على أنه لا جزء لتلك الهوية وإلّا لكان العدول عنه إلى التعريف باللازم قصور .

الخامس : ذكر الحق ، وهو الثابت الموجود فإنّه لما أشار إلى الهوية وشرح اسمها عقّب ذلك بالإشارة إلى كونها حقاً موجوداً وجودها عند العقول أحقّ وأبين مما [عمّا خ] ترى العيون ، وذلك ظاهر فإن العلم بوجود الصانع ـ جلّت عظمته ـ فطري للعقول وإن احتاج إلى بيّنةٍ ما . والعلوم التي مستندها الحس قد يقع الخلل فيها بسبب ما يقع للوهم من اشتباه المحسوسات وعدم ضبطها أو بسبب تقصير الحس في كيفية الأداء لصورة المحسوس فكانت المعقولات الصرفة أحق لإدراك العقل لها بذاته .

السادس : أن العقول لم تبلغه بتحديد فيكون مشبهاً ، وفيه إشارة لطيفة تدل على كمال علمه عليه السلام ، وذلك أنّك علمت في المقدمات أن العقول إذا

قويت على الاتصال بالأُمور المجردة ، وكانت القوة المتخيّلة بحيث تقوى على استخلاص الحسّ المشترك وضبطه عن الحواس الظاهرة. فإن النفس والحال هذه إذا توجهت لاقتناص أمر معقول وانجذبت القوى النفسانية إثرها انتقشت بذلك المعقول . ثم إنها تستعين في ضبط ذلك الأمر بالقوة المتخيّلة فتحاكيه بما يشبهه من الأُمور المحسوسة . ثم تحطه إلى خزانة الخيال فيصير مشاهداً ممثلاً .

إذا عرفت ذلك فنقول : لو كان الباري تعالى مما تدركه العقول وتشتبه بحد وصفه لكان استثباتها له على النحو المذكور فيلزم أن يكون مشبّهاً بغيره من الأجسام ، والجسمانيات ليثبت صورته عند الذهن ، وقد تنزّه قدس الله عن التشبيه بشيء منها .

السابع : وكذلك لم تقع الأوهام عليه بتقدير فيكون ممثلاً . إذ الوهم لا يدرك إلّا المعاني الجزئية المتعلقة بالمحسوسات ، ولا بدّ له في إدراك ذلك المدرك من بعث المتخيّلة على تشبيهه بمثال من الصور الجسمانية. فلو وقع عليه وهم لمثّله في صورة حسية حتى أن الوهم إنّما يدرك نفسه في مثال من صورة وحجم ومقدار .

الثامن : خلقه [خلق خ] الخلق على غير مثال . إلى قوله : معين ، وقد سبق أيضاً بيانه في الخطبة الأولى وغيرها ، وتمام خلقه بأمره بلوغه إلى غايته في الكمال الممكن له إذ [إذا خ] نطقت البراهين العقلية، أن كل ما أمكن لشيء وصل إليه من الجود الإلهي المنزّه عن البخل والمنع من جهته ، وإذعانه لطاعته دخوله تحت القدرة الإلهية ، وكذلك إجابته من غير مدافعة وانقياده من غير منازعة . ثم شرع في مقصود الخطبة ، وهو حمد الله تعالى باعتبار بعض لطائف صنعه وعجائب خلقه ، والتنبيه على غوامض حكمته في خلقة هذا الحيوان المخصوص .

وبدأ بالتعجب من مخالفتها لسائر الحيوان في قبض الضياء لإبصارها مع بسطها لسائر إبصار الحيوانات وإعداده لانبساط النبات ونموه وغيره . ثم من بسط الظلام لإبصارها مع قبضه لسائر الإبصار . ثم نبّه على العلة الطبيعية لذلك وهو عشاء أعينها وضعفها أن تستمد من نور الشمس المضيئة

نوراً تهتدي به ، والذي ذكر في علّة ذلك الضعف هو إفراط التحلّل في الروح الحامل للقوة الباصرة من هذا الحيوان إذا لقي حرّ النهار فيصيبه لذلك التحلل ضعف يحتاج معه إلى التعوض عما يتحلّل فيرجع عن العضو الباصر منها طلباً لبدل ما يتحلّل فيستكمل البدل بقرب الليل لمكان برده وضعف حرارة النهار فيعود الإبصار ، ووصفه عليه السلام بهذه الخاصية منها وكيفيّة حالها فيها إلى قوله : ظلم لياليها . وصف لا مزيد على فصاحته .

وقوله : وتتصّل بعلانية برهان الشمس إلى معارفها .

في غاية الفصاحة . ومعارفها ما تعرفه من مذاهبها ووجوه تصرفاتها ، وتتصل عطف على قوله : تستمد ، وأما إسدالها لجفونها على أحداقها فلأن تحلّل الروح الحامل للقوة الباصرة سبب للنوم أيضاً فيكون ذلك الإسدال ضرباً من النوم وكثيراً ما يلحق كثيراً من الحيوان وسببه ما ذكرناه ، واستعار لفظ القناع للشمس ملاحظة لشبهها بالمرأة ذات القناع ، وكنّى بإلقائه عن بروزها من حجاب الأرض . ثم ثنّى بتسبيح الله وتعظيمه باعتبار أمر آخر لها على سبيل التعجب وهو خلق أجنحتها من لحم بلا ريش ولا قصب كسائر أجنحة الطير. بل من عروق ورقّ تبسطه وتقبضه على مفاصل مخصوصة من غير رقة توجب له الانشقاق عند الطيران ، ولا غلظ يوجب له الثقل . ثم ثلث بعجيب حالها مع ولدها ، وذلك أنه يلصق بها فيرتضعها ولا يفارقها في حالتي وقوعها وطيرانها حتى يشتد ويمكنه الطيران والتصرف بنفسه ، وذلك أمر يخالف به أيضاً سائر الحيوان وهو محل التعجّب .

ثم ختم الفصل بتسبيح الله تعالى باعتبار خلقه لكل شيء من غير مثال سبق من غيره ، ومن الأمثال العامة : قيل للخفّاش : لماذا لا جناح لك ؟ قالت : لأني تصوير مخلوق . قيل : فلماذا لا تخرج نهاراً ؟ قال : حياء من الطيور . يريدون أن المسيح عليه السلام صوّره . وإن إليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني** ﴾[1] وفي الطير عجائب لا تهتدي لها العقول. بل وفي كل ذرّة من ذرّات مبدعاته ومكوّناته لطائف وأسرار كالنحل والبعوض والنمل تعجز عن إدراكها واستقصاء أوصافها ألباب الألباء وحكمة الحكماء فسبحانه ما أعظم شأنه وأبهر برهانه .

---

(١) ٥ - ١١٠ .

١٥٥ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

خاطب به أهل البصرة على جهة اقتصاص الملاحم :

فَمَن آسْتَطَاعَ عِنْدَ ذٰلِكَ أَنْ يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَى الله فَلْيَفْعَلْ ! فَإِنْ أَطَعْتُمُونِي فَإِنِّي حَامِلُكُمْ ـ إِنْ شَاءَ الله ـ عَلَى سَبِيلِ الْجَنَّةِ ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ ، وَمَذَاقَةٍ مَرِيرَةٍ .

وَأَمَّا فُلَانَةُ فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ النِّسَاءِ ، وَضِغْنٌ غَلَا فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ الْقَيْنِ ، وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ لَمْ تَفْعَلْ . وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الْأُولَى ، وَالْحِسَابُ عَلَى الله .

أقول : اعتقل نفسه : أي ضبطها وحبسها . والضغن : الحقد . والمرجل : القدر .

وقوله : عند ذلك .

يقتضي أنه سبق منه قبل هذا الفصل ذكر فتن وحروب تقع بين المسلمين وجب على من أدركها أن يحبس نفسه على طاعة الله دون مخالطتها والدخول فيها ، وسبيل الجنّة هو الدين القيّم ، وظاهر شرط حمله لهم عليه بالطاعة . إذ لا رأي لمن لا يطاع ، ونبّه على أن من الدين الحق ما هو ذو مشقّة شديدة ومذاقة مريرة كالجهاد ، وكذلك سائر التكاليف لها مشقّة ، وفلانة كناية عن عائشة وإدراك رأي النساء لها في حربه بالبصرة ، وقد علمت أن رأي النساء يرجع إلى أفن وضعف . وفي الخبر : لا يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة ، وجاء : إنّهنّ قليلات عقل ودين . كما سبق بيان أخلاقهنّ . وأما الضغن فقد نقل له أسباب عدة :

منها ما كان بينها وبين فاطمة عليها السلام بسبب تزويج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لها عقيب موت خديجة أم فاطمة ، وإقامتها مقامها ، ومن المعلوم المعتاد ما يقع بين المرأة وابنة زوجها من غيرها من الكدر ، وكان سبب البغض من المرأة لبنت الزوج حركة المتخيلة بإقامة البنت مقام الأم التي هي ضرّة لها وتشبيهها بها . فتقيمها مقام الضرّة ، وتتوهم فيها العداوة والبغضاء ثم ينشأ ذلك الخيال

ويقوى بأسباب أخرى فيتأكد البغض خصوصاً إن كان الزوج أكرم لبنته كما هو المنقول من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في حق فاطمة عليها السلام .

وأما من جهة البنت فلتخيّلها أنها ضرّة أمّها وتوهمها بسبب ذلك بغضها لها ، والباغض للأم باغض للبنت لا محالة ، ويتأكد ذلك بالميل المنقول عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في حق عائشة وإيثارها على سائر نسائه ، والنفوس البشرية خصوصاً نفوس النساء تغيظ على ما دون ذلك فكيف بذلك منه صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا شك في تعدّي ذلك إلى نفس بعلها عليه السلام ، فإن النساء كثيراً ما يحصل بسببهنّ الأحقاد في قلوب الرجال ، وعن بعض الحكماء : إذا رأيت في الدنيا خصومة ليست بسبب امرأة فاحمد الله تعالى فإنها أمر عجيب ، وكثيراً ما كانت فاطمة عليها السلام تشكو إلى بعلها من عائشة . ومنها ما كان من أمر قذف عائشة ، ونقل إن علياً عليه السلام كان من المشيرين بطلاقها تنزيهاً لعرض الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من أقوال المنافقين .

وقال له لما استشاره : إن هي إلاّ شسع نعلك ، وقال : اسئل الخادمة وخوِّفها . فإن أقامت على الجحود فاضربها . وبلغها كل ذلك الكلام وسمعت أضعافه من الغير مما جرت عادة الناس أن يتداولونه في مثل هذه الواقعة ، ونقل إليها النساء : أن علياً عليه السلام وفاطمة سرّا بذلك . فتفاقم الأمر وغلظ . ثم لما نزلت براءتها وصالحها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ظهر منها ما جرت العادة بظهوره ممن انتصر بعد ظلمه وينتصر بعد غلبه من بسط اللسان والتبجّح بالبراءة من العيب ، وفلتات القول في أثناء ذلك .

وبلغ ذلك علياً وفاطمة عليهما السلام ، ومنها كون النبي صلى الله عليه وآله وسلم سدّ باب أبي بكر من المسجد، وفتح باب صهره ، ومنها بعثه إيّاه بسورة براءة ، ثم أخذها منه ودفعها إلى علي عليه السلام . إلى غير ذلك من الأسباب الجزئية التي تشهد بها قرائن الأحوال ولا تكاد تتبيّن بالأقوال . فإن كل ذلك مما يثير الأحقاد ويؤكد الأضغان .

وقوله : ولو دعيت. إلى آخره .

كلام حق لمكان الباعث لها في حقه دون غيره .

وقوله : ولها بعد حرمتها الأولى .

وجه اعتذاره في الكفّ عن أذاها بعد استحقاقها للأذى في نظره ، وحرمتها بنكاح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكونها زوجة له .

وقوله : والحساب على الله.

تنبيه على أنه وإن سامحهافي الدنيابما فعلت فإن الله تعالى هو المتولي لحسابها في الآخرة ، ولعل هذا الكلام منه عليه السلام قبل إظهارها للتوبة وعلمه بذلك لأنه في معنى إظهار الوعيد لها من الله .

منها : سَبِيلٌ أَبْلَجُ الْمِنْهَاجِ . أَنْوَرُ السِّرَاجِ ، فَبِالإيمَانِ يُسْتَدلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الإيمَانِ ، وَبِالإيمَانِ يُعْمَرُ الْعِلْمُ ، وَبِالْعِلْمِ يُرْهَبُ الْمَوْتُ ، وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا ، وَبِالدُّنْيَا تُحْرَزُ الآخِرَةُ ، وَإِنَّ الْخَلْقَ لاَ مَقْصَرَ لَهُمْ عَنِ الْقِيَامَةِ ، مُرْقِلِينَ فِي مِضْمَارِهَا إلى الْغَايَةِ الْقُصْوَى .

أقول : [أُزلفت خ]. قدمت وقربت . والإرقال : ضرب من الخبب . ولا مقصر له عن كذا : أي لا محبس .

ومبدء الفصل في وصف الإيمان ، والمراد بالإيمان التصديق القلبي بالتوحيد وبما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولا شكّ في كونه سبيلاً أبلج واضح المسلك إلى الجنة أنور السراج في ظلمات الجهل ، ولفظ السراج مستعار ، والصالحات هي الأعمال الصالحات من سائر العبادات ومكارم الأخلاق التي وردت بها الشريعة ، وظاهرٌ كونها معلولات للإيمان، وثمرات له يستدل بوجوده في قلب العبد على ملازمته لها استدلالاً بالعلّة على المعلول ، ويستدل بصدورها من العبد على وجود الإيمان في قلبه استدلالاً بالمعلول على العلّة ، وأما قوله : وبالإيمان يعمر العلم . فلأن الإيمان بالتفسير المذكور إذا عضده البرهان كان علماً وهو روح العلوم ، ويطلق اسم الإيمان عليه مع ثمراته ، وهي الأعمال الصالحة لأنها من كمالاته ولا تمام له ولا منفعة بدونها. فإن العلم إذا لم يعضد بالعمل فهو قليل الفائدة في الآخرة . بل لا ثمرة له فهو كالخراب الغير صالح للاقتناء. فكما لا يصلح الخراب للسكنى فكذلك العلم الخالي عن الأعمال الصالحة فلذلك قال عليه السلام في

موضع آخر :

العلم مقرون بالعمل ، والعلم يهتف بالعمل فإن جاء به وإلاّ ارتحل ، وأما قوله : وبالعلم يرهب الموت . فلأن العلم بالله تعالى وغاية خلقه للإنسان وملاحظة نسبة الدنيا إلى الآخرة ، والعلم بأحوال المعاد يستلزم ذكر الموت ودوام ملاحظته وذلك مستلزم لرهبته والعمل له ولما بعده .

وقوله : وبالموت يختم الدنيا .

ظاهر إذ الدنيا عبارة عما فيه الإنسان قبل الموت من التصرفات البدنية .

وقوله : وبالدنيا تحرز الآخرة .

إشارة إلى أن الدنيا محل الاستعداد لتحصيل الزاد ليوم المعاد ، وفيها يحصل كمال النفوس الذي تحرز به سعادة الآخرة . وقد سبق بيانه .

وقوله : [بالقيامة تزلف الجنة للمتقين وتبرز الجحيم للغاوين خ].

إشارة لطيفة ذكرناها غير مرّة . وهو أن بالموت وطرح جلباب البدن يتبيّن ما للإنسان وما عليه مما قدّم من خير أو شر . وإن كانت ثمرة ذلك أثراً حاصلاً للنفس في الدنيا لأن التألم به والالتذاذ إنّما يحصل لها بعد طرح البدن . وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً** ﴾[1]. ولفظ الإزلاف والبروز يشهد بذلك لأن فيه معنى الظهور : أي ظهور الإدراك إذن .

وقوله : وإنّ الخلق لا مقصر لهم عن القيامة . إلى آخره .

كلام في غاية الحسن مع غزارة الفائدة ، وهو إشارة إلى أنه لا بدّ لهم من ورود القيامة . ومضمارها : مدة الحياة الدنيا . وهو لفظ مستعار ، ووجه المشابهة كون تلك المدة محل استعداد النفوس للسباق إلى حضرة الله كما أن المضمار محل استعداد الخيل للسباق ، وقد سبق بيان ذلك في قوله : ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق ، ومرقلين : حال. وإرقالهم كناية عن سيرهم

---

(١) ٣ - ٣٨.

المتوهم في مدة أعمارهم إلى الآخرة وسرعة حثيث الزمان بهم في إعداد أبدانهم للخراب ، والغاية القصوى هي السعادة والشقاوة الأخروية .

منها : قَدْ شَخَصُوا مِنْ مُسْتَقَرِّ الأَجْدَاثِ ، وَصَارُوا إلى مَصَائِرِ الْغَايَاتِ ، لِكُلِّ دَارٍ أَهْلُهَا : لاَ يَسْتَبْدِلُونَ بِهَا ، وَلاَ يُنْقَلُونَ عَنْهَا ؛ وَإِنَّ الأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَخُلُقَانِ مِنْ خُلُقِ الله سُبْحَانَهُ ، وَإِنَّهُمَا لاَ يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ وَلاَ يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ ، وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ الله فَإِنَّهُ الْحَبْلُ الْمَتِينُ ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ . وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ . وَالرِّيُّ النَّاقِعُ . وَالْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ ، وَالنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ لاَ يَعْوَجُّ فَيُقَامَ ، وَلاَ يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ ، وَلاَ تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ وَوُلُوجُ السَّمْعِ . مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ .

وقام إليه رجل وقال : أخبرنا عن الفتنة ، وهل سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال عليه السلام :

لَمَّا أَنْزَلَ الله سُبْحَانَهُ قَوْلَهُ : ﴿ **أَلَم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ** ﴾ عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لاَ تَنْزِلُ بِنَا وَرَسُولُ الله ، صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ ، بَيْنَ أَظْهُرِنَا ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، مَا هٰذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ الله بِهَا ؟ فَقَالَ : « يَا عَلِيُّ ، إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِي » فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، أَوَ لَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ ٱسْتُشْهِدَ مَنِ ٱسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ ، فَشَقَّ ذٰلِكَ عَلَيَّ فَقُلْتَ لِي « أَبْشِرْ ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ »؟ فَقَالَ لِي « إِنَّ ذٰلِكَ لَكَذٰلِكَ ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إذاً ؟» فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ؛ لَيْسَ هٰذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ ، وَلٰكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ ، وَقَالَ : « يَا عَلِيُّ ، إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بَعْدِي بِأَمْوَالِهِمْ ، وَيَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ ، وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ وَالأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ ، فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِيذِ ، وَالسُّحْتَ بِٱلْهَدِيَّةِ ، وَالرِّبَا بِٱلْبَيْعِ » فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ؛ بِأَيِّ الْمَنَازِلِ أُنْزِلُهُمْ عِنْدَ ذٰلِكَ ؟ أَبِمَنْزِلَةِ رِدَّةٍ أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ؟ فَقَالَ : « بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ » .

أقول : صدر هذا الفصل صفة حال أهل القبور في القيامة . ومصائر

الغايات : الجنة والنار ، وظاهر أن لكل دار منهما أهل لا يستبدلون بها ، ويجب أن يعني بأهل النار الكفّار ليتم قوله : لا يستبدلون بها ولا ينقلون عنها فإن العصاة من أهل القبلة وإن صحّ أنهم يعذّبون لكن ثبت أنهم ينتقلون عنها .

وقوله : وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . إلى قوله : من رزق .

حثّ عليهما ، يذكر كونهما خلقين من خلق الله . واعلم أن إطلاق لفظ الخلق على الله استعارة لأن حقيقة الخلق أنه ملكة نفسانية تصدر عن الإنسان بها أفعال خيريّة أو شرّية . وإذ قد تنزّه قدسه تعالى عن الكيفيّات والهيئات لم يصدق هذا اللفظ عليه حقيقة لكن لما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأخلاق الفاضلة أشبه ما نعتبره له تعالى من صفات الكمال ونعوت الجلال التي ينسب إليها ما يصدر عنه، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأفعال الخيرية التي بها نظام العالم وبقاؤه كحكمته وقدرته وجوده وعنايته وعدم حاجته ما يتعارف من الأخلاق الفاضلة التي تصدر عنها الأفعال الخيرية والشريّة فاستعير لها لفظ الأخلاق ، وأُطلق عليه .

فأما كونهما لا يقرّبان الأجل ولا ينقصان الرزق فلأن كثيراً من ضعفاء الاعتبار العقلي يمنعهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، توهّم أحد الأمرين ، وخصوصاً ترك نهي الملوك من المنكرات. ثم شرع في الحث على لزوم كتاب الله بأوصاف نبّه بها على فضيلته .

الأول : كونه الحبل المتين ، ولفظ الحبل مستعار له ، ووجه المشابهة كونه سبباً لنجاة المتمسك به من الهوى في دركات الجحيم كالحبل في نجاة المتمسك به ، ورشّح بذكر المتانة .

الثاني : كونه نوراً مبيناً ، ولفظ النور أيضاً استعارة له باعتبار الاهتداء به إلى المقاصد الحقيقية في سلوك سبيل الله .

الثالث : كونه الشفاء النافع : أي من ألم الجهل ، وكذلك الري الناقع : أي للعطشان من ماء الحياة الأبدية كالعلوم والكمالات الباقية .

الرابع : كونه عصمة للمتمسك ونجاة للمتعلق ، ومعناه كالذي سبق في كونه حبلاً .

الخامس : لا يعوجّ فيقام . إذ ليس هو كسائر الآلات المحسوسة .

السادس : ولا يزيغ فيستعتب : أي يطلب منه العتبى والرجوع إلى الحق كما يفعله سائر الحكام من الناس.

السابع : كونه ولا تخلقه كثرة الردّ : أي الترديد في الألسنة وولوج الأسماع وهو من خصائص القرآن الكريم فإن كل كلام نثر أو نظمٍ إذا كثرت تلاوته مَجَّتْهُ الأسماع واستهجن إلاّ القرآن الكريم فإنه لا يزال غضاً طرياً يزداد على طول التكرار في كرور الأعصار محبة في القلوب وحسناً ، والذي يلوح من سرّ ذلك كثرة أسراره وغموضها التي لا يطلع عليها إلاّ الأفراد مع كونه في غاية من فصاحة الألفاظ وعذوبة المسمع .

فأما ما حكاه من سؤاله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وجواب الرسول له : فقد روى كثير من المحدثين عنه عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : إن الله قد كتب عليك جهاد المفتونين كما كتب عليّ جهاد المشركين . قال : فقلت : يا رسول الله وما هذه الفتنة التي كتب عليّ فيها الجهاد ؟ قال : فتنة قوم يشهدون أن لا إله إلاّ الله وأنّي رسول الله وهم مخالفون للسنّة . فقلت : يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : فعلام أُقاتلهم وهم يشهدون كما أشهد ؟ قال : على الإحداث في الدين ومخالفة الأمر . فقلت : يا رسول الله إنك كنت وعدتني بالشهادة فاسأل الله أن يعجّلها لي بين يديك . قال : فمن يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين ؟ أما إني وعدتك الشهادة وستستشهد تضرب على هذا فتخضب هذه فكيف صبرك إذن ؟.

فقلت : يا رسول الله ليس ذا [هذا خ] بموطن صبر هذا موطن شكر . قال : أجل أصبت فأعد للخصومة فإنك مخاصم . فقلت : يا رسول الله لو بيّنت لي قليلاً . فقال : إنّ أُمّتي ستفتن من بعدي فتتأول القرآن وتعمل بالرأي وتستحل الخمر بالنبيذ والسحت بالهدية والربا بالبيع وتحرّف الكتاب عن مواضعه وتغلب كلمة الضلال فكن حلس بيتك حتى تقلّدها فإذا قلّدتها جاشت عليك الصدور، وقلبت لك الأمور فقاتل حينئذٍ على تأويل القرآن.

كما قاتلت على تنزيله فليست حالهم الثانية دون حالهم الأُولى . فقلت : يا رسول الله فبأي المنازل هؤلاء المفتونين أبمنزلة فتنة أم بمنزلة ردّة ؟ فقال : بمنزلة فتنة يعمهون فيها إلى أن يدركهم العدل . فقلت : يا رسول الله أيدركهم العدل منّا أم من غيرنا ؟ قال : بل منّا فبنا فتح وبنا يختم وبنا ألّف الله بين القلوب بعد الشرك .

فقلت : الحمد لله على ما وهب لنا من فضله . وليس في هذا الفصل غريب ينبّه عليه سوى قوله : ليس هذا من مواطن الصبر ولكن من مواطن الشكر . فإنّك علمت فيما سلف أن الصبر والشكر من أبواب الجنّة والمقامات العالية للسالك إلى الله تعالى لكن علمت أن مقام الشكر أرفع من مقام الصبر ، ولما كان هو عليه‌السلام سيد العارفين بعد سيد المرسلين صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لا جرم كان أولى من صدرت عنه هذه الإشارة، فأما إخبار الرسول صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بأن الناس سيفتنون بأموالهم ويمنّون بدينهم على ربهم ويتمنّون رحمته ويأمنون سطوته وسائر ما أخبر به . إلى قوله : بالبيع . فكل ذلك مشاهد في زماننا وقبله بقرون ، وأما كون ذلك منزلة فتنة لا منزلة ردّة فلبقائهم على الإقرار بالشهادتين وإن ارتكبوا من المحارم ما ارتكبوا لشبه غطّت على أعين أبصارهم . وبالله التوفيق .

١٥٦ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

الْحَمْدُ لله الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ ، وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ ، وَدَلِيلاً عَلَى آلائِهِ وَعَظَمَتِهِ .

عِبَادَ الله ، إنَّ الدَّهْرَ يَجْرِي بِالْبَاقِينَ كَجَرْيِهِ بِالْمَاضِينَ ، لاَ يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى مِنْهُ ، وَلاَ يَبْقَى سَرْمَداً مَا فِيهِ . آخِرُ فِعَالِهِ كَأَوَّلِهِ ، مُتَسَابِقَةٌ أُمُورُهُ ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلاَمُهُ ، فَكَأَنَّكُمْ بِالسَّاعَةِ تَحْدُوكُمْ حَدْوَ الزَّاجِرِ بِشَوْلِهِ ، فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَيَّرَ فِي الظُّلُمَاتِ ، وَارْتَبَكَ فِي الْهَلَكَاتِ ، وَمَدَّتْ بِهِ شَيَاطِينُهُ فِي طُغْيَانِهِ ، وَزَيَّنَتْ لَهُ سَيِّءَ أَعْمَالِهِ ، فَالْجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ ، وَالنَّارُ غَايَةُ الْمُفَرِّطِينَ .

آعْلَمُوا عِبَادَ الله ، أَنَّ التَّقْوَى دَارُ حِصنٍ عَزِيزٍ ، وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ : لَا يَمْنَعُ أَهْلَهُ ، وَلَا يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ . أَلَا وَبِالتَّقْوَى تُقْطَعُ حُمَةُ الْخَطَايَا وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْغَايَةُ الْقُصْوَى .

عِبَادَ الله ؛ الله الله فِي أَعَزِّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ ، وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ ، فَإِنَّ الله قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقَهُ . فَشِقْوَةٌ لَازِمَةٌ ، أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ ، فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ لِأَيَّامِ الْبَقَاءِ ، قَدْ دُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ ، وَأُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ ، وَحُثِثْتُمْ عَلَى الْمَسِيرِ ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكْبٍ وُقُوفٍ ، لَا تَدْرُونَ مَتَى تُؤْمَرُونَ بِالْمَسِيرِ .

أَلَا فَمَا يَصْنَعُ بِالدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلآخِرَةِ؟ وَمَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسْلَبُهُ ، وَتَبْقَى عَلَيْهِ تَبِعَتُهُ وَحِسَابُهُ ؟!

عِبَادَ الله ، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ الله مِنَ الْخَيْرِ مَتْرَكٌ ، وَلَا فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْغَبٌ ! عِبَادَ الله ؛ آحْذَرُوا يَوْماً تُفْحَصُ فِيهِ الْأَعْمَالُ ، وَيَكْثُرُ فِيهِ الزِّلْزَالُ ، وَتَشِيبُ فِيهِ الْأَطْفَالُ .

إِعْلَمُوا، عِبَادَ الله ، أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، وَعُيُوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ ، وَحُفَّاظَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ وَعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ ، لَا تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ دَاجٍ ، وَلَا يُكِنُّكُمْ مِنْهُمْ بَابٌ ذُو رِتَاجٍ ، وَإِنَّ غَداً مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ .

يَذْهَبُ الْيَوْمُ بِمَا فِيهِ ، وَيَجِيءُ الْغَدُ لَاحِقاً بِهِ ، فَكَأَنَّ كُلَّ آمْرِيءٍ مِنْكُمْ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْأَرْضِ مَنْزِلَ وَحْدَتِهِ ، وَمَخَطَّ حُفْرَتِهِ ، فَيَا لَهُ مِنْ بَيْتِ وَحْدَةٍ ، وَمَنْزِلِ وَحْشَةٍ ، وَمُفْرَدِ غُرْبَةٍ ! وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ قَدْ أَتَتْكُمْ ، وَالسَّاعَةَ قَدْ غَشِيَتْكُمْ وَبَرَزْتُمْ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ ، قَدْ زَاحَتْ عَنْكُمُ الْأَبَاطِيلُ ، وَآضْمَحَلَّتْ عَنْكُمُ الْعِلَلُ وَآسْتَحَقَّتْ بِكُمُ الْحَقَائِقُ ، وَصَدَرَتْ بِكُمُ الْأُمُورُ مَصَادِرَهَا ، فَاتَّعِظُوا بِالْعِبَرِ ، وَآعْتَبِرُوا بِالْغِيَرِ ، وَآنْتَفِعُوا بِالنُّذُرِ .

أقول : الشول : النوق التي جفّ لبنها وارتفع ضرعها وأتى عليها من

نتاجها سبعة أشهر . الواحدة شائلة على غير قياس . والارتباك : الاختلاط . وحمة العقرب : إبرتها ، وهي محل سمّها . والرتاج : الغلق .

وقد حمد الله تعالى باعتبارات :

أحدها : جعله الحمد مفتاحاً لذكره في عدة سور .

الثاني : كونه سبباً للمزيد من فضله ، والمراد بالحمد هنا الشكر لقوله تعالى : ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنّكم** ﴾[1] وقد عرفت إعداده لزيادة النعم .

الثالث : ودليلاً على آلائه . لاختصاص الشكر بمولى النعم ، وعلى عظمته . لاختصاصه باستحقاق ذلك لذاته . إذ هو مبدء لكل نعمة ، ولأن الحمد لا ينبغي إلّا له ، ثمّ أخذ في الموعظة فنبّه السامعين على فعل الدهر بالماضين ليتذكروا أنهم أمثالهم ولا حقون بهم فيتقهقروا عن غيّهم ويعملوا لما بعد الموت ، ثم نبّه على حاله في تقضّيه بأن كل وقت مضى منه لا يعود ، وأن كل وقت منه له أهل ومتاعٍ من الدنيا إنما يكون في الوجود بوجود ذلك الوقت ، وظاهر أنه تنقضي بتقضّيه ولا يبقى سرمداً ما فيه ، وأن آثاره متشابهة آخرها كأولها : أي يوجد ما يكون بإعداد وقت منه بوجود ذلك الوقت وينقضي بانقضائه فحاله دائماً على وتيرة واحدة ، وكذلك قوله : متشابهة أموره فإنه كما كان أولاً يعدّ قوماً للفقر وقوماً للغنى ، وقوماً للضعة وقوماً للرفعة ، وقوماً للوجود وآخرين للعدم كذلك هو آخراً .

وقوله : متظاهرة أعلامه .

أي دلالاته على شيمته وطبيعته وأفعاله التي يعامل الناس بها قديماً وحديثاً متعاضدة يتبع بعضها بعضاً ، ونسبة هذه الأمور إلى الدهر جرياً على ما في أوهام العرب وإن كان الفاعل هو الله تعالى . وإنّما للدهر الإعداد كما سبق . ثم نبّه على قرب الساعة وشبّه حدوها : أي سوقها لهم بسوق الزاجر للنوق في حثّه لها ، وقد عرفت كيفية ذلك السوق ووجه الاستعارة فيه وفي قوله : وإنّ الساعة من ورائكم تحدوكم .

فأما وجه الشبه فهو السرعة والحث ، وإنما خصّ الشول من النوق

---

(١) ١٤ ـ ٧.

لخلوّها من العثار فيكون سوقها بعنف وأسرع ، ولما نبّههم على قربها وأنها تحدوهم نبّههم على وجوب اشتغال كل بنفسه . إذ كل مشغل نفسه بغير نفسه غير محصل لنور يهتدي به في ظلمات طريق الآخرة. بل إنما يحصل على أغطية وأغشية من الهيئات البدنية اكتسبها عما اشتغل به من متاع الدنيا والعمل بها ، وعلمت أن تلك الأغطية مغشية لنور البصيرة فلا جرم يتحيّر في تلك الظلمات ويرتبك في مهالك تلك الطريق ومغاويها ، وتمدّ به شياطينه ونفسه الأمارة في طغيانه ، وتزين له سيء أعماله . ثم ذكر غاية وجود الإنسان فخصّ الجنة بالسابقين ، والنار بالمفرّطين ، وقد كان ذكر الجنة كافياً في الجذب إليها ، والنار كافياً في الجذب عنها فقرن ذكر الجنة بذكر فضيلة السبق ، وذكر النار برذيلة التفريط ليقوى الباعث على طلب أشرف الغايتين والهرب من أخسّهما .

وأيضاً فلأن السبق والتفريط علّتان للوصول إلى غايتيهما المذكورتين فهدى إلى طلب إحديهما ، والهرب من الأخرى بذكر سببها . ثم عاد إلى التنبيه على فضيلة التقوى ، واستعار له لفظ الدار الحصينة التي تعزّ من تحصن بها ، ووجه الاستعارة كونها تحصن النفس أما في الدنيا فمن الرذائل الموبقة المنقّصة الموجبة لكثرة من الهلكات الدنيوية . وأما في الآخرة فمن ثمرات الرذائل ملكات السوء المستلزمة للعذاب الأليم . ثم على رذيلة الفجور ، وهو طرف الإفراط من فضيلة العفّة ، واستعار لفظ الدار بقيد كونها حصناً ذليلاً ، ووجه الاستعارة كونه مستلزماً لضد ما استلزم التقوى، ويجب أن يخصص التقوى هنا بفضيلة القوة البهيمية وهي العفّة والزهد لمقابلة الفجور للعفة .

ثم نبّه على فضيلة أخرى للتقوى وهي كونها قاطعاً لحمة الخطايا ولفظ الحمة مستعار لها باعتبار كونها أسباباً مستلزمة للأذى في الآخرة كما يستلزم إبرة العقرب أو سمّها للأذى ، ومن روى حمّة مشددة أراد شدة الخطايا وبأسها لأن حمة الحر معظمته، وظاهر كون التقوى قاطعاً لبأس الخطايا وماحياً لآثارها ، ولما أشار إلى كون التقوى حاسماً لمادة الخطايا، وكان بذلك إصلاح القوة العملية أشار إلى أن اليقين الذي به إصلاح القوة النظرية سبب

لإدراك الغاية القصوى. فإن الإنسان إذا حصل على كمال القوة النظرية باليقين وعلى كمال القوة العملية بالتقوى بلغ الغاية القصوى من الكمال الإنساني .

ثم عقّب بتحذير السامعين من الله تعالى في أعزّ الأنفس عليهم وأحبّها إليهم . وفي الكلام إشارة إلى أن للإنسان نفوساً متعددة وهي باعتبار مطمئنة ، وأمارة بالسوء ، ولوّامة . وباعتبار عاقلة ، وشهوية ، وغضبيّة . والإشارة إلى الثلاث الأخيرة . وأعزّها النفس العاقلة . إذ هي الباقية بعد الموت ، ولها الثواب وعليها العقاب ، وفيها الوصية ، وغاية هذا التحذير حفظ كل نفسه مما يوبقها في الآخرة ، وذلك بالاستقامة على سبيل الله ، ولذلك قال : فقد أوضح لكم سبيل الحق وأبان طرقه . وروي وأنار طرقه : أي بالآيات والنذر .

ثم نبّه على غايتي سبيل الحق وسبيل الباطل بقوله : فشقوة لازمة أو سعادة دائمة . ثم عاد إلى الحث على اتخاذ الزاد بعد أن ذكر التقوى تنبيهاً على أن الزاد هو التقوى كما قال تعالى : ﴿ **وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى** ﴾[1]. وأيام البقاء الحال التي بعد الموت ، ودلالتهم على الزاد في الآية التي دلّهم الله تعالى بها عليه وأمرهم بالظعن كقوله تعالى : ﴿ **سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة** ﴾[2] الآية .وقوله: ﴿**ففرّوا إلى الله**﴾ وبالجملة فكل أمر بالإعراض عن الدنيا والتنفير عنها فهو مستلزم للحث على الظعن والأمر بالمسير عن الدنيا بالقلوب لأن الظعن هنا هو قطع درجات المعارف والأعمال في سبيل الله وصراطه المستقيم والمسير فيها ، ويحتمل أن يريد بالحثّ على المسير حثّ الليل والنهار بتعاقبهما على الأعمار فهما سابقان حثيثان عنيفان فيجب التنبيه لسوقهما على اتخاذ الزاد لما يسوقان إليها .

وقوله : وإنّما أنتم كركب . إلى آخره .

فوجه التشبيه ظاهر فالإنسان هو النفس ، والمطايا هي الأبدان والقوى النفسانية ، والطريق هي العالم الحسي والعقلي ، والسير الذي ذكره قبل

(١) ٢ - ١٩٣ .
(٢) ٣ - ٢٧ .

الموت هو تصرّف النفس في العالمين لتحصيل الكمالات المسعدة وهي الزاد لغاية السعادة الباقية ، وأما السير الثاني الذي هو وقوف ينتظرون ولا يدرون متى يؤمرون به فهو الرحيل إلى الآخرة من دار الدنيا وطرح البدن، وقطع عقبات الموت والقبر إذ الإنسان لا يعرف وقت ذلك .

وحينئذٍ يتبيّن لك من سرّ هذا الكلام أن قوله : وأُمرتم بالظعن مع قوله : لا تدرون متى تؤمرون بالسير . غير متنافيين كما ظنه بعضهم . ثم أخذ في تزهيد الدنيا والتنفير عنها بذكر أن الإنسان غير مخلوق لها. بل لغيرها ومقتضى العقل أن يعمل الإنسان لما خلق له ، وفي تزهيد المال بتذكير سلبه عن قليل بالموت وبقاء الحساب عليه وتبعاته من عقارب الهيئات الحاصلة بسبب محبّته وجمعه، والتصرف الخارج عن العدل فيه لاسعة لمقتنيه . ثم عقب بالترغيب في وعد الله بأنه ليس منه مترك : أي ليس منه عوض وبدل في النفاسة بالتنفير عما نهى الله عنه بكونه لا مرغب فيه : أي ليس فيه مصلحة ينبغي أن يجعلها العاقل غاية مقصوده له . إذ هو تعالى أعلم بالمصالح فلا يليق بجوده أن ينهى العبد عما فيه مصلحة راجحة .

ثم عقب بالتحذير من يوم الوعيد ووصفه بالصفات التي باعتبارها يجب الخوف منه والعمل له وهي فحص الأعمال فيه ونقاش الحساب عليه كقوله تعالى : ﴿ **ولتسئلنّ عما كنتم تعملون** ﴾(١) وظهور الزلزال كقوله تعالى : ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾ وشيب الأطفال كقوله تعالى : ﴿ **يوماً يجعل الولدان شيباً** ﴾(٢).

واعلم أن هذه الصفات في يوم القيامة ظاهرة في الشريعة ، وقد سلّط التأويل عليها بعض من تحذلق فقال : أما الفحص عن الأعمال فيرجع إلى إحاطة اللوح المحفوظ بها وظهورها للنفس عند مفارقتها للبدن أو إلى انتقاش النفوس بها كما تقدم شرحه كقوله تعالى : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً** ﴾(٣) الآية .

---

(١) ١٦ - ٩٥ .
(٢) ٧٣ - ١٧.
(٣) ٣ - ٢٨ .

وأما ظهور الزلزال فيحتمل أن يريد التغيّر الذي لا بد منه والاضطراب العارض للبدن عند مفارقة النفس والتشويش لها. أيضاً على ما تقدم من الإشارة إلى أن الدنيا هي مقبرة النفوس وأجداثها ، وأما مشيب الأطفال فكثيراً ما يكنى بذلك عن غاية الشدة يقال هذا أمر تشيب فيه النواصي وتهرم فيه الأطفال إذا كان صعباً . ولا أصعب على النفس من حال المفارقة وما بعدها .

ثم عقّب بالتحذير من المعاصي بالتنبيه على الرصد القريب الملازم ، وأشار بالرصد إلى الجوارح كما قال تعالى : ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون** ﴾(1). وقوله : ﴿ **وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا** ﴾ (2) الآية . والشهادة هنا بلسان الحال والنطق به فإن كل عضو لما كان مباشراً لفعل من الأفعال كان حضور ذلك العضو وما صدر عنه في علم الله تعالى بمنزلة الشهادة القولية بين يديه وأكد في الدلالة ، وأشار بحفّاظ الصدق إلى الكرام الكاتبين ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في الخطبة الأولى ، وظاهر كونهم لا يستر منهم ساتر .

ثم بالتحذير بقرب غد ، وكنى به عن وقت الموت . ثم ببلوغ منزل الوحدة ، وكنى به عن القبر ، ووصفه بالأوصاف الموحشة المنفرة المستلزمة للعمل لحلوله ولما بعده . ثم بالصيحة وهي الصيحة الثانية إن كانت إلاّ صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ، والنفخة الثانية ونفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . ثم بالقيامة الكبرى والبروز لفصل القضاء وهو حال استحقاق كل نفس ما لا بد لها منه من دوام عذاب أو دوام نعيم بحكم القضاء الإلهي ، وذلك بعد زوال الهيئات الباطلة الممكنة الزوال من النفوس التي لها استكمالٌ ما ولحوقها بعالمها واضمحلال العلل الباطلة للنفوس واستحقاق الحقائق بالخلق ورجوع كل امرىء إلى ثمرة ما قدم .

ثم عاد إلى الموعظة الجامعة الكلية فأمر بالاتعاظ بالعبر وكل ما يفيد تنبيهاً على أحوال الآخرة فهو عبرة ، وبالاعتبار بالغير وهي جمع غيرة فعلة من

---

(1) ٢٤ - ٢٤ .
(2) ٤١ - ٢٠ .

التغيّر، واعتبارها طريق الاتعاظ والانزجار . ثم بالانتفاع بالنذر جمع نذير وهو أعمّ من الإنسان بل كل أمر أفاد تخويفاً بأحوال الآخرة فهو نذير والانتفاع به حصول الخوف منه . وبالله التوفيق .

١٥٧ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ ، وَانْتِقَاضٍ مِنَ الْمُبْرَمِ ، فَجَاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَالنُّورِ الْمُقْتَدَى بِهِ : ذٰلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ وَلَنْ يَنْطِقَ ، وَلٰكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ ، أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي ، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي ، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ .

أقول : الهجعة : النومة . والمبرم . الحبل المحكم الفتل .

وثمرة الفصل التنبيه على فضيلة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والفترة الزمان بين الرسولين ، وكنّى بالهجعة من الأمم عن رقدتهم في مراقد الطبيعة ونوم الغفلة عما خلقوا لأجله في مدة زمان الفترة ، وأشار بالمبرم إلى ما كان الخلق عليه من نظام الحال بالشرائع السابقة وانبرام أمورهم بوجودها ، وانتقاضها فساد ذلك النظام بتغيّر الشرائع واضمحلالها ، والذي صدّقه بين يديه هو التوراة والإنجيل كما قال تعالى : ﴿ **مصدقاً لما بين يديه من الكتاب** ﴾[1]. ولكل أمر منتظر أو قريب يقال إنه جار بين اليدين ، واستعار لفظ النور للقرآن ، ووجه الاستعارة ظاهر .

ثم أمر باستنطاقه وفسّر ذلك الاستنطاق باستماع العبارة عنه . إذ هو لسان الكتاب والسنّة ، وكسر أوهامهم التي عساها تستنكر أمره باستنطاقه بقوله : فلن ينطق ، ونبّه على ما فيه من علم الأولين والحديث عن القرون الماضية وعلم ما يأتي من الفتن وأحوال القيامة وأن فيه دواء دائهم ، وذلك الداء هو الرذائل المنقصة ، ودواء ذلك الداء هو لزوم الفضائل العلمية والعملية التي اشتمل عليها القرآن الكريم ونظام ما بينهم إشارة إلى ما اشتمل عليه من القوانين الشرعية والحكمة السياسية التي بها نظام العالم واستقامة أموره .

---

(١) ٥ ـ ٢٥ .

منها : فَعِنْدَ ذٰلِكَ لَا يَبْقَى بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ ، إِلَّا وَأَدْخَلَهُ الظَّلَمَةُ تَرْحَةً ، وَأَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَةً ، فَيَوْمَئِذٍ لَا يَبْقَى لَكُمْ فِي السَّمَاءِ عَاذِرٌ ، وَلَا فِي الْأَرْضِ نَاصِرٌ ، أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ ، وَسَيَنْتَقِمُ اللهُ مِمَّنْ ظَلَمَ : مَأْكَلًا بِمَأْكَلٍ ، وَمَشْرَباً بِمَشْرَبٍ : مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلْقَمِ ، وَمَشَارِبِ الصَّبِرِ وَالْمَقِرِ ، وَلِبَاسِ شِعَارِ الْخَوْفِ ، وَدِثَارِ السَّيْفِ ، وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ ، وَزَوَامِلُ الْآثَامِ ، فَأُقْسِمُ ثُمَّ أُقْسِمُ لَتَنْخَمَنَّهَا أُمَيَّةُ مِنْ بَعْدِي كَمَا تَلفِظُ النُّخَامَةَ ، ثُمَّ لَا تَذُوقُهَا وَلَا تَطْعَمُ بِطَعْمِهَا أَبَداً مَاكَرَّ الْجَدِيدَانِ .

أقول : الترحة : الحزن . والمقر : المرّ . والزاملة : الجمل يستظهر به الإنسان في حمل متاعه . وتنخمت النخامة : لفظتها .

وسياق الكلام الإخبار عن حال بني أمية وما يحدث في دولتهم من الظلم ، وكنّى ببيت المدر والوبر عن البدو والحضر ، وعن استحقاقهم عند فعلهم ذلك للتغيّر وزوال الدولة بعدم العاذر في السماء والناصر في الأرض . ثم عقب بتوبيخ السامعين على إصفائهم بأمر الخلافة غير أهله ، والخطاب عام خصّه العقل بمن هو راض بدولة معاوية وذريته ، وربما أُلحق من تقاعد عن القيام معه في قتاله لأن القعود عن ردع الظالم، وقتاله مستلزم لقوته ويجري مجرى نصرته وإعانته على ظلمه وإن لم يقصد القاعد منه ذلك .

ثم أخبر أن الله سينتقم منهم . ومأكلاً ومشرباً منصوبان بفعل مضمر التقدير ويبدّلهم مأكلاً بمأكل ، واستعار لفظ العلقم والصبر والمقر لما يتجرعونه من شدائد القتل وأهوال العدو ومرارات زوال الدولة ، وكذلك لفظ الشعار للخوف ، ورشّح بذكر اللباس ولفظ الدثار للسيف ، ووجه الاستعارة الأولى ظاهر. ووجه الثانية ملازمة الخوف لهم كملازمة الشعار للجسد، وأفاد بعض الشارحين أنه إنما خصّص الخوف بالشعار لأنه باطن في القلوب ، والسيف بالدثار لأنه ظاهر في البدن كما أن الشعار ما كان يلي الجسد والدثار ما كان فوقه ، واستعار لهم لفظ المطايا والزوامل .

ووجه الاستعارة حملهم للآثام . وأتى بلفظ إنما إشارة إلى أن جميع حركاتهم وتصرفاتهم على غير قانون شرعي فيكون خطيئة وإثماً . ثم أقسم لتنخمنها أمية من بعده . فاستعار لفظ التنخّم لزوال الخلافة عنهم فكأنهم قاءوها وقذفوها من صدورهم ملاحظة لشبهها بالنخامة ، وكنّى بعدم ذوقها وتطعمها عن عدم رجوعها إليهم ، وما هنا بمعنى المدة ، والجديدان الليل والنهار ، وكنّى بذلك عن الأمد . وهو إخبار منه عما سيكون .

وروي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه أخبر أن بني أُمية تملك الخلافة بعده مع ذمّ منه لهم نحو ما روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم في تفسير قوله : ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلّا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوّفهم** ﴾(1) قال المفسرون : تلك الرؤيا أنه رأى بني أُمية ينزون على منبره نزو القردة ، وبهذا اللفظ فسّر صلى الله عليه وآله وسلم الآية وساءه ذلك . ثم قال : الشجرة الملعونة بنو أُمية وبنو المغيرة ، وروي عنه أنه قال : إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً ، وكما روي عنه في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾ قال : ألف شهر يملك فيها بنو أُمية ، ونحو قوله : أبغض الأسماء إلى الله الحكم والهشام والوليد . إلى غير ذلك .

١٥٨ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

وَلَقَدْ أَحْسَنْتُ جِوَارَكُمْ ، وَأَحَطْتُ بِجُهْدِي مِنْ وَرَائِكُمْ ؛ وَأَعْتَقْتُكُمْ مِنْ رِبَقِ الذُّلِّ ، وَحَلَقِ الضَّيْمِ ، شُكْراً مِنِّي لِلْبِرِّ الْقَلِيلِ ! وَإِطْرَاقاً عَمَّا أَدْرَكَهُ الْبَصَرُ ، وَشَهِدَهُ الْبَدَنُ مِنَ الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ .

أقول : إحاطته بجهده من ورائهم إشارة إلى حفظه وحراسته لهم ، وَإِعْتَاقُهُمْ من ربق الذل وحلق الضيم حِمَايتهمْ من عدوّهم واعتزازهم به . ثم نبّههم على شكره للقليل من برّهم : أي مقدار طاعتهم لله في طاعته ، وإطراقه عن كثير منكرهم مما شاهده منّا عليهم بالمسامحة والعفو .

فإن قلت : فكيف يجوز له أن يسكت عن إنكار المنكر مع مشاهدته له .

---

(1) ١٧ - ٦٠ .

قلت : يحمل ذلك منه على عدم التمكن من إزالته بالعنف والقهر لجواز أن يستلزم ذلك مفسدة أكبر مما هم عليه من المنكر ، وظاهر أنهم غير معصومين ومحال أن تستقيم دولة أو يتم ملك بدون الإحسان إلى المحسنين من الرعية والتجاوز عن بعض المسيئين . وبالله التوفيق .

١٥٩ - ومن خطبة له (عليه السلام)

أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ ، وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ ، يَقْضِي بِعِلْمٍ ، وَيَعْفُو بِحِلْمٍ . اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي ، وَعَلَى مَا تُعَافِي وَتَبْتَلِي ، حَمْداً يَكُونُ أَرْضَى الْحَمْدِ لَكَ ، وَأَحَبَّ الْحَمْدِ إلَيْكَ، وَأَفْضَلَ الْحَمْدِ عِنْدَكَ ، حَمْداً يَمْلأُ مَا خَلَقْتَ ، وَيَبْلُغُ مَا أَرَدْتَ ، حَمْداً لَا يُحْجَبُ عَنْكَ ، وَلَا يَقْصُرُ دُونَكَ ، حَمْداً لَا يَنْقَطِعُ عَدَدُهُ ، وَلَا يَفْنَىٰ مَدَدُهُ، فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ ، إلَّا أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ حَيٌّ قَيُّومٌ لَا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ، لَمْ يَنْتَهِ إلَيْكَ نَظَرٌ ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ ، أَدْرَكْتَ الأَبْصَارَ ، وَأَحْصَيْتَ الأَعْمَارَ ، وَأَخَذْتَ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ ، وَمَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ وَنَعْجَبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ ، وَمَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ ، وَقَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ ، وَانْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ ، وَحَالَتْ سُتُورُ الْغُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ؛ أَعْظَمُ . فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَمٰوَاتِكَ ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرِ الْمَاءِ أَرْضَكَ ؛ رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيراً ، وَعَقْلُهُ مَبْهُوراً . وَسَمْعُهُ وَالِهاً وَفِكْرُهُ حَائِراً .

أقول : أمره هو حكم قدرته الإلهية ، وكونه قضاء كونه حكماً لازماً لا يرد ، وكونه حكمة كونه على وفق الحكمة الإلهية وانتظام الأكمل ، ورضاه يعود إلى علمه بطاعة العبد له على وفق أمره ونهيه .

وقوله : يقضي بعلم .

إعادة لمعنى قوله : أمره قضاء وحكمة . يجري مجرى التفسير له .

وقوله : ويعفو بحلم .

فالعفو يعود إلى الرضا بالطاعة بعد تقدّم الذنب ، وإنّما يتحقق العفو مع تحقّق القدرة على العقاب . إذ العجز لا يسمى عفواً فلذلك قال : يعفو بحلم . ثم عقّب بخطاب الله بالاعتراف بنعمته والحمد له باعتبار ضروب من السراء والضراء . إشارة إلى حمده على كل حال وهي الأخذ والإعطاء والعافية والابتلاء . ثم باعتبار كيفيته وهو كونه أرضى الحمد لله وأحبه إليه وأفضله عنده : أي أشدّه وقوعاً على الوجه اللائق المناسب لعظمته . ثم باعتبار كميته وهو كونه يملأ ما خلق ويبلغ ما أراد كثرة. ثم باعتبار غايته وهو كونه لا يحجب عنه ولا يقصر دونه . ثم باعتبار مادته وهو كونه لا ينقطع عدده ولا يفنى مدده ، وقد يكون التفصيل في القول في بعض المواضع أبلغ وقعاً في النفوس وألذ ، وقد يكون الإجمال أو الاختصار أنفع وأبلغ. ثم شرع في الاعتراف بالعجز عن إدراكه كنه عظمته .

وفي بيان وجه معرفته الممكنة للخلق ، وهي إما بالصفات الحقيقية أو الاعتبارات السلبية أو الإضافية . وأشار إلى الاعتبارات الثلاثة فكونه حياً قيوماً إشارة إلى الصفات الحقيقية . وقد عرفت أنهما يستلزمان الوجود . إذ كل حي موجود والقيوم هو القائم بذاته المقيم لغيره وكل قائم بذاته فهو موجود واجب الوجود ، وكونه لا تأخذه سنة ولا نوم ولا ينتهي إليه نظر عقلي أو بصري ولا يدركه بصر اعتبارات سلبية ، وكونه مدركاً للأبصار محصياً للأعمال آخذاً بالنواصي والأقدام : أي محيط القدرة بها . اعتبارات إضافية .

ثم عاد إلى استحقار ما عدّده مما أدركه بالنسبة إلى ما لم يدركه من عظيم ملكوته ، وما في قوله : وما الذي . استفهامية على سبيل الاستحقار لما استفهم عنه ، وما الثانية في قوله : وما يغيب عنّا منه . بمعنى الذي محلها الرفع بالابتداء وخبره أعظم ، والواو فيها للحال . ثم عقّب بالحكم على من فرّغ قلبه وأعمل فكره ليصل إلى كنه معرفته وعلم كيفية نظامه للعالم الأعلى والأسفل برجوع كل من آلات إدراكه حسيراً مقهوراً عن إدراك ما كلّفه من ذلك . وقد سبقت الإشارة إلى براهين هذه الأحكام غير مرّة . وبالله التوفيق .

منها : يَدَّعِي بِزَعْمِهِ أَنَّهُ يَرْجُو الله ! كَذَبَ وَالْعَظِيمِ ! مَا بَالُهُ لا يَتَبَيَّنُ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ ؛ فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرِفَ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ ، إلَّا رَجَاءَ الله فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ ، وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ ، إلَّا خَوْفَ الله فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ : يَرْجُو الله فِي الْكَبِيرِ ، وَيَرْجُو الْعِبَادَ فِي الصَّغِيرِ ، فَيُعْطِي الْعَبْدَ مَا لاَ يُعْطِي الرَّبَّ ، فَمَا بَالُ الله ، جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، يُقَصَّرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ لِعِبَادِهِ ؟! أَتخَافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِباً ، أَوْ تَكُونَ لاَ تَرَاهُ لِلرَّجَاءِ مَوْضِعاً ، وَكَذلِكَ إنْ هُوَ خَافَ عَبْداً مِنْ عَبِيدِهِ أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ . مَا لاَ يُعْطِي رَبَّهُ ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ الْعِبَادِ نَقْداً ، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِمْ ضِمَاراً وَوَعْداً ، وَكَذلِكَ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ وَكَبُرَ مَوْقِعُهَا فِي قَلْبِهِ ، آثَرَهَا عَلَى الله فَانْقَطَعَ إلَيْهَا وَصَارَ عَبْداً لَهَا .

وَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ الله . صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ ، كَافٍ لَكَ فِي الأُسْوَةِ وَدَلِيلٌ لَكَ عَلَى ذَمِّ الدُّنْيَا وَعَيْبِهَا ، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا وَمَسَاوِيهَا ؛ إذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا ، وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ أَكْنَافُهَا ، وَفُطِمَ عَنْ رَضَاعِهَا ، وَزُوِيَ عَنْ زَخَارِفِهَا ، وَإنْ شِئْتَ ثَنَّيْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ الله ، صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ ، إذْ يَقُولُ : (رَبِّ إنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) وَاللهِ مَا سَأَلَهُ إلَّا خُبْزاً يَأْكُلُهُ ؛ لأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ الأَرْضِ . وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ لِهُزَالِهِ وَتَشَذُّبِ لَحْمِهِ ، وَإنْ شِئْتَ ثَلَّثْتُ بِدَاوُدَ ، صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ ، وَقَارِىءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؛ فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ الْخُوصِ بِيَدِهِ ، وَيَقُولُ لِجُلسَائِهِ : أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا ؟! وَيَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا ، وَإنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الْحَجَرَ وَيَلْبَسُ الْخَشِنَ ، وَكَانَ إدَامُهُ الْجُوعَ وَسِرَاجُهُ بِاللَّيْلِ الْقَمَرَ ، وَظِلاَلُهُ فِي الشِّتَاءِ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، وَفَاكِهَتُهُ وَرَيْحَانُهُ مَا تُنْبِتُ الأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ ، وَلاَ وَلَدٌ يَحْزُنُهُ ، وَلاَ مَالٌ يَلْفِتُهُ ، وَلاَ طَمَعٌ يُذِلُّهُ ، دَابَّتُهُ رِجْلاَهُ ، وَخَادِمُهُ يَدَاهُ .

فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ الأَطْيَبِ الأَطْهَرِ ، صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ فَإنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى ، وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَّى ، وَأَحَبُّ الْعِبَادِ إلى الله الْمُتَأَسِّي بِنَبِيِّهِ ، وَالْمُقْتَصُّ

لأثَرِهِ : قَضَمَ الدُّنْيَا قَضْماً ، وَلَمْ يُعِرْهَا طَرْفاً ، أَهْضَمُ أَهْلِ الدُّنْيَا كَشْحاً ، وَأَخْمَصُهُمْ مِنَ الدُّنْيَا بَطْناً ، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا ، وَعَلِمَ أَنَّ الله سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ ، وَحَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَرَهُ ، وَصَغَّرَ شَيْئاً فَصَغَّرَهُ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إلاَّ حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ الله وَرَسُولُهُ ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ الله وَرَسُولُهُ ؛ لَكَفَى بِهِ شِقَاقاً لله ، وَمُحَادَّةً عَنْ أَمْرِ الله ، وَلَقَدْ كَانَ ، صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، يَأْكُلُ عَلَى الأَرْضِ ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ ، وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِي ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ ، وَيَكُونُ السِّتْرُ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ : يَا فُلاَنَةُ ـ لإحْدَىٰ أَزْوَاجِهِ ـ غَيِّبِيهِ عَنِّي ؛ فَإِنِّي إذَا نَظَرْتُ إلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَزَخَارِفَهَا ، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ ؛ لِكَيْلاَ يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً ، وَلاَ يَعْتَقِدَهَا قَرَاراً ، وَلاَ يَرْجُو فِيهَا مُقَاماً ، فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ ، وَأَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ ، وَغَيَّبَهَا عَنِ الْبَصَرِ ، وَكَذٰلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئاً أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إلَيْهِ ، وَأَنْ يُذْكَرَ عِنْدَهُ .

وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ الله ، صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِىءِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا ؛ إذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ ، وَزُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ . فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ أَكْرَمَ الله مُحَمَّداً بِذٰلِكَ أَمْ أَهَانَهُ ؟! فَإِنْ قَالَ : « أَهَانَهُ » فَقَدْ كَذَبَ وَأَتَى بِالإفْكِ الْعَظِيمِ ، وَإِنْ قَالَ : «أَكْرَمَهُ» فَلْيَعْلَمْ أَنَّ الله قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ ، وَزَوَاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ ، فَتَأَسَّى مُتَأَسٍّ بِنَبِيِّهِ ، وَاقْتَصَّ أَثَرَهُ ، وَوَلَجَ مَوْلِجَهُ ، وَإلاَّ فَلاَ يَأْمَنِ الْهَلَكَةَ ؛ فَإِنَّ الله جَعَلَ مُحَمَّداً ، صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، عَلَماً لِلسَّاعَةِ ، وَمُبَشِّراً بِالْجَنَّةِ ، وَمُنْذِراً بِالْعُقُوبَةِ : خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا خَمِيصاً . وَوَرَدَ الآخِرَةَ سَلِيماً ، لَمْ يَضَعْ حَجَراً عَلَى حَجَرٍ حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ ، وَأَجَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ ، فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ الله عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفاً نَتَّبِعُهُ ، وَقَائِداً نَطَأُ عَقِبَهُ ، وَالله لَقَدْ رَقَعْتُ مِدْرَعَتِي هٰذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا ، وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ : أَلاَ تَنْبُذُهَا عَنْكَ ؟ فَقُلْتُ : اغْرُبْ عَنِّي «فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى » .

أقول : المدخول : الذي فيه شبهة وريبة ، وكذلك المعلول : الغير الخالص . والضّمار : الذي لا يرجى من الموعود ، والمقتصّ للأثر : أي المتّبع له . والقضم : الأكل بأدنى الفم . والهضيم : الخميص لقلة الأكل . والمحادة : المعاداة . والرياش : الزينة . والمدرعة . الدرّاعة . وأغرب : أي تباعد .

ومساق الكلام يقتضي ذم من يدّعي رجاء الله ولا يعمل له وتنبيهه أن رجاءه ليس بخالص بتكذيبه وبيان تقصيره في العمل .

فقوله : يدّعي بزعمه أنه يرجو الله .

ذكر صورة الدعوى الحالية أو المقاليّة .

وقوله : كذب والعظيم .

ردّ لتلك الدعوى مؤكداً بالقسم البار ، وإنّما قال : والعظيم دون الله لأن ذكر العظمة هنا أنسب للرجاء .

وقوله : ما باله . إلى قوله : عرف رجاءه في عمله .

قياس من الشكل الثاني بيّن فيه أنه غير راج . وتلخيصه أن هذا المدّعي للرجاء غير راج ، ومراده الرجاء التام الذي يجتهد في العمل له ولذلك قال : إلّا رجاء الله فإنّه مدخول فنبّه بأن فيه دخلاً على وجوده إلّا أنه غير خالص ، وبيان الدليل أن كل من رجا أمراً من سلطان أو غيره. فإنّه يخدمه بخدمته التامة ويبالغ في طلب رضاه ويكون عمله له بقدر قوّة رجائه له وخلوصه ، ويرى هذا المدّعي للرجاء غير عامل فيستدل بتقصيره في الأعمال الدينية على عدم رجائه الخالص في الله ، وكذلك قوله : وكلّ خوف محقق إلّا خوف الله فإنّه معلول .

توبيخ للسامعين في رجاء الله تعالى مع تقصيرهم في الأعمال الدينية ، وتقدير الاستثناء الأول مع المستثنى منه : وكل رجاء لراج يعرف في عمله أي يعرف خلوص رجائه فيما يرجوه إلّا رجاء الراجي لله فإنّه غير خالص .

وروي وكلّ رجاء إلّا رجاء الله فإنه مدخول ، والتقدير وكل رجاء محقق أو خالص . لتطابق الكليتين على مساق واحد ، وينبّه على الإضمار في

الكلية الأولى قوله في الثانية : محقق فإنّه تفسير المضمر هناك .

وقوله : يرجو الله في الكبير . إلى قوله : يعطي الرب .

في قوة قياس ضمير صغراه قوله : يرجو . إلى قوله : الصغير ، وتقدير كبراه وكل من كان كذلك فينبغي أن يعطي الله الذي هو ربه من رجائه، والعمل له ما لا يعطي المخلوقين والذين هم عباده ، والصغرى مسلّمة ، فإنَّ الحسّ يشهد بأكثرية أعمال الخلق لما يرجوه بعضهم من بعض بالنسبة إلى أعمالهم لما يرجونه من الله تعالى ، وأما الكبرى فبيانها أن المقرر في الفطرة أن المرجو الكبير يستدعي ما يناسبه مما هو وسيلة إليه كميّةً وكيفيّة .

وقوله : فيعطي العبد ما لا يعطي الرب .

نقض للكبرى .

وقوله : فما بال الله . إلى قوله : لعباده .

توبيخ وتشنيع على من يخالف العمل بالنتيجة المذكورة .

وقوله : أتخاف . إلى قوله : موضعاً .

استفسار عن علّة التفسير المذكور في الرجاء لله والعمل له بالنسبة إلى رجاء العباد والعمل لهم استفساراً على سبيل الإنكار وتقريعاً على ما عساه يدّعي من إحدى العلّتين المذكورتين، وهما خوف الكذب في رجاء الله أو ظنّه غير أهل للرجاء . والأمر الأول خطأ عظيم لزم عن التقصير في معرفة الله . والثاني كفر صراح ، وإنّما خصَّص هاتين العلّتين بالذكر لأنهما المشهورتان في عدم رجاء الخلق بعضهم لبعض أو ضعفه ، وانتفاؤهما في حق الله تعالى ظاهر فإنه تعالى الغني المطلق الذي لا بخل فيه ولا منع من جهته . فإن العبد إذا استعد بقوة الرجاء له والعمل لما يرجوه منه وجبت إفاضة الجود عليه ما يرجوه فلا يكذب رجاؤه وهو الله تعالى الموضع التام له .

وقوله : وكذلك إن هو خاف . إلى قوله : يعطي ربّه .

قياس ضمير استثنائي بيّن فيه قصور خوف الخائف من الله بالنسبة إلى

خوفه من بعض عبيده ، والضمير في عبيده لله ، وفي خوفه للخائف . ويحتمل عوده إلى العبد . والملازمة في الشرطية ظاهرة ، وكبرى القياس استثناء غير المقدم لينتج عين التالي .

وقوله : فجعل . إلى قوله : وعداً .

توبيخ وتشنيع على من لزمه ذلك الاحتجاج وأنه من القبيح المشهور المذكور أن يجعل الإنسان خوفه من عبد مثله نقداً حاضراً وخوفه من خالقه وعداً غير حاضر .

وقوله : وكذلك من عظمت الدنيا . إلى آخره .

إشارة إلى علّة إيثار الناس للحياة الدنيا على ما عند الله مما وعد به وانقطاعهم إليها وصيرورتهم عبيداً لها ، وذكر جزء العلّة القريبة وهي عظمة الدنيا في أعينهم ، وتمام هذه العلة حقارة ما تصوّروه من الوعد الأخروي بالنسبة إلى الدنيا ، وعلّة هذه العلّة ميلهم للذات العاجلة كما هي ، وغيبوبة اللذات الموعودة وتصوّرها الضعيف بحسب الوصف ، الذي غايته أن يوجب في أذهانهم مشابهة ما وعدوا به لما حضر لهم الآن .

فلذلك كانت العاجلة أعظم في نفوسهم وأكبر وقعاً في قلوبهم ، ولذلك آثروها وانقطعوا إليها فاستعبدتهم . وغاية هذا التوبيخ التنفير عن الدنيا والجذب عنها إلى الرغبة فيما وعد الله ، ولذلك عقّب بالتنبيه على ترك الدنيا من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسائر الأنبياء والمرسلين الذين هم القدوة للخلق وإعراضهم عنها ، وعلى كونهم محل الأسوة الكافية لهم في ذلك وهو كقوله تعالى : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة** ﴾[1] الآية . والدليل التام على ذمّها وعيبها وكثرة مساوئها ومخازيها .

وأشار بقوله : إذ قبضت عنه أطرافها . إلى مقدمة من مقدمات الدليل على حقارتها وخبثها وذلك إلى قوله : وخادمه يداه . وقبض أطرافها عنه كناية عن منعها عنه بالكلية لعدم استعداده لها وقبوله إيّاها ، وتوطية جوانبها لغيره كناية عن إعطائه إيّاها وتذليلها له كالملوك . واستعار لفظ الفطم لمنعه منها ،

---

(١) ٣٣ - ٢١ .

وكذلك لفظ الرضاع لها ملاحظة لمشابهتها للأم وله بالابن ، ووجه المشابهة ظاهر . والذي ذكره عليه السلام : والله ما سأله إلاّ خبزاً . هو تفسير الآية كما نقله المفسرون أيضاً ، وصفاق بطنه : هو الجلد الباطن . وشفيفه : ما رقّ منه فلم يحجب البصر عن إدراك ما رآه . وتشذّب لحمه : تفرقه . واستعار لفظ المزامير لأصوات داوُد عليه السلام ولفظ الإدام للجوع ، والسراج للقمر ، والظلال لمشارق الأرض ومغاربها ، والفاكهة والريحان لما تنبت الأرض ، والدابّة للرجلين ، والخادم لليدين .

ووجه الأولى مشاركة صوته عليه السلام للمزمار وهي الآلة التي يزمّر بها في الحس روي أن الوحش والطير كانت تقع عليه حال القراءة في محرابه لاستغراقها في لذة صوته ونغمته .

ووجه الثانية قيام بدنه عليه السلام بالجوع كقيامه بالإدام .

ووجه الثالثة مشاركة القمر للسراج في الضوء .

ووجه الرابعة استتاره عن البرد بالمشارق والمغارب كاستتاره بالظلال .

ووجه الخامسة التذاذ ذوقه وشمه بما تنبت الأرض كما يلتذّ غيره بالفاكهة والريحان .

ووجه السادسة والسابعة قيام انتفاعه برجليه ويديه كقيامه بالدابة والخادم .

وبالجملة فحال الأنبياء المذكورين ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ في التقشف وترك الدنيا والإعراض عنها ظاهر معلوم بالتواتر ، وأما كون داوُد قاري أهل الجنة ـ كما ورد في الخبر ـ فلأن كل أمر حسن ينسب إلى الجنة في العرف أو لأنه مع حسنه جاذب إلى الجنة وداع إلى الله تعالى . ولما وصف حالهم عاد إلى الأمر بالتأسي بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم المأمورون بوجوب الاقتداء به مطلقاً وفيه الأُسوة الكافية لمن تأسى به ولأنه أقرب عهداً ممّن سبق ، وحث على التأسي به بكون المتأسي به المقتص لأثره أحب العباد إلى الله ، وذلك من قوله تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم**

الله ﴾[1]. ثم عاد إلى اقتصاص من حاله صلى الله عليه وآله وسلم في ترك الدنيا والاقتصار منها على قدر الضرورة ليتبيّن ما يكون فيه التأسي به ، وكنّى عن ذلك بقضمها . ثم كنّى عن عدم إلتفاته لها بعدم إعارتها طرفه ، وعن كونه أقل الناس شبعاً فيها والتفاتاً إلى مأكلها ومشربها بكونه أخمصهم خاصرة وبطناً .

روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم : أنه كان إذا اشتد جوعه يربط حجراً على بطنه ويسميه المشبّع مع ملكه قطعة واسعة من الدنيا ، وروي : أنه ما شبع آل محمد من لحم قطّ ، وأن فاطمة وبعلها وبنيها كانوا يصومون على أقراص من الشعير كانوا يعدّونها لإفطارهم وربما آثروا بها السائلين وطووا . روي أنهم فعلوا ذلك ثلاث ليال طووا في أيامها حتى كان ذلك سبب نزول سورة هل أتى في حقهم كما هو المشهور في التفاسير ، وأما قوله : وعرضت عليه فأبى أن يقبلها فكما روي [وردخ] عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : عرضت عليّ كنوز الأرض ورفعت إليّ مفاتيح خزائنها فكرهتها واخترت الدار الآخرة .

وقوله : وعلم أن الله أبغض شيئاً . إلى قوله : فصغّر .

فبغض الله لها عدم إرادتها لأوليائه داراً ، أو إشارة إلى أنها مقصود وجودها بالعرض وتحقيرها وتصغيرها بالقياس إلى ما أعدّ لهم في الآخرة . ثم نفر عن محبتها بعد أن أشار إلى بغض الله لها وتصغيره إيّاها بجملة اعتراضية يتلخّص منها قياس هكذا : أقل معايبنا محبّتنا لما أبغض الله وتعظيمنا لما صغّر وكلّ محبة وتعظيم كذلك فكفى به شقاقاً له ومحادّة عن أمره . فينتج أن أقلّ ما فينا من المعائب يكفينا في مشاقة الله ومحادّته . ثم أردف ذلك بتمام أوصافه في ترك الدنيا والتكلّف لها .

فقوله : ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يأكل على الأرض ويجلس جلسة العبد .

كما روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : إنّما أنا عبد آكل أكل العبيد ، وأجلس جلسة العبيد . وغاية ذلك هو التواضع ، وكذلك غاية خصف نعله بيده وترقيع ثوبه بيده وركوبه للحمار العاري وإردافه خلفه .

وأما أمره بتغييب التصاوير فمحافظة من حركة الوسواس الخنّاس ،

---

(1) ٣ - ٢٩ .

وكما أن الأنبياء عليهم السلام كانوا كاسرين للنفس الأمارة بالسوء وقاهرين لشياطينهم كانوا أيضاً محتاجين إلى مراعاتهم ومراقبتهم وتفقّد أحوال نفوسهم في كل لحظة وطرفة فإنها كاللصوص المخادعين للنفوس المطمئنة ، مهما تركت وغفل عن قهرها والتحفّظ منها عادت إلى طباعها .

وقوله : فأعرض عن الدنيا بقلبه . إلى قوله : وأن يذكر عنده .

إشارة إلى الزهد الحقيقي وهو حذف الموانع الداخلة النفسيّة عن النفس . وما قبله من الأوصاف إشارة إلى زهده الظاهري وهو حذف الموانع الخارجية عنه . ثم عاد إلى التذكير بالمقدمة السابقة للدليل على حقارة الدنيا وخبثها فأعاد ذكر جوعه هو وخاصة من أهل بيته مع عظيم زلفته ورفعة منزلته عند الله وإزوائها عنه .

ولما ذكر تلك المقدمة شرع في الاستدلال بقوله : فلينظر ناظر . إلى قوله : أقرب الناس إليه وهو بقياس شرطي متّصل مقدمه حمليّة وتاليه قضية شرطية منفصلة وتلخيصه : إذا كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم جاع في الدنيا مع خاصته وزوى الله عنه زخارفها مع عظيم زلفته عنده فلا يخلو فعله بذلك . إما أن يكون إكراماً له أو إهانة والقسم الثاني ظاهر البطلان إذ ثبت أنه صلى الله عليه وآله وسلم أخصّ خواص الله ، وإذا كان أحقر ملك في الدنيا لا يقصد بأحد من خاصته إذا كان مطيعاً له الإهانة فكيف يصدر ذلك من جبّار الجبابرة ومالك الدنيا والآخرة حكيم الحكماء ورحيم الرحماء في حقّ أحقّ خواصه وأشدهم طاعة له ، ولأجل وضوح ذلك اقتصر على تكذيب من قال به وأكّده بالقسم البارّ .

وأما القسم الأول وهو أنه أكرمه بذلك فمن المعلوم أن الشيء إذا كان عدمه إكراماً وكمالاً كان وجوده نقصاً وإهانة فكان وجود الدنيا في حق غيره صلى الله عليه وآله وسلم وإزواؤها عنه مع قرب منزلته إهانة لذلك الغير وذلك يستلزم حقارتها ويبعث العاقل على النفار عنها .

ثم عاد إلى الأمر بالتأسي به صلى الله عليه وآله وسلم في ترك الدنيا تأكيداً لما سبق بعد بيان وجوه التأسي وهو أمر في صورة الخبر مع زيادة تنبيه على أن الميل إليها يحلّ الهلكة فمن لم يتأس بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في أحواله في الدنيا وخالفه في الميل إلى شيء منها لم يأمن الهلكة . إذ قد عرفت أن حبّ الدنيا رأس كل خطيئة

وهي الجاذبة عن درجات دار النعيم إلى دركات دار الجحيم .

وقوله : فإنّ الله جعل محمداً . إلى قوله : داعي ربّه .

صورة احتجاج على قوله : وإلّا فلا يأمن الهلكة . وتقريره أن الله تعالى جعله علماً للساعة وأمارة على قربها ومبشراً بالجنة ومنذراً بالعقوبة واطّلعه على أحوال الآخرة. ثم خرج من الدنيا بهذه الأحوال المعدودة المستلزمة للنفار عنها والبغض لها والحذر منها فلو لم يكن الركون إليها وارتكاب أضداد هذه الأحوال منها مظنّة الهلكة لما نفر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنها ويركن إليها لكنه نفر عنها فكانت مظنّة الهلكة فوجب التأسي به في نفاره عنها وإلّا لم يأمن غير المتأسي به الهلكة فيها . وروي علماً للساعة بكسر العين وهو مجاز إطلاقاً لاسم المسبّب على السبب . إذ هو صلى الله عليه وآله وسلم سبب للعلم بالساعة ، وكنّى بوضع الحجر على الحجر عن البناء . ثم عقب بتعظيم منّةالله تعالى على الناس حين أنعم عليهم به سلفاً يتّبعونه وقائداً يقتفون أثره ، وأردف ذلك بذكر بعض أحواله التي تأسّى به عليه السلام فيها من ترك الدنيا والإعراض عن الاستمتاع بها إلى غاية ترقيع مدرعته حتى استحيا من راقعها وقول من قال له : ألا تنبذها وتلقيها وجوابه الحسن .

وقوله : فعند الصباح يحمد القوم السرى .

مثل يضرب لمحتمل المشقة ليصل إلى الراحة فأصله أن القوم يسيرون في الليل فيحمدون عاقبة ذلك بقرب المنزل إذا أصبحوا . ومطابقة الصباح لمفارقة النفس البدن أو لإعراضها عنه واتصالها بالملأ الأعلى بسبب تلك الرياضة الكاملة وإشراق أنوار العالم العلوي عليها التي عنده تحمد عواقب الصبر على مكاره الدنيا وترك لذاتها ومعاناة شدائدها مطابقة ظاهرة واقعة موقعها .

وروي أنه سُئل عليه السلام لم رقعت قميصك فقال : يخشع لها القلب ويقتدي بها المؤمنون . ومما نقل في زهده عليه السلام ما رواه أحمد في مسنده عن أبي النور الحوّام بالكوفة قال : جاءني علي بن أبي طالب عليه السلام إلى السوق ومعه غلام له وهو خليفة فاشترى منّي قميصين وقال لغلامه : اختر أيهما شئت فأخذ أحدهما وأخذ عليّ الآخر . ثم لبسه ومدّيده فوجد كمّه فاضلة فقال :

اقطع الفاضل فقطعه ، ثم كفّه وذهب ، وروى أحمد أيضاً قال : لما أرسل عثمان إلى عليّ وجدوه مؤتزراً بعباءة محتجراً بعقالٍ وهو يهنأ بعيراً له : أي يمسحه بالقطران وهو الهناء ، والأخبار في ذلك كثيرة . وبالله التوفيق .

١٦٠ ومن خطبة له (عليه السلام)

بَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيءِ ، وَالْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ ، وَالْمِنْهَاجِ الْبَادِي ، وَالْكِتَابِ الْهَادِي : أُسْرَتُهُ خَيْرُ أُسْرَةٍ ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ : أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ . مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ ، وَهِجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ ، عَلاَ بِهَا ذِكْرُهُ ، وَامْتَدَّ بِهَا صَوْتُهُ . أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ كَافِيَةٍ ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ ، وَدَعْوَةٍ مُتَلاَفِيَةٍ ، أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْمَجْهُولَةَ ، وَقَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمَدْخُولَةَ ، وَبَيَّنَ بِهِ الأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ ، فَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً تَتَحَقَّقْ شِقْوَتُهُ ، وَتَنْفَصِمْ عُرْوَتُهُ ، وَتَعْظُمْ كَبْوَتُهُ ، وَيَكُنْ مَآبُهُ إلى الْحُزْنِ الطَّوِيلِ ، وَالْعَذَابِ الْوَبِيلِ .

وَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ تَوَكُّلَ الإِنَابَةِ إِلَيْهِ ، وَأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ الْمُؤَدِّيَةَ إلى جَنَّتِهِ ؛ الْقَاصِدَةَ إلى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ . أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ وَطَاعَتِهِ ، فَإِنَّهَا النَّجَاةُ غَداً ، وَالْمَنْجَاةُ أَبَداً ، رَهَّبَ فَأَبْلَغَ ، وَرَغَّبَ فَأَسْبَغَ ، وَوَصَفَ لَكُمُ الدُّنْيَا وَانْقِطَاعَهَا وَزَوَالَهَا وَانْتِقَالَهَا ، فَأَعْرِضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا . أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سُخْطِ اللهِ ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللهِ! فَغُضُّوا عَنْكُمْ عِبَادَ اللهِ غُمُومَهَا وَأَشْغَالَهَا لِمَا أَيْقَنْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا وَتَصَرُّفِ حَالِهَا ، فَاحْذَرُوهَا حَذَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ ، وَالْمُجِدِّ الْكَادِحِ ، وَاعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ : قَدْ تَزَايَلَتْ أَوْصَالُهُمْ ، وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ ، وَانْقَطَعَ سُرُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ ، فَبُدِّلُوا بِقُرْبِ الأَوْلاَدِ فَقْدَهَا ، وَبِصُحْبَةِ الأَزْوَاجِ مُفَارَقَتَهَا ، لاَ يَتَفَاخَرُونَ ، وَلاَ يَتَنَاسَلُونَ ، وَلاَ يَتَزَاوَرُونَ ، وَلاَ يَتَجَاوَرُونَ. فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ حَذَرَ الْغَالِبِ لِنَفْسِهِ ، الْمَانِعِ لِشَهْوَتِهِ ، النَّاظِرِ بِعَقْلِهِ، فَإِنَّ الأَمْرَ وَاضِحٌ ، وَالْعَلَمَ قَائِمٌ ، وَالطَّرِيقَ جَدَدٌ ، وَالسَّبِيلَ قَصْدٌ .

أقول : أُسرته : أهله . والمتهدلـة : المتدلّيـة . وطيبة : اسم للمـدينة سمّاها به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد كان اسمها يثرب ، وروي أن يزيد بن معـاوية سمّاها خيبـة . وتلافيت الشيء : استـدركته . والكبـوة : العثرة . والـوبيل : المهلك. والكدح : السعي والعمل .

وخلاصة الفصل ذكر مدائح النبي صلى الله عليه وآله وسلم . ثم الموعظة الحسنة والتنفيـر عن الدنيا . والنور المضيء نور النبوة ، والبرهـان الجليّ المعجزات والآيـات الموضحة لنبـوته ، والمنهـاج البـادي هـو شريعتـه ودينه الـواضح ، والكتـاب الهادي القرآن لهديه إلى سبيل الجنة ، وظاهر كون أُسرته خير الأُسرة . ولفظ الشجرة مستعار لأصله ، وظاهر كـون قريش أفضـل العرب ، ولفظ الأغصـان مستعـار لأشخـاص ببيتـه صلى الله عليه وآله وسلم كعلي وأولاده وزوجتـه وأعمـامـه وإخـوانـه ، واعتـدال هـذه الأغصـان تقـاربهم في الفضـل والشـرف ، وثمـارهـا مستعـار لفضـائلهم العلمية والعمليـة ، وتهدّلهـا كنايـة عن ظهورهـا وكثرتهـا وسهـولـة الانتفاع بها ، وذكر مولده بمكة وهجرته بـالمدينـة في معرض مـدحته لشـرف مكة بالبيت العتيق وشرف المدينة بأهلها حيث آووه ونصروه حين هـاجر إليهـا فعلا بها ذكره وانتشـر فيها صيته وامتدّت دعوته ، ولأنه هاجر إليها وهي بلدة مجدب قليل الخصب ضعيف الأهل مع غلبة خصومه وقوة المشركين عليه في ذلك الوقت .

ثم إنه مع ذلك علا بها ذكره وانتشـر فيها صيتـه فكان ذلـك من آيات نبوته أيضاً ، والحجّة الكافية ما جاء بـه من الآيات التي قهـر بها أعـداء الله ، والموعظة الشافية ما اشتمل عليـه القرآن العـظيم ، والسنّة الكـريمة من الـوعد والوعيد وضرب الأمثال والتذكير بـالقرون المـاضية والآراء المحمـودة الجاذبـة للناس في أرشد الـطرق إلى جناب ربهم ، وكفى بهـا شفاء للقلوب من أدواء الجهل ، والدعوة المتلافية فإنّه استدرك بهـا ما فسـد من نظام الخلق وتـلافى بها ما هلك من قلوبهم واسودّ من ألواح نفوسهم ، والشرائع المجهولـة طرائق دينه وقوانين شريعته التي لم يكن ليهتدى إليها إلّا بظهوره ، والبـدع ما كـانت عليـه أهل الجـاهلية من الآثـام والفساد في الأرض ، والأحكـام المفصولـة ما فصّله وبيّنـه لنا من أحكـام دين الإسلام الـذي من ابتغى غيره دينـاً ضـلّ عن

سواء طريق النجاة فتحقّقت شقوته في الآخرة وانفصمت عروته : أي انقطع متمسَّك النجاة في يده فعظمت عثرته في سفره إلى الآخرة، وكان مرجعه إلى الحزن الطويل على ما فرّط في جنب الله ومصيره إلى العذاب المهلك في دار البوار .

ثم أنشأ يتوكل على الله توكل المنيب إليه : أي الملتفت بقلبه عن غيره المسلم بجميع أموره إليه ، ويسأله الإرشاد إلى سبيله القاصدة إلى جنّته التي هي محل الرغبة إليه . ثم عقّب بالموعظة فبدأ بالوصية بتقوى الله وطاعته وأطلق عليها لفظ النجاة مجازاً إطلاقاً لاسم المسبب على السبب المادي لكونها معدّة لإفاضة النجاة من عذاب يوم القيامة . وقيل : النجاة الناقة التي ينجى عليها فاستعار لفظها للطاعة لأنها كالمطية ينجو بها المطيع من العطب ، ولفظ المنجاة إذ هي محلّ النجاة دائماً ، والضمير في رهب ورغّب لله : أي فأبلغ في وعيده وأسبغ الترغيب فأتمّه ، ووصف الدنيا بالأوصاف الموجبة للرغبة عنها .

ثم أمر عليه‌السلام بالإعراض عن زينتها ، وعلل حسن ذلك الإعراض بقلّة ما يستصحب الإنسان منها إلى الآخرة ، وأراد الإعراض بالقلب الذي هو الزهد الحقيقي ، وإنما قال : لقلّة ذلك ولم يقل لعدمه لأن السالكين لا بد أن يستصحبوا منها شيئاً، وهو ما يكتسبه أحدهم من الكمالات إلى الآخرة لكن القدر الذي يكتسبه المترفون من الكمالات إذا قصدوا بأموالهم وسائر زينة الحياة الدنيا الوصول إلى الله تعالى قليل نور ، ومع ذلك فهم في غاية الخطر من مزلّة القدم في كل حركة وتصرّف بخلاف أهل القشف الذين اقتصروا منها على مقدار الضرورة البدنية ، ويحتمل أن يريد بالقليل الذي يصحبهم منها كالكفن ونحوه. وإنما كانت أقرب دار من سخط الله وأبعدها من إطاعة الله لأن الميل فيها إلى اللهو واللعب والاستمتاع بزينتها المستلزم لسخط الله أغلب من الانتفاع بها في سلوك سبيل الله .

وقوله : فغضّوا .

أي فكفّوا عن أنفسكم الغمّ لأجلها والاشتغال بها لما تيقنتم من فراقها لأن الغم . إنما ينبغي أن يوجه نحو ما يبقى . ثم حذّر منها حذر الشفيق على نفسه الناصح المجد الكادح لها . ثم أخذ في الأمر باعتبار ما هو مشاهد من مصارع القرون الماضية وأحوالها الخالية من تفرق أوصالهم وزوال أسماعهم وأبصارهم إلى سائر ما عدّده من الأحوال التي نزلت بهم واستبدلوها من الأحوال الدنيوية التي كانوا عليها . ثم حذر منها حذر الغالب لنفسه الأمارة بالسوء الناظر بعين عقله مقابح شهوته المانع لها عن العبور إلى حد الإفراط من فضيلة العفّة . فإن أمر الدنيا والآخرة واضح لمن اعتبر حالهما ، وعلم الشريعة الهادي إلى الحق قائم ، والطريق إلى الله سهل مستقيم قاصد : أي فلا يكن أمركم عليكم غمّة .

١٦١ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

لبعض أصحابه وقد سأله : كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به :

فقال :

يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ ؛ إِنَّكَ لَقَلِقُ الْوَضِينِ ، تُرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدَدٍ! وَلَكَ بَعْدُ ذِمَامَةُ الصِّهْرِ وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ ، وَقَدِ آسْتَعْلَمْتَ فَاعْلَمْ : أَمَّا الاسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهٰذَا الْمَقَامِ ـ وَنَحْنُ الأَعْلَوْنَ نَسَباً ، وَالأَشَدُّونَ بِرَسُولِ اللهِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، نَوْطاً ـ فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثَرَةً شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ ، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ ، وَالْحَكَمُ اللهُ وَالْمَعُودُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَدَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ فِي حَجَرَاتِهِ . وَهَلُمَّ الْخَطْبَ فِي آبْنِ أَبِي سُفْيَانَ فَلَقَدْ أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ إِبْكَائِهِ ، وَلاَ غَرْوَ وَاللهِ فَيَالَهُ خَطْباً يَسْتَفْرِغُ الْعَجَبَ وَيُكْثِرُ الأَوَدَ ، حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ ، وَسَدَّ فَوَّارِهِ مِنْ يَنْبُوعِهِ . وَجَدَحُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شِرْباً وَبِيئاً . فَإِنْ تَرْتَفِعْ عَنَّا وَعَنْهُمْ مِحَنُ الْبَلْوَى أَحْمِلْهُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَى مَحْضِهِ ، وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى (فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ؛ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) .

أقول : الوضين : بطان القتب وحزام السرج . والغلق : الإضطراب . والذمامة بالكسر : الحرمة ، ويروى ماتة الصهر : أي وسيلته وهي المصاهرة ، والنوط : التعلق . والأثرة بالتحريك : الاستبداد والاستيثار . والحجرة بفتح الحاء : الناحية ، والجمع حجرات بفتح الجيم وسكونها . وهلّم : يستعمل بمعنى تعال كقوله تعالى : ﴿ هلّم إلينا ﴾ وقد يستعمل بمعنى هات كما هي هنا فيتعدى كما قال تعالى : ﴿ هلّموا شهدائكم ﴾ . ولا غرو : أي لا عجب والأود : الاعوجاج . والجدح بالجيم بعدها الحاء : الخلط والتخويض والتكدير . والشرب بالكسر : الحظ من الماء . والوبيء : ذو الوباء الممرض .

فأما جوابه للأسدي فإنه يقال للرجل إذا لم يكن ذا ثبات في عقله وأُموره بحيث يسأل عمّا لا يعنيه أو يضع سؤاله في غير موضعه ويستعجل : إنه قلق الوضين ، وأصله أن الوضين إذا قلق اضطرب القتب فلم يثبت فطابق حال من لا يثبت في مقاله وحركاته فضرب مثلاً له ، وكذلك قوله : وترسل في غير سددٍ : أي تتكلم في غير موضع الكلام لا على استقامة . وهذا تأديب له .

وقوله : ولك بعد . إلى قوله : استعملت .

إبداء للعذر في حسن جوابه فإن للمصاهرة حق وللسائل على المسؤول حق الاسترشاد والسؤال . فأما كونه صهراً فلأن زينب بنت جحش زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت أسدية . وهي زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر ابن صبرة بن مرة بن كثير بن غنم بن دوذان بن أسد بن خزيمة وأُمّها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف فهي بنت عمّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . قالوا : والمصاهرة المشار إليها هي هذه ، ونقل القطب الراوندي أن علياً عليه السلام كان متزوجاً في بني أسد . وأنكره الشارح ابن أبي الحديد معتمداً على أنه لم يبلغنا ذلك ، والإنكار لا معنى له . إذ ليس كل ما لم يبلغنا من حالهم لا يكون حقاً ويلزم أن لا يصل إلى غيرنا .

وقوله : أما الاستبداد .

شروع في الجواب والضمير في إنها يعود إلى معنى الأثرة في الاستبداد ، والقوم الذين شحّوا عليها فعند الإمامية من تقدم عليه في الإمامة ، وعند غيرهم فربما قالوا المراد بهم أهل الشورى بعد مقتل عمر .

وقوله : والحكم الله والمعود إليه .

أي المرجع في يوم القيامة في معنى التظلّم والتشكي ، والمعود مبتدأ خبره القيامة . فأمّا البيت فهو لامرء القيس ، وأصله أنه تنقل في أحياء العرب بعد قتل أبيه فنزل على رجل من خذيلة طي يقال له طريف فأحسن جواره . فمدحه وأقام معه . ثم إنّه خاف أن لا يكون له منعة فتحوّل عنه ونزل على خالد بن سدوس بن اسمع النبهاني فأغارت بنو خذيلة عليه وهو في جوار خالد فذهبوا بإبله فلما أتاه الخبر. ذكر ذلك لخالد فقال له : أعطني رواحلك ألحق عليها فأردّ عليك إبلك ففعل فركب خالد في أثر القوم حتى أدركهم فقال : يا بني خذيلة أغرتم على إبل جاري . قالوا : ما هو لك بجار . قال : بلى والله وهذه رواحله . فرجعوا إليه فأنزلوه عنهنّ وذهبوا بهنّ وبالإبل . فقال امرء القيس القصيدة التي أوّلها البيت :

فدع عنك نهباً صيح في حجراته ولكن حديثاً ماحديث الرواحل

والنهب هنا ما ينهب وحجراته جوانبه ، وحديث الثاني مبتدأ والأول خبره وما للتنكير وهي التي إذا دخلت على اسم زادته إبهاماً كقوله : لأمرٍ ما جدع قصير أنفه . والمعنى دع ذكر الإبل فإنه مفهوم ، ولكن حديث الرواحلِ حديثٌ ما : أي حديث مبهم لا يدرى كيف هو ، وذلك أنه قيل : إن خالداً هو الذي ذهب بالرواحل . فكان عنده لبس في أمرها . فأما استشهاده عليه‌السلام به فالمروي في استشهاده النصف الأول من البيت ، ووجه مطابقته لما هو فيه أن السابقين من الأئمة وإن كانوا قد استبدّوا بهذا الأمر فحديثهم مفهوم . إذ لهم الاحتجاج بالقدمة في الإسلام والهجرة وقرب المنزلة من الرسول وكونهم من قريش . فدع ذكرهم وذكر نهبهم هذا المقام فيما سبق ، ولكن هات ما نحن فيه الآن من خطب معاوية بن أبي سفيان ، والخطب هو الحادث الجليل ، وأراد هات ذكر خطبه فحذف المضاف للعلم به ، وأشار به إلى الأحوال التي أدّت إلى أن كان معاوية منازعاً له في هذا الأمر مع بعده عنه

حتى صار قائماً عند كثير من الناس مقامه .

وقوله : فلقد أضحكني الدهر بعد إبكائه .

إشارة إلى غبنه ممّن تقدم عليه في هذا الأمر ، وضحكه بعد ذلك تعجّب مما حكمت به الأوقات واعتبار . ثم قال ولا عجب : أي ذلك أمر يجلّ عن التعجب . ثم أخذ في استعظامه فقال : يا له خطباً يستفرغ العجب : أي يفنيه حتى صار كلا عجب وهو من باب الإغراق والمبالغة كقول ابن هاني :

قد سرت في الميدان يوم طرادهم　　فعجبت حتى كدت لا أتعجّب

ويحتمل أن يكون قوله : ولا غرو والله : أي إذا نظر الإنسان إلى حقيقة الدنيا وتصرّف أحوالها . فيكون قوله بعد ذلك : فيا له . استئناف لاستعظام هذا الأمر . وكونه يكثر الاعوجاج ظاهر فإن كل امرء بعد عن الشريعة ازداد الأمر به اعوجاجاً .

وقوله : حاول القوم . إلى قوله : ينبوعه .

فالقوم قريش ، ومصباح أنوار الله استعارة لخاصة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من أهل بيته ، وكذلك ينبوعه استعارة لهم باعتبار كونهم معدناً لهذا الأمر ولوازمه ، ووجه الاستعارتين ظاهر . يريد أنهم حاولوا إزالة هذا الأمر عن مستقره ومعدنه الأحق به وهو بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . ثم استعار لفظ الشرب الوبيء لذلك الأمر ، ولفظ الجدح للكدر الواقع بينهم والمجاذبة لهذا الأمر ، واستعار لفظ الوبيء له باعتبار كونه سبباً للهلاك والقتل بينهم .

وقوله : فإن ترتفع . إلى آخره .

أي فإن يجتمعوا عليّ ويرتفع بيني وبينهم ما ابتلينا به من هذه المحن والإحن أسلك بهم محض الحق ، وإن أبوا إلاّ البقاء على ما هم عليه فلا أسف عليهم . واقتبس الآية المشتملة على تأديب نفسه وتوطينها على ترك الأسف عليهم إن لم يؤمنوا وعلى تهديدهم ووعيدهم باطلاع الله على أعمالهم السيئة .

١٦٢ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

الْحَمْدُ لله خَالِقِ الْعِبَادِ ، وَسَاطِحِ الْمِهَادِ ، وَمُسِيلِ الْوِهَادِ ، وَمُخْصِبِ النِّجَادِ لَيْسَ لأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ ، وَلاَ لأَزَلِيَّتِهِ انْقِضَاءٌ ، هُوَ الأَوَّلُ لَمْ يَزَلْ ، وَالْبَاقِي بِلاَ أَجَلٍ خَرَّتْ لَهُ الْجِبَاهُ ، وَوَحَّدَتْهُ الشِّفَاهُ ، حَدَّ الأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إبَانَةً لَهُ مِنْ شَبَهِهَا ، لاَ تُقَدِّرُهُ الأَوْهَامُ بِالْحُدُودِ وَالْحَرَكَاتِ ، وَلاَ بِالْجَوَارِحِ وَالأَدَوَاتِ لاَ يُقَالُ لَهُ : «مَتَى ؟» وَلاَ يُضْرَبُ لَهُ أَمَدٌ بِحَتَّى ، الظَّاهِرُ لاَ يُقَالُ «مِمَّا »، وَالْبَاطِنُ لاَ يُقَالُ «فِيما» لاَ شَبَحٌ فَيَتَقَضَّى ، وَلاَ مَحْجُوبٌ فَيُحْوَى . لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الأَشْيَاءِ بِالْتِصَاقٍ ، وَلَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِافْتِرَاقٍ ، لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شُخُوصُ لَحْظَةٍ ، وَلاَ كُرُورُ لَفْظَةٍ ، وَلاَ ازْدِلاَفُ رَبْوَةٍ ، وَلاَ انْبِسَاطُ خَطْوَةٍ فِي لَيْلٍ دَاجٍ ، وَلاَ غَسَقٍ سَاجٍ ، يَتَفَيَّأُ عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ ، وَتَعْقُبُهُ الشَّمْسُ ذَاتُ النُّورِ ، فِي الأُفُولِ وَالْكُرُورِ ، وَتَقَلُّبِ الأَزْمِنَةِ وَالدُّهُورِ ، مِنْ إقْبَالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ ، وَإدْبَارِ نَهَارٍ مُدْبِرٍ ، قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ وَمُدَّةٍ ، وَكُلِّ إحْصَاءٍ وَعِدَّةٍ ، تَعَالَى عَمَّا يَنْحَلُهُ الْمُحَدِّدُونَ مِنْ صِفَاتِ الأَقْدَارِ ، وَنِهَايَاتِ الأَقْطَارِ ، وَتَأَثُّلِ الْمَسَاكِنِ ، وَتَمَكُّنِ الأَمَاكِنِ : فَالْحَدُّ لِخَلْقِهِ مَضْرُوبٌ ، وَإلى غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ ، لَمْ يَخْلُقِ الأَشْيَاءَ ، مِنْ أُصُولٍ أَزَلِيَّةٍ ، وَلاَ مِنْ أَوَائِلَ أَبَدِيَّةٍ ؛ بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَأَقَامَ حَدَّهُ ، وَصَوَّرَ مَا صَوَّرَ ، فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ ، لَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ امْتِنَاعٌ ، وَلاَ لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ انْتِفَاعٌ . عِلْمُهُ بِالأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَوَاتِ الْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الأَرْضِ السُّفْلَى .

أقول : الساطح : الباسط . والمهاد : الأرض ، والوهاد : جمع وهدة وهي المكان المطمئن . والنجاد : جمع نجد ، وهو المكان المرتفع . وازدلاف الربوة : تقدمها . والساجي : الساكن . وتفيؤ القمر : ذهابه ومجيئه حالتي أخذه في التبدر وأخذه في النقصان إلى المحاق . ومجد مؤثّل وبيت مؤثل : أصيل قديم.

وقد اشتملت الخطبة من علم التوحيد على مباحث قدّم الحمد لله تعالى باعتباراتها :

الأول : قوله : خالق العباد . إلى قوله : النجاد .

إشارة إلى كونه مبدءاً لجميع الموجودات ، وبيانه : أن لفظ العباد مشتمل على من في السماوات ومن في الأرض لقوله تعالى : ﴿ **إن كل من في السماوات والأرض إلّا آتي الرحمنٰ عبداً** ﴾(١) وتدخل في ذلك الأجسام الفلكية لكونها أجساماً للملائكة ، وسطح المهاد إشارة إلى خلق الأرض وجعلها مهاداً لما خلق من الحيوان ، ومسيل الوهاد ومخصب النجاد إشارة إلى إيجاده لسائر ما ينتفع به الخلق في الدنيا .

إذا عرفت ذلك فقد اشتملت هذه الألفاظ على إيجاده لجميع الموجودات الممكنة . وقد ثبت أن خالق جميع الموجودات الممكنة لا يكون ممكناً فاستلزم ذلك كونه تعالى واجب الوجود .

الثاني : من الاعتبارات السلبية : كونه تعالى لا ابتداء لأوليته : أي لا حدّ لكونه أولاً للأشياء تقف عنده أوّليته وتنتهي به وإلّا لكان محدثاً فكان ممكناً فلم يكن واجب الوجود . هذا خلف .

الثالث : ولا انقضاء لأزليّته : أي لا غاية ينتهي عندها وينقضي وإلّا لقابل العدم فلم يكن واجب الوجود . هذا خلف .

وقوله : هو الأوّل لم يزل والباقي بلا أجل .

تأكيد للاعتبارين الثاني والثالث بعبارة الإثبات .

الرابع : خرّت له الجباه ووحدته الشفاه . وهو إشارة إلى كمال أُلوهيّته واستحقاقه للعبادة .

الخامس : أنه لا يشبهه شيء . إذ كل شيء ما عداه محدود يقدّره العقل والوهم ويشار إليه بحدود يحيطان به منها ، ولا شيء منه تعالى كذلك . إذ كل وهم قدّره بحدّ أو بحركة أو جارحة أو أداة كما هو مقتضى الوهم في إدراكه لمدركاته فقد ضلّ ضلالاً بعيداً عن تصوّره . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

---

(١) ١٩ - ٩٤ .

السادس : أنّه منزّه عن لحوق الزمان فلا يسأل عنه بمتى ، وعن غاية الزمان فلا يضرب له أمد بحتى .

السابع : كونه ظاهراً ومع غاية ظهوره لا مادة له ولا أصل يستفاد منه فلا يقال مما هو موجود .

الثامن : كونه باطناً ومع غاية بطونه وخفائه لا حيّز له فيقال فيه بطن وخفي كسائر الخفيّات من الأجسام والجسمانيات . وقد سبق بيان كونه تعالى باطناً وظاهراً غير مرّة .

التاسع : كونه وليس بشخص فيلحقه التغيّر والانقضاء .

العاشر : ولا محجوب فيحَويه الحجاب . إذ الشخص للناظر والحجاب من لواحق الأجسام التي تنزّه قدسه عنها .

الحادي عشر : من الاعتبارات الإضافية كونه تعالى قريباً من الأشياء لا بالالتصاق .

الثاني عشر : كونه بعيداً منها بالافتراق . وقد عرفت معنى قربه وبعده في الخطبة الأولى ، ولما كان الالتصاق والافتراق من لواحق الأجسام لا جرم تنزّه قربه وبعده من الأشياء عنها .

الثالث عشر : كونه لا يخفىٰ عليه من عباده شخوص لحظة . إلى قوله : وإدبار نهار مدبر . إشارة إلى إحاطة علمه بكل المعلومات ، وشخوص اللحظة مدّ البصر بلا حركة جفن ، وكرور اللفظة رجوعها ، وازدلاف الربوة تقدمها وأراد الربوة المتقدمة : أي في النظر والبادية عند مدّ العين فإن الربى أول ما يقع في العين من الأرض ، والضمير في عليه للغسق .

وقوله : وتعقّبه الشمس : أي تتعقّبه فحذف إحدى التاءين كقوله تعالى : ﴿ **توفّيهم الملائكة** ﴾ وروى تعقبه ، والضمير المنصوب فيه للقمر .

وقوله : من إقبال ليل .

متعلق بالتقليب ، والمعنى أن الشمس تعاقب القمر فتطلع عند أُفوله ، ويطلع عند أُفولها .

الرابع عشر : كونه قبل كل غاية ومدة وإحصاء وعدّةٍ لأنـه تعالى خـالق الكل ومبدؤه فوجب تقدمه وقبليّته .

الخامس عشر : تنزهه وتعاليه عما تصفه بـه المشبهة والمتبعـون لحكم أوهامهم في جنابه المقدس من صفات المقادير كالأقطار والنهايـات والجوانب وإصالة البيوت وقدمهـا والاستقرار في المسـاكن وسائـر ما هي حـدود ولواحق يتقيّد بها ذوات الأعيان . فإن كـل تلك الحدود مضـروبة منـه لخلقه ومنسـوبة إليهم دونه .

السـادس عشر : كـون مخلوقاتـه صادرة عنـه من غير أُصـول أزليـة ولا أوائل أبديـة : أي أولية سـابقه ومعنى هـذا الكلام أنـه لم يخلق ما خلق على مثال سبق يكون أصلاً لا أول له حذا حذوه ، وقيل : معناه أنـه ليس لما خلق أصل أزليّ أبدي خلق منـه من مادة وصـورة كما زعمت الفـلاسفة ، وروي : ولا من أوائل أبدية .

وقوله : بل خلق ما خلق فأقام حدّه .

أي بـل هو المختـرع لإقـامـة حـدوده ، وهي من المقـاديـر والأشكـال والنهايات والآجال والغايات على وفق الحكمة الإلهية ، وكذلك صوّر ما صوّر فأحسن صورته : أي أتى به على وجه الإحكام والإتقان .

السـابع عشـر : كونـه ليس لغيره منـه امتناع ، إشـارة إلى كمال قـدرته وإحاطة علمه .

الثـامن عشر : كـونه لا انتفـاع له بـطاعة شيء لأن الانتفـاع من لـوازم الحاجة الممتنعة عليه ، وهو إشارة إلى وصف الغنى .

التـاسع عشـر : كون علمـه تعالى بـالأموات المـاضين كعلمه بـالأحياء البـاقين ، وعلمه بمـا في السماوات العلى كعلمـه بما في الأرضين السفلى ، وهو إشارة إلى أن علمه غير مستفاد من غيره ولا يلحقه تغيّر وتجدّد فلا يتجـدّد له علم لم يكن بل علمه تعالى أزلي أبدي تام لا يلحقه نقصان ، نسبـة جميع الممكنـات إليـه على سـواء . وقـد علمت تحقيقـه في المبـاحث الإلهيـة في مظانها . وبالله التوفيق .

منها : أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ ، وَالْمُنْشَأُ الْمَرْعِيُّ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْحَامِ وَمُضَاعَفَاتِ الأَسْتَارِ ؛ بُدِئْتَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ، وَوُضِعْتَ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ، وَأَجَلٍ مَقْسُومٍ ، تَمُورُ فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِيناً : لاَ تُحِيرُ دُعَاءً ، وَلاَ تَسْمَعُ نِدَاءً ، ثُمَّ أُخْرِجْتَ مِنْ مَقَرِّكَ إلى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا ، وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا ، فَمَنْ هَدَاكَ لاِجْتِرَارِ الْغِذَاءِ مِنْ ثَدْيِ أُمِّكَ ؟ وَعَرَّفَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِكَ وَإِرَادَتِكَ ؟ هَيْهَاتَ ! إنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي الْهَيْئَةِ وَالأَدَوَاتِ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجَزُ ؛ وَمِنْ تَنَاوُلِهِ بِحُدُودِ الْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ .

أقول : السوي : المستوي : والمرعي : المعتنى بأمره .

والخطاب للإنسان . ونبّهه بكونه سوياً مرعيّاً على وجود خالقه الحكيم اللطيف . وقد عرفت كيفية تخليق الإنسان وتصويره شيئاً فشيئاً إلى حال كماله ووضعه ، وكذلك نبّهه بتقلّبه في حالاته وأطوار خلقته وباستفهامه عمّن هداه لاجترار غذائه من ثدي أُمّه وعمن عرّفه عند الحاجة مواضع طلبه، وهي الأثداء على وجود خالق هداه إلى جميع حاجته .

فهذا القدر من العلم بالصانع أمر ضروري في النفوس وإن احتاج إلى أدنى تنبيه . وما وراء ذلك بمعنى صفات الكمال ونعوت الجلال أُمور لا تطّلع عليها العقول البشرية بالكنه، وإنّما تطلع منها على اعتبارات ومقايسات له إلى خلقه ، ويحتاج فيها إلى الدليل والبرهان . وقد أشرنا إلى ذلك من قبل . ونبّه على بعد إدراكها والعجز عنها بقوله : هيهات . إلى قوله : والأدوات : أي من يعجز من صفات نفسه في حال تخليقه والاطلاع على منافع جزئيات أعضائه مع كونها محسوسة مشاهدة له فهو عن صفات خالقه التي هي أبعد الأشياء عنه مناسبةً أعجز ، ومن إدراكه بالمقايسة والتشبيه بحدود المخلوقين وصفاتهم أبعد . وبالله العصمة والتوفيق .

١٦٣ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

لما اجتمع الناس عليه وشكوا مما نقموه على عثمان ، وسألوه.
مخاطبته عنهم واستعتابه لهم ، فدخل عليه فقال :

إنَّ النَّاسَ وَرَائِي ، وَقَدِ آسْتَسْفَرُونِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ، وَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا

أَقُولُ لَكَ ؟! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ ، وَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ لاَ تَعْرِفُهُ . إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ مَا سَبَقْنَاكَ إِلى شَيْءٍ فَنُخْبِرَكَ عَنْهُ، وَلاَ خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَنُبْلِغَكَهُ ، وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا ، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا ، وَصَحِبْتَ رَسولَ الله كَمَا صَحِبْنَا ، وَمَا ٱبْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَلاَ ٱبْنُ الْخَطَّاب أَوْلَى بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْكَ ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إلى رسول الله ، صَلَّى عليهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَشِيجَةَ رَحِمٍ مِنْهُمَا ، وَقَدْ نِلْتَ مِنْ صِهْرِهِ مَا لَمْ يَنالاَ ، فَاللهَ اللهَ فِي نَفْسِكَ فَإِنَّكَ ، وَاللهِ ، مَا تُبَصَّرُ مِنْ عَمىً ، وَلاَ تُعَلَّمُ مِنْ جَهْلٍ ، وَإِنَّ الطُّرُقَ لَوَاضِحَةٌ ، وَإِنَّ أَعْلاَمَ الدِّينِ لَقَائِمَةٌ . فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللهِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ عَادِلٌ هُدِيَ وَهَدَى ، فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً ، وَأَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً ، وَإِنَّ السُّنَنَ لَنَيِّرَةٌ لَهَا أَعْلاَمٌ ، وَإِنَّ الْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ لَهَا أَعْلاَمٌ . وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلَّ بِهِ ، فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً ، وَأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رسول الله ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، يَقُولُ : « يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالإِمَامِ الْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلاَ عَاذِرٌ ، يُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى : ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا »، وَإِنِّي أَنْشُدُكَ اللهَ أَنْ لاَ تَكُونَ إِمَامَ هٰذِهِ الأُمَّةِ الْمَقْتُولَ ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ : يُقْتَلُ فِي هٰذِهِ الأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَيَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا ، وَيَبُثُّ الْفِتَنَ فِيهَا ، فَلاَ يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ ؛ يَمُوجُونَ فِيهَا مَوْجاً ، وَيَمْرُجُونَ فِيهَا مَرْجاً ، فَلاَ تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً ، يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلاَلِ السِّنِّ ، وَتَقَضِّي الْعُمُرِ !!

فقال له عثمان رضي الله عنه : كلّم الناس في أن يؤجلوني حتى أخرج إليهم من مظالمهم، فقال عليه السلام :

مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلاَ أَجَلَ فِيهِ ، وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وُصُولُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ.

أقول : استسفروني : اتّخذوني سفيراً : أي رسولاً . والوشيجة : عروق الشجرة . والسيقة بتشديد الياء : ما يسوقه العدو في الغارة من الدواب . وجلال السنّ : علوّه .

وحاصل الكلام استعتابه باللّين من القول . فأثبت له منزلته من العلم : أي بأحكام الشريعة والسنن المتداولة بينهم في زمان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والظهور على كل ما ظهر عليه منها من مرئي ومسموع والصحبة المماثلة لصحبته ، وذكر أن الشيخين ليسا بأولى منه بعمل الحق . ثم فخّمه عليهما بقرب الوشيجة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والصهورة من دونهما ، ولفظ الوشيجة مستعار لما بينه وبينهم من القرابة .

فأما كونه أقرب وشيجةً منهما فلكونه من ولد عبد مناف دونهما . ثم حذّره الله وعقّب التحذير بتنبيهه على أنه غير محتاج إلى تعليم فيما يراد منه مع وضوح طريق الشريعة وقيام أعلام الدين . ثم تنبيهه على أفضلية الإمام العادل بالصفات المذكورة ، وعلى قيام أعلام السنن ، وعلى قيام أعلام البدع ليقتدي بتلك وينكب عن هذه . ثم على حال الإمام الجائر يوم القيامة بما نقل من الخبر عن سيد البشر صلى الله عليه وآله وسلم . ثم ناشده الله تعالى محذّراً له أن يكون الإمام المقتول في هذه الأمّة وقد كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أخبر بذلك بهذه العبارة التي نقلها بعد قوله : يقال : أو بما يناسبها . ثم نهاه أن يكون سيقةً لمروان بن الحكم : أي بصرفه حسب مقاصده بعد بلوغه معظم السن وتقضي العمر . وقد كان مروان من أقوى الأسباب الباعثة على قتل عثمان ، وكان يعكس الآراء التي يشار على عثمان بها من علي عليه السلام وغيره [يشار بها بين علي وغيره خ] مع كونه بغيظاً إلى المعتبرين من الصحابة وكونه طريد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

وقوله في جوابه : ما كان بالمدينة فلا أجل فيه . إلى آخره .

كلام جزل حاسم لما عساه يكون مماطلة من طلب التأجيل لأنّ الحاضر لا معنى لتأجيله ، والغائب لا عذر في تأخيره بعد بلوغ أمره إليك كالذي أعطاه أقرباءه من أموال بيت المال على غير وجهه . وقد سبق في الفصول المتقدمة من أمر عثمان مع الصحابة، وما نقموه عليه ما فيه كفاية . وبالله التوفيق .

١٦٤ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

يذكر فيها عجيب خلقة الطاووس:

إِبْتَدَعَهُمْ خَلْقاً عَجِيباً مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ ، وَسَاكِنٍ وَذِي حَرَكَاتٍ ، فَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صَنْعَتِهِ وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ ، وَمُسَلِّمَةً لَهُ ، وَنَعَقَتْ فِي أَسْمَاعِنَا دَلَائِلُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ ، وَمَا ذَرَأَ مِنْ مُخْتَلِفِ صُوَرِ الأَطْيَارِ ، الَّتِي أَسْكَنَهَا أَخَادِيدَ الأَرْضِ ، وَخُرُوقَ فِجَاجِهَا وَرَوَاسِيَ أَعْلَامِهَا ، مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَهَيْئَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ ، مُصَرَّفَةٍ فِي زِمَامِ التَّسْخِيرِ ، وَمُرَفْرِفَةٍ بِأَجْنِحَتِهَا فِي مَخَارِقِ الْجَوِّ الْمُنْفَسِحِ وَالْفَضَاءِ الْمُنْفَرِجِ ، كَوَّنَهَا بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ فِي عَجَائِبِ صُوَرٍ ظَاهِرَةٍ ، وَرَكَّبَهَا فِي حِقَاقِ مَفَاصِلَ مُحْتَجِبَةٍ ، وَمَنَعَ بَعْضَهَا بِعَبَالَةِ خَلْقِهِ أَنْ يَسْمُوَ فِي السَّمَاءِ خُفُوفاً ، وَجَعَلَهُ يَدِفُّ دَفِيفاً ، وَنَسَقَهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي الأَصَابِيغِ ، بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ ، وَدَقِيقِ صَنْعَتِهِ ، فَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي قَالَبِ لَوْنٍ لَا يَشُوبُهُ غَيْرُ لَوْنِ مَا غُمِسَ فِيهِ ؛ وَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي لَوْنِ صِبْغٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلَافِ مَا صُبِغَ بِهِ .

وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقاً الطَّاوُوسُ الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْكَمِ تَعْدِيلٍ ، وَنَضَّدَ أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ ، بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصَبَهُ ، وَذَنَبٍ أَطَالَ مَسْحَبَهُ ، إِذَا دَرَجَ إِلَى الأُنْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيِّهِ ، وَسَمَا بِهِ مُطِلّاً عَلَى رَأْسِهِ ، كَأَنَّهُ قِلْعُ دَارِيٍّ عَنَجَهُ نُوتِيُّهُ يَخْتَالُ بِأَلْوَانِهِ ، وَيَمِيسُ بِزَيَفَانِهِ ، يُفْضِي كَإِفْضَاءِ الدِّيَكَةِ ، وَيَؤُرُّ بِمَلَاقِحِهِ أَرَّ الْفُحُولِ الْمُغْتَلِمَةِ فِي الضِّرَابِ ! أُحِيلُكَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مُعَايَنَةٍ ، لَا كَمَنْ يُحِيلُ عَلَى ضَعِيفٍ إِسْنَادِهِ ؛ وَلَوْ كَانَ كَزَعْمِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعَةٍ تَسْفَحُهَا مَدَامِعُهُ ، فَتَقِفُ فِي ضَفَّتَيْ جُفُونِهِ ، وَإِنَّ أُنْثَاهُ تَطْعَمُ ذَلِكَ ثُمَّ تَبِيضُ لَا مِنْ لِقَاحِ فَحْلٍ سِوَى الدَّمْعِ الْمُنْبَجِسِ لَمَا كَانَ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ الْغُرَابِ تَخَالُ قَصَبَهُ مَدَارِيَ مِنْ فِضَّةٍ ، وَمَا أُنْبِتَ عَلَيْهِ مِنْ عَجِيبِ دَارَاتِهِ وَشُمُوسِهِ خَالِصَ الْعِقْيَانِ وَفِلَذَ الزَّبَرْجَدِ ؛ فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أَنْبَتَتِ الأَرْضُ قُلْتَ : جَنىً جُنِيَ مِنْ زَهْرَةِ كُلِّ رَبِيعٍ : وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ بِالْمَلَابِسِ ، فَهُوَ كَمَوْشِيِّ الْحُلَلِ ، أَوْ مُونِقِ عَصْبِ الْيَمَنِ ؛ وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ ذَاتِ

أَلْوَانٍ قَدْ نُطِّقَتْ بِاللُّجَيْنِ الْمُكَلَّلِ ، يَمْشِي مَشْيَ الْمَرِحِ الْمُخْتَالِ ، وَيَتَصَفَّحُ ذَنَبَهُ وَجَنَاحَيْهِ فَيُقَهْقِهُ ضَاحِكاً لِجَمَالِ سِرْبَالِهِ ، وَأَصَابِيغِ وِشَاحِهِ .

فَإِذَا رَمَى بِبَصَرِهِ إِلى قَوَائِمِهِ زَقَا مُعْوِلاً بِصَوْتٍ يَكَادُ يُبِينُ عَنِ ٱسْتِغَاثَتِهِ . وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوَجُّعِهِ ؛ لأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمْشٌ كَقَوَائِمِ الدِّيَكَةِ الْخِلاَسِيَّةِ ، وَقَدْ نَجَمَتْ مِنْ ظُنْبُوبِ سَاقِهِ صِيصِيَةٌ خَفِيَّةٌ ، وَلَهُ فِي مَوْضِعِ الْعُرْفِ قُنْزُعَةٌ خَضْرَاءُ مُوَشَّاةٌ ، وَمَخْرَجُ عُنُقِهِ كَالإِبْرِيقِ ؛ وَمَغْرَزُهَا إِلى حَيْثُ بَطْنُهُ كَصِبْغِ الْوَسِمَةِ الْيَمَانِيَّةِ ، أَوْ كَحَرِيرَةٍ مُلْبَسَةٍ مِرْآةً ذَاتَ صِقَالٍ ، وَكَأَنَّهُ مُلَفَّعٌ بِمِعْجَرٍ أَسْحَمَ إِلاَّ أَنَّهُ يُخَيَّلُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ وَشِدَّةِ بَرِيقِهِ أَنَّ الْخُضْرَةَ النَّاضِرَةَ مُمْتَزِجَةٌ بِهِ . وَمَعَ فَتْقِ سَمْعِهِ خَطٌّ كَمُسْتَدَقِّ الْقَلَمِ فِي لَوْنِ الأُقْحُوَانِ ، أَبْيَضُ يَقَقٌ ، فَهُوَ بِبَيَاضِهِ فِي سَوَادِ مَا هُنَالِكَ يَأْتَلِقُ وَقَلَّ صِبْغٌ إِلاَّ وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ ، وَعَلاَهُ بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ وَبَرِيقِهِ وَبَصِيصِ دِيبَاجِهِ وَرَوْنَقِهِ ، فَهُوَ كَالأَزَاهِيرِ الْمَبْثُوثَةِ لَمْ تُرَبِّهَا أَمْطَارُ رَبِيعٍ ، وَلاَ شُمُوسُ قَيْظٍ ، وَقَدْ يَنْحَسِرُ مِنْ رِيشِهِ ، وَيَعْرَى مِنْ لِبَاسِهِ فَيَسْقُطُ تَتْرَى ، وَيَنْبُتُ تِبَاعاً ، فَيَنْحَتُّ مِنْ قَصَبِهِ ٱنْحِتَاتَ أَوْرَاقِ الأَغْصَانِ ثُمَّ يَتَلاَحَقُ نَامِياً حَتَّى يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ : لاَ يُخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ ، وَلاَ يَقَعُ لَوْنٌ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ . وَإِذَا تَصَفَّحْتَ شَعْرَةً مِنْ شَعَرَاتِ قَصَبِهِ أَرَتْكَ حُمْرَةً وَرْدِيَّةً ، وَتَارَةً خُضْرَةً زَبَرْجَدِيَّةً ، وَأَحْيَاناً صُفْرَةً عَسْجَدِيَّةً ، فَكَيْفَ تَصِلُ إِلى صِفَةِ هٰذَا عَمَائِقُ الْفِطَنِ ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ الْعُقُولِ ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ وَأَقَلُّ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ وَالأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ ؟! فَسُبْحَانَ الَّذِي بَهَرَ الْعُقُولَ ، عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلاَّهُ لِلْعُيُونِ فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً وَمُؤَلَّفاً مُلَوَّناً ؛ وَأَعْجَزَ الأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ . وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ قَوَائِمَ الذَّرَّةِ وَالْهَمَجَةِ إِلى مَا فَوْقَهَا مِنْ خَلْقِ الْحِيتَانِ وَالْفِيَلَةِ ؛ وَوَأَى عَلَى نَفْسِهِ أَنْ لاَ يَضْطَرِبَ شَبَحٌ مِمَّا أَوْلَجَ فِيهِ الرُّوحَ إِلاَّ وَجَعَلَ الْحِمَامَ مَوْعِدَهُ وَالْفَنَاءَ غَايَتَهُ .

أقول : نعقت : صاحت . والأخاديد : شقوق الأرض وشعابها . والفجاج : جمع فجّ . وهي الطريق بين الجبلين . والعبالة : امتلاء الجسد .

ونسقها : نظمها . ويختال : يصيبه الخيلاء . وزيفانه : تمايله وتبختره . والأزّ : النكاح والحركة فيه . وملاقحه : آلات اللقاح وأعضاء التناسل . والاغتلام : شدة الشبق . والقلع الداري : الشراع المنسوب إلى دارين ، وهي جزيرة من سواحل القطيف من بلاد البحرين يقال : إنّ الطيب كان يجلب إليها من الهند ، وهي الآن خراب لا عمارة بها ولا سكنى ، وفيها آثار قديمة . وعنجه : عطفه . والنوتى : ربّان السفينة . وضفتي جفونه : جانباها . والمنبجس : المنفجر . والمداري : جمع مدرى ، وهي خشبة ذات أطراف كأصابع الكف محددة الرؤوس ينقى بها الطعام . وداراته : الخطوط المستديرة بقصبه . والعقيان : الذهب . وفلذ : جمع فلذة ، وهي القطعة . والزبرجد : قيل : هو الزمرد ، وقيل : يطلق على البلخش . والجنيّ : فعيل بمعنى المجني ، وهو الملتقط . والعصب : برود تعمل باليمن . والمضاهاة : المشابهة . والحمش : الدقاق . ونطقت باللجين : أي شدّت فيه ورصعت . والوشاح : سير ينسج من أديم ويرصّع بالجواهر فتجعله المرأة على عاتقها إلى كشحيها . وزقا : صاح . والمعول : الصارخ . والديكة الخلاسية : هي المتولدة بين الدجاج الهندي والفارسي . ونجمت : ظهرت . والظنبوب : حرف الساق . والصيصية : الهنة الّتي في مؤخر رجل الديك . والقنزعة : الشعر المجتمع في موضع من الرأس . والوسمة بكسر السين وسكونها : شجر العظلم يخضب به . والأسحم الأسود . التلفّع : التلحف . واليقق : خالص البياض . ويأتلق : يلمع . والبصيص : البريق . وتترى : تسقط منها شيء عقيب شيء . وأدمجه : أحكمه . والذرة : النملة الصغيرة والهمجة : ذبابة صغيرة كالبعوضة .

ومقصود الخطبة التنبيه على عجائب صنع الله لغاية الالتفات إليه والتفكر في ملكوته ، وقد عرفت معنى الابتداع . وأراد بالموت ما لا حياة له ، والساكن كالأرض ، وذو الحركات كالأفلاك وشاهد [شواهد خ] البيّنات ما ظهر للعقول من لطائف المخلوقات فاستدلت بها على لطف صنعته وكمال قدرته فانقادت لتلك الدلائل والطرق الواضحة إلى معرفته والإقرار به والتسليم لأمره ، واستعار لفظ نعيق في الأسماع لظهور تلك الدلائل في صماخ

العقل ، وما الأولى مفعول لأقام ، والضمير في له يرجع إلى ما ، وفي به وله الثانية إلى الله ، وفي دلائله يحتمل العود إلى كل واحد منهما . وما الثانية محلّها الجر بالعطف على الضمير المضاف إليه في دلائله : أي نعقت في أسماعنا دلائله على وحدانيّته ودلائل ما خلق ، وقد عرفت فيما سبق كيفية الاستدلال بكثرة ما خلق واختلافه في وحدانيته ، والأطيار التي أسكنها أخاديد الأرض كالقطاة والصدى ، والتي أسكنها خروق فجاجها كالقبج ، والتي أسكنها رؤوس الجبال كالعقبان والصقور .

ثم أخذ يصف اختلافها بالأجنحة في هيئاتها وكيفيات خلقها تحت تصريف قدرته وحكمته . ثم أشار إلى اعتبار تكوينها وإحداثها في عجائب صورها وألوانها وتركيب خلقها في عبل الجثة تمنع سمّوه في الهواء كالنعام . ثم نبّه على لطيف حكمته في تنسيقها مختلفة الألوان والأصباغ فمنها مغموس في قالب لونٍ واحد. قد طوّق بخلاف ما صبغ به كالفواخت ، وشرع في التنبيه بحال الطاووس على لطف الصنع لاشتماله على جميع الألوان ، وكفى بوصفه عليه السلام شارحاً فإنّه لا أبلغ منه ولا أجمع لتفاصيل الحكمة الموجودة في هذا الموصوف غير أنه قد يحتاج بعض ألفاظه عليه السلام إلى بيان . فأراد بقصبه قصب ريش ذنبه وجناحيه وإشراجها ضبط أُصولها بالأعصاب والعظام وشرج بعضها لبعض ، ووصفه عليه السلام لهيئة درجه إلى الأُنثى حال إرادة السفاد وصف من شاهد واستثبت الهيئة وأحسن بتشبيهه لذنبه عند إرادة السفاد بالقلع الداري. فإنه في تلك الحالة يبسط ريشه وينشره .

ثم يرفعه وينصبه فيصير كهيئة الشراع المرفوع ، ووجه التشبيه زيادة على ذلك أشار إليها بقوله : عنجه نوتيّه ، وذلك أن الملاحين يصرفون الشراع تارة بالجذب ، وتارة بالإرخاء ، وتارة بتحويله يميناً وشمالاً وذلك بحسب انصرافهم من بعض الجهات إلى بعض فأشبههم هذا الطائر عند حركته لإرادة السفاد، وزيفانه في تصريف ذنبه وتحويله ، وله في ذلك هيئة لا يستثبت وجه الشبه فيها كما هو إلاّ من شاهدها مع مشاهدة المشبه به ، ولذلك قال : أُحيلك من ذلك على معاينة لا كمن يحيلك على ضعيف إسناده . وإنّما خصّ دارين بالذكر لأنها كانت المرسى القديم في

زمانه عليه السلام حيث كانت معمورة .

وقوله : ولو كان من يزعم . إلى قوله : المنبجس .

أي لو كان حاله في النكاح كزعم من يزعم ، وهو إشارة إلى زعم قوم أن الذكر تدمع عينه فتقف الدمعة بين أجفانه فتأتي الأنثى فتطعمها فتلقح من تلك الدمعة ، وروي تنجشها مدامعه : أي تغص بها وتحار فيها ، وهو عليه السلام لم يحلْ ذلك ، وإنما قال : ليس ذلك بأعجب من مطاعمة الغراب ، والعرب تزعم أن الغراب لا يسفد . ومن أمثالهم أخفى من سفاد الغراب ، ويزعمون أن اللقاح من مطاعمة الذكر والأنثى وإيصال جزء من الماء الذي فيه في قانصته إليها، وهي أن يضع كل منهما منقاره في منقار صاحبه ويتزاقا وذلك مقدمة للسفاد في كثير من الطير كالحمام وغيره ، وهذا وإن كان ممكناً في بعض الطير كالطاووس والغراب غير أن ذلك بعيد . على أنه قد نقل الشيخ في الشفاء أن القبجة تحبلها ريح تهب من ناحية الحجل ومن سماع صوته ، قال : والنوع المسمى ما لاقيا يتلاصق بأفواهها ثم يتشابك فذلك سفادها ، ونقل الجاحظ في كتاب الحيوان أن الطاووسة قد تبيض من الريح بأن تكون في سفالة الريح وفوقها الذكر فتحمل ريحه فتبيض منها .

قال : وبيض الريح قلّ أن يفرخ . وأقول : قد يوجد في الدجاج ذلك إلّا أنه قلّ ما يفرخ كما ذكره .

ثم شبّه عليه السلام قصب ذنبه بالمداري من الفضة ، ومن شاهد صورة قيام ذنبه مع بياض أصول ريشه وتفرّقها عند نشره للسفاد عرف موضع التشبيه المذكور ووقوعه موقعه ، وكذلك شبّه الخطوط الصفرة المستديرة على رؤوس ريش الذنب بخالص العقيان في الصفرة الفاقعة مع ما يعلوها من البريق ، وما في وسط تلك الدارات من الدوائر الخضر بقطع الزبرجد في الخضرة ، واستعار لها لفظ الشموس ملاحظة لمشابهتها لها في الاستدارة والاستنارة. ثم قال: وإن شبّهته بما أنبتت الأرض. إلى قوله: كل ربيع، ووجه الشبه اجتماع الألوان مع نضارتها وبهجتها . وكذلك وجه الشبه في تشبيهه بموشي الحلل أو المعجب من برود اليمن ، وكذلك إن شاكلته بالحلي ، ووجه شبهه بالفصوص المختلفة الألوان المنطقة في الفضة : أي المرصعة في صفائح الفضّة والمكلّل الذي جعل

كالأكليل بذلك الترصيع . ثم حكى صورة مشيته وصوته كالقهقهة عند نظره إلى حسن سرباله وإعجابه بجمال كسوته ، ولفظ الضحك والقهقهة والسربال مستعار وكذلك حاله في نظره إلى قوائمه فإنه يصيح كالمتوجع من قبح ساقيه ودقّتها ويخضع وينقمع بعد تعظّمه ونفخه لنفسه ، ووجه تشبيه قوائمه بقوائم الديكة الخلاسيّة الدقة والطول والتشظي ونتوّ العرقوب .

ثم أخذ في وصف صيصيته وقنزعته وهي رويشات يسيرة طوال في مؤخر رأسه نحو الثلث بارزة عن ريش رأسه خضر موشاة . ثم أخذ في وصف عنقه ، وشبّه مخرجه بالإبريق ووجه الشبه الهيئة المعلومة بالمشابهة، وكذلك مغرزه من رأسه إلى حيث بطنه يشبه في لونه صبغ الوسمة في السواد المشرق أو الحريرة السوداء الملبسة مرآة ذات صقال في سرابها ومخالطة بصيص المرآة لها أو المعجر الأسود. إلاّ أن ذلك السواد لكثرة مائه وشدّة بريقه يخيّل للناظر أنه ممتزج بخضرة ناضرة . ثم وصف الخلط الأبيض عند محل سمعه ، وشبّهه في دقته واستوائه بخط القلم الدقيق ، وفي بياضه بلون الأُقحوان . ثم أجمل في تعديد الألوان فقال : وقلّ صبغ إلاّ وقد أخذ منه بقسط وعلاه : أي وزاد على الصبغ بكثرة صقاله وبريقه وبصيص ديباجه ، ولفظ الديباج مستعار لريشه .

ثم رجع إلى تشبيهه بالأزاهير المبثوثة ، ونبّه على كمال قدرة صانعها بأنها مع ذلك لم تربّها أمطار الربيع : أي لم تعدها لتلك الألوان أمطار ربيع ولا شموس قيظ لأنه لما خيّل أنها أزاهير، وكان من شأن الأزاهير المختلفة أنها لا تتكوّن إلاّ في زمن الربيع بأمطاره وحرارة الشمس المعدة لتنويره أراد أن يبيّن عظمة صانعها بأنها مع كونها أزاهير خلقها بغير مطر ولا شمس .

ثم أخبر عن حالة له أُخرى هي محل الاعتبار في حكمة الصانع وقدرته ، وهو أنه يتحسّر ويعرى من ذلك الريش الحسن شيئاً بعد شيء ، ثم ينبت جميعاً كل ريشة موضع ريشة بلونها الأول من غير زيادة أو نقصان حتى كأنها هي ، وشبّهه في سقوطه ونباته بتحات أوراق الشجر من الأغصان ونباتها . ثم نبّه على وجود حكمة الصانع في الشعرة الواحدة من شعرات ريشه بأنك إذا تأمّلتها أرتك من شفافيتها وشدة بصيصها تارة حمرة كحمرة

الورد ، وتارة خضرة كخضرة الزبرجد . وتارة صفرة كصفرة الذهب . ثم عقب ذلك الوصف البليغ باستبعاد وصول الفطن العميقة إلى صفة هذا ، وأراد العجز عن وصف علل هذه الألوان واختلافها واختصاص كل من مواضعها بلون غير الآخر ، وعلل هيئاتها وسائر ما عدّده . فإن أقل جزء منه مما يتحيّر الأوهام في درك علّته وتقصر الألسن عن وصفه ، ويحتمل أن يريد العجز عن استثبات جزئيات أوصافه الظاهرة وتشريحه . فإن ما ذكره عليه السلام وإن كان في غاية البلاغة إلّا أن فيه وراء ذلك جزئيات لم يستثبتها الوصف . وهو الأقرب ، ويؤيده تنزيهه لله تعالى باعتبار قهره للعقول عن وصف هذا المخلوق الذي جلّاه وأظهره للعيون فأدركته محدوداً ملوّناً ومؤلفاً مكوّناً وأعجز الألسن عن تلخيص وصفه وتأدية نعته .

ثم نزّهه باعتبار أمر آخر وهو إحكامه قوائم الذرّة والهمجة وسائر ما فوقها كالحيتان وكبار حيوان البر كالفيلة . ثم باعتبار حكمه وتقديره على كل حي منها ضرورة الموت ، وفيه تنبيه على ذكر هادم اللذات .

واعلمأنه قد ذكرت للطاووس أحوال أُخرى تخصه أكثرها قالوا : إنه غاية ما يعيش خمساً وعشرين سنة ، وتبيض في السنة الثالثة من عمرها ، وتبيض في السنة مرة واحدة اثنتي عشرة بيضة في ثلاثة أيام ، ويحضنها ثلاثين يوماً فتفرخ ، وتحتّ ريشه عند سقوط ورق الشجر وينبت مع ابتداء نبات ورقه .

منها في صفة الجنة :

فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا لَعَزَفَتْ نَفْسُكَ مِنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا وَزَخَارِفِ مَنَاظِرِهَا ، وَلَذَهِلَتْ بِالْفِكْرِ فِي اصْطِفَاقِ أَشْجَارٍ غُيِّبَتْ عُرُوقُهَا فِي كُثْبَانِ الْمِسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا ؛ وَفِي تَعْلِيقِ كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِي عَسَالِيجِهَا وَأَفْنَانِهَا ، وَطُلُوعِ تِلْكَ الثِّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِي غُلُفِ أَكْمَامِهَا ، تُجْنَى مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ ، فَتَأْتِي عَلَى مُنْيَةِ مُجْتَنِيهَا ، وَيُطَافُ عَلَى نُزَّالِهَا فِي أَفْنِيَةِ قُصُورِهَا بِالأَعْسَالِ الْمُصَفَّقَةِ ، وَالْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ ، قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الْكَرَامَةُ تَتَمَادَى بِهِمْ حَتَّى حَلُّوا دَارَ الْقَرَارِ ، وَأَمِنُوا نُقْلَةَ

الأَسْفَارِ . فَلَوْ شَغَلْتَ قَلْبَكَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ بِالْوُصُولِ إلى مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاظِرِ الْمُونِقَةِ ، لَزَهِقَتْ نَفْسُكَ شَوْقاً إِلَيْهَا ، وَلَتَحَمَّلْتَ مِنْ مَجْلِسي هٰذَا إلى مُجَاوَرَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ آسْتِعْجَالاً بِهَا ، جَعَلَنَا الله وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ سَعَى بِقَلْبِهِ إلى مَنَازِلِ الأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ .

أقول : عزفت : زهدت وانصرفت . والكبائس : جمع كباسة وهي العذق . والعساليج : الغصون واحدها عسلوج ، وكذلك الأفنان جمع فنن . والأكمام جمع كمامة بكسر الكاف : وهي غلاف الطلع . والعسل المصفّق : المصفى .

وقوله : فلو رميت ببصر قلبك .

استعارة لطيفة : أي لو نظرت بعين بصيرتك وفكرت في معنى ما وصف لك من متاع الجنة لم تجد لشيء من بدائع ما أُخرج إلى الدنيا من متاعها إلى شيء من متاع الجنة إلّا نسبة وهمية ، إذا لاحظتها نفسك عزفت وأعرضت عن متاع الدنيا وما يعدّ فيها لذة ، وغابت بفكرها في اصطفاق الأشجار الموصوفة فيها وَتمايل أغصانها . ثم وصف أشجارها وأنهارها وسائر ما عدّده من متاع الجنة وصفاً لا مزيد عليه .

فهذه هي الجنة المحسوسة الموعودة ، وأنت بعد معرفتك بقواعد التأويل وحقائق ألفاظ العرب ومجازاتها واستعاراتها، وتشبيهاتها، وتمثيلاتها وسائر ما عددناه لك في صدر الكتاب من قواعد علم البيان . وكان لك مع ذلك ذوق طرف من العلم الإلهي أمكنك أن تجعل هذه الجنة المحسوسة سلّماً ومثالاً لتعقل الجنة المعقولة ومتاعها كتأويلك مثلاً أشجار الجنة استعارة للملائكة السماوية والاصطفاق ترشيح تلك الاستعارة ، وكثبان المسك استعارة للمعارف والكمالات التي لهم من واهب الجود وهم مغمورون فيها وقد وجدوا لها ، ومنها كما تنبت الأشجار في الكثبان ، ولفظ الأنهار استعارة للملائكة المجردين عن التعلق بالأجرام الفلكية باعتبار كون هذه الملائكة أُصولاً ، ومبادىء للملائكة السماوية كما أن الأنهار مبادىء ممدة لحياة الأشجار وأسباب لوجودها ، واللؤلؤ الرطب والثمار استعارة لما

يفيض من تلك الأرواح من العلوم والكمالات على النفوس القابلة لها من غير بخل ولا منع . فهي ثمارها تأتي على منية مجتنيها بحسب استعداده لكل منها . والقوة المتخيّلة تحكي تلك الإفاضات في هذه العبارات ، والظواهر المحسوسة المعدودة وتكسوها صورة ما هو مشتهى للمتخيّل كل بحسب شهوته . ولذلك كان في الجنة كل ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين ، ويتأهّل لحضوره فيحضر لها عند إرادتها إيّاه ، وكذلك لفظ العسل والخمر استعارة لتلك الإفاضات المشتهاة الملذّة للنفس بحسب محاكاة المتخيّلة لها في صورة هذا المشروب المحسوس المشتهى لبعض النفوس فتصوره بصورته .

وقوله : ثم قوم لم تزل الكرامة . إلى قوله : الأسفار .

استعار لفظ التمادي الذي هو من أفعال العقلاء لتأخّر الكرامة عنهم وانتظارهم لها في الدنيا إلى غاية حلولهم دار القرار، وحصول الكرامة لهم هناك وأمنهم من نقلة الأسفار . ثم عقب بتشويق المستمع إلى ما هناك .

وقوله : فلو شغلت قلبك .

أي أخذت في إعداد نفسك للوصول إلى ما يهجم عليك : أي يفاض عليك من تلك الصور البهيّة المعجبة لزهقت نفسك : أي متّ شوقاً إليها ، ورحلت إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً لقربهم إلى ما يشتاق إليه . ثم ختم الخطبة بالدعاء لنفسه وللسامعين أن يعدّهم الله تعالى لسلوك سبيله وقطع منازل طريقه الموصلة إلى منازل الأبرار وهي درجات الجنة ومقاماتها . وبالله التوفيق .

١٦٥ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

لِيَتَأَسَّ صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ ، وَلْيَرْأَفْ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ ، وَلَا تَكُونُوا كَجُفَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ : لَا فِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ ، وَلَا عَنِ اللهِ يَعْقِلُونَ ؛ كَقَيْضِ بَيْضٍ فِي أَدَاحٍ ؛ يَكُونُ كَسْرُهَا وِزْراً ؛ وَيُخْرِجُ حِضَانُهَا شَرّاً !!

أقول : قيض البيض : كسره . تقول : قضت البيضة : كسرتها ، وانقاضت : تصدّعت من غير كسر ، وتقيضت : تكسّرت فلقاً . والأداح :

جمع أُدحى أُفعول من الدحو وهو الموضع الذي تفرخ فيه النعامة .

وقد أمر عليه السلام صغيرهم بالتأسي بكبيرهم لأن الكبير أكثر تجربةً وعلماً وأكيس وأحزم فكان بالقدوة أولى ، وأمر كبيرهم أن يرؤف بصغيرهم لأن الصغير بمظنة الضعف، وأهل لأن يرحم ويعذر لقلة عقليته للأمور ، وإنّما بدأ بأمر الصغير لأنه أحوج إلى التأديب . والغاية من هذا الأمر انتظام أمورهم وحصول ألفتهم بما أمرهم به . ثم نهاهم أن يشبهوا جفاة الجاهلية في عدم تفقههم في الدين وعدم عقليّتهم لأوامر الله فيشبهون إذن ببيض الأفاعي في أعشاشها ، ووجه الشبه أنها إن كسرها كاسر أثم لتأذّي الحيوان به ، وقيل : لأنه يظنّ القطا فيأثم كاسره، وإن لم يكسر يخرج حضانها شراً إذ تخرج أفعى قاتلًا فكذلك هؤلاء إذا أشبهوا جفاة الجاهلية لا يحلّ لأحد أذاهم وإهانتهم لحرمة ظاهر الإسلام عليهم وإن أهملوا وتركوا على ما هم عليه من الجهل وقلة الأدب خرجوا شياطين . وبالله التوفيق .

ومنه : ٱفْتَرَقُوا بَعْدَ أُلْفَتِهِمْ ، وَتَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِمْ : فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُصْنٍ أَيْنَمَا مَالَ مَالَ مَعَهُ ؛ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى سَيَجْمَعُهُمْ لِشَرِّ يَوْمٍ لِبَنِي أُمَيَّةَ كَمَا تَجْتَمِعُ قَزَعُ الْخَرِيفِ ، يُؤَلِّفُ اللهُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ رُكَاماً كَرُكَامِ السَّحَابِ ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ لَهُمْ أَبْوَاباً يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَثَارِهِمْ كَسَيْلِ الْجَنَّتَيْنِ حَيْثُ لَمْ تَسْلَمْ عَلَيْهِ قَارَّةٌ ، وَلَمْ تَثْبُتْ عَلَيْهِ أَكَمَةٌ ، وَلَمْ يَرُدَّ سَنَنَهُ رَصُّ طَوْدٍ ، وَلَا حِدَابُ أَرْضٍ ، يُذَعْذِعُهُمُ اللهُ فِي بُطُونِ أَوْدِيَتِهِ ، ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ قَوْمٍ حُقُوقَ قَوْمٍ ، وَيُمَكِّنُ لِقَوْمٍ فِي دِيَارِ قَوْمٍ ؛ وَآيْمُ اللهِ لَيَذُوبَنَّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ الْعُلُوِّ وَالتَّمْكِينِ ، كَمَا تَذُوبُ الْأَلْيَةُ عَلَى النَّارِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، لَوْ لَمْ تَتَخَاذَلُوا عَنْ نَصْرِ الْحَقِّ ، وَلَمْ تَهِنُوا عَنْ تَوْهِينِ الْبَاطِلِ ، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ ، وَلَمْ يَقْوَ مَنْ قَوِيَ عَلَيْكُمْ ، لٰكِنَّكُمْ تُهْتُمْ مَتَاهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ !! وَلَعَمْرِي لَيُضَعَّفَنَّ لَكُمُ التِّيهُ مِنْ بَعْدِي أَضْعَافاً بِمَا خَلَّفْتُمُ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ، وَقَطَعْتُمُ الْأَدْنَى ، وَوَصَلْتُمُ الْأَبْعَدَ !! وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنِ ٱتَّبَعْتُمُ الدَّاعِيَ لَكُمْ سَلَكَ بِكُمْ مِنْهَاجَ الرَّسُولِ ، وَكُفِيتُمْ مَؤُونَةَ الاعْتِسَافِ وَنَبَذْتُمُ الثِّقْلَ الْفَادِحَ عَنِ الْأَعْنَاقِ .

أقول : القزع : قطع السحاب المتفرقة . ومستثارهم : موضع ثورانهم . والقارة : المستقر الثابت من الأرض . والأكمة : التلّ . والحداب : جمع حدب وهو ما ارتفع من الأرض . والذعذعة بالذال المعجمة مرتين : التفريق . وتهنوا . تضعفوا . وتوهين الباطل : إضعافه . والفادح : المثقل .

والإشارة في هذا الفصل إلى أصحابه ، وأصلهم الذي تشتتوا عنه هو عليه السلام ، وافتراقهم بعد أُلفتهم هو افتراقهم إلى خوارج وغيرهم بعد اجتماعهم عليه .

وقوله : فمنهم آخذ بغصن .

أي يكون منهم من يتمسك بمن أخلفه بعدي من ذرّية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أينما سلك سلك معه كالشيعة ، وتقدير الكلام : ومنهم من ليس كذلك . إلاّ أنه استغنى بالقسم الأول لدلالته على الثاني .

وقوله : على أن الله تعالى سيجمعهم .

أي من كان على عقيدته فينا ومن لم يكن لشر يوم لبني أُميّة ، وشبّه جمعه لهم وتأليفه بينهم بجمعه لقزع السحاب في الخريف لتراكمهم بذلك الجمع كتراكم ذلك القزع ، ووجه الشبه الاجتماع بعد التفرق . والأبواب التي يفتحها لهم إشارة إما إلى وجوه الآراء التي تكون أسباب الغلبة والانبعاث على الاجتماع أو أعمّ منها كسائر الأسباب للغلبة من إعانة بعضهم لبعض بالأنفس والأموال وغير ذلك ، واستعار لخروجهم لفظ السيل ، وشبّهه بسيل جنّتي مأرب وهما جنتا سبأ المحكي عنهما في القرآن الكريم : ﴿ **فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدّلناهم بجنّتيهم جنتين** ﴾[1] الآية ، ووجه الشبه الشدة في الخروج وإفساد ما يأتون إليه كقوة ذلك السيل حيث لم يسلم عليه مرتفع من الأرض ، ولم يردّ طريقه وجريه جبل مرصوص : أي شديد الالتصاق .

ثم قال : يذعذعهم الله في بطون أوديته ثم يسلكهم ينابيع في

---

(١) ٣٤ ـ ١٥ .

الأرض ، وهـو من ألفاظ القـرآن ، والمراد كمـا أن الله ينزل من السمـاء مـاء فيكنّه في أعماق الأرض ثم يظهر منها ينابيع إلى ظاهـرها كـذلك هؤلاء القـوم يفـرّقهم الله في بطون الأودية وغوامض الأرض. ثم يـظهـرهم بعـد الاختفـاء فيأخذ بهم من قوم حقوق آخرين ، ويمكن قومـاً من ملك قوم وديـارهـم . ثم أقسم ليذوبنّ ما في أيدي بني اميّة بعد علوّهم وتمكنهم كما تذوب الألية على النار ، ووجه الشبه الفناء والاضمحلال . ومصداق هذه الأخبار ما كان من أمر الشيعة الهاشمية واجتماعها على إزالة ملك بني أمية من كان منهم ثـابتاً على ولاء عليّ وأهل بيته، ومن حـاد منهم عن ذلك في أواخـر أيام مـروان الحمار عند ظهور الدعوة الهاشمية .

ثم عاد إلى توبيخ السامعين بالإشارة إلى سبب الطمع فيهم ممن دونهم في القـوة والمنزلـة وقوتـه عليهم ، والإشارة إلى معـاوية وأصحـابـه ، وذلـك السبب هو تخاذلهم عن نصرة الحق وتضاعفهم عن إضعاف الباطل ، وهو في معرض التوبيخ واللائمة لهم .

ثم شبّه تيههم بمتاه بني إسرائيل ، ووجه الشبه لحوق الضعف والمذلّـة والمسكنـة لهم حيث لـم يجتمعوا على العمـل بـأوامـر الله فـرمـاهم بـالتيـه ، وضرب عليهم الذلة والمسكنة . ثم أخبرهم بعاقبة أمرهم في التخـاذل ، وهو إضعاف التيه والتفرق بعده لالتفـاتهم عن الحق ومقاطعـة بعضهم له مـع دنوّه وقربه من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ووصلهم لمعاوية وغيـره مع بعـده عنه . ثم أخـذ في إرشادهم وجذبهم إلى اتباعه .

فقـال : إن اتبّعتـم الـداعي ـ وعنى نـفســه ـ سـلك بكـم منـهـاج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وطريقه ، وكفيتم مؤونة الاعتساف في طـرق الضلال ، وألقيتم ثقل الأوزار في الآخرة عن أعناق نفوسكم . وظاهر كـونهم فادحـة . ويحتمل أن يريد بالثقل الفادح الأيام مـع ما يلحقهم في الـدنيا من الخـطوب الفادحـة بسبب عصيان الأنام والخروج عن أمره . وبالله التوفيق .

١٦٦ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

في أول خلافته :

إنَّ الله تَعَالَى أَنْزَلَ كِتَاباً هَادِياً بَيَّنَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، فَخُذُوا نَهْجَ الْخَيْرِ تَهْتَدُوا ، وَاصْدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا ؛ الْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ ! أَدُّوهَا إلى الله تُؤَدِّكُمْ إلى الْجَنَّةِ . إنَّ الله حَرَّمَ حَرَاماً غَيْرَ مَجْهُولٍ ، وَأَحَلَّ حَلالاً غَيْرَ مَدْخُولٍ ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحُرَمِ كُلِّهَا ؛ وَشَدَّ بِالإخْلاَصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا ، فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ إلاَّ بِالْحقِّ . وَلاَ يَحِلُّ أَذَى الْمُسْلِمِ إلاَّ بِمَا يَجِبُ ، بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ ، فَإنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ ، وَإنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ . تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا !! فَإنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ . اتَّقُوا الله فِي عِبَادِهِ وَبِلاَدِهِ فَإنَّكُمْ مَسْؤولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ وَالْبَهَائِمِ ، وَأَطِيعُوا الله وَلاَ تَعْصُوهُ ، وَإذَا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ ، وَإذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ .

أقول : اصدفوا : أعرضوا . وتقصدوا : تعدلوا . ومعاقدها : مواضعها .

وصدر الفصل بالتنبيه على فضيلة الكتاب ، وهي كونه هادياً إلى طريق الخير والشر . ثم أمر بأخذ طريق الخير لكونه طريق الهدى إلى المطالب الحقيقية الباقية ، وبالإعراض عن طريق الشر وسمته لاستلزام الإعراض عنه لزوم طريق الحق والاستقامة فيه . ثم أمر بأداء الفرائض لأنها أقوى طرق الخير ، ولذلك قال : تؤدّكم إلى الجنة لأن الجنة منتهى الخير كله . ثم بيّن أن الله حرّم حراماً غير مجهول بل هو في غاية الوضوح ، وكذلك أحلّ حلالاً غير مدخول : أي لا عيب فيه ولا شبهة فلا عذر لمن تركه ، وفضّل حرمة المسلم على الحرم كلها ، وهذا لفظ الخبر النبوي : حرمة المسلم فوق كل حرمة دمه وعرضه وماله . وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها : أي ربطها بهما وأوجب على المخلصين المعترفين بوحدانيّته المحافظة على حقوق المسلمين ومراعاة مواضعها ، وقرن توحيده بذلك حتى

صار فضله كفضل التوحيد . ثم عرف المسلم ببعض صفات المسلم الحق ، وهو من سلم المسلمون من يده ولسانه إلاّ أن تكون يد حقّ أو لسان حق . وهو لفظ الخبر النبوي أيضاً .

وقوله : لا يحلّ أذى المسلم إلاّ بما يجب .

كقوله : إلاّ بالحق . أورده تأكيداً له ثم عقّب بتنبيههم على أمر العامة وخاصة أحدهم وهو الموت : أي ذلك الأمر هو الموت ؛ وإنما كان مع عمومه لكل الحيوان خاصة أحدهم لأن له مع كل شخص خصوصية وكيفية مخالفة لحاله مع غيره ، وأمر بمبادرته . أي بمبادرة العمل له ولما بعده قبل سبقه إليهم ، ونبّههم على أن الناس أمامهم : أي قد سبقوهم إلى الآخرة والساعة تحدوهم من خلفهم ، وأمر بالتخفيف للّحاق بهم ، وحثّهم على ذلك بقوله : فإنما ينتظر بأوّلكم آخركم : أي السابقين إلى الآخرة اللاحقين منكم ليبعث الكل جميعاً ، وقد سبقت هذه الألفاظ بعينها وشرحها مستوفى .

ثم أمر بتقوى الله في عباده وذلك بلزوم خوفه في مراعاة ما ينبغي لكل أحد مع غيره ، وفي بلاده بترك الفساد في الأرض ، ونبّه على وجوب ذلك باستعقاب كل عمل، وإن قلّ للسؤال عنه ، ومناقشة الحساب عليه حتى عن البقاع . فيقال : لم استوطنتم هذا المكان وزهدتم في ذلك ؟ وعن البهائم . فيقال : لم ضربتم هذه وقتلتم هذه ولم أوجعتموها ؟ وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **ولتسئلنّ يومئذ عما كنتم تعملون** ﴾(١) وقوله : ﴿ **ثم لتسئلنّ يومئذ عن النعيم** ﴾(٢) قيل : هو شبع البطن وبارد الشراب ولذّة النوم وظلال المساكن واعتدال الخلق ، وقوله تعالى : ﴿ **إنّ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً** ﴾(٣). فيقال : لم أشغلت قلبك وسمعك ؟، وفي الخبر الصحيح النبوي إنّ الله عذّب إنساناً بهرة حبسها في بيت وأجاعها حتى هلكت. ثم أجمل القول بعد تفصيله وأمر بطاعة الله ونهى عن معصيته وأرشد إلى الأخذ بالخير عند رؤيته، والإعراض عن الشر عند رؤيته .

---

(١) ١٦ ـ ٩٥.
(٢) ١٠٢ ـ ٨.
(٣) ١٧ ـ ٣٨.

١٦٧ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

بعدما بويع بالخلافة ، وقد قال له قوم من الصحابة : لو عاقبت قوماً ممن أجلب على عثمان ؟ فقال عليه السلام :

يَا إِخْوَتَاهُ ؛ إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ ، وَلٰكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةٍ وَالْقَوْمُ الْمُجْلِبُونَ عَلَى حَدِّ شَوْكَتِهِمْ يَمْلِكُونَنَا وَلَا نَمْلِكُهُمْ ؟ وَهَا هُمْ هٰؤُلَاءِ قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عُبْدَانُكُمْ ، وَالْتَفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ ، وَهُمْ خِلَالَكُمْ ، يَسُومُونَكُمْ مَا شَاءُوا ، وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعاً لِقُدْرَةٍ عَلَى شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ ؟ وَإِنَّ هٰذَا الْأَمْرَ أَمْرُ جَاهِلِيَّةٍ ، وَإِنَّ لِهٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَادَّةً ، إِنَّ النَّاسَ مِنْ هٰذَا الْأَمْرِ ـ إِذَا حُرِّكَ ـ عَلَى أُمُورٍ : فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرَوْنَ ، وَفِرْقَةٌ تَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ، وَفِرْقَةٌ لَا تَرَى هٰذَا وَلَا ذَاكَ . فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدَأَ النَّاسُ ، وَتَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا ، وَتُؤْخَذَ الْحُقُوقُ مُسْمَحَةً ، فَاهْدَأُوا عَنِّي ، وَانْظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي ، وَلَا تَفْعَلُوا فَعْلَةً تُضَعْضِعُ قُوَّةً وَتُسْقِطُ مُنَّةً وَتُورِثُ وَهْناً وَذِلَّةً ، وَسَأُمْسِكُ الْأَمْرَ مَا اسْتَمْسَكَ ، وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدّاً فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيُّ .

أقول : أجلب عليه : جمع . وشوكتهم : قوّتهم . والعبدان بتشديد الدال وتخفيفها وكسر العين وضمها : جمع عبد . والتفّت : انضمت . ويسومونكم : يكلّفونكم . ومسمحة : مسهلة ، والألف في إخوتاه هي المنقلبة عن ياء النفس المضاف إليه ، والهاء للسكت .

واعلم أن هذا الكلام اعتذار منه عليه السلام في تأخير القصاص عن قتلة عثمان .

وقوله : إنّي لست أجهل ما تعلمون .

دليل على أنه كان ذلك في نفسه ، وحاصل هذا العذر عدم التمكن كما ينبغي ، ولذلك قال : وكيف لي بقوة والقوم على حدّ شوكتهم . وصدقه عليه السلام ظاهر فإنّ أكثر أهل المدينة كانوا من المجلبين عليه ، وكان من أهل مصر ومن الكوفة خلق عظيم حضروا من بلادهم وقطعوا المسافة البعيدة. لذلك وانضمّ إليها أعراب أجلاف من البادية وعبدان المدينة . فكانوا

في غـاية من شـدة الشـوكـة حال اجتمـاعهم ، وثاروا ثـورة واحدة ، ولـذلك قال : والقوم مجلبون . إلى قوله : يسومونكم ما شاؤوا .

وروي أنه عليه السلام جمع الناس ووعظهم . ثم قال : لتقم قتلة عثمان فقام النـاس بأسـرهـم إلاّ القليـل ، وكـان ذلـك الفعـل منـه استشهـاداً على صـدق قوله عليه السلام : والقوم على حد شوكتهم .

ومع تحقّق هذه الحال لا يبقى له مـوضع قـدرة على شيء من أمرهـم . ثم قـال على سبيل قـطع لجـاج الـطالبين مخـاطبـاً لهم : إنَّ هـذا الأمـر أمـر الجاهلية . يريد أمر المجلبين عليه إذ لم يكن قتلهم إيّاه بمقتضى الشريعـة . إذ الصادر عنه من الأحداث لا يجب فيها قتـل . وإن لهؤلاء القوم مـادة : أي معينين وناصرين . ثم قسم حال الناس على تقدير الشـروع في أمر القصـاص إلى ثلاثة أقسام ، وهو احتجـاج منه على الـطالبين، وتضعيف لرأيهم بقيـاس ضمير من الشكل الأول مركب من شرطيتين متصلتين صغراهما قوله : إن هذا الأمر إذا حرّك كان الناس فيه على أمور ، وتقدير الكبـرى وإذا كان النـاس فيه على أمـور لم يتمكن من إتمامـه وفعله . فينتج أن هـذا الأمر إذا حـرّك لا يتم فعله .

ثم عدّ تلك الأُمور ، وهي أن فرقة ترى كونه مصيباً كما رأى الطالبون ، وفـرقة تـرى أنه مخـطىء وهم أنصار المقتص منهم ، وفـرقة لا تـرى هذا ولا ذاك . بل تتوقف كما جرى ذلك في أمر التحكيم . ثم أمرهم بالصبر إلى غاية هدوء الناس . إذ بيّن لهم أنه لا مصلحة في تحريك الأمر حينئذٍ فـإنّ الحقوق عند هدوء الناس واستقرار القلوب أسهل مأخذاً .

وقوله : فاهدأوا عنّي وانظروا ماذا يأتيكم به من أمري .

يـدل على ترصـده وانـتظاره للفـرصـة من هـذا الأمـر . ثم خـوّفهم من الاستعجال بفعل يضعف شوكة الـدين ويورث وهنـه فإنـه لو شـرع في عقوبـة الناس والقبض عليهم لم يؤمن من تجدّد فتنـة أُخرى أعـظم من الأولى ، وهو غـالب الظن . فكـان الأصـوب في التـدبيـر والـذي يقتضيـه العقـل والشـرع

الإمساك إلى حين سكون الفتنة وتعرق أولئك الشعوب ورجوع كل قوم إلى بلادهم ، وربما كان عليه السلام ينتظر مع ذلك أن يحضر بنو عثمان للطلب بدمه ، ويعيّنون قوماً بأعيانهم بعضهم للقتل وبعضهم للحصار كما جرت عادة المتظلّمين إلى الإمام ليتمكن من العمل بحكم الله . فلم يقع الأمر كذلك ، وعصى معاوية وأهل الشام والتجأ إليه ورثة عثمان ، وفارقوا حوزة أمير المؤمنين عليه السلام ولم يطلبوا القصاص طلباً شرعياً ، وإنما طالبوه مغالبة ، وجعلها معاوية عصبية جاهلية ، ولم يأت أحد منهم الأمر من بابه ، وقيل : ذلك ما كان من أمر طلحة والزبير ونقضهما للبيعة ونهبهما أموال المسلمين بالبصرة وقتلهما للصالحين من أهلها ، وكل تلك الأمور التي جرت مانعة للإمام عن التصدي للقصاص ، ولذلك قال عليه السلام لمعاوية في بعض كلامه : فأما طلبك بدم عثمان فادخل في الطاعة وحاكم القوم إليّ أحملك وإيّاهم على كتاب الله وسنّة رسوله .

فأما قوله : وسأمسك الأمر ما استمسك . إلى آخره .

فاعلم أن هذا الكلام إنّما صدر عنه عليه السلام بعد إكثار القول عليه في أمر عثمان واضطراب الأمر من قبل طلحة والزبير، ونكثهما للبيعة بسبب هذه الشبهة مع كونهما من أكابر الصحابة ، وتشتّت قلوب كثير من المسلمين عنه . فحينئذ أشار بعض الصحابة بأخذ القصاص من قتلة عثمان تسكيناً لفتنة طلحة والزبير ومعاوية لغلبة الظن حينئذ بمخالفته واضطراب أمر الشام فقال الكلام : أي قد أبديت هذا العذر فإنْ لم يقبلوا منّي فسأمسك الأمر : أي أمر الخلافة بجهدي فإذا لم أجد بداً : أي من قتال من يبغي وينكث فآخر الدواء الكيّ : أي الحرب والقتال لأنها الغاية التي ينتهي أمر العصاة إليها ومداواة أمراض قلوبهم كما تنتهي مداواة المريض إلى أن يكوى . وبالله التوفيق .

١٦٨ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة :

إنَّ الله بَعَثَ رَسُولاً هَادِياً بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ ؛ لَا يَهْلِكُ عَنْهُ إلاَّ هَالِكٌ ، وَإنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ الْمُشَبَّهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ ، إلاَّ مَا حَفِظَ الله مِنْهَا ،

وَإنَّ فِي سُلْطَانِ الله عِصْمَةً لأَمْرِكُمْ فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ وَلَا مُسْتَكْرَهٍ بِهَا . وَالله لَتَفْعَلُنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ الله عَنْكُمْ سُلْطَانَ الإسْلَامِ ، ثُمَّ لَا يَنْقُلُهُ إلَيْكُمْ أَبَداً حَتَّى يَأْرِزَ الأَمْرُ إلى غَيْرِكُمْ .

إنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ تَمَالأُوا عَلَى سَخْطَةِ إمَارَتِي ، وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخَفْ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ ؛ فَإنَّهُمْ إنْ تَمَّمُوا عَلَى فَيَالَةِ هَذَا الرَّأْيِ ، انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ ، وَإنَّمَا طَلَبُوا هِذِهِ الدُّنْيَا حَسَداً لِمَنْ أَفَاءَهَا الله عَلَيْهِ ، فَأَرَادُوا رَدَّ الأُمُورِ عَلَى أَدْبَارِهَا ، وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ الله تَعَالَى وَسِيرَةِ رَسُولِ الله ، صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَالْقِيَامِ بِحَقِّهِ ، وَالنَّعْشِ لِسُنَّتِهِ .

أقول : يأرز : ينحاز وينقبض . وتمالأوا : اجتمعوا . والفيالة : الضعف . والنعش : الرفع .

وقوله : إن الله بعث . إلى قوله : هالك .

تصدير للفصل بالأمور الجامعة للمسلمين التي هي أصول دولتهم وتذكير لهم بها ليرجعوا إليها . وأمر قائم : مستقيم .

وقوله : لا يهلك عنه إلّا هالك .

أي لا يهلك من مخالفته إلّا أعظم هالك كما تقول لا يعلم هذا الفن من العلم إلّا عالم : أي من بلغ الغاية من العلم .

وقوله : وإن المبتدعات المشبهات هنّ المهلكات إلّا ما حفظ الله .

لمخالفتها الكتاب والسنة الجامعين لحدود الله وخروجها عنهما ، وأراد الهلاك الأُخروي .

وقوله : إلّا من حفظ الله .

استثناء من المهلكات : أي إلّا ما حفظ الله منها بالعصمة عن ارتكابها . إذ لا تكون مهلكة إلّا لمن ارتكبها ، والمشبهات ما أشبه السنن وليس منها ، وروي المشبّهات بتشديد الباء وفتحها ، وهو ما شبّه على الناس وليس . وروي المشتبهات : أي الملتبسات ، وسلطان الله هو سلطان

الإسلام ؛ وأراد سلطان دين الله فحذف المضاف ، ويحتمل أن يريد بسلطان الله نفسه لكونه خليفة له في أرضه ، وإنما أضافها إليه اعتزازاً به ، وظاهر أن فيه منعة وعصمة لهم فإن الذي نصرهم وهم قليلون حيّ قيوم فبالأولى أن ينصرهم على كثرتهم بشرط طاعته الخالصة والدخول في أمر سلطانه . ولذلك قال : فأعطوه طاعتكم غير ملوّمة : أي غير ملوم صاحبها بالنسبة إلى النفاق والرياء ولا مستكره بها : ويروى غير ملويّة : أي معوجة . ثم أخذ في وعيدهم إن لم يطيعوا بنقل الله عنهم سلطان الإسلام من غير أن يردّه إليهم أبداً حتى يصير الأمر إلى غيرهم ، وأراد أمر الخلافة . ثم إن جعلنا حتى وما بعدها غاية لنقل السلطان عنهم لم يفهم منها عوده إليهم ، وإن جعلناها غاية من عدم نقله إليهم فهم منها ذلك .

فإن قلت : لم قال لا يرجع إليهم أبداً وقد عاد بالدولة العباسية ؟.

قلت : أُجيب من وجوه :

الأول : إنّ القوم الذين خاطبهم من أصحابه بهذا الخطاب لم ترجع الدولة إليهم أبداً فإن أولئك بعد انقضاء دولة بني أمية لم يبق منهم أحد . ثم لم يرجع إلى أحد من أولادهم أصلاً .

الثاني : أنه قيّد بالغاية فقال : لا يصير إليكم حتى يصير في قوم آخرين ، وظاهر أنه كذلك بانتقاله إلى بني أُميّة .

الثالث : قال بعض الشارحين : إنما عاد لأن الشرط لم يقع وهو عدم الطاعة فإن أكثرهم أطاعه طاعة غير ملومة ولا مستكره بها .

الرابع : قال قوم : أراد بقوله : أبداً المبالغة كما تقول لغريمك : لأحبسنّك أبداً ، والمراد بالقوم الذين يأرز إليهم هذا الأمر بنو أمية كما هو الواقع .

وقوله : إن هؤلاء قد تمالأوا .

إشارة إلى طلحة والزبير وعائشة وأتباعهم ، وأومى إلى أن مسيرهم لسخطهم من أمارته لا ما أظهروه من الطلب بدم عثمان . ثم وعد بالصبر عليهم ما دام لا يخاف على حوزة الجماعة ، وأخبر أنهم إن بقوا على ضعف

رأيهم في مسيرهم ومخالفتهم قطعوا نظام المسلمين وفرّقوا جماعتهم .

وقوله : إنما طلبوا . إلى قوله : عليه .

بيان لعلّة سخطهم لإمارته وهي الحسد على الدنيا لمن أفاء الله عليه ، والإشارة إلى بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

وقوله : فأرادوا ردّ الأمور على أدبارها .

أي أرادوا إخراج هذا الأمر عن أهل بيت الرسول آخراً كما أخرجوه أولاً ، أو صرف هذا الأمر عنهم بعد إقباله إلى ما كان عليه من إدباره عنهم . ثم أخبر بما عليه من الحق ، إن أطاعوه الطاعة غير المدخولة ، وهي أن يعمل فيهم بكتاب الله ويسير سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والقيام بحقوقه التي أوجبها وإقامة سننه ، وذلك هو الواجب على الإمام . وبالله التوفيق .

١٦٩ - ومن كلام له (عليه السلام)

كلّم به بعض العرب ، وقد أرسله قوم من أهل البصرة لما قرب عليه السلام منها ليعلم لهم منه حقيقة حاله مع أصحاب الجمل لتزول الشبهة من نفوسهم فبيّن له عليه السلام من أمره معهم ما علم به أنه على الحق . ثم قال له : بايع . فقال : إني رسول قوم ولا أُحدث حدثاً دونهم حتى أرجع إليهم . كذا في أكثر النسخ لكن في آخر بعضها بعد قول الرجل «فبايعته عليه السلام». والرجل يعرف بكليب الجرمي .

أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِداً تَبْتَغِي لَهُمْ مَسَاقِطَ الْغَيْثِ فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرْتَهُمْ عَنِ الْكَلاَءِ وَالْمَاءِ فَخَالَفُوا إلى الْمَعَاطِشِ وَالْمَجَادِبِ ، مَا كُنْتَ صَانِعاً ؟ قال : كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكلاء والماء . فقال عليه السلام :

فَامْدُدْ إذاً يَدَكَ ! فقال الرجل : فوالله ما استطعت أن أمتنع عند قيام الحجة علي ، فبايعته عليه السلام .

أقول : الجرمي : منسوب إلى بني جرم ، وكان قوم من أهل البصرة بعثوه إليه عليه السلام ليستعلم حاله أهو على حجة أم على شبهة ؟ فلما رآه وسمع

لفظه لم يتخالجه شك في صدقه فبايعه ، وكان بينهما الكلام المنقول . ولا ألطف من التمثيل الذي جذبه به عليه السلام فالأصل في هذا التمثيل هو حالة هذا المخاطب في وجدانه للماء والكلاء على تقدير كونه رائداً لهما ، والفرع هو حاله في وجدانه للعلم والفضائل والهداية عنده ، والحكم في الأصل هو مخالفته لأصحابه إلى الماء والكلاء على تقدير وجدانه لهما ومخالفة أصحابه له ، وعلّة ذلك الحكم في الأصل هو وجدانه للكلاء والماء ، ولما كان المشبّه لهذه العلّة وهو وجدانه للفضائل والعلوم التي هي غذاء النفوس ومادة حياتها كما أن الكلاء والماء غذاء للأبدان ومادة حياتها موجود لهذا الرائد في الفرع، وهو حالة وجدانه للعلم والفضل والهداية وجب عن تلك العلّة مثل الحكم في الأصل وهو مخالفة أصحابه إلى الفضل والعلم والهداية عنده عليه السلام ولزوم أن يبايع .

ولذلك قال له : فامدد إذن يدك . وهو تمثيل لا تكاد النفس السليمة عند سماعه أن تقف دون الانفعال عنه والإذعان له ، ولذلك أقسم الرجل أنه لم يستطع الامتناع عند قيام هذه الحجة فبايع . وبالله التوفيق .

١٧٠ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

لما عزم على لقاء القوم بصفين :

اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ، وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ ، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَمَجْرىً لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَمُخْتَلَفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ ، وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سِبْطاً مِنْ مَلَائِكَتِكَ ، لَا يَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ ؛ وَرَبَّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَاراً لِلْأَنَامِ ، وَمَدْرَجاً لِلْهَوَامِّ وَالْأَنْعَامِ ، وَمَا لَا يُحْصَى مِمَّا يُرَى وَمِمَّا لَا يُرَى ؛ وَرَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَاداً وَلِلْخَلْقِ اعْتِمَاداً ـ إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا فَجَنِّبْنَا الْبَغْيَ ، وَسَدِّدْنَا لِلْحَقِّ ؛ وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ وَاعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ .

أَيْنَ الْمَانِعُ لِلذِّمَارِ ، وَالْغَائِرُ عِنْدَ نُزُولِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَهْلِ الْحِفَاظِ ؟! الْعَارُ وَرَاءَكُمْ ، وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ .

أقول : مغيضاً لهما : أي مغيباً . والسبط : القبيلة .

وقد دعا الله سبحانه باعتبار كونه رباً للسماء والأرض وباعتبار ما فيهما من الآيات المنبّهة على كمال عظمته ولطفه بخلقه ، وهذا الدعاء مما تستعدّ به القلوب والأبدان لاستفاضة الغلبة والنصر على العدو . والسقف المرفوع : السماء . وكذلك الجو المكفوف ، وقد مرت الإشارة إلى ذلك في الخطبة الأولى ، وكونه مغيضاً لليل والنهار لأن الفلك بحركته المستلزمة لحركة الشمس إلى وجه الأرض يكون سبباً لغيبوبة الليل ، واستلزام حركته لحركاتها عن وجه الأرض يكون سبباً لغيبوبة النهار فكان كالمغيض لهما فاستعار له لفظ المغيض . وكونه محلاً لجري الشمس والقمر ومحلّ اختلاف النجوم السيارة ظاهر . وليس فيه دلالة على أن النجوم تتحرك فيه بذاتها من دون حركته .

والطائفة من الملائكة إشارة إلى الأرواح الفلكية المحركة لأجرامها ، وقد سبقت الإشارة إليهم وبيان أنهم لا يسأمون من العبادة في الخطبة الأولى . ثم دعاه باعتبار كونه رباً للأرض ، وباعتبار ما بسطها لأجله من كونها قراراً للأنام ومدرجاً للهوام والأنعام وما لا يحصى مما يرى ولا يرى من أنواع الحيوان .

قال بعض العلماء : من أراد أن يعرف حقيقة قوله عليه السلام : ما يرى وما لا يرى فليوقد ناراً صغيرة في فلاة في ليلة صيفية وينظر ما يجتمع عليها من غرائب أنواع الحيوان العجيبة الخلق لم يشاهدها هو ولا غيره . وأقول : يحتمل أن يريد بقوله : وما لا يرى ما ليس من شأنه أن يرى إمّا لصغره أو لشفافيّته . ثم باعتبار كونه ربّاً للجبال ، وقد علمت معنى كونها أوتاداً للأرض . فأما كونها اعتماداً للخلق فلأنهم قد يبنون بها المساكن، ويقوم فيها من المنافع ما لا يقوم في الأودية لكثير من الأشجار والثمار ، ولأنها معادن الينابيع ومنابع المعادن ، وظاهر كونها إذن معتمداً للخلق في مراتعهم ومنافعهم .

ثم سأل على تقدير نصره أن يجنّبه البغي وهو العبور إلى طرف الإفراط من فضيلة العدل ثم التسديد والاستقامة على فضيلة العدل وهو الحق ، وعلى

تقدير إظهار عدوّه عليه الشهادة والعصمة من فتنة الغبن والانقهار فإن المغلوب إذا كان معتقداً أنه على الحق قلّما يسلم من التسخط على البخت، والتعتّب على ربه ، وربما كفر كثير من الناس عند نزول البلاء بهم . وظاهر كونه فتنة : أي صارفاً عن الله. واعتصم عليه السلام من تلك الفتنة وأمثالها استثباتاً لنفسه على الحق، وتأديباً للسامعين . ثم أخذ فيما العادة أن يستحمي به الإنسان أصحابه في الحرب ، ويستثير به طباعهم : من الاستفهام عن حامي الذمار ، والذي تصيبه الغيرة من أهل المحافظة عند نزول الحقائق : أي عظائم الأُمور وشدائدها .

ثم قال : النار وراءكم : أي إن رجوعكم القهقرى هرباً من العدو مستلزم لدخولكم النار واستحقاقكم لها ، والجنة أمامكم : أي في إقدامكم على العدو والتقدم إلى مناجزته ، وهو كلام في غاية الوجازة والبلاغة .

١٧١ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لاَ تُوَارِي عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً ، وَلاَ أَرْضٌ أَرْضاً .

أقول : حمد الله تعالى باعتبار إحاطة علمه بالسماوات والأرضين ، واستلزم ذلك تنزيهه تعالى عن وصف المخلوقين . إذ كانوا في إدراكهم لبعض الأجرام السماوية والأرضية محجوبين عما ورائها ، وعلمه تعالى هو المحيط بالكل الذي لا يحجبه السواتر ولا تخفى عليه السرائر .

منها : وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ : إِنَّكَ عَلَى هٰذَا الأَمْرِ يَا ٱبْنَ أَبِي طَالِبٍ لَحَرِيصٌ ! فَقُلْتُ : بَلْ أَنْتُمْ وَاللهِ لأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ ، وَأَنَا أَخَصُّ وَأَقْرَبُ ! وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقاً لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ ، فَلَمَّا قَرَعْتُهُ بِالْحُجَّةِ فِي الْمَلإِ الْحَاضِرِينَ هَبَّ كَأَنَّهُ [بُهِتَ] لاَ يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ !

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعِينُكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي ، وَصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِي ، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي ؛ ثُمَّ قَالُوا : أَلاَ إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ .

أقول : هذا الفصل من خطبة يذكر فيها عليه السلام ما جرى له يوم الشورى

بعد مقتل عمر ، والذي قال له هذا القول هو سعد ابن أبي وقّاص مع روايته فيه : أنت منّي بمنزلة هارون من موسى . وهو محل التعجب . فأجابه بقوله : بل أنتم والله أحرص وأبعد : أي أحرص على هذا الأمر وأبعد من استحقاقه . وهو في صورة احتجاج بقياس ضمير من الشكل الأول مسكت للقائل صغراه ما ذكر ، وتقدير كبراه : وكل من كان أحرص على هذا الأمر وأبعد منه فليس له أن يعيّر الأقرب إليه بالحرص عليه .

وقوله : وأنا أخصّ وأقرب .

صغرى قياس ضمير احتجّ به على أولويّته بطلب هذا الأمر ، وتقدير كبراه : وكل من كان أخصّ وأقرب إلى هذا الأمر فهو أولى بطلبه ، وروي أن هذا الكلام قاله يوم السقيفة ، وأن الذي قال له : إنّك على هذا الأمر لحريص . هو أبو عبيدة بن الجرّاح ، والرواية الأولى أظهر وأشهر . وروي عوض بهت هبّ : أي انتبه كأنه كان غافلاً ذاهلاً عن الحجة فاستيقظ من غفلته . ثم أخذ في استعانة الله تعالى على قريش ومن أعانهم عليه ، وشكا أموراً : منها قطع رحمه فإنهم لم يراعوا قربه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومنها تصغير عظيم منزلته بعدم التفاتهم إلى ما ورد من النصوص النبوية في حقه ، ومنها اتفاقهم على منازعته أمر الخلافة الذي يرى أنه أحقّ به منهم .

وقوله : ثم قالوا : إلى آخره .

أي إنهم لم يقتصروا على أخذ حقي ساكتين عن دعوى كونه حقاً لهم ولكنهم أخذوه مع دعواهم أن الحق لهم ، وأنه يجب عليّ أن أترك المنازعة فيه . فليتهم أخذوه معترفين أنه حقّ لي فكانت المصيبة أهون ، وروي نأخذه ونتركه بالنون في الكلمتين ، وعليه نسخة الرضي ـ رضوان الله عليه ـ والمراد إنّا نتصرف فيه كما نشاء بالأخذ والترك دونك ، وهذه شكاية ظاهرة لا تأويل فيها .

منها في ذكر أصحاب الجمل :

فَخَرَجُوا يَجُرُّونَ حُرْمَةَ رسول الله، صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ ، كَمَا تُجَرُّ الأَمَةُ عِنْدَ شِرَائِهَا ؛ مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إلى الْبَصْرَةِ : فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا وَأَبْرَزَا

حَبِيسَ رَسُولِ اللهِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا ، فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلاَّ وَقَدْ أَعْطَانِي الطَّاعَةَ ، وَسَمَحَ لِي بِالْبَيْعَةِ ، طَائِعاً غَيْرَ مُكْرَهٍ؛ فَقَدِمُوا عَلَى عَامِلِي بِهَا وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا : فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْراً ، وَطَائِفَةً غَدْراً ! فَوَاللهِ لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلاَّ رَجُلاً وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ ، بِلاَ جُرْمٍ جَرَّهُ ؛ لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذٰلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ : إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا ، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلاَ بِيَدٍ . دَعْ مَا أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ .

أقول : جرّه : جناه .

ومقصود الفصل إظهار عذره في قتال أصحاب الجمل . وذكر لهم ثلاث كبائر من الذنوب تستلزم إباحة قتالهم وقتلهم :

الأولى : خروجهم بحرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحبيسه يجرّونها كما تجر الأمة عند شرائها مع حبسهما لنسائهما ومحافظتهما عليهنّ ، وضمير التثنية في حبسا لطلحة والزبير ، ووجه الشبه انتهاك الحرمة ونقصانها في إخراجها ، وفي ذلك جرأة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وروى عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يوماً لنسائه وهنّ عنده جميعاً : ليت شعري أيتكنّ صاحبة الجمل الأرب تنبحها كلاب الحوأب يقتل عن يمينها وشمالها قتلى كثير كلهم في النار وتنجو بعد ما كادت ، وروى حبيب بن عمير قال : لما خرجت عائشة وطلحة والزبير من مكة إلى البصرة طرقت ماء الحوأب - وهو ماء لبني عامر بن صعصعة - فنبحتهم الكلاب فنفرت صعاب إبلهم . فقال قائل منهم : لعن الله الحوأب فما أكثر كلابها . فلما سمعت عائشة ذكر الحوأب قالت : أهذا ماء الحوأب ؟ قال : نعم قالت : ردّوني . فسألوها ما شأنها وما بدا لها . قالت : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: كأني بكلاب الحوأب قد نبحت بعض نسائي ثم قال لي : يا حميراء إيّاك أن تكونيها . فقال الزبير : مهلاً يرحمك الله فإنّا قد جزنا ماء الحوأب بفراسخ كثيرة . فقالت : أعندك من يشهد بأن هذه الكلاب النابحة ليست على ماء الحوأب ؟ فلفّق لها الزبير وطلحة وطلبا خمسين

أعرابياً جعلا لهم جعلاً فحلفوا لها وشهدوا أن هذا الماء ليس بماء الحوأب . فكانت هذه أول شهادة زور علمت في الإسلام . فسارت عائشة لوجهها . فأما قوله في الخبر : وتنجو بعدما كادت . فقالت الإمامية : معناه تنجو من القتل بعدما كادت أن تقتل ، وقال المعتذرون لها معناه تنجو من النار بالتوبة بعدما كادت أن تدخلها بما فعلت .

الثانية : نكثهم لبيعته وخروجهم عليه بعد الطاعة في جماعة ما منهم إلّا من أخذ بيعته .

الثالثة : قتلهم لعامله بالبصرة وخزّان بيت مال المسلمين بها بعض صبراً : أي بعد الأسر وبعض غدراً : أي بعد إعطائهم الأمان . وخلاصة القصة ما روي أن طلحة والزبير وعائشة لما انتهوا في مسيرهم إلى حفر أبي موسى قريب البصرة كتبوا إلى عثمان بن حنيف الأنصاري ، وهو يومئذ عامل عليّ على البصرة : أن أخل لنا دار الأمارة . فلما قرأ كتابهم بعث إلى الأحنف بن قيس وإلى حكيم بن جبلة العبدي فاقرأهما الكتاب . فقال الأحنف : إنهم إن حاولوا بهذا الطلب بدم عثمان، وهم الذين أكبّوا على عثمان وسفكوا دمه فأراهم والله لا يزايلونا حتى يلقوا العداوة بيننا ويسفكوا دماءنا ، وأظنهم سيركبون منك خاصة ما لا قبل لك به ، والرأي أن تتأهب لهم بالنهوض إليهم في من معك من أهل البصرة. فإنك اليوم الوالي عليهم وأنت فيهم مطاع فسرْ إليهم بالناس وبادرهم قبل أن يكونوا معك في دار واحدة فيكون الناس لهم أطوع منهم لك .

وقال حكيم مثل ذلك . فقال عثمان بن حنيف : الرأي ما رأيتما لكني أكره الشر وأن أبدأهم به وأرجو العافية والسلامة إلى أن يأتيني كتاب أمير المؤمنين ورأيه فأعمل به . فقال له حكيم : فأذن لي حتى أسير إليهم بالناس فإن دخلوا في طاعة أمير المؤمنين وإلّا نابذتهم إلى سواء .

فقال عثمان : ولو كان ذلك لي لسرت إليهم بنفسي .

فقال حكيم أما والله لئن دخلوا عليك هذا المصر لينتقلنّ قلوب كثير من الناس إليهم وليزيلنّك عن مجلسك هذا ، وأنت أعلم . فأبى عثمان . ثم

كتب علي عليه السلام إلى عثمان بن حنيف لما بلغه مسير القوم إلى البصرة : من عبدالله على أمير المؤمنين إلى عثمان بن حنيف أما بعد فإنّ البغاة عاهدوا الله ثم نكثوا وتوجّهوا إلى مصرك وساقهم الشيطان لطلب ما لا يرضى الله به ، والله أشد بأساً وأشدّ تنكيلاً فإذا قدموا عليك فادعهم إلى الطاعة والرجوع إلى الوفاء بالعهد والميثاق الذي فارقونا عليه فإن أجابوا فأحسن جوارهم ما داموا عندك ، وإن أبوا إلاّ التمسك بحبل النكث والخلاف فناجزهم القتال حتى يحكم الله بينك وبينهم وهو خير الحاكمين . وكتبت كتابي هذا من الربذة وأنا معجّل السير إليك إنشاء الله ، وكتب عبيدالله بن أبي رافع في صفر سنة ست وثلاثين .

فلما وصل الكتاب إلى عثمان بعث أبا الأسود الدؤلي، وعمران ابن الحصين إليهم فدخلا على عائشة فسألاها عما جاء بهم ، فقالت لهما : إلقيا طلحة والزبير . فقاما ولقيا الزبير فكلّماه فقال : جئنا لنطلب بدم عثمان وندعو الناس أن يردّوا أمر الخلافة شورى ليختار الناس لأنفسهم . فقالا له : إن عثمان لم يقتل بالبصرة لتطلبا دمه فيها ، وأنت تعلم قتلة عثمان وأين هم ، وإنك وصاحبك وعائشة كنتم أشد الناس عليه وأعظمهم إغراء بدمه فأقيدوا أنفسكم . وأما إعادة أمر الخلافة شورى فكيف وقد بايعتم علياً طائعين غير مكرهين ، وأنت يا أبا عبدالله لم يبعد العهد بقيامك دون هذا الرجل يوم مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنت آخذ قائم سيفك تقول : ما أحد أحق بالخلافة منه . وامتنعت من بيعة أبي بكر . فأين ذلك الفعل من هذا القول ؟ فقال لهما : اذهبا إلى طلحة . فقاما إلى طلحة فوجداه خشن الملمس شديد العريكة قوي العزم في إثارة الفتنة . فانصرفا إلى عثمان بن حنيف فأخبراه بما جرى ، وقال له أبو الأسود : يا ابن حنيف قد أتيت فانفر وطاعن القوم وجالد واصبر وابرز لهما مستلئماً وشمّر .

فقال ابن حنيف : إي والحرمين لأفعلنّ ، وأمر مناديه فنادى في الناس : السلاح السلاح . فاجتمعوا إليه وأقبلوا حتى انتهوا إلى المربد . فملىءمشاةً وركباناً فقام طلحة فأشار إلى الناس بالسكوت ليخطب فسكتوا بعد

جهد فقال :

أما بعد فإن عثمان بن عفان كان من أهل السابقة والفضيلة ومن المهاجرين الأولين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ونزل القرآن ناطقاً بفضلهم وأحد الأئمة الوالين عليكم بعد أبي بكر وعمر صاحبي رسول الله ، وقد كان أحدث أحداثاً نقمناها عليه فأتيناه واستعتبناه فأعتبنا فعدا عليه امرؤ ابتزّ هذه الأمة أمرها غصباً بغير رضى ولا مشورة فقتله وساعده على ذلك قوم غير أتقياء ولا أبرار فقتل محرماً بريئاً تائباً ، وقد جئناكم أيها الناس نطلب بدمه وندعوكم إلى الطلب بدمه فإن نحن أمكننا الله قتلهم قتلناهم به، وجعلنا هذا الأمر شورى بين المسلمين. وكانت خلافته رحمةً للأمّة جميعاً فإن كل من أخذ الأمر من غير رضى العامة ولا مشورة منها ابتزازاً كان ملكه ملكاً عضوضاً وحدثاً كبيراً .

ثم قام الزبير فتكلم بمثل كلام طلحة . فقام إليهما ناس من أهل البصرة فقالوا لهما : ألم تبايعا علياً فيمن بايعه ففيم بايعتما ثم نكثتما ؟ فقالا : ما بايعناه وما لأحد في أعناقنا بيعة، وإنّما استكرهنا على بيعته . فقال ناس : قد صدقا ونطقا بالصواب ، وقال آخرون : ما صدقا ولا أصابا . حتى ارتفعت الأصوات فأقبلت عائشة على جملها فنادت بصوت مرتفع أيها الناس أقلّوا الكلام واسكتوا . فسكت الناس لها .

فقالت : إن أمير المؤمنين عثمان قد كان غيّر وبدّل . ثم لم يزل يغسل ذلك بالتوبة حتى قتل مظلوماً تائباً وإنما نقموا عليه ضربه بالسوط وتأميره الشبّان، وحمايته موضع الغمامة فقتلوه محرماً في حرمة الشهر ، وحرمة البلد ذبحاً كما يذبح الجمل ، ألا وإن قريشاً رمت غرضها بنبالها وأدمت أفواهها بأيديها، وما نالت بقتلها إيّاه شيئاً ولا سلكت به سبيلاً قاصداً أما والله ليرونها بلايا عقيمة تنبه النائم وتقيم الجالس ، وليسلطنّ عليهم قوم لا يرحمونهم ، يسومونهم سوء العذاب .

أيها الناس إنه ما بلغ من ذنب عثمان ما يستحلّ به دمه مصّتموه كما يماصّ الثوب الرحيض ، ثم عدوتم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه وبايعتم ابن أبي طالب بغير مشورة من الجماعة ابتزازاً وغصباً ، أتراني

أغضب لكم من سوط عثمان ولسانه ولا أغضب لعثمان من سيوفكم . ألا إن عثمان قتل مظلوماً فاطلبوا قتلته فإذا ظفرتم بهم فاقتلوهم ، ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ولا يدخل فيهم من شرك في دم عثمان .

قال : فماج الناس واختلطوا فمن قائل يقول : القول ما قالت : ومن قائل يقول : وما هي من هذا الأمر إنما هي امرأة مأمورة بلزوم بيتها . وارتفعت الأصوات وكثر اللغط حتى تضاربوا بالنعال وتراموا بالحصا . ثم تمايزوا فرقتين فرقة مع عثمان بن حنيف وفرقة مع طلحة والزبير . ثم أقبلا من المربد يريدان عثمان بن حنيف فوجدوه وأصحابه قد أخذوا بأفواه السكك فمضوا حتى انتهوا إلى مواضع الدبّاغين فاستقبلهم أصحاب ابن حنيف فشجرهم طلحة والزبير وأصحابهما بالرماح فحمل عليهم حكيم بن جبلة فلم يزل هو وأصحابه يقاتلونهم حتى أخرجوهم من جميع السكك ، ورماهم النساء من فوق البيوت بالأحجار فأخذوا إلى مقبرة بني مازن فوقفوا بها ملياً حتى ثابت إليهم خيلهم ، ثم أخذوا على مسنّاة البصرة حتى انتهوا إلى الرابوقة . ثم أتوا سبخة دار الرزق فنزلوها فأتاهما عبدالله بن حكيم التميمي لما نزلا السبخة بكتب كتباها إليه فقال لطلحة :

يا أبا محمد أما هذه كتبك إلينا ؟. فقال : بلى . فقال : فكنت أمس تدعونا إلى خلع عثمان وقتله حتى إذا قتلته أتيتنا ثائراً بدمه ، فلعمري ما هذا رأيك ولا تريد إلاّ هذه الدنيا . مهلاً إذا كان هذا رأيك . قبلت من علي ما عرض عليك من البيعة فبايعته طائعاً راضياً ثم نكثت بيعتك وجئتنا لتدخلنا في فتنتك . فقال : إن علياً دعاني إلى بيعته بعدما بايع الناس فعلمت أني لو لم أقبل ما عرضه عليّ لا يتم لي ثم يغري بي من معه . ثم أصبحا من غد فصفا للحرب وخرج إليهما عثمان في أصحابه فناشدهما الله والإسلام وأذكرهما بيعتهما ثلاثاً . فشتماه شتماً قبيحاً وذكرا أمه .

فقال للزبير : أما والله لولا صفيّة ومكانها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنها أذرتك إلى الظل ، وإن الأمر بيني وبينك يا ابن الصعبة يعني طلحة أعظم من القول لأعلمتكما من أمركما ما يسوئكما .

اللهم إني قد أعذرت إلى هذين الرجلين . ثم حمل عليهم فاقتتل الناس قتالاً شديداً . ثم تحاجزوا واصطلحوا على أن يكتب بينهم كتاب صلح . فكتب : هذا ما اصطلح عليه عثمان بن حنيف الأنصاري ومن معه من المؤمنين من شيعة علي بن أبي طالب ، وطلحة والزبير ومن معهما من المؤمنين والمسلمين من شيعتهما أن لعثمان بن حنيف الأنصاري دار الإمارة والرحبة والمسجد وبيت المال والمنبر ، وأن لطلحة والزبير ومن معهما أن ينزلوا حيث شاؤوا من البصرة ولا يضارّ بعضهم بعضاً في طريق ولا سوق ولا فرضة ولا مشرعة ولا مرفق حتى يقدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فإن أحبّوا دخلوا فيما دخلت فيه الأمّة وإن أحبّوا ألحق كل قوم بهواهم ، وما أحبّوا من قتال أو سلم أو خروج أو إقامة ، وعلى الفريقين بما كتبوا عهد الله وميثاقه وأشد ما أخذه على نبي من أنبيائه من عهد وذمّة .

وختم الكتاب ، ورجع عثمان حتى دخل دار الإمارة وأمر أصحابه أن يلحقوا بأهلهم ويداووا جراحاتهم فمكثوا كذلك أياماً . ثم خاف طلحة والزبير من مقدم علي عليه السلام وهما على تلك القلة والضعف فراسلوا القبائل يدعونهم إلى الطلب بدم عثمان وخلع علي عليه السلام فبايعهم على ذلك الأزد وضبّة وقيس غيلان كلّها إلّا الرجل والرجلين من القبيلة كرهوا أمرهم فتواروا عنهم ، وبايعهما هلال بن وكيع بمن معه من بني عمرو بن تميم وأكثر بني حنظلة وبني دارم . فلما استوسق لهما أمرهما . خرجا في ليلة مظلمة ذات ريح ومطر في أصحابهما ، وقد ألبسوهم الدروع ، وظاهروا فوقها بالثياب فانتهوا إلى المسجد وقت صلاة الفجر وقد سبقهم عثمان بن حنيف إليه وأقيمت الصلاة فتقدم عثمان ليصلي بهم فأخّره أصحاب طلحة والزبير ، وقدموا الزبير فجاءت الشرط ـ حرس بيت المال ـ وأخّروا الزبير وقدموا عثمان فغلبهم أصحاب الزبير فقدّموه وأخّروا عثمان فلم يزالوا كذلك حتى كادت الشمس أن تطلع فصاح بهم أهل المسجد ألا تتقون الله أصحاب محمد قد طلعت الشمس فغلب الزبير فصلّى بالناس فلما انصرف من صلاته صاح بأصحابه المتسلّحين أن خذوا عثمان فأخذوه بعد أن تضارب هو ومروان بن الحكم بسيفهما فلما أُسر ضُرب ضَرْب الموت ونتفت حاجباه وأشفار عينيه وكل شعرة في رأسه ووجهه ، وأخذوا السيالحة وهم سبعون رجلاً فانطلقوا بهم ،

وبعثمان بن حنيف إلى عائشة فأشارت إلى أحد أولاد عثمان أن اضرب عنقه . فإن الأنصار قتلت أباك وأعانت على قتله . فنادى عثمان يا عائشة ، ويا طلحة ويا زبير إن أخي سهل بن حنيف خليفة علي بن أبي طالب على المدينة وأقسم بالله إن قتلتموني ليضعنّ السيف في بني أبيكم وأهليكم ورهطكم فلا يبقى منكم أحداً. فكفّوا عنه وخافوا من قوله فتركوه ، وأرسلت عائشة إلى الزبير أن اقتل السيالحة فإنه قد بلغني الذي صنعوا بك قبل . فذبحهم والله كما يذبح الغنم . ولى ذلك عبدالله ابنه وهم سبعون رجلاً ، وبقيت منهم بقيّة متمسكون ببيت المال قالوا : لا نسلّمه حتى يقدم أمير المؤمنين . فسار إليهم الزبير في جيش ليلاً وأوقع بهم وأخذ منهم خمسين أسيراً فقتلهم صبراً .

فحكي أن القتلى من السيالحة يومئذ أربعمائة رجلاً ، وكان غدر طلحة والزبير بعثمان بن حنيف بعد غدرهم في بيعة علي غدراً في غدر ، وكانت السيالحة أول قوم ضربت أعناقهم من المسلمين صبراً ، وخيّروا عثمان ابن حنيف بين أن يقيم أو يلحق بعلي ، فاختار الرحيل فخلّوا سبيله فلحق بعلي عليه السلام فلما رآه بكى وقال له شيخ وجئتك أمردا .

فقال علي عليه السلام : إنّا لله وإنّا إليه راجعون قالها ثلاثاً . فذلك معنى قوله : فقدموا على عاملي بها وخزّان بيت مال المسلمين إلى آخره . ثم أقسم عليه السلام إنهم لو لم يصيبوا أي يقتلوا من المسلمين إلاّ رجلاً واحداً متعمّدين قتله بغير ذنب جناه لحل له قتل ذلك الجيش كله ، و ـ إن ـ زائدة .

فإن قلت : المفهوم من هذا الكلام تعليل جواز قتله لذلك الجيش كله بعدم إنكارهم للمنكر فهل يجوز قتل من لم ينكر المنكر ؟

قلت : أجاب الشارح عبد الحميد ابن أبي الحديد عنه . فقال : إنه تجوّز قتلهم لأنهم اعتقدوا ذلك القتل مباحا مع أنه مما حرمه الله فجرى ذلك مجرى اعتقادهم لإباحة الزنا وشرب الخمر .

وأجاب القطب الراوندي بأن جواز قتلهم لدخولهم في عموم قوله تعالى : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً**

أن يقتلوا﴾ الآية . وإن هؤلاء القوم قد حاربوا رسول الله لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : حربك يا علي حربي ، وسعوا في الأرض بالفساد ، واعترض المجيب الأول عليه . فقال : الإشكال إنما هو في تحليله لقتل الجيش المذكور لكونه لم ينكر على من قتل رجلاً واحداً من المسلمين فالتعليل بعدم إنكار المنكر لا بعموم الآية .

وأقول : الجواب الثاني أسد ، والأول ضعيف . لأن القتل وإن وجب على من اعتقد إباحة ما علم تحريمه من الدين ضرورة كشرب الخمر والزنا فلم قلت إنه يجب على من اعتقد إباحة ما علم تحريمه من الدين بالتأويل كقتل هؤلاء القوم لمن قتلوا وخروجهم لما خرجوا له فإن جميع ما فعلوه كان بتأويل لهم وإن كان معلوم الفساد . فظهر الفرق بين اعتقاد حلّ الخمر والزنا وبين اعتقاد هؤلاء لإباحة ما فعلوه .

وأما الاعتراض على الجواب الثاني فضعيف أيضاً . لأن له أن يقول : إن قتل المسلم الذي لا ذنب له عمداً إذا صدر من بعض الجيش ولم ينكر الباقون مع تمكّنهم وحضورهم كان ذلك قرينة دالّة على الرضا من جميعهم ، والراضي بالقتل شريك القاتل خصوصاً إذا كان معروفاً بصحبته والاتحاد به كاتحاد بعض الجيش ببعض . فكان خروج ذلك الجيش على الإمام العادل محاربة لله ورسوله ، وقتلهم لعامله وخزّان بيت مال المسلمين ونهبهم له ، وتفريق كلمة أهل المصر وفساد نظامهم سعي في الأرض بالفساد ، وذلك عين مقتضى الآية .

وقوله : دع . إلى آخره .

أي لو كان من قتلوه من المسلمين واحداً لحلّ لي قتلهم فكيف وقد قتلوا منهم عدة مثل عدّتهم التي دخلوا بها البصرة . وما بعد ـ دع ـ زائد ، والمماثلة هنا في الكثرة . وصدق عليه السلام فإنهم قتلوا من أوليائه وخزّان بيت المال بالبصرة خلقاً كثيراً كما ذكرناه على الوجه الذي ذكره بعض غدراً وبعض صبراً . وبالله التوفيق .

---

(١) ٥ ـ ٣٧ .

١٧٢ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أَمِينُ وَحْيِهِ، وَخَاتَمُ رُسُلِهِ، وَبَشِيرُ رَحْمَتِهِ، وَنَذِيرُ نِقْمَتِهِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ؛ وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللهِ فِيهِ؛ فَإِنْ شَغَبَ شَاغِبٌ اسْتُعْتِبَ، فَإِنْ أَبَى قُوتِلَ. وَلَعَمْرِي لَئِنْ كَانَتِ الإِمَامَةُ لا تَنْعَقِدُ حَتَّى تَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ فَمَا إِلَى ذٰلِكَ سَبِيلٌ؛ وَلٰكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا؛ ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَرْجِعَ، وَلا لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ.

أَلا وَإِنِّي أُقَاتِلُ رَجُلَيْنِ: رَجُلاً ٱدَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ؛ وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ.

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ؛ فَإِنَّهَا خَيْرُ مَا تَوَاصَى الْعِبَادُ بِهِ، وَخَيْرُ عَوَاقِبِ الأُمُورِ عِنْدَ اللهِ، وَقَدْ فُتِحَ بَابُ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَلا يَحْمِلُ هٰذَا الْعَلَمَ إِلاَّ أَهْلُ الْبَصَرِ وَالصَّبْرِ، وَالْعِلْمِ بِمَوَاقِعِ الْحَقِّ، فَامْضُوا لِمَا تُؤْمَرُونَ بِهِ، وَقِفُوا عِنْدَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ، وَلا تَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ حَتَّى تَتَبَيَّنُوا؛ فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غِيَراً.

أَلا وَإِنَّ هٰذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا وَتَرْغَبُونَ فِيهَا، وَأَصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ؛ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ وَلا مَنْزِلِكُمُ الَّذِي خُلِقْتُمْ لَهُ وَلا الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ، أَلا وَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ، وَلا تَبْقَوْنَ عَلَيْهَا، وَهِيَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَّرَتْكُمْ شَرَّهَا. فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا، وَإِطْمَاعَهَا لِتَخْوِيفِهَا، وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى الدَّارِ الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَانْصَرِفُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا وَلا يَخِنَّنَّ أَحَدُكُمْ خَنِينَ الأَمَةِ عَلَى مَا زُوِيَ عَنْهُ مِنْهَا، وَٱسْتَتِمُّوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى مَا ٱسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ. أَلا وَإِنَّهُ لا يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ. أَلا وَإِنَّهُ لا يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ امْرِ دُنْيَاكُمْ، أَخَذَ اللهُ بِقُلُوبِنَا، وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ.

أقول : صدر هذا الفصل من ممادح الرسول ﷺ فشهادة كونه أميناً على التنزيل من التحريف والتبديل العصمة ، وشهادة ختامه للرسل قوله تعالى : ﴿ **وخاتم النبيين** ﴾ وكونه بشير رحمته بالثواب الجزيل ونذير نقمته بالعذاب الوبيل قوله تعالى : ﴿ **إنّا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً** ﴾ . ثم أردفه ببيان أحكام :

الأول : بيان أحكام الذي هو أحق الناس بأمر الخلافة ، وحصر الأحق به في أمرين :

أحدهما : أقوى الناس عليه وهو الأكمل قدرة على السياسة والأكمل علماً بمواقعها وكيفياتها وكيفية تدبير المدن والحروب، وذلك يستلزم كونه أشجع الناس .

والثاني : أعملهم بأوامر الله فيه ، ومفهوم الأعمال بأوامر الله يستلزم الأعلم بأصول الدين وفروعه ليضع الأعمال مواضعها ، ويستلزم أشد حفاظاً على مراعاة حدود الله والعمل بها ، وذلك يستلزم كونه أزهد الناس وأعفّهم وأعدلهم . ولما كانت هذه الفضائل مجتمعة له عليه السلام كانت إشارة إلى نفسه ، وروي عوض أعملهم أعلمهم .

الثاني : في بيان حكم المشاغب للإمام بعد انعقاد بيعته ، وهو أنه يستعتب : أي أنه في أول مشاغبته يطلب منه العتبى والرجوع إلى الحق والطاعة بلين القول فإن أبى قوتل وذلك الحكم مقتضى قوله تعالى ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ﴾(1) الآية .

الثالث : بيان كيفية انعقاد الإمامة بالإجماع فبيّن بقوله : ولعمري . إلى قوله : ما إلى ذلك سبيل . أن الإجماع لا يعتبر فيه دخول جميع الناس حتى العوام . إذ لو كان ذلك شرطاً لأدى إلى أن لا ينعقد إجماع قطّ فلم تصح إمامة أحد أبداً لتعذّر اجتماع المسلمين بأسرهم من أطراف الأرض. بل المعتبر في الإجماع اتفاق أهل الحل والعقد من أمّة محمد ﷺ على بعض الأمور ، وهم العلماء ، وقد كانوا بأسرهم مجتمعين حين بيعته عليه السلام فليس

---

(1) ٤٩ - ٩.

لأحد منهم بعد انعقادها أن يرجع ، ولا لمن عداهم من العوام ومن غاب عنها أن يختاروا غير من أجمع هؤلاء عليه .

فإن قلت : إنه عليه السلام إنما احتج على القوم بالإجتماع على بيعته ، ولو كان متمسك آخر من نصّ أو غيره لكان احتجاجه بالنص أولى فلم يعدل إلى دعوى الإجماع .

قلت : احتجاجه بالإجماع لا يتعرض لنفي النص ولا لإثباته بل يجوز أن يكون النص موجوداً . وإنما احتجّ عليهم بالإجماع لاتفاقهم على العمل به فيمن سبق من الأئمة ، ولأنه يحتمل أن يكون سكوته عنه لعلمه بأنه لا يلتفت إلى ذكره على تقدير وجوده لأنه لما لم يلتفت إليه في مبدء الأمر حين موت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فبالأولى أن لا يلتفت إليه الآن، وقد طالت المدة وبعد العهد فلم تكن في ذكره فائدة .

الرابع : بيان من يجب قتاله وهو أحد رجلين :

الأول : رجل خرج على الإمام العادل بعد تمام بيعته وادّعى أن الإمامة حق له وقد ثبت بالإجماع على غيره أنها ليست له .

والثاني : رجل خرج على الإمام ولم يمتثل له في شيء من الأحكام . والأول إشارة إلى أصحاب الجمل ، والثاني إلى معاوية وأصحابه . ثم عقّب بالوصية بتقوى الله فإنها خير زاد عند الله يستعقبه الإنسان من حركاته وسكناته ولما كان كذلك كان خير ما تواصى به عباد الله .

وقوله : وقد فتح باب الحرب بينكم وبين أهل القبلة . إلى قوله : غيراً .

إعلام لأصحابه بحكم البغاة من أهل القبلة على سبيل الإجمال ، وأحال التفصيل على أوامره حال الحرب ، وقد كان الناس قبل حرب الجمل لا يعرفون كيفية قتال أهل القبلة ولا كيف السنّة فيهم إلى أن علموا ذلك منه عليه السلام . ونقل عن الشافعي أنه قال : لولا عليّ ما عرفت شيء من أحكام أهل البغي .

وقوله : ولا يحمل هذا العلم إلّا أهل البصر .

أي أهل البصائر ، والعقول الراجحة ، والصبر : أي على المكاره وعن التسرّع إلى الوساوس ، والعلم بمواضع الحق . وذلك أنَّ المسلمين عظم عندهم حرب أهل القبلة وأكبروه ، والمقدمون منهم على ذلك إنما أقدموا على خوف وحذر . فقال عليه السلام : إن هذا العلم لا يدركه كل أحد بل من ذكره .

وروي العلم بفتح اللام ، وذلك ظاهر فإنَّ حامل العلم عليه مدار الحرب وقلوب العسكر منوطة به فيجب أن يكون بالشرائط المذكورة ليضع الأشياء مواضعها . ثم أمرهم بقواعد كليّة عند عزمه على المسير للحرب وهي أن يمضوا فيما يؤمرون به ويقفوا عندما ينهون عنه ولا يعجلوا في أمر إلى غاية أن يتبيّنوه : أي لا يتسرعوا إلى إنكار أمر فعله أو يأمرهم به حتى سألوه عن فائدته وبيانه . فإن له عند كل أمر ينكرونه تغييراً : أي قوّة على التغيير إن لم يكن في ذلك الأمر مصلحة في نفس الأمر وفائدة أمرهم بالتبيّن عند استنكار أمر أنه يحتمل أن لا يكون ما استنكروه منكراً في نفس الأمر فيحكمون بكونه منكراً لعدم علمهم بوجهه ، ويتسرّعون إلى إنكاره بلسان أو يدٍ فيقعون في الخطأ .

قال بعض الشارحين : وفي قوله : فإنَّ لنا عند كل أمر ينكرونه تغييراً . إيماء إلى أنه ليس كعثمان في صبره على ارتكاب الناس لما كان ينهاهم عنه بل يغيّر كل ما ينكره المسلمون ويقتضي العرف والشرع تغييره . ثم أخذ في التنفير عن الدنيا بأمور :

الأول : التنفير عن تمنّيها والرغبة فيها وعن الغضب لفوتها والرضى بحصولها بكونها ليست الدار والمنزل الذي خلقوا له ودعوا إليه ، واستلزم ذلك التنفير التنبيه على ما ورائها والعمل له .

الثاني : نفّر عنها بفنائها عنهم وفنائهم عنها .

الثالث : بأنه لا فائدة فيها فإنّها وإن كانت تغرّ وتخدع بما فيها ممّا يعتقد خيراً وكمالاً . فإنّ فيها ما يقابل ذلك وهو التحذير بما فيها من الآفات والتغيّرات المتعددة شراً فينبغي أن يتركوا خيرها القليل لشرها الكثير ،

وإطماعها لتخويفها ، ويسابقوا إلى الخير الخالص والدار التي دعوا إليها وخلقوا لأجلها ، وينصرفوا بقلوبهم عنها: أي يزهدوا الزهد الحقيقي فيها فإنّ الزهد الظاهري مع الحنين إلى ما زوى منها عن أحدكم غير منتفع وبه خصّ حنين الأمة لأن الحنين أكثر ما يسمع من الأمة. لأن العادة أن تضرب وتؤذى فيكثر حنينها .

وروي خنين بالخاء المعجمة . والخنين كالبكاء في الأنف . وإذ أمر بالزهد الحقيقي أمر بالصبر على طاعة الله وعبادته والمحافظة على أوامر كتابه ونواهيه إذ بالزهد يكون حذف الموانع الداخلة والخارجة ، وبالطاعة والعبادة يكون تطويع النفس الأمارة بالسوء للنفس المطمئنة . وهما جزاء الرياضة والسلوك لسبيل الله . ورغب في الصبر على طاعة الله بأن فيه استتماماً لنعمة الله . وظاهر أن طاعة الله سبب عظيم لإفاضة نعمه الدنيوية والأُخروية . ثم أكد الأمر بالمحافظة على ما قام من الدين بأنه لا مضرّة في ترك شيء من الدنيا وتضييعها مع المحافظة على الدين لما في المحافظة على الدين من الخير الدائم التام الأُخروي الذي لا نسبة لخير الدنيا إليه ، وبأنه لا منفعة في المحافظة على ما فيها : أي في الدنيا مع تضييع الدين وإهماله . وذلك أمر مفروغ عنه ومستغنى عن بيانه .

ثم ختم بالدعاء لهم ولنفسه بأخذ الله بقلوبهم إلى الحق : أي إلهامهم لطلبه وهدايتهم إليه وجذبهم إلى سلوك سبيله ، ثم إلهامهم الصبر : أي على طاعته وعن معصيته . وبالله التوفيق .

١٧٣ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

في طلحة بن عبيدالله:

قَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ ، وَلاَ أُرْهَبُ بِالضَّرْبِ ، وَأَنَا عَلَى مَا قَدْ وَعَدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصْرِ ، وَاللهِ مَا آسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّداً لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ ، إلاَّ خَوْفاً مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ لأَنَّهُ مَظِنَّتُهُ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ لِيُلْبِسَ الأَمْرَ ، وَيَقَعَ الشَّكُّ ! وَوَاللهِ مَا صَنَعَ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلاَثٍ : لَئِنْ كَانَ آبْنُ عَفَّانَ ظَالِماً ، كَمَا كَانَ يَزْعُمُ ، لَقَدْ

كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُؤَازِرَ قَاتِلِيهِ ، أَوْ أَنْ يُنَابِذَ نَاصِرِيهِ ، وَلَئِنْ كَانَ مَظْلُوماً لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُنَهْنِهِينَ عَنْهُ ، وَالْمُعْذِرِينَ فِيهِ ، وَلَئِنْ كَانَ فِي شَكٍّ مِنَ الْخَصْلَتَيْنِ لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَزِلَهُ وَيَرْكُدَ جَانِباً ، وَيَدَعَ النَّاسَ مَعَهُ . فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلَاثِ ، وَجَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرَفْ بَابُهُ ، وَلَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ .

أقول : هذا الفصل من كلام قاله حين بلغه خروج طلحة والزبير إلى البصرة . وتهديدهم بالحرب .

ونهنه عنه : كفّ وزجر . والمعذرين بالتخفيف : المتعذّرين عنه . وبالتشديد المظهرين للعذر مع أنه لا عذر . وركد : سكن .

فقوله : وقد كنت . إلى قوله : النصر .

جواب لتهديدهم . وقد مرت هذه الألفاظ بعينها مشروحة إلاّ أن هناك : وإنّي على يقين من ربي . وهنا : وأنا على ما قد وعدني ربي من النصر . وذلك الذي هو عليه هو اليقين بالنصر على لسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، والواو في قوله : وما أُهدّد للحال . وكان تامة .

وقوله : والله ما استعجل . إلى قوله : ويقع الشك .

إشارة إلى شبهتهم في الخروج إلى البصرة . وهي الطلب بدم عثمان ، ثم إلى معارضة هذه الشبهة وهي أن خروجه ليس إلاّ خوفاً من أن يطلب بدمه لأنه مظنة ذلك . وقد سبقت منّا الإشارة إلى دخول طلحة في تحريض الناس على قتل عثمان وجمعه لهم في داره .

وروي أنه منع الناس من دفنه ثلاثة أيام ، وأن حكيم بن حزام وجبير ابن مطعم استنجدا بعلي في دفنه فأقعد لهم طلحة في الطريق أناساً يرمونهم بالحجارة فخرج به نفر من أهله يريدون به حائطاً في المدينة يعرف بحشّ كوكب كانت اليهود تدفن فيه موتاهم فلما صار هناك رجم سريره فهمّوا بطرحه فأرسل إليهم علي عليه السلام فكفّهم عنه حتى دفن بحشّ كوكب .

وروي أنه جادل في دفنه بمقابر المسلمين وقال : ينبغي أن يدفن بدير سلع يعني مقابر اليهود . وبالجملة فهو كما قال عليه السلام : لم يكن في القوم

أحرص منه على قتله لكنه أراد أن يغالط بما أجلب في الطلب بدمه ليلتبس الأمر، ويقع الشك في دخوله في قتله .

وقوله : ووالله ما صنع في أمر عثمان . إلى آخره .

صورة احتجاج عليه وقطع لعذره في الخروج والطلب بدمه بقياس شرطي منفصل ، وتقريره أن حاله في أمر عثمان وخروجه في طلب دمه لا تخلو من أمور ثلاثة فإنه إما أن يعلم أنه كان ظالماً أو يعلم أنه كان مظلوماً أو يشك في الأمرين ويتوقف فيهما فإن كان الأول فقد كان الواجب عليه أن يساعد قاتليه ويوازرهم وينابذ ناصريه لوجوب إنكار المنكر عليه . وهو قد عكس الحال لأنه نابذ قاتليه وثار في طلب دمه مع ناصريه ممن توهم فيه ذلك . وإن كان الثاني فقد كان يجب عليه أن يكون ممّن يكف الناس عنه ويعتذر عنه فيما فعل لوجوب إنكار المنكر أيضاً مع أنه ممّن وازر عليه الناس، وأظهر أحداثه وعظّمها كما هو المنقول المشهور عنه ، وإن كان الثالث فقد كان الواجب عليه أن يعتزله ويسكن عن الخوض في أمره ولم يفعل ذلك. بل ثار في طلب دمه . فكان في هذه الأحوال الثلاثة محجوباً في خروجه ونكثه للبيعة . فإذن ما جاء به من ذلك أمر لا يعرف بابه : أي وجه دخوله فيه ، ولم يسلم فيه عذر . وبالله التوفيق .

١٧٤ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

أَيُّهَا الْغَافِلُونَ غَيْرُ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ ، وَالتَّارِكُونَ الْمَأْخُوذُ مِنْهُمْ . مَا لِي أَرَاكُمْ عَنِ اللهِ ذَاهِبِينَ ، وَإِلى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ ؟ كَأَنَّكُمْ نَعَمٌ أَرَاحَ بِهَا سَائِمٌ إِلى مَرْعىً وَبِيٍّ ، وَمَشْرَبٍ دَوِيٍّ !! إِنَّمَا هِيَ كَالْمَعْلُوفَةِ لِلْمُدى ، لاَ تَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا : إِذَا أُحْسِنَ إِلَيْهَا تَحْسَبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا ، وَشِبَعَهَا أَمْرَهَا ؛ وَاللهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلِجِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ . وَلكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ اللهِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، أَلا وَإِنِّي مُفْضِيهِ إِلَى الْخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذلِكَ مِنْهُ . وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ ، وَاصْطَفَاهُ عَلَى الْخَلْقِ ؛ مَا أَنْطِقُ إِلاَّ صَادِقاً ، وَقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِذلِكَ كُلِّهِ ، وَبِمَهْلِكِ مَنْ يَهْلِكُ ،

وَمَنْجَى مَنْ يَنْجُو ؛ وَمَآل هٰذَا الأَمْرِ ؛ وَمَا أَبْقَى شَيْئاً يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إلاَّ أَفْرَغَهُ فِي أُذُنَيَّ وَأَفْضَى بِهِ إلَيَّ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إنِّي وَالله مَا أَحُثُّكُمْ عَلَى طَاعَةٍ إلاَّ أَسْبِقُكُمْ إلَيْهَا وَلاَ أَنْهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إلاَّ أَتَنَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا .

أقول : السائم : الراعي . والوبي : محل الوباء . والدويّ : محل الداء . والمدى : جمع مدية ، وهي السكين .

والخطاب عام . وكونهم غافلين : أي عما يراد بهم من أمر الآخرة ، وغير مغفول عنهم : أي أن أعمالهم محصلة في اللوح المحفوظ . وتاركين : أي لما أمروا به من الطاعة ، المأخوذ منهم : أي منتقص من أعمارهم وقيناتهم الدنيوية من مال وأهل . ثم نبّههم على ذهابهم عن الله وهو التفاتهم عن طاعته ورغبتهم في غيره وهو الحياة الدنيا وزينتها . ثم شبّههم في ذلك بالنعم التي أراح بها راعيها إلى مرعى كثير الوباء والداء .

ووجه الشبه أنهم لغفلتهم كالنعم ونفوسهم الأمارة بالسوء القائدة لهم إلى المعاصي كالراعي القائد إلى المرعى الوبي ولذات الدنيا ومشتهياتها ، وكون تلك اللذات والمشتهيات محل الآثام التي هي مظنّة الهلاك الأخروي والداء الدوي تشبه المرعى الوبي والمشرب الدوي .

وقوله : وإنما هي كالمعلوفة .

تشبيه آخر لهم بمعلوفة النعم ، ووجه الشبه أنهم لعنايتهم بلذات الدنيا من المطاعم والمشارب كالنعم المعتنى بعلفها ، وكون ذلك التلذذ غايته الموت تشبه غاية المعلوفة وهي الذبح ، وكونهم غافلين من غاية الموت وما يراد بهم يشبه غفلة النعم عن غايتها من الذبح ، وكونهم يظنّون أن الإحسان إليهم ببسط اللذات الدنيويّة في بعض الأوقات دائم في جميع أوقاتهم ، وأن شبعهم في هذه الحياة وريّهم هو غايتهم التي خلقوا لأجلها وتمام أمرهم يشبه غفلة النعم في حال حضور علفها في بعض الأوقات عما بعده من الأوقات وتوهمها أن ذلك غايتها التي خلقت لأجلها ، ووجه هذا الشبه مركب من هذه الوجوه . ثم أقسم أنه لو شاء لأخبر كل رجل منهم بمواضع تصرفاته

وحركاته وجميع أحواله . وهو كقول المسيح عليه السلام : وأُنبّئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم[1]. وقد علمت إمكان ذلك العلم وسببه في حق الأنبياء والأولياء في مقدمة الكتاب .

وقوله : ولكن أخاف أن تكفروا فيّ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

أي أخاف أن تغلوا في أمري ، وتفضلوني على رسول الله . بل كان يخاف أن يكفروا فيه بالله كما ادّعت النصارى في المسيح حيث أخبرهم بالأُمور الغائبة . ثم قال : ألا وإنّي مفضيه إلى الخاصة : أي أهل العلم والثبات من أصحابه ممن يؤمن ذلك الكفر منه ، وهكذا شأن العلماء وأساطين الحكمة رأيهم أن لا يضعوا العلم إلّا في أهله . هذا مع أن من الناس من يدّعي فيه النبوة وأنه شريك محمد في الرسالة ، ومنهم من ادعى أنه إله ، وهو الذي أرسل محمداً . إلى غير ذلك من الضلال . وفيه يقول بعض شعرائهم :

ومن أهلك عاداً وثمود بدواهيه ومن كلّم موسى فوق طور إذ يناديه
ومن قال على المنبر يوماً وهو راقيه سلوني أيها الناس. فحاروا في معانيه

وقول الآخر :

إنما خالق الخلائق من زعزع أركان خيبر جذبا
قد رضينا به إماماً ومولى وسجدنا له إلٰهاً وربا

ثم أقسم أنه ما نطق إلّا صادقاً فيما يخبر به من هذه الأُمور ، وأخبر أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عهد إليه بذلك وبمهلك من يهلك . إلى قوله : وأفضى به إليّ : أي ألقاه إليّ وأعلمني به . وذلك التعليم منه ما يكون على وجه جزئي أعنى أن يخبره بواقعة واقعة ، ومنه ما يكون على وجه كلّي : أي يلقي إليه أُصولاً كليّة يعدّ ذهنه بها لاستفاضته الصور الجزئية من واهب الصور كما سبق تقريره . ومما نقل عنه من ذلك في بعض خطبته التي يشير فيها إلى الملاحم يومىء به إلى القرامطة : ينتحلون لنا الحب والهوى ويضمرون لنا البغض

(١) ٣ - ٤٣.

والقلى وآية ذلك قتلهم ورّاثنا وهجرهم أحداثنا . وصحّ ما أخبر عنه لأن القرامطة قتلت من آل أبي طالب خلقاً كثيراً . وأسماؤهم مذكورة في كتاب مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الإصبهاني .

قال بعض الشارحين : ومن هذه الخطبة ـ وهو يشير إلى السارية التي كانت يستند إليها في مسجد الكوفة ـ : كأني بالحجر الأسود منصوباً هيهنا ويحهم إنّ فضيلته ليست في نفسه بل في موضعه وأنه يمكث هيهنا مدّة ثم هيهنا مدة ـ وأشار إلى مواضع ـ ثم يعود إلى ما وراءه ويأمّ مثواه . ووقع من القرامطة في الحجر الأسود بموجب ما أخبر به عليه السلام .

وأقول : في هذا النقل نظر لأن المشهور أن القرامطة نقلوا الحجر الأسود إلى أرض البحرين ، وبنوا له موضعاً وضعوه فيه يسمى إلى الآن بالكعبة ، وبقي هناك مدّة ثم أعيد إلى مكة ، وروي أنه مات في المجيء به خمسة وعشرون بعيراً وعاد به إلى مكة بعير ليس بالقويّ ، وذلك من أسرار دين الله تعالى ، ولم ينقل أنهم نقلوه مرتين ، والله أعلم .

١٧٥ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

إنْتَفِعُوا بِبَيَانِ الله ، وَٱتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ الله ، وَٱقْبَلُوا نَصِيحَةَ الله . فَإِنَّ الله قَدْ أَعْذَرَ إِلَيْكُمْ بِالْجَلِيَّةِ ، وَأَخَذَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مَحَابَّهُ مِنَ الأَعْمَالِ وَمَكَارِهَهُ مِنْهَا ؛ لِتَتَّبِعُوا هٰذِهِ وَتَجْتَنِبُوا هٰذِهِ ؛ فَإِنَّ رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، كَانَ يَقُولُ : « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ مَا مِنْ طَاعَةِ الله شَيْءٌ ، إلاَّ يَأْتِي فِي كُرْهٍ ؛ وَمَا مِنْ مَعْصِيَةِ الله شَيْءٌ إلاَّ يَأْتِي فِي شَهْوَةٍ . فَرَحِمَ الله رَجُلاً نَزَعَ عَنْ شَهْوَتِهِ ، وَقَمَعَ هَوَى نَفْسِهِ ؛ فَإِنَّ هٰذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْزَعاً ، وَإِنَّهَا لاَ تَزَالُ تَنْزِعُ إِلَى مَعْصِيَةٍ فِي هَوىً .

وَٱعْلَمُوا عِبَادَ الله أَنَّ الْمُؤمِنَ لاَ يُمْسِي وَلاَ يُصْبِحُ إلاَّ وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ عِنْدَهُ فَلاَ يَزَالُ زَارِياً عَلَيْهَا ، وَمُسْتَزِيداً لَهَا . فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ وَالْمَاضِينَ أَمَامَكُمْ ، قَوَّضُوا مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ ، وَطَوَوْهَا طَيَّ الْمَنَازِلِ . وَٱعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لاَ يَغُشُّ ، وَالْهَادِي الَّذِي لاَ يُضِلُّ ،

وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لاَ يَكْذِبُ ، وَمَا جالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ : زِيَادَةٌ فِي هُدىً ، وَنُقْصَانٌ مِنْ عَمىً . وَآعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ ، وَلاَ لأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنىً ، فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ ، وَآسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لأَوَائِكُمْ ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ ؛ وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ وَالْغَيُّ وَالضَّلاَلُ . فَاسْأَلُوا اللهَ بِهِ ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ ، وَلاَ تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ : إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلى اللهِ بِمِثْلِهِ ، وَآعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ وَمُشَفَّعٌ ، وَقَائِلٌ وَمُصَدَّقٌ ، وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُفِّعَ فِيهِ ، وَمَنْ مَحَلَ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَدَقَ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : « أَلاَ إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلىً فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبَةِ عَمَلِهِ غَيْرَ حَرَثَةِ الْقُرْآنِ » فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ وَأَتْبَاعِهِ ، وَآسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ ، وَآسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَآتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ ، وَآسْتَغِشُّوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ ، الْعَمَلَ الْعَمَلَ ، ثُمَّ النِّهَايَةَ النِّهَايَةَ وَالاسْتِقَامَةَ الاسْتِقَامَةَ ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ ، وَالْوَرَعَ الْوَرَعَ ، إِنَّ لَكُمْ نِهَايَةً فَانْتَهُوا إِلى نِهَايَتِكُمْ ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَماً فَاهْتَدُوا بِعَلَمِكُمْ ، وَإِنَّ لِلإِسْلاَمِ غَايَةً فَانْتَهُوا إِلى غَايَتِهِ ، وَآخْرُجُوا إِلَى اللهِ بِمَا آفْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ . أَنَا شَهِيدٌ لَكُمْ وَحَجِيجٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْكُمْ .

أَلاَ وَإِنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَعَ ، وَالْقَضَاءَ الْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ ، وَإِنِّي مُتَكَلِّمٌ بِعِدَةِ اللهِ وَحُجَّتِهِ ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ آسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَنْ لاَ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ وَقَدْ قُلْتُمْ رَبُّنَا اللهُ ، فَآسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ ، ثُمَّ لاَ تَمْرُقُوا مِنْهَا ، وَلاَ تَبْتَدِعُوا فِيهَا ، وَلاَ تُخَالِفُوا عَنْهَا ؛ فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوقِ مُنْقَطَعٌ بِهِمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعَ الأَخْلاَقِ وَتَصْرِيفَهَا ، وَآجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِداً ، وَلْيَخْزُنِ الرَّجُلُ لِسَانَهُ ، فَإِنَّ هٰذَا اللِّسَانَ جَمُوحٌ بِصَاحِبِهِ ، وَاللهِ مَا أَرَى عَبْداً يَتَّقِي تَقْوَى تَنْفَعُهُ حَتَّى يَخْزُنَ لِسَانَهُ ، وَإِنَّ لِسَانَ الْمُؤمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ ، وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ ؛ لأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلاَمٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ : فَإِنْ

كَانَ خَيْراً أَبْدَاهُ ، وَإِنْ كَانَ شَرّاً وَارَاهُ ، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ ؛ لاَ يَدْرِي مَاذَا لَهُ ؛ وَمَاذَا عَلَيْهِ !!.

وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ ، وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ » فَمَنِ آسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللهَ وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ ، سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ ؛ فَلْيَفْعَلْ .

وَآعْلَمُوا ، عِبَادَ اللهِ . أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعَامَ مَا آسْتَحَلَّ عَاماً أَوَّلَ ، وَيُحَرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عَاماً أَوَّلَ ، وَإِنَّ مَا أَحْدَثَ النَّاسُ لاَ يُحِلُّ لَكُمْ شَيْئاً مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنِ الْحَلاَلُ مَا أَحَلَّ اللهُ ، وَالْحَرامُ مَا حَرَّمَ اللهُ ، فَقَدْ جَرَّبْتُمُ الأُمُورَ وَضَرَّسْتُمُوهَا ، وَوُعِظْتُمْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَضُرِبَتْ لَكُمُ الأَمْثَالُ ، وَدُعِيتُمْ إِلَى الأَمْرِ الْوَاضِحِ ، فَلاَ يَصَمُّ عَنْ ذٰلِكَ إِلاَّ أَصَمُّ ، وَلاَ يَعْمَى عَنْ ذٰلِكَ إِلاَّ أَعْمَى !! وَمَنْ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِالْبَلاَءِ وَالتَّجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ ، وَأَتَاهُ التَّقْصِيرُ مِنْ أَمَامِهِ حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ وَيُنْكِرَ مَا عَرَفَ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ رَجُلاَنِ : مُتَّبِعٌ شِرْعَةً ، وَمُبْتَدِعٌ بِدْعَةً ، لَيْسَ مَعَهُ مِنَ اللهِ بُرْهَانُ سُنَّةٍ ، وَلاَ ضِيَاءُ حُجَّةٍ ، وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَداً بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ ، فَإِنَّهُ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ ، وَسَبَبُهُ الأَمِينُ ، وَفِيهِ رَبِيعُ الْقَلْبِ ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ ، وَمَا لِلْقَلْبِ جَلاَءٌ غَيْرُهُ ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ الْمُتَذَكِّرُونَ ، وَبَقِيَ النَّاسُونَ أَوِ الْمُتَنَاسُونَ . فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْراً فَأَعِينُوا عَلَيْهِ ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرّاً فَاذْهَبُوا عَنْهُ ، فَإِنَّ رسول الله ، صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ . كَانَ يَقُولُ : « يَا ابْنَ آدَمَ آعْمَلِ الْخَيْرَ وَدَعِ الشَّرَّ فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ » .

أَلاَ وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلاَثَةٌ : فَظُلْمٌ لاَ يُغْفَرُ ، وَظُلْمٌ لاَ يُتْرَكُ ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لاَ يُطْلَبُ : فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لاَ يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِاللهِ ، قَالَ اللهُ : ﴿ **إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ ، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لاَ يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ، الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ !

لَيْسَ هُوَ جَرْحاً بِالْمُدَى ، وَلاَ ضَرْباً بِالسِّيَاطِ ، وَلٰكِنَّهُ مَا يُسْتَصْغَرُ ذٰلِكَ مَعَهُ . فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوُّنَ فِي دِينِ اللهِ ، فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ ، وَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَداً بِفُرْقَةٍ خَيْراً : مِمَّنْ مَضَى وَلاَ مِمَّنْ بَقِيَ .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ؛ طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ ، وَطُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ وَأَكَلَ قُوتَهُ ، وَاشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ ، وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ ، فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغُلٍ ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ ! .

أقول : الظنون : المتهمة . والزاري : العائب . وتقويض البناء : نقضه واللأواء : الشدة . ومحل به السلطان : كاده وقال فيه ما يضره . وتورّدت الخيل البلدة : دخلتها قطعة قطعة . وتهزيع الأخلاق : تكسيرها وتفريقها . وضرست الأمر : أحكمته تجربة .

وقد أمر السامعين أن ينتفعوا ببيان الله في كتابه وعلى لسان رسوله ، ويتّعظوا بمواعظه ويقبلوا نصيحته فيما لأجله خلقوا ، وإنما عدد اسم الله صريحاً دون الضمير للتعظيم . ثم أشار إلى وجه وجوب الامتثال عليهم وهو إعذاره إليهم بالجليّة : أي إظهار ما هو صورة العذر من الآيات والنذر الجليّة الواضحة ، واتّخاذ الحجة ببعث الرسل ، وبيان محابّه من الأعمال الصالحات ومكارهه من المحرمات في كتابه العزيز لغاية اتباع محابّه واجتناب مكارهه .

ثم نبّه على ما في الطاعة وامتثال التكليف من الشدة والمكروه فذكر الخبر ، ونعم ما تضمنه الخبر وأنّه لم ينبّه على الشدة مجرّدة . بل قرنها بذكر الجنة وجعلها محجوبة بها لتحصل الرغبة في الجنة فيتمّ السعي في قطع تلك الحجب المكروهة ، وكذلك قرن ذكر الشهوات بذكر كونها محفوفة بها بالنار تنفيراً عنها . ثم بعد تسهيل المكاره التي يشتمل عليها الطاعات بذكر الجنة ، وتحقير الشهوات التي يريد الجذب عنها بذكر النار صرّح بأنه لا تأتي طاعة إلّا في كره ولا معصية إلّا في شهوة .

وقد عرفت سرّ ذلك ، وأن النفس للقوة الشهوية أطوع منها للعقل خصوصاً فيما هو أقرب إليها من اللذات المحسوسة التي يلحقها العقاب

عليها . ثم عقب ذلك بدعاء الله أن يرحم امرءاً نزع عن شهوته : أي امتنع من الانهماك فيها وقمع نفسه الأمارة بالسوء فإنها أبعد شيء منزعاً عن الله . ثم فسّر منزعها الذي ينزع إليه وهي المعصية في هواها ، وما تميل إليه . ثم نبّه على حال المؤمن الحق وتهمته نفسه في جميع أوقاته من صباح ومساء ، وأنه لا يزال عائباً عليها ومراقباً لأحوالها ، ومؤاخذاً لها بالزيادة في الأعمال الصالحة ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك . ثم أمرهم أن يكونوا كالسابقين من أكابر الصحابة، والماضين أمامهم إلى الجنة في الإعراض عن الدنيا ، واستعار لفظ التقويض والطي لقطعهم علائق الدنيا ورحيلهم إلى الآخرة كما يقوّض الراحل متاعه للسفر ، ويطوي خيامه للرحيل .

ثم عقب بذكر القرآن وممادحه ترغيباً في الاقتداء به ، واستعار وصف الناصح له، ووجه الاستعارة أن القرآن يرشده الى وجوه المصالح كما أن الناصح كذلك ،ورشح بكونه لا غشّ معه وكذلك كونه هادياً لا يضلّ: أي طريق الله ،وروي لا يضلّ: أي لا يضلّ غيره،وكذلك استعار وصف المحدث له ، ورشّح بكونه لا يكذب ، ووجه الاستعارة اشتماله على الأخبار والقصص الصحيحة ، وفهمه واستفادته عنه كالمحدث الصادق ، وكنّى بمجالسة القرآن عن مجالسة حملته وقرّائه لاستماعه منهم ، وتدبره عنهم فإن فيه من الآيات الباهرة والنواهي الزاجرة ما يزيد بصيرة المستبصر من الهدى ، وينقص من عمى الجهل . ثم نبههم على أنه ليس بعده على أحد فقر : أي ليس بعد نزوله للناس وبيانه الواضح حاجة بالناس إلى بيان حكم في إصلاح معاشهم ومعادهم ، ولا لأحد قبله من غنى ؛ أي قبل نزوله لا غنى عنه للنفوس الجاهلة ، وإذا كان بهذه الصفة أمرهم بأخذ الشفاء عنه لأدوائهم : أي أدواء الجهل ، وأن يستعينوا به على شدتهم وفقرهم إلى أن يستليحوا منه وجوه المصالح الدنيوية والأخروية . ثمّ عدّ أكبر أدواء الجهل وأعاد ذكر كونه شفاء منها :

أولها : الكفر بالله وهو عمى القوة النظرية من قوى النفس عن معرفة صانعها ومبدعها إلى غاية إنكاره أو اتخاذ ثان له أو الحكم عليه بصفات المخلوقين المحدثين .

والثاني : النفاق وهو مستلزم لرذيلة الكذب المقابلة لفضيلة الصدق .

ثم لرذيلة الغدر المقابلة لفضيلة الوفاء ، وقد سبق بيان حال النفس في هاتين الرذيلتين .

الثالث : الغيّ وهو رذيلة التفريط من فضيلة الحكمة .

الرابع : الضلال وهو الانحراف عن فضيلة العدل ، وإلى كونه شفاءاً الإشارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : إن القلوب تصدء كما يصدء الحديد . قيل : يا رسول الله ما جلاؤها ؟ قال : قراءة القرآن وذكر الموت ، وقد علم اشتماله على ذكر الموت في مواضع كثيرة .

ثم أمرهم أن يسألوا الله به ، والمراد أنكم أعدّوا أنفسكم وكمّلوها لاستنزال المطالب من الله . بما اشتمل عليه القرآن من الكمالات النفسانية ، وتوجّهوا إليه بحبه لأن من أحبّه استكمل بما فيه فحسن توجهه إلى الله .

وقوله : ولا تسألوا به خلقه .

أي لا تجعلوا تعلّمكم له لطلب الرزق به من خلق مثلكم فإنه لم ينزل لذلك .

وقوله : إنّه [فإنه خ] ما توجه العباد إلى الله بمثله .

وذلك لاشتماله على جميع الكمالات النفسانية من العلوم ، ومكارم الأخلاق والنهي عن جميع الرذائل الموبقة . ثم استعار لفظي الشافع والمشفّع . ووجه الاستعارة كون تدبّره، والعمل بما فيه ماحياً لما يعرض للنفس من الهيئات الرديئة من المعاصي ، وذلك مستلزم لمحو غضب الله كما يمحو الشفيع المشفّع أثر الذنب عن قلب المشفوع إليه ، وذلك سرّ الخبر المرفوع ما من شفيع من ملك ولا نبيّ ولا غيرهما أفضل من القرآن ، وكذلك لفظ القائل المصدّق ، ووجه الاستعارة كونه ذا ألفاظ إذا نطق بها لا يمكن تكذيبها كالقائل الصادق .

ثم أعاد معنى كونه شافعاً مشفعاً يوم القيامة . ثم استعار لفظ المحل للقرآن ، ووجه الاستعارة أن لسان حال القرآن شاهد في علم الله وحضرة ربوبيته على من أعرض عنه بعدم اتباعه ومخالفته لما اشتمل عليه ، وتلك شهادة لا يجوز عليها الكذب فبالواجب أن يصدق فأشبه الساعي إلى السلطان

في حق غيره بما يضرّه .

وقوله : فإنّه لا ينادي مناد يوم القيامة . إلى آخره .

فالمنادي هو لسان حال الأعمال ، والحرث كل عمل تطلب به غاية وتستخرج منه ثمرة ، والابتلاء هيهنا ما يلحق النفس على الأعمال وعواقبها من العذاب بقدر الخروج فيها عن طاعة الله ، وظاهر أن حرث القرآن، والبحث عن مقاصده لغاية الاستكمال به بريء من لواحق العقوبات . ثم حثّهم على أن يكونوا من حرثته وأتباعه ، وأن يستدلّوه : أي يتّخذوه دليلاً قائداً إلى ربهم ، وأن يستنصحوه على أنفسهم : أي يتّخذوه ناصحاً على نفوسهم الأمارة بالسوء لكونها هي الغاشية لهم يقودها إلى معصية الله ، وكون القرآن زاجراً لهم عما تأمرهم به تلك النفوس فيجب أن تقبل نصيحته عليها ، وكذلك اتّهموا عليه آرائكم : أي إذا رأيتم رأياً يخالف القرآن فاتّهموا ذلك الرأي فإنه صادر عن النفس الأمارة بالسوء .

وكذلك قوله : واستغشّوا فيه أهوائكم ، وإنّما قال هنا : استغشّوا ، وقال في الآراء : اتّهموا لأن الهوى هو ميل النفس الأمارة من غير مراجعة العقل فإذا حكمت النفس عن متابعتها بحكم فهو غشّ صراح ، وأما الرأي فقد يكون بمراجعة العقل وحكمه ، وقد يكون بدونه فجاز أن يكون حقاً ، وجاز أن يكون باطلاً فكان بالتهمة أولى . ثم أمر بلزوم العمل الصالح . ثم بحفظ النهاية المطلوبة منهم بالعمل والوصول إليها منه : أي راعوا عاقبتكم ونهاية أعمالكم وغايتها فإن الأمور بخواتيمها . ثم أمر بالاستقامة : أي على العمل . ثم بالصبر عليه ، وحقيقته مقاومة الهوى لئلا ينقاد إلى قبائح اللذات فيخرج عن الصراط . ثم بالورع ، وهو لزوم الأعمال الجميلة ، وإنما عطف النهاية والصبر بثمّ لتأخر نهاية العمل عنه ، وكون الصبر أمراً عدمياً فهو في معنى المتراخي والمنفك عن العمل الذي هو معنى وجودي بخلاف الاستقامة على العمل فإنها كيفية له ، والورع فإنّه جزء منه ، وكرر تلك الألفاظ للتأكيد ، والنصب في جميعها على الإغراء .

ثم أشار إلى أن تلك النهاية هي النهاية التي لهم وأمرهم بالانتهاء إليها ، وهي الأمر الذي خلقوا لأجله أعني الوصول إلى الله طاهرين عن

رجس الشيطان ، وهو لفظ الخبر النبوي أيها الناس إنّ لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإنّ لكم غاية فانتهوا إلى غايتكم فإن المراد بالغاية والنهاية واحد ، والمراد بالمعالم حظائر القدس ومنازل الملائكة ، وكذلك إن لكم علماً فاهتدوا بعلمكم : أي إلى تلك النهاية . واستعار لفظ العلم لنفسه . ثم أخبر أن للإسلام غاية وأمرهم بالانتهاء إليها ، وتلك الغاية هي النهاية المشار إليها .

وقوله : وأخرجوا إلى الله . إلى قوله : وظائفه .

فالتقدير أخرجوا من حقه فيما افترض عليكم ، وحقّه في فرائضه ووظائفه الإخلاص بها لوجهه . ثم رغّبهم في طاعته واتباع أوامره بكونه شاهداً لهم يوم القيامة ومحتجّاً . قال بعض الشارحين : وإنّما ذكر الاحتجاج وإن كان ذلك الموقف ليس موقف محاجة لأنه إذا شهد لهم فكأنه أثبت الحجّة لهم فأشبه المحاجّ ، وأقول : لما كان إمام كلٍ قوم هو المخاطب عنهم والشهيد لهم كما قال تعالى : ﴿ **يوم ندعوا كل أناس بإمامهم** ﴾(1) وقوله : ﴿ **ونزعنا من كل أمّة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم** ﴾(2) وكان ذلك الموقف هو موقف السؤال والجواب كان ذلك معنى المحاجّة والمجادلة . فالخلوص من الأسئلة بأجوبتها يشبه غلب المسؤول بالحجة وهو البرهان المطلوب ، وجرت العادة بأن البرهان يكون عند المحاجة ، وكذلك الانقطاع عن الجواب يشبه كون المسؤول محجوجاً ، وهذا الاحتجاج والشهادة مقاليّة عند القائلين بحشر الأجساد ، وحالية عند غيرهم . ثم أخبر أن القدر السابق في علم الله قد وقع ، والقضاء الماضي : أي النافذ قد تورّد : أي دخل في الوجود شيئاً فشيئاً ، وقد علمت فيما سلف أن القضاء هو العلم الإلهي بما يكون وما هو كائن ، وأن القدر تفصيله الواقع على وفقه لكنه أشار بوقوع القدر هنا إلى وقع خاص وهو خلافته وما يلزمها من الفتن والوقائع .

وروي أن هذه الخطبة من أوائل الخطب التي خطب بها أيام بويع بعد قتل عثمان. قال بعض الشارحين : وفي هذا الكلام إشارة إلى أن

---

(1) ١٧ - ٧٣ .

(2) ٢٨ - ٧٥ .

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أخبره أن الأمر سيصل إليه في آخر وقته ، وأقول : لا شك أن وقوع هذا الأمر من القدر السابق على وفق القضاء ، وليس للفظ إشعار بما قال هذا الفاضل . إذ كان عليه السلام عالماً بأن كل واقع في الوجود فبقضاءمن الله وقدر .

وقوله : وإنّي متكلم بعدة الله وحجته .

أي لما وقع هذا الأمر إليّ فإنّي أتكلم بكذا ، وعدة الله ما وعد به عباده الذين اعترفوا بربوبيّته واستقاموا على سلوك سبيله بطاعته من تنزّل الملائكة عليهم بذهاب الخوف والحزن والبشارة بالجنة ، وأما حجته التي تكلم بها فقوله : وقد قلتم ربنا الله : أي اعترفتم بربوبيّته فاستقيموا على كتابه وعلى منهاج أمره وعلى الطريقة الصالحة من عبادته : أي التي هي عن علم والخالصة من الرياء والنفاق من غير أن يمرقوا منها : أي يخرجوا فيها بالتحذلق والتشدد إلى طرف الإفراط الذي هو ثمرة الجهل ، ولا تحدثوا فيها بدعة ولا تخالفوا عنها وتحيدوا يميناً وشمالاً فتقعوا في مهاوي الهلاك فإنكم متى فعلتم ذلك فقد تمّ شرط استحقاقكم لإنجاز عدته المذكورة فإن ذلك الشرط مركب من الاعتراف بربوبيته ، والاستقامة على الأمور المذكورة فحينئذ يجب أن تفاض تلك العدة ، ومع فوات جزء من ذلك الشرط لا يقع المشروط فلم يتحقق الموعود به ، وذلك معنى كون أهل المروق منقطعاً بهم : أي لا يجدون بلاغاً يوصلهم إلى المقصد لأن الشرط هو البلاغ إلى المقصد الحقيقي .

ثم شرع في النهي عن النفاق لأن تهزيع الأخلاق تغييرها ونقلها من حال إلى حال، وهو معنى تصريفها ، وذلك هو النفاق . إذ المنافق لا يلزم خلقاً واحداً بل تارة يكون صادقاً ، وتارة كاذباً ، وتارة وفياً ، وأخرى غادراً ، ومع الظالمين ظالم ، ومع أهل العدل عادل ، ولذلك قال : واجعلوا اللسان واحداً ، وهو شروع في الوصية بحال اللسان وعد له : أي لا يكوننّ أحدكم ذا لسانين وهو المنافق . ثم أمر بخزنه واستلزم النهي عن أمور ، وهي الفضل من القول ووضعه في غير مواضعه والغيبة والنميمة والسعاية والمسابة والقذف ونحوه ، وكلّها رذائل في طرف الإفراط من فضيلة العدل .

وقوله : فإن اللسان جموح بصاحبه .

تعليل لذلك النهي ، وإشارة إلى خروجه بصاحبه عن فضيلة العدل إلى الرذائل التي هي موارد الهلكة في الآخرة والدنيا . كما أن الفرس الجموح مخرج بصاحبه إلى الهلاك ، ولفظ الجموح مستعار له بهذا الاعتبار . ثم أقسم أنه لا متقى ينفعه تقواه إلّا بخزن لسانه ، وهو حق لأن التقوى النافع هو تقوى التام ، وخزن اللسان وكفّه عن الرذائل المذكورة جزء عظيم من التقوى لا يتم بدونه فهي إذن لا تنفع إلّا به . ثم نبّه على ما ينبغي عند إرادة القول من التثبت والتأمل ما يراد النطق به وعلى ما لا ينبغي من القول بغير مراجعة الفكر، وقرن الأول بالإيمان ترغيباً فيه . والثاني : بالنفاق تنفيراً عنه .

وقوله : لأن المؤمن . إلى قوله : وماذا عليه .

بيان لمعنى كون اللسان وراءً وأماماً، وتلخيص هذا البيان أن الوراء في الموضعين كناية عن التبعيّة لأن لسان المؤمن تابع لقلبه فلا ينطق إلّا بعد تقديم الفكر فيما ينبغي أن يقوله ، وقلب المنافق وذكره متأخر عن نطقه فكان لفظ الوراء. استعارة من المعنى المحسوس للمعقول فأما الخبر النبوي المذكور فهو استشهاد على أن الإيمان لا يتمّ إلّا باستقامة اللسان على الحق وخزنه عن الرذائل التي عددناها وذلك عين ما ادّعاه في قوله : إن التقوى لا تنفع العبد حتى يخزن لسانه .

فأما برهان الخبر فهو أن استقامة القلب عبارة عن التصديق بالله ورسوله واعتقاد حقيّة ما وردت به الشريعة من المأمورات والمنهيّات ، وذلك عين الإيمان وحقيقته فإذن لا يستقيم الإيمان حتى يستقيم القلب ، وأما أنه لا يستقيم القلب حتى يستقيم اللسان فلأن استقامة اللسان على الإقرار بالشهادتين ولوازمها وعلى الإمساك عما لا ينبغي من الأمور المعدودة من لوازم استقامة القلب لحكمنا على غير المقرّ بتلك الأمور والقائل بها بعدم الإيمان الكامل ، ولا يستقيم أمر من دون لازمه .

وقوله : فمن استطاع . إلى قوله : فليفعل .

أمـر بالإجتهـاد في لقاء الله تعـالى على أحوال ، وهي نقـاء الراحـة من دمـاء المسلمين وأراد السلامـة من قتل النفس ، وأمـوالهم وأراد السـلامـة من الظلم ، وأن يكون الإنسان سليم اللسان من أعراضهم وأراد الكفّ عن الغيبة والسبّ ، وشرط ذلك بـالاستطاعـة لعسره وشـدته وإن كـان واجب الترك على كل حال ، وأشدّها الكفّ عن الغيبة فإنّه يكاد أن لا يستطاع ، وإلى نحو هـذا إشارة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المسلم من سلم المسلمون من يـده ولسانـه . فسلامتهم من يده سلامـة دمائهم وأمـوالهم ، وسلامتهم من لسـانه سـلامة أعـراضهم ، وأعمّ من ذلك قال بعض الحكمـاء : من علم أن لسانـه جارحـة من جوارحـه أقلّ من إعمالها واستقبح إدامة تحريكها كما يستقبـح أن يحرّك رأسـه أو منكبه دائماً .

وقوله : واعلموا . إلى قوله : حرّم عليكم .

قـال بعض الشارحين : هـو إشـارة إلى أن مـا ثبت من طـريق النص أو العادة التي شهد بها النص في زمان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لا يجوز أن ينقض بالقياس والاجتهـاد بل كـل ما ورد بـه النص فيتبع فيـه مورد النص . فمـا كان حـلالاً بمقتضى النص وعمومه العـام الماضي فهـو في هذا العـام حلال ، وكـذا في الحـرام ، وعمـوم هـذا الكـلام يقتضي عـدم جـواز نسـخ النص وتخصيصـه بالقياس وهـو مذهب الإمـامية لاعتقـادهم بطلان القـول بالقيـاس المتعارف ، ومـذهب جماعـة من الأصوليين مـع اعتـرافهم بصحـة القيـاس ، ومن يجـوز تخصيصه به يحمـل هذا الكـلام على عدم قبـول القياس في نسـخ النص من كتاب أو سنّة ، وما أحدثه الناس إشارة إلى القياس .

وقوله : ولكن الحلال ما أحلّ الله والحرام ما حرّم الله .

تأكيد لاتباع النص وما كان عليه الصحابة من الدين مما هو معلوم بينهم دون ما أحدث من الآراء والمذاهب .

وقوله : وقد جرّبتم الأمور وضرّستموها . إلى قوله : الأمر الواضح .

إشارة إلى وجوه العلم ومأخذه ، ووجه اتصاله بما قبله أنهم إذا كانوا قد أحكمـوا الأمور تجـربة ، ووعـظوا بمن كان قبلهم ، وضـربت لهـم الأمثـال

ودعوا إلى الأمر الواضح وهو الدين وطريقه فلا بدّ أن تكون نفوسهم قد استعدت بذلك لعلم الأحكام الشرعية ومقاصدها من الكتاب والسنّة وعادات الرسول والصحابة ، ولا يخفى عليهم ما ابتدع بعدها ، وأن كل بدعة حرام فضلاً أن ترفع حكم نص أو سنّة سبق العلم بها ، ولا يصمّ عن هذه المواعظ والأمثال والدعوة إلى الدين إلّا أصمّ . أي من هو شديد الصمم كما يقال : ما يجهل بهذا الأمر إلّا جاهل : أي أشد الناس جهلاً ، وكذلك لا يعمى عنه : أي لا يعمى عنه بصيرة إلّا بصيرة اشتد عماها .

وقوله : من لم ينفعه . إلى قوله : من أمامه .

كلامٌ حقّ ، وذلك أن الإنسان في مبدأ الفطرة خالٍ عن العلوم ، وإنّما خلقت له هذه الآلات البدنية ليتصفح بها صور المحسوسات، ومعانيها ويتنبّه لمشاركات بينها ومباينات فيحصل له التجربة وسائر العلوم الضرورية، والمكتسبة فمن لم ينتفع بالبلاء : أي بامتحان الأمور وتجاريبها .

وهو إشارة إلى اعتبار الأمور والتفكّر فيها والابتلاء بها كالوقوع في المكاره ومعاناة الأعمال ولم يستفد منها علماً فظاهر أنه لا ينفعه العظة لأن العظة فرع تصفّح الأمور واعتبار آيات الله منها ، ومحال أن يحصل فرع من دون أصله وحينئذ يأتيه النقص في كمال نفسه ووجوه مصالحه ، ويحتمل أن لا يريد بالعظة الاتعاظ بل الموعظة ، وظاهر أن الموعظة أيضاً لا ينفعه لأن البلاء بالمكاره والوقائع النازلة أقوى فعلاً في النفس وأكثر تأثيراً فإذا لم ينتفع بها ولم يستفد منها علماً فبالأولى أن لا ينتفع بالموعظة .

وقوله : من أمامه .

لأن الكمالات التي يتوجه إليها بوجه عقله تفوته لنقصان تجربته ووقوف عقله عنها فأشبه فوتها له مع طلبه لها إتيان النقصان له من أمامه .

وقوله : حتى يعرف ما أنكر وينكر ما عرف .

إشارة إلى غاية نقصانه ، وهي الاختلاط والحكم على غير بصيرة فتارة يتخيّل فيما أنكره وجهله أنه عارف بحقيقته ، وتارة ينكر ما كان يعرفه ويحكم بصحته لخيال يطرء عليه . ثم قسّم لهم الناس إلى قسمين :

فقسم متبع شرعة : أي طريقة ومنهاجاً وهو منهاج الدين ، وقسم مبتدع بدعة بغير برهان سنّة من الله يعتمد عليه ، ولا ضياء حجة يقوده في ظلمات الجهل ليلحقوا بأفضل القسمين .

وقوله : إن الله سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن .

رجوع إلى ممادح القرآن ، واستعار له ألفاظاً :

الأول : لفظ الحبل ، ورشّح بالمتين ، وقد عرفت وجه هذه الاستعارة مراراً .

الثاني : وكذلك سببه الأمين .

الثالث : لفظ الربيع ، ووجهها أن القلوب تحيا به كما تحيا الأنعام بالربيع .

الرابع : لفظ الينابيع ، ووجهها أن العلوم عند تدبره والتفهم عنه تغيض عنه وينتفع بها كما يغيض الماء عن الينابيع .

الخامس : لفظ الجلاء ، ووجهها أن الفهم عنه يكشف عن القلوب صداء الجهل كما يجلو الصيقل المرآة .

فإن قلت : فلم قال : وليس للقلب جلاء غيره مع أن سائر العلوم جلاء له ؟ .

فالجواب من وجهين :

أحدهما : أن العلوم الجالية للقلب هي المعدة لسلوك سبيل الله والوصول إلى الغاية من الكمال النفساني كالعلوم الإلهية ، وعلم الأخلاق وأحوال المعاد ، ولا علم منها إلاّ وفي القرآن أصله ومادته وهو مقتبس من القرآن .

الثاني : أن هذا الكلام صدر عنه عليه السلام ولم يكن في ذلك الزمان علم مدوّن ولا استفادة للمسلمين إلاّ من القرآن الكريم فلم يكن إذن جلاء للقلب غيره .

وقوله : مع أنه قد ذهب المتذكّرون : أي المتدبرون لمقاصد القرآن ، وبقي الناسون له والمتناسون المتعمدون للتشاغل والنسيان للجواذب إلى الله ، وهو في معنى التوبيخ لهم . ثم أمرهم بإعانة من يعمل الخير على فعله ، ووجوه الإعانة كثيرة . ثم بالإعراض عن الشر وإنكاره عند رؤيته واستشهد على وجوب امتثال أمره بالخبر النبوي ، وقد نبّه الخبر على وجوب عمل الخير والانتهاء عن الشر باستلزام ذلك لكون فاعله جواداً قاصداً ، واستعار وصفي الجواد القاصد ، ووجه المشابهة أن العامل للخير المنتهي عن الشر مستقيم على طريق الله فلا تعريج في طريقه ولا اعوجاج فيكون سيره في سلوك سبيل الله أسرع سير كالجواد من الخيل المستقيم على الطريق . ثم قسّم عليه السلام الظلم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الظلم الذي لا يغفر أصلاً . وهو ظلم النفس بالشرك بالله ، وبرهانه النص والمعقول : أما النص فقوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به** ﴾ وأما المعقول فلأن المغفرة عبارة إما عن محو آثار الجرائم عن ألواح النفوس أو عما يلزم ذلك من ستر الله على النفوس أن تحترق بنار جهنّم ، والهيئات البدنية التي حجبت نفوس المشركين عن معرفة الله هيئات متمكنة من تلك النفوس قد صارت ملكات لا يمكن زوالها مع عدم مسكتهم بالمعارف الإلهية فهم في العذاب ماكثون ، وفي سلاسل تلك الهيئات وأغلالها مكبّلون فإذن لا تتحقق المغفرة في حقهم لعدم مخلصهم منها وجاذبهم عنها وهي عصمة المعرفة .

الثاني : ظلم لا يترك : أي لا بد من أخذ فاعله بالعقوبة والقصاص به ، وهو ظلم العباد بعضهم لبعض ، وإليه الإشارة بقوله : يوم يقتصّ للجماء من القرناء ، وهذا الظالم إن كانت له مسكة ببعض عصم النجاة من المعارف الإلهية وجب خلاصه من العذاب بعد حين لكن يتفاوت مكثه بحسب تفاوت شدة تمكن تلك الهيئات الرديئة من نفسه وضعفها ، وإليه أشار الخبر النبوي يخرجون من النار بعدما يصيرون حمماً وفحماً .

والثالث : الظلم الذي يغفر ولا يطلب وهو ظلم العبد نفسه عند ارتكابه بعض صغائر الزلّات ، وهي التي لا تكسب النفس هيئة رديئة باقية بل حالة

يسرع زوالها ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم** ﴾[1] أي في حال كونهم ظالمين . ثم أخذ في التحذير من الظلم بذكر شدة القصاص في الآخرة ، وصدق أنه ليس جرحاً بمدية ولا ضرباً بسوط كقصاص الدنيا ، ولكنه ما يستصغر ذلك معه من العقوبات بالنار المشهورة أوصافها .

وروي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان جالساً في أصحابه فسمع هدّة . فقال : هذا حجر أرسله الله تعالى من شفير جهنم فهو يهوي فيها منذ سبعين خريفاً حتى بلغ الآن قعرها فهذا بعض أوصافها المحسوسة .

واعلم أن لهذا الخبر تماماً ما يكشف سرّه ، وهو أن الراوي قال : فسمعنا بعد ذلك صيحة وصراخاً فقلنا : ما هذا ؟ فقالوا : فلان المنافق مات وكان عمره يومئذ سبعين سنة . قال بعض من تلطّف : إنّ المراد بجهنّم المشار إليها هي الدنيا ومتاعها . وبالحجر هو ذلك المنافق استعارة ، ووجه المشابهة أن ذلك المنافق لم ينتفع بوجوده مدّة حياته ولم تكسب نفسه خيراً فأشبه الحجر في ذلك ، وإرسال الله تعالى له هو إفاضته عليه ما استعدّ له من اتباع هواه فيها والانهماك في شهوتها والتيه عن سبيله المشار إليه بقوله : « **يضل من يشاء** » وشفيرها هو أوّلها بالنسبة إليه وذلك حين استعداده للانهماك فيها ، وأول الأمور القائدة له في طرق الضلال من متاعها ولذاتها ، وهويّه فيها سبعين خريفاً هو انهماكه فيها مدة عمره ، وبلوغه قعرها هو وصوله بموته إلى غاية العذاب بسبب ما اكتسب منها من ملكات السوء كما أومأنا إليه غير مرة .

ثم نهى عن التلوّن في دين الله ، وكنّى به عن منافقة بعضهم لبعض فإن ذلك يستلزم الفرقة ولذلك . قال : فإنّ جماعة فيما تكرهون من الحق خير من فرقة فيما تحبّون من الباطل : أي فإن الاجتماع على الحق المكروه إليكم كالحرب مثلاً خير لكم من الافتراق في الباطل المحبوب عندكم كمتاع الدنيا . ثم تمّم النهي عن الفرقة وقال : فإن الله لم يعط أحداً بفرقة خيراً لا

(١) ١٣ - ٧.

من الماضين ولا من الباقين ، ولما كان الخير في الاجتماع والألفة والمحبة حتى يصير الناس كرجل واحد ويتمّ نظام العالم بذلك كان في الفرقة أضداد ذلك، وكذلك ما روي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه ، وقد سبق بيان فضيلة الاجتماع . ثم أعاد النهي عن الغيبة للناس بذكر معائبهم ونبّه من عساه أن يستحي من نفسه بأن لكل عيباً ينبغي أن يشتغل به ، وطوبى فعلى من الطيب ، والواو منقلبة عن الياء ، وقيل : هي اسم شجرة في الجنّة ، وعلى التقديرين مبتدأ . ثم نبّه على فضل العزلة ولزوم البيت للاشتغال بطاعة الله والبكاء على الخطيئة والندم عليها .

وقوله : وكان من نفسه في شغل . إلى آخر ما ذكره ثمرة العزلة .

واعلم أن الناس قد اختلفوا في أن العزلة أفضل أم المخالطة ؟ ففضّل جماعة من مشاهير الصوفية والعارفين العزلة منهم إبراهيم بن أدهم وسفيان الثوري ، وداوُد الطائي والفضيل بن عياض وسليمان الخواص وبشر الحافي ، وفضّل الآخرين المخالطة ومنهم الشعبي وابن أبي ليلى وهشام بن عروة وابن شبرمة وابن عيينة وابن المبارك ، واحتجّ الأولون بالنقل والعقل : أما النقل فقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعبدالله بن عامر الجهني لما سأله عن طريق النجاة . فقال : ليسعك بيتك وأمسك عليك لسانك وابك على خطيئتك . وقيل له صلى الله عليه وآله وسلم : أي الناس أفضل ؟. فقال : رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شرّه ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : يحبّ التقي النقي الخفي .

وأما العقل فهو أن في العزلة فوائد مطلوبة لله لا توجد في المخالطة فكانت أشرف منها الفراغ لعبادة الله والذكر له والاستئناس بمناجاته والاستكشاف لأسراره في أمور الدنيا والآخرة من ملكوت السماوات والأرض ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتعبّد بجبل حراء ويعتزل به حتى أتته النبوة ، واحتج الآخرون بالقرآن والسنّة : أما القرآن فقوله تعالى : ﴿ **فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً** ﴾(١). وقوله : ﴿ **ولا تكونوا كالذين**

(١) ٣ - ٩٨ .

تفرّقوا واختلفوا ﴾[1] ومعلوم أن العزلة تنفي تألّف القلوب وتوجب تفرّقها .

وأما السنّة فقوله صلى الله عليه وآله وسلم : من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام عن عنقه . وما روي أن رجلاً أتى جبلاً يعبد الله فيه فجاء به أهله إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فنهاه عن ذلك . وقال له : إنّ صبر المسلم في بعض مواطن الجهاد يوماً واحداً خير له من عبادة أربعين سنة ، وأقول : إنّ كلا الاحتجاجين صحيح لكنه ليس أفضليّة العزلة مطلقاً ولا أفضلية المخالطة مطلقاً. بل كل في حق بعض الناس بحسب مصلحته ، وفي بعض الأوقات بحسب ما يشتمل عليه من المصلحة .

واعلم أنه من أراد أن يعرف مقاصد الأنبياء عليهم السلام في أوامرهم وتدبيراتهم فينبغي أن يتعرف طرفاً من قوانين الأطباء . ومقاصدهم من العبارات المطلقة لهم. فإنه كما أن الأطباء هم المعالجون للأبدان بأنواع الأدوية والعلاجات لغاية بقائها على صلاحها أو رجوعها إلى العافية من الأمراض البدنية كذلك الأنبياء عليهم السلام . ومن يقوم مقامهم فإنّهم أطباء النفوس والمبعوثون لعلاجها من الأمراض النفسانية كالجهل وسائر رذائل الأخلاق بأنواع الكلام من الآداب والمواعظ والنواهي والضرب والقتل . وكما أن الطبيب قد يقول الدواء الفلاني نافع من المرض الفلاني ، ولايعني به في كل الأمزجة بل في بعضها كذلك الأنبياء والأولياء إذا أطلقوا القول في شيء أنه نافع كالعزلة مثلاً. فإنهم لا يريدون أنها نافعة لكل إنسان ، وكما أن الطبيب قد يصف لبعض المرضى دواء ويرى شفائه فيه ويرى أن ذلك الدواء بعينه لمريض آخر كالسمّ القاتل ويعالجه بغيره كذلك الأنبياء عليهم السلام . قد يرون أن بعض الأمور دواء لبعض النفوس فيقتصرون عليه ، وقد يرون أن بعض الأوامر علاج لبعض النفوس كالأمر بالعزلة والحثّ عليها لبعض الناس . وقد يرون أن ذلك العلاج بعينه مضرّ لغير تلك النفس فيأمرونها بضد ذلك كالأمر بالمخالطة والمعاشرة ، وأكثر ما يختارون العزلة لمن بلغ رتبة من الكمال في قوتيه النظرية والعملية ، واستغنى عن مخالطة كثير من الناس لأن أكثر الكمالات الإنسانية من العلوم والأخلاق إنما تحصل بالمخالطة خصوصاً إذا

(١) ٣ - ٩٩.

كان ذلك الإنسان أعني المأمور بالعزلة خالياً عن عائلة يحتاج أن يتكسب لهم ، وأكثر ما يختارون المخالطة والاجتماع لتحصّل الألفة والاتحاد بالمحبة ، وللاتحاد غايتان كليتان :

إحديهما : حفظ أصل الدين وتقويته بالجهاد .

والثانية : تحصيل الكمالات التي بها نظام أمر الدارين لأن أكثر العلوم والأخلاق يستفاد من العشرة والمخالطة كما بيّناه . وبالله التوفيق .

١٧٦ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

في معنى الحكمين :

فَأَجْمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَى أَنِ آخْتَارُوا رَجُلَيْنِ . فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجَعْجِعَا عِنْدَ الْقُرْآنِ ، وَلاَ يُجَاوِزَاهُ ، وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُمَا مَعَهُ ، وَقُلُوبُهُمَا تَبَعَهُ ، فَتَاهَا عَنْهُ ، وَتَرَكَا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا ، وَالإِعْوِجَاجُ رَأْيَهُمَا ، وَقَدْ سَبَقَ آسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا ، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا ! وَالثِّقَةُ فِي أَيْدِينَا لأَنْفُسِنَا ، حِينَ خَالَفَا سَبِيلَ الْحَقِّ ، وَأَتَيَا بِمَا لاَ يُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الْحُكْمِ .

أقول : هذا الفصل من خطبة خطبها بعدما بلغه أمر الحكمين . والإجماع : تصميم العزم . ويجعجعا : يحبسا نفسهما على القرآن ، والخطاب لمن أنكر عليه رضاه بالتحكيم بعد الرضا به ، وقد حكى فيه إجماع رأي جماعتهم على اختيار الرجلين وهما أبو موسى الأشعري ، وعمرو ابن العاص وأخذه عليهما أن يحبسا نفسهما على العمل بالقرآن ولا يجاوزاه ، وتكون ألسنتهما وقلوبهما معه ، وأطلق لفظ القلوب على الميول الإرادية مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبب كقوله تعالى : ﴿ **فقد صغت قلوبكما** ﴾ وذلك هو شرط رضاه عليه السلام بالتحكيم . ثم حكى خروجهما عما اشترط عليهما وتيههما عن الكتاب وتركهما للحق مع إبصارهما له ، وخروجهما عن فضيلة العدل بحسب الهوى إلى رذيلة الجور والاعوجاج عن طريقة الحق .

وقوله : وقد سبق استثناؤنا.

إعادة لذكر سبق الشرط في الحكم بالعدل ، وسوء رأيهما منصوب لأنه مفعول سبق .

وقوله : والثقة في أيدينا لأنفسنا .

أي إنّا على برهان وثقة من أمرنا ، وليس بلازم لنا حكمهما لأنهما خالفا الشرط وأتيا بما لا يعرف من الحكم المعكوس ، وقد حكينا فيما سبق طرفاً من حال التحكيم وخداع عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري . وبالله التوفيق .

١٧٧ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ ، وَلَا يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ ، وَلَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ ، وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ ، وَلَا نُجُومِ السَّمَاءِ ، وَلَا سَوَافِي الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ ، وَلَا دَبِيبُ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا ، وَلَا مَقِيلُ الذَّرِّ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ . يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْأَوْرَاقِ ، وَخَفِيَّ طَرْفِ الْأَحْدَاقِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ غَيْرَ مَعْدُولٍ بِهِ وَلَا مَشْكُوكٍ فِيهِ ، وَلَا مَكْفُورٍ دِينُهُ ، وَلَا مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ شَهَادَةَ مَنْ صَدَقَتْ نِيَّتُهُ ، وَصَفَتْ دِخْلَتُهُ ، وَخَلَصَ يَقِينُهُ ، وَثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُجْتَبَى مِنْ خَلَائِقِهِ ، وَالْمُعْتَامُ لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ وَالْمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ كَرَامَاتِهِ ، وَالْمُصْطَفَى لِكَرَائِمِ رِسَالَاتِهِ ، وَالْمُوَضَّحَةُ بِهِ أَشْرَاطُ الْهُدَى ، وَالْمَجْلُوُّ بِهِ غِرْبِيبُ الْعَمَى .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ الدُّنْيَا تَغُرُّ الْمُؤَمِّلَ لَهَا ، وَالْمُخْلِدَ إِلَيْهَا ، وَلَا تَنْفَسُ بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا ، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا . وَأَيْمُ اللهِ مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضِّ نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلَّا بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا ؛ لِأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ . وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ ـ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ وَتَزُولُ عَنْهُمُ النِّعَمُ ـ فَزِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ وَوَلَهٍ مِنْ قُلُوبِهِمْ ؛ لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ ، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ . وَإِنِّي لَأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فَتْرَةٍ ، وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ

مِلْتُمْ فِيهَا مَيْلَةً كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ ، وَلَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسُعَدَاءُ وَمَا عَلَيَّ إِلاَّ الْجُهْدُ! وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ ، عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ .

أقول : هذه الخطبة خطب بها بعد مقتل عثمان في أول خلافته .

والدخلة بالكسر والضم : باطن الشيء . والمعتام : المختار . وعقائل الشيء : نفائسه . وأشراط الهدى : علاماته . والغربيب : الأسود . والمخلد إليها : المسلّم إليها أموره . ولا تنفس : لا تضنّ ولا تبخل . وغضّ النعمة : طريفها .

وصدر الخطبة بالإشارة إلى اعتبارات توحيدية :

الأول : أنه لا يشغله شأن عن شأن ، وذلك لأن الشغل عن الشيء ، إما لقصور القدرة أو العلم ، وقدرته تعالى وعلمه المحيطان بكل مقدور ومعلوم فإذن لا يشغله مقدور عن مقدور، ولا معلوم عن معلوم ، وتقرير هاتين المسألتين في الكتب الكلامية والحكمية .

الثاني : لا يغيّره زمان ، وإذ ثبت أنه تعالى خالق الزمان ، ولا زمان يلحقه . فلا تغيّر يلحقه ، ولأنه واجب الوجود ، ولا شيء من المتغيّر في ذاته أو صفاته بواجب الوجود . فلا شيء منه يلحقه التغيّر .

الثالث : ولا يحويه مكان لبراءته عن الجسمية ولواحقها ، وكلما كان كذلك فهو بريء عن المكان ولواحقه فينتج أنه بريء من المكان ولواحقه .

الرابع : ولا يصفه لسان : أي لا يعبّر اللسان عن حقيقة وصفه ، وبيان ما هو ذلك أنه تعالى منزّه عن ركوب [وجوه خ] التراكيب فمحال أن تقع العقول على حقيقة وصفه فكيف باللسان الذي هو المعبّر عنها .

الخامس : ولا يعزب عنه عدد قطر الماء . إلى قوله : الأحداق ، وهو إشارة إلى إحاطة علمه المقدس بكلّيات الأمور وجزئياتها ، وهذه مسألة عظيمة حارت العقول ، وقد أشرنا إليها في المختصر الموسوم بالقواعد الإلهية . ثم عقّب هذا التنزيه بالشهادة بكلمة التوحيد ، وذكر لله تعالى أحوالاً شهد بوحدانيّته عليها :

الأول : كونه غير معدول به : أي لا عديل له ولا مثل .

الثاني : ولا مشكوك فيه : أي في وجوده فإنّ ذلك ينافي الشهادة بوحدانيته .

الثالث : ولا مكفور دينه لأن الجحود لدينه يستلزم النقصان في معرفته فكان الاعتراف به كمالاً لمعرفته وللشهادة بوحدانيته .

الرابع : ولا مجحود تكوينه : أي إيجاده للموجودات وكونه ربّاً لها . ثم عقب وصف المشهود له حال تلك الشهادة بأوصاف الشاهد بها باعتبار شهادته : وهي كونه صادق النية في تلك الشهادة : أي باعتقاد جازم ، وصافي الدخلة : أي نقي الباطن من الرياء والنفاق ، وخالص اليقين بوجود المشهود أو كمال وحدانيته من الشكوك والشبهات فيه ، وثقيل الموازين بكمال تلك الشهادة والقيام بحقوقها من سائر الأعمال الصالحات ، وأردفها بأختها وذكر للمشهود بحقيّة رسالته أوصافاً :

أحدها : كونه مجتبى من الخلائق ومصطفى منهم ، وذلك يعود إلى إكرامه بإعداد نفسه لقبول أنوار النبوة .

الثاني : والمعتام لشرح حقائقه : أي لإيضاح ما خفي من الحقائق الإلهية والشرعية التي بيّنها .

الثالث : المختص بنفائس كرامته ، وهي الكمالات النفسانية من العلوم ومكارم الأخلاق التي اقتدر معها على تكميل الناقصين .

الرابع : والمصطفى لكرائم رسالاته : أي لرسالاته الكريمة . وتعديدها باعتبار تعداد نزول الأوامر عليه فإن كل أمر أُمر بتبليغه إلى الخلق رسالة كريمة .

الخامس : الموضحة به أعلام الهدى ، وهي قوانين الشريعة ودلالات الكتاب والسنّة .

السادس : والمجلوّ به غربيب العمى ، واستعار لفظ الغربيب لشدة ظلمة الجهل ، ولفظ الجلاء لزوال تلك الظلم بأنوار النبوة . ثم أيّه بالناس

منبهاً لهم على مقابح الدنيا ومذامها . منها : تغرّ المؤمل لها والراكن إليها . وذلك أن المؤمّل لبعض مطالبها لا يزال يتجدد له أمارات خيالية على مطالب وهمية وأنها ممكنة التحصيل نافعة فتوجب له مدّ الأمل ، وقد يخترم دون بلوغها ، وقد ينكشف بطلان تلك الأمارات بعد العناء الطويل ، ومنها : أنها لا تنفس على من نافس فيها وأحبها بل تسمح به للمهالك ، وترميه بغرائب من النوائب ، ومنها : أنها تغلب على من غلب عليها : أي من ملكها وأخذها بالغلبة فعن قريب تقهره وتهلكه ، والأوصاف المذكورة التي من شأنها أن تكون للعدو القوي الداهي ، وهي كونها تغرّ المؤمل لها وتغلب مغالبها ولا تبقى على محبّها مستعارة ، ووجه المشابهة استلزام الكون فيها والاغترار بها ومحبتها والتملّك لها الهلاك فيها وفي الآخرة كاستلزام الغرور بالعدو الداهي الذي لا يحب أحداً والركون إليه الهلاك .

ثم أخذ عليه السلام في التنبيه على وجوب شكر المنعم واستدراكها بالفزع إلى الله ، وأقسم أن زوالها عنهم ليس إلّا بذنوب اجترحوها ، وذلك إشارة إلى أن الذنوب تعدّ لزوال النعم وحلول النقم لأنهم لو استحقّوا إفاضة النعم مع الذنوب لكان منعهم إيّاها منعاً للمستحق المستعد ، وذلك عين الظلم وهو من الجود الإلهي محال كما قال تعالى : ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾[1] وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم** ﴾[2] أي يستعدوا للتغيّر بالمعاصي .

وقوله : ولو أن الناس . إلى قوله : كل فاسد .

إشارة إلى أن الفزع إلى الله بصدق النية ووله القلب وتحيّره وذهوله عن كل شيء سوى الله يعدّ الإعداد التام لإفاضة المطالب سواء كانت عود نعمة أو استحداثها أو زوال نقمة أو استنزالها على عدو . وردّ الشارد : أي من النعم ، وإصلاح الفاسد : أي من سائر الأحوال .

وقوله : وإنّي لأخشى عليكم أن تكونوا في فترة .

(١) ٤١ - ٤٦ .
(٢) ١٣ - ١٢ .

كنّى بالفترة عن أمر الجاهلية كناية بالمجاز إطلاقاً لاسم الظرف على المظروف : أي أخشى أن يكون أحوالهم [لكم خ] أحوال الجاهلية في التعصّبات الباطلة بحسب الأهواء المختلفة .

وقوله : وقد كانت أمور . إلى قوله : محمودين .

قالت الإمامية : تلك الأُمور التي مالوا فيها هي تقديمهم عليه من سبق من الأئمة ، وقال غيرهم : هي حركاتهم وميلهم عليه في تقديم عثمان وقت الشورى ، واختيارهم له وما جرى فيها من الأقوال والأفعال .

وقوله : ولئن ردّ عليكم أمركم .

أي صلاح أحوالكم واستقامة سيرتكم التي كنتم عليها في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إنّكم لسعداء عند الله وفي الدنيا . وما عليّ إلاّ الجهد : أي في عود ذلك الأمر عليكم .

وقوله : ولو أشاء أن أقول لقلت .

يفهم منه أنه لو قال لكان مقتضى قوله نسبة من تقدم عليه إلى الظلم له وتخطئهم في التقدم عليه ، وذكر معائب يقتضي وجوب تأخرهم في نظره . وتقدير الكلام : ولكني لا أقول فلم أكن مريداً للقول .

وقوله : عفا الله عمّا سلف .

إشارة إلى مسامحته لهم بما سبق منهم . إذ العادة جارية بأن يقول الإنسان مثل ذلك فيما تسامح به غيره من الذنوب ، وأحسن العبارات في ذلك لفظ القرآن الكريم فيقتبس في الكلام . وبالله التوفيق .

١٧٨ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

وقد سأله ذعلب اليماني فقال : هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين ؟ فقال عليه السلام : أفأعبد ما لا أرى؟ فقال: وكيف تراه؟ فقال:

لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ ، وَلٰكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرُ مُلَامِسٍ ، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرُ مُبَائِنٍ ، مُتَكَلِّمٌ لَا بِرَوِيَّةٍ ،

مُرِيدٌ لَا بِهِمَّةٍ ، صَانِعٌ لَا بِجَارِحَةٍ ، لَطِيفٌ لَا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ ، كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ ، بَصِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْحَاسَّةِ ، رَحِيمٌ لَا يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ . تَعْنُو الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ ، وَتَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ .

أقول : تعنو : تخضع . وتجب القلوب : تخفق .

والفصل فصل شريف من التوحيد والتنزيه .

فقوله : أفأعبد ما لا أرى ؟

استفهام على سبيل الإنكار لعبادة ما لا يدرك ، وفيه إزراء على السائل .

وقوله : لا تدركه العيون . إلى آخره .

تنزيه له عن الرؤية بحاسة البصر وشرح لكيفية الرؤية الممكنة ، ولما كان تعالى منزّهاً عن الجسمية ولواحقها من الجهة وتوجيه البصر إليه وإدراكه به . وإنما يرى ويدرك بحسب ما يمكن لبصيرة العقل لا جرم نزهه عن تلك وأثبت له هذه . فقال : لا تدركه العيون . إلى قوله : بحقائق الإيمان . وأراد بحقائق الإيمان أركانه . وهي التصديق بوجود الله ووحدانيّته وسائر صفاته واعتبارات أسمائه الحسنى ، وعدّ من جملتها اعتبارات يدركه بها :

أحدها : كونه قريباً من الأشياء ولما كان المفهوم من القرب المطلق الملامسة والالتصاق وهما من عوارض الجسميّة نزّه قربه تعالى عنها . فقال : غير ملامس فأخرجت هذه القرينة ذلك اللفظ عن حقيقته إلى مجازه وهو اتصاله بالأشياء وقربه منها بعلمه المحيط وقدرته التامة .

الثاني : كونه بعيداً منها ، ولما كان البعد يستلزم المباينة وهي أيضاً من لواحق الجسمية نزّهه عنها بقوله : غير مبائن . وقد سبق بيان ذلك مراراً فكان بعده عنها إشارة إلى مباينته بذاته الكاملة عن مشابهة شيء منها .

الثالث : وكذلك قوله : متكلّم بلا روية . وكلامه يعود إلى علمه بصور الأوامر والنواهي وسائر أنواع الكلام عند قوم ، وإلى المعنى النفساني عند الأشعري ، وإلى خلقه الكلام في جسم النبي عند المعتزلة .

وقوله : بلا رويّة [لا بروية خ] .

تنزيه له عن كلام الخلق لكونه تابعاً للأفكار والتروّي .

الرابع : وكذلك مريد بلا همّة تنزيه لإرادته عن مثليّة إرادتنا في سبق العزم والهمة لها .

الخامس : صانع بلا جارحة . وهو تنزيه لصنعه عن صنع المخلوقين لكونه بالجارحة التي هي من لواحق الجسمية .

السادس : وكذلك لطيف لا يوصف بالخفاء ، واللطيف يطلق ويراد به رقيق القوام ، ويراد به صغير الحجم المستلزمين للخفاء ، وعديم اللون من الأجسام ، والمحكم من الصنعة . وهو تعالى منزّه عن إطلاقه بأحد هذه المعاني لاستلزام الجسمية والإمكان فبقي إطلاقها عليه باعتبارين :

أحدهما : تصرفه في الذوات والصفات تصرفاً خفيّاً بفعل الأسباب المعدة لها لإفاضة كمالاتها. والثاني : جلالة ذاته وتنزيهها عن قبول الإدراك البصري .

السابع : رحيم لا يوصف بالرقة . تنزيه لرحمته عن رحمة أحدنا لاستلزامها رقّة الطبع والانفعال النفساني ، وقد سبق بيان كونه تعالى رحيماً .

الثامن : كونه عظيماً تخضع الوجوه لعظمته . إذ هو الإله المطلق لكل موجود وممكن فهو العظيم المطلق الذي تفرّد باستحقاق ذلّ الكل وخضوعه له ، ووجيب القلوب واضطرابها من هيبته عند ملاحظة كل منها ما يمكن له من تلك العظمة .

١٧٩ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

في ذم أصحابه :

أَحْمَدُ اللهَ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ ، وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ ، وَعَلَى ٱبْتِلَائِي بِكُمْ أَيَّتُهَا الْفِرْقَةُ الَّتِي إذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِعْ ، وَإذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ ، إنْ أُمْهِلْتُمْ خُضْتُمْ ، وَإنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ ! وَإنِ ٱجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إمَامٍ طَعَنْتُمْ ، وَإنْ

أُجِئْتُمْ إلى مُشَاقَّةٍ نَكَصْتُمْ . لَا أَبَاً لِغَيْرِكُمْ مَا تَنْظُرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبَّكُمْ ، وَالْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ : الْمَوْتَ أَو الذُّلَّ لَكُمْ ! فَوَاللهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِي - وَلَيَأْتِيَنِّي - لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَنَا لَكُمْ قَالٍ ، وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ . للهِ أَنْتُمْ !! أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ ، وَلَا حَمِيَّةٌ تَشْحَذُكُمْ ؟ أَوَ لَيْسَ عَجَباً أَنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاةَ الطَّغَامَ ، فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلَا عَطَاءٍ ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ وَأَنْتُمْ تَرِيكَةُ الإِسْلَامِ ، وَبَقِيَّةُ النَّاسِ إلى الْمَعُونَةِ وَطَائِفَةٍ مِنَ الْعَطَاءِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنِّي ، وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ ؟! إِنَّهُ لَا يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضاً فَتَرْضَوْنَهُ ، وَلَا سُخْطٌ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لَاقٍ إِلَيَّ الْمَوْتُ . قَدْ دَارَسْتُكُمُ الْكِتَابَ ، وَفَاتَحْتُكُمُ الْحِجَاجَ ، وَعَرَّفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ ، وَسَوَّغْتُكُمْ مَا مَجَجْتُمْ ، لَوْ كَانَ الأَعْمَى يَلْحَظُ ، أَوِ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ !! وَأَقْرِبْ بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ وَمُؤَدِّبُهُمُ ابْنُ النَّابِغَةِ .

أقول : الخور : الضعف ، ويحتمل أن يكون من الخوار وهو الصياح . وأُجئتم ، جذبتم ، ودعيتم . ونكص : رجع على عقبه . والقالي : المبغض . والطغام : أوغاد الناس . والتريكة : بيضة النعام . ومجّه : ألقاه من فيه .

وقد حمد الله تعالى على ما قضى وقدّر ، ولما كان القضاء هو الحكم الإلهي بما يكون قال : على ما قضى من الأمر . لأن الأمر أعمّ أن يكون فعلاً ، ولما كان القدر هو تفصيل القضاء وإيجاد الأشياء على وفقه قال : وقدّر من فعل .

وقوله : وعلى ابتلائي بكم .

تخصيص لبعض ما قضى وقدّر .

وقوله : إذا أمرت . إلى قوله : نكصتم .

شرح لوجوه الابتلاء بهم ، وحاصلها يعود إلى مخالفتهم له في جميع ما يريده منهم مما ينتظم به حالهم .

وقوله : إلى مشاقة .

أي إلى مشاقة عدو .

وقوله : لا أبا لغيركم .

دعاء بالذل لغيرهم ، وفيه نوع تلطّف لهم ، والأصل لا أب ، والألف مزيدة إما لاستثقال توالي أربع حركات فأشبعوا الفتحة فانقلبت ألفاً أو لأنهم قصدوا الإضافة وأتوا باللام للتأكيد . ثم أقسم إن جاء يومه : أي وقت موته ليفرقنّ بينهم وبينه وهو تهديد لهم بفراقه وانشعاب أمورهم بعده .

وقوله : وليأتيني .

حشوة لطيفة وأتى به مؤكدة لأن إتيان الموت أمر محقق ، وكأنه ردّ بها ما يقتضيه إن من الشكّ فحسنت هذه الحشوة بعدها . ثم أخذ في التضجّر منهم ، وأخبرهم أنه لصحبتهم مبغض ، وأنه غير كثير بهم لأن الكثرة إنّما تراد للمنفعة فحيث لا منفعة فكأنه لا كثرة .

وقوله : لله أنتم .

جملة اسمية فيها معنى التعجب من حالهم ، ومثله لله أبوك ولله درّك . ثم أخذ في استفهامهم عمّا يدعون أنه موجود فيهم ، وهو الدين والحمية والأنفة ، ومن شأن الدين أن يجمع على إنكار المنكر ، والحميّة أن تشحذ وتثير القوة الغضبية لمقاومة العدو استفهاماً على سبيل العيب والإنكار عليهم .

وقوله : أوليس عجباً . إلى قوله : وتختلفون عليّ .

استفهام لتقرير التعجب من حاله معهم في تفرّقهم عنه حتى عند الدعوة إلى العطاء ، ومن حال معاوية مع قومه في اجتماعهم عليه من غير معونة ولا عطاء .

فإن قلت : المشهور أن معاوية إنما استجلب من استجلب من العرب بالأموال والرغائب فلم قال : فيتّبعونه على غير معونة ولا عطاء ؟

قلت : إن معاوية لم يكن يعطي جنده على وجه المعونة والعطاء المتعارف بين الجند ، وإنما كان يعطي رؤساء القبائل من اليمن والشام،

الأموال الجليلة ليستعبدهم بها وأُولئك الرؤساء يدعون أتباعهم من العرب فيطيعونهم . فصادق إذن أنهم يتّبعونه على غير معونة وعطاء .

وأما هو عليه السلام فإنه كان يقسّم بيوت الأموال بالسوية بين الأتباع والرؤساء على وجه الرزق والعطاء ، لا يرى لشريف على مشروف فضلاً ، وكان أكثر من يقعد عن نصرته من الرؤساء لما يجدونه في أنفسهم من أمر المساواة بينهم وبين الأتباع ، وإذا أحس الأتباع بذلك تخاذلوا أيضاً متابعة لرؤسائهم . والمعونة هي ما يعطى للجند في وقت الحاجة لترميم أسلحتهم وإصلاح دوابهم وهو خارج عن العطاء المفروض شهراً فشهراً ، واستعار لهم لفظ التريكة ، ووجه المشابهة أنهم خلف الإسلام وبقيّة أهله كالبيضة التي تتركها النعامة .

وقوله : إنّه لا يخرج . إلى قوله : فترضونه .

أي إنه لا يخرج إليكم من أمري أمر من شأنه أن يرضى به أو يسخط منه فترضونه وتجتمعون عليه بل لا بدّ لكم من التفرّق والمخالفة على الحالين . ثم نبّههم على سوء صنيعهم معه بأن أحبّ الأشياء إليه الموت . وقد لاحظ هذه الحال أبو الطيب فقال :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن تكون أمانيا
تمنّيتها لما تمنّيت أن أرى صديقاً فأعيا أو عدواً مداجيا

وقوله : قد دارستكم الكتاب . إلى قوله : مججتم .

إشارة إلى وجوه الامتنان عليهم وهي مدارستهم الكتاب : أي تعليمه ، ومفاتحتهم الحجاج : أي مماراتهم وتعريفهم وجوه الاحتجاج ، وتعريفهم ما أنكروه : أي الأمور المجهولة لهم ، وتسويغهم ما مجّوه . واستعار وصف التسويغ إمّا لإعطائه لهم العطيات والأرزاق التي كانوا يحرمونها من يد غيره لو كان كمعاوية ، وإمّا لإدخاله العلوم في أفواه أذهانهم ، وكذلك لفظ المجّ إمّا لحرمانهم من يد غيره أو لعدم العلوم عن أذهانهم ونبوّ أفهامهم عنها فكأنّهم ألقوها لعدم صلوحها للإساغة ، ووجه الاستعارتين ظاهر .

وقوله : لو كان الأعمى . إلى قوله : يستيقظ .

إشارة إلى أنّهم جهال لا يلحظون بأعين بصائرهم ما أفادهم من العلوم ، وغافلون لا يستيقظون من سنة غفلتهم بما أيقظهم به من المواعظ أو غيرها ، ولفظ الأعمى والنائم مستعاران ، والقوم في قوله : وأقرب بقوم . هم أهل الشام . وهو تعجّب من شدة قربهم من الجهل بالله . إذ كان قائدهم في الطريق معاوية ومؤدّبهم ابن النابغة : أي عمرو بن العاص وهو رئيسهم رئيس المنافقين وأهل الغدر والخداع ، وإذا كان الرئيس القائد والمؤدّب في تلك الطريق من الجهل والفجور بحال الرجلين المشار إليهما فما أقرب أتباعهما من البعد عن الله والجهل به . وأقرب : صيغة التعجب . وقائدهم معاوية : جملة اسميّة محلّها الجر صفة لقوم . وفصّل بين الموصوف والصفة بالجار والمجرور كما في قوله تعالى : ﴿ **وممّن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق** ﴾[1] فمحل مردوا الرفع صفة المنافقون ، وفصّل بينهما بقوله : ومن أهل المدينة ، والغرض من ذكرهم ووصفهم بما وصف التنفير عنهم .

١٨٠ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

وقد أرسل رجلاً من أصحابه يعلم له علم أحوال قوم من جند الكوفة قد هموا باللحاق بالخوارج ، وكانوا على خوف منه ﷺ ، فلما عاد إليه الرجل قال له : أمنوا فقطنوا أم جبنوا فظعنوا ؟؟ فقال الرجل : بل ظعنوا يا أمير المؤمنين . فقال :

بُعْداً لَهُمْ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ، أَمَا لَوْ أُشْرِعَتِ الأَسِنَّةُ إِلَيْهِمْ ، وَصُبَّتِ السُّيُوفُ عَلَى هَامَاتِهِمْ ! لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ الْيَوْمَ قَدِ اسْتَفَلَّهُمْ ، وَهُوَ غَداً مُتَبَرِّىءٌ مِنْهُمْ ، وَمُتَخَلٍّ عَنْهُمْ ، فَحَسْبُهُمْ بِخُرُوجِهِمْ مِنَ الْهُدَى ، وَارْتِكَاسِهِمْ فِي الضَّلَالِ وَالْعَمَى ، وَصَدِّهِمْ عَنِ الْحَقِّ ، وَجِمَاحِهِمْ فِي التِّيهِ .

أقول : قطنوا : أقاموا . وبعدت بالكسر : هلكت : وأشرعت

---

(١) ٩ ـ ١٠٢ .

الرمح : سددته وصوبته نحو من تريد ضربه . واستفلّهم : أي طلب منهم التفرق والهزيمة وزيّنها لهم . والفلّ : التفريق والانهزام . والارتكاس : الرجوع في الشيء مقلوباً .

والفصل مشتمل على السؤال عن ظعنهم وإقامتهم وعلّتهما وهما الأمن والجبن . ثم على الدعاء عليهم بالهلاك . وانتصب بعداً على المصدر . ثم على ما لو فعل لكان سبباً لندمهم على ما فعلوا وهو الهجوم عليهم بالقتل والإذلال على ما كان منهم من اللحوق بأولياء الشيطان . ثم على علّة لحوقهم بهم وهي استفلال الشيطان لهم وتفريقه لجماعتهم ، وروي استفزّهم : أي استخفهم ، وروي استقبلهم : أي تقبّلهم ورضي عنهم . وهي أقوى القرينة .

قوله : وهو غداً متبرّىء منهم ومتخلّ عنهم .

أي تارك لهم فإنّ التبرىء في مقابلة الاستقبال وذلك كقوله تعالى : ﴿ **وإذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إني بريء منكم** ﴾[1] .

وقوله : فحسبهم بخروجهم من الهدى .

أي يكفيهم ذلك عذاباً وشراً ، والباء في بخروجهم زائدة كهي في قوله تعالى : ﴿ **وكفى بالله شهيداً** ﴾ ، وارتكاسهم في الضلال والعمى رجوعهم إلى الضلال القديم وعمى الجهل الذي كانوا عليه بعد خروجهم منه بهدايته ، وصدّهم عن الحق بالخروج عن طاعته وجماحهم في تيه الجهل والهوى بعد الاستقرار في مدينة العلم والعقل ، ولفظ الجماح مستعار لخروجهم عن فضيلة العدل إلى رذيلة الإفراط منها كما سبق والغلوّ في طلب الحق إلى حدّ الجور عن الصراط المستقيم . وبالله التوفيق .

١٨١ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

روي عن نوف البكالي قال : خطبنا هذه الخطبة بالكوفة أمير المؤمنين عليه السلام وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومي ،

---

(١) ٨ ـ ٥٠ .

وعليه مدرعة من صوف ، وحمائل سيفه ليف ، وفي رجليه نعلان من ليف ، وكأن جبينه ثفنة بعير . فقال عليه السلام :

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي إِلَيْهِ مَصَائِرُ الْخَلْقِ وَعَوَاقِبُ الأَمْرِ ، نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ ، وَنَيِّرِ بُرْهَانِهِ ، وَنَوَامِي فَضْلِهِ وَآمْتِنَانِهِ ، حَمْداً يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً ، وَلِشُكْرِهِ أَدَاءً ، وَإِلَى ثَوَابِهِ مُقَرِّباً ، وَلِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِباً . وَنَسْتَعِينُ بِهِ آسْتِعَانَةَ رَاجٍ لِفَضْلِهِ ، مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ ، وَاثِقٍ بِدَفْعِهِ ، مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطَّوْلِ ، مُذْعِنٍ لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ . وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمَانَ مَنْ رَجَاهُ مُوقِناً ، وَأَنَابَ إِلَيْهِ مُؤْمِناً ، وَخَنَعَ لَهُ مُذْعِناً ، وَأَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّداً ، وَعَظَّمَهُ مُمَجِّداً ، وَلَاذَبِهِ رَاغِباً مُجْتَهِداً : لَمْ يُولَدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارَكاً ، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مُورِثاً هَالِكاً ، وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتٌ وَلاَ زَمَانٌ ، وَلَمْ يَتَعَاوَرْهُ زِيَادَةٌ وَلاَ نُقْصَانٌ ، بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلاَمَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتْقَنِ ، وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ .

وَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ مُوَطَّدَاتٍ بِلاَ عَمَدٍ ، قَائِمَاتٍ بِلاَ سَنَدٍ ، دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُذْعِنَاتٍ ، غَيْرَ مُتَلَكِّئَاتٍ وَلاَ مُبْطِئَاتٍ . وَلَوْلاَ إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَإِذْعَانُهُنَّ لَهُ بِالطَّوَاعِيَةِ لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعاً لِعَرْشِهِ وَلاَ مَسْكَناً لِمَلاَئِكَتِهِ ، وَلاَ مَصْعَداً لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ ، جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلاَماً يَسْتَدِلُّ بِهَا الْحَيْرَانُ فِي مُخْتَلِفِ فِجَاجِ الأَقْطَارِ ، لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءَ نُورِهَا ادْلِهْمَامُ سُجُفِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، وَلاَ آسْتَطَاعَتْ جَلاَبِيبُ سَوَادِ الْحَنَادِسِ أَنْ تَرُدَّ مَا شَاعَ فِي السَّمٰوَاتِ مِنْ تَلأْلُؤِ نُورِ الْقَمَرِ ، فَسُبْحَانَ مَنْ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادُ غَسَقٍ دَاجٍ ، وَلاَ لَيْلٍ سَاجٍ فِي بِقَاعِ الأَرَضِينَ الْمُتَطَأْطِئَاتِ ، وَلاَ فِي يَفَاعِ السُّفْعِ الْمُتَجَاوِرَاتِ ، وَمَا يَتَجَلْجَلُ بِهِ الرَّعْدُ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ ، وَمَا تَلاَشَتْ عَنْهُ بُرُوقُ الْغَمَامِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تُزِيلُهَا عَنْ مَسْقَطِهَا عَوَاصِفُ الأَنْوَاءِ وَانْهِطَالُ السَّمَاءِ ، وَيَعْلَمُ مَسْقَطَ الْقَطْرَةِ وَمَقَرَّهَا ، وَمَسْحَبَ الذَّرَّةِ وَمَجَرَّهَا ، وَمَا يَكْفِي الْبَعُوضَةَ مِنْ قُوتِهَا ، وَمَا تَحْمِلُ الأُنْثَى فِي بَطْنِهَا .

الْحَمْدُ للهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيٌّ أَوْ عَرْشٌ ، أَوْ سَمَاءٌ أَوْ أَرْضٌ ،

أَوْ جَانٌّ أَوْ إِنْسٌ لاَ يُدْرَكُ بِوَهْمٍ ، وَلاَ يُقَدَّرُ بِفَهْمٍ ، وَلاَ يَشْغَلُهُ سَائِلٌ ، وَلاَ يَنْقُصُهُ نَائِلٌ ، وَلاَ يُنْظَرُ بِعَيْنٍ ، وَلاَ يُحَدُّ بِأَيْنٍ ، وَلاَ يُوصَفُ بِالأَزْوَاجِ ، وَلاَ يَخْلُقُ بِعِلاَجٍ ، وَلاَ يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ ، وَلاَ يُقَاسُ بِالنَّاسِ . الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيماً ، وَأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيماً ، بِلاَ جَوَارِحَ وَلاَ أَدَوَاتٍ ، وَلاَ نُطْقٍ وَلاَ لَهَوَاتٍ . بَلْ إِنْ كُنْتَ صَادِقاً أَيُّهَا الْمُتَكَلِّفُ لِوَصْفِ رَبِّكَ ، فَصِفْ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَجُنُودَ الْمَلاَئِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ فِي حُجُرَاتِ الْقُدْسِ مُرْجَحِنِّينَ ، مُتَوَلِّهَةً عُقُولُهُمْ أَنْ يَحُدُّوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ . فَإِنَّمَا يُدْرَكُ بِالصِّفَاتِ ذَوُو الْهَيْئَاتِ وَالأَدَوَاتِ ، وَمَنْ يَنْقَضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ ! فَلاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلاَمٍ ، وَأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ .

أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي أَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمُ الْمَعَاشَ وَلَوْ أَنَّ أَحَداً يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلَّماً أَوْ إِلَى دَفْعِ الْمَوْتِ سَبِيلاً لَكَانَ ذَلِكَ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : الَّذِي سُخِّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالإِنْسِ مَعَ النُّبُوَّةِ وَعَظِيمِ الزُّلْفَةِ ، فَلَمَّا اسْتَوْفَى طُعْمَتَهُ ، وَاسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ ، رَمَتْهُ قِسِيُّ الْفَنَاءِ بِنِبَالِ الْمَوْتِ ، وَأَصْبَحَتِ الدِّيَارُ مِنْهُ خَالِيَةً ، وَالْمَسَاكِنُ مُعَطَّلَةً ، وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ ، وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً ! أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَأَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ ؟ أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وَأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ ؟ أَيْنَ أَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ ، وَأَطْفَأُوا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ ، وَأَحْيَوْا سُنَنَ الْجَبَّارِينَ ؟ أَيْنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجُيُوشِ ، وَهَزَمُوا بِالأُلُوفِ ، وَعَسْكَرُوا الْعَسَاكِرَ ، وَمَدَّنُوا الْمَدَائِنَ ؟! .

أقول : نقل الجوهري في الصحاح أن نوفاً البكالي بفتح الباء وتخفيف الكاف كان صاحب علي عليه السلام ، ونقل عن ثعلب أنه منسوب إلى بكالة قبيلة . وقال القطب الراوندي : وهو منسوب إلى بكال ، وبكيل وبكال شيء واحد وهو اسم حيّ من همدان . قال : وبكيل أكثر ، وقال الشارح عبد الحميد ابن أبي الحديد : والصواب غير ما قالاه ، وإنّما هو بكال بكسر الباء من حمير فمنهم هذا الشخص وهو نوف بن فضالة صاحب علي عليه السلام . والأقوال محتملة .

وأمـا جعدة بن هبيـرة فهو ابن أخت أميـر المؤمنين عليه السلام أم هـاني بنت أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، وأبوه هبيرة ابن أبي وهب بن عمرو ابن عامد بن عمران بن مخزوم وهو صحابي . وثفنة البعير : واحـدة الثفنات وهي ما يقع على الأرض من أعضائه . والخنوع : الخضوع . ويتعـاوره . يختلف عليـه ، وموطّـدات. ممهدات . والتلكؤ : التـوقف . والطواعيـة : الطاعـة . والفجـاج : الطرق بين الجبـال . والادلهمـام : شـدة الـظلمـة . والسجف : الستور . والحندس بكسر الحاء : الليل شديد الظلمة . والسفع : الجبـال . والسفعة : سواد مشرب بحمرة ولـون الجبال في الأكثـر . واليفاع : المـرتفع من الأرض . والجلجلة : صـوت الرعـد . وتلاشى : اضمحـلّ : والأنـواء : جمع نوء ، وهو سقوط نجم من منـازل القمر الثمـانية والعشـرين في المغرب مع الفجر ، وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعتـه في كل ليلة إلى ثـلاثة عشر يوماً . وهكذا كـل نجم منها إلى انقضـاء السنة مـا خلا الجبهـة فإن لهـا أربعة عشر يوماً. ومرجحنّين : مائلين إلى جهة تحت . والريـاش : اللباس . والطعمة : المأكلة .

فقوله : الحمد لله . إلى قوله : الأمر .

حمد له باعتبار كونه منتهى جميع آثاره في عالمي الخلق والأمر انتهـاءاً في أوليتها بالصنع والإبداع وانتهاءاً في آخريتها لأنه غاية مـطلوب السالكين ، وهو الباقي بعد كل شيء منها باعتبار وجوب وجوده فهو مستحق البقاء لذاته ، وهي الممكنة والمستحقة للفناء باعتبار كونه ممكناً لها ، ولما كـان الحمد قـد يكون لأداء حق ما سبق من النعمـة ، وقد يكـون للاستـزادة منها كـان قولـه : نحمده . إلى قولـه : أداءاً. نـظراً إلى مـا سبق من أنـواع نعم الله وهي عـظيم إحسانه بـالخلق والإيجاد على وفق الحكمـة والمنفعة . ثم بـإنارة بـرهانـه في متقن صنعـه ومحكمه . وعلى ألسنـة رسله لسوقنـا في صراطـه المستقيم إلى جنّات النعيم وهدايتنا إليها . ثم بإفاضة نوامي فضله وامتنانه بكفايتنا في حياتنا الدنيا . ثم بإفاضة أسباب معـاشنا ومعـادنا ، وكـان قولـه : وإلى ثوابـه . إلى قـوله : مـوجباً إشـارة إلى ما يستـزاد منهـا وهـو القـرب من ثـوابـه الأخـروي لاستكمال النفس بذلـك وحسن مزيـده من نعمه الحـاضرة كمـا قال تعـالى :

﴿ ولئن شكرتم لأزيدنكم ﴾[1]. ثم أردف ذلك الشكر بطلب المعونة منه استعانة بالصفات المعدودة . إلى قوله : والقول :

فإن استعانة من هذه صفته تكون أقرب الاستعانات إلى إجابة المستعان بالعون لقوّتها باستجماعها قوة الرجاء ، والأمل له تعالى ، وحسن اليقين في قدرته على بذل النفع ودفع الضرّ ، والشكر والإذعان بالطاعة العملية والقولية . ثم أردف ذلك بالإقرار بالإيمان الكامل ، وهو إيمان من استكمل الأوصاف المعدودة آنفاً وهي رجاء المطالب العالية منه حال اليقين التام بأنه أهلها ، والرجوع إليه عن جميع الفرطات وفي سائر المهمّات حال الإيمان به ، والخضوع حال انقياده لعزّته ، ثم الإخلاص له حال توحيده ، ثم تعظيمه حال تمجيده ، واللوذ به حال الرغبة إليه والاجتهاد فيها . وظاهر أن ذلك الإيمان كامل . ثم أخذ في تنزيهه تعالى باعتبارات سلبية وإضافية هي غاية الواصفين :

منها أنه لم يكن له والد فيكون له شريك في العزّ . إذا العادة أن يكون والد العزيز عزيزاً .

ومنها أنه لم يلد فيكون موروثاً هالكاً . وهو تنزيه له عن صفات البشر . إذ العادة أن الإنسان يهلك فيرثه ولده ، وبرهانهما أنهما من لواحق الحيوانية المستلزمة للجسميّة المنزّه قدسه عنها .

ومنها أنه لم يتقدمه وقت ولا زمان والوقت جزء الزمان وإذا كان خالق الوقت والزمان فبالحري أن يتقدمهما .

ومنها أنه لم يختلف عليه الزيادة والنقصان لأن الزيادة والنقصان من لواحق الممكنات لاستلزامهما التغيّر المستلزمة للإمكان المنزّه قدسه عنه .

ومنها أنه ظاهر للعقول في علامات التدبير ، وهي الإحكام والإتقان في مصنوعاته الموجودة على وفق القضاء المحكم فمن جملتها خلق السماوات

---

(١) ١٤ - ٧.

كقوله تعالى : ﴿ **إن في خلق السماوات والأرض** ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ **أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض** ﴾ وقد مرّ بيان كونهما بلا عمد وقيامهما بلا سند في الخطبة الأولى ، ودعاؤهنّ حكم سلطان القدرة الإلهيّة عليهنّ ، وإجابتهنّ دخولهنّ في الوجود عن ذلك الحكم وطوعهنّ وإذعانهنّ من غير تلكؤ ولا تباطىء في إجابتهنّ، وخضوعهنّ في رقّ الحاجة والإمكان لواجب وجوده وسلطانه .

وقوله : ولولا إقرارهنّ . إلى قوله : والعمل الصالح من خلقه .

كلام حقّ فإنّ الإقرار بالربوبيّة له راجع إلى شهادة لسان حال الممكن بالحاجة إلى الرب والانقياد لحكم قدرته ، وظاهر أنه لولا إمكانها وانفعالها عن قدرته وتدبيره لم يكن فيها عرش ولم يكن أهلاً لقبول تدبير أحوال الملائكة وسكناها ، ولم تكن قابلة لصعود الملائكة بالكلم الطيب والأعمال الصالحة للخلق ، وقد سبقت الإشارة إلى بيان الصعود بالأعمال وغيرها في الخطبة الأولى بحسب الإمكان ، ولفظ الدعاء والإقرار والإذعان مستعارة ويحتمل أن يكون حقائق نظراً إلى أن لها أرواحاً مدبّرة عاقلة .

وقوله : وجعل نجومها . إلى قوله : الأقطار .

إشارة إلى بعض غايات وجود النجوم ، وقد سبق بيان ذلك .

وقوله : لم يمنع . إلى قوله : القمر .

استعار لفظ السجف والجلابيب للساتر من سواد الليل ، ووجه الاستعارة ظاهر ، وخصّ القمر بالذكر لكونه من الآيات العظيمة ، والمقابلة بين الضياء والظلم مقابلة العدم والملكة . وكل منهما يوجد بوجود سببه ويعدم بعدم سببه فلا يكون رفع أحدهما بالآخر ، وظاهر إذن أن نور القمر والنجوم لا يمنعه من الوجود والتحقق ظلمة ليل. بل يتعاقبان بحسب تعاقب أسبابهما المنتهية إلى قدرة الصانع الحكيم ـ جلّت قدرته ـ .

وقوله : فسبحان . إلى قوله : في بطنها .

تنزيه له بحسب إحاطة علمه بحسب كليات الأشياء وجزئياتها . والمطأطئات : مهابط الأرض ، وما يتجلجل به الرعد إشارة إلى تسبيحه في

قوله تعالى : ﴿ **ويسبح الرعد بحمده** ﴾[1] وذلك التسبيح يعود إلى شهادته بلسان حاله في ذلك الصوت على كمال قدرة مسخّر السحاب ومؤلفه والمقدر لتصويته ، وقد عرفت سببه ، وما تلاشت عنه بروق الغمام إشارة إلى ما ينكشف للأبصار بإضائتها ، وإنّما خصّ ذلك دون ما أضاءته لأن العلم هناك أشرف لتعلقه بما لا يدركه أبصار المخلوقين دون ما تضيئه لإدراك الكل له .

وإنما أضاف العواصف إلى الأنواء لأن العرب تضيف الآثار العلوية من الرياح والأمطار والحرّ والبرد إليها . ثم عاد إلى حمده تعالى باعتبار تقدمه في الوجود على سائر مخلوقاته ، وقد عرفت ما يقال في الكرسي والعرش ، ثم نزّهه تعالى باعتبارات سلبيّة :

الأول : أنه لا يدرك بوهم .

الثاني : أنه لا يقدر بفهم : أي لا يحدّ بفهم ، والفهم من صفات العقل وقد مرّت الإشارة إلى عجز العقول والأوهام عن وصفه تعالى .

الثالث : ولا يشغله سائل لإحاطة علمه وقدرته . وقد سبق بيانه أيضاً .

الرابع : ولا ينقصه نائل لأن النقصان يتوجه نحو ذي الحاجة ، وقد تنزّه قدسه تعالى عنها .

الخامس : كونه لا يبصر بعين : أي أن إدراكه ليس بحاسة البصر وإن كان بصيراً وذلك لتنزّه قدسه عن الحواس .

السادس : ولا يحد بأين : أي لا تحدّه العقول بالأمكنة ولا تحيط به باعتبارها لبراءته عن التحيّز وهو نفي الكمية المتصلة عنه .

السابع : ولا يوصف بالأزواج وهو نفي الكم المنفصل عنه : أي ليس فيه اثنينيّة وتعدّد .

والثامن : ولا يخلق بعلاج تنزيه لصنعه عن وساطة الآلة والحيلة كما تزاوله أصحاب الصنائع .

التاسع : ولا يدرك بالحواس لتخصيص إدراكها بالأجسام وكيفياتها

(١) ١٣ - ١٤ .

وتنزهه تعالى عن الجسمية ولواحقها .

العاشر : ولا يقاس بالناس تنزيه له عن التشبّه بخلقه في كمالاتهم كما يتوهمه أهل التجسيم .

الحادي عشر : كونه متكلماً بلا جارحة نطق ولا لهوات ، وهو تنزيه له عن حال البشرية . وعلمت في المقدمات كيفية سماع الأنبياء عليهم السلام للوحي . فأما قوله : وأراه من آياته عظيماً . فقيل : أراد آياته في كلامه لئلا يصير بين قوله : تكليماً . وقوله : بلا جوارح . اعتراض غير مناسب ، والذي رآه من تلك الآيات ما روي أنه كان يسمع الصوت من جهاته الست ليس على حدّ سماع البشر من جهة مخصوصة وله دويّ كوقع السلاسل العظيمة على الحصى الأصم ، وفي هذه الكيفية سرّ لطيف ، وكونه يسمع من الجهات الست إشارة إلى أن الكلام كان يأتيه فينتقش في لوح خياله لا من جهة بل نسبة الجهات الست إليه على سواء في عدم سماعه منها فلا جرم قيل : يسمع من الجهات الست وهو أولى من أن يقال : يسمع لا من جهة لبعد ذلك عن أوهام الخلق . فأما كونه كوقع السلاسل في القوة فأشار إلى عظمته بالنسبة إليه فشبّهه بأشد الأصوات جرساً .

وقيل : أراد بها الآيات التسع كانشقاق البحر وقلب العصا ثعباناً وغيرهما .

ثم نبّه على عجز القوة البشرية عن وصف كماله تعالى بقوله : بل إن كنت صادقاً إلى قوله : أحسن الخالقين . وهي صورة قياس استثنائي متصل نبّه به على عجز من يدعي وصف ربه كما هو ، وتقديره إن كنت صادقاً أيها المتكلّف لوصف ربك في وصفه فصف بعض خلقه وهو جبرائيل وميكائيل وجنود ملائكته المقرّبين ، وينتج باستثناء نقيض تاليه : أي لكنك لا يمكنك وصف هؤلاء بالحقيقة فلا يمكنك وصفه تعالى .

بيان الملازمة أن وصفه تعالى إذا كان ممكناً لك فوصف بعض آثاره أسهل عليك ، وأما بطلان التالي فلأن حقيقة جبرائيل وميكائيل وسائر الملائكة المقربين غير معلومة لأحد من البشر ، ومن عجز عن وصف بعض آثاره فهو عن وصفه أعجز ، وحجرات القدس : مقار الطهارة عن الهيئات

البدنية والتعلقات الخالية عن شوائب النفس الأمارة بالسوء ، واستعار لفظ المرجحنّين لخضوعهم تحت سلطان هيبته وعظمته ، وتولّه عقولهم : حيرتها وتشتّتها عن إدراك حقيقته بحد تقف عنده عظمته . ثم نبه على ما يدرك من جهة الوصف وهو ذوو الهيئات والآلات التي يحترف بها وتحيط بها الأفهام من جهتها ، وما يلحقه الفناء فينقضى إذا بلغ أمد حدّه ، وتقف الأفهام على ذلك الحد وتحلّله إلى أجزائه فتطلع على كنهه منها . ثم عقّب ذلك التنزيه بتوحيده ونفي الكثرة عنه .

وقوله : أضاء بنوره كل ظلام .

فالظلام إمّا محسوس فأضاء بأنوار الكواكب ، أو معقول وهو ظلام الجهل فأضاءه بأنوار العلم والشرائع .

وقوله : وأظلم بنوره كل نور .

إذ جميع الأنوار المحسوسة أو المعقولة لغيره متلاشية مضمحلة في نور علمه ، وظلام بالنسبة إلى ضياء براهينه في جميع مخلوقاته الكاشفة على وجوده وكمال جوده . ثم شرع في الموعظة فبدأ بالوصية بتقوى الله باعتبار سلب أمرين هما سبب البقاء في الحياة الدنيا وهما الملبوس والمطعوم ، ويحتمل أن يريد بالمعاش سائر أسباب البقاء ، وثنّى بذكر أنه لا سبيل إلى البقاء ودفع الموت تخويفاً به ، واحتجّ عليه بقياس استثنائي تلخيصه : لو أن أحداً يجد سبيلاً إلى دفع الموت لوجده سليمان عليه السلام وتقدير الاستثناء : لكنه لم يجده فلن يجده أحد بعده .

أما الملازمة فلأن سليمان عليه السلام كان أقوى سلطان وجد في العالم لاستيلاء حكمه على ملك الجن والإنس مع النبوة وعظيم الزلفة عند الله فكان أولى بدفعه لو كان يمكن دفعه ، وأما بطلان التالي فلأنه عليه السلام لما استوفى طعمته واستكمل مدته مات فلو وجد مدفعاً لدفعه عن نفسه .

فقوله : فلو أن . إلى قوله : سبيلا .

هو مقدّم الشرطية .

وقوله : لكان ذلك . إلى قوله : عليه السلام .

هو التالي .

وقوله : الذي . إلى قوله : الزلفة .

بيان لوجه الملازمة .

وقوله : فلما استوفى . إلى قوله : قوم آخرون .

هو بيان بطلان التالي ، ولفظ القسي والنبال استعارة لمرامي الأمراض وأسبابها التي هي نبال الموت ، ووجهها ظاهر . ثم شرع في التنبيه على الاعتبارات بأحوال القرون السالفة واستفهم عن قرن قرن تنبيهاً على فنائهم استفهاماً على سبيل التقرير . والعماليق أولاد لاوذ بن إرم بن سام بن نوح وكان باليمن والحجاز وما تاخم ذلك من الأقاليم فمن أولاده عملاق وطسم وجديس ، وكان العزّ والملك بعد عملاق بن لاوذ في طسم فلما ملكهم عملاق بن طسم بغى وأكثر العبث والفساد في الأرض حتى كان يطأ العروس ليلة اهدائها إلى بعلها ، وإن كانت بكراً افتضّها قبل وصولها إليه ففعل ذلك بامرأة من جديس. فغضب لها أخوها وتابعه قومه على الفتك بعملاق بن طسم وأهل بيته فصنع أخوها طعاماً ودعا [دخل خ] عملاق الملك إليه . ثم وثب به وبطسم فأتى على رؤسائهم ونجا منهم رياح بن مرّ فصار إلى ذي جيشان بن تبّع الحميري ملك اليمن فاستغاث به واستنجده على جديس وأتى ذو جيشان في حمير بلاد جوّ وهي قصبة اليمامة فاستأصل جديساً وأخرب اليمامة .

فلم يبق لجديس باقية ولا لطسم إلّا اليسير منهم . ثم ملك بعد طسم وجديس وباز بن أميم بن لاوذ بن إرم بولده وأهله فنزل بأرض وباز وهي المعروفة الآن برمل عالج فبغوا في الأرض حيناً ثم أفناهم الله . ثم ملك بعد وباز عبد ضخم [صمم خ] بن آسف بن لاوذ فنزلوا بالطائف حيناً . ثم بادوا .

وأما الفراعنة فهم ملوك مصر فمنهم الوليد بن ريّان فرعون يوسف ، ومنهم الوليد بن مصعب فرعون موسى ، ومنهم فرعون الأعرج الذي غزا بني إسرائيل وأخرب بيت المقدس . وأما أصحاب مدائن الرسّ . فقيل : إنهم أصحاب شعيب النبي عليه السلام وكانوا عبدة أوثان ولهم مواشي وآبار يستقون

منها ، والرس بئر عظيمة جداً انخسفت بهم وهم حولها ، وقيل : الرس قرية باليمامة كان يسكنها قوم من بقايا ثمود فبغوا فأهلكوا ، وقيل الرس : أصحاب الأخدود وهو الرسّ الأخدود ، وقيل : الرس نهر عظيم في إقليم الباب والأبواب مبدئه من مدينة طرار وينتهي إلى نهر كبير فيختلط به حتى يصبّ في بحر الخزر ، وكان هناك ملوك أولو بأس وقدرة فأهلكهم الله ببغيهم . وبالله التوفيق .

منها : قَدْ لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا ، وَأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدَبِهَا: مِنَ الإِقْبَالِ عَلَيْهَا، وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا، وَالتَّفَرُّغِ لَهَا، وَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّتُهُ الَّتِي يَطْلُبُهَا ، وَحَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا ، فَهُوَ مُغْتَرِبٌ إذَا اغْتَرَبَ الإِسْلَامُ ، وَضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنَبِهِ وَأَلْصَقَ الأَرْضَ بِجِرَانِهِ ، بَقِيَّةٌ مِنْ بَقَايَا حُجَّتِهِ ، خَلِيفَةٌ مِنْ خَلَائِفِ أَنْبِيَائِهِ .

ثم قال عليه السلام :

أَيُّهَا النَّاسُ ، إنِّي قَدْ بَثَثْتُ لَكُمُ الْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ الأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَمَهُمْ ؛ وَأَدَّيْتُ إلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الأَوْصِيَاءُ إلى مَنْ بَعْدَهُمْ ؛ وَأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا ؛ وَحَدَوْتُكُمْ بِالزَّوَاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا !! لله أَنْتُمْ ، أَتَتَوَقَّعُونَ إمَاماً غَيْرِي يَطَأُ بِكُمُ الطَّرِيقَ ، وَيُرْشِدُكُمُ السَّبِيلَ ؟!

أَلَا إنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلاً ، وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِراً ، وَأَزْمَعَ التَّرْحَالَ عِبَادُ اللهِ الأَخْيَارُ ؛ وَبَاعُوا قَلِيلاً مِنَ الدُّنْيَا لَا يَبْقَى بِكَثِيرٍ مِنَ الآخِرَةِ لَا يَفْنَى ، مَا ضَرَّ إخْوَانَنَا الَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ بِصِفِّينَ أَنْ لَا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءً يُسِيغُونَ الْغُصَصَ ، وَيَشْرَبُونَ الرَّنَقَ ؟! قَدْ ـ وَاللهِ ـ لَقُوا اللهَ فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ ، وَأَحَلَّهُمْ دَارَ الأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ ، أَيْنَ إخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ ؟ أَيْنَ عَمَّارٌ ؟ وَأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ ؟ وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ ؟ وَأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ ، وَأُبْرِدَ بِرُؤُوسِهِمْ إلَى الْفَجَرَةِ ؟!

قال : ثم ضرب بيده على لحيته الشريفة الكريمة فأطال البكاء ، ثم

قال عليه السلام :

أَوْه عَلَى إخْوانِي الَّذِينَ قَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ ، أَحْيَوُا السُّنَّةَ ، وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ ، دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا ، وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ .

ثم نادى بأعلى صوته :

الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ الله !! أَلَا وَإِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يَوْمِي هٰذَا ، فَمَنْ أَرَادَ الرَّوَاحَ إلى الله فَلْيَخْرُجْ .

قال نوف : وعقد للحسين ـ عليه السلام ـ في عشرة آلاف ، ولقيس ابن سعد رحمه الله في عشرة آلاف ، ولأبي أيوب الأنصاري في عشرة آلاف ، ولغيرهم على أعداد أخر ، وهو يريد الرجعة إلى صفين ، فما دارت الجمعة حتى ضربه الملعون ابن ملجم لعنه الله ، فتراجعت العساكر فكنا كأغنام فقدت راعيها تختطفها الذئاب من كل مكان .

أقول : جرانه : صدره . وعسيب ذنبه : طرفه . واستوسق الأمر : انتظم واجتمع . وأزمع : صمم عزمه . والرنق بالسكون : الكدر . وأبرد : أرسل . وأوه : ساكنة الواو مكسورة الهاء كلمة توجّع . والاختطاف والتخطّف : الأخذ بسرعة .

والإشارة إلى العارف مطلقاً ، وقال بعض الإمامية : الإشارة إلى الإمام المنتظر ، وليس بواضح من هذا الكلام ، ولفظ الجنة مستعار في الاستعداد للحكمة بالزهد والعبادة الحقيقيتين والمواظبة على العمل بأوامر الله ، ووجه الاستعارة أن بذلك الاستعداد يأمن إصابة سهام الهوى وثوران دواعي الشهوات القائدة إلى النار كما يأمن لابس الجنة من أذى الضرب والجرح . وأخذه لها بجميع آدابها من الإقبال عليها والمعرفة بها : أي بقدرها والتفرغ لها عن العلائق الدنيوية بالزهد من جملة الاستعداد لها أيضاً ، واستعار لها لفظ الضالّة لمكان إنشاده وطلبه كما تطلب الضالّة من الإبل ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام : الحكمة ضالّة المؤمن .

وقوله : فهو مغترب إذا اغترب الإسلام .

إشارة إلى إخفائه نفسه وإيثاره العزلة عند اغتراب الإسلام وضعفه وظهور البدع والمنكرات كما أشار إليه سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، واستعار لفظ العسيب والذنب والجران ملاحظة لشبهه بالبعير البارك ، وكنّى بذلك عن ضعفه وقلّة نفعه فإنّ البعير أقل ما يكون نفعه حال بروكه .

وقوله : بقيّة من بقايا حجته .

أي على خلقه . إذ العلماء والعارفون حجج الله في الأرض على عباده ، وظاهر كونه خليفة من خلفاء أنبيائه لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : العلماء ورثة الأنبياء .

وقوله : أيها الناس. إلى قوله : تستوسقوا .

تذكير بموعظته لهم ، وإعذار إليهم بأداء ما كلّف به في حقهم مما كلّفت به الأنبياء مع أُممهم والأوصياء إلى من بعدهم ، ومعاتبة لهم ، وتوبيخ على عدم استقامتهم واجتماعهم على أوامره مع تأديبه لهم بالضرب والتحذير بالزواجر .

وقوله : لله أنتم . إلى قوله : السبيل .

استفهام لهم عن توقّعهم إماماً هادياً مرشداً غيره استفهاماً على سبيل الإنكار لوجود سبيل ذلك الإمام ، وأكد ذلك الإنكار المفهوم من الاستفهام بقوله : ألا إنّه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلاً : أي من الخير وصلاح أهلها ، وأقبل منها ما كان مدبراً : أي من الشرور التي أدبرت بمقدم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وظهور الإسلام ، وأزمع الترحال عباد الله الأخيار المتوقع فيهم إمام كمثله عليه السلام في الهداية لسبيل الله ، وإزماعهم للترحال كناية عن اقتضاء الزمان لفنائهم من الدنيا والرحيل عنها . ثم استعار لفظ البيع لتعويضهم بالقليل الفاني من متاع الدنيا والكثير الباقي من متاع الآخرة .

ثم أخذ في التذكير بنفي ضرر الموت وعدم الحياة عن إخوانه من الصحابة الذين قتلوا بصفين ، وزهّد في تلك الحياة بكونها محلّ تجرع الغصص وشرب الكدر من الآلام والأعراض ومشاهدة المنكرات ، ولما زهّد

في تلك الحياة نبّه على مالهم في عدمها من الفائدة وهي لقاء الله ، وتوفيته لأجورهم على الأعمال الصالحة ، وحلولهم في دار الأمن : أي الجنة بعد خوفهم من فتن أهل الضلال . ثم أخذ في استفهام عمّن ركب طريق الحق ومضى عليه مستصحباً له استفهاماً على سبيل التوجه لفقدهم والتوحش لفراقهم ، ثم عن أعيان أكابرهم فذكر عمار بن ياسر . وفضله في الصحابة مشهور وأبوه عربي قحطاني وأُمّه كانت أَمة لأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي ولدت عمّاراً فأعتقها أبو حذيفة فمن هناك كان عمّار مولى لبني مخزوم ، وأسلم هو وأُمّه سمية فعذّبهما بنو مخزوم في الله فأعطاهم عمّار ما أرادوا بلسانه مع اطمئنان قلبه بالإيمان فنزلت فيه : ﴿ **إلّا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾[(١)]. وهاجر إلى أرض الحبشة ، وصلّى القبلتين ، وهو من المهاجرين الأولين ، وشهد بدراً والمشاهد كلها ، وأبلي بلاء حسناً ، ثم شهد اليمامة فأبلي فيها أيضاً ويومئذ قطعت أُذنه . وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس** ﴾[(٢)].

قال : هو عمّار بن ياسر ، وعن عائشة أنها قالت : ما من أحد من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم أشاء أن أقول فيه إلّا قلت إلّا عمّار بن ياسر فإني سمعته صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إنه مليء إيماناً إلى أخمص قدميه . وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : عمّار جلدة ما بين عيني تقتله الفئة الباغية لا أنا لها الله شفاعتي . وعنه صلى الله عليه وآله وسلم من أبغض عمّاراً أبغضه الله .

وأما ابن التيّهان بياء مشدّدة مفتوحة بنقطتين من تحت ، ويروى مخففة ساكنة فهو من الأنصار كنيته أبو الهيثم واسمه مالك بن مالك ، وقيل : بل اسم أبيه عمرو بن الحرب وهو - ابن التيّهان - كان أحد النقباء ليلة العقبة ، وشهد بدراً ، والمشهور أنه أدرك صفين مع علي عليه السلام وقتل بها ، وقيل : توفي في زمان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

وأما ذو الشهادتين فكنيته أبو عمارة واسمه خزيمة بن ثابت بن الفاكه ابن ثعلبة الخطمي الأنصاري من الأوس . جعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شهادته بشهادة

---

(١) ١٦ - ١٠٨.
(٢) ٦ - ١٢٢.

رجلين لقصة مشهورة ، وشهد بدراً وما بعدها من المشاهد ، وكانت راية بني خطمة من الأوس يوم الفتح بيده ، وشهد صفين مع علي عليه السلام . فلما قتل عمّار قاتل هو حتى قتل معه . ونظراؤهم من إخوانه : أي الذين قتلوا بصفين معه من الصحابة كابن بديل وهاشم بن عتبة ونحوهما ، وتعاقدهم على المنية اتفاقهم على المقاتلة إلى غاية أن يقتلوا .

وروي : تعاهدوا . والفجرة الذين حملت رؤوسهم إليهم أُمراء الشام . ثم أخذ في التشكي والتوجّع على فقدهم . ثم أشار إلى فضائلهم التي هي غاية الشريعة المطلوبة منهم وهي تلاوة القرآن وإحكامه بفهم مقاصده ومعانيه ، والتدبّر للفرض : أي فهم ما لأجله العبادات وإقامتها والمواظبة عليها نظراً إلى أسرارها ، وإحياء السنن النبوية ، وإماتة البدع المخالفة لها ، وإجابتهم للدعوة إلى الجهاد لإقامة الدين ، ووثوقهم إليه في سبيل الله يعني نفسه واتّباعهم له ، والرواح إلى الله الخروج إلى الجهاد الذي هو سبيله الموصلة إليه وإلى ثوابه . وقيس بن سعد الخزرجي صحابي كنيته أبو عبد الملك روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحاديث وأبوه سعد من رؤساء الخزرج وهو سعد بن عبادة الذي حاولت قومه إقامته خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان قيس هذا من كبار شيعة علي ومحبّيه ، وشهد معه حروبه كلها ، وكان مع الحسن ابنه ونقم عليه صلحه لمعاوية . وأما أبو أيوب الأنصاري فهو خالد بن سعدابن كعب الخزرجي من بني النجّار شهد العقبة وبدراً وسائر المشاهد ، وعليه نزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما خرج من بني عمرو بن عوف حين قدم المدينة مهاجراً فلم يزل عنده حتى بنى مسجده ومساكنه ثم انتقل إليها ، وشهد مع علي مشاهده كلها الجمل وصفين ، وكان على مقدمته يوم النهروان . وبالله التوفيق .

١٨٢ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

الْحَمْدُ لِلّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ ، الْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبَةٍ ، خَلَقَ الْخَلاَئِقَ بِقُدْرَتِهِ ، وَاسْتَعْبَدَ الأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ ، وَسَادَ الْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ . وَهُوَ الَّذِي

أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ ، وَبَعَثَ إِلَى الْجِنِّ وَالإِنْسِ رُسُلَهُ ؛ لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطَائِهَا ، وَلِيُحَذِّرُوهُمْ مِنْ ضَرَّائِهَا ، وَلِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا ، وَلِيَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِّهَا وَأَسْقَامِهَا ، وَلِيُبَصِّرُوهُمْ عُيُوبَهَا وَحَلاَلَهَا وَحَرَامَهَا ، وَمَا أَعَدَّ اللهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَالْعُصَاةِ مِنْ جَنَّةٍ وَنَارٍ وَكَرَامَةٍ وَهَوَانٍ .

أَحْمَدُهُ إِلَى نَفْسِهِ كَمَا اسْتَحْمَدَ إِلَى خَلْقِهِ ، وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ، وَلِكُلِّ قَدْرٍ أَجَلاً ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاباً .

أقول : المنصبة : التعب .

وحمد الله باعتبار كونه معروفاً بآيات آثاره عند العقول المعرفة المنزّهة عن إدراك البصر المختص بالأجسام ولواحقها . ثم باعتبار كونه خالقاً وموجداً الإيجاد المنزه عن المتاعب لاستلزامها الآلات المستلزمة للجسمية التي من شأنها الضعف والنهاية في القوة . ثم نبّه على استناد الخلائق والنعم المفاضة إلى قدرته ليعتبر السامعون نسبتهم إليه ، وباعتبار استعباده الأرباب على كمال عزّه المطلق الواجبي المستلزم لخضوع كل موجود في ذلّ الإمكان والحاجة إليه ، وبسيادته للعظماء على كمال عظمة وجوده الواجبي المطلق المستلزم لفقر كل إليه وتعبّده له ، ثم بنسبة إسكانهم الدنيا وبعثه رسله إلى الجن والإنس منهم كما قال : ﴿ **يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي** ﴾[1] الآية. على كمال لطفه بخلقه وحكمته في إيجادهم في الدنيا . وغاية ذلك أن يكشفوا لهم ما يغطّى بحجب الدنيا عن أعين بصائرهم من أحوال الآخرة التي خلقوا لها ، وأن يجذبوهم بالتحذير من ضرّ الدنيا وعواقبها وضرب الأمثال بنسبتها كما في القرآن الكريم : ﴿ **إنّما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه** ﴾[2] الآية. وأمثالها ، وأن يبصروهم عيوبها ، وأن يهجموا عليهم بما في تصاريفها من العبرة وهي الصحة والسقم وما أحل وحرم على طريق الابتلاء به . وحلالها عطف على تصرف ، ويحتمل أن يكون عطفاً على أسقامها باعتبار أن الحلال والحرام من تصاريف الدنيا ،

---

(١) ٦ ـ ١٣٠ .

(٢) ١٠ ـ ٢٥ .

وبيانه أن كثيراً من المحرّمات لنبيّ كانت حلالاً لنبي قبله ، وبالعكس وذلك تابع لمصالح الخلق بمقتضى تصاريف أوقاتهم وأحوالهم التي هي تصاريف الدنيا .

وقوله : وما أعدّ الله .

إما عطف على معتبر أو على عيوبها : أي ويبصرونهم ما أعد الله للمطيعين والعصاة . إلى آخره .

وقوله : أحمده إلى نفسه كما استحمد إلى خلقه .

أي أحمده حمداً يكون في الكيفية والكمية على الوجه الذي طلب الحمد لنفسه من خلقه .

وقوله : جعل لكل شيء قدراً .

كقوله تعالى : ﴿ **قد جعل الله لكل شيء قدراً** ﴾[1]. أي مقداراً من الكيفية والكمية ينتهي إليه وحداً يقف عنده ، ولكل قدر أجلاً : أي ولكل مقدار وقت يكون ، انقضاؤه فيه وفناؤه ولكل أجل كتاباً وأراد بالكتاب العلم الإلهي المعبر عنه بالكتاب المبين واللوح المحفوظ المحيط بكل شيء وفيه رقم كل شيء . وبالله التوفيق .

منها : في ذكر القرآن : فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ ، حُجَّةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ : أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَهُ ، وَارْتَهَنَ عَلَيْهِ أَنْفُسَهُمْ ، أَتَمَّ نُورَهُ ، وَأَكْمَلَ بِهِ دِينَهُ ، وَقَبَضَ نَبِيَّهُ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَقَدْ فَرَغَ إِلَى الْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ الْهُدىٰ بِهِ ، فَعَظِّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ دِينِهِ ، وَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ ، إِلاَّ وَجَعَلَ لَهُ عَلَماً بَادِياً ، وَآيَةً مُحْكَمَةً تَزْجُرُ عَنْهُ أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ ، فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ ، وَسُخْطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ .

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَخِطَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ؛ وَلَنْ

---

(١) ٦٥ - ٣.

يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرٍ بَيِّنٍ ، وَتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَهُ الرِّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ ، قَدْ كَفَاكُمْ مَؤُونَةَ دُنْيَاكُمْ ، وَحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ ، وَافْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ ، وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوى وَجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ وَحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ ، فَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ ؛ وَنَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ ، وَتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ : إِنْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ ، قَدْ وَكَّلَ بِكُمْ حَفَظَةً كِرَاماً ، لاَ يُسْقِطُونَ حَقّاً ، وَلاَ يُثْبِتُونَ بَاطِلاً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنَ الْفِتَنِ ، وَنُوراً مِنَ الظُّلَمِ ، وَيُخْلِدْهُ فِيمَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ ، وَيُنْزِلْهُ مَنْزِلَةَ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُ ، فِي دَارٍ اصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ : ظِلُّهَا عَرْشُهُ ، وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ ، وَزُوَّارُهَا مَلاَئِكَتُهُ ، وَرُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ . فَبَادِرُوا الْمَعَادَ ، وَسَابِقُوا الآجَالَ ، فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ الأَمَلُ ، وَيَرْهَقَهُمُ الأَجَلُ ، وَيُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ ، فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَأَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ ، وَقَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بِالارْتِحَالِ ، وَأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ ، فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا . أَفَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ وَالْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ ، وَالرَّمْضَاءِ تَحْرِقُهُ ؟ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ ، ضَجِيعَ حَجَرٍ ، وَقَرِينَ شَيْطَانٍ ؟! أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكاً إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضاً لِغَضَبِهِ ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعاً مِنْ زَجْرَتِهِ ؟؟!!.

أَيُّهَا الْيَفَنُ الْكَبِيرُ ، الَّذِي قَدْ لَهَزَهُ الْقَتِيرُ ! كَيْفَ أَنْتَ إِذَا الْتَحَمَتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ الأَعْنَاقِ ، وَنَشِبَتِ الْجَوَامِعُ ، حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ ؟! فَاللهَ اللهَ ، مَعْشَرَ الْعِبَادِ ، وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السَّقَمِ !! وَفِي الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ ، فَاسْعَوْا فِي فِكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَغْلَقَ رَهَائِنُهَا : أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ . وَأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ ، وَاسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ ، وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ ، وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلاَ تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا ، فَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ **إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ **مَنْ**

ذَا الَّذِي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ؟ ﴾ فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ ؛ وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ ، اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَـهُ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ؛ فَبَادِرُوا بِـأَعْمَالِكُمْ تَكُـونُوا مَعَ جِيرَانِ اللهِ فِي دَارِهِ رَافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ ، وَأَزَارَهُمْ مَلَائِكَتَهُ ؛ وَأَكْـرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارٍ أَبَـداً ، وَصَانَ أَجْسَـادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوبـاً وَنَصَباً ﴿ **ذٰلِـكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَـاءُ ، وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَـظِيمِ** ﴾ . أَقُولُ مَـا تَسْمَعُونَ ، وَالله الْمُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ . وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

أقول : اليفن . الشيخ الكبيـر . والقتير : الشيب . ولهـزه : خالـطه . والجوامع : جمع جامعة وهي الغل لجمعها الأيدي إلى الأعناق . واللغوب : التعب .

وقد وصف القرآن الكريم بالأضـداد المتعاديـة لاختلاف الاعتبـارات : فالآمر مع الزاجـر . وإطلاقهمـا عليه مجـاز من باب إطـلاق اسم السبب على المسبّب . إذ الآمر والناهي هـو الله تعالى ، والصـامت مع النـاطق . وإطلاق لفظ النـاطق عليـه مجـاز . إذ النـاطق هـو المتكلم بـه من بـاب إطـلاق اسم المتعلق على المتعلق ، وكـونه حجـة الله على خلقه لاشتمـالـه على وعـدهم ووعيدهم ، وبيان غاية وجودهم والمطلوب منهم والإعذار إليهم ﴿ **أن تقـولوا يـوم القيـامـة إنّـا كنّـا عن هـذا غـافلين** ﴾[1] ولأنـه خـلاصـة مـا بعث بـه الـرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقـد بعث رسله مبشرين ومنـذرين لئلا يكـون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ولأنه أقوى المعجزات التي احتجّ بها الرسـول صلى الله عليه وآله وسلم على الخلق في صدقه .

وقوله : أخذ عليهم ميثاقه .

الضميـر في أخذ الله وفي ميثـاقه للكتـاب ، وذلـك الأخـذ هـو خلقهم وبعثهم إلى الـوجود إلى أن يعملوا بمـا اشتمل عليـه الكتـاب من مـطالب الله

---

(١) ٧ - ١٧٢ .

الحقّة ، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم** ﴾[1] الآية، والتقدير أخذ عليهم ميثاق بما فيه .

وقوله : وارتهن عليه أنفسهم .

أي جعل أنفسهم رهناً على العمل بما فيه والوفاء به ﴿ **فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً** ﴾[2]، وأتّم به نوره : أي نور هدايته للخلق ، والنور المتمم هو نور النبوة وهو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ **يريدون أن يطفؤوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره** ﴾[3]. وإطفاؤه بما كانوا يقولونه من كونه صلى الله عليه وآله وسلم معلّم مجنون وساحر كذّاب ، وكون القرآن أساطير الأوّلين اكتتبها . وكذلك أكرم به دينه .

وقوله : وقبض نبيّه . إلى قوله : به .

كقوله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ الآية ، وأحكام الهدى بيان طرقه وكيفية سلوكها وتثبيتها في قلوب المؤمنين . ثم أمر بتعظيم الله سبحانه وتعالى . يقال : عظمت من فلان . كما يقال : عظمته ، وما هنا مصدرية : أي عظّموه كتعظيمه نفسه : أي اطلبوا المناسبة في تعظيمكم له كتعظيمه نفسه . ثم أشار إلى وجه وجوب تعظيمنا له وهو قوله : لم يخف عنكم شيئاً من دينه بل كشفه لنا وبيّنه بأجمعه بقدر الإمكان ، ولم يترك شيئاً من مراضيه ومكارهه إلاّ نصب عليه علماً ظاهراً أو آية واضحة من كتابه يشتمل على أمر بما يرضيه أو زجر عما يكرهه .

وقوله : فرضاه فيما بقى واحد وسخطه فيما بقى واحد . إشارة إلى أن المرضىٰ له من الأحكام أو المسخوط فيما مضى هو المرضي أو المسخوط فيما بقي من الأوقات واستقبل من الزمان ، وحكمه في كونه مرضيّاً أو مسخوطاً واحد في جميع الأوقات لا يتغيّر ولا ينقض ، وفيه إيماء إلى أن رفع شيء من الأحكام السابقة بالقياس والرأي لا يجوز كما سبق بيان مذهبه عليه السلام في ذلك .

وقوله : أنه لن يرضى عنكم بشيء سخطه على من كان قبلكم . إلى

(١) ٧ ـ ١٧١ .
(٢) ٤٨ ـ ١٠ .
(٣) ٩ ـ ٣٢ .

قوله : قبلكم .

تأكيد وتقرير لما سبق : أي أن ما سخطه ونهى عنه الصحابة مثلاً فلن يرضى عنكم بفعله فليس لكم أن تجوّزوه وتحلّوه باجتهاد ، وكذلك مارضيه لهم وأمرهم به فلن يسخط عليكم بفعله حتى تحرّموه باجتهاد منكم . ويحتمل أن يريد بقوله : فرضاه فيما بقي واحد وسخطه فيما بقي واحد : أي فيما بقي من الأحكام الجزئية التي لم يدلّ النص عليها بالمطابقة. بل يحتاج إلى اجتهاد في إلحاقها بالمنصوص وإدراجها تحت النصوص . ومعنى وحدة رضاه وسخطه فيها أن الحكم المطلوب أو المكروه فيها واحد لا يجوز الاختلاف فيه حتى يحكم أحد المجتهدين في الشيء الواحد بالحل ويحكم الآخر فيه بالحرمة ، وتختلف الفتاوى في تلك القضية .

لأنها إما مسخوطة أو مرضيّ . ويكون ذلك نهياً منه عليه السلام عن الاختلاف في الفتيا . كما علمت ذمّه لذلك فيما سبق من الفصول ، ويكون قوله : واعلموا أنه لن يرضى عنكم . إلى قوله : قبلكم . في معنى النهي عن رفع الأحكام الشرعية بالاجتهاد والقياس كما قرّرناه ، وقيل : معناه النهي عن الاختلاف في الفتيا أيضاً : أي أنه لن يرضى عنكم بالاختلاف الذي سخطه ممن كان قبلكم كما أشار إليه تعالى بقوله : ﴿ **إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء** ﴾[1] وكذلك ليس يسخط عليكم بالاتفاق والاجتماع المرضي ممن كان قبلكم ، وقيل : بل المراد أنه لم يرض عنكم بشيء سخطه ممن كان قبلكم من الاعتقادات الباطلة في المسائل الإلهية ، ولم يسخط عليكم بشيء رضيه ممن كان قبلكم من الاعتقادات الحقّة فيها ، ويكون ذلك مختصاً بالأصول دون الفروع .

وقوله : وإنّما تسيرون في أثر بيّن . إلى قوله : قبلكم .

إشارة إلى أن الأدلة لكم واضحة قد تداولها الأوّلون قبلكم . فأنتم المتكلمون بها وتردّدونها رجع القول المردّد منهم .

وقوله : قد كفاكم مؤونة دنياكم .

---

(١) ٦ - ١٦٠.

كقوله تعالى : ﴿ **وآتاكم من كل ما سألتموه** ﴾[1] وتلك الكفاية إما بخلقها وإيجادها ، وإمّا برزقه بكل ما كتب له في اللوح المحفوظ ، وحثّه على الشكر في تكرار أوامره به . ونقل عن الحسن البصري أنه قال : إن الله كفانا مؤونة دنيانا وحثّنا على القيام بوظائف ديننا فليته كفانا مؤونة ديننا وحثّنا على القيام بوظائف دنيانا ، وهو إشارة منه إلى شدة التحفّظ في الدين والاحتراز عليه .

وقوله : وافترض من ألسنتكم الذكر .

لما كان لكل من الجوارح عبادة كانت العبادة المفروضة باعتبار اللسان الذكر ، وقد علمت أنه باب عظيم من أبواب السلوك إلى الله بل هو روح العبادات كلها . إذ كل عبادة لم تشفع بالذكر فهي خداج . ثم نبّه على التقوى بوصية الله تعالى فيها ، ثم بكونها منتهى رضاه وحاجته من خلقه ، ولفظ الحاجة مستعار . إذ تنزّه قدسه تعالى عنها ، ووجه مشابهته للمحتاج هو الحثّ والطلب المتكرر منه حتى كأنه محتاج إلى عبادة العباد وتقواهم .

ولما استلزمت التقوى الحقيقية الوصول إلى الله لا جرم كانت منتهى رضاه من خلقه . ثم أمرهم بها بعد التنبيه عليها . ونبّه على الوجوه التي لأجلها تحصل تقوى الله وخشيته وهي كونهم بعينه : أي بحيث يعلم ما يعملون ، ولفظ العين مجاز في العلم إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب لاستلزامها إيّاه ، وكون نواصيهم بيده : أي في قدرته . وإنّما خصّ الناصية إشارة إلى أن أعظم جوارح الإنسان وأشرف ما فيه مملوك . واليد مجاز في القدرة إطلاقاً لاسم السبب القابلي على المسبب ، وكذلك كون تقلبهم في قبضته : أي تصرفهم في حركاتهم وسكناتهم بحسب تصريف قدرته وحكمه لا خروج عنه في شيء .

وقوله : إن أسررتم .

كقوله تعالى : ﴿ **يعلم ما يسرّون** ﴾ .

وقوله : إن أعلنتم كتبه . إلى قوله : باطلاً .

---

(١) ١٤ - ٣٧ .

قد سبقت الإشارة إلى الكتبة غير مرة . ثم أكد القول في التقوى بقوله : واعلموا . إلى قوله : من الفتن . وهو لفظ القرآن .

وقوله : من الفتن .

تفسير لقوله : مخرجاً . ونوراً من الظلم : أي من ظلم الجهل بأنوار العلوم الحاصلة عن الاستعداد بالتقوى .

وقوله : ويخلده فيما اشتهت نفسه .

كقوله تعالى : ﴿ **وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون** ﴾[1]، ومنزل الكرامة هو المنزل المبارك المأمور بطلبه في قوله تعالى : ﴿ **وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين** ﴾[2] والدار التي اصطنعها لنفسه كناية عن الجنة ، ونسبها إلى نفسه تعظيماً لها وترغيباً فيها . وظاهر حسن تلك النسبة فإن الجنة المحسوسة أشرف دار رتّبت لأشرف المخلوقات .

وأما المعقولة فيعود إلى درجات الوصول والاستغراق في المعارف الإلهية التي بها السعادة والبهجة واللذة التامة وهي جامع الاعتبار العقلي لمنازل أولياء الله وخاصته ومقامات ملائكته ورسله . ومن المتعارف أن الملك العظيم إذا صرف عنايته إلى بناء دار يسكنها هو وخاصته أن يقال إنها تخص بالملك وأنه بناها . وظاهر الكلام يدل على أنها في السماوات وأن العرش عليها ، وفي هذه الكلمة لطيفة وذلك أنك علمت أن العرش يطلق ويراد به الفلك التاسع ، ويطلق ويراد به العقل الأول باعتبار إحاطة علمه بجميع الموجودات وباعتبار حمله لمعرفة صانعه الأول ـ جلّت عظمته ـ ، ويطلق ويراد به سلطانه وعظمته . واستعار لفظ الظلّ للعرش بالمعنى الأول باعتبار أن حركة الفلك من الأسباب المعدة لوصول النفوس البشرية والفلكية إلى كمالها بالمعارف الإلهية التي بها الراحة الكبرى من حرارة نار الجهل. كما أن بالظل يكون الراحة من حرارة الشمس .

وبالمعنى الثاني أيضاً هو أن المعارف الإلهية المفاضة على أسرار

---

(١) ٢١ ـ ١٠٢ .
(٢) ٢٣ ـ ٣٠ .

المستعدين من قبل ذلك الملك المقدس يكون بها الراحة الكبرى كما تكون بالظل أيضاً . وبالمعنى الثالث أن سلطانه تعالى وعلوه هو المستولى على كل سلطان والعالي عليه العلوّ المطلق .

وإذ هو مبدأ راحة جميع النفوس بجميع كمالاتها العقليّة فهو ظلها الذي إليه يلجأ . وإطلاق لفظ الظل على النعمة والسلطان في العرف ظاهر يقال : أنا في ظلّ فلان وفي ظل الملك وعدله إذا كان في نعمة منه وعنايته .

وقوله: ونورها بهجته .

فبهجته تعالى تعود إلى بهائه وكماله المشرق في أقطار العالمين على أسرار النفوس . وظاهر كونه نور الجنة الذي تعشى فيه أبصار البصائر ، ويستغرق في الابتهاج به الملائكة المقرّبون .

وقوله : وزوّارها ملائكته ورفقاؤها رسله .

فيه لطيفة : وذلك أنه لما كانت النفوس البشرية متحدة كانت متقاربة المنازل في الكمال ، وممكن لها ذلك . فعبّر عن الرسل بالرفقاء في الجنة لسكانها . ولما خالفت أنواع الملائكة السماوية والمجرّدين عن علائق الأجسام في الحقائق وتفاوتت في الكمالات لا جرم خصص الملائكة بكونهم زوّارها : أي زوّار ساكنيها . إذ كان الرفيق ألصق وأقرب من الزائر .

وعبّر بتلك الزيارة عن حضور الملأ الأعلى عند النفوس الكاملة عند [حين خ] انقطاعها عن العلائق الحسية والتفاتها عنها . ولما كان ذلك الحضور غير دائم بل بحسب فلتات النفس أشبه الزيارة فاستعير له لفظها .

وإنما كان الملك هو الزائر دون النفس لأن صورته ومثاله هو الواصل إلى النفس عند استعدادها لتصوره من فيض واهب الصور . ثم عاد إلى التذكير بأمر المعاد فأمر بمبادرته إلى المعاجلة إلى ما يصلحه ويخلص من أهواله من سائر القربات إلى الله . وكذلك مسابقة الآجال .

وقوله : فإن الناس يوشك أن ينقطع بهم الأمل .

أي أمل الدنيا والبقاء فيها . ولأجل ذلك الانقطاع وقربه يجب أن

يلتفت إلى صلاح المعاد . ويرهقهم الأجل : أي يلحقهم . فلأجل ذلك اللحوق يجب أن يسارع إلى العمل لما يبقى . ويسدّ عنهم باب التوبة بإدراك الأجل فيجب مبادرتها .

وقوله : فقد أصبحتم . إلى قوله : قبلكم .

أي أصبحتم في حال الحياة والصحة والأمن وسائر الأسباب التي يتمنى من كان قبلكم الرجعة إليها ، ويمكنكم معها العمل .

وقوله : وأنتم بنو سبيل . إلى قوله : بالزاد .

فالواو في أنتم للحال ، واستعار لهم وصف بنو السبيل لكونهم في هذه الدار بالعرض تقصد بهم العناية الإلهية غاية أُخرى ، وتحثّهم بالشريعة على الرحيل عن الدنيا فهم فيها كالمسافرين . فأبواب مدينتهم جود الله . وأقرب الأبواب إلى الدنيا الأرحام التي منها يخرجون إليها . وأبواب الخروج منها هي الموت . ولفظ السفر مستعار مشهور يقرب من الحقيقة . وظاهر أن داراً لا يبقى الإنسان فيها بل تكون مرافق لطريق دار أُخرى ليست بدار للسالك إلى تلك الدار ، ونبّه على إيذانهم فيها بالرحيل منها تنفيراً عن الركون إليها واتخاذها وطناً ، وعلى أمرهم باتخاذ الزاد فيها تنبيهاً على أن هناك غاية لها. يجب أن يستعد للسلوك إليها فيها . ولفظ الزاد مستعار لتقوى الله وطاعته التي هي زاد النفوس إلى حضرة ربّ العالمين .

وقوله : واعلموا . إلى قوله : نفوسكم .

تذكير بالوعيد على المعاصي ، وأمر لهم برحمة نفوسهم . وذلك بالأعمال الصالحة واتباع أوامر الله .

وقوله : فإنّكم قد جرّبتموها . إلى قوله : شيطان .

في قوة احتجاج على وجوب تلك الرحمة . وتلخيصه أنكم جربتم أنفسكم في هذه الأمور الحقيرة فجزعتم ، وكل من جزع من أمثال هذه فبالأولى أن يجزع من كونه بين طابقين من نار ضجيع حجر وقرين شيطان ، وقد علمت فيما سلف أن للنار سبع طبقات وهي دركاتها ، وضجيع حجر من قوله تعالى : ﴿ **وقودها الناس والحجارة** ﴾ ، وقرين شيطان من قوله :

﴿ **فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون** ﴾(١) وهم الشياطين ، وقوله : ﴿ **ومن يعش عن ذكر الرحمٰن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين** ﴾(٢) إلى قوله : ﴿ **ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون** ﴾(٣) .

وقوله : أعلمتم أن مالكاً . إلى قوله : زجرته .

من صفات النار المحسوسة ذكرها للتخويف والتحذير .

وقوله : أيها اليفن الكبير . إلى قوله : السواعد .

خطاب للشيخ الكبير لأنه أولى بالإقلاع عن المعصية لقربه من الآخرة . وسؤاله عن حاله سؤال تقريع وتوبيخ على المعصية . وأطواق النار المحسوسة ظاهرة ، وأطواقها المعقولة تمكن الهيئات البدنية من أعناق النفوس ، وأغلالها من سواعدها . ثم أخذ في التحذير من الله لغاية العمل. بما يرضيه حال الصحة والفسحة قبل لحوق ضدّيهما .

ثم في الأمر بالسعي لغاية فكاك رقابهم من النار . قبل أن تغلق رهائنها بآثامها . وقد علمت وجه الاستعارة هنا للرهن . ثم في الأمر بالسهر ، وكنّى به عن قطع الليل بالعبادة كقوله تعالى : ﴿ **ومن الليل فاسجد له وسبّحه ليلاً طويلاً** ﴾(٤). وإنما خصّ الليل لأنه مظنّة الخلوة بالله والفراغ من الناس ، ولأن النهار محل عبادة أُخرى كالجهاد والكدح للعيال .

ثم بتضمير البطون ، وكنّى به عن صيام النهار . ثم باستعمال أقدامهم ، وكنّى به عن القيام في الصلاة . ثم بإنفاق أموالهم ، وكنّى به عن الصدقات والزكاة في سبيل الله. ثم بالأخذ من أجسادهم ، وكنّى به عن إذابتها بالصيام والقيام للصلاة وإيثار القشف المستلزم للإعراض عن تربيته هذه الأجساد لاستلزام ذلك حبّ الدنيا والإقبال على لذاتها . ولا شك أن الأخذ من الجسد بهذه العبادات جود على النفس بملكات الخير والقرب من الله تعالى ، ولذلك قال : فجودوا بها على أنفسكم ولا تبخلوا بها عنها .

---

(١) ٢٦ - ٩٤.
(٢) ٤٣ - ٣٥ .
(٣) ٤٣ - ٣٨.
(٤) ٧٦ - ٢٦ .

وفي ذكر أن إتعاب الجسد جود على النفس ترغيب فيه . ثم استشهد بالآيتين على وعد الله بالنصر لمن نصره ، وبمضاعفة الأجر لمن أقرضه بعد أمره بنصر الله بامتثال أوامره وبقرضه بالصدقات ، ووجه استعارة لفظ القرض كثرة الأوامر الإلهية الطالبة للصدقات فأشبهت طلب المحتاج المستقرض ، وفائدة هذا الاستشهاد إلى قوله : أيكم أحسن عملا . إعلامهم بأنه الغني المطلق عن عباده فيما طلبه منهم من نصرة وقرض ، وبيان غاية العناية الإلهية منهم بذلك وهو الابتلاء ، وقد علمت ابتلاء الله تعالى لخلقه غير مرة . ثم أعاد الأمر بالمبادرة إلى أعمال الآخرة لغاية الكون مع خزّان الله [جيران الله - خ -] في جنّته مرافقين لرسله كما قال تعالى : ﴿ **وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾[1] ومرافقة رسله كقوله تعالى : ﴿ **أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النّبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا** ﴾[2]. ومزارين للملائكة كقوله تعالى : ﴿ **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾[3]. وتكرمة أسماعهم أن تسمع حسيس نار أبداً كقوله تعالى : ﴿ **لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون** ﴾[4] وصيانة أجسادهم أن تلقى لغوباً ونصباً كقوله تعالى : ﴿ **لا يمسّنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب** ﴾[5].

وقوله : ذلك فضل الله الآية .

اقتباس للآية ووجه الاقتباس ظاهر .

وقوله : أقول . إلى آخره .

خاتمة الخطبة ، وفيها الاستعانة بالله على النفوس الأمارة بالسوء في قهرها وتطويعها للنفوس المطمئنة فإنه نعم المعين ونعم الوكيل .

---

(١) ٣٩ - ٧٣.
(٢) ٤ - ٧١.
(٣) ١٣ - ٢٤.
(٤) ٢١ - ١٠٢.
(٥) ٣٥ - ٣٢.

١٨٣ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

قاله للبرج بن مسهر الطائي ، وقد قال له بحيث يسمعه : « لا حكم إلاّ لله » وكان من الخوارج :

أُسْكُتْ ! قَبَّحَكَ الله يَا أَثْرَمُ ، فَوَالله لَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ فَكُنْتَ فِيهِ ضَئِيلاً شَخْصُكَ ، خَفِيّاً صَوْتُكَ ، حَتَّى إذَا نَعَرَ الْبَاطِلُ نَجَمْتَ نُجُومَ قَرْنِ الْمَاعِزِ .

أقول : هو البرج بالباء المضمومة والجيم . وقبحه الله : نحّاه عن الخير . وأثرم : ساقط الثنية . والضئيل : الصغير الحقير النحيف . ونعر : صاح . ونجم : طلع .

وكان البرج شاعراً مشهوراً من شعراء الخوارج نادى بشعارهم بحيث يسمعه عليه‌السلام فزجره وقبحه ودعاه بآفته إهانة له وانتقاصاً كما هو العادة في إهانة ذوي العاهات بذكر آفاتهم ، وكنّى بضؤولة شخصه عند ظهور الحق عن حقارته في زمن العدل بين الجماعة وخمول ذكره ـ وظهور الحق زمان قوة الإسلام وقبل ظهور الفتن وقوة الباطل ـ، وبخفاء صوته عن عدم الالتفات إلى أقواله وحقارته ، واستعار لفظ النعير لظهور الباطل ملاحظة لشبهه في قوته وظهوره بالرجل الصائل الصائح بكلامه عن جرأة وشجاعة ، وشبّه ظهوره بين الناس وارتفاع ذكره عند ظهور الباطل وقوته بظهور قرن الماعز في السرعة بغتة :

أي طلعت بلا شرف ولا شجاعة ولا قدم بل على غفلة كنبات قرن الماعز، ومن البلاغة تشبيه من يراد إهانته بالمهين الحقير وتشبيه من يراد تعظيمه بالعظيم الخطير ، وبالله التوفيق .

١٨٤ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

روي أن صاحباً لأمير المؤمنين عليه‌السلام ـ يقال له : همام ـ كان رجلاً عابداً، فقال له : يا أمير المؤمنين ، صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم ! فتثاقل عليه‌السلام عن جوابه ، ثم قال :

يَا هَمَّامُ اتَّقِ الله وَأَحْسِنْ فَإِنَّ الله مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ،

فلم يقنع همام بهذا القول حتى عزم عليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم قال :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ - حِينَ خَلَقَهُمْ - غَنِياً عَنْ طَاعَتِهِمْ ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ ؛ لأَنَّهُ لاَ تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ ، وَلاَ تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ ، فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَائِشَهُمْ ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ ، فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ : مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ ، وَمَلْبَسُهُمُ الاِقْتِصَادُ ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ ، غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ ، نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلاَءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ ، وَلَوْلاَ الأَجَلُ الَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقاً إلِىَ الثَّوَابِ ، وَخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ ، عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا ، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا ، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ : قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ ، صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً . تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ ، أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا ، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا .

أَمَّا اللَّيْلُ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ : يُرَتِّلُونَهُ تَرْتِيلاً ، يُحْزِنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، وَيَسْتَثِيرُونَ دَوَاءَ دَائِهِمْ ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً ، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً ، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ ، وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ ، يَطَّلِبُونَ إلى اللهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ .

وَأَمَّا النَّهَارُ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ ، قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى ، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ ، وَيَقُولُ قَدْ خُولِطُوا : وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ : لاَ يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ ، وَلاَ

يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ ، فَهُمْ لأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ ، إِذَا زُكِّيَ أَحَدُهُمْ ، خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ ! فَيَقُولُ : أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي ؛ وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي .

اللَّهُمَّ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ ، وَٱجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ ، وَٱغْفِرْ لِي مَا لاَ يَعْلَمُونَ .

فَمِنْ عَلاَمَةِ أَحَدِهِمْ : أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ ، وَحَزْماً فِي لِينٍ ، وَإِيمَاناً فِي يَقِينٍ ، وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ ، وَعِلْماً فِي حِلْمٍ ، وَقَصْداً فِي غِنًى ، وَخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ ، وَتَحَمُّلاً فِي فَاقَةٍ ، وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ ، وَطَلَباً فِي حَلاَلٍ ، وَنَشَاطاً فِي هُدىً ، وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ ، يَعْمَلُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ ، يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ ، يَبِيتُ حَذِراً ، وَيُصْبِحُ فَرِحاً : حَذِراً لِمَا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ ، وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ . إِنِ ٱسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ ، قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لاَ يَزُولُ ؛ وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لاَ يَبْقَى ، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ ، تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ ، قَلِيلاً زَلَلُهُ ، خَاشِعاً قَلْبُهُ ، قَانِعَةً نَفْسُهُ ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ ، سَهْلاً أَمْرُهُ ، حَرِيزاً دِينُهُ ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ ، الْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ . وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ ، إِنْ كَانَ فِي الْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ ، وَإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ ، يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ ، بَعِيداً فُحْشُهُ ، لَيِّناً قَوْلُهُ ، غَائِباً مُنْكَرُهُ ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ ، مُدْبِراً شَرُّهُ ، فِي الزَّلاَزِلِ وَقُورٌ ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ ، لاَ يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ ، وَلاَ يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ ، لاَ يُضِيعُ مَا ٱسْتُحْفِظَ ، وَلاَ يَنْسَى مَا ذُكِّرَ ، وَلاَ يُنَابِزُ بِالأَلْقَابِ ، وَلاَ يُضَارُّ بِالْجَارِ ، وَلاَ يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ ، وَلاَ يَدْخُلُ فِي الْبَاطِلِ ، وَلاَ يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ . إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ . نَفْسُهُ مِنْهُ

فِي عَنَاءٍ ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ . أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ . بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ . لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ ، وَلاَ دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخُدْعَةٍ .

قال : فصعق همام صعقة كانت نفسه فيها ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام :

أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخَافُهَا عَلَيْهِ ! ثُمَّ قَالَ : أَهَكَذَا تَصْنَعُ الْمَوَاعِظُ الْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا ؟

فقال له قائل : فما بالك يا أمير المؤمنين فقال : وَيْحَكَ! إنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ وَقْتاً لاَ يَعْدُوهُ ، وَسَبَباً لاَ يَتَجَاوَزُهُ ، فَمَهْلاً لاَ تَعُدْ لِمِثْلِهَا ؛ فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ !!.

أقول : ومن هيهنا اختلفت نسخ النهج فكثير منها تكون هذه الخطبة فيها أول المجلد الثاني منه بعد الخطبة المسمّاة بالقاصعة ، ويكون عقيب كلامه للبرج بن مسهر الطائي قوله : ومن خطبة له عليه السلام الحمدلله الذي لا تدركه الشواهد ولا تحويه المشاهد ، وكثير من النسخ تكون هذه الخطبة فيها متصلة بكلامه عليه السلام للبرج بن مسهر وتتأخر تلك الخطبة فتكون بعد قوله : ومن كلام له عليه السلام وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويتصل ذلك إلى تمام الخطبة المسماة بالقاصعة .

ثم يليه قوله : باب المختار من كتب أمير المؤمنين ورسائله ، وعليه جماعة الشارحين كالإمام قطب الدين أبي الحسن الكيدري والفاضل عبد الحميد ابن أبي الحديد ، ووافقتهم هذا الترتيب لغلبة الظن باعتمادهم على النسخ الصحيحة .

فأما همام هذا فهو همام بن شريح بن يزيد بن مرة بن عمرو بن جابرابن عوف الأصهب ، وكان من شيعة علي عليه السلام ، وأوليائه ناسكاً عابداً ، وتثاقله عليه السلام عن جوابه لما رأى من استعداد نفسه لأثر الموعظة ، وخوفه عليه أن يخرج به خوف الله إلى انزعاج نفسه وصعوقها . فأمره بتقوى الله : أي في نفسه أن يصيبها فادح بسبب سؤاله ، وأحسن : أي أحسن إليها بترك تكليفها

فوق طوقها ، ولذلك قال عليه السلام حين صعق همام : أما والله لقد كنت أخافها عليه . فحيث لم يقنع همام إلّا بما سأل ، وعزم عليه بذلك : أي ألحّ عليه في السؤال وأقسم ، أجابه .

فإن قلت : كيف جاز منه عليه السلام أن يجيبه مع غلبة ظنه بهلاكه وهو كالطبيب إنّما يعطي كلّاً من المرضى بحسب احتمال طبيعته من الدواء .

قلت : إنه لم يكن يغلب على ظنه عليه السلام إلّا الصعقة عن الوجد الشديد فأمّا أن تلك الصعقة فيها موته فلم يكن مظنوناً له . وإنّما قدّم بيان كونه تعالى غنياً عن الخلق في طاعتهم وآمناً منهم في معصيتهم لأنه لما كانت أوامره تعالى بأسرها أو أكثرها يعود إلى الأمر بتقواه وطاعته وكان أشرف ما يتقرّب إليه البشر بالتقوى ، وهو في معرض صفة المتقين فربما خطر ببعض أوهام الجاهلين أن لله تعالى في تقواه وطاعته منفعة ، وله بمعصيته مضرّة فصدره الخطبة بتنزيهه عن الانتفاع والتضرر . وقد مرّ برهان ذلك غير مرّة .

وقوله : فقسم . إلى قوله : مواضعهم .

تقرير وتأكيد لكمال غناه عنهم لأنه إذا كان وجوده هو مبدء خلقهم وقسمة معائشهم ووضعهم من الدنيا في مراتبهم ومنازلهم من غني وفقير وشريف ووضيع فهو الغني المطلق عنهم ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات** ﴾[1]. ثم أخذ في غرض الخطبة ، وهو وصف المتقين فوصفهم بالوصف المجمل . فقال : فالمتقون فيها هم أهل الفضائل : أي الذين استجمعوا الفضائل المتعلقة بإصلاح قوتي العلم والعمل ، ثم شرع في تفصيل تلك الفضائل ونسقها :

فالأولى : الصواب في القول وهو فضيلة العدل المتعلقة باللسان ، وحاصله أن لا يسكت عما ينبغي أن يقال فيكون مفرطاً ، ولا يقول ما ينبغي أن يسكت عنه فيكون مفرطاً بل يضع كلّاً من الكلام في موضعه اللائق به ، وهو أخصّ من الصدق لجواز أن يصدق الإنسان فيما لا ينبغي من القول .

---

(١) ٤٣ ـ ٣١.

الثانية : وملبسهم الاقتصاد وهو فضيلة العدل في الملبوس فلا يلبس ما يلحقه بدرجة المترفين ، ولا ما يلحقه بأهل الخسة ، والدناءة مما يخرج به عن عرف الزاهدين في الدنيا .

الثالثة : مشي التواضع ، والتواضع ملكة تحت العفة تعود إلى العدل بين رذيلتي المهانة والكبر ، ومشي التواضع مستلزم للسكون والوقار عن تواضع نفسهم .

الرابعة : غضّ الأبصار عما حرم الله ، وهو ثمرة العفة .

الخامسة : وقوفهم أسماعهم على سماع العلم النافع ، وهو فضيلة العدل في قوة السمع ، والعلوم النافعة ما هو كمال القوة النظرية من العلم الإلهي وما يناسبه ، وما هو كمال للقوة العملية وهي الحكمة العملية كما سبق بيانها .

السادسة : نزول أنفسهم منهم في البلاء كنزولها في الرخاء : أي لا تقنط من بلاء ينزل بها ولا تبطر برخاء يصيبها بل مقامها في الحالين مقام الشكر . والذي صفة مصدر محذوف ، والضمير العائد إليه محذوف أيضاً ، والتقدير نزلت كالنزول الذي نزلته في الرخاء ، ويحتمل أن يكون المراد بالذي . الذين محذوف النون . كما في قوله تعالى : ﴿ **كالذي خاضوا** ﴾ ويكون المقصود تشبيههم حال نزول أنفسهم منهم في البلاء بالذين نزلت أنفسهم منهم في الرخاء ، والمعنى واحد .

السابعة : غلبة الشوق إلى ثواب الله والخوف من عقابه على نفوسهم إلى غاية أن أرواحهم لا تستقر في أجسادهم من ذلك لولا الآجال التي كتبت لهم ، وهذا الشوق والخوف إذا بلغ إلى حدّ الملكة فإنه يستلزم دوام الجدّ في العمل والإعراض عن الدنيا ، ومبدءهما تصوّر عظمة الخالق ، وبقدر ذلك يكون تصوّر عظمة وعده ووعيده ، وبحسب قوة ذلك التصور يكون قوة الخوف والرجاء ، وهما بابان عظيمان للجنة .

الثامنة : عظم الخالق في أنفسهم ، وذلك بحسب الجواذب الإلهية إلى الاستغراق في معرفته ومحبته ، وبحسب تفاوت ذلك الاستغراق يكون

تفاوت تصور العظمة ، وبحسب تصوّر عظمته تعالى يكون تصوّرهم لأصغرية ما دونه ونسبته إليه في أعين بصائرهم .

وقوله : فهم والجنة كمن رآها . إلى قوله : معذّبون .

إشارة إلى أن العارف وإن كان في الدنيا بجسده فهو في مشاهدته بعين بصيرته لأحوال الجنة وسعادتها وأحوال النار وشقاوتها كالذين شاهدوا الجنة بعين حسهم وتنعموا فيها ، وكالذين شاهدوا النار وعذبوا فيها . وهي مرتبة عين اليقين . فحسب هذه المرتبة كانت شدة شوقهم إلى الجنة وشدّة خوفهم من النار .

التاسعة : حزن قلوبهم ، وذلك ثمرة خوف الغالب .

العاشرة : كونهم مأموني الشر ، وذلك أن مبدء الشرور محبة الدنيا وأباطيلها والعارفون بمعزل عن ذلك .

الحادية عشر : نحافة أجسادهم ، ومبدء ذلك كثرة الصيام والسهر وجشوبة المطعم وخشونة الملبس وهجر الملاذّ الدنيوية .

الثانية عشر : خفة حاجتهم ، وذلك لاقتصارهم من حوائج الدنيا على القدر الضروري من ملبس ومأكل ، ولا أخف من هذه الحاجة .

الثالثة عشر : عفّة أنفسهم ، وملكة العفّة فضيلة القوة الشهوية ، وهي الوسط بين رذيلتي خمود الشهوة والفجور .

الرابعة عشر : الصبر على المكاره أيام حياتهم من ترك الملاذّ الدنيوية ، واحتمال أذى الخلق ، وقد عرفت أن الصبر مقاومة النفس الأمارة بالسوء لئلا ينقاد إلى قبائح اللذات ، وإنما ذكر قصر مدّة الصبر واستعقابه للراحة الطويلة ترغيباً فيه ، وتلك الراحة بالسعادة في الجنة كما قال تعالى : ﴿ **وجزاهم بما صبروا جنّة وحريرا** ﴾ الآية .

وقوله : تجارة مربحة .

استعار لفظ التجارة لأعمالهم الصالحة ، وامتثال أوامر الله ، ووجه المشابهة كونهم متعوضين بمتاع الدنيا وبحركاتهم في العبادة متاع الآخرة ،

ورشح بلفظ الربح لأفضلية متاع الآخرة وزيادته في النفاسة على ما تركوه ، وظاهر أن ذلك بتيسير الله لأسبابه وإعدادهم له بالجواذب الإلهية .

الخامسة عشر : عدم إرادتهم للدنيا مع إرادتها لهم ، وهو إشارة إلى الزهد الحقيقي ، وهو ملكة تحت العفة ، وكنّى بإرادتها عن كونهم أهلاً لأن يكونوا فيها رؤساءً ، وأشرافاً كقضاة ووزراء ونحو ذلك ، وكونها بمعرض أن تصل إليهم لو أرادوها ، ويحتمل أن يريد أرادهم أهل الدنيا فحذف المضاف .

السادسة عشر : افتداء من أسرته لنفسه منها ، وهو إشارة إلى من تركها وزهد فيها بعد الانهماك فيها والاستمتاع بها ففكّ بذلك الترك والإعراض والتمرّن على طاعة الله أغلال الهيئات الرديئة المكتسبة منها من عنقه ، ولفظ الأسر استعارة في تمكن تلك الهيئات من نفوسهم ، ولفظ الفدية استعارة لتبديل ذلك الاستمتاع بها بالإعراض عنها والمواظبة على طاعة الله ، وإنّما عطف بالواو في قوله : ولم يريدوها ، وبالفاء في قوله : ففدوا . لأن زهد الإنسان في الدنيا كما يكون متأخراً عن إقبالها عليه كذلك قد يكون متقدماً عليه لقوله ﷺ : ومن جعل الآخرة أكبر همه جمع الله عليه همه وأتته الدنيا وهي راغمة . فلم يحسن العطف هنا بالفاء ، وأما الفدية فلما لم يكن إلاّ بعد الأسر لا جرم عطفها بالفاء .

السابعة عشر : كونهم صافّين أقدامهم بالليل يتلون القرآن ويرتّلونه . إلى قوله : آذانهم . وذلك إشارة إلى تطويع نفوسهم الأمارة بالسوء بالعبادات ، وشرح لكيفية استثارتهم للقرآن العزيز في تلاوته وغاية ترتيلهم له بفهم مقاصده وتحزينهم لأنفسهم به عند ذكر الوعيدات من جملة استثارتهم لأدواء دائهم ، ولما كان داؤهم هو الجهل وسائر رذائل العملية كان دواء الجهل بالعلم ، ودواء كل رذيلة الحصول على الفضيلة المضادة . فهم بتلاوة القرآن يستثيرون بالتحزين الخوف من وعيد الله المضاد للانهماك في الدنيا ، ودواؤه العلم الذي هو دواء الجهل ، وكذلك كل فضيلة حثّ القرآن عليها فهي دواء لما يضادّها من الرذائل ، وباقي الكلام شرح لكيفية التحزين والتشويق .

وقوله : فهم حانون على أوساطهم .

ذكر لكيفية ركوعهم .

وقوله : مفترشون لجباههم . إلى قوله : أقدامهم .

إشارة إلى كيفية سجودهم ، وذكر الأعضاء السبعة .

وقوله : يطلبون . إلى قوله : رقابهم .

إشارة إلى غايتهم من عبادتهم تلك .

الثامنة عشر : ـ من صفات النهار ـ كونهم حكماء ، وأراد الحكمة الشرعية وما فيها من كمال القوةالعلمية والعملية لكونها المتعارفة بين الصحابة والتابعين ، وروي : حلماء . والحلم فضيلة تحت ملكة الشجاعة هي الوسط بين رذيلتي المهانة والإفراط في الغضب ، وإنما خصّ الليل بالصلاة لكونها أولى بها من النهار كما سبق .

التاسعة عشر : كونهم علماء ، وأراد كمال القوة النظرية بالعلم النظري وهو معرفة الصانع وصفاته .

العشرون : كونهم أبرار ، والبر يعود إلى العفيف لمقابلته الفاجر .

الحادية والعشرون : كونهم أتقياء ، والمراد بالتقوى هيهنا الخوف من الله . وقد مر ذكر العفّة والخوف ، وإنما كرّرها هنا في إعداد صفاتهم بالنهار وذكرها هناك في صفاتهم المطلقة .

قوله : وقد براهم الخوف . إلى قوله : عظيم .

شرح لفعل الخوف الغالب بهم ، وإنما يفعل الخوف ذلك لاشتغال النفس المدبرة للبدن به عن النظر في صلاح البدن ، ووقوف القوة الشهويّة والغاذية عن اداء بدل ما يتحلّل ، وشبّه بري الخوف لهم ببري القداح ووجه التشبيه شدّة النحافة ، ويتبع ذلك تغيّر السحنات والضعف عن الانفعالات النفسانية من الخوف والحزن حتى يحسبهم الناظر مرضى وإن لم يكن بهم مرض ، ويقول قد خولطوا إشارة إلى ما يعرض لبعض العارفين عند اتصال نفسه بالملأ الأعلى واشتغالها عن تدبير البدن وضبط حركاته من أن يتكلم

بكلام خارج عن المتعارف مستبشع بين أهل الشريعة الظاهرة. فينسب ذلك منه إلى الاختلاط والجنون وتارة إلى الكفر والخروج عن الدين كما نقل عن الحسين بن منصور الحلّاج وغيره .

وقوله : ولقد خالطهم أمر عظيم .

وهو اشتغال أسرارهم بملاحظة جلال الله ومطالعة أنوار الملأ الأعلى .

الثانية والعشرون : كونهم لا يرضون القليل . إلى قوله : الكثير ، وذلك لتصوّرهم شرف غايتهم المقصودة بأعمالهم .

وقوله : فهم لأنفسهم متهمون . إلى قوله : ما لا يعلمون .

فتهمتهم لأنفسهم وخوفهم من أعمالهم يعود إلى شكّهم فيما يحكم به أوهامهم من حسن عبادتهم ، وكونها مقبولة أو واقعة على الوجه المطلوب الموصل إلى الله تعالى فإن هذا الوهم يكون مبدأً للعجب بالعبادة والتقاصر عن الازدياد من العمل . والتشكك في ذلك وتهمة النفس بانقيادها في ذلك الحكم للنفس الأمارة يستلزم خوفها أن تكون تلك الأعمال قاصرة عن الوجه المطلوب وغير واقعة عليه فيكون باعثاً على العمل وكاسراً للعجب به ، وقد عرفت أن العجب من المهلكات كما قال عليه السلام : ثلاث مهلكات :

شحّ مطاع وهوى متّبع وإعجاب المرء بنفسه . وكذلك خوفهم من تزكية الناس لهم هو الدواء لما ينشأ عن تلك التزكية من الكبر والعجب بما يزكون به . فيكون جواب أحدهم عند تزكيته : إنّي أعلم بنفسي من غيري . إلى آخره .

ثم شرع بعد ذلك في علاماتهم التي بجملتها يعرف أحدهم . والصفات السابقة وإن كان كثير منها مما يخصّ أحدهم ويعرف به إلّا أن بعضها قد يدخله الرياء فلا يدخل على التقوى الحقة فجمعها هيهنا ونسقها :

فالأولى : القوة في الدين ، وذلك أن يقاوم في دينه الوسواس الخنّاس ولا يدخل فيه خداع الناس ، وهذا إنّما يكون في دين العالم .

الثانية : الحزم في الأمور الدنيوية والتثبّت فيها ممزوجاً باللين للخلق

وعدم الفظاظة عليهم كما في المثل : لا تكن حلواً فتسترط ولا مراً فتلفظ . وهي فضيلة العدل في المعاملة مع الخلق ، وقد علمت أن اللين قد يكون للتواضع المطلوب بقوله : ﴿ **واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين** ﴾[١] وقد يكون عن مهانة وضعف يقين ، والأول هو المطلوب وهو المقارن للحزم في الدين ومصالح النفس ، والثاني رذيلة ولا يمكن معه الحزم لانفعال المهين عن كل جاذب .

الثالثة : الإيمان في اليقين ، ولما كان الإيمان عبارة عن التصديق بالصانع وبما وردت به الشريعة ، وكان ذلك التصديق قابلاً للشدة والضعف ، فتارة يكون عن التقليد وهو الاعتقاد المطابق لا لموجب ، وتارة يكون عن العلم وهو الاعتقاد المطابق لموجب هو الدليل ، وتارة عن العلم به مع العلم بأنه لا يكون إلّا كذلك ، وهو علم اليقين ـ ومحقّقو السالكين لا يقفون عند هذه المرتبة. بل يطلبون اليقين بالمشاهدة بعد طرح حجب الدنيا والإعراض عنها ـ أراد أن علمهم علم يقين لا يتطرق إليه احتمال .

الرابعة : الحرص في العلم والازدياد منه .

الخامسة : مزج العلم وهو فضيلة القوة الملكية بالحلم ، وهو من فضائل القوة السبعيّة .

السادسة : القصد في الغنى ، وهو فضيلة العدل في استعمال متاع الدنيا وحذف الفضول عن قدر الضرورة .

السابعة : الخشوع في العبادة وهو من ثمرة الفكر في جلال المعبود وملاحظة عظمته الذي هو روح العبادة .

الثامنة : التحمّل في الفاقة ، وذلك بترك الشكوى إلى الخلق والطلب منهم ، وإظهار الغنى عنهم . وذلك ينشأ عن القناعة والرضا بالقضاء وعلو الهمة ، ويعين على ذلك ملاحظة الوعد الأجل وما أُعد للمتقين .

التاسعة : وكذلك الصبر في الشدة .

---

(١) ٢٦ ـ ٢١٥ .

العاشرة : الطلب في الحلال ، وينشأ عن العفة .

الحادية عشر : النشاط في الهدى وسلوك سبيل الله ، وينشأ عن قوة الاعتقاد فيما وعد المتقون وتصوّر شرف الغاية .

الثانية عشر : عمل الصالحات على وجل : أي من أن يكون على غير الوجه اللائق فلا يقبل كما روي عن زين العابدين عليه السلام أنه كان في التلبية وهو على راحلته فخرّ مغشياً عليه فلما أفاق قيل له ذلك . فقال : خشيت أن يقول لي ربي : لا لبيّك ولا سعديك .

الثالثة عشر : أن يكون همّهم عند المساء الشكر على ما رزقوا بالنهار وما لم يرزقوا ، ويصبحوا وهمّهم الذكر لله ليذكرهم فيرزقهم من الكمالات النفسانية والبدنية كما قال تعالى : ﴿ **فاذكروني أذكركم واشكرو لي ولا تكفرون** ﴾ .

الرابعة عشر : أن يبيت حذراً ويصبح فرحاً . إلى قوله : الرحمة . تفسير للمحذور وما به الفرح ، وليس مقصوده تخصيص البيات بالحذر والصباح بالفرح كما يقول أحدنا يمسي فلان ويصبح حذراً فرحاً ، وكذلك تخصيصه الشكر بالمساء والذكر بالصباح يحتمل أن لا يكون مقصوداً .

الخامسة عشر : قوله إن استصعبت . إلى قوله : تحبّ . إشارة إلى مقاومته لنفسه الأمّارة بالسوء عند استصعابها عليه ، وقهره لها على ما تكره وعدم مطاوعته لها في ميولها الطبيعية ومحابّها .

السادسة عشر : أن يرى قرة عينه فيما لا يزول من الكمالات النفسانية الباقية كالعلم والحكمة ومكارم الأخلاق المستلزمة للذات الباقية والسعادة الدائمة ، وقرة عينه كناية عن لذته وابتهاجه لاستلزامها لقرار العين وبردها برؤية المطلوب ، وزهادته فيما لا يبقى من متاع الدنيا .

السابعة عشر : أن يمزج بالحلم العلم فلا يجهل ويطيش ، والقول بالعمل فلا يقول ما لا يفعل فلا يأمر بمعروف ويقف دونه ولا ينهى عن منكر ثم يفعله ، ولا يعد فيخلف فيدخل في مقت الله كما قال تعالى : ﴿ **كبر مقتاً**

عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾(١).

الثامنة عشر : قصر أمله وقربه ، وذلك لكثرة ذكر الموت والوصول إلى الله .

التاسعة عشر : قلّة زلله قد عرفت أن زَلَل العارفين يكون من باب ترك الأولى لأن صدور الخيرات عنهم صادر ملكة والجواذب فيهم إلى الزلل والخطيئات نادرة تكون لضرورة منهم أو سهو ، ولا شك في قلّته .

العشرون : خشوع قلبه عن تصوّر عظمة المعبود وجلاله .

الحادية والعشرون : قناعة نفسه ، وينشأ عن ملاحظة حكمة الله في قدرته وقسمته الأرزاق ، ويعين عليها تصور فوائدها الحاضرة وغايتها في الآخرة .

الثانية والعشرون : قلة أكله ، وذلك لما يتصور في البطنة من ذهاب الفطنة وزوال الرقة وحدوث القسوة والكسل عن العمل .

الثالثة والعشرون : سهولة أمره : أي لا يتكلّف لأحد ولا يكلّف أحداً .

الرابعة والعشرون : حرز دينه فلا يهمل منه شيئاً ولا يطرِق إليه خللاً .

الخامسة والعشرون : موت شهوته ، ولفظ الموت مستعار لخمود شهوته عمّا حرّم عليه . ويعود إلى العفة .

السادسة والعشرون : كظم غيظه ، وهو من فضائل القوة الغضبيّة .

السابعة والعشرون : كونه مأمول الخير وذلك لأكثرية خيراته ، مأمون الشرور وذلك لعلم الخلق بعدم قصده للشرور .

الثامنة والعشرون : قوله : إن كان في الغافلين . إلى قوله : الغافلين : أي إن رآه الناس في عداد الغافلين عن ذكر الله لتركه الذكر باللسان كتب عند الله من الذاكرين لاشتغال قلبه بالذكر وإن تركه بلسانه ،

---

(١) ٦١ - ٣.

وإن كان من الذاكرين بلسانه بينهم فظاهر أنه لا يكتب من الغافلين . ولذكر الله ممادح كثيرة وهو باب عظيم من أبواب الجنة والاتصال لجناب الله ، وقد أشرنا إلى فضيلته وأسراره .

التاسعة والعشرون : عفوه عمن ظلمه ، والعفو فضيلة تحت الشجاعة ، وخصّ من ظلمه ليتحقق عفوه مع قوة الداعي إلى الانتقام .

الثلاثون : ويعطي من حرمه ، وهي فضيلة تحت السخاء .

الحادية والثلاثون : ويصل من قطعه ، والمواصلة فضيلة تحت العفة .

الثانية والثلاثون : بعد فحشه ، وأراد ببعد الفحش عنه أنه قلما يخرج في أقواله إلى ما ينبغي .

الثالثة والثلاثون : لينه في القول عند محاورة الناس ووعظهم ومعاملتهم ، وهو من أجزاء التواضع .

الرابعة والثلاثون : غيبة منكره وحضور معروفه ، وذلك للزومه حدود الله .

الخامسة والثلاثون : إقبال خيره وإدبار شرّه ، وهو كقوله : الخير منه مأمول والشر منه مأمون ، ويحتمل باقبال خيره أخذه في الازدياد من الطاعة وتشميره فيها ، وبقدر ذلك يكون إدباره عن الشر لأن من استقبل أمراً وسعى فيه بعد عما يضاده وأدبر عنه .

السادسة والثلاثون : وقاره في الزلازل ، وكنّى بها عن الأمور العظام والفتن الكبار المستلزمة لاضطراب القلوب وأحوال الناس . والوقار ملكة تحت الشجاعة .

السابعة والثلاثون : كثرة صبره في المكاره ، وذلك عن ثباته وعلو همته عن أحوال الدنيا .

الثامنة والثلاثون : كثرة شكره في الرخاء ، وذلك لمحبة المنعم الأول ـ جلّت قدرته ـ فيزداد شكره في رخائه وإن قلّ .

التاسعة والثلاثون : كونه لا يحيف على من يبغض ، وهو سلب

للحيف والظلم مع قيام الداعي إليهما وهو البغض لمن يتمكن من حيفه وظلمه .

الأربعون : كونه لا يأثم فيمن يحب ، وهو سلب لرذيلة الفجور عنه باتّباع الهوى فيمن يحبّ إمّا بإعطائه ما لا يستحق أو دفع ما يستحق عليه عنه كما يفعله قضاة السوء وأمراء الجور . فالمتقي لا يأثم بشيء من ذلك مع قيام الداعي إليه وهو المحبة لمن يحبّه . بل يكون على فضيلة العدل في الكل على السواء .

الحادية والأربعون : اعترافه بالحق قبل أن يشهدوا عليه ، وذلك لتحرّزه في دينه من الكذب ، إذ الشهادة إنما يحتاج إليها مع إنكار الحق ، وذلك كذب .

الثانية والأربعون : كونه لا يضيع أماناته ولا يفرط فيما استحفظه الله من دينه وكتابه ، وذلك لورعه ولزوم حدود الله .

الثالثة والأربعون : ولا ينسى ما ذكر من آيات الله وعبره وأمثاله ولا يترك العمل بها ، وذلك لمداومته ملاحظتها ، وكثرة إخطارها بباله والعمل بها لغايته المطلوبة منه .

الرابعة والأربعون : ولا ينابز بالألقاب ، وذلك لملاحظته النهي في الذكر الحكيم ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾[1] ولسرّ ذلك النهي وهو كون ذلك مستلزماً لإثارة الفتن والتباغض بين الناس ، والفرقة المضادة لمطلوب الشارع .

الخامسة والأربعون : ولا يضارّ بالجار لملاحظة وصيّة الله تعالى : ﴿ **والجار ذي القربى والجار الجنب** ﴾[2] ووصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المرفوع إليه : أوصاني ربي بالجار حتى ظننت أنه يورّثه ، ولغاية ذلك وهي الألفة والاتحاد في الدين .

السادسة والأربعون : ولا يشمت بالمصائب ، وذلك لعلمه بأسرار

---

(١) ٤٩ ـ ١١ .
(٢) ٤ ـ ٤٠ .

القدر ، وملاحظته لأسباب المصائب ، وأنه في معرض أن تصيبه فيتصور أمثالها في نفسه فلا يفرح بنزولها على غيره .

السابعة والأربعون : أنه لا يدخل الباطل ولا يخرج عن الحق : أي لا يدخل فيما يبعد عن الله تعالى من باطل الدنيا ولا يخرج عما يقرّب إليه من مطالبه الحقة ، وذلك لتصور شرف غايته .

الثامنة والأربعون : كونه لا يغمّه صمته لوضعه كلّاً من الصمت، والكلام في موضعه ، وإنما يستلزم الغم الصمت عما ينبغي من القول وهو صمت في غير موضعه .

التاسعة والأربعون : كونه لا يعلو ضحكه ، وذلك لغلبة ذكر الموت وما بعده على قلبه ، ومما نقل من صفات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : كان أكثر ضحكه التبسم ، وقد يفتر أحياناً ، ولم يكن من أهل القهقهة والكركرة . وهما كيفيّتان للضحك .

الخمسون : صبره في البغي عليه إلى غاية انتقام الله له ، وذلك منه نظراً إلى ثمرة الصبر وإلى الوعد الكريم ذلك : ﴿ **ومن عاقب بمثل ما عوقب به. ثم بغي عليه لينصرنّه الله** ﴾(١) الآية. وقوله : ﴿ **ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** ﴾.

الحادية والخمسون : كون نفسه منه في عناء : أي نفسه الأمارة بالسوء لمقاومته لها وقهرها ومراقبته إياها ، والناس من أذاه في راحة لذلك .

الثانية والخمسون : كون بعده عمن تباعد عنه لزهده فيما في أيدي الناس ونزاهته عنه لا عن كبر وتعظيم عليهم ، وكذلك دنوه ممن دنا منه عن لين ورحمة منه لهم لا بمكر بهم وخديعة لهم عن بعض المطالب. كما هو عادة الخبيث المكّار . وهذه الصفات والعلامات قد يتداخل بعضها بعضاً ، ولكن تورد بعبارة أخرى أو تذكر مفردة ثم تذكر ثانياً مركبة مع غيرها . وبالجملة فهذه الخطبة من جليل وبليغ وصفه ولذلك فعلت بهمام ما فعلت .

---

(١) ٢٢ - ٥٩.

فأما جوابه عليه السلام لمن سأله بقوله : ويحك إن لكل أجل وقتاً لا يعدوه : أي ينتهي إليه ويكون غاية له لا يتجاوزها ولا يتأخّر عنها ، والضمير في يعدوه للأجل . وسبباً لا يتجاوزه : أي ولذلك الأجل سبب أي علّة فاعلة لا يتعداها إلى غيرها من الأسباب فمنها ما يكون موعظة بالغة كهذه . فهو جواب مقنع للسامع مع أنه حق وصدق ، وهو إشارة إلى السبب الأبعد لبقائه عليه السلام عند سماع المواعظ البالغة وهو الأجل المحكوم به للقضاء الإلهي .

وأما السبب القريب للفرق بينه وبين همّام ونحوه فقوّة نفسه القدسية على قبول الواردات الإلهية وتعوّده بها وبلوغ رياضته حدّ السكينة عند ورود أكثرها وضعف نفس همّام عما ورد عليه من خوف الله ورجائه . ولم يجب عليه السلام بمثل هذا الجواب لاستلزامه تفضيل نفسه ، أو لقصور فهم السائل . ونهيه له عن مثل هذا السؤال والتنفير عنه كونه من نفثات الشيطان لوضعه في غير موضعه وهو من آثار الشيطان . وبالله العصمة والتوفيق .

١٨٥ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

يصف فيها المنافقين :

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَذَادَ عَنْهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ ، وَنَسْأَلُهُ لِمَنَّتِهِ تَمَاماً ، وَبِحَبْلِهِ آعْتِصَاماً ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ : خَاضَ إِلَى رِضْوَانِ اللهِ كُلَّ غَمْرَةٍ ، وَتَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّةٍ ، وَقَدْ تَلَوَّنَ لَهُ الأَدْنَوْنَ ، وَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الأَقْصَوْنَ ، وَخَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعِنَّتَهَا وَضَرَبَتْ لِمُحَارَبَتِهِ بُطُونَ رَوَاحِلِهَا حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عُدْوَانَهَا : مِنْ أَبْعَدِ الدَّارِ ، وَأَسْحَقِ الْمَزَارِ .

أُوصِيكُمْ ، عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ ، وَأُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ ؛ فَإِنَّهُمُ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ ؛ وَالزَّالُّونَ الْمُزِلُّونَ : يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً ، وَيَفْتَنُّونَ آفْتِنَاناً ، وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ ، وَيَرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ ، قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ ، وَصِفَاحُهُمْ نَقِيَّةٌ ، وَيَمْشُونَ الْخَفَاءَ ، وَيَدِبُّونَ الضَّرَاءَ . وَصْفُهُمْ دَوَاءٌ ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ ، وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعَيَاءُ ، حَسَدَةُ الرَّخَاءِ ، وَمُؤَكِّدُو الْبَلاَءِ ؛ وَمُقْنِطُو الرَّجَاءِ ، لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيعٌ ، وَإِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ ؛ وَلِكُلِّ شَجْوٍ دُمُوعٌ ، يَتَقَارَضُونَ الثَّنَاءَ ،

وَيَتَرَاقَبُونَ الْجَزَاءَ : إِنْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا ، وَإِنْ عَذَلُوا كَشَفُوا ، وَإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا . قَدْ أَعدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلاً ، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلاً ، وَلِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلاً ، وَلِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحاً ، وَلِكُلِّ لَيْلٍ مِصْبَاحاً ، يَتَوَصَّلُونَ إِلَى الطَّمَعِ بِالْيَأْسِ لِيُقِيمُوا بِهِ أَسْوَاقَهُمْ ، وَيُنْفِقُوا بِهِ أَعْلَاقَهُمْ : يَقُولُونَ فَيُشَبِّهُونَ ، وَيَصِفُونَ فَيُوَهِّمُونَ ، قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ ، وَأَضْلَعُوا الْمَضِيقَ ؛ فَهُمْ لُمَّةُ الشَّيْطَانِ ، وَحُمَةُ النِّيرَانِ ﴿ **أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ .

أقول : ذاد : طرد . والغمرة من كل شيء : معظمه . وأسحق المزار : أبعده . والسحق بضم السين : البعد ، وكذلك بضم الحاء . ويعمدونكم : يهدّونكم ويفدحونكم . والعماد : الأمر الفادح . يرصدونكم : يقعدون لكم المراصد وينتظرونكم . والضراء : ما واراك من الشجر الملتف . والإلحاف : الاستقصاء في السؤال . والشجو : الحزن . والأعلاق : جمع علق وهي السلعة الثمينة . والتمويه : التزيين والتلبيس . وأضلعوا المضيق إضلاعاً : أي عوّجوه وأمالوه . وهو ضلع : أي مائل . وضلع بفتح اللام : أي معوج خلقة . واللمة بالتخفيف : الجماعة . وحمّة النيران بالتشديد : معظم حرّها . وبالتخفيف سمّ العقرب .

وقد حمد الله تعالى باعتبارين : وهما التوفيق لطاعته التي هي سبب الفوز الأكبر والطرد عن معصيته التي هي سبب الخسران الأخسر ، وذلك الذود إما بالنواهي أو بحسم أسباب المعاصي وعدم الإعداد لها والكل منه سبحانه .

ثم سأله أمرين : التمام لما شكره من النعمة نظراً إلى قوله تعالى : ﴿ **ولئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾ والاعتصام بحبله المتين وهو الدين القويم العاصم لمن تمسّك له عن الهوى في مهاوي الهلاك ودركات الجحيم ، وأردف ذلك بشهادة الرسالة وشرح حال المرسل صلى الله عليه وآله وسلم في أداء رسالته ، واستعار لفظ الغمرة لمعظم الشرور والمكاره المتكافئة المجتمعة حين بعثته صلى الله عليه وآله وسلم ملاحظة لشبهها بغمرة الماء ، ورشح بذكر الخوض ، وكنّى به عن مقاساته للمتاعب الكثيرة وملاقاته للنوائب من المشركين في بدء دعوته ،

وكنّى بالغصص عن عوارض الغموم له من ملاقاة تلك المكاره ، وكنّى بتلوّن الأدنين له عن تغيّر قلوب أقربائه عليه حينئذٍ بضروب التغيّرات ، وتألب الأقصين عليه اجتماع الأباعد عنه من العرب وانضمامهم من أقصى البلاد إلى حربه .

وقوله : وخلعت إليه العرب . إلى قوله : رواحلها .

مثلان كنّى بهما عن المسارعة إلى حربه لأن أقوى عدوّ الخيل إذا خلعت أعنّتها ، وأقوى عدو الرواحل إذا ضربت بطونها ، وفيه إيماء إلى أنهم أتوه فرساناً وركباناً متسرعين إلى حربه .

وقوله : حتى أنزلت بساحته عداوتها .

أي حروبها وشرورها التي هي ثمرة العداوة ، وأطلق لفظ العداوة على الحرب مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبب . ومن طالع كتب السير يطّلع على ما لاقى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذات الله سبحانه من المشاق كاستهزاء قريش به في أول الدعوة ، ورميهم إيّاه بالحجارة حتى أدموا عقبيه ، وصياح الصبيان به ، وفرث الكرش على رأسه ، وفتلهم الثوب في عنقه ، وحصره هو وأهله في شعب بني هاشم سنين عدة محرمة معاملتهم ، ومبايعتهم ومناكحتهم وكلامهم حتى كادوا يتلفون جوعاً لولا بعض من كان يحنو عليهم لرحم أو لسبب آخر فكان يسترق لهم القليل من الدقيق أو التمر فيلقيه إليهم ليلاً، ثم ضربهم لأصحابه وتعذيبهم بالجوع والوثاق في الشمس وطردهم إيّاهم عن شعاب مكة حتى خرج بعضهم إلى الحبشة وخرج هو عليه السلام مستجيراً منهم تارة بثقيف وتارة ببني عامر وتارة بربيعة الفرس وبغيرهم ، ثم أجمعوا على قتله والفتك به ليلاً حتى هرب منهم لائذاً بالأوس والخزرج تاركاً لأولاده وأهله ناجياً بحشاشة نفسه حتى وصل إلى المدينة فناصبوا الحرب ورموه بالكتايب وضربوا إليه آباط الإبل حتى أكرمه الله تعالى ونصره وأيّد دينه وأظهر .

ثم عقب عليه السلام بالوصية بتقوى الله والتحذير من المنافقين وتعديد مذاقهم ليعرفوا فيجتنبوا ويحصل النفار عنهم فإنّهم الضالّون : أي المنحرفون

عن سبيل الله لعدم الاهتداء إليها ، المضلّون لغيرهم عنها بالشبهات الباطلة . وكذلك الزالّون المزلّون . وكنّى بتلوّنهم ألواناً عن تغيّراتهم في أقوالهم وأفعالهم من حال إلى حال بحسب أغراضهم الفاسدة فيلقون كلا بوجه ولسان غير الآخر . وكذلك تفتّنهم : أي تشعب أقوالهم وحالاتهم بحسب تشعب أغراضهم . وأراد بعمدهم لهم قصدهم لهم بكل مكروه على وجه الحيلة والخدعة ، وترصدهم لهم بكل مرصاد تتبع وجوه الحيل في هلاكهم بكل مكروه على وجه الحيلة . وأراد بقلوبهم دويّة وصفاحهم نقية اشتمال نفوسهم على الداء النفساني من الحسد والحقد والمكر والخديعة وإعمال الحيلة مع إظهار البشاشة والصداقة والمحبة والنصيحة لهم ، وهذا هو الضابط في النفاق ، وهو أن يظهر الإنسان بلسانه أمراً حسناً محموداً ويبطن خلافه ، وأراد بصفاحهم وجوههم ، وبنقائها سلامتها عن شر ظاهر .

وقوله : يمشون الخفاء .

كناية عن كون حركاتهم القولية والفعلية فيما يريدونه في خفاء إفهام الناس ، وكذلك قوله : ويدبّون الضراء . والخفاء والضراء منصوبان على الظرف . وهما مثلان لمن يختل غيره ويخدعه .

وقوله : وصفهم دواء . إلى قوله : العياء .

أي أقوالهم أقوال الزاهدين العابدين من الموعظة والأمر بالتقوى وطاعة الله الذي هو دواء الغي والضلال وشفاء منهما ، وأفعالهم أفعال الفاسقين الضالين من معصية الله التي هي الداء الأكبر . والعياء : المعيي للأطباء .

وقوله : حسدة الرخاء .

أي إن رأوا لامرىءٍ رخاءً حسدوه ، ومؤكّدو البلاء : أي إن رأوا به بلاء أكدوه بالسعاية والتأليب عليه . وروي : ومولّدوا . وهو ظاهر . ومقنطو الرجاء : أي إذا رجا راج أمراً ففي طباعهم أن يقنطوه ويؤيسوه . وهكذا شأن المنافق الكذّاب أن يبعد القريب ويقرّب البعيد .

وقوله : لهم بكل طريق صريع .

كناية عن كثرة من يقتلونه أو يؤذونه بخديعتهم ومكرهم . وكنّى بالطريق

إما عن كل مقصد قصدوه ، أو عن كل حيلة احتالوها ومكر مكروه فإنّه لا بدّ أن يستلزم أذى .

وقوله : إلى كل قلب شفيع .

أي إن من شأن المنافق أن يتخذ إلى كل قلب ذريعة ووجهاً غير الآخر فيكون صديق الكل حتى المتعادين ليتوصل بذلك إلى إثارة الفتن وإيقاع الشرّ بينهم وهو في نفس الأمر عدوّ الكل ، وكذلك لهم لكل شجو دموع كناية عن توجّعهم لكل شجو وتوصلهم بذلك إلى أغراضهم وإن كانوا لأهل الشجو أعداءاً .

وقوله : يتقارضون الثناء ويتراقبون الجزاء .

أي يثني أحدهم على الآخر ليثني الآخر عليه ، ويترقّب كل منهم الجزاء من صاحبه على ثنائه .

وقوله : إن سألوا ألحفوا .

أي ألحّوا في السؤال وهو من المذام كما قال تعالى : ﴿ **لا يسألون الناس إلحافاً** ﴾[1] .

وقوله : وإن عذلوا كشفوا .

أي إذا عذلك أحدهم كشف لك عيوبك في ذلك العذل وجبَهك بها وربما ذكرها بمحضر من لاتحب ذكرها معه وليسوا كالناصحين الذين يعرضون بالذنب عند العتاب تعريضاً لطيفاً دون التصريح ، وإذا حكموا أسرفوا : أي إذا ولى أحدهم ولاية أسرف فيها بالظلم والانهماك في مأكله ومشربه وعبر في قينات الدنيا إلى حد الإفراط من فضيلة العدل . وذلك لجهله بالعواقب وتصوّره أن لا غاية أشرف مما هو فيه ، قد أعدّوا لكل حق باطلاً : أي من الشبه يموّهون عليه ويغطونه بها ، ولكل حي قاتلاً : أي سبباً يميتونه به . والحي أعم من الإنسان هنا. بل كل أمر يحيا ويقوم إذا أرادوا فساده ، ولكل باب مفتاحاً من الحيل والخديعة ولفظ المفتاح مستعار ، ولكل

---

(١) ٢ ـ ٢٧٤ .

ليل مصباحاً ولفظ الليل مستعار لما أشكل من الأمور وأظلم . وكذلك لفظ المصباح للرأي الذي يدخلون به في ذلك الأمر ويهتدون إلى وجهه به كرأي عمرو بن العاص على معاوية ليلة الهرير برفع المصاحف ودعوتهم أهل العراق أن يحاكموهم إلى كتاب الله فلم يكن لذلك المشكل إلاّ ذلك الرأي الصعب ، ويتوصلون إلى الطمع باليأس : أي بإظهار اليأس عما في أيدي الناس والزهد فيه كما يفعله كثير من زهاد الوقت . ووصفهم بأخذ الشيء بضده أبلغ ما يكون في وصف النفاق والحيلة .

وقوله : ليقيموا به أسواقهم .

استعار لفظ الأسواق لأحوالهم في معاملة الخلق من أخذ وإعطاء فإن فعلهم ذلك يقيمها بين الناس ويروّجها عليهم . وكذلك ينفقوا به أعلاقهم . ولفظ الأعلاق مستعار لما يزعمون أنه نفيس من آرائهم وحركاتهم الخارجة عن أوامر الله .

وقوله : يقولون , إلى قوله : فيوهّمون .

أي يوقعون بأقوالهم الشبه في القلوب ويوهمون عليهم الباطل بصورة الحق .

وقوله : قد هوّنوا الطريق .

أي قد عرفوا كيف يسلكون في مقاصدهم من الآراء والحيل ، وأضلعوا الطريق : عوّجوا مضائقها . وكنّى بمضائقها عن دقائق المداخل في الأمور . وبتعويجها عن أنهم إذا أرادوا الدخول في أمر مضيق أظهروا أنهم يريدون غيره تعمية على الغيروتلبيساً أن يقف على وجه الحيلة فيفسد مقصودهم .

وقوله : فهم لمة الشيطان .

أي جماعته وأتباعه . وحمّة النيران مستعار لمعظم شرورهم . ووجه المشابهة استلزامها للأذى البالغ . وكذلك حمة بالتخفيف .

١٨٦ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ ، وَجَلَالِ كِبرِيَائِهِ ؛ مَا حَيَّـر مُقَلَ

الْعُيُونِ مِنْ عَجائِبِ قُدْرَتِهِ ، وَرَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ . وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله شَهَادَةَ إِيمَانٍ وَإِيقَانٍ ، وَإِخْلاَصٍ وَإِذْعَانٍ . وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ وَأَعْلاَمُ الْهُدَى دَارِسَةٌ ، وَمَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَةٌ ، فَصَدَعَ بِالْحَقِّ ، وَنَصَحَ لِلْخَلْقِ ، وَهَدَى إِلى الرُّشْدِ ، وَأَمَرَ بِالْقَصْدِ ، صَلَّى اللهِ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

وَاعْلَمُوا ، عِبَادَ الله ، أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً ، وَلَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلاً . عَلِمَ مَبْلَغَ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ ، وَأَحْصَى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ ، فَاسْتَفْتِحُوهُ ، وَاسْتَنْجِحُوهُ ، وَاطْلُبُوا إِلَيْهِ وَاسْتَمْنِحُوهُ ، فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ ، وَلاَ أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ ، وَإِنَّهُ لَبِكُلِّ مَكَانٍ ، وَفِي كُلِّ حِينٍ وَأَوَانٍ ، وَمَعَ كُلِّ إِنْسٍ وَجَانٍّ ، لاَ يَثْلِمُهُ الْعَطَاءُ ، وَلاَ يَنْقُصُهُ الْحِبَاءُ ، وَلاَ يَسْتَنْفِدُهُ سَائِلٌ ، وَلاَ يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ ، وَلاَ يَلْوِيهِ شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ ، وَلاَ يُلْهِيهِ صَوْتٌ عَنْ صَوْتٍ ، وَلاَ تَحْجُزُهُ هِبَةٌ عَنْ سَلْبٍ ، وَلاَ يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ ، وَلاَ تُولِهُهُ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ ، وَلاَ يُجِنُّهُ الْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ ، وَلاَ يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ الْبُطُونِ . قَرُبَ فَنَأَى ، وَعَلاَ فَدَنَا ، وَظَهَرَ فَبَطَنَ ، وَبَطَنَ فَعَلَنَ ، وَدَانَ وَلَمْ يُدَنْ ، لَمْ يَذْرَأِ الْخَلْقَ بِاحْتِيَالٍ ، وَلاَ اسْتَعَانَ بِهِمْ لِكَلاَلٍ . أُوصِيكُمْ ، عِبَادَ الله ، بِتَقْوَى الله ؛ فَإِنَّهَا الزِّمَامُ وَالْقِوَامُ ، فَتَمَسَّكُوا بِوَثَائِقِهَا ، وَاعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا ؛ تَؤُلْ بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ الدَّعَةِ ، وَأَوْطَانِ السَّعَةِ ، وَمَعَاقِلِ الْحِرْزِ . وَمَنَازِلِ الْعِزِّ ، فِي يَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ، وَتُظْلِمُ الأَقْطَارُ ، وَتُعَطَّلُ فِيهِ صُرُومُ الْعِشَارِ ، وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ : فَتَزْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ ، وَتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَةٍ ، وَتَذِلُّ الشُّمُّ الشَّوَامِخُ ، وَالصُّمُّ الرَّوَاسِخُ ، فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَاباً رَقْرَقاً ، وَمَعْهَدُهَا قَاعاً سَمْلَقاً ، فَلاَ شَفِيعٌ يَشْفَعُ ، وَلاَ حَمِيمٌ يَدْفَعُ ، وَلاَ مَعْذِرَةٌ تَنْفَعُ .

أقول : مقلة العين : شحمتها . والهمهمة : حديث النفس مع صوت خفي لا يفهم . والطامسة : كالدارسة . والحباء : النوال . وذرء : خلق . والمعقل : الملجأ . والصروم : جمع صرم وصرمة وهي القطعة من الإبل نحو الثلاثين . والعشار : النوق أتى عليها بعد طروق الفحل عشرة أشهر .

والشم الشوامخ : الجبال العالية . ومعهدها : ما كان مسكوناً منها . وقاعاً : خالياً . والسملق : الصفصف المستوي ليس بعضه أرفع من بعض .

وقد حمد الله تعالى باعتبار إظهاره من آثار ملكه وسلطانه ما أظهره من ملكوت السماوات والأرض ، وترتيب العالمين على وجه النظام الأتم مما هو محلّ العجب العجيب الذي تحار أبصار البصائر في كيفية وقوعه من القدرة الإلهية ، وفي ترتيبه على النظام الأكمل . بل كل مخلوق منها فهو محلّ ذلك العجب والحيرة ، ولفظ المقل مستعار ونسبة ذلك إلى جلال كبريائه مناسب لما أن السلطان والعظمة والكبرياء يناسب صدور الآثار العظيمة العجيبة المحكمة عنها . وردع خطرات هماهم النفوس : أي ما يخطر للنفوس فيهمهم به ، وردعه لها استلزام كماله المطلق عجزها عن إدراك حقيقته . وقد سبق ذلك غير مرة . ثم شهد بكلمة التوحيد معتبراً فيها أربعة أمور :

أحدها : كونها شهادة إيمان : أي يطابق القول فيها للعقد القلبي .

الثاني : وإيقان : أي يكون اعتقادها يقيناً وهو اعتقاد أن لا إله إلاّ هو مع اعتقاد أنه لا يمكن أن يكون ذلك المعتقد إلاّ كذلك .

الثالث : وإخلاص : وهي أن يحذف عن ذلك المعتقد كل أمر عن درجة الاعتبار ولا يلاحظ معه غيره .

الرابع : وإذعان : والإذعان ثمرة ذلك الإخلاص وكماله ، ويتفاوت بتفاوته ويعود إلى سائر الطاعات والعبادات التي هي من حقوق تلك الكلمة وتوابعها . ثم أردفها بأُختها . وذكر الأحوال التي كان العالم عليها حين الرسالة مما هي شرور تنبيهاً على فضيلة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، واستعار أعلام الهدى لأئمة الدين الهادين إلى سبيل الله . ولفظ المناهج لقوانين الشريعة التي يسلك فيها جزئيات الأحكام . ولفظ دروسها وطموسها لاضمحلالها قبل النبوة . والواو في وأعلام للحال . فصدع بما جاء به من الحق ما طلب من الباطل ، ونصح الخلق ليردّهم عن غوايتهم إلى صراط الله ، وهداهم إلى الرشد في سلوكه ، وأمرهم بالعدل والاستقامة عليه .

ثم نبه السامعين إجمالاً على أن خلق الله تعالى لهم ليس خالياً عن

غاية وأنهم لم يرسلوا في الدنيا مهملين عن أمر يراد بهم كإهمال البهيمة . ثم على علمه بمبلغ نعمه عليهم كمية وكيفية وإحصائه لها عداً ليبعثهم على شكرها ، ولذلك قال فاستفتحوه : أي أطلبوا منه أن يفتح عليكم أبواب بركاته ونصره ، واستنجحوه : أي اطلبوا منه نجاح حاجاتكم ، واطلبوا إليه : أي اطلبوا الهداية إلى حضرته ووجوه مرضاته ، واستمنحوه أن يعطيكم كمالكم . كل ذلك بالشكر وسائر العبادات التي بها الاستعداد لإفاضة رحمته .

وقوله فما قطعكم عنه حجاب إلى قوله : إنس وجانّ .

إظهار لوجود كماله وعظمته ، وتنزيه له عن صفات المخلوقين المحدثين ، وتقريب له من عباده ليطلبوا منه ويتقربوا إليه ويستنجحوه وتنفتح آمالهم منه ، وإذ لم يكن تعالى متحيّزاً فلا حجاب دونه ولا باب ، وكان بكل مكان في حالة واحدة : أي بعلمه المحيط لاستحالة ذلك التحيّز ، وفي كل حين وأوان بمعنى مساوقة وجوده لوجود الزمان لا بمعنى الظرفيّة له لتنزهه تعالى عن لحوق الزمان المتأخر عنه بمراتب من المعلولات ، ومع كل إنس وجان بعلمه ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾.

وقوله : لا يثلمه العطاء . إلى قوله : نائل .

فاستقصاء النائل له بلوغ الجود منه أقصى مقدوره ، وبرهان تلك الأحكام أن الثلم والنقصان، والاستنفاد والاستقصاء على المقدور يستلزم النهاية والحاجة المستلزمين للإمكان ، ولا شيء من واجب الوجود بممكن ، وكل من لحقته هذه الأحوال ممكن فواجب الوجود لا تلحقه هذه الأحوال ، وكذلك قوله : لا يلويه شخص عن شخص : أي لا يصرفه . إلى قوله : عقاب .

وبرهان هذه الأحكام أن الصرف واللهو يستلزمان الغفلة عن أمر والفطنة لغيره بعد الغفلة عنه ، وكذلك حجز الهبة ومنعها عن سلب نعمة أُخرى وشغل الغضب له عن الرحمة مستلزمان قصور القدرة وضعفها وتعلّقها بمحل جسماني ، وذلك مستلزم للنقصان المستلزم للحاجة والإمكان المنزّه قدس الله تعالى عنه ، وكذلك توليهه الرحمة عن العقاب يستلزم رقة الطبع ورحمة النفوس البشرية المستلزمة لعوارض الجسمية .

وجلال الله منزّه عنها .

وقوله : ولا تجنّه البطون عن الظهور .

يحتمل وجهين :

أحدهما : لا يخفيه بطون حقيقته عن العقول وخفاؤه عن العيون عن ظهوره للبصائر في صور آثاره وملكوت قدرته .

الثاني : أنه ليس في شيء حتى يخفى فيه عن الظهور على الأشياء والاطلاع عليها . ولا يقطعه الظهور عن البطون : أي لا يقطعه كونه ظاهراً أو عالماً بالأمور الظاهرة عن أن يكون باطناً لا يطلع العقل عليه أو عن علمه ببواطن الأمور وحقائقها .

وقوله : قرب . أي بعلمه وقدرته من الأشياء قرب العلة من المعلول . فنأى : أي بعد بحقيقته عن إدراك العقول والحواس .

وقوله : وعلا فدنا . فعلوّه شرفه بالقياس إلى آثاره شرف العلة على المعلول ودنوّه منها قربه .

وقوله : وظهر فبطن وبطن فعلن .

تأكيد لما قبله ، وقد سبق بيانه غير مرة .

وقوله : لم يذرء الخلق باحتيال إلى قوله : الكلال .

تنزيه لإيجاده لآثاره عن استخراج الحيل وإجالة وجوه الآراء في استخراجها . ثم عن الاستعانة بغيره في شيء من آثاره . ثم عن مبدء الاستعانة وهو الكلال والإعياء لاستلزام ذلك تناهى القوة المستلزمة للجسمية ، وإذ قدّم تنزيه الحق سبحانه عما لا ينبغي له ، ووصفه بما ينبغي له شرع في الوصية بتقواه . ثم في التنبيه على فضائلها ، واستعار لفظ الزمام لها باعتبار كونها قائدة للعبد إلى طريق الحق مانعة له عن الجور إلى طرف الباطل كالزمام للناقة ، وأراد بكونها قواماً كونها مقيمة للعبد في سلوك سبيل الله أيضاً إقامة للمصدر مقام اسم الفاعل .

وقوله : فتمسكوا بوثائقها .

أي بما به يوثق منها وهو سائر أنواع العبادات التي هي أجزاؤها ، والتمسك بها يقود إلى لزومها والمواظبة عليها . واعتصموا بحقائقها : أي بالخالص منها دون المشوب بالرياء والنفاق فإن الالتجاء إلى خالصها هو المخلص من عذاب الله .

وقوله : تؤل بكم .

انجزم تؤل لكونه جواب الأمر بالتمسك والاعتصام . وأكنان الدعة مواطن الراحة من الآلام الحسية والعقلية . وهي غرفات الجنة ومنازلها وهي أوطان السعة أيضاً من ضيق الأبدان وضنك بيوت النيران ، وهي معاقل الحرز المانعة من عذاب الله . وهي منازل العز في جوار الله .

وقوله : في يوم .

متعلق بتؤل ، واليوم يوم القيامة وسائر ما عدّده من صفات ذلك اليوم مما نطق به الكتاب الكريم كقوله تعالى : ﴿ **إنما نؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار** ﴾[1] وقوله : ﴿ **وإذا العشار عطلت** ﴾[2] وقوله : ﴿ **ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض** ﴾[3] وقوله : ﴿ **وَيسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها** ﴾[4] الآية. وقوله : ﴿ **فما لنا من شافعين ولا صديق حميم** ﴾[5] وقوله : ﴿ **فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم** ﴾[6] . فهذه بعض أهوال القيامة المحسوسة . وأما المعقولة فقال بعض السالكين : إن الإنسان إذا حضرته الوفاة شخص بصر عقله إلى ما انكشف له من الأطوار الأخروية ، وأظلمت عليه أقطار الدنيا ، وغاب منها ما كان يشاهده ، وتعطلت عنه عشاره ، وناداه داعي الأجل إلى الآخرة فزهقت نفسه .

---

(١) ١٤ ـ ٣٤.
(٢) ٨١ ـ ٤.
(٣) ٣٩ ـ ٦٨.
(٤) ٢٠ ـ ١٠٥.
(٥) ٢٦ ـ ١٠٠.
(٦) ٣٠ ـ ٥٧.

وأجابت الداعي ، وبكمت لهجته ، وذلّت شوامخ الجبال ورواسخها في نظره لعظمة الله عند مشاهدة كبريائه فتصير لا نسبة لها في نظره إلى ما شاهد من عظيم ملكوته فكأنها اضمحلت وغابت وصارت في نظره كالسراب المترقرق الذي لا أصل له بعدما كان يراها عليه من العلو والعظمة ، وكذلك ينقطع نظره عن عالم الأجسام والجسمانيات عند التوجه إلى عالم الملكوت ، وكذلك يرى ما كان معهوداً منها كالقاع الصفصف المستوي تحت سلطان الله وقهره ، وحينئذ تنقطع عن الشفيع الشافع والصديق الدافع والعذر النافع . وبالله التوفيق .

١٨٧ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

بَعَثَهُ حِينَ لَا عَلَمٌ قَائِمٌ ، وَلَا مَنارٌ سَاطِعٌ ، وَلَا مَنْهَجٌ وَاضِحٌ : أُوصِيكُمْ عِبَادَ الله ، بِتَقْوَى اللهِ ، وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيَا ؛ فَإِنَّهَا دَارُ شُخُوص ، وَمَحَلَّةُ تَنْغِيص ، سَاكِنُهَا ظَاعِنٌ ، وَقَاطِنُهَا بَائِنٌ ، تَمِيدُ بِأَهْلِهَا مَيَدَانَ السَّفِينَةِ تَقْصِفُهَا الْعَوَاصِفُ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ ، فَمِنْهُمُ الْغَرِقُ الْوَبِقُ ، وَمِنْهُمُ النَّاجِي عَلَى بُطُونِ الأَمْوَاجِ ، تَحْفِزُهُ الرِّيَاحُ بِأَذْيَالِهَا ، وَتَحْمِلُهُ عَلَى أَهْوَالِهَا ، فَمَا غَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكٍ ، وَمَا نَجا مِنْهَا فَإِلَى مَهْلِكٍ !!.

عِبَادَ الله ؛ الآنَ فَاعْمَلُوا ، وَالأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ ، وَالأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ ، وَالأَعْضَاءُ لَدْنَةٌ ، وَالْمُنْقَلَبُ فَسِيحٌ ، وَالْمَجَالُ عَرِيضٌ ، قَبْلَ إِرْهَاقِ الْفَوتِ ، وَحُلُولِ الْمَوْتِ ، فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ ، وَلَا تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ !

أقول : الساطع : المرتفع . والوبق : الهالك . واللدن : الناعم : والإرهاق : الإلحاق .

وقد ذكر البعثة حين ظهور الأحوال التي كان العالم عليها تنبيهاً على فضلها وفضيلة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

فقوله : حيث لا علم قائم .

استعار لفظ العلم والمنار للهداة إلى الله الداعين إليه ، وعدم قيامه

وسطوعه لعدمهم زمان الفترة .

وقوله : ولا منهج واضح .

أي لا طريق إلى الله خالص عن شوب الأباطيل يتبع . ثم عقب بالوصية بتقوى الله . ثم بالتحذير من الدنيا ، وقرنها بذكر عيوبها للتنفير عنها . وكونها دار شخوص إشارة إلى ضرورة الارتحال عنها بالموت ، ومحلّة تنغيص : أي تنغيص لذاتها بالآلام والأمراض حتى قيل : إن اللذة فيها إنما هي الخلاص عن الألم .

وقوله : ساكنها ظاعن وقاطنها بائن . كالتفسير لقوله : دار شخوص .

وقوله : تميد بأهلها إلى قوله : إلى مهلك .

ضربه لها ولأحوال أهلها فيها . فمثلها بالسفينة عند عصف الريح ، ومثل تصرفاتها وتغيّراتها بميدان السفينة ، ورميهم فيها بالأمراض والحوادث التي هي مظنة الهلاك بالأحوال التي تلحق أهل السفينة عند هبوب الريح العاصف حال كونها في لجج البحار ، ومثل انقسامهم عند بعض تلك الحوادث ونزولها بهم إلى ميت لا يرجى له عودة وإلى مستدرك متفارط بانقسام ركاب السفينة عند عصف الريح عليها إلى غريق هالك وإلى ناج ، ومثل الناجي من بعض الأمراض الذي تأخر موته إلى مرض آخر فلاقى من أهوال الدنيا في تلك المدة ما لاقى ثم لحقه الموت بالأخرة. بالناجي من الغرق الذي تحمله الأمواج وتدفعه الرياح ويقاسي أهوال البحر وشدائده . ثم بعد خلاصه منه لا بد له من وقت هو أجله ومرض هو المهلك : أي محل هلاكه . ثم أمر بالعمل وذكر الأحوال التي يمكن فيها ومعها العمل تنبيهاً على انتهاز الفرصة ، وتلك الأحوال صحة الألسن وإمكان ذكر الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وسائر التكاليف المتعلقة بها .

وكذلك صحة الأبدان ولدنة الأعضاء ومطاوعتها للعمل قبل يبسها بالسقم والأمراض ، وفسح المنقلب وهو محل التصرف والتقلّب ، وكنّى به عن وقت الصحة والشبيبة ، ويقرب منه عرض المجال ، وذكر إرهاق الأجل وحلول الموت تحذيراً منه وجذباً إلى العمل لما بعده . ثم أمرهم أن يتحققوا

نزوله قبل نزوله : أي يتذكّروه ويخطر ببالهم أنه حق ويقدّروا أنه واقع ليكون آكد في العمل . ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم : أكثروا من ذكر هادم اللذات . ونهاهم عن انتظار قدومه لاستلزام انتظارهم له توهمهم لبعده عنهم، وذلك يوقعهم في التكاسل عن العمل . وبالله التوفيق .

١٨٨ - ومن خطبة له (عليه السلام)

وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ، صلى الله عليه وآلِهِ وَسلم ، أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللهِ وَلاَ عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ ، وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الأَبْطَالُ ، وَتَتَأَخَّرُ فِيهَا الأَقْدَام ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللهُ بِهَا .

وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي ، وَلَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي ، فَأَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِي ، وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَالْمَلاَئِكَةُ أَعْوَانِي ، فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالأَفْنِيَةُ ، مَلأٌ يَهْبِطُ وَمَلأٌ يَعْرُجُ ، وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ مِنْهُمْ ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحِهِ ، فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيّاً وَمَيِّتاً ؟! فَانْفُذُوا عَلَى بَصَائِرِكُمْ ، وَلْتَصْدُقْ نِيَّاتُكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ . فَوَالَّذِي لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ إِنِّي لَعَلَى جَادَّةِ الْحَقِّ ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ الْبَاطِلِ ، أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ .

أقول : الهينمة : صوت خفي يسمع ولا يفهم .

وحاصل الفصل : التنبيه على فضيلته لغاية قبول قوله فيما يأمرهم به .

فذكر منها : أنه لم يرد على الله وعلى رسوله في وقت قط فيما صدر من الأمر عنهما ، واستشهد على ذلك بما علمه منه المستحفظون من الصحابة وهم العلماء وأهل الدين الذين استحفظوا كتاب الله ودينه : أي جعلوا حفظة له وأودعوا إيّاه ، وقال بعض الشارحين : وفيه إيماء إلى ما كان يفعله بعض الصحابة من التسرع بالقول والاعتراض على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في

مواضع كما نقل عن عمر يوم الحديبية عند سطر كتاب الصلح أنه أنكر ذلك وقال لرسول الله : ألسنا على الحق قال : بلى . قال : أوليسوا الكاذبين . قال : بلى . قال : فكيف تعطي الريبة في ديننا . فقال صلى الله عليه وآله وسلم : أنا أعمل بما أومر به . فقام عمر فقال لقوم من الصحابة : ألم يكن قد وعدنا الله بدخول مكة وها نحن قد صددنا عنها ثم ننصرف بعد أن أُعطينا الريبة في ديننا والله لو وجدت أعواناً لم أُعط الريبة أبداً .

فقال له أبو بكر : ويحك إلزم غزوه فوالله إنه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإن الله لا يضيعه . ثم قال له : أقال لك : إنه سيدخل مكة هذا العام ؟. فقال : لا . قال : فسيدخلها . فلما فتح النبي صلى الله عليه وآله وسلم مكة وأخذ مفاتيح الكعبة دعاه. فقال : هذا الذي وعدتم به .

ومنها : مواساته لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه وهو مما اختص به عليه السلام ، وذلك في مواطن : فثبت معه يوم أحد وفرّ الناس . روى المحدثون أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما ارتثّ يوم أُحد ، ونادى الناس قتل محمد رأته كتيبة من المشركين وهو صريع بين القتلى إلاّ أنه حي فصمدت له . فقال لعلي : اكفني هذه . فحمل عليها فهزمها وقتل رئيسها : ثم صمدت له أُخرى . فقال يا علي : اكفني هذه فحمل عليها وقتل رئيسها . ثم صمدت له ثالثة فكذلك .

فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : قال لي جبرائيل حينئذ : يا محمد هذه المواساة . فقلت : وما يمنعه ؟ وهو مني وأنا منه . فقال جبرائيل : وأنا منكما ، وروى المحدثون أيضاً أن المسلمين سمعوا ذلك اليوم هاتفاً من قبل السماء ينادي : لا سيف إلاّ ذو الفقار ولا فتى إلاّ علي . فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : ألا تسمعون ؟ هذا صوت جبرائيل . وكذلك ثبت معه يوم حنين في نفر يسير من بني هاشم بعد أن ولّى المسلمون الأدبار ، وحامى عنه ، وقتل قوماً من هوازن بين يديه حتى ثابت إليه الأنصار وانهزمت هوازن وغنمت أموالها ، وأما يوم خيبر فقصته مشهورة ، وذلك قوله : ولقد واسيته إلى قوله : الأقدام .

وقوله : نجدة أكرمني الله بها . فالنجدة فضيلة تحت الشجاعة ، وقد يعبّر بها عن الشجاعة .

ومنها حاله عندما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من تولى أمره ومباشرة ما يختص به من الأحوال حالة وفاته من وضع رأسه على صدره ، وقيل : أراد بذلك أن رأسه حينئذ كان على ركبتيه ، وعلى ذلك يكون في صدره عند إكبابه عليه . والأشبه أنه أراد تسنيده حين اشتداد علّة موته .

ثم سيلان نفسه في كفه وإمرارها على وجهه ، وأراد بنفسه دمه يقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قاء وقت موته دماً يسيراً ، وأن علياً عليه السلام مسح بذلك الدم وجهه ، ولا ينافي ذلك نجاسة الدم لجواز أن يخصص دم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما روي أن أباطيبة الحجّام شرب دمه صلى الله عليه وآله وسلم حين حجمه . فقال : إذن لا يتجع بطنك ، وكذلك تولّيه لغسله بإعانة الملائكة ، وكان هو الذي يغسله والفضل بن عباس يصبّ الماء عليه ، روي أنه عصب عيني الفضل حين صبّه الماء ، ونقل عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : لا يبصر عورتي غيرك أحد إلّا عمى .

وروي أنه عليه السلام قال : ما قلّبت عضواً إلّا وانقلب لا أجد له ثقلاً كأن معي من يساعدني عليه ، وما ذلك إلّا الملائكة ، وحياً وميتاً منصوبان على الحال من الضمير المجرور في به . وأما دفنه فتنازع الصحابة في أنه يلحد أو يضرح فأرسل العباس إلى عبيدة بن الجراح وكان يحفر لأهل مكة ويضرح لهم على عادتهم ، وأرسل إلى أبي طلحة الأنصاري وكان يلحد لأهل المدينة على عادتهم فقال : اللهم اختر لنبيك فجاء أبو طلحة فلحد له ، وتنازعوا فيمن يدخل القبر معه فقال علي عليه السلام : لا ينزل معه أحد غيري وغير العباس . ثم أذن في نزول الفضل وأُسامة بن زيد . ثم ضجت الأنصار وسألوا أن ينزل منهم رجل فأنزلوا أوس بن خولى وكان بدرياً ، وقد يعبّر بالضريح عن القبر فيكون أعمّ من الشق واللحد . فأما ضجيج الدار والأفنية بأصوات الملائكة ملأ يهبط منهم ، وملأ يصعد بحيث لا يفارق هينمتهم سمعه في حال صلاتهم عليه إلى أن واراه في ضريحه . فقد عرفت كيفية

سماع البشر لأصوات الملائكة في مقدمات الكتاب ، وكذلك صلاتهم تعود إلى وساطتهم في إفاضة الرحمة من الله تعالى على العباد ، وكذلك علمت معنى الصعود والهبوط منهم فيما سبق .

واعلم أن حمل الكلام على ظاهره عند الإمكان أولى من التعسف في التأويل ، وذكر هذه الفضيلة بهذه المقامات تجري مجرى صغرى قياس ضمير من الشكل الأول استدل به على أنه لا أحق منه به . وتقدير كبراه : وكل من كان ذلك معه صلى الله عليه وآله وسلم . فهو أحق به . وحينئذ يتبيّن أنه لا أحق به منه ، وأراد أنه لا أحق بالمنزلة والقرب منه . ففي حياته بالأخوة والوزارة ، وبعد موته بالوصية والخلافة إذ لا يريد أنه أحق بذاته فبقي أن يريد كونه أحق به في المنزلة وولاية أمره بعده .

ثم عقّب ذكر فضيلته بأمرهم أن يمضوا في جهاد عدوهم على بصائرهم : أي عقائدهم أنهم على الحق وأن عدوّهم على الباطل ، وأكد تلك العقائد بالقسم البار أنه فيما يأمرهم به على طريق الحق ، وأن خصومه على مزلة الباطل ، وذكر الجادة للحق جذباً إليه ، والمزلة للباطل تنفيراً عنه ، ولأن الباطل لا طريق واضحة له بعلم حق أو برهان صدق كما عليه الطريق الحق ، وباقي الكلام خاتمة الخطبة . وبالله التوفيق .

١٨٩ ـ ومن خطبة له (عليه السلام)

يَعْلَمُ عَجِيجَ الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ، وَمَعَاصِيَ الْعِبَادِ فِي الْخَلَوَاتِ، وَاخْتِلاَفَ النِّينَانِ فِي الْبِحَارِ الْغَامِرَاتِ، وَتَلاَطُمَ الْمَاءِ بِالرِّيَاحِ الْعَاصِفَاتِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُ اللهِ، وَسَفِيرُ وَحْيِهِ، وَرَسُولُ رَحْمَتِهِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَأُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ، وَبِهِ نَجَاحُ طِلْبَتِكُمْ وَإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ، وَنَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُم، وَإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْزَعِكُمْ، فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ دَوَاءُ قُلُوبِكُمْ، وَبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ، وَشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ، وَصَلاَحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ، وطَهُورُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ، وَجَلاَءُ غِشَاءِ أَبْصَارِكُمْ، وَأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ، وَضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ، فَاجْعَلُوا طَاعَةَ اللهِ

شِعَاراً دُونَ دِثَارِكُمْ، وَدَخِيلاً دُونَ شِعَارِكُمْ، وَلَطِيفاً بَيْنَ أَضْلاَعِكُمْ، وَأَمِيراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ، وَمَنْهَلاً لِحِينِ وُرُودِكُمْ، وَشَفِيعاً لِدَرَكِ طِلْبَتِكُمْ، وَجُنَّةً لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ، وَمَصَابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ، وَسَكَناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ، وَنَفَساً لِكُرَبِ مَوَاطِنِكُمْ؛ فَإِنَّ طَاعَةَ اللهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفَ مُكْتَنِفَةٍ، وَمَخَاوِفَ مُتَوَقَّعَةٍ، وَأُوَارِ نِيرَانٍ مُوقَدَةٍ. فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا، وَاحْلَوْلَتْ لَهُ الأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا، وَانْفَرَجَتْ عَنْهُ الأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَاكُمِهَا، وَأَسْهَلَتْ لَهُ الصِّعَابُ بَعْدَ إِنْصَابِهَا، وَهَطَلَتْ عَلَيْهِ الْكَرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا، وَتَحَدَّبَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا، وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا، وَوَبَلَتْ عَلَيْهِ الْبَرَكَةُ بَعْدَ إِرْذَاذِهَا.

فَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ، وَوَعَظَكُمْ بِرِسَالَتِهِ، وَامْتَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ، فَعَبِّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ، وَاخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ.

ثُمَّ إِنَّ هٰذَا الإِسْلاَمَ دِينُ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَاصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ، وَأَصْفَاهُ خِيَرَةَ خَلْقِهِ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ، أَذَلَّ الأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ، وَوَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ، وَأَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِكَرَامَتِهِ، وَخَذَلَ مُحَادِّيهِ بِنَصْرِهِ، وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلاَلَةِ بِرُكْنِهِ. وَسَقَى مَنْ عَطِشَ مِنْ حِيَاضِهِ، وَأَتْأَقَ الْحِيَاضَ لِمَوَاتِحِهِ، ثُمَّ جَعَلَهُ لاَ انْفِصَامَ لِعُرْوَتِهِ، وَلاَ فَكَّ لِحَلْقَتِهِ، وَلاَ انْهِدَامَ لأَسَاسِهِ، وَلاَ زَوَالَ لِدَعَائِمِهِ، وَلاَ انْقِلاَعَ لِشَجَرَتِهِ، وَلاَ انْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ، وَلاَ عَفَاءَ لِشَرَائِعِهِ، وَلاَ جَذَّ لِفُرُوعِهِ، وَلاَ ضَنْكَ لِطُرُقِهِ، وَلاَ وُعُوثَةَ لِسُهُولَتِهِ، وَلاَ سَوَادَ لِوَضَحِهِ، وَلاَ عِوَجَ لاِنْتِصَابِهِ، وَلاَ عَصَلَ فِي عُودِهِ، وَلاَ وَعَثَ لِفَجِّهِ، وَلاَ انْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ، وَلاَ مَرَارَةَ لِحَلاَوَتِهِ. فَهُوَ دَعَائِمُ أَسَاخَ فِي الْحَقِّ أَسْنَاخَهَا، وَثَبَّتَ لَهَا أُسُسَهَا، وَيَنَابِيعُ غَزُرَتْ عُيُونُهَا، وَمَصَابِيحُ شَبَّتْ نِيرَانُهَا، وَمَنَارٌ اقْتَدَى بِهَا سُفَّارُهَا، وَأَعْلاَمٌ قُصِدَ بِهَا فِجَاجُهَا، وَمَنَاهِلُ رَوِيَ بِهَا وُرَّادُهَا: جَعَلَ اللهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ، وَذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ، وَسَنَامَ طَاعَتِهِ، فَهُوَ عِنْدَ اللهِ وَثِيقُ الأَرْكَانِ، رَفِيعُ الْبُنْيَانِ، مُنِيرُ الْبُرْهَانِ، مُضِيءُ النِّيرَانِ، عَزِيزُ السُّلْطَانِ، مُشْرِفُ الْمَنَارِ، مُعْوِزُ الْمَثَارِ، فَشَرِّفُوهُ، وَاتَّبِعُوهُ، وَأَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ، وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ.

ثُمَّ إِنَّ اللّهَ بَعَثَ مُحَمَّداً، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا

الانْقِطَاعُ، وَأَقْبَلَ مِنَ الآخِرَةِ الاطِّلاَعُ. وَأَظْلَمَتْ بَهْجَتُهَا بَعْدَ إِشْرَاقٍ، وَقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقٍ، وَخَشُنَ مِنْهَا مِهَادٌ، وَأَزِفَ مِنْهَا قِيَادٌ، فِي انقِطَاعٍ مِنْ مُدَّتِهَا، وَاقْتِرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَتَصَرُّمٍ مِنْ أَهْلِهَا، وَانْفِصَامٍ مِنْ حَلْقَتِهَا، وَانْتِشَارٍ مِنْ سَبَبِهَا، وَعَفَاءٍ مِنْ أَعْلاَمِهَا، وَتَكَشُّفٍ مِنْ عَوْرَاتِهَا، وَقِصَرٍ مِنْ طُولِهَا. جَعَلَهُ الله بَلاَغاً لِرِسَالَتِهِ، وَكَرَامَةً لأُمَّتِهِ، وَرَبِيعاً لأَهْلِ زَمَانِهِ، وَرِفْعَةً لأَعْوَانِهِ، وَشَرَفاً لأَنْصَارِهِ.

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُوراً لاَ تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وَسِرَاجاً لاَ يَخْبُو تَوَقُّدُهُ، وَبَحْراً لاَ يُدْرَكُ قَعْرُهُ، وَمِنْهَاجاً لاَ يُضِلُّ نَهْجُهُ، وَشُعَاعاً لاَ يُظْلِمُ ضَوْؤُهُ، وَفُرْقَاناً لاَ يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ، وَتِبْيَاناً لاَ تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَشِفَاءً لاَ تُخْشَى أَسْقَامُهُ، وَعِزّاً لاَ تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وَحَقّاً لاَ تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ. فَهُوَ مَعْدِنُ الإِيْمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَبُحُورُهُ، وَرِيَاضُ الْعَدْلِ وَغُدْرَانُهُ، وَأَثَافِيُّ الإِسْلاَمِ وَبُنْيَانُهُ، وَأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَغِيطَانُهُ. وَبَحْرٌ لاَ يَنْزِفُهُ الْمُنْتَزِفُونَ، وَعُيُونٌ لاَ يُنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ، وَمَنَاهِلُ لاَ يُغِيضُهَا الْوَارِدُونَ، وَمَنَازِلُ لاَ يَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ، وَأَعْلاَمٌ لاَ يَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ، وَآكَامٌ لاَ يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ؛ جَعَلَهُ اللهُ رِيّاً لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ، وَرَبِيعاً لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ، وَمَحَاجَّ لِطُرُقِ الصُّلَحَاءِ، وَدَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ، وَنُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ، وَحَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، وَمَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ، وَعِزّاً لِمَنْ تَوَلاَّهُ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ، وَهُدىً لِمَنِ ائْتَمَّ بِهِ، وَعُذْراً لِمَنِ انْتَحَلَهُ، وَبُرْهَاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ، وَفَلْجاً لِمَنْ حَاجَّ بِهِ، وَحَامِلاً لِمَنْ حَمَلَهُ، وَمَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وَجُنَّةً لِمَنِ اسْتَلأَمَ، وَعِلْماً لِمَنْ وَعَى، وَحَدِيثاً لِمَنْ رَوَى، وَحُكْماً لِمَنْ قَضَى.

أقول: العجيج: رفع الصوت، والنينان: جمع نون وهو الحوت. والجأش: القلب. والأوار: حر النار. والشمس عزبت: غابت. وإنصابها: إتعابها. وتحدّبت: عطفت وحنّت. والرذاذ: ضعيف المطر. وعبّدوا: ذلّلوا. والمحاد: المشاق. وأثاق الحياض: ملأها. والمواتح:

المستقون . والوعوثة : كثرة في سهولة توجب صعوبة المشي كما في الرمل . والوضح : البياض . والعوج : بالفتح فيما له ساق ينتصب كالنخلة ، وبالكسر فيما ليس كذلك كالطريق . والعصل : الاعوجاج . وساخ : غاص . والسنخ : الأصل . وأزف : دنا . وبحبوحة الدار : وسطها . والغيطان : المواضع المطمئنة من الأرض . والمحاج : جمع محجّة وهي جادة الطريق . والمعقل : الملجأ . والفلج : الفوز . والمتوسم : المتفرّس . واستلأم : لبس لأمة الحرب وهي الدرع .

وصدر الفصل تنبيه على إحاطة علمه بجزئيات الموجودات على اختلافها وكثرتها ، ونبّه بعجيج الوحوش على أنه تعالى يعلمها حين يجأر إليه من جدب الأرض وقلة العشب فكأنها تضرع إليه بالعجيج ليكون الإنسان أولى بذلك النزع [الفزع - خ -] إليه ، وبعلمه بمعاصي العباد في الخلوات تنفيراً عنها في الخلوة التي هي مظنتها ، واختلاف النينان بالمجيء والذهاب وقطع البحار طولاً وعرضاً .

ثم عقب بشهادة الرسالة . ثم بالوصية بتقوى الله ، وقرنها باعتبارات من صفاته تعالى توجب الفزع إليه وهي كونه سبحانه مبدءاً لخلقهم ومنتهى لمعادهم الحسيّ والعقلي كقوله تعالى : ﴿ **وهو خلقكم أول مرّة وإليه ترجعون** ﴾ وقد نبهنا عليه مراراً ، وأنّ به نجاح طلباتهم ، وإليه منتهى رغباتهم ، ونحوه قصدهم وسلوكهم فإنّه تعالى غاية الكل ، وإليه مرامي مفزعهم يقال : فلان مرمى قصدي : أي إليه مفزعي في المهمّات ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ **إذا مسكم الضرّ فإليه تجأرون** ﴾(١) . ثم باعتبارات من صفة التقوى توجب الفزع إليها .

ا ـ وهي كونها دواء داء قلوبكم ، وقد عرفت كونها دواءً لأدواء الرذائل النفسانية الموبقة .

ب ـ وبصر عمى أفئدتكم : أي أبصار أفئدتكم من عمى الجهل .

ج ـ وشفاء مرض أجسادكم ، وذلك أن التقوى تستلزم قلّة الأكل والشرب واستعمالهما بقدر الحاجة كما قال في صفات المتقين : منزوراً

---

(١) ١٦ ـ ٥٥ .

أكله . وقد علمت ما تحدث البطنة من الأمراض البدنية ، ولذلك قال عليه السلام : المعدة بيت الأدواء .

د ـ وصلاح فساد صدوركم : أي من الغل والحسد والخبث والنيات المخالفة لأوامر الله . فإن التقوى تستلزم نفي ذلك كله . وصلاح الصدور منه لأن مبادىء تلك الشرور كلها محبة الدنيا وباطلها ، والمتقون بمعزل عن ذلك .

هـ ـ وكذلك طهور دنس أنفسكم : أي من نجاسات الرذائل المهلكة وهو كقوله : دواء قلوبكم . لكن اعتبار كونها دواء يخالف اعتبار كونها طهوراً إذ في الأول ملاحظة كون الرذائل أمراضاً ضارّة تؤدي إلى الهلاك السرمدي .

وفي الثاني اعتبار كونها نجاسات تمنع من دخول حظيرة القدس ومقعد الصدق .

و ـ وجلاء عشا أبصاركم ، وفيه استعارة لفظ العشا لما يعرض عن ظلمة الجهل ، وسائر الرذائل من عدم إدراك الحقائق ، ويروى غشاء بالغين المعجمة وهو الظلمة المتوهمة من الجهل التي هي حجاب الغفلة ، وبهذا الاعتبار ففي التقوى جلاء لتلك الظلمة لما تستلزمه من إعداد النفس للكمال ، وكونها نفسها هي الجلاء مجاز إطلاقاً لاسم المسبب على السبب .

ز ـ وأمن فزع جأشكم . إذ قد علمت أن بها الأمان من عذاب الآخرة ، وقد يكون بها الأمان من فزع الدنيا . لأن أكبر مخاوف الدنيا الموت وما يؤدي إليه ، والمتقون العارفون بمعزل عن تقية الموت. بل عسى يكون محبوباً لهم لكونه وسيلة لهم إلى اللقاء الخالص لمحبوبهم الأقصى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿**قُلْ يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين**﴾[1]. دلّت الآية على أن الصادق في دعوى الولاية يتمنى الموت ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ **قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين** ﴾[2].

---

(١) ٦٢ ـ ٦.
(٢) ٢ ـ ٩٤.

ح ـ ضياء سواد ظلمكم ، واستعار لفظ الظلمة للجهل ، وتغطية القلب ، ورشح بذكر السواد لاستلزام الظلمة السواد ، وهو كقوله : وجلاء عشا أبصاركم ، وراعى في هذه القرائن كلها المضادة . ثم أكد الوصية بطاعة الله تعالى بآداب :

أحدها : أن يجعلوها شعارهم ، وكنّى بذلك عن ملازمتهم لها كما يلزم الشعار الجسد . ثم عن كونها في الباطن دون الظاهر لقلّة فائدته وهو المشار إليه بقوله . دون دثاركم .

الثاني : أكد أمرهم بإبطانهم : بأمرهم باتخاذها دخيلاً تحت الشعار لإمكان ذلك فيها دون الشعار المحسوس . ثم فسّر ذلك فقال : ولطيفاً بين أضلاعكم . وكنّى بلطفها عن اعتقادها وعقليتها ويكون بين أضلاعهم عن إيداعها القلوب .

الثالث : أن يجعلوها أميراً ، واستعار لها لفظ الأمير باعتبار إكرامهم لها وتقديمها على سائر مهمّاتهم .

الرابع : أن يجعلوها منهلاً لحين ورودهم : أي يوم القيامة ، واستعار لفظ المنهل لها ، ووجه المشابهة أن التقوى والطاعة لله مظنة التروّي من شراب الأبرار يوم القيامة كما أن موارد الإبل مظنة ريّها .

الخامس : أن يجعلوها شفيعاً إلى الله ووسيلة إلى مطالبهم منه ، وظاهر كون المطيع يستعد بطاعته لدرك بغيته من الله تعالى ، ولفظ الشفيع مستعار للوسيلة والقربة .

السادس : وجنة ليوم فزعهم ، وظاهر كون الطاعة ساتراً يوم القيامة من الفزع الأكبر من عذاب الله .

السابع : ومصابيح لبطون قبورهم ، وقد عرفت كيفية إعداد الطاعة لقبول الأنفس الأنوار العلوية والأسرار الإلهية المخلّصة من ظلمة القبور والعذاب الأخروي . وفي الخبر : أن العمل الصالح يضيء قبر صاحبه كما يضيء المصباح الظلمة . واستعار لها لفظ المصابيح لاستلزامها الإنارة .

الثامن : وكذلك سكناً لطول الوحشة في القبور تستأنس به النفوس كما

روي : أن العمل الصالح والخلق الفاضل يراه صاحبه بعد الموت في صورة شابّ حسن الصورة والثياب طيب الريح فيسلّم عليه فيقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا خلقك الحسن أو عملك الحسن . وحاصله يعود إلى كون الطاعة سبباً للاستئناس من وحشة الآخرة ، وذلك أن الوحشة إنما تعرض في المكان لمن كان غافلاً عنه وغير متوقع له ولا متهيّء للانتقال إليه، ومطمئناً بوطنه الأول وبأهله وجاعلهم كل الأنس.

فأما أهل الطاعة فإنّهم أبداً متفكرون فيما ينتقلون إليه ومتذكّرون له واثقون بأنس ربهم وملتفتون إليه . فأنسهم أبداً به وفرحهم دائماً بلقائه ، واعتقادهم في الدنيا : أنهم لأهلها بأبدانهم مجاورون . فمنهم يهربون وإلى العزلة ينقطعون . فبالحري أن لا تعرض لهم وحشة وأن تكون أعمالهم سبباً لعدم الوحشة التي عساها تعرض لهم ، ولما كان الإنسان في الدنيا لا يتصور ما بعد الموت بالحقيقة لا جرم لا بدّ له من وحشةٍ ما إلاّ أن الأنوار الإلهية والأنس بالرفيق الأعلى مزيل لها .

التاسع : وكذلك ونفساً لكرب مواطنكم : أي سعة وروحاً لما يعرض من كرب منازل الآخرة وأهوالها .

العاشر : كونها حرزاً من متالف مكتنفة . وتلك المتالف هي الرذائل الموبقة التي هي محال الهلاك والتلف . واكتنافها إحاطتها بالنفس بحيث لا يكفّها إلاّ طاعة الله وسلوك سبيله ، والمخاوف المتوقعة مخاوف الآخرة وحرّ نيرانها .

الحادي عشر : كون التقوى مستلزمة لبعد الشدائد عن المتقي بعد دنوها منه ، وكثيراً ما يعبّر بالتقوى عن الطاعة وإن كانت أخصّ في بعض المواضع . أما في بعد شدائد الآخرة فظاهر ، وأما في الدنيا فلأن المتقين هم أسلم الناس من شرور الناس لبعدهم عن مخالطاتهم ومجاذباتهم لمتاع الدنيا ، وبغضهم لها . إذ كانت محبتها والحرص عليها منبعاً لجميع الشرور والشدائد .

الثاني عشر : كونها مستلزمة لحلاوة الأمور بعد مرارتها . أما أمور

الآخرة فكالتكليف الوارد عليهم لها بالعبادات ، وظاهر أنها عند المتقين أحلى وألذّ من كل شيء بعد مرارتها في ذوقهم في مبدأ سلوكهم وثقلها عليهم وعلى غيرهم من الجاهلين ، وأما المرّ من أمور الدنيا فكالفقر والعري والجوع ، وكل ذلك شعار المتقين ، وهو أحلى في نفوسهم وآثر من كل شعار وإن كان مراً في ذوقهم في مبدأ السلوك، وقبل وصولهم إلى ثمرات التقوى .

الثالث عشر : وانفراج الأمواج عنه بعد تراكمها . واستعار لفظ الأمواج للهيئات البدنية الرديئة وملكات السوء التي إذا تكاثفت وتوالت على النفس أغرقتها في بحار عذاب الله . وظاهر كون لزوم التقوى سبباً ينفرج باستعداد النفوس به عنها تلك الهيئات وينمحي من لوحها وإن كثرت .

الرابع عشر : كون لزومها سبباً لتسهيل صعاب الأمور على النفس بعد إتعابها لها ، وذلك أن المتقين عند ملاحظة غايتهم من نفوسهم يسهل عليهم كل صعب من أمور الدنيا مما يشتد على غيرهم كالفقر والمرض وكل شديد ، وكذلك يسهل عليهم كل صعب من مطالب الآخرة بعد إتعاب تلك المطالب لهم قبل تصورها التام في أول التكليف .

الخامس عشر : كونه سبباً لهطل الكرامة عليهم ، والكرامة تعود إلى الكمالات النفسانية الباقية والإلتذاذ بها . ولاحظ في إفاضتها عليهم مشابهتها بالغيث فاستعار لها لفظ الهطل وأسنده إليها ، وكذلك لفظ القحوط ، وكنّى به عن منعهم إيّاها قبل استعدادهم بالتقوى لها .

السادس عشر : كونه سبباً لتعطف الرحمة الإلهية بإفاضة الكمالات عليهم بعد نفورها عنهم لعدم الاستعداد أيضاً ، ولفظ التحدب مستعار للإرادة أو لأثر الرحمة ، وكذلك لفظ النفور لعدم أثرها في حقهم قبل ذلك .

السابع عشر : كونه سبباً لتفجّر النعم بعد نضوبها ، ولفظ التفجّر مستعار لانتشار وجوه إفاضات النعم الدنيوية والأخروية كما قال تعالى : **﴿ ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾**(1) وكذلك

(1) ٦٥ - ٢ .

لفظ النضوب لعدمها قبل الاستعداد لها ملاحظة لشبه النعم بالماء في الاستعارتين .

الثامن عشر : كونه سبباً لوبل البركة بعد رذاذها ، ولفظ الوبل مستعار للفيض الكثير من البركة بعد الاستعداد بالتقوى ، ولفظ الرذاذ للقليل قبل ذلك الاستعداد ملاحظة لشبهها بالغيث أيضاً ، وظاهر كون التقوى سبباً لمزيد الفيض على كل من كان له بعض الكمالات كمن يستعد بالعلوم دون الزهد، والعبادة ثم يسلك بهما . ثم بعد الفراغ من فضائلها، والترغيب فيها من تلك الجهة أعاد الأمر بها ورغّب فيها باعتبارات أخر من إنعام المنعم ، وهي كونه تعالى نافعاً لهم بموعظته : أي جاذباً لهم إلى جنته ، مرغباً لهم في كرامته ، وواعظاً لهم برسالته إليهم ، وممتناً عليهم بنعمته كقوله تعالى : ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم** ﴾ في غير موضع من كتابه . ثم أمرهم بتعبيد أنفسهم وتذليلها لعبادته والخروج إليه من حقه الذي يطلبه منهم وهو طاعته . ثم ذكر الإسلام وفضائله مرغباً فيه . وهو كالتفسير لطاعته وعبادته فكأنه قال : واخرجوا إليه من حق طاعته الذي هو الإسلام فإنه ذكر له فضائل :

أ ـ كونه اصطفاه لنفسه : أي طريقاً إلى معرفته ونيل ثوابه .

ب ـ كونه اصطنعه على عينه وهي كلمة تقال لما يهتم به، وكأنه للصنعة التي يختارها من عملت له ويشاهدها بعينه . ولفظ العين مجاز في العلم . وعلى تفيد الحال : أي على علم منه بشرفه وفضيلته ووجه الحكمة فيه ، ونحو قوله تعالى : ﴿ **ولتصنع على عيني** ﴾[1] .

ج ـ واصطفاه خير خلقه : أي اصطفى للبعثة به وإليه خير خلقه محمد وآله .

د ـ وأقام دعائمه على محبته . ولفظ الدعائم مستعار إما لأهل الإسلام أو لأركانه . ووجه المشابهة قيامه بها في الوجود كقيام الشيء المدعوم بدعائمه ، وكلمة على للحال ، والضمير في محبته للإسلام : أي أقام دعائمه حال المحبة له ، وقيل بل الله كما تقول طبع الله قلبي على محبته .

---

(١) ٢٠ ـ ٤٠ .

هـ ـ أذلّ الأديان بعزّه. وذلّة الأديان تعود إلى عدم الالتفات إليها فيكون مجازاً من باب إطلاق اسم السبب على المسبب ، أو ذلّة أهلها . فيكون من باب حذف المضاف . وظاهر أن عزّ الإسلام سبب للأمرين .

و ـ وكذلك إطلاق وضع الملل برفعه .

ز ـ وكذلك إهانة أعدائه وهم المشركون والمكذبون له من الملل السابقة إهانتهم بالقتل وأخذ الجزية والصغار لهم ، وكرامته إجلاله وإجلال أهله وتعظيمهم في النفوس .

ح ـ وخذل محاديه بنصره : أي بنصر أهله . وفي القرائن الأربع التضاد : فالعزّ للذل ، والرفع للوضع ، والكرامة للإهانة ، والنصر للخذلان .

ط ـ وهدم أركان الضلالة بركنه وقوته ، وأركان الضلالة تعود إلى العقائد المضلة في الجاهلية، وإلى أهل الضلالة وهو مستعار . ووجه الاستعارة قيام الضلالة بتلك العقائد أو بأهلها كقيام ذي الأركان بها، وكذلك لفظ الهدم لزوال الضلالة بقوة الإسلام وأهله .

ي ـ وسقى من عطش من حياضه. فاستعار السقي لإفاضة علوم الدين على نفوسهم وكمالها بها ، ولفظ العطش لما كانوا عليه من الجهل البسيط وعدم العلم وكذلك استعار لفظ الحياض لعلماء الإسلام الذين هم أوعيته وحياضه التي ترده العطاش من العلوم والحكمة الدينية .

يا ـ وأثاق الحياض لمواتحه ، واستعار لفظ المواتح إما للأئمة من القرن الأول الآخذين للإسلام من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو الينبوع ، أو لأفكار العلماء وسؤالاتهم وبحثهم عن الدين وأحكامه واستفادتهم بها ، ووجه الاستعارتين كونهم مستخرجين للعلم والدين عن مظانه كما يستخرج الماتح الماء من البئر . ولفظ الحياض للمستفيدين .

يب ـ جعله له بحيث لا ينفصم عروته ، ولفظ العروة مستعار لما يتمسك الإنسان به منه ، ورشح بذكر الانفصام . ولما كان المتمسك به ناجياً

من الهلاك الأخروي والشرور اللاحقة للملل السابقة وكان عدم الانفصام مظنة سلامة المتمسك عن الهلاك كنّى به عن دوام السلامة .

يج ـ ولا فك لحلقته ، كناية عن عدم انقهار أهله وجماعته .

يد ـ ولا انهدام لأساسه . استعار لفظ الأساس للكتاب والسنّة الذين هما أساس الإسلام ، ولفظ الانهدام لاضمحلالهما .

يه ـ ولا زوال لدعائمه ، استعار لفظ الدعائم لعلمائه أو للكتاب والسنّة وقوانينهما وأراد بعدم زوالهما عدم انقراض العلماء أو عدم القوانين الشرعية .

يو ـ ولا انقلاع لشجرته ، استعار لفظ الشجرة لأصله وأركانه ، وهو كقوله : ولا انهدام لأساسه .

يز ـ ولا انقطاع لمدته ، إشارة إلى بقائه إلى يوم الدين .

يح ـ ولا عفاء لشرائعه ، وشرايعه قوانينه وأصوله وهو كقوله : لا انقلاع لشجرته .

يط ـ ولا جذّ لفروعه : أي لا ينقطع التفريع عليه. بل كل ذهن سليم فكر في أُصوله وهي الكتاب والسنّة استخرج منها ما لم يستخرجه غيره .

ك ـ ولا ضنك لطرقه ، وكنّى بعدم الضيق عن عدم صعوبة قوانينه على أهل التكليف ، أو لازم الضيق وهو مشقة السالكين به إلى الله كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : بعثت بالحنيفية السهلة السمحة .

كا ـ ولا وعوثة لسهولته ، كناية عن كونه في غاية العدل بين الصعوبة وبين السهولة المفرطة كما عليه أكثر الأديان السابقة من التشبيه والتجسيم فإن سلوكها مع ذلك وتصوّرها في غاية السهولة لكنها طرق يبعد حصول المطالب الحقيقية والوصول إلى التوحيد الخالص منها فكانت في سهولها هذه الوعوثة .

كب ـ ولا سواد لوضحه ، استعار لفظ الوضح لصفائه عن كدر الباطل الذي هو سواد ألواح نفوس الكافرين والمنافقين .

كج ـ ولا عوج لانتصابه ، واستعار لفظ الإنتصاب لاستقامته في أدائه

إلى الله تعالى . إذ هو الصراط المستقيم في الدنيا .

كد ـ وكذلك ولا عصل في عوده .

كه ـ ولا وعث لفجّه .

كو ـ ولا انطفاء لمصابيحه ، عبّر بالمصابيح عن العلماء استعارة ، وبعدم انطفائها عن عدم خلوّ الأرض منهم .

كز ـ ولا مرارة لحلاوته ، وذلك أن حلاوة الإسلام الحقيقي في قلوب المتقين لا يشوبها مرارة من مشقة تكليف ونحوها لما يتصورونه من شرف غايتهم .

كح ـ فهو دعائم : أي فالإسلام دعائم ، وذلك إشارة إلى تعريفه بأجزائه وهي كالشهادتين والعبادات الخمس كما ورد في الخبر : بني الإسلام على خمس .

وقوله : أساخ في الحق اسناخها إشارة إلى كونه تعالى بناها على أسرار من الحق عميقة لا يهتدي إليها إلّا آحاد الخلق وهو أسرار العبادات .

كط ـ قوله : وينابيع غزرت عيونها ، إشارة إلى تعريفه من قبل مادته وهي الكتاب والسنّة ، واستعار لهما لفظ الينابيع نظراً إلى فيضان العلوم الإسلامية النقلية والعقلية عنهما كفيضان الماء عن الينابيع ، ولفظ العيون لما صدرا عنه ، وهو علم الله تعالى ونفوس ملائكته ونبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، وظاهر غزارة تلك العلوم وكثرتها .

ل ـ ومصابيح شبّت نيرانها إشارة إلى مادته أيضاً باعتبار أن في الكتاب والسنّة أدلة أحكامها وبراهينها ، واستعار لها لفظ المصابيح باعتبار كونها تضيء الطريق لخابطها إلى الله . ورشّح بذكر إضرام نيرانها ، وعبّر به عن غاية إضاءتها .

لا ـ ومنار اقتدى بها سفارها وأعلام قصد بها فجاجها . إشارة إلى تلك المادة باعتبار أن فيها أمارات على أحكام الله الظنية يقتدي بها المسافرون السالكون إلى قصدها والقاصدون لطرقها التي هي منصوبة عليها .

لب ـ ومناهل روى بها ورّادها ، استعار لفظ المناهل لتلك المواد أيضاً باعتبار كونها من العلم لواردِيها ومقتبسيه منها كما تروي ورّاد الحياض بمائها .

لج ـ جعل الله فيه منتهى رضوانه ، وذلك في نحو قوله تعالى : ﴿ وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾(1) وقوله : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾(2). ولأن فيه أتمّ وسيلة إلى غاية الكمالات الإنسانية التي هي منتهى ما يرضاه الله ويحبّه من عباده .

لد ـ وذروة دعائمه ، والضمير في دعائمه لله : أي الدعائم التي جعلها الله عمدة له في إصلاح خلقه وهي الشرائع وقوانينها ، وظاهر أن الأنوار التي جاء بها الإسلام والهداية التي به أشرف وأعلى منها في سائر الشرائع فهو كالذروة لها .

له ـ وسنام طاعته ، ولفظ السنام مستعار لمجموع ما اشتمل عليه من البيانات والهدايات . ووجه المشابهة شرفها أيضاً وعلوها بالنسبة إلى الطاعات السابقة عليه كشرف السنام بالنسبة إلى باقي الأعضاء .

لو ـ فهو عند الله وثيق الأركان ، وأركانه أجزاؤه ، ووثاقتها تعود إلى بنائها على الأسرار الحقيقية والعلم التام لواضعها بكيفية وضعها وكمال فائدتها بحيث لا يمكن انتقاضها ولا زوالها .

لز ـ رفيع البنيان : أي ما ارتقى إليه أهله من المجد والفضيلة ، وظاهر علو قدره وقدر أهله وتعظيمهم في النفوس على سائر الأديان وأهلها .

لج ـ منير البرهان ، وأراد برهانه الذي دعى الخلق إليه وهو القرآن وسائر المعجزات ، ولا شك في إنارتها وإضاءتها في أقطار العالم واهتداء أكثر الخلق بها .

لط ـ مضيء النيران ، واستعار لفظ النيران لأنواره من العلوم والأخلاق المضيئة على علمائه وأئمته .

---

(1) ٥ ـ ٥ .
(2) ٣ ـ ١٧ .

م ـ عزيز السلطان ، وأراد قوته وعزّة أهله ودولته ومنعة من التجأ إليه به .

ما ـ مشرف المنار ، وكنّى به عن علو قدر علمائه وأئمته وانتشار فضلهم والهداية بهم .

مب ـ معوز المثار : أي يعجز الخلق إثارة دفائنه وما فيه من كنوز الحكمة ولا يمكنهم استقصاء ذلك منه ، وروي المنال : أي يعجز الناس إمّا بالإتيان بمثله أو باستقصاء حكمه وثمراته ، وروي المثال وهو ظاهر . ثم لما بيّن فضيلته أمر بتعظيمه واتباعه وأداء حقه وهو العمل به مع اعتقاد شرفه وكونه مؤدياً إلى الجنة . ثم بوضعه مواضعه وهي القلوب لا الألسن والشعار الظاهر فقط . ثم لما فرغ من ذلك شرع في فضائل من بعث به ليذكرهم نعمة من الله بعد نعمة ، وقرن ذكره بذكر أحوال الدنيا حين البعثة ليظهر شرفها :

فا ـ كونها قد دنا انقطاعها وإقبال الآخرة وإطلاعها ، وقد بيّنا ذلك في قوله : ألا وإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وعلى الجملة فيحتمل أن يريد قرب انقطاع الدنيا وزوالها بالكلية وحضور الآخرة والقيامة الكبرى كما عليه ظاهر الشريعة ويحتمل أن يريد قرب انقطاع دنيا كل أمة منهم وحضور آخرتهم بموتهم وانقراضهم ولفظ الاطلاع استعارة كما سبق .

ب ـ كونها قد أظلمت بهجتها بعد إشراق ، وأراد إشراق بهجتها بأنوار الأنبياء السابقين وضياء الشرائع ، وإظلامها حين بعثة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم باندراس تلك الآثار وفسادها .

ج ـ قيامها بأهلها على ساق ، كناية عن ظهوره شدائدها وإثارة الفتن بين أهلها وما كانت العرب عليه من الخبط والاختلاف في الحروب والغارات المؤدية إلى الفناء .

د ـ خشونة المهاد منها ، وكنّى به عن عدم الاستقرار بها وطيب العيش فإن ذلك إنما يتم ويعتدل بنظام الشرائع والنواميس الإلهية .

هـ ـ وأزف منها قياد : أي قرب منها انقياد للانقطاع والزوال والانخراط في سلك التقضّي واقتراب علامات ذلك منها، وعلامات زوالها هي علامات

الساعة وأشراطها ، وكذلك تصرّم أهلها وانفصام حلقتها ، وكنّى بالحلقة عن نظامها واجتماع أهلها بالنواميس والشرائع وبانفصامها عن فساد ذلك النظام بانتشار سببها عن فساد أسباب ذلك النظام فإنَّ أسباب التصرف النافع فيها إنما يتم بالنواميس الشرعية وقوانينها ، واستعار لفظ أعلامها للعلماء والصلحاء بها وكان عليهم العفاء حينئذ ، وكذلك بعوراتها عن وجوه الفساد فيها ، وبتكشفها عن ظهورها بعد اختفاء ، وكذلك القصر من طولها فإن الدنيا إنّما يكون طولها ودوامها عند صلاحها بالشرائع فإذن قصرها يكون عند فسادها وعدم النظام الشرعي . ثم رجع إلى تعديد فوائد بعثة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

فـا ـ إن الله تعالى جعله بلاغاً لرسالته وهو كقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك** ﴾[1] الآية .

ب ـ وكرامة لأمته لكونه داعياً لهم إلى الكرامة الباقية التامة وسبب للكرامة .

ج ـ وربيعاً لأهل زمانه ، واستعار لفظ الربيع له ، ووجه المشابهة كونه بهجة للمسلمين وعلمائهم وسبباً لبطنتهم من العلم والحكمة كما أن الربيع سبب لبهجة الحيوان بمراعيها وبطنتهم وسمنهم .

د ـ ورفعة لأعوانه : أي لأعوان الله وأنصاره وهم المسلمون وظاهر كونه صلى الله عليه وآله وسلم سبب رفعتهم وشرفهم . ثم عقب بذكر بعض الأنوار التي بعث بها صلى الله عليه وآله وسلم وهو الكتاب العزيز وعدّ فضائل :

فـا ـ كونه نوراً لا تطفؤ مصابيحه ، وأراد نور العلم والأخلاق المشتمل عليها ، واستعار لفظ المصابيح إما لما انتشر من علومه وحكمه فاقتدى بها الناس ، وإما لعلمائه وحاملي فوائده .

ب ـ كونه سراجاً لا يخبو توقده ، وأراد أنه لا تنقطع هداية الناس بنوره فهو كالأول .

ج ـ وبحر لا يدرك قعره ، لفظ البحر مستعار له باعتبارين :

---

(١) ٥ ـ ١٧ .

أحـدهمـا : عمق أسـراره بحيث لا يحيط بهـا الأفهـام ولا تصـل إلى أغوارها العقول كما لا يدرك الغائص قعر البحر العميق .

والثاني : كونه معدنـاً لجواهـر العلوم النفيسة والفضـائل كمـا أن البحر معدن للجواهر .

د ـ ومنهاجاً لا يضل نهجه ، وظاهر كـونه طـريقاً واضحـاً لمن سلك به إلى الله ومن تفهم مقاصده لا يضل قصده .

هـ ـ وشعاعاً لا يظلم ضوؤه: أي لا يغطي الحقَّ الوارد بـه ظلامُ شبهـة ولا تلبيس باطل ، ولفظ الشعاع والضوء والظلمة مستعار .

و ـ وفرقاناً لا يخمد برهانه : أي فيه براهين تفرق بين الحق والبـاطل لا تخمد ، ولفظ الخمود مستعار ملاحظة لشبه البرهان بـالنار في الإضـاءة فنسب إليه وصفها .

ز ـ وبنياناً لا تهدم أركانـه ، واستعار لفظ البنيـان لما انـتظم من الكتاب ورسخ في القلوب ، ورشح بذكر الأركان لاستلزام البنيان لها .

ح ـ وشفاء لا يخشى سقامه كما قال تعالى : ﴿ **ونـنزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** ﴾[1]، وظـاهر كـون تدبـره وأسراره شفـاء للنفوس من أعـراض الجهل ورذائـل الأخلاق ، وذلـك شفاء لا يخـاف استعقابـه بمـرض وذلك أن الفضائل النفسانية إذا صارت ملكـات لم تزل ولم يتبـدل بأضـدادها وإن كان أيضاً شفاء للأبدان كما سبق .

طـ ـ وعزاً لا تهزم أنصاره .

ي ـ وحقاً لا تخذل أعوانه وأنصاره ، وأعوانـه هم المسلمون المعتـزّون به [المعترفون به خ] والملتجؤون إليه العاملون على وفقـه السالكـون به إلى الله ، وظـاهر أن أولئـك الأنصـار والأعـوان لا يهـزمهم أحـد ولا يخـذلهم الله أبداً .

يـا ـ فهو معدن الإيمان الذي يستنـار منه الإيمـان الكامـل بالله ورسـوله

(١) ١٧ ـ ٨٤ .

وبما جاء به وبحبوحته ، وظاهر كون اعتقاد حقيته وتفهّم مقاصده والعمل بها واسطة عقد الإيمان .

يب ـ وينابيع العلم وبحوره ، واللفظان استعارة له باعتبار كونه محل فيض العلوم النفيسة واستفادتها .

يج ـ ورياض العدل وغدرانه ، واللفظان مستعاران أيضاً باعتبار كونه مورداً يؤخذ عنه العدل بكليته فهو مورده الذي لا يجور عن سنن الحق إلى أن يبلغ به صاحبه السالك به إلى الله .

يد ـ وأثافي الإسلام وبنيانه ، واللفظان مستعاران له باعتبار كونه أصلاً للإسلام يبتني عليه ، وبه يقوم كما أن الأثافي للقدر والبنيان لما يحمل عليه كذلك .

يد ـ وأودية الحق وغيطانه ، واللفظان مستعاران له باعتبار كونه معدناً للحق ومظنة له كما أن الأودية والغيطان مظان الكلاء والماء .

يو ـ وبحر لا يستنزفه المستنزفون .

يز ـ وعيون لا ينضبها الماتحون ، إنما كرّر استعارة البحر والعيون له باعتبار آخر وهو كونه لا ينتهي فوائده والمقاصد المستنبطة منه .

يح ـ وكذلك ومناهل لا يغيضها الواردون وخصّص النضوب بالعيون لإمكان ذلك فيها دون البحر والورد بالمناهل لكون النهل وهوى الري لغاية وارد الماء .

يط ـ منازل لا يضل نهجها المسافرون : أي مقامات من العلوم إذا نزلتها العقول المسافرة إلى الله لا تضل لاستنارتها وشدة إضاءتها .

ك ـ وكذلك وأعلام لا يعمى عنها السائرون .

كا ـ وكذلك وآكام لا يجور عنها القاصدون ، استعار لفظ الأعلام والآكام للأدلة والأمارات فيه على طريق إلى معرفته وأحكامه باعتبار كونها هادية إليها كما تهدي الأعلام والجبال على الطرق .

كب ـ جعله الله ريّاً لعطش العلماء ، استعار لفظ الري له باعتبار كونه

دافعاً لألم الجهل عن النفوس كما يدفع الماء ألم العطش ، ولفظ العطش للجهل البسيط أو لاستعداد الطالبين للعلوم واشتياقهم إلى الاستفادة ، وأطلق لفظ الري على المروي مجازاً إطلاقاً لاسم اللازم على ملزومه .

كج ـ وربيعاً لقلوب الفقهاء ، ولفظ الربيع مستعار له باعتبار كونه مرعى لقلوب الفقهاء يستثمرون منه الأحكام ، وبهجة لها كالربيع للحيوان .

كد ـ ومحاجّ لطرق الصلحاء ، وظاهر كونه طريقاً واضحاً للصالحين إلى الله .

كه ـ ودواءً ليس بعده داء كقوله : شفاء لا يخشى سقامه .

كو ـ ونوراً ليس معه ظلمة : أي لا تبقى مع هدايته إلى الأحكام ظلمة على البصيرة ، وهو كقوله : وشعاعاً لا يظلم نوره .

كز ـ وحبلاً وثيقاً عروته ، استعار لفظ الحبل والعروة لما يتمسك به منه ، وكنّى بوثاقة عروته عن كونه منجياً لمن تمسك به .

كح ـ ومعقلاً منيعاً ذروته ، استعار لفظ المعقل باعتبار كونه ملجأ من الجهل ولوازمه وهو العذاب ، ورشح بذكر الذروة ، وكنّى بمنعتها عن كونه عزيزاً يمنع من لجأ إليه .

كط ـ وعزّاً لمن تولاّه : أي اتخذه ولياً يلقي إليه مقاليد أُموره ولا يخالفه ، وظاهر كونه سبب عزّه في الدارين .

ل ـ وسلماً لمن دخله : أي أمناً . ودخوله : الخوض في تدبر مقاصده واقتباسها ، وبذلك الاعتبار يكون مأمناً من عذاب الله ومن الوقوع في الشبهات التي هي مهاوي الهلاك .

لا ـ وهدى لمن ائتمّ ، وهو ظاهر .

لب ـ وعذراً لمن انتحله : أي من نسبه إلى نفسه بدعوى حفظه أو تفسيره ونحو ذلك معتذراً بذلك من تكليف لا يليق به أو يشق عليه كان ذلك عذراً منجياً له . وهذا كمال تقول لمن يقصد إنساناً بأذى : لا ينبغي لك أن

تؤذيه فإنه من حملة القرآن الكريم أو ممن يعلم علومه فيكون ذلك سبباً لترك أذاه .

لج ـ وبرهاناً لمن تكلم به .

لد ـ وشاهداً لمن خاصم به .

له ـ وفلجاً لمن حاجّ به . الثلاثة متقاربة ، وأطلق لفظ الفلج عليه من جهة ما يحتج به إطلاقاً لاسم الغاية على ذي الغاية إذ غاية الإحتجاج به الفوز . والشاهد والحجة أعمّ من البرهان .

لو ـ وحاملاً لمن حمله : أي يحمل يوم القيامة حملته وحفظته الآن ، وعبّر بحمله لهم عن إنجائه لهم من العذاب إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب .

لز ـ ومطيةً لمن أعمله ، استعار له لفظ المطيّة باعتبار كونه منجياً لهم كقوله : حاملاً ولفظ الإعمال لاتّباع قوانينه والمواظبة عليها المنجية من العذاب كما ينجي إعمال المطيّة في الطريق البعيد .

لح ـ وآيةً لمن توسم ، وذلك باعتبار تدبّر أمثاله وقصصه فإنّ فيها آياتاً وعبراً كما قال تعالى : ﴿ **إنّ في ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾[1].

لط ـ وجنّة لمن استلأم : أي لمن استلأمه ولبسه كالدرع ، واستعار له لفظ الجنة لوقايته من استعد بعلمه من عذاب الله ، وكنّى باستلأمه عن ذلك الاستعداد به .

م ـ وعلماً لمن وعى : أي لمن حفظه وفهم مقاصده .

ما ـ وحديثاً لمن روى ، وذلك باعتبار ما فيه من القصص وأخبار القرون الماضية فإن أصدق حديث يروى منها ما اشتمل عليه القرآن ، ويحتمل أن يريد بكونه حديثاً كونه قولاً وكلاماً ليس لمن نقله كما قال تعالى : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني** ﴾ الخ[2]، وتكون فائدة هذا الوصف أن فيه غنية لمن أراد أن يتحدث بحديث غيره مما لا يفيد

---

(١) ١٥ ـ ٧٥.

(٢) ٣٩ ـ ٢٣.

فائدته فينبغي أن يعدل إليه ويشتغل بتلاوته والتحدث به .

مب ـ وحكماً لمن قضى : أي فيه الأحكام التي يحتاج إليها القضاة ، وروي حكماً : أي حاكماً ترجع إليه القضاة ولا يخرجون عن حكمه . وبالله التوفيق .

١٩٠ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

كان يوصي به أصحابه :

تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلاَةِ ، وَحَافِظُوا عَلَيْهَا ، وَاسْتَكْثِرُوا مِنْهَا ، وَتَقَرَّبُوا بِهَا ؛ فَإِنَّهَا كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً ، أَلاَ تَسْمَعُونَ إلى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا : ﴿ **مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ؟ قَالُوا : لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ** ﴾ . وَإِنَّهَا لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ الْوَرَقِ ، وَتُطْلِقُهَا إطْلاَقَ الرِّبَقِ ، وَشَبَّهَهَا رسول الله ، صلّى الله عليْهِ وآلِهِ وَسلَّمَ ، بِالْحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ ؟! وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لاَ تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ ، وَلاَ قُرَّةُ عَيْنٍ مِنْ وَلَدٍ وَلاَ مَالٍ . يَقُولُ الله سُبْحَانَهُ : ﴿ **رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ** ﴾ . وَكَانَ رَسُولُ الله ، صَلَّى الله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نَصِباً بِالصَّلاَةِ بَعْدَ التَّبْشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ ؛ لِقَوْلِ الله سُبْحَانَهُ : ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا** ﴾ فَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ ، وَيُصْبِرُ عَلَيْهَا نَفْسَهُ .

ثُمَّ إنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلاَةِ قُرْبَاناً لأَهْلِ الإسْلاَمِ ، فَمَنْ أَعْطَاهَا ، طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا ، فَإِنَّهَا تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً ، وَمِنَ النَّارِ حِجَازاً وَوِقَايَةً . فَلاَ يُتْبِعَنَّهَا أَحَدٌ نَفْسَهُ ، وَلاَ يُكْثِرَنَّ عَلَيْهَا لَهَفَهُ ؛ فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا يَرْجُو بِهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا فَهُوَ جَاهِلٌ بِالسُّنَّةِ ، مَغْبُونُ الأَجْرِ ، ضَالُّ الْعَمَلِ ، طَوِيلُ النَّدَمِ .

ثُمَّ أَدَاءَ الأَمَانَةِ ؛ فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا ، إنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمٰوَاتِ الْمَبْنِيَّةِ ، وَالأَرَضِينَ الْمَدْحُوَّةِ ، وَالْجِبَالِ ذَاتِ الطُّولِ الْمَنْصُوبَةِ فَلاَ

أَطْوَلَ وَلاَ أَعْرَضَ وَلاَ أَعْلَى وَلاَ أَعْظَمَ مِنْهَا ، وَلَو آمْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُولٍ أَوْ عَرْضٍ أَوْ قُوَّةٍ أَوْ عِزٍّ لاَمْتَنَعْنَ ، وَلٰكِنْ أَشْفَقْنَ مِنَ الْعُقُوبَةِ ، وَعَقَلْنَ مَا جَهِلَ مَنْ هُوَ أَضْعَفُ مِنْهُنَّ وَهُوَ الإنْسَانِ ﴿ **إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً** ﴾ .

إِنَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ ، لَطُفَ بِهِ خُبْراً ، وَأَحَاطَ بِهِ عِلْماً ، أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ ، وَجَوَارِحُكُم جُنُودُهُ ، وَضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ ، وَخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ .

أقول : الربق : جمع الربقة وهي الحلقة في الحبل . والجمة بالجيم : الحفيرة يجمع فيها الماء ، وروي بالحاء والمعنى واحد . والدرن : الوسخ . والنصب : التاعب . والاقتراف : الاكتساب.

وحاصل الفصل الوصية بالمحافظة على أمور ثلاثة والحثّ عليها :

أولها : الصلاة فأمر بتعاهد أمرها والمحافظة عليها وذلك بافتقار الإنسان لأحوال نفسه حال الصلاة ومراقبتها حذراً أن تشوبها نزعات الشيطان برياء فيها أو التفات عنها . ثم بالمحافظة على أوقاتها وأداء أركانها كما هي . ثم بالاستكثار منها والتقرّب بها إلى الله لكونها أفضل العبادات والقرب إليه . ثم أشار إلى فضيلتها ووجه وجوبها :

أحدها : قوله : فإنها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً وهو لفظ القرآن الكريم . وموقوتاً : مفروضاً ، وقيل منجماً في كل وقت صلاة معينة .

الثاني : التحذير لتاركها بالتنبيه على استلزام تركها لدخول النار بقوله : لا تسمعون . إلى قوله : من المصلين .

الثالث : أنها تحت الذنوب حتّ الورق ، وهو تشبيه للمعقول بالمحسوس ووجه الشبه ظاهر ، وكذلك وتطلقها إطلاق الربق : أي وتطلق أعناق النفوس من أغلالها كما تطلق الربقة من عنق الشاة .

الرابع : تشبيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لها بالحمة تكون على باب الرجل . وصورة الخبر عنه صلى الله عليه وآله وسلم : أيسر أحدكم أن يكون على بابه حمة يغتسل منها كل يوم خمس مرات فلا يبقى عليه من درنه شيء ؟ فقالوا : نعم . قال :

فإنّها الصلوات الخمس .

الخامس : تنبيهه بذكر عرفان رجال من المؤمنين وهم الموصوفون في الآية بقدرها .

السادس : نصب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيها وأمر الله تعالى بالمواظبة عليها بعد تبشّره له بالجنة وذلك في قوله : ﴿ **وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها** ﴾ وامتثاله لذلك الأمر في نفسه وأمره أهله ، وروي أنه صلى الله عليه وآله وسلم قام في الصلاة حتى تورّمت قدماه . فقيل له في ذلك . فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ ، وذلك من أوضح الدلائل على كثرة فوائدها وقوّة فضيلتها ، واعلم أنه قد ورد في فضلها أخبار كثيرة بعد تأكيد القرآن للأمر بها ، وقد بيّنا ذلك وأشرنا إلى فضيلتها إشارة مستوفاة في الفصل الذي أوله : إن أفضل ما يتوسل به المتوسلون إلى الله سبحانه الإيمان به وبرسوله .

الثانية : مما أمر بالمحافظة عليه : الزكاة وهي قرينة الصلاة في الذكر في الكتاب العزيز وفي الفضيلة فلذلك قال : جعلت مع الصلاة . ثم أشار إلى سرّها وهو كونها قرباناً لأهل الإسلام . وسنبيّن ذلك ، وأشار بقوله : فمن أعطاها. إلى قوله: طويل الندم إلى شرط كونها مقرّبة إلى الله تعالى وبيان كون قبولها مشروطاً بطيب النفس ببيان سرها، وقد عرفته أيضاً في ذلك الفصل وعلمت أن من أقسام المستنزلين عن المال من اقتصر منه على أداء الواجب من الزكاة من غير زيادة ولا نقصان وهم العوام لجهلهم بسر البذل وبخلهم بالمال وميلهم إليه من ضعف حبهم للآخرة قال تعالى : ﴿ **إن يسئلكموها فيحفكم تبخلوا** ﴾(1) وطهارة الفرق الذين ذكرناهم ممن استنزل عن المال ، ومحابّهم وقربهم من الله وبعدهم بقدر طيب أنفسهم عن بذل المال والإعراض عنه ومحبته ، وهذه الفرقة أعني من اقتصر منهم على أداء الواجب فقط تنقسم إلى مؤدّ لذلك الحق بطيب نفس ومسامحة ، وإلى مؤد له مع بقاء محبته وتكدير النفس ببذله وتلهّف عليه أو انتظار جزاء له ، وباعتبار القسمين الأولين مع القسم الأول من هذه الفرقة يكون بذل المال والزكاة قربة إلى الله تعالى، وهو الذي أشار إليه أمير المؤمنين بقوله : إنّ

(1) ٤٧ - ٣٩ .

الزكاة . إلى قوله : ووقاية .

وإن كان قد خصص الزكاة هنا ، وإنّما يكون قربة لاستلزامه رفض هذا المحبوب الذي يتصور باذله أن جميع الكمالات الدنيوية يستفاد منه رغبة عنه ومحبة لله ورغبة فيما عنده ، وتكون كفارة ماحية لرذيلة البخل وما يستلزمه من الذنوب ، ويكون حجاباً بين العبد وبين عذاب الله . إذ قد علمت أن مبدء العذاب في الآخرة حبّ الدنيا وأعظمه حب المال فإذا كان بذل المال مستلزماً لزوال حبه كان بذلك الاعتبار حجاباً من العذاب ووقاية منه .

وأما إيتاء الزكاة على الوجه الثاني فهو المذموم والمنهي عنه بقوله : ولا يكثرن عليها لهفه . بعد أمره بها في قوله : فلا يتبعنّها أحد نفسه ويلزم باذلها على ذلك الوجه النقائص المذكورة : وهي الجهل بالسنّة فإنّ السنّة في أدائها أن يؤدي بطيب نفسه ومسامحة ، وأن يكون مغبوناً في الأجر. فإن إيتاءها على وجه توقع جزاء لها لا على وجه القربة إلى الله غير مستلزمة لرضوانه وذلك هو الغبن، وإن حصل له جزاء غير رضوان الله فإنّ الحصول على كل جزاء غير رضوانه جزاء ناقص وغبن فاحش بالنسبة إليه ، وأن يكون ضالّ العمل وهو إعطاؤه ذلك المال وبذله على غير وجهه وقصده به غير سبيل الهدى إلى رضوان الله ، وأن يكون طويل الندم : أي في محبة المال وفيما يرجوه به من الجزاء .

الثالثة : مما أوصى به : أداء الأمانة وهي التي أشار القرآن الكريم إليها بقوله : ﴿ **إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال** ﴾[1] الآية ، وقد بيّنا فيما سلف أنها تعود إلى العبادة والطاعة المطلوبة من الإنسان بما هو إنسان ، وظاهر أن تلك العبادة لا يمكن من غيره فإنه إنّما حملها من حيث خلق مستصلحاً للدارين ، وبيان ذلك أن مخلوقات الله تعالى إما جمادات أو ذات حياة ، وذوات الحياة، إما الملائكة والحيوان الأرضي ، والحيوان الأرضي. إما أعجم أو ناطق .

فالحيوان منها وهو الإنسان هو المتأهل لعمارة الدارين والكون فيها،

(١) ٣٣ - ٧٢.

وهو الواسطة بين خلقين وضيع وهو الحيوان الأعجم وشريف وهو الملك ، وقد استجمع قوتي العاملين فهو كالحيوان في الشهوة والغضب وقوة التناسل وسائر القوى البدنية المختصة بالحيوان ، وكالملك في القوة المجردة والعقل والعلم والعبادة وسائر الكمالات النفسانية ، ووجه الحكمة في ذلك أنه تعالى لما اقتضت عنايته إيجاده لهذه العبادة المخصوصة أن يجعل في الأرض خليفة لعمارتها جمع له بين القوتين فإنّه لو كان كالبهيمة خالياً عن العقل لم يتأهل لمعرفته وعبادته الخاصة ، ولو خلق كالملك معرّى عن الشهوة والغضب وسائر القوى البدنية لم يصلح لعمارة أرضه وخلافته فيها ولذلك قال للملائكة : ﴿ **إني أعلم ما لا تعلمون** ﴾ فإذن هذه العبادة الخاصة وهي الأمانة المشار إليها لا يصلح لها إلّا الإنسان ولا يمكن من غيره ، وقد علمت أيضاً فيما سلف أن إباء السماوات والأرض والجبال عن حملها يعود إلى امتناع قبولها بلسان حال قصورها وعدم صلاحيتها لها ، وإشفاقها من عقوبة الله على التقصير عن أداء حقوقها كما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله : أشفقنَ من العقوبة . ولم يكن ذلك إباء واستكبار لخضوعها تحت ذلّ الحاجة إليه ، ولفظ الإشفاق مجاز في ثمرته ولازمه وذلك أن السلطان مثلاً إذا كلّف بعض رعيته حمل أمانة تكليف تخيير فخاف ذلك المكلّف العقوبة على تقصيره في أداء تلك الأمانة فإن خوفه يستلزم تركه وامتناعه من حملها فكان الامتناع من الأمانة مسبباً عن الإشفاق فأطلق الإشفاق هنا على إباء السماوات والأرض. بلسان حالها مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبّب وقيل : إن ذلك الإباء والإشفاق على وجه التقدير، وإنما جيء بلفظ الواقع لأن الواقع أبلغ من المقدر : أي لو كانت هذه الأجرام عاقلة ثم عرضت عليها وظائف الدين عرض تخيير لاستثقلت ذلك مع كبر أجسامها، وشدتها ولامتنعت من حملها إشفاقاً من القصور عن أداء حقها .

ثم إنّ مخاطبة الجماد والإخبار عنها نظراً إلى قرينة الحال طريقة مشهورة للعرب ومستحسنهم في تعارفهم كقولهم : يا دار ما صنعت بك الأيام ؟ ونحوه . بل مخاطبة بعض الجمادات لبعض بلسان أحوالها كقولهم : قال الحائط للوتد : لم تشقني ؟ قال : سل من يدقّني ، ونحو ذلك كثير .

فأما قوله عليه السلام : وقد خاب من ليس من أهلها . فتلك الخيبة تعود إلى حرمان ثمرة هذه العبادة وما يستلزمه من الحصول على الكمالات . إذ ليست من أهلها ، وذكر كون السماوات مبنيّة والأرض مدحوة والجبال بأطوالها وعروضها وعلوها وعظمتها تنبيه للإنسان على جرأته على المعاصي وتضييع هذه الأمانة . إذ أُهّل لها وحملها ، وتعجب منه في ذلك . فكأنه يقول : إذا كانت هذه الأجرام العلوية التي لا أعظم منها قد امتنعت من حمل هذه الأمانة حين عرضت عليها فكيف حملها من هو أضعف منها .

وقوله : ولو امتنع شيء . إلى قوله : لامتنعنّ .

إشارة إلى أن امتناعهنّ لم يكن لعزة وعظمة أجساد ولا استكبار عن الطاعة له ، وأنّه لو كان كذلك لكانت أولى بالمخالفة عن كل شيء لأعظمية أجرامها عن كل المخلوقات. بل إنما ذلك عن ضعف وإشفاق من خشية الله ، وعقلن ما جهل الإنسان . قيل : إن الله تعالى عند خطابها خلق فيها فهماً وعقلاً ، وقيل : إن إطلاق العقل مجاز في مسببه وهو الامتناع عن قبول هذه الأمانة كلفظ الإشفاق فإن عقلية المكلّف العقوبة على التقصير في تكليف يخيّر فيه، ويخاف التقصير يستلزم تركه لذلك التكليف واستقالته منه ، وإذا لم يكن لها عقل من جهة ما هي أجرام أُطلق لفظ العقل على لازمه وثمرته وهو الامتناع والإباء مجازاً إطلاقاً لاسم السبب على المسبب كاطلاق لفظ الإرادة على ميل الحائط في قوله تعالى : ﴿ جداراً يريد أن ينقض ﴾[1] وأقول : يحتمل أن يعود الضمير في أشفقنَ وعقلنَ إلى من يعقل من الملائكة السماوية . إذ لكل جرم سماوي ملك يدبره هو كالبدن له لإمكان ذلك فيها دون سائر الأجرام الأرضية ، وما جهله الإنسان هو عظمة الله، وغاية هذه الأمانة ، وتقصيره في أداء واجباتها المستلزم لعقوبته واستحقاق سخط الله ، وكونه ظلوماً : أي كثير الظلم لنفسه لعدم محافظته على هذه الأمانة ، وكونه جهولاً : أي كثير الجهل بأسرار هذه الأمانة والغفلة عما يستلزمه فعلها وتركها وعن الوعيدات الواردة على التقصير فيها .

---

(١) ١٨ - ٧٦ .

وقوله : إن الله لا يخفى عليه . إلى آخره .

تنبيه لهذا الظلوم الجهول على إحاطة علم الله تعالى بجميع أحواله واكتساباته في ليله ونهاره وأنه لطيف الخبر والمعرفة بها ينفذ علمه في البواطن كما يقع على الظواهر .

وقوله : أعضاؤكم شهوده .

أي شهود له عليكم من قوله تعالى : ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون** ﴾(١)، وجوارحكم جنوده، وذلك باعتبار كونها معينة عليهم ، وضمائركم عيونه : أي طلائعه وجواسيسه كقوله تعالى : ﴿ **وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين** ﴾(٢)، وتلك الشهادة والإعانة بلسان الحال وقد عرفت كيفية إنطاق الجوارح وشهادة النفوس على أنفسها ، وكنّى بالخلوات عما يفعل فيها من معاصي الله مجازاً ، وإنّما خصصها لأنها مظنّة المعصية ، ويحتمل أن يريد بالخلوة مصدر قولك : خلوت خلواً . لا المكان . فيكون حقيقة وظاهراً كونها عياناً لله : أي معاينة له ، وكل ذلك تحذير وتنفير عن تحريك الجوارح والخلوة بها فيما لا ينبغي من المعاصي . وبالله التوفيق والعصمة .

١٩١ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

وَاللهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي ، وَلٰكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ ، وَلَوْلَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ ، وَلٰكِنْ كُلُّ غَدْرَةٍ فَجْرَةٌ ، وَلِكُلِّ فَجْرَةٍ كَفْرَةٌ، وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاللهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ ، وَلَا أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ .

أقول : الدهاء : استعمال العقل والرأي الجيد فيما يراد فعله مما لا ينبغي مع إظهار إرادة غيره . ويسمى صاحبه داهياً ، وداهية للمبالغة ، وخبيثاً ومكاراً وحيّالاً . وهو داخل تحت رذيلة الجربزة وهي طرف الإفراط من فضيلة

---

(١) ٢٤ ـ ٢٤ .

(٢) ٧ ـ ٣٥ .

الحكمة العملية ويستلزم رذائل كثيرة كالكذب . والغدر : هو الرذيلة المقابلة لفضيلة الوفاء بالعهود التي هي ملكة تحت العفّة . والفجور : المقابل لفضيلة العفة .

فقوله عليه السلام : ما معاوية بأدهى مني .

أي ليس بأقدر مني على فعل الدهاء، وأكد ذلك بالقسم البار .

وقوله : ولكنه يغدر ويفجر .

إشارة إلى لوازم الدهاء التي لأجلها تركه وهو الغدر ، وبواسطته الفجور. فإن الوفاء لما كان نوعاً تحت العفة كان الغدر الذي هو رذيلته نوعاً تحت ما يقابل العفة، وهو الفجور ولذلك نفى الدهاء عن نفسه لكراهيته للغدر ، ونفيه له عن نفسه. لأن نفي اللازم مستلزم لنفي الملزوم .

ثم جعل الغدر أوسط في إثبات الفجور لمعاوية بقياس ضمير من الشكل الأول فقوله : ولكنه يغدر . في قوة صغرى القياس ، وقوله : ويفجر . في قوة النتيجة فكأنه قال : ولكنه يغدر فهو يفجر ، ونبّه على الكبرى بقوله : وكل غدرة فجرة . فصار الترتيب هكذا : ولكنه يغدر وكل من يغدر يفجر والنتيجة فهو إذن يفجر .

ثم نبّه على لزوم الكفر له بقياس آخر من الشكل الأول نبّه على صغراه بقوله : وكل غدرة فجرة ، وعلى كبراه بقوله : وكل فجرة كفرة ، وإذ ثبت في القياس الأول أنه فاجر واستلزم قوله : وكل فجرة كفرة أن كل فاجر كافر ثبت بهاتين المقدّمتين أنه كافر .

وروي : غدرة ، وفجرة ، وكفرة . وهو كثير الغدر والفجور والكفر وذلك أصرح في إثبات المطلوب ، قال بعض الشارحين : ووجه لزوم الكفر أن هنا الغادر على وجه استباحة ذلك واستحلاله كما كان هو المشهور من حال عمرو بن العاص ومعاوية في استباحة ما علم تحريمه بالضرورة من دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم وجحده وهو معنى الكفر ، ويحتمل أنه يريد كفر نعم الله وسترها بإظهار معصيته كما هو المفهوم اللغوي من لفظ الكفر .

وإنّما وحد الكفر ليتعدد الكفر بحسب تعدد الغدر فيكون أدعى إلى النفار عن الغدر . إذ هو في معرض التنفير عنه .

وقوله : ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة .

لفظ الخبر النبوي ، وفيه تنفير عن رذيلة الغدر .

وقوله : والله ما استغفل بالمكيدة .

تقرير وتأكيد لما ذكره من معرفته بوجوه الآراء وكيفية الدهاء للداهي فإن من يكون كذلك لا يلحقه غفلة عما يعمل عليه من الحيلة والمكيدة .

وقوله : ولا أُستغمز . بالزاء المعجمة .

أي لا يطلب غمزي وإضعافي فإني لا أضعف عما أُرمى به من الشدائد ، وروي بالراء أي لا أُستجهل بشدائد المكائد . وهذا القول صدر منه عليه السلام كالجواب لما كان يسمعه من أقوال الجاهلين بحاله ونسبتهم له إلى قلة التدبير وسوء الرأي ونسبة معاوية إلى استخراج وجوه المصالح والآراء الصحيحة في الحرب وغيرها .

واعلم أن الجواب عن هذا الخيال يستدعي فهم حاله عليه السلام وحال معاوية وغيره ممن ينسب إلى جودة الرأي ، وبيان التفاوت بينهم وبينه وذلك راجع إلى حرف واحد وهو أنه عليه السلام كان ملازماً في جميع حركاته قوانين الشريعة مدفوعاً إلى اتباعها، ورفض ما العادة أن يستعمل في الحروب . فالتدابير من الدهاء والخبث والمكر والحيلة والاجتهادات في النصوص وتخصيص عموماتها بالآراء وغير ذلك مما لم ترخص فيه الشريعة ، وكان غيره يعتمد جميع ذلك سواء وافق الشريعة أو لم يوافق. فكانت وجوه الحيل والتدبير عليهم أوسع ، وكان مجالها عليه أضيق . ونقل عن أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في هذا المعنى كلام طويل خلاصته أن قال : إني ربما رأيت بعض من يظنّ بنفسه العقل والعلم، وأنه من الخاصة وهو من العامة ، ويزعم أن معاوية كان أبعد غوراً وأصح فكراً وأجود مسلكاً من علي وليس الأمر كذلك وسأومىء إلى موضع غلطه ، وذلك أن علياً عليه السلام كان لا يستعمل في حروبه إلّا ما يوافق الكتاب والسنّة .

وكان معاوية يستعمل ما يخالفهما كاستعماله ما يوافقهما ويسير في الحرب بسيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى ، وكان علي يقول لأصحابه : لا تبدؤوهم بالقتال حتى يبدؤوكم ولا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تفتحوا باباً مغلقاً . هذه سيرته في ذي الكلاع وفي أبي الأعور السلمي وفي عمرو بن العاص وفي حبيب بن مسلمة وفي جميع الرؤساء كسيرته في الحاشية والأتباع ، وأصحاب الحروب إنما يقصدون الوجه الذي به هلاك الخصم وينتظرون وجه الفرصة سواء كان مخالفاً للشريعة كالحريق والغريق ودفق السموم والتضريب بين الناس بالكذب وإلقاء الكتب في العسكر أو موافقاً لها فمن اقتصر في التدبير على الكتاب والسنّة فقد منع نفسه الطويل العريض من التدبير، وما لا يتناهى من المكائد ، والصدق والكذب أكثر من الصدق وحده والحلال والحرام أكثر من الحلال وحده فعلي كان ملجماً بلجام الورع عن جميع القول. إلّا ما فيه لله رضى ، وممنوع اليدين من كل بطش إلّا بما دلّ عليه الكتاب والسنّة دون أصحاب الدهاء والمكر والمكائد فلما رأت العوام نوادر معاوية في المكائد وكثرة معايبه في الخديعة، وما تهيأ له ولم يروا مثل ذلك من علي ظنوا القصور فظنهم أن ذلك من رجحان عند معاوية ونقصان في علي . ثم انظر بعد ذلك كله هل يعد لمعاوية من الخداع أكبر من رفع المصاحف ، ثم انظر هل خدع بها إلّا من عصى رأي عليّ وخالف أمره من أصحابه فإنْ زعمت أنه قد نال ما أراد بخداعه من الاختلاف على علي . فقد صدقت ولكن ليس ذلك محل النزاع ولم يختلف في غرارة أصحاب علي وعجلتهم وتسرعهم وتنازعهم ، وإنّما كانت البحث في التميز بينه وبين معاوية في الدهاء والمكر وصحة العقل والرأي . فهذه خلاصة كلامه ، ومن تأمله بعين الإنصاف علم صحته وصدقه ، ومن هذا يتبيّن لك الجواب عن كل ما نسب إليه من التقصير في خلافته كعدم إقراره لمعاوية على الولاية في أول خلافته ثم يعزله بعد ذلك لما يستلزم تقريره من الظلم ، وكشبهة التحكيم ، وكنسبتهم له إلى التوحش لبعض أصحابه حتى فارقوه إلى معاوية كأخيه عقيل وشاعره النجاشي ومصقلة بن هبيرة ، وكتركه لطلحة والزبير حتى فارقاه وخرجا إلى مكة وأذن لهما في العمرة ، وذهب عنه الرأي

في ارتباطهما عنده ومنعه لهما من البعد عنه ، وأمثال ذلك فإنّ الإنصاف عند اعتبار حاله في جميع ما نسب إليه يقتضي موافقته للشريعة وعدم خروجه عنها . وتفصيل الأجوبة عن ذلك مما يخرج عن الغرض ، وبالله التوفيق .

١٩٢ ـ ومن كلام له (عليه السلام)

أَيُّهَا النَّاسُ : لاَ تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِهِ ، فإنَّ النَّاسَ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدَةٍ شِبَعُهَا قَصِيرٌ ، وَجُوعُهَا طَوِيلٌ !!

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَا وَالسُّخْطُ ، وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللهِ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَا ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ **فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ** ﴾ فَمَا كَانَ إلاَّ أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ ، خُوَارَ السِّكَّةِ الْمُحْمَاةِ فِي الأَرْضِ الْخَوَّارَةِ .

أَيُّهَا النَّاسُ : مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ وَرَدَ الْمَاءَ ، وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي التِّيهِ .

أقول : السكة : الحديدة تكون في رأس خشبة الفدان تثار بها الأرض . وخوارها : صوتها في الأرض . والأرض الخوّارة : الضعيفة .

وحاصل الفصل ترغيب أصحابه السالكين لطريق الهدى في البقاء على ما هم عليه بذكر كونه طريق الهدى ، ومن العادة أن يستوحش الناس من الوحدة وقلّة الرفيق في الطريق الطويل الصعب فنهى عن الاستيحاش في تلك الطريق ، وكنّى به عما عساه يعرض لبعضهم من الوسوسة بأنهم ليسوا على حق لقلّتهم وكثرة مخالفيهم . لأن قلّة العدد في الطريق مظنة الهلاك والسلامة مع الكثرة ، ونحو ذلك فنبّههم على أنهم في طريق الهدى وإن كانوا قليلين .

وقوله : فإنّ الناس اجتمعوا . إلى قوله : طويل .

تنبيه على علّة قلة أهل الهدى وهو اجتماع الناس على الدنيا ، واستعار لها لفظ المائدة ملاحظة لشبهها بها في كونها مجتمع اللذات ، وكنّى

عن قصر مدتها بقصر شبعها ، وعن استعقاب الانهماك فيها للعذاب الطويل في الآخرة بطول جوعها ، ولفظ الجوع مستعار للحاجة الطويلة بعد الموت إلى المطاعم الحقيقية الباقية من الكمالات النفسانية الفانية بسبب الغفلة في الدنيا فلذلك نسب الجوع إليها ، ويحتمل أن يكون مستعاراً لما تتلهف عليه النفس وتتأسف بعد المفارقة من اللذات الدنيوية التي لا تحصل عليها بعد الموت أبداً فيطول جوعها منها ، وراعى المقابلة فالجوع بإزاء الشبع والطول بإزاء القصر .

وقوله : أيها الناس . إلى قوله : السخط .

أي إنما يجمع الناس في عذاب الله رضاهم بالمنكرات ومعاصي الله وإن لم يباشرها أكثرهم وسخطهم لمحابه من الأعمال ، ومصداق ذلك قصة ثمود في عموم العذاب لهم بفعل عاقر الناقة. فإنهم بأسرهم ما فعلوا ذلك مع نسبة الفعل إلى جميعهم كما قال تعالى : ﴿ **فعقروها** ﴾ الآية. وعمتهم العقوبة لما عمّوه بالرضى ، والضمير في عمّوه يعود إلى الرجل أو إلى العقر الذي دلّ عليه قوله : عقر : أي لما عمّوا فعله برضاهم به ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾(١) وظاهر أن الراضي بفعل شريك فاعله وفي قوته ، وكذلك إنما يجمع الله الناس في رحمته باجتماعهم على الرضا بمحابه والسخط لمكارهه .

فقوله : فما كان إلّا أن خارت أرضهم . إلى قوله : الخوّارة .

تفسير للعذاب اللاحق لهم المشار إليه بقوله : فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب ، وقد فسّره القرآن الكريم أيضاً في قوله : ﴿ **فأخذتهم الرجفة** ﴾(٢) فبيّن عليه السلام كيفية ذلك وشبّه صوت أرضهم في خسوفها، وذهابها في الأرض بصوت السكة المحماة في الأرض عند الحرث بها ، وإنّما زادها صفة المحماة تنبيهاً على قوة تصويتها وسرعة غوصها لأن المحماة يكون لها في الأرض نشيش زائد على ما تقتضيه حركتها ويعينها الحمى على النفوذ .

---

(١) ٨ ـ ٢٥ .
(٢) ٢٩ ـ ٣٦ .

فأما قصة ثمود فالمنقول أنهم خلف عاد في الأرض بعد هلاكهم عنها فكثروا وعمّروا أعماراً طويلة حتى كان الرجل يبني المسكن المحكم فينهدم في حياته فنحتوا البيوت في الجبال، وكانوا في سعة ورخاء من العيش فعتوا عن أمر الله وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأوثان . فبعث الله إليهم صالحاً وكانوا قوماً عرباً وصالح من أوسطهم نسباً فدعاهم إلى الله فلم يتبعه إلاّ قليل منهم مستضعفون فحذّرهم وأنذرهم فسألوه آية فقال : أية آية تريدون؟ فقالوا : تخرج معنا إلى عيدنا في يوم معلوم من السنة تدعو إلّهك وندعو آلهتنا فإن استجيب لك اتّبعناك وإن استجيب لنا اتبعتنا. فقال : نعم . فخرج معهم ودعوا أربابهم وسألوها فلم تجب .

فقال كبيرهم وأشار إلى صخرة مفردة في ناحية الجبل يسمونها الكاثبة : أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة جوفاء وبراء. فإن فعلت صدّقناك وأجبناك . فأخذ عليهم المواثيق بذلك . ثم صلّى ودعا ربه فتمخّضت الصخرة كما تمخض النتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما يطلبون ، وعظماؤهم ينظرون . ثم نتجت ولداً مثلها في العظم . فآمن به رئيسهم ونفر من قومه ومنع أعقابهم ناس من رؤسائهم أن يؤمنوا . فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء، وكانت ترد غباً فإذا كان يوم شربها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتى تشرب كل ماء فيها . ثم تفجّج فيحلبون ما شاؤوا حتى تمتلي أوانيهم فيشربون ويدّخرون . فإذا وقع الحر تصيّفت بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم فتهبط إلى بطنه ، وإذا وقع البرد تشتت ببطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره فشق ذلك عليهم ، وزيّنت لهم عقرها امرأتان : عنيزة أمّ غنم وصدقة بنت المختار كانتا كثيرتي المواشي لما أضرت بمواشيهما . فعقرها قدار الأحمر واقتسموا لحمها وطبخوه فانطلق سقبها حتى رقى جبلاً يقال له غارة فرغا ثلاثاً ، وكان صالح قال لهم : أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه وانفجّت الصخرة بعد رغائه فدخلها فقال لهم صالح : تصبحون غداً ووجوهكم مصفرة وبعد غد وهي محمّرة واليوم الثالث وهي مسودة .

ثم يغشاكم العذاب فلما رأوا العلامات همّوا بقتله فأنجاه الله

إلى أرض فلسطين. فلما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى
تحنطوا بالصبر وتكفّنوا بالأنطاع فأتتهم الصيحة
وخسف شديد وزلزال فتقطعت قلوبهم
فهلكوا. وبالله العصمة والتوفيق
هذا آخر المجلد الثالث
من هذا الكتاب

فهرست ما في هذا الجزء من الخطب والمطالب

العنوان | الصفحة

العنوان	الصفحة

العنوان | **الصفحة**

العنوان	الصفحة

العنوان | الصفحة

العنوان	الصفحة

العنوان	الصفحة

* * *



